نظريات علم الاجتماع

تصنيفاتها، اتجاهاتها، وبعض نماذجها التطبيقية من النظرية الوضعية إلى ما بعد الحداثة

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز بن علي الغريب
أستاذ علم الاجتماع



دار الزهراء - الرياض
ت: ٤٦٤١١٤٤
ف: ٤٦٥٩٥٣٧

نظريات علم الاجتماع

تصنيفاتها، اتجاهاتها، وبعض نماذجها التطبيقية من النظرية الوضعية إلى ما بعد الحداثة

أستاذ دكتور
عبد العزيز بن علي الغريب
أستاذ علم الاجتماع

دار الزهراء - الرياض
ت: ٤٦٤١١٤٤
ف: ٤٦٥٩٥٣٧

ⓒ دار الزهراء للنشر والتوزيع ، ١٤٣٢ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغريب ، عبد العزيز علي
نظريات علم الاجتماع ./ عبد العزيز علي الغريب .- الرياض ١٤٣٢ هـ.
٦٤٨ ص ، ١٧×٢٤ سم ، ط ٢
ردمك : ٦ - ٠٤ - ٨٠٨٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- علم الاجتماع - نظريات أ. العنوان
ديوي ٣٠١،٠١ ١٤٣٢/٣٥٣٩

رقم الإيداع : ١٤٣٢/٣٥٣٩
ردمك : ٦ - ٠٤ - ٨٠٨٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨





القصيم - بريدة : طريق الملك عبد العزيز ت : ٣٨٥٠٠٤٣ - ف : ٣٨٥٠١٣١
القاهرة - ١٣٤ شارع ممدوح سالم خلف أرض المعارض / تليفكس ٢٤٠٤٦٣٢٩
E-mail: dar_alzhraa@hotmail.com / ozahraa@hotmail.com
Buraydh: ozahraa2@hotmail.com Cairo: ozahraa3@hotmail.com
www. daralzahraa.com.sa

مقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. فلقد صدرت الطبعة الأولى من كتاب - نظريات علم الاجتماع- عام ٢٠٠٨م . وقد حظيت الطبعة بإقبال كبير من الطلاب والطالبات في مرحلتي البكالريوس والدراسات العليا. كما حظيت بانطباع إيجابي لدى الزملاء أعضاءَ هيئة التدريس بأقسام الاجتماع في الجامعات السعودية. بل دون كثيراً منهم ملحوظات هامة يرون من المهم الأخذ بها عند طباعته طبعة ثانية.

وبالفعل قمت بجمع تلك الملحوظات وأعدت طباعة الكتاب بما يتوافق معها. فقد سجل الزملاء ملحوظات حول بعض الأخطاء اللغوية. وملحوظات تتعلق بعدم إعطاء بعض علماء النظرية الاجتماعية حقهم من العرض والتحليل لأعمالهم العلمية. وهناك ملحوظات سجلت على النقص في عرض النظريات الاجتماعية الحديثة. كما عاب البعض على الكتاب عدم التوازن في عرض المدارس العلمية للنظرية الإجتماعية. هناك اسهاب في بعضها ونقص في الأخرى.

وحقيقة الأمر فقد استفدت كثيراً من الملحوظات. والتي جعلتني أعيد كتابة بعض الفصول وأضيف عليها. أو أختصر في الفصول الأخرى. وهكذا تمت المراجعة الكاملة للعمل ليخرج بهذه الصورة. حيث تم حذف أو دمج فصول قديمة، وكذلك إضافة فصول جديدة خاصة ما يتعلق بالنظريات الحديثة في النظرية الاجتماعية في علم الاجتماع، ونظريات ما بعد الحداثة.

ولعلي أؤكد على ما طرحته في مقدمة الطبعة الأولى من أن النظريات الاجتماعية على المستوى التعليمي تهدف إلى إعطاء دارسها عرضاً لأهم الاتجاهات والمدارس النظرية في علم الاجتماع باعتبارها الأداة الرئيسة في تكوينه كباحث اجتماعي متخصص في هذا العلم. وعادة ما تبدأ العملية التعليمية لمقررات النظريات الاجتماعية للمستويات التعليمية الجامعية بعرض سريع لنظريات المؤسسين لعلم الاجتماع من المفكرين والمنظرين، الذين يعتبرون رواداً في تأسيس النظريات والاتجاهات والمدارس الحديثة. ثم يتعلم الدارس تحديد مفهوم النظرية الاجتماعية وطبيعتها وبنائها، والدراسة العلمية لها، وأسس تقييمها. ثم يركز المقرر على دراسة الاتجاهات الحديثة كالاتجاه

ح دار الزهراء للنشر والتوزيع ، ١٤٣٢ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغريب ، عبد العزيز علي
نظريات علم الاجتماع ./ عبد العزيز علي الغريب .- الرياض ١٤٣٢ هـ.
٦٤٨ ص ، ١٧×٢٤ سم ، ط ٢
ردمك : ٦ - ٠٤ - ٨٠٨٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- علم الاجتماع - نظريات أ. العنوان
ديوي ٣٠١,٠١ ١٤٣٢/٣٥٣٩

رقم الإيداع : ١٤٣٢/٣٥٣٩
ردمك : ٦ - ٠٤ - ٨٠٨٧ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ/٢٠١٢م



الرياض - العليا : بين شارعي العليا والضباب ت : ٤٦٤١١٤٤/٦ - ف : ٤٦٥٩٥٣٧
القصيم - بريدة : طريق الملك عبد العزيز ت : ٣٨٥٠٠٤٣ - ف : ٣٨٥٠١٣١
القاهرة - ١٣٤ شارع ممدوح سالم خلف أرض المعارض / تليفكس ٢٤٠٤٦٣٢٩
E-mail: dar_alzhraa@hotmail.com / ozahraa@hotmail.com
Buraydh: ozahraa2@hotmail.com Cairo: ozahraa3@hotmail.com
www.daralzahraa.com.sa

مقدمة :

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. فلقد صدرت الطبعة الأولى من كتاب - نظريات علم الاجتماع- عام ٢٠٠٨م . وقد حظيت الطبعة بإقبال كبير من الطلاب والطالبات في مرحلتي البكالريوس والدراسات العليا. كما حظيت بانطباع إيجابي لدى الزملاء أعضاء هيئة التدريس بأقسام الاجتماع في الجامعات السعودية. بل دون كثيراً منهم ملحوظات هامة يرون من المهم الأخذ بها عند طباعته طبعة ثانية.

وبالفعل قمت بجمع تلك الملحوظات وأعدت طباعة الكتاب بما يتوافق معها. فقد سجل الزملاء ملحوظات حول بعض الأخطاء اللغوية. وملحوظات تتعلق بعدم إعطاء بعض علماء النظرية الاجتماعية حقهم من العرض والتحليل لأعمالهم العلمية. وهناك ملحوظات سجلت على النقص في عرض النظريات الاجتماعية الحديثة. كما عاب البعض على الكتاب عدم التوازن في عرض المدارس العلمية للنظرية الإجتماعية. هناك اسهاب في بعضها ونقص في الأخرى.

وحقيقة الأمر فقد استفدت كثيراً من الملحوظات. والتي جعلتني أعيد كتابة بعض الفصول وأضيف عليها. أو أختصر في الفصول الأخرى. وهكذا تمت المراجعة الكاملة للعمل ليخرج بهذه الصورة. حيث تم حذف أو دمج فصول قديمة، وكذلك إضافة فصول جديدة خاصة ما يتعلق بالنظريات الحديثة في النظرية الاجتماعية في علم الاجتماع، ونظريات ما بعد الحداثة.

ولعلي أؤكد على ما طرحته في مقدمة الطبعة الأولى من أن النظريات الاجتماعية على المستوى التعليمي تهدف إلى إعطاء دارسها عرضاً لأهم الاتجاهات والمدارس النظرية في علم الاجتماع باعتبارها الأداة الرئيسة في تكوينه كباحث اجتماعي متخصص في هذا العلم. وعادة ما تبدأ العملية التعليمية لمقررات النظريات الاجتماعية للمستويات التعليمية الجامعية بعرض سريع لنظريات المؤسسين لعلم الاجتماع من المفكرين والمنظرين، الذين يعتبرون رواداً في تأسيس النظريات والاتجاهات والمدارس الحديثة. ثم يتعلم الدارس تحديد مفهوم النظرية الاجتماعية وطبيعتها وبنائها، والدراسة العلمية لها، وأسس تقييمها. ثم يركز المقرر على دراسة الاتجاهات الحديثة كالاتجاه

البنائي الوظيفي، ومدرسة الصراع الاجتماعي، والنظرية التفاعلية الرمزية، والنظرية التبادلية الاجتماعية. بحيث يكون الدارس في هذه المرحلة ملماً بالبناء النظري والتفسيري للنظريات الاجتماعية الأكثر شيوعاً وتأثيراً في أبحاث علم الاجتماع. والهدف من ذلك أن يستفيد الدارس من تلك النظريات في أبحاثه الصغيرة تبعاً للمرحلة التعليمية التي هو فيها. وكذلك ليكتسب مهارة التفسير والتحليل وربطها بالمنطلقات النظرية التي تعلمها. ومن ثم ينتقل الدارس عند التحاقه بالدراسات العليا إلى مراحل أخرى من النظريات وتوجهاتها الحديثة. بحيث يتعلم أهم الإضافات العلمية على النظريات الأساسية التي سبق أن تعلمها في المرحلة الجامعية الأولى. ثم يرتفع الجانب المعرفي لديه ليتلقى النظريات الاجتماعية الحديثة ونظريات ما بعد الحداثة. وفي كل هذا يحاول أن يربط النظرية بالواقع الاجتماعي المعايش وباستخدام المنطلقات النظرية في البحوث الاجتماعية العلمية.

وطبقاً لهذه الرؤية ومن خلال خبرة تدريسية لمقررات النظريات الاجتماعية في المراحل الجامعية المبكرة، أو في مرحلة الدراسات العليا؛ كانت المشكلة الرئيسة كيف يتم تكوين مرجع علمي يعرض لكل تلك النظريات بأسلوب مبسط يتناسب مع الدارسين في كل مرحلة. وفي الوقت نفسه يلم بالتطورات التي تأتي على النظريات الاجتماعية. وفي ضوء ما اكتسبته من خبرة في تدريس تلك المقررات، والتي قررت فيها على الطلاب كثيراً من كتب النظريات، ومن خلال مناقشات متعددة مع الدارسين في قاعات الصف وسماع آرائهم وأفكارهم وما خرجت به من قراءة ما لا يقل عن سبعين مرجعاً باللغة العربية تخصصت في النظريات الاجتماعية. فقد خرجت بانطباع - وقد أكون مخطئاً- أن هناك بعض الكتب إما تكون ترجمة حرفية لكتب أجنبية، أو كتب قديمة فات زمنها، أو كتب فيها توسع كبير يجعل الدارس في تداخل مستمر بين أفكار العلماء وأطروحاتهم.

لذلك عقدت العزم - بعد توفيق الله عز وجل- للقيام بقراءة متعمقة لكثير من الكتب المتخصصة في النظريات الاجتماعية وخصوصاً المنشور منها باللغة العربية. قرأتها بعقل الدارس في المرحلة الجامعية، ومرحلة الدراسات العليا. ولم أقرأها بعين أستاذ المقرر. قرأتها وعدت بنفسي سنوات طويلة سابقة كنت فيها مثل هؤلاء الدراسين أتلقى معلوماتي الأولية في النظريات الاجتماعية من أساتذة لهم الدعاء الصادق بطول العمر إن

كانوا على قيد الحياة، والرحمة والمغفرة إن كانوا أمواتاً. وقمت بإعداد هذا الكتاب كمرجع دراسي لطلاب أقسام الاجتماع في المرحلة الجامعية ومرحلة الدراسات العليا. لذلك من المهم أن ينظر له كمرجع دراسي وليس جهداً نقدياً أو تقويمياً لتلك المدارس والنظريات. فمثل هذا جهد يخرج عن قدرتنا ونخشى من الولوج إليه في هذه المرحلة التعليمية. كما أنه في ظل التطورات المستمرة في العلم يصعب على جهد واحد تناولها بالنقد والتحليل. كما أننا لا ندعي قيامنا بمسح شامل للتراث النظري للسوسولوجيا قديمها وحديثها، أو لكل النظريات والمدارس والمذاهب. فهو كذلك يمثل مشروعاً أعتقد أنه يجب أن تقوم بها الأقسام الأكاديمية من خلال فرق عمل متمكنة، كجزء من واجباتها العلمية تجاه هذا العلم. خصوصاً إذا ما علمنا أن كثيرًا من الأطروحات لا ترى أن علم الاجتماع قد تحدد بعد، أو تكونت موضوعاته، وأن نظرياته قد استقرت. بل لا زالت النظريات والاتجاهات باستمرار تخرج بمن يجددها ويضيف لها تحقيقاً للتراكمية المعرفية. وهذا ما سيلاحظ جزءاً منه الدارس أو قارئ هذا الكتاب[1].

وكان الجهد المبذول هو الاختصار وإعادة الصياغة، من المراجع السابقة، وتوثيق بعض الشخصيات المهمة التي يسمع بها الدارس ولا يعرف عن تسلسل حياته وإسهاماته في النظرية الاجتماعية. أو بمعنى أدق محاولة المزج بين كتب الفكر الاجتماعي وتراثه، وبين الكتب المتخصصة في النظريات والاتجاهات العلمية لعلم الاجتماع. كما أضفت لبعضها بعض المفاهيم والمصطلحات بلغة سهلة التي صاغتها كتب الموسوعات والمعاجم المتخصصة في مفاهيم العلوم الاجتماعية ومصطلحاتها. لتتناسب مع الواقع في التدريس الجامعي. بحيث تتيح للدارس أخذ المعلومة الأساسية، وبالتالي من يرغب في الاستزادة يستطيع أن يرجع للمراجع الأصلية. وهنا نكون - كما أرى- أننا قد حققنا هدفين، وهما: تعليم الدارس للمعلومة الأساسية عن الفكرة التي جاءت بها نظرية ما، أو عالم ما، وتشجيعه على الرجوع للمراجع للاستزادة والتوسع فيها .

(1) انظر: الزعبي، أحمد (١٩٩١) . علم الاجتماع والبلدان الناسية. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

وكانت آلية العمل في إعداد الفصول الخاصة بالنظريات استعراض للنظرية في مرحلتها الكلاسيكية والتطورات التي حدثت لها. بحيث تتضمن كل نظرية علمائها المؤسسين أو الكلاسيكيين، وعلمائها المعاصرين وفي هذا تراتبية زمنية لنشأة النظرية وتطورها. وقد قسمت الكتاب إلى عشرة فصول، كل فصل اختص بنظرية معينة. مع مقدمة حول النظريات الاجتماعية. حيث جاء الفصل الأول كمدخل إلى النظرية الاجتماعية. وتضمن عدداً من الموضوعات وهي: النشأة الأكاديمية لعلم الاجتماع. أهمية النظرية في علم الاجتماع. تعريف النظرية، تعريف النظرية الاجتماعية. تصنيفات النظرية الاجتماعية. مدارس النظرية الاجتماعية. العلاقة بين النظرية والبحث العلمي. النظرية الاجتماعية والأيديولوجيا.

أما الفصل الثاني فقد تناول النظرية الوضعية وتضمن استعراضاً لأعمال رواد تأسيس علم الاجتماع وهم: سان سيمون، وأوجست كونت، وهربرت سبنسر.

وجاء الفصل الثالث وقد ناقشت فيه النظرية الوظيفية، والذي تضمن تشكل النظرية الوظيفية وتطورها، وأهم علمائها: أميل دوركايم، وراد كليف براون، وتالكوت بارسونز، وروبرت ميرتون.

أما الفصل الرابع فقد تناول النظرية الصراعية، حيث تناولت فيه مقدمة في نظرية الصراع. ثم أعمال كل من كارل ماركس، ورايت ميلز، ولويس كوزر، ورالف داهرندوف، والاتجاه الماركسي الجديد.

وجاء الفصل الخامس عن النظرية التفاعلية الرمزية. حيث تناول تطور النظرية التفاعلية الرمزية. وأهم علمائها، وهم، ماكس فيبر، وجورج ميد، وهربرت بلومر، وايفرينج جوفمان، وجارفينكل.

وجاء الفصل السادس عن النظرية التبادلية، تركيزاً على أهم منظريها: بيتر بلاو، وجورج هومنز، وريتشارد أميرسون.

أما الفصل السابع فقد تناول النظرية النقدية والذي تتضمن أهم أفكار النظرية النقدية. وأعمال أهم منظريها: هربرت ماركوز، وهوركهايمر، ويوجين هابرماس.

أما الفصل الثامن فقد تعرض لبعض الاتجاهات النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، تركيزاً على أعمال آلان تورين، وأعمال ريمون بودون، وانتوني غيدنز، والف شوتير، وألفرد جلولدنر، ولوسيان غولدمان.

أما الفصل التاسع فقد جاء عن نظرية رأس المال الاجتماعي وخاصة أعمال عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو.

أما الفصل العاشر فكان عن نظريات ما بعد الحداثة ممثلة بأعمال ليوتارد، وجاك دريدا، ميشيل فوكو، فردريك جيمبسون، فوكوياما، صمويل هينغتون، دانيال بيل.

ولا أدعي بعد إعداد تلك الفصول - وكما أشرت في الطبعة الأولى- أنني قد قمت بالتأليف، بل أنني قمت بالتحرير والنقل والتبويب والتوثيق وإعادة الكتابة لمن سبقني من المؤلفين والكتاب في هذا المجال. بما يتناسب مع ما أراه من واقع تعليمي في مجتمعنا على وجه الخصوص لمثل هذه المقررات الدراسية. وأسجل هنا شكري وتقديري لكل من قدم لي الدعم والمساندة وعلى وجه الخصوص من طلابي الأعزاء في مرحلة الماجستير والدكتوراه، وأخصهم جميعاً بالشكر والتقدير. كما أشكر العديد من الزملاء أعضاء وعضوات هيئة التدريس بأقسام علم الاجتماع بالجامعات السعودية ممن منحوني جزءا من وقتهم بتزويدي بملحوظاتهم وآرائهم حول الطبعة الأولى للكتاب.

وأسأل الله العلي القدير أن ينتفع بهذا الكتاب أبنائي الطلاب والطالبات في صفوف علم الاجتماع، وأن يفيدوا منه. مع أملي أن أكون قد وفقت في الموضوعية العلمية ونسبت كل ما نقلته لأهله ممن سبقني في إعداد مثل هذا الكتاب، وأكون قد أضفت شيئاً لهذا العلم. الذي أراه لم يأخذ حقه كما ينبغي في مجتمعاتنا العربية بشكل عام، وفي مجتمعنا السعودي على وجه الخصوص. ولله الحمد والشكر من قبل ومن بعد.

الأستاذ الدكتور / عبد العزيز بن على الغريب
الرياض في ١٤٣٢/٣/١هـ الموافق ٤/فبراير/2011م.

الفصل الأول
مدخل إلى النظرية الاجتماعية

- النشأة الأكاديمية لعلم الاجتماع.
- تعريف النظرية وأهميتها في علم الاجتماع.
- تعريف النظرية الاجتماعية.
- تصنيفات النظرية الاجتماعية.
- مدارس النظرية الاجتماعية.
- العلاقة بين النظرية والبحث العلمي.
- النظرية الاجتماعية والأيدولوجيا.

الفصل الأول
مدخل إلى النظرية الاجتماعية

النشأة الأكاديمية لعلم الاجتماع:

كانت النشأة المعرفية لعلم الاجتماع من قبل رواده وفلاسفته تعبر عن توجه لإنشاء علم جديد يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية وفق أسس علمية ومنهجيات بحثية متعددة يساير من خلالها العلوم الطبيعية. وتبلورت النظريات الاجتماعية المختلفة بعد دخول علم الاجتماع المجال الأكاديمي باعتباره قسماً علمياً يقدم منهجية علمية ومعرفة نظرية لها تراثها الفكري المنبثق من أفكار وأطروحات صاغها فلاسفة الفكر .

فعلم الاجتماع توجه أكاديمي جديد نسبيا بين العلومِ الاجتماعية الأخرى بما فيها علم الاقتصادِ، عِلْم السياسة، وعِلْم الإنسان، والتاريخ، وعلم النفْس. لكن الأفكار المؤسسة له، ذات تاريخ طويل. ويُمْكِنُ أَنْ نتتبّعَ أصولَها في خَلِيط المَعرِفَة الإنسَانيِّةِ والفلسفة المشتركة . وقد ظهر علم الاجتماع كما هو حالياً كصياغة علمية في أوائِل القرن التاسع عشرِ كرَدّ أكاديمي على تحدي الحداثةِ. فالعالم كَانَ يتحول إلى كل متكامل، ومترابط أكثر فأكثر، في حين أصبحت حياة الأفراد أكثر فردية وانعزالا. ويعد أوجست كونت ، أول من صاغ تعبير (Sociology) "علم اجتماع" في عام ١٨٣٨م من (Socius) التي تعني باللاتينية (رفيق، شريك) واللاحقة اليونانية Logia بمعنى (دراسة، خطاب). وقد سعى "أوجست كونت" إلى توحيد كل الدِراسات البشرية بما في ذلك التاريخِ وعِلْمِ النفْس والاقتصاد. وكان مخططه الاجتماعي الخاص مثاليا يعود إلى القرن التاسع عشرِ؛ حيث اعتقدَ أن كل أنماط الحياة الانسانية لجميع الشعوب في كل البقاع مَرّتْ من خلالِ نفس المراحلِ التاريخيةِ المُتميّزةِ وبهذا، إذا أمكن للشخصُ أَنْ يُدرِكَ مراحل هذا التطور، فيُمْكِنُ له أَنْ يَصفَ العلاجَ للأمراضِ الاجتماعية.

الكتاب الأول في علم الاجتماع حمل نفس الاسم وكُتب في منتصف القرن التاسع عشرِ من قِبل الفيلسوف الإنجليزي "هيربرت سبينسر". في الولايات المتّحدة،

وعُلّم هذا التخصص باسمه للمرة الأولى في جامعة كانساس، لورانس في ١٨٩٠م. تحت عنوانِ (فصل علم الاجتماع المستمرِ الأقدم في أمريكا فصلَ علم الاجتماع وقسم التاريخ وعلم الاجتماع أُسّسا في عام ١٨٩١م). أما القسم الجامعيِ المستقل الكامل الأول لعلم الاجتماع في الولايات المتّحدة أُسّسْ في عام ١٨٩٢م في جامعة شيكاغو مِن قِبل "ألبيون دبليو سمول" .

يعد قسم الاجتماع في جامعة شيكاغو والذي تأسس عام ١٨٩٢م أول قسم جامعي برئاسة " أليون سمول Aibion Smail " الذي كان متأثراً بالتقليد السوسيولوجي الألماني. وأصبح معقلاً لعلم الاجتماع في الولايات المتحدة لعدة سنوات. وقد طبع أول كتاب مدرسي عام ١٨٩٤م. وفي عام ١٨٩٥ أسست المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع AJS وهي المجلة التي تعد من المعالم البارزة لهذا العلم . كما أسهم في تأسيس الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ASS عام ١٩٠٥م. وقد ظهر الشكل التفسيري للسوسيولوجيا الأمريكية في جامعة شيكاغو (١٩١٨- ١٩٣٩م) والتي عرفت باسم مدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع Chicago School of Sociology . وقد أسهم روبرت بارك Robert Park (١٨٦٤- ١٩٤٤م)[1] عندما رأس القسم أن يجمع مجموعة لامعة من الخريجين لتكوين هذه المدرسة والتي جاء نتاجها مبكراً في كتاب " الفلاح البولندي في أمريكا وأوروبا" كأول دراسة أمبريقية. ثم أصدرت المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع عام ١٨٩٥م. وإنشاء الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع عام ١٩٠٥م. كذلك تأسس على يد هذه المدرسة أوسع وأكثر البرامج البحثية خصوبة في علم الاجتماع. ومن علماء هذه المدرسة " بارك وليم توماس ، تشارلز كولي، وجورج ميد، وبيرجس وشو وأوجبرن وهربرت بلومر" وغيرهم. والتي أسهمت في التنظير العلمي في مجالات شتى في علم الاجتماع وبالذات في مجال الانحراف والحضرية والتفاعلية الرمزية. وقد

---

[1] أصبح روبرت بارك (١٨٦٤-١٩٤٤م) من الشخيصات البارزة في مدرسة سكلغو بل من الشخصيات البارزة في علم الاجتماع ، وكان قد تلقى تعليمه في أوربا وأسهم في نقل أفكار العلماء الأوروربيين على علماء الاجتماع في شيكاغو. أسهم في تطوير وتوجيه الدارسين في برامج الدراسات العليا. أسهم مع " وارنست بيرجل" عام ١٩٢١م في نشر أول كتاب مدرسي باسم " مقدمة في علم الاجتماع". درس على كبار المنظرين من أمثال " جورج زيمل" و " جون ديوي" .

زادت من قوتها بعد بروز مدارس بحثية ونظرية منافسة والتي من أهمها مركز جامعة هارفارد بإشراف "تالكوت بارسونز"، ومركز جامعة كولومبيا بإشراف "روبرت ميرتون ولازار سفيلد"[1]. وقد تضاءلت أهمية مدرسة شيكاغو جراء انشغال علم الاجتماع بالنزعة العلمية والمناهج الدقيقة والاعتماد على التحليل الإحصائي. بينما ظلت مدرسة شيكاغو تركز على الدراسات الإثنوغرافية الوظيفية التي تهتم في الغالب بالاتجاهات الشخصية للفرد. وبالتالي أظهر عدد من غير المنتمين لهذه المدرسة امتعاضهم من سيطرة هذه المدرسة على الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ASS والمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع AJS. مما مهد لسيطرة كبيرة لمدرسة جامعة " هارفارد" والتي انطلقت منها قوة المدرسة الوظيفية وتأثيرها الكبير في علم الاجتماع. بقيادة " تالكوت بارسونز، بيتريم سوركين، جوج هومنز"

أما في الدول الأوربية. ففي عام ١٨٩٦م أسّسَ القسم الأوروبي الأول لعلم الاجتماع في جامعةِ بورديو في فرنسا مِن قِبل "أميل دوركهايم" الذي يعد مؤسس علم الاجتماع الأكاديمي. وفي ١٩١٩م أُسّس قسم علم اجتماع في ألمانيا في جامعة لودفيج ماكسيميليانز في ميونخ مِن قِبل "ماكس فيبر". وفي ١٩٢٠م في بولندا من قبل "فلوريان زنانيكي". أما أقسام علم الاجتماع الأولى في المملكة المتحدة فقد أسست بعد الحرب العالمية الثانية[2]. وقد بدأ تعاون "ماكس فيبر" الدولي في علم الاجتماع في ١٨٩٣م عندما

---

[1] انظر ترجمة لبعض الدراسات الخاصة بنشأة مدرسة شيكاغو ومدرسة هارفارد في كتاب: عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع. القاهرة: جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ص ٢٦٣-٢٨٦.

[2] دخل علم الاجتماع الوطن العربي منذ وقت مبكر، حيث صدر أول مؤلف باللغة العربية في علم الاجتماع عام ١٩٢٤م ألفه نقولا حداد، تحت عنوان - علم الاجتماع -. كما افتتح أول قسم لعلم الاجتماع بكلية الآداب بالجامعة المصرية عام ١٩٢٥م، ومن ثم افتتح قسم آخر لعلم الاجتماع في الجامعة الأمريكية في بيروت في لبنان في بداية الثلاثينات من القرن الماضي، ووصل عدد الأقسام العلمية لعلم الاجتماع في الوطن العربي أكثر من ١٤٠ قسماً ما بين قسم علمي ومركزاً للبحوث. وتشير بعض الآراء أنه لم تكن ولادة علم الاجتماع الحديث في العالم العربي والإسلامي، تلبية لحاجات معينة، ولكنه كان تقليداً للنظام الأكاديمي الغربي، لذلك لم يكن مستغرباً منه المحاكاة والتقليد للدراسات الغربية. وأن علم الاجتماع في الوطن العربي علم وافد فشكل هذا الأمر مشكلاً وبدأ=

تأسس معهد رينيه الصغير الدولي لعلم الاجتماع الذي ألحق بجمعية علم الاجتماع الدولية الكبيرة بدءا من ١٩٤٩م. وفي عام ١٩٠٥م أسست الجمعية الاجتماعية الأمريكية، والتي تعد الجمعية الأكبر في العالم من علماء الاجتماع المحترفين.[1] وقد

= التساؤل واضحاً، إذ كيف تدرس الظاهرة الاجتماعية بعلم مستورد من خلال المقررات التعليمية وما تحويه من نظريات غربية؟ مما برز أن الاعتماد المطلق على علم اجتماع لا يستمد من الواقع بل يستهدف دعم نظم لا تتفق مع مجتمعاتنا، وصدرت عن ظروف تختلف اختلافاً كاملاً عن ظروف مجتمعنا. حيث أن غالبية كتب علم الاجتماع في الوطن العربي تهدف إلى نقل وترويج النظريات المبتكرة في الغرب للطلاب في الجامعات العربية . لذلك هناك من علماء الاجتماع العرب من أكد على أن الجانب التعليمي في علم الاجتماع يحتاج إلى إعادة نظر وبخاصة في مناهج التعليم ذاتها، إذ أنه لا زال محصوراً في الصف، ولا بد أن يخرج إلى الجوانب التطبيقية المهمة المرتبطة بالمجتمع. وإعادة النظر في تطوير المقررات التعليمية لعلم الاجتماع في الوطن العربي. وأن التعليم في مرحلة الدراسة الجامعية والدراسات العليا في أقسام علم الاجتماع، لا يهتم بنوعية الطلاب، ولا ما يقدم لهم من برامج، وما يوفر لهم من فرص الإعداد والتنشئة، بسبب التركيز على كتاب مدرسي، لذلك ينهي الدارسون تعليمهم، وهم ناقصو الإعداد، غير فاهمين للواقع وعاجزون عن التعامل معه، وأن ذلك جزء رئيس من الأزمة الراهنة لعلم الاجتماع في الوطن العربي. كما أوضحت دراسات أن الطلبة الملتحقين بدراسات علم الاجتماع لديهم توقعات عريضة، يريدون تلمس قضايا المجتمع الراهنة، فيجدون أن المداولات، والنقاشات تنتمي إلى مجتمعات غربية أو شرقية، وهذا يسبب لهم الكثير من الإحباطات وخيبة الأمل. بل هناك من أشار صراحة إلى أن مناهج العلوم الاجتماعية تواجه عدد من الظواهر السلبية قد تظل عاجزة عن مسايرتها ابتداءًا من القرن الواحد والعشرين، ومنها ظاهرة التزايد السكاني المطرد، وصراع القيم واطراد المادية والنفعية، والتداعيات الاقتصادية والاجتماعية للتجمعات الاقتصادية العالمية، والتخلف التقني، وتنامي الجرائم المنظمة، وانتشار العصاب والأمراض النفسية، وتنامي البطالة، والتغيرات السياسية، وكل تلك الظواهر تحتاج إلى مسايرة في الخطط التعليمية لأقسام العلوم الاجتماعية بشكل عام، حتى تحقق القوة الاجتماعية المطلوبة بين العلوم والمهن الأخرى في المجتمع (انظر دراسة متخصصة: الغريب، عبد العزيز (٢٠٠٦). مناهج الإعداد المهني للباحث الاجتماعي في الجامعات السعودية. مجلة العلوم الأمنية، العدد (٤١)، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية).

[1] انظر: الزعبي، أحمد (١٩٩١). علم الاجتماع والبلدان النامية . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيـــع، ص ٥١- ١١٨. والذي تضمن عرض لماهية المناهج والمقررات =

حاول كل الرواد في هذا الميدان في هذه الفترة تأليف كتاب على الأقل يدعى تعريف علم الاجتماع كتخصص معرفي . ولعل آخر عمل فكري رئيس في تقاليد التأليف تلك، هو كتاب "بنية العمل الاجتماعي" The Stracture of Social Action. الذي كتبه "تالكوت بارسوز Talcott Parsons " في عام ١٩٣٧م[1].

وتتضمن قائمة العلماء النظريين "الكلاسيكيين" الآخرون لعِلْم الاجتماع مِنْ القرنينِ العشرون والتاسعة عشرة كلا من "كارل ماركس، فيردناند توينيز، أميل دوركهايم، باريتو، وماكس فيبر". أما في حالة "أوجست كونت"، كان جميع علماء الاجتماع هؤلاء لا يعتبرون أنفسهم "علماء اجتماع" فقط. بل كانت أعمالهم تناقش الأديان، التعليم، الاقتصاد، علم النفس، الأخلاق، الفلسفة، وعلم اللاهوت.

واعتبرت دراسات "كارل ماركس" المبكرة الاجتماعية حقلاً مشابهاً للعلوم الطبيعية مثل الفيزياء أو علم الأحياء. كنتيجة لذلك جادل العديد من الباحثين بأنّ الطريقة والمنهج اللذين استخدما في العلوم المتماسكة منهجياً تناسبان بشكل مثالي مع دراسات علم الاجتماع. وكان استخدام الطريقة العلمية وتشديد النزعة التجريبيةِ امتيازَ علم الاجتماع عن علم اللاهوت، والفلسفة، والميتافيزيقيا. هذا أدّى إلى علم اجتماع معترف به كعِلْم تجريبي. هذه النظرة الاجتماعية المبكّرة، مدعومة من قبل "أوجست كونت"، أدت إلى الفلسفة الواقعية المستندة على الطبيعية الاجتماعية.

على أية حال، بحلول القرن التاسع عشر وضعت الدراسات ذات التوجه الطبيعي لدراسة الحياة الاجتماعية موضع سؤال وشك من قبل العلماء مثل "ديلتي وريكيرت"، الذي جادل بأنّ العالم الطبيعيَ يَختلفُ عن العالِم الاجتماعي بينما يتميز المجتمع الإنساني بسمات فريدة مثل المعاني، الرموز، القواعد الأخلاقية، المعايير، والقيم. هذه العناصرِ في المجتمع تُؤدّي إلى نشوء الثقافات الإنسانية. وجهة النظر هذه كَانتْ قد طوّرتْ مِن قِبل "ماكس وفيبر"، الذي قدّمها ضِدّ الفلسفة الواقعيةَ (عِلْم

=الدراسية في تلك الأقسام الأكاديمية لعلم الاجتماع. والتي اتضح التباين فيما بينها مما انعكس على إشكالية تعريف علم الاجتماع، وتحديد موضوعه، وتعدد المدارس النظرية لهذا العلم.

[1] إيمانويل فالرشتاين (٢٠٠٨). تراث علم الاجتماع ووعد العلوم الاجتماعية. مجلة إضافات، العدد(٣)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت، ص ٩.

اجتماع إنساني). طبقاً لوجهةِ النظر هذه، التي تعتبر وثيقة الصلة بالبحث الاجتماعي ضد الطبيعية يجب أن تركّزَ الدراسات على البشرِ وقِيَمهم الثقافية. هذا أدّى إلى بعض الخلاف على مدى إمكانية وضع خط فاصل بين البحث الشخصي والموضوعي أثّر بالتالي على الدراسات التفسيريةِ للعلم[1] .

هذه المقدمة تعبر عن صياغة أولية لعلم الاجتماع من خلال دراسات وأطروحات علمية ذات منهجية واضحة المعالم للبحث الاجتماعي، الذي أسهم في تنامي النظريات الاجتماعية وتعدد مدارسها وتعدد أجيالها وطبقاتها. وبإمكاننا القول بأن هذه الجهود التأسيسية هي التي ولد من رحمها رجال الطبقة الأولى من رواد علم الاجتماع الحديث . ويمكننا إجمالاً الحديث عن خمس طبقات من علماء الاجتماع .

الطبقة الأولى:

هي التي تمثل أبرز العلماء والمفكرين الذين كان لهم قصب الريادة في تشكيل التيارات والاتجاهات النظرية ونحت المفاهيم والمفاتيح لهذا العلم ، بل وبلورة القضايا والأسئلة الكبرى التي لا بد من تناولها والاهتمام بها . وهناك اختلاف حول من يمكن أن يدرج ضمن علماء الطبقة الأولى ، لكن معظم علماء الاجتماع اليوم يجعلون "ماركس ودوركهايم وفيبر" في قوائمهم، قد يضيف البعض "باريتو ومارشال" وغيرهما، لكن الجميع يُسلم للعلماء الثلاثة الأوائل . والتي تأثرت بجهود المفكرين والفلاسفة من أمثال "هوبس ولوك وروسو وأجست كونت وسبنسر".

---

[1] راجع كتاب: لابساد، جورج، لورو، رينيه (١٩٨٦). مقدمات في علم الاجتماع. ترجمة هادي ربيع، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص ١١- ٢٢. لمعرفة المزيد حول التيارات الفكرية وماهية النشأة لعلم الاجتماع في المراحل التاريخية وما تلاه من نشوء مدارس فكرية وتنظير علمي. وكذلك كتاب: بوتو مور (١٩٨٥). علم الاجتماع : منظور اجتماعي نقدي. ترجمة عادل الهواري، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ص ٥٥- ٦٨. والذي تضمن إشكالات في تأسيس علم الاجتماع وواقعه كعلم أكاديمي.

رواد علم الاجتماع الأوائل

	إميل دور كهايم	ماكس فيبر	كارل ماركس
حياته	١٨٥٨-١٩١٧م	١٨٦٤-١٩٢٠م	١٨١٨-١٨٨٣م
التأهيل الأكاديمي	الفلسفة	القانون، الاقتصاد، التاريخ، الفلسفة	الفلسفة، القانون
المؤلفات الرئيسة	- تقسيم العمل -١٨٩٣م. - الانتحار- ١٨٩٣م. -الأشكال الأولية للحياة الدينية-١٩١٢م.	- الأخلاق البروستاتينية ١٩٠٤م. -الاقتصاد والمجتمع-١٩٢٢م.	-البيان الشيوعي ١٨٤٨م. -رأس المال- ١٨٦٧م

الطبقة الثانية:

هي التي عمقت وعززت من وجود علم الاجتماع في الجامعات وعملت على تأسيس الدراسات والبحوث العلمية فيها ، وبالذات في الجامعات الأمريكية ، ومن أبرز علماء هذه الطبقة "بارك" الذي أسس كرسي الدراسات الجامعية بجامعة شيكاغو . ولقد اهتم هو وفريقه العلمي بالدراسات الميدانية للمدنية، مشكلين توجهات محددة وعملية في الدراسات الاجتماعية التي كانت رائدة في ترسيخ نوعية معينة من الدراسات الأمريكية الاجتماعية في تراث هذا العلم، وحظيت الدراسات الحضرية فيها بحظ وافر. كذلك كانت إسهامات عالم النظرية التفاعلية الرمزية "جورج هربرت ميد" من نفس الجامعة في علم الاجتماع كبيرة ومؤثرة. وكانت لجهود العديد من الباحثين الأمريكيين في تعميق بعض المفاهيم لعلم الاجتماع في هذه المرحلة أثر عمّق مفهومات الدراسات الاجتماعية . وتعدّ أهمية الطبقة الثانية مبلورة في "إبداع" تيار علمي جذّر أكاديمياً مفهوم علم الاجتماع الحديث من ناحية، وولّد مجالات علمية شكلت التفسير الجديد لمعنى الحياة الاجتماعية الثقافية للمجتمع الحديث ، الذي تعد الدراسات الميدانية نافذة مهمة لتوجيه الحياة الاجتماعية من خلال إبراز جوانب من الحياة الحديثة. ولقد أكسب أبناء هذه الطبقة لعلم الاجتماع هويته العلمية ورواج أفكاره ومفاهيمه على مستوى المجتمع .

الطبقة الثالثة:

تتمثل في جيل سعى إلى إبراز المذاهب (المدارس) الاجتماعية المختلفة والتنظير لها بوصفها منظومات علمية تشكل حوصلة لجهود العديد من العلماء في إسهاماتهم الفردية، بل كان بعضهم الموجه والمنظر لتلك المذاهب العلمية. ومن أبرز هذه المذاهب المدرسة الوظيفية والتفاعلية الرمزية ومدرسة الصراع ونظرية الأنساق الاجتماعية والأثنوميدلوجيا والظواهرية وغيرها. ولقد سعى العلماء في هذه الطبقة إلى الارتفاع عن الريادة الفردية ، والعمل على تعزيز المذهب، أو المدرسة النظرية التي يرون أنها توجههم للبحث العلمي الاجتماعي وتحدد لهم الحدود العامة وتقدم لهم المصطلحات والمفتاح ومن ثم توجه الاهتمامات والقضايا والأسئلة التي يعالجها الباحث. وفي ظل هذه الطبقة ظهرت جهود علمية نقدية مهمة عملت على إظهار مكامن الخلل أو العلل في هذه المذاهب العلمية وذلك من أجل الخروج على النمطية والجمود الفكري الذي آل إليه العديد من علماء الاجتماع . ولقد أحدث هذا النقد تحولات جذرية وطالت مراجعاته أعمال جميع المذاهب العلمية بل حتى أقطار الرواد. ومن أهم علماء هذه الطبقة "تالكوت وبارسونز وميرتون ورايتس وفبلن" وغيرهم كثير.

الطبقة الرابعة:

ظهرت الطبقة الرابعة في أواخر الثمانينات الميلادية في القرن العشرين ، ولقد أحضرت معها اهتمامات جديدة ومن ثم قضايا وأطروحات جديدة ، لعل من أبرزها ما عرف بالدراسات النسوية وما بعد الحداثة وانتشار ما عرف بالدراسات الثقافية والتعددية الثقافية . ومجالات علم الاجتماع في هذه المرحلة انفتحت على منجزات النقد الأدبي والدراسات الأدبية عموما وعلى موجات الحركات الاجتماعية والإصلاحية. بالإضافة إلى بروز إشكاليات المجتمعات الصناعية الحديثة من منظور الأقليات والأفكار الجديدة في الاستهلاك والتنمية وأشكال التدين والحركات الأصولية وغيرها . وفي سياق هذه الطبقة أصبحت قضايا علم الاجتماع تهتم بالكثير من تفاصيل حياة المجتمعات الحديثة في نمط استهلاكها وأسلوب حياتها وفي العلاقات بين الذكور والإناث وفيما بين الأعراق والأثنيات من خلال زاوية تؤكد على قبول التنوع والاعتراف به ، وعلى مستوى الاقتصاد والتنمية أصبح الاهتمام يتمركز على الشركات عابرة الجنسيات

والدول . ومن أبرز علماء هذه الطبقة "غيدنز وهابرماس وبيرديو والآن تورين" وغيرهم .

الطبقة الخامسة:

أما الطبقة الخامسة وهي قيد الظهور في الوقت المعاصر فإنها تعمل على دراسة آثار العولمة وحوار أو صراع الحضارات وكيفية تأثير الإمبراطورية الأمريكية في حياة الأرض وسكانها. وفي هذه الطبقة أغلب الحديث عن العولمة والإرهاب والهيمنة الأحادية للسلطة والنفوذ الأمريكي ، ومن ثم ظهرت قضايا تتعلق بنهاية التاريخ والعولمة والإرهاب وصراع الحضارات . ومن أبرز علمائها "بيتر بيرغر وهينتغتون وفوكوياما" وغيرهم كثير [1].

[1] هذه التصنيفات لطبقات تأسيس علم الاجتماع وردت في محاضرة للأستاذ الدكتور أبو بكر باقادر (حاجة طالب العلم الشرعي للعلوم الاجتماعية)، غير منشورة. ولمعرفة التطور في الفكر الاجتماعي انظر: هاينز، موس (١٩٨١). الفكر الاجتماعي: نظرة تاريخية عالمية. ترجمة السيد الحسيني وجهينة العيسى، القاهرة: جامعة عين شمس.

التخصصات العلمية في علم الاجتماع المعاصر

التشيخ- علم الشيخوخة الاجتماعي	العجز- الكهولة	الهجرة والوفود	الممارسة الاجتماعية - السياسة الاجتماعية
الكحول- المخدرات	الاقتصاد والمجتمع	المهن	علم الاجتماع الأدبي
علم الاجتماع التطبيقي- البحوث التقييمة	التربية - التعليم	علم الاجتماع السياسي	علم اجتماع المعرفة -
علم الاجتماع البيولوجي	علم الاجتماع البيئي	الأعراق - السلالات.	علم الاجتماع اللغوي- علم اللغة الاجتماعي
السلوك الجمعي- الحركات الاجتماعية	تاريخ علم الاجتماع- الفكر الاجتماعي	الأقلية	علم اجتماع الأسواق
علم الاجتماع الريفي	الأيكولوجية البشرية	الدين	علم اجتماع الصحة العقلية
علم الاجتماع التاريخي المقارن	علم الاجتماع الصناعي	الجنس والنوع الاجتماعي	علم اجتماع العمل
العدالة الجنائية- صلاح المنحرفين.	القانون والمجتمع	الجماعات الصغيرة	التدرج الطبقي- الحراك الاجتماعي
علم الإجرام- الجناح	وقت الفراغ- الرياضة- الترويح	الضبط الاجتماعي	النظرية
علم الاجتماع الثقافي	الزواج والأسرة	الشبكة الاجتماعي	علم الاجتماع الحضري
علم السكان	الاتصال الجماهيري - الرأي العام	التنظيم الاجتماعي- الرسمي/ المركب	علم الاجتماع المرئي والبصري
التنمية - التغير الاجتماعي	علم الاجتماع الطي	علم النفس الاجتماعي	
السلوك الانحرافي- التفكك الاجتماعي	مناهج البحث- الأساليب الكمية والكيفية	التنشئة الاجتماعية	
الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع لعام ٢٠٠٠- في عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٤٤.			

تعريف النظرية وأهميتها في علم الاجتماع:

تعد النظرية وحدة أساسية في نسق التفكير العلمي، إذ لا وجود لعلم بغير نظريات علمية ولا يمكن أن يتطور بدون تنظيرات علمية. فالنظرية بمعناها العلمي مقولات ومفاهيم تكون في علاقة جدلية مع الواقع تتطور به ويتطور بها ويكون الواقع هو المحك العلمي لتأكيد مصداقيتها وعلميتها فهي "بناء تصوري يبنيه الفكر ليربط بين مبادئ ونتائج معينة". وفي ضوء ذلك نقول إنه ليست النظرية من كماليات البحث العلمي بقدر ما هي ضرورة ملحة للباحث الاجتماعي، لذا فالدعوة إلى التخلي عنها أو التقليل من أهميتها يجب مواجهتها بالرفض التام حتى لا يُحرَم الباحث من الأرضية الرئيسة لتأسيس علمه، إذ إنه بدون نظرية تمثل رصيداً لأي علم لا وجود لأي أساس للعلم . إذاً أهمية النظرية تكمن في أننا نقرأها لا لنفهمها ونطورها فحسب بل لأن النظرية تمثل نمطاً لبناء المعرفة العلمية وضرورة لكل ملاحظاتنا، إنها الشرط الضروري لانطلاق التفسير والتحليل حتى وإن كانت غير كافية حيناً لإحداث قطيعة تامة مع التفسيرات غير العلمية. فلماذا الاهتمام بالنظرية ؟

يرى العلماء أن التقدم العلمي لا يمكن أن يتم إلا إذا أُنجز على مستوى نظري. إلا أن المعرفة العلمية ليست مجرد تراكم للمعارف، ذلك أن صياغة النظريات العلمية وتصوراتها وتنظيماتها إنما تتحكم فيها مجموعة من الفرضيات والمفاهيم التي يسميها، توماس كوهين (Thomas Kuhn) في كتابه الشهير " بنية الثورات العلمية "، بـ " الشكل التحليلي " ؛ هذا المفهوم الذي لم تحظ ترجمته بالرضا لدى الباحثين العرب . وفي واقع الأمر فإن التقدم في البحث العلمي والتنظير ليس مسألة متوازية المسير بل متلازمة. فالتقدم العلمي لا يتمثل فقط في مجرد تجميع الحقائق بل هو عملية تبرز في التغير النوعي في بنية الأنساق النظرية. فإذا كان هدفنا هو الوصول إلى خلاصات مهمة تتجاوز ما هو متعارف عليه فلا يمكن تحقيق ذلك من الاعتماد على الجانب الإمبريقي دون ضبط للجانب التنظيري وإلا باتت بنية الأنساق النظرية جامدة وفقيرة.

تعريف النظرية:

تعرف النظرية بشكل عام على أنها: " نسق من المعرفة المعممة تفسر الجوانب المختلفة للواقع". كما أنها تعد محوراً أساسياً لأي علم من العلوم. إذ تكمن أهميتها في

كونها على مستوى عال من العمومية والتجريد للعديد من المبادئ والقوانين الخاصة والعامة التي تعد بمثابة تلخيص للوقائع والعلاقات بين الأشياء والظواهر المختلفة. هذا بالإضافة إلى أنها تقدم إطاراً تصورياً يسترشد به الباحثون عند جمع الحقائق وتحليلها، وتساعدهم في التنبؤ بما يمكن أن يحدث من ظواهر في المجتمع، وتحديد أوجه النقص في المعرفة الحالية وترشيدهم في تطبيق هذه المعرفة تطبيقاً سليماً متقدماً" [١].

ويشير عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز (T.Parsons) إلى النظرية من حيث وظيفتها أيضاً في البحث العلمي: " فالنظرية لا تصبح فقط ما نعرفه ولكنها تقول لنا أيضاً ما نود معرفته، أي أنها تمدنا بالأسئلة التي تبحث لها عن الإجابة ". إذن النظرية لها قدرة فسيحة على التعامل مع الأشياء.

لو انطلقنا من بناء البحث العلمي لاستطعنا القول أنه ينطلق من جملة من المعلومات التي تتخللها إشكاليات ما وتتجه إلى صياغة معرفية للمشكلات المثارة، ومن هذه المشكلات ننتقل بعد ذلك إلى رصيد من الفرضيات التي تكوّن القاعدة لكل عملية تنظير . ومن الواضح أن الوصول إلى مرحلة التنظير مسألة تستدعي المرور بعدة مراحل، فالبحث العلمي ما بين المعطيات الإمبيريقية والسير نحو التنظير لا بد له من التوقف عند اقتراح الفرضيات العلمية مقابل استبعاد الفرضيات غير العلمية حتى يتسنى له الاقتراب من الإشكاليات . ولكننا عندما نصل إلى النظرية نكون أمام جدول متناسق من الحقائق المعروفة ، وبهذا المحتوى والوضوح للنظرية نستطيع أن نتبيَّن كيف تم تنظيم وبناء تلك الحقائق ، كما أن النظرية تفسر هذا البناء المعرفي وتمدنا بنقاط مرجعية تسهل علينا الانطلاق في البحث عن بنىً معرفية جديدة وحقائق جديدة[٢] .

النظرية العلمية:

" هي نسق فكري استنباطي متسق حول ظاهرة أو مجموعة من الظواهر. يحوي - أي النسق- إطاراً تصورياً ومفهومات وقضايا نظرية توضح العلاقة بين الوقائع

---

[١] نيقولا تيماشيف (١٩٨٢). نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها. ترجمة محمود عودة وآخرين، مصر: دار المعارف.

[٢] انظر: الزعبي، أحمد (١٩٩١) . علم الاجتماع والبلدان النامية . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

وتنظمها بطريقة دالة وذات معنى، كما أنها ذات بعد إمبريقي بمعنى اعتمادها على الواقع ومعطياته، وذات توجه تنبؤي يساعد على فهم مستقبل الظاهرة ولو من خلال تعميمات احتمالية"[1].

وهناك اتفاق على أن النظرية هي: مجموعة من القضايا أو الافتراضات أو العبارات العلاقية النظرية[2].

من هنا وضع العلماء للنظرية العلمية شروطاً، منها :

١- أن تكون مكوناتها واضحة ومحددة الألفاظ والمعاني والمضامين.

٢- أن تعبر عما تشتمل عليه النظرية بإيجاز تعبيراً يوضح هذه المشتملات، ويبين عرض النظرية عموما، وأهداف كل مكون من مكوناتها تخصيصا.

٣- أن تكون النظرية شاملة بقدر الإمكان للجوانب التي قد تنطوي عليها بما في ذلك وصف وتحليل وتفسير الحقائق المعينة.

٤- أن تكون متفردة، في موضوعها ومشروعها التفسيري، بمعنى ألا تكون هناك نظرية أخرى تدرس نفس الموضوع.

٥- أن يكون للنظرية أرضية واقعية، بمعنى أن تعتمد في صياغتها على ملاحظات ودراسات واقعية من ناحية، وأن تكون قابلة للاختبار العلمي من ناحية أخرى.

٦- القدرة على التنبؤ، بحيث لا تقف عند مجرد الوصف، والتفسير، لأن قدرتها على التنبؤ يزيد من قوتها من جانب، وتساعد العلم كي يقوم بدوره المجتمعي الإنساني من ناحية أخرى[3] .

أما عن وظائف النظرية العلمية فقد تراوحت بين، التضييق والشمول، أو ما يمكن أن نسميه بوظائف الحد الأدنى، والوظائف التي تتجاوزه إلى أخريات أكثر

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). اتجاهات نظرية في علم الاجتماع. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص ١٠.

[2] أبو طاحون، عدلي (ب د). في النظريات الاجتماعية المعاصرة. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ص ٧.

[3] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق، ص١١.

شمولا. فعلى المستوى الأول يذهب" بيير دوهم P.Duhem " إلى أن هدف النظرية العلمية يتركز في عرض الوقائع وتنسيقها. وأما التفسير فهو شيء يأتي متطفلا عليها. ولكي يدلل على قوله هذا ميز بين نوعين من النظريات: تلك التي تختص بالوصف، وتلك التي تهتم بالتفسير. ويذهب البعض من أمثال "موريتس شليك M.Schlick " إلى أن تقدم العلم والمعرفة العلمية مرهون بالتفسير. وبنفس القدر من التأكد يذهب الباحث الأمريكي في علم الاجتماع "هارولد فالدنج" H.Falding إلى أنه لكي تكون النظرية علمية يجب أن تكون ذات قدرة تفسيرية، لكنه بالنظر إلى أن كثيرا من النظريات- تجاوزا - اهتمت بوظائف كثيرة عدا الوظيفة التفسيرية فقد حاول أنصارها إنكار هذا الدور. ثم ذكر أهم وظائف النظرية وهي:

١- تساعد النظرية أي علم على تحديد هويته وموضوعاته الأساسية.

٢- تمد الباحث بالسياق العلمي الذي يجري بحثه من خلاله.

٣- أن جمع بلا نظرية موجهة يسلمنا إلى بيانات صماء فاقدة المعنى والوظيفة. وبنفس القدر تعد النظرية العلمية بلا معطيات وبيانات عملا خاويا[١].

ويعرفها عالم الاجتماع الألماني "رتسرت Ritzenj ": " إن النظرية قانون عام، إنها تشبه القانون، ذلك أن النظرية والقانون يقومان على قاسم مشترك. وهو أننا نطلق مصطلح نظرية على الفرضيات التي تم اختبارها. إن النظرية قانون، بمعنى أنها تعميم اختبر عن طريق الملاحظة والتجريب، وغالباً ما يحدث الالتباس بين مصطلحي القانون والنظرية، فنتحدث تارة عن قانون الجاذبية، وأخرى عن نظرية الجاذبية. إن النظرية تشبه القانون. غير أنها تختلف عن القانون من ناحيتين: الأولى هي أن النظرية أكثر شمولاً من القانون. بمعنى أن علاقة القانون بالنظرية هي علاقة قانون خاص بعام. والثانية هي أن النظرية تقوم على عدة قوانين خاصة. يمكن اختزالها لعدة قوانين خاصة في قانون".

بينما يعرفها "برايت وايت Braithwaite" بأن النظرية: مجموعة من الفروض التي تكون نسقاً استنباطياً، تحتل فيه الفروض المستوى الأعلى مكانة المقدمات المنطقية، وعنها تستنبط فروض المستوى المتوسط. أما فرض المستوى الأدنى فتستنبط عن فروض المستوى المتوسط. ويقول "كارل بوبر": النظريات جميعها محاولات وهي فرضيات مؤقتة،

---

[١] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

نختبرها لنتبين ما إذا كانت تؤدي الغرض المقصود منها. وكل تأكيد تجريبي، فهو ليس إلا نتيجة للاختبارات التي نجريها بروح نقدية بقصد العثور على موضع الخطأ في نظريتنا[1].

النظرية الاجتماعية Social Theory :

لقد عرف علم الاجتماع نظريات اجتماعية متعددة. حيث يرى عالم الاجتماع "أنتوني غيدنز" أن مجال النظرية في علم الاجتماع هو مجال خصب وأن الطريقة التي تتم بها دراسة العالم الاجتماعي تختلف من عالم اجتماع إلى آخر فإذا اهتم "ماركس" بدور القضايا الاقتصادية في تفسير المجتمع فإن "ماكس فيبر" أخذ بعين الاعتبار دور الذات في تفسير السلوك الاجتماعي أما "دوركايم" الذي كان له أثر واضح في تطور النظرية الاجتماعية فقد تعامل مع الواقعة الاجتماعية كشيء بعيدا عن كل الآراء الشخصية. هكذا نجد أن لكل من "ماركس وماكس فيبر ودوركايم" زوايا مختلفة الشيء الذي يفسر ظهور نظريات اجتماعية متباينة ومن أهمها حسب "أنتوني غيدنز" المدرسة الوظيفية، نظرية الفعل الاجتماعي ثم التفاعلية الرمزية[2]. ويمكن أن نقول أنه إذا كانت المدرسة الوظيفية تنطلق من دور البنى والأنساق الاجتماعية في تحقيق التوازن الاجتماعي فإن نظرية الفعل الاجتماعي تؤكد دور الفعل والتفاعل بين أعضاء المجتمع في تكوين هذه البنى الاجتماعية "وماكس فيبر" في تعريفه للفعل الاجتماعي يؤكد على مستويين أو اتجاهين لفهم السلوك الاجتماعي وهما المستوى الفردي والمستوى الجمعي بمعنى فهم الفعل الاجتماعي من وجهة نظر الفرد صاحب هذا السلوك ومن وجهة نظر الفرد كعضو في الجماعة، فالفعل لا يصبح اجتماعيا إلا إذا ارتبط المعنى الذاتي الذي يعطيه الفرد للفعل بسلوك الأفراد الآخرين. وهنا تركز نظرية الفعل الاجتماعي على الأسلوب الذي يتفاعل به الأفراد فيما بينهم من جهة وفيما بينهم وبين المجتمع من جهة أخرى وعلى الدور الذي يلعبه الفعل الاجتماعي في تكوين البنى الاجتماعية. وقد تطور هذا التوقف بصورة منهجية على يد المدرسة التفاعلية الرمزية مع الفيلسوف الأمريكي

---

[1] عرابي، عبد القادر (٢٠٠٠). النظريات الاجتماعية. الرياض: دار الخريجي، ص ١٧-١٧.

[2] انظر: أنتوني غيدينز (٢٠٠٦). الرأسمالية والنظرية الاجتماعية دراسة لأعمال ماركس ودوركايم وماكس فيبر. ترجمة أديب يوسف، دمشق: وزارة الثقافة.

"جورج ميد" من خلال تأكيدها على اللغة والرمز باعتبار أن اللغة هي الوسيلة التي تمكننا من معرفة ذواتنا كما يرانا الآخرون وأن الرمز هو الأساس الذي تقوم عليه مجموع عمليات التفاعل بين الأفراد وهذا التفاعل يتم عن طريق تبادل رموز وإيماءات شفوية وغير شفوية متواضع عليها من طرف مجتمع معين. هكذا يمكن القول أن كل من المدرسة الوظيفية ونظرية الفعل الاجتماعي والتفاعلية الرمزية لها منظورها الخاص في دراسة المجتمع يختلف بشكل أو بآخر عن النظريات الأخرى وهذا الاختلاف حسب "أنتوني غيدنز" لا يعبر عن مواطن الضعف في علم الاجتماع بل هو دليل على خصوبة النظريات الاجتماعية وحيويتها ومهما اختلفت هذه النظريات فإن علماء الاجتماع يتفقون على أن الباحث يجب أن يضع حدا لآرائه الشخصية وأن يتعامل مع الظواهر بشكل موضوعي لكن هذا لا يعني أن علم الاجتماع هو جهد فكري تجريدي بل يرتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع وبالمواقف التي يواجهها الفرد في حياته[١].

تعد النظرية في جانبها الواقعي والفكري من الأمور الهامة التي شغلت اهتمام رجال الفكر الاجتماعي. وربما يرجع اهتمامهم بالجانبين الأساسيين في النظرية إلى قضية فلسفية هامة بدأ بها هذا الفكر، ألا وهي مسألة العلاقة بين الوجود الاجتماعي والفكر في علم الاجتماع أو بلغة "كونت" " السوسيولوجيا " وواقع الأمر أن العلاقة بين الفكر والواقع هي علاقة تفاعلية بينهما وذلك بغض النظر عن أسبقية أحدهما على الآخر، وهو موضع الخلاف الأساس، فالنظرية عبارة عن تعميمات مترابطة معبرة عن وقائع اجتماعية معينة. وهذه الوقائع لا تنشأ في فراغ، كما أنها تنطوي على مضمون ثقافي وإطار سوسيولوجي ذي أبعاد أيديولوجية .أو هي بالأحرى تعبر عن فكر ذي مضمون سياسي مرتبط بمصالح اجتماعية وتاريخية محددة[٢].

وتعني النظرية بهذا المعنى مجموعة من القواعد والمبادئ الإجرائية التي تحدد سياسة الباحث في علم الاجتماع وطريقته في دراسة ظواهر المجتمع. وذلك أن الباحث في علم الاجتماع قد تكون له نظرة عامه تحوي مجموعة من التوجيهات النظرية والمبادئ المنهجية التي توجه سيره في دراساته، والتي يحرص على اتباعها في هذه الدراسات

---

[١] انتوني غيدينز (٢٠٠٦). مرجع سابق.

[٢] حجازي، أحمد (١٩٩٨). علم اجتماع الأزمة. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.

ويحض غيره من الباحثين على مراعاتها في تناولهم للظواهر الاجتماعية بالوصف والتفسير.

وتعد النظرية بما تحويه من اتجاهات نظرية، وقواعد منهجية بمثابة الإطار المرجعي الذي يلجأ إليه الباحث في دراسته ليوجه مسلك هذه الدراسة وليحدد له فروضه الأساسية ويعين الموضوعات والمجالات التي يتناولها ويعينه في وصف وتفسير الظواهر موضع دراسته.

وتحتوي المدرسة الفكرية في ضوء هذه الفكرة على عنصرين:

١- عنصر يمثل نموذجا تصوريا للمجتمع يتألف في نطاقه مجموعه من الافتراضات التي تشير الى طبيعة المجتمع وأبعاده الأساسية ومسار حركته.

٢- عنصر يتناول مجموعة من القواعد المنهجية التي يؤدي استخدامها إلى ما يكشف عن الافتراضات التصورية السابقة[1].

وعند مناقشة مجال النظرية في علم الاجتماع ينبغي أن نفرق بين أمرين:

أولهما: مجال النظرية الاجتماعية بصفة عامة.

ثانيهما: مجال نظرية علم الاجتماع بصفة خاصة.

ذلك أن هناك تفرقة بين مجال النظريات الاجتماعية ومجال النظرية في علم الاجتماع. فالنظريات الاجتماعية تتناول بالتفسير ظاهرة اجتماعية واحدة أو جانبا واحدا من جوانب المجتمع. وتتمثل تلك النظريات في التفسيرات التي توجد في العلوم الاجتماعية كالاقتصاد والسياسة والدين. حيث ينصب التفسير على ظاهره أو جانب أو أكثر من جوانب المجتمع، كالإنتاج والاستهلاك والتوزيع والتبادل أو السلطة والقوة أو العبادة والاعتقاد. ولكن نطاق نظرية علم الاجتماع يحوي الرؤية إلى المجتمع ككل في بنائه ووظائفه وعملياته. ويعني ذلك أن نظرية علم الاجتماع تربط في تفسيرها الظاهرة الاجتماعية موضع الدراسة ببناء المجتمع ووظائفه وعملياته. ويضم الواقع الاجتماعي صورا متعددة من الظواهر الاجتماعية والثقافية كالنظم الأسرية والنظم الدينية والنظم السياسية ...... الخ. وإذا كان الواقع الاجتماعي مجالا تلتقي في دراسته العلوم الاجتماعية بعامة؛ فإن علم الاجتماع له رؤية متميزة عن رؤية العلوم الاجتماعية

---

[1] العرابي، حكمت (١٩٩١). النظريات المعاصرة في علم الاجتماع. الرياض: دار الخريجي.

الأخرى. وفي ضوء هذه الرؤية المتميزة تتحدد الوظيفة العلمية الأصلية لعلم الاجتماع عند دراسته للظواهر التي يحويها الواقع الاجتماعي. وهذه الرؤية هي محور نظرية علم الاجتماع. ويستند علم الاجتماع في أداء وظيفته المتميزة إلى أساسين:

الأساس الأول : هو تصور الإنسان الاجتماعي.

الأساس الثاني : هو تشابك الظواهر الاجتماعية وترابطها.

وهكذا يستند علم الاجتماع في تصوره لطبيعة الإنسان إلى فكرة الإنسان الاجتماعي وهو إنسان متعدد الجوانب يجمع في كيان واحد وفي ذات الوقت بين الجوانب الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية والجمالية وغير ذلك. وهذا التصور للإنسان الاجتماعي يختلف عن التصورات الأخرى لطبيعة الإنسان كما توجد في العلوم الاجتماعية الأخرى. فالاقتصاد يستند إلى تصور الإنسان الاقتصادي. وهو مخلوق اقتصادي توجهه المصالح الاقتصادية وهكذا - في الواقع- تصور أحادي البعد لطبيعة الإنسان ويترتب على تصور علم الاجتماع لطبيعة الإنسان الاجتماعي وتعدد جوانب هذه الطبيعة نتيجة منطقية مهمة هي أساس أصالة علم الاجتماع. ونعني بذلك فكرة ترابط الظواهر الاجتماعية[1].

وإجمالا يمكن القول أن العلاقة بين النظريات الاجتماعية هي علاقة ترابط وتكامل فميرتون عندما يتحدث عن التاريخ المعاصر للنظريات الاجتماعية يتحدث عنه من توجهين مختلفين الأول ينطلق من بناء نظريات شاملة عن طريق صياغة قوانين اجتماعية وتعميمها على الظواهر الاجتماعية دون الاهتمام بالملاحظات الجزئية أو المستويات الصغرى من الواقع الاجتماعي والثاني يعتمد على بحوث جزئية حول وقائع مخصصة والتأكد من صحتها عن طريق الملاحظة والاختبار. هكذا نجد أن "ميرتون" يلخص تاريخ النظرية الاجتماعية في اتجاهين هما الاجتماعية الشمولية والنظرية الاختبارية. وكل من هذين التوجهين يعطينا نظرة عن طبيعة النظرية الاجتماعية وكذا طبيعة علم الاجتماع باعتباره يجد صعوبة كبيرة في تطوير نظرية شاملة وقارة.

وأمام هذا التعدد النظري نجد "إيان كريب" يفكر في النظرية الاجتماعية ضمن تصور معرفي "إبستمولوجي" ينظر إليها من خلال أربعة أبعاد:

---

[1] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

١-بعد معرفي بوصفها أداة لمعرفة العالم الاجتماعي.

٢-بعد عاطفي تتدخل فيها التجربة الشخصية للمنظر الاجتماعي باعتباره إنسان إضافة إلى كونه عالم اجتماع يؤثر في الواقع الاجتماعي ويتأثر به مما ينعكس على طبيعة تصوره للواقع.

٣-بعد تأملي بوصفها جزء من الحياة تعكس ما يوجد خارج المجتمع وداخله.

٤-بعد معياري لا يقتصر على ما هو كائن بل على ما يجب أن يكون.

وكل هذه الأبعاد الأربعة تساهم في بناء النظرية السوسيولوجية وذلك لفهم واستكشاف مناحي الحياة[1].

وحقيقة بالرغم من التقدم الذي عرفته النظرية الاجتماعية فإنها تبقى قاصرة على الإحاطة بالظواهر الاجتماعية موضوع البحث. فقدرتها على التفسير والتنبؤ أقل مصداقية وصرامة وبالتالي أقل يقينية من حال النظرية في العلوم الطبيعية بل هناك من يعتبر النظرية في العلوم الاجتماعية مجرد تقليد نظري لمفهوم النظرية في العلوم الحقة. ومثل هذا القول لا يطعن في الصفة العلمية للنظريات الاجتماعية ولا في صحة النسبية لحقائقها التي تبقى مقتصرة على الظواهر المدروسة وأزمنتها وأمكنتها وسواء كانت النظرية في ميدان العلوم الاجتماعية تفسيرا أو تفهما فإنها تظل محاولة لتكوين صورة أو نموذج عقلي للواقع الاجتماعي المعقد بطبيعته.

بصفة عامة يمكن القول أن النظرية الاجتماعية هي كل محاولة فكرية تفسر جانباً من الحياة الاجتماعية. فالنظرية الاجتماعية في هذا الجانب يمكن اعتبارها امتداداً لما يسمى بالفكر الاجتماعي الذي ترجع جذوره إلى المفكرين والفلاسفة القدماء. وعندما نتساءل عن النظرية السوسيولوجية فالشيء الذي يميزها عن المفاهيم هو أنها قادرة على أن توفر لنا نوعا من التفسير لملمح من ملامح الحياة الاجتماعية أو ظاهرة من الظواهر. ولكن هناك رؤية مختلفة، إذ يرى البعض أن النظرية الاجتماعية ليست سوى مجموعة من الفرضيات القادرة على الصمود في ساحة البحث الاجتماعي الميداني. وبمعنى من المعاني فالنظرية ليست إطارا نظريا يساعد على التفسير إنما يمكن تطبيقها على الساحة

[1] إيان كريب (١٩٩٩). النظريات الاجتماعية. الكويت، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة.

والحياة الاجتماعية، وبالتالي فهي عبارة عن مجرد فرضية مُعَدَّةٌ للاختبار. وفعلياً هناك الكثير من النظريات المعاصرة في علم الاجتماع ليست أكثر من مجموعة أفكار غير متماسكة، أي أنها ليست مجموعة منظمة من الفرضيات التي يمكن اختبارها.

بهذا المعنى الذي يتحدث عن النظرية الاجتماعية بوصفها تفسيرية لأحد مناحي الحياة الاجتماعية أو مجرد فرضية قابلة للاختبار ميدانيا لن يكون أمامنا إلا التسليم بغياب النظرية الاجتماعية، وما النظريات الشائعة إلا مجموعة من الأفكار لم تصل بعد إلى مستوى النظرية.

أخيراً فإذا كانت النظرية بوصفها حصيلة لتعميم يستوحيه الباحث الاجتماعي من حقائق معروفة تمثل بطريقة حاسمة وكاملة قدر الإمكان مجموعة من القوانين والفرضيات المختبرة إمبيريقياً فإن أحسن النظريات الاجتماعية هي تلك التي تمدنا بأحسن أداة للتعامل مع واقع اجتماعي معين[1].

للنظرية في علم الاجتماع بعدين أساسين هما:

١- أن نظرية علم الاجتماع من المفروض أن تكون نظرية علمية وتحمل في شكلها ومضمونها خصائص النظرية العلمية وشروطها، بوصفها أركاناً ضرورية تمكنها من أداء أدوارها، بالنسبة لعلم الاجتماع وما تنجز خلاله من بحوث.

٢- أن نظرية علم الاجتماع يجب أن تعبر تعبيراً واضحاً وشاملاً عن موضوع علم الاجتماع، وتحمل في نفس الوقت طابعه الذي يميزه عن غيره من العلوم الإنسانية التي تنشغل بجانب أو أكثر من جوانب الحياة الإنسانية.

وهناك من يرى أن السلوك الاجتماعي وتفسيره يعد لب نظرية علم الاجتماع. ثم صنف موقف نظريات علم الاجتماع من هذا السلوك في فئتين:

الأولى: ركزت على الجوانب الموضوعية الواضحة للسلوك، أي مخرجات السلوك المتمثلة في الأفعال الاجتماعية بصفة عامة.

الثانية: ركزت على الجوانب الذاتية الكامنة والمستترة خلف السلوك كالدوافع والقيم والمرامي والمقاصد وما إلى ذلك.

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). النظريات الاجتماعية. القاهرة: مكتبة وهبة، ص١٤-٢٠.

وبإيجاز يمكن طرح سؤال نصه: أي التحديدات أكثر دقة ومناسبة لطابع علم الاجتماع وتوجهه الذي يميزه عن غيره من العلوم الإنسانية؟. والإجابة على هذا السؤال تحتكم إلى عدد من الأسس الموضوعية التي يمكن أن يتمثل بعضها فيما يلي:

١- **أسس ترتبط بطابع علم الاجتماع**: وهي أسس تفيد في أنه إذا ركز علم الاجتماع وموضوع نظريته غايتهما في دراسة الجوانب الذاتية فحسب، فهذا يجعله نوعا من علم النفس . وإذا حصر غايته في بعض الأبعاد الجزئية فلن يختلف عن علوم أخرى يدرس كل منها جزءا من أجزاء الواقع الإنساني كالاقتصاد أو علم النفس أو السياسة . وإذا اهتم بأمور خارجة عن السياق الاجتماعي، فيمكن أن يكون علما طبيعيا أو حتى دراسة جغرافية.

٢- **أسس ترتبط بحصاد تاريخ الإنسان والمجتمع**: ويأتي في مقدمتها على سبيل المثال "التغير" كمقولة أساسية أثبتها تاريخ الإنسان وتاريخ مجتمعه. ومعنى هذا أن علم الاجتماع أن لم يضطلع بالأبعاد المتغيرة فلن يكون إلا تصورات وهمية لأشياء غير حقيقية. وهو بعد ألح عليه كبار الرواد والمنظرين من أمثال "ابن خلدون" و "أوجست كونت" و "كارل ماركس " وغيرهم . وإذا كان تاريخ الإنسان قد أثبت تميز الإنسان عن سائر المخلوقات، لما له من إرادة خلاقة مبدعة وفعالة من خلال السيطرة على الطبيعة بابتداع العلم والتكنولوجيا مثلا، فمعنى هذا أن العلم الذي لا يهتم بأهم ما يميز الإنسان كالإرادة والوعي يمكن أن يندرج تحت أي اسم آخر غير علم الإنسان والمجتمع.

٣- **أسس ترتبط بخصائص العلم وشروطه**: وطابع النظرية العلمية وشروطها. كالوضوح والدقة والقابلية للاختبار، والقدرة على التنبؤ، والإسهام في التغيير المخطط[1].

وباختصار يتحدد ما هو اجتماعي، بوصفه موضوع نظرية علم الاجتماع بما هو مرتبط بالعلاقات الأساسية، الحقيقية، الجوهرية، بين البشر، وبينهم وبين المجتمع، وبين المجتمع والمجتمعات الأخرى. وإذا كان ما يعد عاما وضروريا ومطردا، ليس شيئا مطلقا بل نسبيا في المكان والزمان، وفقا للمرحلة التاريخية التي يمر

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

بها هذا المجتمع أو ذاك، فهناك أمور تعد أساسية وشاملة، بالنسبة لمعظم المجتمعات، إن لم يكن لجميعها، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر:

١- إن المقصود من المفهوم الاجتماعي، ليس إنسانا منعزلا، أو قدرات عضلية أو غرائزية، وإنما المقصود به بشر متفاعلون، بينهم علاقات، ومخرجات لهذه العلاقات. وإن هذه العلاقات الاجتماعية لن تخرج في كل الظروف والأحوال عن علاقات بين بشر داخل جماعات، وعلاقات بين جماعات، وعلاقات بينها وبين بنائها العام، وبين بنائها العام وغيره من البناءات فضلا عن علاقة الإنسان بالطبيعة وموقفه منها، تلك العلاقة التي كانت منذ البداية أساسا للحفاظ على الإنسان وإشباع حاجاته الأساسية وتلخيصا لحكمة المجتمع، ومضمون هذه الحكمة.

٢- أن ما هو عام يشمل معنيين فرعيين أولهما الوقائع والظاهرات الأكثر تواترا واطرادا في المجتمع البشري. ويدعم تاريخ الإنسان مقولة أن "الصراع الاجتماعي" مهما اختلفت صوره أو تباينت مستوياته هو مقولة كلية الحضور، منذ الصراع بين قابيل وهابيل وحتى أيامنا هذه، وإن التغير يمثل نفس القدر من الحضور، مهما كان بطء سرعته حتى وإن خيل للبعض - لقصور الحواس - أن المجتمع ثابت وراكد.

٣- أن ما هو ضروري يعني أبعادا في المجتمع، ضرورية للحفاظ على الإنسان، ومجتمعه. فإشباع الحاجات الأساسية، والتفاعل الكفء، والمشاركة المجتمعية أمور ضرورية لعمل المجتمع، وإنتاجه، وتقدمه، وبنفس القدر تكون المتغيرات المستقلة هي أكثر المتغيرات تأثيراً في مجمل الأبعاد الاجتماعية والعامة والضرورية للمجتمع وللإنسان.

وفي النقد الاجتماعي والوظائف النوعية لنظرية علم الاجتماع فإن هناك جملة وظائف علمية لنظرية علم الاجتماع، منها: دورها في تنظيم البحث الاجتماعي، وتوجيه الباحث إلى النقاط والأبعاد الضرورية، وتوضيح الارتباطات والعلاقات بين المعطيات، وغير ذلك من وظائف علمية ليس لنظرية علم الاجتماع فضل أو دور تتميز به عن أي نظرية تتحلى بالخصائص العلمية في أي علم من العلوم. وإن جملة الوظائف الاجتماعية المتميزة لعلم الاجتماع ونظريته هي التي جعلت الكثيرين يتخوفون منه، حتى إنه قبل عقدين من الزمان أو ما يزيد عنهما قليلا لم يكن يسمح

بتدريسه في المستويات دون الجامعية في إنجلترا، إذ إن دور النظرية - ودور العلم بالأساس- متوجه نحو العدل للكل والخير للكل والسعادة للكل، متوجه نحو تغيير المجتمع لكي يكون أكثر قدرة على تحقيق وظائفه والتزاماته تجاه الإنسان، ومتوجه نحو تغيير الإنسان لكي يكون أكثر قدرة على تحقيق وظائفه والتزاماته تجاه المجتمع، ولهذا ولد علم الاجتماع لكي يكون علما نقديا، وعلما رافضا لكل ما هو ضد إنسانية الإنسان[1].

تعريف النظرية الاجتماعية:

هناك صعوبة في تحديد معنى موحد للنظرية في علم الاجتماع حيث يشير "أنتوني غيدنز "Anthony Giddens، وجوناثان ترنرJonathan Turner إلى أن عدم الاتفاق على معنى النظرية الاجتماعية تعكسه الخلافات الفكرية بين الباحثين حول الموضوع الأساسي للنظرية[2].

ولعل ابسط تعريف للنظرية في علم الاجتماع هو: " أنها مجموعة منسقة من الأفكار التي تتناول القضايا ذات الأهمية الحاسمة في الحياة الاجتماعية مثل طبيعة السلوك الاجتماعي الإنساني وطبيعة المجتمع وعناصره الأساسية وطابع العلاقة بين هذه العناصر وعوامل استقرار المجتمع وتغيره وطابع المنهج في علم الاجتماع"[3]. وقد تشكلت هذه القضايا في مجموعة من الافتراضات تتمثل في:

١- افتراضات عن الواقع الاجتماعي.
٢- افتراضات عن سلوك الإنسان وقدراته.
٣- افتراضات عن العوامل المفسرة للظواهر الاجتماعية.

والنظرية بهذا المعنى تتسم بالخصائص التالية :

١- تصاغ النظريه في ضوء مجموعة من المفاهيم (الأفكار) المحددة والتي ترتبط ببعضها ارتباطا منطقيا مؤلفة القضايا الأساسية للنظرية.

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.
[2] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.
[3] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

٢-تتسم النظرية بالطابع المؤقت بمعنى أنها خاضعة باستمرار للمراجعة في ضوء ما يستجد في ميادين علم الاجتماع من أفكار وحقائق.

٣- تستند النظريه في صياغتها إلى أساليب منظمة تشير إلى كيفية ربط أفكارها بالواقع .

وفي ضوء هذه الأفكار السابقة يمكن أن نشير إلى أن للنظرية في علم الاجتماع معان متعددة وستقتصر دراستنا على ذكر معنيين لها وهم:

المعنى الأول: يتناول النظرية كإطار تفسيري للتعميمات التجريبية.

المعنى الثاني: يرى النظرية كمدرسة فكرية في علم الاجتماع.

ويمكن إيضاح ذلك كما يلي: تعني النظرية صياغة صريحة لعلاقات تصورية بين مجموعة من المتغيرات يتم في ضوئها تفسير فئة من الاطرادات التي يمكن تحديدها تجريبيا فالنظرية بهذا المعنى نسق منظم من القضايا التي تشبه القانون العلمي وهي تتناول أيا من جوانب المجتمع أو الحياة الاجتماعية ويطلق على هذا النسق المنظم من القضايا المبادئ التفسيرية أو الإطار التفسيري. ولعلنا نلاحظ أن هناك فرق بين التعميم التجريبي وبين النظرية في المثال السابق فالتعميم التجريبي مرتبط في صدقه بحدود الزمان والمكان اللذان اتخذهما الباحث مجالا لدراسته الواقعية أما النظرية فهي قفزة تصورية إلى أبعد من الحقائق لأنها تحمل ادعاء بصدقها بالنسبة لحالات لم تتم دراستها بعد.

النظرية هي:"مجموعة من الافتراضات التي تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر الاجتماعية ، ،والوظيفة الأساسية لأي نظرية هي محاوله شرح أو تفسير علاقة الظاهرة موضوع البحث أو ظواهر أخرى ، أي أن الوظيفة التفسيرية هي التي تميز النظرية ، ولكن ليس لها صفة تفسيرية" . ونرى ذلك واضحاً في كثير من تعريفات علماء الاجتماع ، فالعالم بلالوك Blalock يرى أن (النظرية لا تتكون كلية من جداول من مفاهيم وتنميطات ولكن لا بد أن تحتوي قانونا مثل قضايا تربط بين مفاهيم أو متغيرات سواء اثنين أو أكثر في وقت واحد) . كما يذهب "جبس Gibbs " إلى أن النظرية:" هي مجموعة من الشروح أو البيانات المرتبطة منطقيا في شكل تحقيقات إمبيريقية حول خواص فئات لا نهائية من الواقع أو الأشياء". أما "رينولدز Reynolds" فيقول: " أن استعمال مصطلح النظرية يشير إلى حالات تجريدية تعتبر جزءا من المعرفة العلمية

سواء أكانت مجموعة من القوانين أو المسلمات أو أشكال العمليات السببية". وكذلك يذهب "ويلر willer" إلى أن النظرية:" هي مجموعة من العلاقات المتكاملة ذات مستوى معين من الصدق"[1].

ويعرف روبرت ميرتون **Robert Merton** النظريات المتوسطة المدى بأنها: "مفاهيم مرتبطة مع بعضها ترابطاً منطقياً، وذت مدى نظري محدود ومتواضع، أكثر منه شاملاً وكبيراً".

وقد استعرض عمر (١٩٩٢) مجموعة من التعاريف للنظرية Theory ووجد عدم اتفاق المنظرين المعاصرين على تقديم تعريف موحد للنظرية الاجتماعية، حيث تعددت التعريفات، منها:

- النظرية مجموعة قوانين يستخرج منها استنتاجات دقيقة غير متميزة لها فاعلية في تفسير وشرح سلوك الناس من واقعها الحقيقي. (داهرندروف Dahrendorf, Ralf 1968).
- النظرية مجموعة مفاهيم مترابطة بشكل متسلسل ومنظم هدفها بلورة قوانين الظاهرة المدروسة. (ثيودور آبيل Abel, Thedore 1967).
- النظرية مجموعة قضايا مترابطة بشكل منطقي موضحة جزءاً من الواقع (جوزيف هايمس Himes, Joseph 1967).
- النظرية نموذج خاص بنتائج وحدات خاصة تتفاعل داخل الأنظمة الاجتماعية القائمة وتحت جميع الظروف والشروط الخاصة بوجودها (روبرت دوين Dubin, Robert 1978)[2].

وبالتالي فالنظرية: هي فرض أو مجموعة فروض مرت بمرحلة التحقيق عن طريق التجريب ويمكن تطبيقها على عدد من الظواهر المتصلة. ولها القدرة على وصف وتفسير الأحداث والتنبؤ بها واستبصار المعرفة الجديدة المحتملة.

ومما سبق يمكن ملاحظة أن أساس أي نظرية هو ذلك النموذج الذي تقدمه كتفسير للحقيقة الاجتماعية أو الطبيعية ، وعادة ما يتكون هذا النموذج من عنصرين :

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق.

[2] عمر، معن (١٩٩٢). نحو نظرية عربية في علم الاجتماع. عمان: دار مجدلاوي، ص ١١٤.

١- مفهوم عن الظاهرة المشروعة ، مثلا يمكن النظر إلى المجتمع كمجموعة من النظم المتساندة.

٢- افتراضات توضح العلاقات السببية ، مثل النظرة التي تعتبر أن البناء الاجتماعي يتطور في استجابة لحاجات النسق أو الوظائف الأساسية للمجتمع[1].

بناء النظرية:

أولا: صفات البناء :

١- نموذج النظرية: الأساس لأي نظرية هو النموذج الذي تبرزه ، والذي عرفنا أنه يتركب من صياغة مفاهيم معينة عن الظواهر المشروحة، والعلاقات التفسيرية الهامة التي توضح وتعلل حالة الظواهر عند عملها وتفاعلها .

٢- المفاهيم : يتضمن أي نموذج مفاهيم معينة ، وهي عبارة عن اسم أو عنوان لفئة من الظواهر مثل (الشخصية ،الطبقة الاجتماعية ، التغير الاجتماعي). وهذه المفاهيم تحتاج إلى عناية فائقة في تحديدها، وأن توضح بدقة علاقتها بالنموذج الموضوع.

٣- العلاقة المنطقية بين المفاهيم : يعتمد بناء النظرية على ما تحتويه من أنواع حالات العلاقات، وعلاقة كل منها بالأخرى، وهكذا يمكن أن تكون نظرية مسلمية في بنائها (مجموعة من القضايا المحددة)، أو يأخذ بناء النظرية شكل قضايا (أي مجموعة من القضايا مشتقة من مسلمة). ويلاحظ أنه لا يمكن النظر إلى مجموعه من الفروض المترابطة كنظرية عند غياب مسلماتها وقضاياها الأساسية لأنها تكون غير كاملة .

٤- الإجراءات : ومن ثم تحتاج المفاهيم وحالات العلاقات إلى أن تعرف تجريبيا او إجرائيا في شكل متغيرات مثل اختبارات الشخصية، ومقاييس الطبقات الاجتماعية، ومقاييس معدلات الحراك الاجتماعي.

٥- المنهج : وتتركب المرحلة التالية من منهج تجريبي لاختبار الفروض ،بمعنى اختبار العلاقات التي افترض الباحث وجودها بين المتغيرات والمحتويات ، وقد يتكون هذا المنهج من مسح الرأي العام أو ملاحظة مشاركة. ويلاحظ أن ذلك المنهج يمليه إلى حد بعيد نوع المتغيرات المشتقة من بناء النظرية.

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق.

٦- تحليل البيانات: إذا جمعت البيانات فإنها تحتاج إلى تحليل في ضوء الفروض الأساسية لنظرية وهذا التحليل يستخدم التكنيك الإحصائي ليبين مستويات الاتفاقات، والدلالات الإحصائية.

٧- تفسير البيانات: عند إتمام تحليل البيانات، فإنه على الباحث التقدم إلى تفسير نتائج البيانات في ضوء بناء النظرية ، من ناحية نموذجها الأساسي وقضاياها وفروضها .

٨- تقييم النظرية: تقيم النظرية في ضوء معيارين أساسيين:

أـ كفاءة ومجال ومنطق بنائها النظري.

ب ـ مستوى قابليتها للاختبار، وعند هذه النقطة يكون هناك عدد من البدائل الممكنة ، أما شطب النظرية كلية أو تعديل نموذجها الأساسي أو استخدام منهج جديد[1].

تصنيفات النظرية الاجتماعية:

في علم الاجتماع المعاصر هناك عدة أنواع من التصنيفات للنظريات، ومنها:

- النظريات الكبرى، ومثالها النظرية الماركسية ذات الطرح الشمولي أو التحليل الماكرو سوسيولوجي.

- ولكن هناك تصنيفات أخرى للنظرية الاجتماعية على أساس نظريات البنية (النظريات البنيوية الأنثروبولوجية والاجتماعية) أو نظريات الفعل كالنظرية عند "ماكس فيبر".

تصنيف تراث النظرية في علم الاجتماع وفق الاتجاهات:

١- الاتجاه الأيكولوجي.

٢- الاتجاه الديموجرافي.

٣- الاتجاه المادي.

٤- الاتجاه السيكولوجي.

٥- الاتجاه التكنولوجي.

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق.

٦- الاتجاه البنائي الاجتماعي (الوظيفي، الصراعي، التبادلي).
٧- الاتجاه التفاعلي الرمزي.

تصنيف تراث النظرية في علم الاجتماع على ضوء طابع العلم وأهدافه الأساسية:
١- النظريات الوضعية: (الوضعية الجديدة، الإيكلوجيا الاجتماعية المحدثة، النزعة الوظيفية البنائية، النزعة السلوكية الاجتماعية، النظرية السيكولوجية البيولوجية الثقافية).
٢- النظريات التفسيرية.
٣- النظريات الاجتماعية التقويمية[1].

مدارس النظرية الاجتماعية:
بعد شيوع الوضعية وتأسيس علم الاجتماع - كما ذكرنا سابقاً- ظهرت العديد من المدارس الاجتماعية التي نشطت في جمع المعلومات عن الظواهر الإنسانية والاجتماعية أو حاولت تفسيرها وتحليلها، ومن هذه المدارس نعرض لبعض منها:
١- المدرسة الاجتماعية البايولوجية : لا تعترف هذه المدرسة باستقلالية الظاهرة الاجتماعية بل تعتبرها مظهراً من مظاهر الحياة اليومية. كما ترى أن الظاهرة الاجتماعية في نشأتها وتطورها تسير وفق القوانين التي تسير عليها الظواهر البيولوجية .
٢- المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع : يتزعمها "إميل دوركايم" وأتباعه مثل "مارسيل موس وليفي بروهل ودي سوسير وبوجليه وهاليفاكس وكوهين" وغيرهم. وقد التزمت هذه المدرسة بحدود الوضعية لدى "أوجست كونت" بل أنها أرست الوضعية الصحيحة. واعترفت باستقلال علم الاجتماع والظواهر الاجتماعية وقدمت دراسات ميدانية ممتازة. وتميزت أبحاثها بالدقة العلمية وبذلت جهداً نظرياً ضخماً في إقامة دعائم علم الاجتماع وتحديد مناهجه وميادينه.
٣- المدرسة المادية التاريخية (كارل ماركس): تذهب هذه المدرسة إلى اعتبار أن كل ما يحدث في المجتمع وما ينشأ فيه من ظواهر ونظم إنما يرجع إلى الطبيعة

[1] جلبي، علي (١٩٩١). الاتجاهات الأساسية في علم الاجتماع. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص٣٥-٤٠.

الاقتصادية . فالظروف الاقتصادية هي العامل الوحيد الذي يشكل نظم الاجتماع والسياسة والأخلاق والدين. وبالتالي فالمادة الاقتصادية هي قطب الرحى في التطور السياسي والأخلاقي والاجتماعي.

٤- المدرسة الجغرافية (برون وميشليه): تعتبر هذه المدرسة أن ظواهر المجتمع هي وليدة البيئة وظروفها العمرانية والطبيعية. لهذا فقد فسرت كل ما يحدث في المجتمع بالرجوع إلى الظواهر الجغرافية وقامت بهذا الصدد بتطبيقات تعسفية.

٥- المدرسة النفسية (جابرييل تارد وغوستاف لوبون): وهي المدرسة التي خسرت خصومتها التاريخية مع إميل دوركايم وأتباعه . لأنها لا تعترف باستقلال علم الاجتماع بل تلحقه بعلم النفس. وبالتالي فهي تفسر الظواهر الاجتماعية بمبادئ وأصول سيكولوجية. هذه المدرسة تعتبر الظواهر الاجتماعية وليدة الإرادة الفردية في التقليد والمحاكاة.

٦- المدرسة الإثنولوجية (تين : Tain ، ميشليه : Michelet ، ممن : Momen). وتفسر الظواهر الاجتماعية بالرجوع إلى فكرة الجنس.

٧- مدرسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية (دراسة المجتمعات البدائية): وهي مدرسة واسعة تزعمها كثير من العلماء أمثال فريزر وستمارك Frezer Westrmarek و Maclenan و lang و Taylor و Rivers و B. smith و Gillen . وقد اهتمت هذه المدرسة بدراسة المجتمعات البدائية وأشكالها التي ما تزال قائمة سواء في أمريكا أو أستراليا أو أفريقيا وآسيا فتعرف روادها على النظم الاجتماعية الأولى. واتسم الرواد بأنهم جمّاعون مهرة للمعلومات غير أنهم أقل قدرة على التحليل، هذا النقص الذي بدأته المدرسة الأنثروبولوجية تداركته مدرسة دوركايم [1].

ونشير إلى أنه كان هناك محاولات عديدة لتصنيف نظريات علم الاجتماع في مجموعات من المدارس الفكرية وهذه المحاولات كما يلي :

١)- التصنيف الذي وضعه "سوروكين " في كتابه "النظريات المعاصرة في علم الاجتماع". وشمل المدارس التالية:

١- المدرسة الميكانيكية .

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص٢٦-٣٦.

٢- المدرسة العضوية .

٣- المدرسة السيكولوجية.

٤- المدرسة الجغرافية.

٥- المدرسة السوسيولوجية.

٢)- أعاد "سوروكن" تصنيف الاتجاهات النظرية المعاصرة في كتابه "نظريات علم الاجتماع اليوم" ولقد احتفظ بالأساس الذي وضعه في كتابه السابق ولكنه أضاف في تصنيفه الجديد أساساً آخر هو الصور الأساسية للترابط القائم وهي:

١-الترابط الذري.

٢- الترابط النسقي.

٣)- تصنيف كوهن في كتابه "النظرية الاجتماعية الحديثة " يرى أن هناك وجهتين من النظر في دراسة الظواهر الاجتماعية وهي :

الأولى: وجهة نظر كلية.

الثانية: وجهة نظر ذرية.

واستناداً للوجهتين من النظر يقسم "كوهن" النظريات الاجتماعيه على ما يلي:

١-النظرية الوظيفية.

٢- نظرية الفعل الاجتماعي.

٤)- تصنيف واجنر وهي ثلاثة تصنيفات رئيسة:

أ- النظريات الوضعية.

ب- النظريات التأويلية.

ج- النظريات التقويمية.

ومن المحاولات المعاصرة لتصنيف نظريات علم الاجتماع ما يلي:

١- وضع "فردريش" تصنيفاً للنظريات يحوي ست فئات: نظرية الأنساق، نظرية الصراع، النظرية الماركسية، النظرية الجدلية، نظرية الفعل الاجتماعي، نظرية التبادل.

٢- وضع "جورج رتزر" حيث صنف النظريات المعاصرة في ضوء ثلاثة نماذج تحليلية هي:

أ- نموذج الحقائق الاجتماعية.

ب- النموذج التحليلي الثاني.

ج- النموذج التحليلي الثالث (النموذج السلوكي الاجتماعي)[1] .[2]

والصور الأساسية للنظريات الاجتماعية فيما يلي:

١- النظريات الاختزالية . ومن أمثلتها:

- نظرية "هربرت سبنسر" في حركة التطور الاجتماعي من مرحلة المجتمعات المتجانسة إلى مرحلة المجتمعات غير المتجانسة .

- نظرية العالم الألماني "تونيز" في حركة التغير في العلاقات الاجتماعية من طابع المجتمع المحلي إلى طابع المجتمع العام .

- نظرية تطور المجتمعات لدى "دوركايم" من مرحلة يسودها التضامن الآلي في المجتمع إلى مرحلة يسودها التضامن العضوي .

- نظريات "سيمل، غيدنز، أدوم، ردفيلد، سوروكن" وغيرهم في التطوير الاجتماعي والثقافي .

٢- نظريات أحادية: ومن أمثلتها :

- نظرية "ماركس في" نمط الإنتاج الاقتصادي والوضع الطبقي.

- نظرية "دور كايم" في العقل الجمعي.

- نظرية "جمبلوفتش" في الصراع .

٣- نظريات تعكس تسلسل العمليات الاجتماعية في المجتمع . ومن أمثلتها :

- نظرية "تادنر" التي تحدد المسار الزمني المتتابع للظاهرة الاجتماعية في ضوء العمليات التالية: الاختراع - المعارضة - المحاكاة - التلاؤم. ومن أمثلتها رأي "بارسونز" في تتابع تلك العمليات بمقتضى الاتصال ، الصراع ، التلاؤم والتمثيل[3] .

---

[1] - العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

[2] Francis Abraham (1993).Modern Sociological Theory: An Introduction. George Ritzer(2007).Modern Sociological Theory.

[3] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

تصنيفات أخرى للنظرية:

من التصنيفات الأخرى للنظريات الاجتماعية تصنيف حسب المدى التفسيري للنظرية. ووفقاً لذلك تصنف النظريات الاجتماعية إلى النحو الآتي:

أ- نظريات قريبة المدى: وتتصف بالصفات الآتية:

- دراسة وحدات صغيرة في المجتمع مثل الفرد أو الجماعة الصغيرة أو التفاعل الاجتماعي أو الطلاق أو الجريمة المنظمة.
- دراسة السلوك الإنساني.
- إبراز الجانب النفسي في دراستها.
- طرق بحثها ميدانية وتجريبية أو إحصائية.
- مواضيع بحثها سهلة الملاحظة والسيطرة عليها

ومن أنصار هذه النظريات متز وبلاو وميلز وبيلز.

ب- نظريات متوسطة المدى: وتتصف بالصفات الآتية:

- تتناول مواضيع دقيقة ومهمة وصعبة في دراستها مثل شروط الديموقراطية أو الحرية أو الأنواع المتباينة لأشكال الطبقات في المجتمعات الحديثة.
- تنطلق من مساحات واسعة من الحياة الاجتماعية في دراستها مثل المؤسسات الاجتماعية أو التنظيمات الاجتماعية أو الجماعات المرجعية.

ومن رواد هذه النظريات روبرت مرتون.

ج- نظريات ذات المدى البعيد أو النظريات العامة: وتتصف بالصفات الآتية:

- شمولية في دراستها للمجتمع.
- وحدات دراستها كبيرة وواسعة مثل السكان والمجتمع الإنساني العام والثقافة والحضارة والمؤسسات الاجتماعية والتطور الاجتماعي وعلم الاجتماع المقارن.
- مواضيع دراستها تكون صعبة الملاحظة وصعبة السيطرة عليها.
- تكون مناهجها من النوع الوضعي أو فلسفية.
- تؤكد على الجانب الاجتماعي والحضاري في دراستها للمجتمع.

ويسمى هذا النوع من النظريات بالنظريات الصورية لأنها تهتم بتغطية حقل كامل من حقول علم الاجتماع وفي بعض الحالات علم الاجتماع بأكمله. ومن أنصار هذا النوع من النظريات" أوجست كونت ودوركايم وبارسونز".

د- النظريات القاعدية- الأرضية - التي تدرس الحياة الاجتماعية اليومية:

تطرح هذه النظريات مفاهيم وقضايا بأسلوب سلس يفهمه عامة الناس من غير المتخصصين في علم الاجتماع متناولة عدة مواضيع متنوعة من وجوه الحياة وغير متخصصة بحقل واحد من حقول علم الاجتماع بحيث تنطلق من الحياة الاجتماعية العامة وتنتهي بسلوك الفرد مستخدمة الأسلوب الشعبي أو العام المفهوم والمقبول من عامة الناس. ومن أنصار هذه النظرية "بارني كلاسير وانسليم ستراوس"[١].

وبالتدقيق في مسألة التصنيف في نظرية علم الاجتماع، يمكن التمييز بين مسلكين عامين في داخلهما مسالك أخرى فرعية : يعني الأول بالتصنيف والتنميط مباشرة ، دون الالتفات إلى مسائل المعايير والأسس والشروط المنهجية المطلوبة ،تاركا للقارئ أن يستنتج هو هذه الأشياء من بين ثنايا التصنيف . وأما المسلك الثاني فقد عنى منهجيا توضيح فلسفة التصنيف ومعاييره ، ثم اختبر هذه المعايير من خلال القيام بتصنيف فعلي للاتجاهات. ويمكن القول بأن المسلك الأول كان الأكثر شيوعا وتواترا بين الباحثين، وربما كان ذلك لسهولته. ومن الأمثلة على ذلك محاولة " أليكس إنكليز" في كتابه : ما هو علم الاجتماع؟ [٢] . والذي ركز فيه على عدد من الاتجاهات والنماذج التي رآها كامنة وراء أعمال معظم رواد علم الاجتماع ووراء معظم مدارسه أيضا. وقد كان مخرج هذا التصنيف التركيز على النماذج التالية : النموذج التطوري والنموذج العضوي والمثال عليه البنائية الوظيفية، ونموذج التوازن، في مقابل نموذج الصراع الاجتماعي، ونموذج العلم الطبيعي، أي الذي نظر لعلم الاجتماع كعلم طبيعي، ينبغي دراسة موضوعاته بنفس المنطق المنهجي للعلوم الطبيعية، وأخيراً

---

[١] عمر، معن (١٩٩٢). مرجع سابق، ص١١٥- ١١٦.

[٢] إنكلز، أليكس (١٩٧٧). مقدمة في علم الاجتماع. ترجمة : محمد الجوهري وآخرين ، القاهرة : دار المعارف .

النماذج الرياضية والإحصائية ويلاحظ على هذا التصنيف أنه يخلط بين مضمون الاتجاه المعني، وبين توجهه العام ، ومنهجه. فضلا عن أن اتجاهات أخرى يمكن ألا تجد لها مكانا داخل هذا التصنيف كالاتجاهات النقدية ، والمادية والانتشارية ، وما إلى ذلك.

وأما المسلك الثاني - والذي يهمنا أكثر لمنهجيته ، ومحاولته الجادة - فمن الأمثلة عليه ما وافانا به هلمت فاجنر H.wagner الذي بدأ بطرح عدد من الأسئلة الهامة التي تفيد الإجابة عليها في تبيين الشروط الأساسية، والمعايير المطلوبة لأي تصنيف دقيق أو قريب من الدقة . وهذه الأسئلة تتمثل في ثلاثة أساسية هي:

١- هل هناك اتساق داخلي في التصنيف ؟

٢- هل التصنيف قادر على التمييز بين الاتجاهات الأساسية، خاصة عندما تكون هناك فروق جوهرية بينها؟

٣- هل يوسم التصنيف بالعمومية بشكل يجعله قادرا على تصنيف الاتجاهات القائمة أو - على الأقل - تصنيف معظمها[1]؟

وفي تحليل "فاجنر " لهذه الأسئلة أكد أن هدفه من السؤال الأول هو إبراز معيار أو معايير التصنيف، وأن الاتساق المنشود يمكن تحقيقه كلما قل عدد المعايير، ويفضل استخدام معيار واحد إذا كان ذلك ممكنا، سواء ركز هذا المعيار على جوهر الاتجاه النظري أو على أهدافه، أو منهجيته، أما ما قصده من السؤال الثاني فهو ضرورة تحليل الاتجاهات وتوضيح ما بينها من نقاط التقاء واختلاف، والجوهر المميز لكل منها . وأما السؤال الثالث والأخير فيعني بمخرج التصنيف ، فكلما قلت البقايا التي يصعب إيجاد مكان لها داخل أي من فئات التصنيف كان التصنيف أكثر قدرة على استيعاب الاتجاهات المراد تصنيفها. وحاول اختبار أسس تصنيفه، فأتت نتائجه على النحو التالي:

١- النظريات السوسيولوجية الوضعية التي يعتبر مؤلفوها علم الاجتماع علما طبيعيا ،أو هم يتعاملون معه على هذا الأساس . وتتضمن هذه الفئة النظريات التي تأثرت بالعلوم الطبيعية ، أو قلدتها ، أو تأثرت بأطرها المرجعية بإدخال أبعاد غير سوسيولوجية في تفسير الواقع الاجتماعي. ومن أمثلة هذه النظريات الوضعية الجديدة

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

والإيكولوجية الإنسانية الحديثة ، والبنائية الوظيفية ، والسلوكية والنظرية النفسية الحيوية في الثقافة.

٢- النظريات التفسيرية التي ينظر أصحابها ، أو يتعاملون مع علم الاجتماع على أنه علم اجتماعي يمثل تقابلا متميزا عن العلم الطبيعي. ومن أمثلة هذه النظريات نظرية الفهم الثقافي، أي تفسير الواقع الاجتماعي ، بالثقافة ومن خلالها ، ونظرية الفعل.

٣- النظريات الاجتماعية غير العلمية أو التقويمية ،والتي يتعامل مؤلفوها مع علم الاجتماع كفلسفة وبالرغم من أهمية هذا الجهد منهجيا على الأقل ، فقد وقع صاحبه في أخطاء كثيرة ، أفسدت منتج تصنيفه . فالقول بأن هناك نظريات غير علمية قد يعد تناقضا في الألفاظ .

وإذا انتقلنا من توجه التصنيف إلى المعيار أو المعايير فيمكن لنا التمييز بين محاولات أخذت بمعيار واحد، وأخريات أخذت بأكثر من معيار . ومن الأمثلة على النوع الأول محاولة "جورج جيروفيتش " و "ولبرت مور " في كتابهما "علم اجتماع القرن العشرين " حيث اتخذا من المعيار الجغرافي أساسا لتصنيف النظريات والاتجاهات وفي ضوء المناطق التي ينتمي إليها رواد الاتجاه. وفي ضوئه يمكن ملاحظة تصنيفات لبعض الاتجاهات على أنها اشتراكية أو رأسمالية .ويفصح هذا التصنيف عن نفسه في عدد غير قليل من المؤلفات السوفيتية في علم الاجتماع.

وأما عن المحاولات التي اعتمدت في تصنيفها على أكثر من معيار واحد في التصنيف الواحد فمنها على سبيل المثال وليس الحصر محاولة "نيقولا تيماشيف[1] " . والتي جمع فيها بين المعيار التاريخي لظهور بعض مدارس علم الاجتماع ، وبين ربط بعض النظريات بأسماء روادها وأصحابها، وبين مضمون الاتجاه وغاياته ، وإطاره الفكري بصفة عامة ، وبين التوجهات التفسيرية للاتجاه.

ويذكر عبد الباسط (١٩٩٥) بعض الملاحظات على تلك المحاولات يمكن إيجازها على النحو التالي :

---

[1] نيقولا تيماشيف (١٩٨٢). مرجع سابق.

١- سعت معظم المحاولات إلى الاهتمام بالاتجاهات شبه العامة في النظرية على اعتبار أنها كانت الأكثر تأثيرا في بحوث علم الاجتماع.

٢- لوحظ على بعض المحاولات أنها كلما أرادت أن توغل في التفصيلات دفعها هذا إلى الأخذ بأكثر من معيار ،حتى ولو كان بعضها يتضارب مع البعض الآخر.

٣- يفهم من بعض المحاولات توجها ومخرجا أنها لملمت أكبر قدر متاح أمامها من الاتجاهات حتى ما خرج منها عن إطار علم الاجتماع وطابعه النوعي الذي يميزه عن أشقائه من علوم الإنسان والمجتمع .

٤- خلطت بعض المحاولات بين التاريخ للفكر الاجتماعي ، وبين الاتجاهات النظرية ، الأمر الذي أضاف بعض الغموض إلى الحدود الفكرية والمجتمعية بين بعض الاتجاهات وبعضها الآخر.

٥- مع التسليم بأن عملية التصنيف لا بد من اعتمادها على أسس منهجية فإن معظم المحاولات لم تهتم بهذا أساسا ،أو تركته لاجتهاد الباحث ،ويستثنى من ذلك بالطبع محاولة " فاجنر ".

٦- يمكن القول بأن المحاولات السابقة وأخرى غيرها لم نتعرض لها لدواعي التركيز والاختصار لم تربط بين موضوع نظرية علم الاجتماع ، وبين محاولات تصنيفها. فعدم الالتزام بموضوع علم الاجتماع ، وتباين محاولات تحديد هيكله العام أضفى غموضا على موضوع النظرية من ناحية ، وجعل محاولات التصنيف حافلة بالمثالب والشوائب من الناحية الأخرى.

٧- بالرغم من ندرة المحاولات التي أرادت أن تكون لها منطلقات منهجية ، فلم تستطع تجاوز المصالح التي أرادت تدعيمها ،سواء كانت مصالح خاصة، أو طبقية، ومن ثم عنيت ببعض الاتجاهات أكثر من غيرها، وعلى حساب غيرها .

٨- مع أن علم الاجتماع ، ونشاط المتخصصين فيه بما في هذا التنظير تعد انعكاسا لمجمل الظروف والأوضاع الاجتماعية-الاقتصادية ، فلم ترد هذه الظروف أو الأوضاع في معايير التصنيف لأن المعايير التي تكررت أكثر من غيرها حسب أهميتها هي التي يعكسها الترتيب التالي:

أ- معيار تاريخي تتبعي لظهور بعض الرواد ، أو لنشأة الاتجاهات وتطورها.

ب- معيار جغرافي ، صنف الاتجاهات بالبيئة أو المكان الذي نشأت أو بدأت تظهر فيه.

ت-معيار استند على خلفية الاتجاه، أو مرجعه الفكري الفلسفي، وهو ما يسمى أحيانا بالإطار المرجعي للاتجاه.

ث-معيار منهجي ركز على وجهة الاتجاهات في التعامل مع الوقائع ، وتحليلها وتفسيرها ، من خلال التركيز على طائفة أساسية من العوامل، عدت من وجهة نظر هذا الاتجاه أو ذاك عوامل أساسية في السلوك والعلاقات الاجتماعية ، كالعوامل الإيكولوجية أو النفسية ..الخ.

ج- معيار أتى في قاع التكرار من حيث مرات وروده ، وهو الذي حاول أن يربط بين علم الاجتماع ونظريته، وبين وظائفه العلمية ،أو المجتمعية ، أو هما معا.

وتبقى المعايير التي كان "فاجنر" قد أشار إليها في تساؤلاته الثلاثة وهي التي تتعلق بالاتساق الداخلي للتصنيف. وأنها تفيد في التأكيد على تصنيف قد يكون أكثر ملاءمة، يحمل الخصائص التالية:

١- ضرورة أن يكون التصنيف علميا.

٢- ضرورة أن يعبر التصنيف عن طابع علم الاجتماع ، ووظائفه ، وبالتالي طابع نظريته خصائص، وموضوعا ووظائف.

٣- أن يكون التصنيف قادرا على التعامل مع الاتجاهات الهامة والأساسية ، وأن يتغاضى عن بعض التفصيلات التي قد تكون جزئية أو عرضية.

وإذا كانت هذه هي الشروط أو الخصائص الضرورية في التصنيف ، فالسؤال الذي لم يهتم به الكثيرون هو : على أية أفكار وقضايا نطبق هذا التصنيف؟ هل نطبقه على كل المنتج الاجتماعي منذ نشأة علم الاجتماع، أو على الأعمال الفردية أو على ما يسمى بالاتجاهات؟. وللإجابة على مثل هذا السؤال ، فإنه يمكن استنتاج الأسس التالية:

١- ضرورة أن تكون أفكار وقضايا ما يسمى اتجاها أفكارا عامة واضحة متخللة لأفكار عدد كبير من العقول الخلاقة في فترة أو فترات بعينها.

٢- لا بد أن تكون أفكار وقضايا ما يسمى اتجاها أفكارا متميزة ،أي أنها تسهم في الأساس الذي يجعل خطا فكريا متميزا عن خط فكري آخر.

٣- من الضروري أن يحمل ما يسمى اتجاها خصائص الاتجاه النظري العلمي أي خصائص وشروط ووظائف النظرية العلمية من ناحية ،وطابع علم الاجتماع ونظريته ووظائفهما من الناحية الأخرى.

وإذا حاولنا هنا أن نطبق شروط التصنيف ، وخصائص الاتجاه المقترحين على الاتجاهات المعاصرة في علم الاجتماع ، فإنه يمكن أن نجد الاتجاهين التاليين .

-الاتجاه المحافظ: ونقصد بالاتجاه المحافظ هنا اتجاها يتحلى بالخصائص المذكورة آنفا ،لكنه يسعى إلى الإبقاء على البناء الاجتماعي القائم .

-الاتجاه النقدي: فهو الذي يرى في البناء الاجتماعي القائم مرحلة انتقالية في تاريخ الإنسان ، لا بد من تجاوزها إلى أخريات أكثر كفاءة وأكثر عدلا للإنسان.

وإذا أردنا أن نعرض هذا التصنيف لمحك أو محكات خارجية من خلال كتابات أو نتائج توصل إليها آخرون فيمكن أن نجد أن الاتجاهين اللذين يركز عليهما التصنيف تنطبق عليهما معظم شروط الاتجاه النظري وخصائصه. لذلك فالتصنيف المقترح يفترض أنه يجمع معظم المميزات الفارقة بين الاتجاهين مضمونا وتوجها منهجيا وغاية. ويدلل على هذا ما يلي:

١- في معرض تحليل" روبرت نيسبت R.Nisbet " لتطور التراث النظري في علم الاجتماع أوضح أن مولد العلم في العصر الحديث على يد "أوجيست كونت" أتى محملا بالمحافظة على الأوضاع ، مبررا لاستمرارية النظام القائم مما جعله يصوغ هذه الأيديولوجية الأقرب إلى المحافظة في قوالب علمية.

٢- يركز "رايت ميلز " في أعماله" الخيال السوسيولوجي Sociological BImagination" وتصور الإنسان Image of Man الماركسيون The Marxists على أن المواقف الاجتماعية الرئيسة التي عبرت عنها محاولات التنظير إما أنها أخذت موقفا موجبا مؤيدا ومبررا للنظام القائم وإما أنها أخذت موقفا سالبا نقديا ، لتجاوز النظام القائم. والموقف الثاني يكاد يكون أكثر اتساقا مع علم الاجتماع ، لأنه يعبر عن حصاد الغايات العلمية والمجتمعية للعلم.

٣- أن علم الاجتماع شأنه شأن كثير من العلوم كان قد نشأ في أحضان الفلسفة، وإن كانت هذه العلوم قد استقلت عن الأم فهي جميعا تكاد تدور في فلكها واتجاهاتها.

٤- توضح أعمال " ألفن جولدنر" أبرز من أسهم في الحركة النقدية المعاصرة في علم الاجتماع ونظريته، سواء في كتابه "الأزمة المقبلة لعلم الاجتماع الغربي أو في عمله "من أجل علم الاجتماع ،التجديد والنقد في علم الاجتماع اليوم .

٥- أكد " بيتر ورسلي" Worsley .P على أن التنظير الاجتماعي مطالب بالاهتمام بسياق المجتمع المعاصر، سواء من خلال إبراز فاعلية النظرية أو من خلال الموقع المجتمعي الذي يود الباحث التعبير عنه، على أن يكون كل هذا متوجها نحو المستقبل، من خلال رؤى وتصورات واضحة.

٦- يرى "ستيفان نوفاك S.NowaK " من خلال تحليله لتطور علم الاجتماع أن معضلة هذا العلم تتمثل في أنه أثبت أنه قام بأدوار محافظة، ومع تسليمه بأن هناك ضغوطا مباشرة أو غير مباشرة هي التي دفعت بالباحثين نحو هذه الوظائف[1].

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

مقاربة بين الاتجاهات العلمية الرئيسة في علم الاجتماع

	الوظيفية	الصراعية	التفاعلية
الرؤية للمجتمع			
مستوى التحليل	الوحدات الكبرى	الوحدات الكبرى	التحليل المجهري (الصغرى) كطريقة لفهم الظواهر الكبرى
الرؤية للفرد	يتم تنشئة الناي فنجاز الوظائف المجتمعية	يتشكل الناس بواسطة القوة والقسر والسلطة	يستخدم الناس الرموز ويخلقون عالمهم الاجتماعي من خلال التفاعل
الرؤية للنظام الاجتماعي	تتم المحافظة على النظام من خلال التعاون والإجماع	تتم المحافظة على النظام بالقوة والقسر	تتم المحافظة على النظام من خلال الفهم المشترك للسلوك اليومي
الرؤية للتغيير	ينبغي تعزيزه وتأكيده	التغير يحدث يوميا مساحات إيجابية	ينعكس التغير في الأوضاع الاجتماعية للناس واتصالاتهم مع الآخرين
مثال	العقوبات العامة تدعم النظام الاجتماعي	القوانين تدعم أصحاب القوة	يحترم الناس القوانين أو ينتهكونها استناداً إلى خبراتهم الماضية
منظروها	أميل دوركايم. تالكوت بارسونز. روبرت ميرتون.	كارل ماركس. رايت ميلز. لويس كوزر. دارهرندوف.	جورج ميد. هربرت بلومر. أرفينج جوفمان. جارفينكل.

عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٤٤.

العلاقة بين النظرية والبحث العلمي:

أثر النظرية في البحث العلمي:

ليست النظرية شيئاً منقطعاً عن البحث. وإنما هي تأسيس له. فعندما يبدأ الباحث بدراسة ظاهرة ما أو مشكلة ما، فإنه يجهل الكثير عن الجوانب المختلفة لهذا الظاهرة. ولذلك يلجأ الباحث إلى دراسة النظريات الاجتماعية حتى يكون لديه تصور ورؤية واضحة نحو المشكلة المدروسة. وبهذا فالنظرية هي المدخل العلمي إلى دراسة المشكلة. لأنها تشكل الإطار المرجعي، أو الهيكل العظمي للبحث. فهي الإطار الذي يحتوي على تصور نظري واضح لمشكلة البحث. أو بمثابة خارطة نظرية للبحث. إن النظرية الاجتماعية الناجحة هي التي تعطي فكرة عن الموضوع الذي نريد دراسته. وتبين المسائل الأساسية التي يركز عليها البحث، والظواهر التي ينبغي ملاحظتها، والمعرفة التي نريد الحصول عليها. ولذلك فإن النظرية تساعد الباحث على فهم المشكلة المدروسة، والتعمق فيها. وتزوده بالمفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالمشكلة، وتوسع أفقه النظري من خلال المقارنة بين النتائج التي توصل إليها الباحثون السابقون. وبهذا تؤسس النظرية البحث، وتشكل وحدة متكاملة معه. ذلك أن البحث هو اختبار للأسئلة والقضايا النظرية والمنهجية التي طرحها الباحث، ويساهم في الحصول على بيانات، تساعدنا في تعديل وتطوير النظريات، والمفاهيم[1].

إن النظرية العلمية تحتل مكانة متميزة في البحث العلمي بصفة عامة سواء أكان موضوع هذا البحث ظاهرة طبيعية أو ظاهرة إنسانية. وأوضح أهميتها خاصة في تحديد هوية أي علم من العلوم. أما نظرية أي علم كعلم النفس أو علم الاجتماع - مثلا - فهي التي تحدد موضوعه وتنظم عملياته وأدواره، بل ومساره. هذا على خلاف النهج العلمي الذي يعد أساسا واحدا لكل العلوم، وإن اختلفت تفصيلات أدواته وتكنيكاته باختلاف الظاهرة المدروسة. فالملاحظة مثلا خطوة أساسية في كل بحث علمي، طبيعي أو إنساني، والاختلاف إنما يكون في أدوات الملاحظة التي قد تكون المنظار الفلكي والاختبار النفسي، أو دليل الملاحظة كما في علم الاجتماع[2].

---

[1] عرابي، عبد القادر (٢٠٠٠). مرجع سابق، ص ٢٢-٢٣.

[2] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

ويمكن تحديد أثر النظرية الاجتماعية في البحث على النحو الآتي:

١- توجيه النظرية للبحث نحو الموضوعات المثمرة.

٢- تضفي النظرية على نتائج البحث دلالة ومغزى.

٣- تنطوي النظرية على توجيهات عامة تمدنا بالسياق الذي يجري البحث في نطاقه.

٤- توجيه مفاهيم النظرية وتصوراتها عملية جمع وتحليل معطيات البحث[1].

٥- تعد النظرية أداة تساعد الباحث على ملاحظة القضايا المهمة ودراستها وتفسيرها، وخصوصاً ما يعبر عن اتجاهات التغير الاجتماعي.

٦- أنها تنمي العقل النقدي والتصوري والإبداعي والخيال السوسيولوجي للباحث، وتمكنه من فهم السياقات العامة لعملية التغير الاجتماعي.

٧- تساهم النظرية في صياغة مشكلة البحث والفروض.

٨- النظرية هي رؤية العالم بشكل عام، فهي تساهم في تفسيره.

٩- تساهم النظرية في تحليل وتعميق النتائج التي توصل إليها الباحث، ومقارنتها بنتائج البحوث الأخرى.

١٠- للنظرية عدة أبعاد، وهي البعد المنهجي، والمعرفي، والعاطفي، والتأملي، والمعياري، أما البعد المنهجي فيكمن في مراجعتها لمضامين المعرفة وأبعادها ووظائفها، وتغييرها، وتنسيقها. ويتجلى البعد المعرفي بوصفها وسيلة لإقامة المعرفة عن العالم. أما البعد العاطفي فيتمثل في كون النظرية تجسد خبرات المنظر ومشاعره. وبعد تأملي، وبعد معياري، والذي يكمن في أن النظرية هي بالضرورة جزء من الحياة، كما أنها طريقة لفهمها.

١١- أن النظرية تحتوي على إمكانية التطبيق، حيث تفيد في رسم السياسة والتخطيط والإصلاح المؤسسي والتنظيمي، كما أنها تقود الفكر والمناظرة والخلاف في هذا الخطاب[2].

[1] جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ٥٠-٥٣.

[2] عرابي، عبد القادر (٢٠٠٠). مرجع سابق، ص ٢٥-٢٦.

١٢- أن النظرية تساعد على فهم ما يجري حولنا في العالم. فوفق ما يشير إليه "أيان كريب "Cruib , Ian (1992) في كتابه النظريات الاجتماعية الحديثة، إن اللجوء للنظرية الاجتماعية لا يتعلق بالقضايا المرتبطة بالبحث الاجتماعي فقط، بل إنها القضايا المتعلقة بما نواجهه في حياتنا اليومية. مثل حاجتنا لفهم ما يحدث لنا وللأفراد الآخرين من حولنا. أو تلك التي تنبع من خياراتنا ورغباتنا الأخلاقية والسياسية[١].

وبشكل أكثر دقة نجد أن دور النظرية في العلم يتحدد فيما يلي:

١- أنها تحدد للباحث مجالات للتوجيه يستطيع في ضوئه أن يختار من المعلومات والبيانات ما يصلح للتجريد.

٢- أنها تقدم الإطار التصوري الذي ينظم ويصنف الظواهر ويعين العلاقات المتبادلة بينها.

٣- أنها تلخص الواقع في صورة تعميمات تجريبية من جهة وفي نسق منطقي يضم طائفة من هذه التعميمات من جهة أخرى.

٤- أنها أداة للتنبؤ بالظواهر في الظروف التي لم تلمسها من قبل.

٥- أنها تحدد الثغرات ومواضع النقص في المعرفة[٢].

وبالتالي من خلال ما عرضنا له من أهمية النظرية للبحث الاجتماعي، نجد أن أثر البحث في النظرية يكمن في الجوانب التالية:

١- يسهم البحث في تطوير النظرية.

٢- يسهم البحث في تطوير النظرية عن طريق الصدفة والاتفاق. وعلى نحو لم يخطط له سلفاً.

٣- يسهم البحث في إعادة صياغة النظرية.

٤- يسهم البحث في إعادة تحديد محور اهتمام النظرية.

٥- يسهم البحث في توضيح مفاهيم النظرية[٣].

---

[١] Cruib , Ian (1992). Modern Social Theory . Harvester, second Edition , p 21.

[٢] أبو طاحون، عدلي (ب د). مرجع سابق، ص ٩.

[٣] جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص٥٧-٦٦.

إذاً العلاقة ليست أيهما أكثر تأثيراً في الآخر. فالعلاقة وثيقة بين النظرية والبحث الاجتماعي، فلا بحث بدون نظرية، ولا نظرية تنتج وتبنى إلا من خلال دراسات وبحوث أمبريقية كونت هذه النظرية أو تلك.

مع الإشارة إلى أن هناك قضية مهمة أشار لها كثير من الباحثين المعاصرين. وهو ما عرف بالتعدد النظري في التفسير العلمي للبحوث الاجتماعية. أو ما عرف بالتعدد المنهجي الشامل في البحث الاجتماعي.

حيث تحظى العلوم الاجتماعية بوجود عدد كبير نسبياً من النظريات. وهي تتفاوت من حيث التركيز على المواضيع التي تتناولها، سواء ركزت على الشخصية أو على تفسير المجتمع أو على ظاهرة اجتماعية بعينها. كما تتفاوت من حيث طريقة بنائها (استقرائية أو استنباطية)، وكذلك من حيث قوتها ودرجة التحقق التجريبي من فرضياتها. وبالرغم من وجود هذا الكم الضخم من النظريات، فإنه ليس هناك نظرية تحظى بقبول كافة المتخصصين في أي فرع من فروع العلوم الاجتماعية. ذلك لأن كل نظرية تنظر إلى الظاهرة من منظور مختلف خاص بها. وعليه فإن اللجوء إلى نظرية بعينها لتفسير ظاهرة اجتماعية ما، من شأنه أن يحد من نظرة الباحث إلى الظاهرة المدروسة بشكل كبير، ويقلل، بالتالي، من مصداقية تفسيره لتلك الظاهرة. إلا أنه قلما يتمكن الباحثون من توظيف هذا النوع من أنواع التعددية. فعادة ما تكون الدراسات الاجتماعية قائمة على عدد بسيط من الفرضيات والتي تمثل أبعاد ومحاور تلك الدراسات، ومن ثم تتم عملية جمع البيانات في إطار تلك المحاور والأبعاد. ولكن اللجوء إلى أكثر من نظرية وأكثر من منظور في دراسة الظاهرة، أو المشكلة الاجتماعية، له فائدة كبيرة. فتعدد النظريات يسمح للباحث أو الباحثين باختبار البيانات والمعلومات المجموعة في الدراسة، عن طريق أكثر من نظرية، مما يجعل التفسير المتوصل إليه أقرب إلى الدقة والصواب، لأن توظيف أكثر من نظرية في دراسة الظاهرة نفسها يمنع الباحث من التحيز لنظرية معينة وتجاهل نظريات أخرى. وفضلا عن ذلك، فإن استخدام أكثر من نظرية لتفسير الظاهرة أو المشكلة، محل الدراسة، يجعل الدراسة والتحليل أكثر عمقاً.

إذ إن هناك تشابهاً بين تعدد النظريات والتكامل المعرفي inter-disciplinary approach، لذا من المهم التفرقة بينهما. فالتكامل المعرفي نشأ أساساً نتيجة إدراك علوم كثيرة- ومنذ وقت طويلَ- أن ما لديها لوحدها، وما تم الوصول إليه في حدود العلم أو الحقل ذاته لا يكفي، وأنها تحتاج إلى ما وصلت إليه العلوم الأخرى من تجارب وحقائق. وعلى الرغم من التشابه الموجود بين فكرة التكامل المعرفي وتعدد النظريات، إلا أن هناك أوجه اختلاف بينهما. فالتكامل المعرفي في واقعه هو الاعتماد على أكثر من حقل في دراسة الظاهرة نفسها، ومن الممكن أن يكون الاعتماد على نظريات مختلفة من حقول علمية مختلفة في دراسة الظاهرة محل الدراسة، بينما يعتمد التعدد النظري على أكثر من نظرية (بغض النظر عما إذا كانت النظرية أساسا قد وصلت إلى الحقل عن طريق التكامل المعرفي) في إطار الحقل نفسه في دراسة الظاهرة [١] .

النظرية الاجتماعية والأيديولوجيا:

في كل نظرية اجتماعية توجد افتراضات أو مسلمات تعتبر محوراً أساسيا تدور حولها النظرية وقد يخضعها صاحب النظرية للمناقشة ويقدم أدلة عليها أو قد يقدمها على أنها مسلمات لا تقبل الشك، وقد تكون هذه الأفكار المحورية ظاهرة ومعبراً عنها بوضوح في النظرية وبالتالي يسهل مناقشتها أو تكون كامنة أو خافية وبالتالي يصبح علينا أن نبذل جهداً في استنتاجها من خلال النظرية، وإخضاعها للمناقشة. وقد أطلق "ألفن جولدنر" على هذه الافتراضات تسمية الافتراضات الخلفية. وعادة ما تعكس هذه الافتراضات التوجه الأيديولوجي لصاحب النظرية وانحيازاته الاجتماعية [٢]. وقد صنف أحد الباحثين الافتراضات الأساسية إلى خمس فئات، وهي:

١-افتراضات خاصة بطبيعة الواقع الاجتماعي وهذه الافتراضات المتعلقة بالتغير أو الثبات في النظام الاجتماعي فهناك من العلماء من يؤكدون أن الواقع الاجتماعي في حالة تغيير دائم وأن النظام الاجتماعي ليس ثابت ولكنه يكون دائماً في

---

[١] الدامغ، سامي (١٩٩٦). التعدد المنهجي. مجلة العلوم الاجتماعية، العدد (٤)، جامعة الكويت، الكويت.

[٢] نعيم، سمير (١٩٨١). النظرية في علم الاجتماع. القاهرة: مكتبة سعيد رأفت، ص٥٥. وانظر الفصل التاسع والذي تضمن بعض أعمال " ألفن جولدنر".

حالة ثبات واستقرار. ويرتبط بهذا الافتراض افتراضات متعارضة فيما يختص بقدرة الإنسان على السيطرة على بيئته فأصحاب الاتجاه الأول (الثبات) يرون أن الإنسان لا يفعل أكثر من أن يستجيب للنظام القائم (أي يتلاءم معه) أما أصحاب الاتجاه الثاني (التغير) يرون أن في وسع الإنسان أن يغير دائماً من بيئته.

٢-افتراضات متعلقة بالتكامل أو الصراع : فهناك افتراضات تسلم بفكرة التكامل من أمثال بارسونز أن الإنسان يسعى بطبعه إلى الاتساق والتعاون وأنه يتجنب التوتر والصراع ووجهة النظر هذه تتناقض تماماً مع وجهة نظر علماء مثل: ماركس وزميله الذين افترضوا أن الإنسان في حالة صراع دائم مع بعضه البعض.

٣-افتراضات متعلقة بالمادية أو المثالية: بعض علماء الاجتماع قد يسلمون بالأساس المادي للواقع الاجتماعي ولكنهم لا يسلمون بفكرة الصراع وكان الماركسيون هم أول من قدموا التفسير المادي للواقع. وهناك فريق يتبنى فكرة الثنائية (أي المادية والمثالية في أن واحد) مثل علماء اجتماع الظاهرية.

٤-افتراضات خاصة بالوحدة الأساسية لدراسة الفرد أو المجموعة : بعض العلماء يرفض فكرة المجموعة أو النسق الاجتماعي كوحدة التحليل فهم يعتقدون أن الكل أو المجموعة ليست أكثر من مجرد مجموعة الأجزاء بينما يرى الآخرون من بينهم أن الكل هو وحدة الدراسة وأنه يختلف عن مجرد مجموعة بين الأجزاء، أما موقف الماركسيون فهم يؤكدون على العلاقة الجدلية بين الكل والجزء[1].

٥-افتراضات خاصة بطبيعة الإنسان وقدراته : فهناك من العلماء من افترض أن الإنسان وأفعاله غير منطقية فالذين يتبعون الفكر الفرويدي مثلاً يعتقدون أن الإنسان قد خلق مجتمعاً يعمل دائماً على كبت حوافزه البيولوجية وهناك فريق آخر يرى أن الإنسان كائن عقلاني.

كما أن من بين العلماء من يسلمون بفكرة "توماس هوبز" أن الإنسان شرير بطبعه وأنه يهدف إلى مصلحته الخاصة على حساب مصلحة الآخرين، بينما يسلم غيرهم بأن الإنسان يرغب دائماً في التضحية بمصالحه من أجل الصالح العام. كما نجد من بين علماء الاجتماع أولئك المتشائمون فيما يتعلق بقدرة الإنسان على تحسين وتطوير

[1] نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص٥٨.

ذاته وبيئته مثل الوضعيون الذين لا يسلمون بأن الإنسان يستطيع التحكم في بيئته بينما يرى أصحاب نظرية التفاعل الرمزي مثل "بلومر وميد" أن الإنسان قادر على تحسين ذاته والماركسيون يحاولون التوفيق بين فكرة حتمية السلوك الإنساني ومن جهة قدرة الإنسان على إعادة تشكيل بيئته من خلال الجهود الثورية من جهة أخرى [1].

ويشير نعيم (١٩٨١) أن الباحث إذا كان مادياً جدلياً فإنه سيبدأ بالتسليم بأن أساس الواقع الاجتماعي مادي وأن هذا الواقع في حالة تغير مستمر وأن التغيرات الكمية تؤدي إلى تغيرات كيفية وأن هذا الواقع يتضمن دائماً صراع بين الأضداد هذا الصراع هو الثورة المحركة للتاريخ حيث نجم عنه كيف جديد يدخل في صراع مع ضده لينجم عن ذلك كيف آخر. كما أنه سوف يعتبر وحدة الدراسة الاقتصادية والمتغير التفسيري الرئيس هو التكوين الاقتصادي الاجتماعي (إقطاعي، رأسمالي، اشتراكي) وسوف يركز بصفة أساسية أيضا على الدراسة الأساسية كما أنه سيجعل الحالات النفسية والقيمية والثقافية متغيرات تابعة وليست متغيرات مستقلة، كذلك سوف يفترض منذ البداية أن الإنسان قادر على تغيير واقعه الاجتماعي ويختلف ذلك عن الباحث الوضعي الذي يبدأ بالتسليم بأن أساس الواقع الاجتماعي فكري أو قيمي أي مثالي، كما أنه سيجعل وحدة دراسته الفرد أو المجموعة الصغيرة[2].

فلا تخلو نظرية اجتماعية من مضمون أيديولوجي، وعند مناقشة المضمون الأيديولوجي لأي نظرية اجتماعية لا بد أن تراعي ما هو النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي يصوره صاحب النظرية على أنه النظام الأمثل للبشرية وما المجموعة صاحبة الحق في السيطرة على المجتمع، وما المجموعة التي يدافع صاحب النظرية عن مصالحها، وما الجوانب التي يبرزها والجوانب التي يتجاهلها ولمصلحة من هذا الإبراز أو التجاهل وما موقف صاحب النظرية السياسية والأدلة على انتماءاته وولاءاته الاجتماعية. وإخضاع المسلمات والمبادئ التي تدور حولها النظرية للنقد والفحص الدقيق يساعدنا على إثبات صدق أو زيف هذه المسلمات ومحاولة التعرف على التحيزات السياسية

---

[1] نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص ٥٨ . وكذلك: جورج لارين (٢٠٠٢). الأيديولوجيا والهوية الثقافية: الحداثة وحضور العالم الحديث، ترجمة فريال خليفة. القاهرة: مكتبة مدبولي.

[2] نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص٦٦.

والأيديولوجية التي تتضمنها النظرية. ولا شك أن علم الاجتماع لا يستطيع أن يؤدي مهامه بنجاح دون التزام أيديولوجي محدد وواضح ذلك إن مثل هذا الالتزام هو القادر على رسم معالم هذا العلم سواء على مستوى النظرية أو المنهج أو النتائج. لقد هبطت الأيديولوجيا إلى مرتبة متدنية بسبب زعم الوضعيين المحدثين بأن الالتزام الفكري يقيد حركة البحث الاجتماعي ويتعارض مع متطلبات الموضوعية أن عكس ذلك هو الصحيح تمامًا فالعمى الأيديولوجي والجبن الأخلاقي كان من أسباب تخلف علم الاجتماع الوضعي الحديث عن فهم المشكلات الحقيقية للإنسان المعاصر[1].

يشير بعض الباحثين أن ارتباط علم الاجتماع كواحد من العلوم الإنسانية بأيديولوجية معينة أو بفلسفة من الفلسفات أمر ضروري ولا يعيب هذا العلم ذلك، فالعلم يجب أن يكون بالضرورة للمجتمع والمجتمعات ما زالت متباينة وأيديولوجيتها أو فلسفتها السائدة تكون بالضرورة متباينة، وعلم الاجتماع كواحد من العلوم الإنسانية، يهتم بالتعرف موضوعيًا على ما هو كائن في المجتمع لكي يغيره إلى ما يجب أن يكون أو إلى ما يمكن أن يكون، أي أن علم الاجتماع هو علم الاجتماع ولكن دوره يختلف في المجتمعات البشرية في الوقت الحاضر حسب اختلاف مصالح هذه المجتمعات وحسب اختلاف أيديولوجيتها أو الفلسفات السائدة في هذه المجتمعات وأثر هذا الاختلاف يبدو واضحًا في مجتمع أو آخر في أهداف تطبيق القوانين أو النظريات التي يكشفها هذا العلم وفي نمو هذا العلم وفي نوعية هذا النمو وفي اتجاهاته[2].

وكذلك يوضح "جولدنر" أن النظرية الاجتماعية هي أيديولوجيا ذات تحيز محافظ وتزييف للواقع بل إنه هاجم مناهج علم الاجتماع وأدواته متهما إياها بالتحيز الأيديولوجي أيضا. كما أن هناك من العلماء من يرى في علم الاجتماع وسيلة لفهم العالم وذلك تمهيدا لتحقيق ظروف أكثر ملاءمة يمكن أن يعيشها الإنسان ويؤكد هذا

---

[1] السيد الحسيني (١٩٨٢). نحو نظرية اجتماعية نقدية. القاهرة: دار المعارف. وكذلك انظر: السمالوطي، نبيل (١٩٧٥). الأيديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[2] سيد عويس (١٩٨٤). علم الاجتماع في المجتمعات النامية بين التبعية والاستقلال، ندوة إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي. القاهرة: المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.

الاتجاه أن العلم علم وأن هذه العلاقة المدعاة بين الأيديولوجيا والعلم علاقة زائفة ولا سند لها من الحقيقة ورواد هذا الاتجاه (مارتندال - ريمون آرون). ويؤكد دون "مارتندال" أن قضية أن علم الاجتماع كان جزءا من أيديولوجية محافظة ليس هجوما أو دفاعا عن علم الاجتماع، وذلك أنه طالما يقال على نطاق ما أنه أيديولوجيا ، فإن هذا النطاق يحرم من صفة كونه علما ذلك لأن طبيعة العلم تؤكد أن الموافقة النهائية لأي تعميم ترتكز على المحكات الموضوعية ، ويؤكد أن علم الاجتماع يستطيع أن ينمو ويبقى فقط إلى الدرجة التي يتمكن فيها من صياغة معايير علمية ومهنية. أما "ريمون أرون" فيرى أن من الضروري أن نميز بين النظرية والمنهج العلمي المتصل بالواقع عن الأيديولوجيات أو التصورات الخاطئة والمتميزة والناتجة عن المواقف الطبقية التي تحرم الإنسان من رؤية الحقيقة، بل أن من الضروري أن نقيم فواصل بين أنماط التفسيرات العقلية المختلفة وأن ندرس علاقتها بالواقع الاجتماعي، فالفكر الإنساني يمكن أن يصل إلى الحقيقة الصادقة للجميع وليست الحقيقة الصادقة لطبقة واحدة[1].

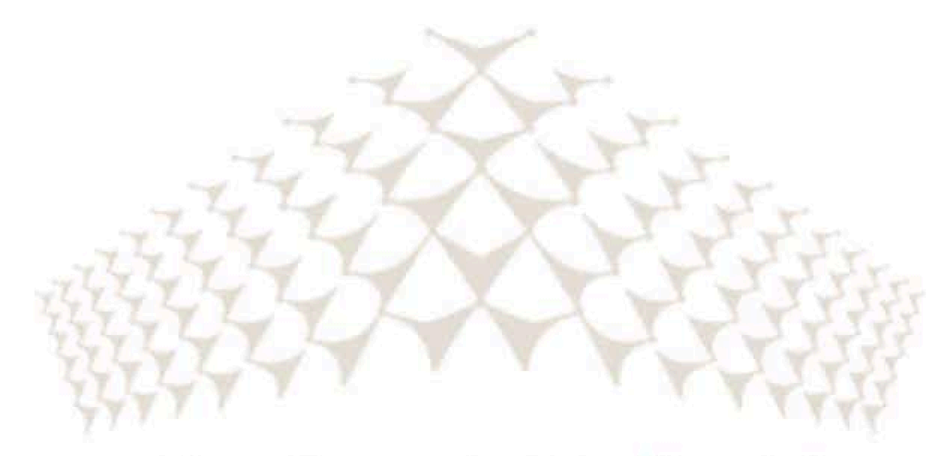
ومع أن " دور كايم" يركز على تعريف الظواهر الاجتماعية بما يقترب من أسبقية الوجود على الأفراد وبما يمكن أن تمارس من قهر وألزام على هؤلاء الأفراد إلا أنه اتجه إلى تغيير وجهة نظره فيما بعد، إذ بدأ يتجه في مرحلة نضجه إلى معالجة الظواهر الاجتماعية وبصفة خاصة القواعد الأخلاقية بوصفها موجهات فعالة وضوابط ضرورية ترتبط كفاءتها وفعاليتها بمقدار استدماجها في ضمائر الأفراد ووعيهم، وهنا يتحول القهر المفروض على إرادة الفرد من قبل الظواهر الاجتماعية إلى نوع من الالتزام الأخلاقي بطاعة القواعد الخلقية والامتثال لها. أي أن الظواهر الاجتماعية مستقلة في وجودها عن الإرادات الفردية وأنها غير مترتبة على هذه الإرادات بل هي سابقة عليها ومستقلة عنها والواقع أن هذا المبدأ يشكل لب منهج دوركايم الاجتماعي كما أنه مفتاح أساسي من مفاتيح فهم موقفه الأيديولوجي والسياسي إن الوجود الموضوعي للظاهرة الاجتماعية يعني أن المجتمع والدولة هما الآلة الجديد عند "دوركايم" كما يصبح المجتمع أيضًا هو الأساس الأيديولوجي (الواقعية الاجتماعية المنهجية)[2].

---

[1] ليلة، علي (١٩٩١). النظرية الاجتماعية المعاصرة. القاهرة: دار المعارف.

[2] نعيم، سمير (١٩٨٣). مرجع سابق.

ويـرى عبـد المعطـي (١٩٨٥) أن "دوركـايم" أراد أن يبـدأ وضـعيًا بدراسـة الظاهرات الاجتماعية كأشياء وبالتركيز على أبعادها الخارجية القابلة للملاحظة لكنه سقط في المثالية لأنه علق كل شيء على القيم والمشاعر ونظرًا لصعوبة دراسة هذه الأبعاد وضعياً كأشياء فقد استبدل التحليل السوسيولوجي بالتوجه السيكولوجي الاستبطاني وقد وقع دوركايم في تناقضات فنادى بدراسة الظواهر كأشياء في نفس الوقت أنكر أهمية الجوانب المادية والاقتصادية، وطالب بإبعاد التفسيرات البيولوجية والنفسية عن الحقل الاجتماعي ولكنه عقد مماثلات بيولوجية بين الظاهرة المجتمعية والظاهرة الحيوية[1].



[1] عبد الباسط، عبد المعطي (١٩٨٥). مرجع سابق.

الفصل الثاني
النظرية الوضعية

أولاً- سان سيمون :

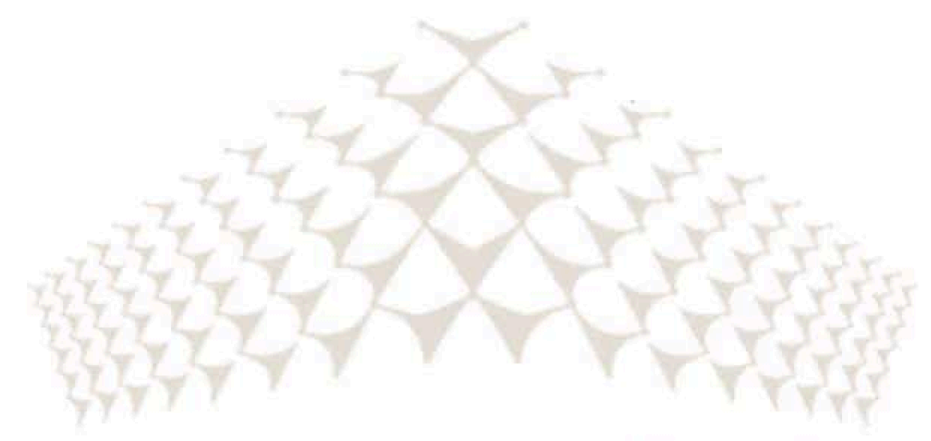
- حياته.
- المرجعية الفكرية للمدرسة الوضعية.
- الفلسفة الوضعية.
- مفهوم الأمة العاملة والسياسة، والحرية.
- المجتمع الإنتاجي.
- الخلاصة.

ثانياً- أوجست كونت.

- حياته.
- المنهج الوضعي.
- تأسيس علم الاجتماع .
- الديناميكا الاجتماعية.
- نظرية التقدم.
- المعالم الرئيسة لمشروع أوجست كونت الفكري.
- تحديد مكونات المجتمع.
- أسس الدراسة ومنهج البحث.

ثالثاً- هربرت سبنسر:

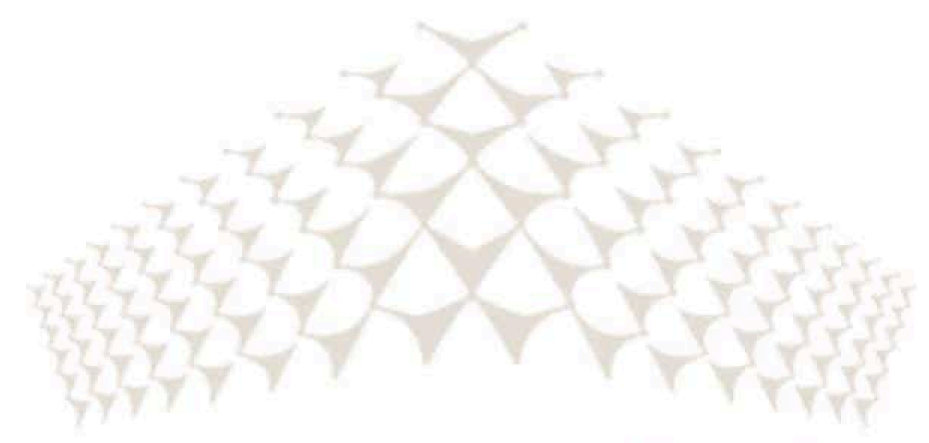
- حياته.
- المبادئ العامة لفلسفة سبنسر.
- حقائق بيولوجية.
- تطبيقات الحقائق البيولوجية في الحقائق الاجتماعية.
- المجتمع بين الاستقرار والانحلال.
- نظرية سبنسر في تصنيف المجتمعات.





أولاً- سان سيمون .

- حياته.
- المرجعية الفكرية للمدرسة الوضعية.
- الفلسفة الوضعية.
- مفهوم الأمة العاملة والسياسة، والحرية.
- المجتمع الإنتاجي.
- الخلاصة.



الفصل الثاني
النظرية الوضعية

أولاً: سان سيمون S. Simon (1825 - 1760) :

حياته:

سان سيمون (١٧٦٠- ١٨٢٥م) عالم اجتماع فرنسي متقدم ترك تأثيره الكبير على من جاء بعده من منظرين مثل : أوجست كونت، وكارل ماركس، وحتى دوركايم، وبارسونز. ولد سان سيمون في باريس عام ١٧٦٠م لأسرة أرستوقراطية من سلالة الملك شارلمان. تشكلت حياته ككاتب ومصلح اجتماعي في الفترة من ١٨١٧-١٨٢٣م. أصدر بمشاركة سكرتيره أوجست كونت كتاب (خطة العمل العلمي اللازم لإعادة تنظيم المجتمع) عام ١٨٢٢م. وله كتاب (المسيحية الجديدة). أسس لنظرية التقدم الاجتماعي، وصاغ مصطلح " المجتمع الصناعي". عاش سان سيمون في نظام إقطاعي سليلاً لأسرة أرستقراطية، ويحمل لقباً اجتماعياً هو "الكونت" وكان ضابطاً برتبة ملازم أول لما كانت فرنسا تخوض حربا ضد الإنجليز في شمال القارة الأمريكية، وقد نضج فكره خلال الثورة الفرنسية التي كانت بمثابة ثورة على النظام الاجتماعي والاقتصادي في أوروبا عامة وفرنسا خاصة وثورة على النظام المعرفي التقليدي السائد في فرنسا وثورة على النظام السياسي الملكي[1].

المرجعية الفكرية للمدرسة الوضعية:

لا خلاف على أن الفكر الاجتماعي نشأ في أحضان الظروف المتغيرة التي مر بها المجتمع الأوروبي . وليس معنى ذلك أن هذا الفكر وليد هذه المرحلة المعروفة بالتطور الصناعي . والدليل على ذلك وجود تيارات فكرية معارضة وأخرى محافظة قبل بداية

[1] انظر : سيرة سان سيمون في كتاب : ميشيل مان (١٩٩٤). موسوعة العلوم الاجتماعية. ترجمة عادل الهواري وسعيد مصلوح. الإمارات العربية المتحدة: مكتبة الفلاح، ص ٦١٦-٦١٨.

هذه المرحلة التاريخية المتغيرة . ففي العصر الإقطاعي نجد نخبة مفكرة تساند وتدعم ما يمكن تسميته بالفكر اللاهوتي . وفي مرحلة التحول نحو المجتمع البورجوازي أو الصناعي نجد فكراً مدعماً لنمط الإنتاج الرأسمالي ساد هذه الفترة . وليس معنى ذلك أيضاً أن ظهور الفكر الأخير ألغى تماماً مقولات الأول، حيث إن الفكر لا يلغي بشكل تلقائي نتيجة هذا التطور، وإنما نجد أن المرحلة التاريخية تحمل بين طياتها سمات ثقافية سابقة عليها [1].

وقد عرفت " الوضعية " كاتجاه فلسفي في القرنين السابع عشر والثامن عشر . إلا أن تطبيق الوضعية في مجال الفلسفة الاجتماعية لم يتم إلا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نظراً للمحاولات التي بذلت من أجل نشر الفكر العلمي بدلاً من التصور اللاهوتي الغيبي السائد في ذلك الوقت، والعقلانية بدلاً من الفكر الكنسي وذلك بسبب تطلع الفكر الاجتماعي إلى تطبيق ما وصلت إليه العلوم الفيزيائية من تقدم علمي قائم على المعرفة العلمية وتطبيقاتها في مجال العلوم الطبيعية [2].

المقاربة الوضعية هي منهجية تحليلية تقوم على استبعاد أنماط الفكر والتحليل اللاهوتي (الديني) والميتافيزيقي (التجريدي = الطبيعة) من أي تحليل مقترحة بديلاً عنهما الإنسان الذي بات يتمتع بقيمة مركزية في الكون، بهذا المضمون سنكون على إطلالة لمعادلة جديدة تحكم سير الحياة الاجتماعية برمتها على النحو التالي:

الظاهرة	الظاهرة	الظاهرة
مرجع لاهوتي	مرجع ميتافيزيقي	مرجع إنساني/ الوضعية
الدين	الطبيعة = التجريد	العقل

هذه المعادلة التي ستمثل لدى "أوجست كونت" المراحل التي مرت به الإنسانية ومصدر قانون الحالات الثلاث تبين لنا أن الإنسان لم يكن موضع ترحيب في المرحلتين السابقتين، إذ إن الإنسان عجز عن أن يجد له موقعاً أو مكانة فيما مضى لذا فقد استبعد من أي تحليل للظواهر مفسحاً المجال أمام القوى الدينية أو قوى الطبيعة. وبما أنه لم يكن للإنسان أية قيمة فلم تكن أيضاً للمجتمع آية قيمة، ولهذا تطورت الوضعية العلمية التي

---

[1] حجازي، أحمد (١٩٩٨). علم اجتماع الأزمة. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر .

[2] حجازي، أحمد (١٩٩٨). مرجع سابق.

تناولت ظواهر طبيعية بينما لم تتطور ذات الوضعية حينما كانت تتناول ظواهر متعلقة بالإنسان والمجتمع ، وسنرى كيف وضع أوجست كونت حداً لهذه الازدواجية في التفكير والتي يسميها الفوضى العقلية التي تسببت في ثلاث ثورات برجوازية وقعت في أعقاب الثورة الفرنسية 1789 حتى سنة 1848م.

وقد بدأت المقاربة الوضعية في مرحلة الفكر الموسوعي الذي عرفه في القرن الثامن عشر. واتخذت عند "سان سيمون" طابعاً تطبيقياً عملياً وليس نظرياً مثلما كان سائداً في المرحلة التجريدية أي العلم النظري المجرد، ففي القرن الثامن عشر طور الفكر الموسوعي آليات تحليل جديدة تقوم على الترابط بين المعرفة والواقع الإنساني لذا سيمثل هذا الفكر مرجعية "سان سيمون"[1].

الفلسفة الوضعية:

يلاحظ أن الوضعية الجديدة كما مارسها" سان سيمون" لا تهدف فقط إلى تغيير شروط إنتاج المعرفة بل إلى تغيير النظام السياسي والمؤسساتي والاقتصادي. بمعنى أن الوضعية تمثل نقلة جذرية في النظام السياسي والاجتماعي القائم . وما لم تحدث هذه النقلة فمن المستحيل أن نتحدث عن أمة عاملة. وتتركز مستويات التغيير الجديد بحسب المقاربة الوضعية على:

أولاً: تحقيق العدالة في مضمونها السياسي والاجتماعي واستبعاد الدين من الحياة الاجتماعية:

هناك مبدأ يحكم تحقيق العدالة المنشودة ذي بعد شخصي وعلمي لدى سان سيمون. هذا المبدأ هو وجوب جبر الهوة الفاصلة بين النظري والتطبيقي للوصول إلى علاقة تكاملية بين المستويين، ودون ذلك سيظل هناك ازدواجية تحافظ على استمرارية الهوة الفاصلة لذا لا بد من إنجاز منظومة ابستمولوجية ومعرفية جديدة تقوم على التكامل بين البعدين النظري والتطبيقي ولعل أوضح مثال هو ما طبقه سان سيمون على

[1] انظر: غاستون، بوتول (١٩٨٤). تاريخ السوسيولوجيا. ترجمة ممدوح حقي. بيروت: منشورات عويدات، سلسلة زدني علماً.

نفسه تعلق في دعوته إلى تحقيق العدالة تخليه عن لقب الكونت وإعلائه لشأن المواطنة بقوله: " لم يعد بيننا أسياد".

هذه المقاربة الوضعية الباحثة عن العدالة السياسية والاجتماعية ستسعى عملياً إلى هدم العناصر السياسية والمؤسسية المكونة للنظام السياسي والاجتماعي القديم والتي من بينها التميزات الطبقية والاجتماعية والمسيحية في شكلها التقليدي. لذا فإن" سان سيمون" أرسى دعائم تعامل معرفي جديد مع الظاهرة الدينية بمختلف تنظيماتها ومؤسساتها ، تعامل يقوم على اعتبار الظاهرة الدينية ظاهرة اجتماعية إنسانية من خلال إخراجها من دائرتها المقدسة والنظر إليها باعتبارها ظاهرة إنسانية.

يربط "سان سيمون" بين مفهوم المواطنة الذي جلبه معه من أمريكا حيث كان يقاتل الجيش الإنجليزي في بلد تعج فيه الثورات الأهلية الكبرى والعارمة وبين العدالة الاجتماعية بل إنه ينحاز إلى مفهوم المواطنة معلنا في كتابه" المسيحية الجديدة " تخليه عن لقبه الكونت: " لم يعد ثمة أسياد، نحن جميعا متساوون . وأعلمكم بهذه المناسبة أنني أتخلى عن صفتي الكونت التي اعتبرها وضعية جدا أمام صفتي كمواطن ".

تبع هذا الإعلان حسما لتردد "سان سيمون" في تأييده للثورة الفرنسية في البداية ثم نال لقب المواطن الصالح مرتين متتاليتين مما يعني أنه بات رمزا للتحرر والمساواة والتجديد. هذه النقلة في حياة سان سيمون - المواطن الصالح - ليست نقلة سياسية فحسب بل نقلة اجتماعية وفي هذا الأساس نقلة فكرية ومعرفية في ذات الوقت. كما أن هذه النقلة أيضا جهد سان سيمون في ترجمتها من خلال عمله الدؤوب من أجل تغيير مضمون المسيحية من الداخل وإكسابها مضمونا جديدا علميا يقوم على مبدأ الحرية والمساواة . هكذا يبدو الدين هو العلم العام كما يصرح "سان سيمون" .

مفاهيم الدين، السياسة، الحرية:

تعريف سان سيمون للدين :

في كتابه " المسيحية الجديدة " يعرف الدين بأنه: " جملة تطبيقات العلم العام التي يمكن بواسطتها أن يحكم الرجال المستنيرون غيرهم من الجهلة ". بهذا المضمون فإن الديانة عند سان سيمون هي أداة مدنية للحكم المستنير لغير المستنيرين . وبما أن الدين

يلعب دوراً في التربية فإن التربية هي العنصر الذي يساعد على توطيد المشاعر الديمقراطية وتحقيق القيم الأساسية .

إذن الدين ليس حالة ثابتة بقدر ما هو حالة تطورية ولما يتساءل عن الدين وماهية الأديان يقول " سان سيمون" بتطورية الأديان وعدم بقائها على حالها : " الأديان مثلها مثل بقية المؤسسات تتمتع بطفولة وفترة قوة ونشاط وأيضا مرحلة انهيار وحين تكون في مرحلة انهيار فإنها تكون ضارة ، أما في مرحلة الطفولة فهي غير كافية".

ووفق هذه الرؤية هناك من يرى أن "سان سيمون" من مؤسسي علم الاجتماع الديني. لأنه في واقع الأمر أسهم ولو بشكل محدود في تأسيس هذا العلم. ومن حيث الجوهر لأن "سان سيمون" قدم الأديان بوصفها ظواهر اجتماعية وإنسانية من الممكن تحليلها تحليلاً علمياً كبقية الظواهر الأخرى. بل إن "سان سيمون" قاربها كما فعل "ابن خلدون" في نظريته حول تداول الحضارات التي تنشأ ثم تقوى ثم تنهار، وهكذا بدا له الدين. إذن الوضعية تخلصت من كل الثوابت المقدسة .

مفهوم السياسة والحرية:

- السياسة هي علم الإنتاج.
- الحرية هي نبذ الميز العرقي والثقافي والسياسي.

فما الذي يحدث عندما يلتقي المفهومان ؟ سنلاحظ تغيراً في مفهوم الأمة. وإذا أعطينا هذين المفهومين مدلولاً وضعياً وتصوراً موضوعياً (أي محاكمة المفهومين وتحليلهما علمياً وليس دينياً ولا تجريدياً). فالذي سيحدث أن أمة جديدة ستنبثق هذه الأمة متحررة من الميز الديني والانغلاق مثلما ستكون متحررة من تبعات الإقطاعية. ومثل هذه الأمة الجديدة يسميها "سان سيمون" بـ " الأمة العاملة " .

ومن الملاحظ أن تغير القاعدة المعرفية تسبب في تغير النتائج. فلو نظرنا إلى المفهومين في المراحل السابقة على الوضعية فلا يمكن الحديث عن أمة عاملة بالمعنى السان سيموني لأن السياسة كانت حكراً على طبقة معينة ولأن المجتمع ليس حرا ولا يتمتع بأية عدالة ، ومثل هذه السياسة والعبودية كانتا تجدان لهما شرعية ذات طابع ديني أو طبيعي. بيد أن الوضعية بوصفها استعمال للعقل ورفع من مكانة الإنسان قدمت السياسة كأداة حيوية في تنشيط الحياة الاجتماعية والاقتصادية ونقلت الأمة من طور

الخمول والكسل إلى طور العقل والإنتاج ووضعت الجميع على قدم المساواة وأصبح الإنسان سيد نفسه حراً من أي تمييز عرقي أو ثقافي أو سياسي .

هكذا فالانتقال من المرحلة الإقطاعية اللاهوتية إلى المرحلة الصناعية العلمية هو انتقال من ساحة العلم النظري إلى ساحة العلم التطبيقي العملي . فالوضعية تأبى الاعتراف بفواصل ما بين النظري والعملي إذ ثمة ترابط بين المعرفة والواقع الإنساني.

إن مجتمع "سان سيمون "هو مجتمع صناعي علمي، ومثل هذا المجتمع يبحث عن دماء جديدة لضخها في عروقه كما أنه يحتاج إلى وحدة معرفية ومعيارية وبالتالي لا بد من القضاء على مخلفات النظام القديم بكل منظوماته وتشكيلاته ومعتقداته وتصوراته وبناه وأنماط تفكيره وتحليله إذا ما أردنا تحقيق العدالة والتقدم فكيف العمل ؟ وما العلاقة بين الدين والمجتمع الجديد ؟

ويحرص "سان سيمون" على تجاوز الدين اعتقاداً منه أنه العقبة التي تشجع الفراغ. ولأنه ثمة تناقض بين الفراغ والعمل الجماعي المنتج لذا ينبغي أن نغير مضمون الدين بأن نكسبه مضموناً جديداً يتمثل في نظام بشري جديد[1] . ولأن الإنتاج الجماعي أو الخلق الجماعي تحديداً يقوم على الإنتاج البشري ، لذا ينبغي فك التناقضات التي يعاني منها مجتمع ما بعد الثورة – أي المجتمع الصناعي – إذ يلاحظ "سان سيمون" أن المجتمع ما زال في حالة صراع قائم على:

- معرفة لاهوتية ومعرفة علمية .
- سلطة إقطاعية وسلطة صناعية .

إذاً هناك تحالف بين المعرفة اللاهوتية والسلطة الإقطاعية ضد المعرفة العلمية والسلطة الصناعية، ولفك هذا التناقض أو التحالف ينبغي استبعاد الدين للسماح بمرور العمل الجماعي المنتج وقتل الفراغ.

---

[1] لا شك أننا نختلف مع مثل هذه الرؤية وقابليتها للتعميم على مختلف الأديان. فالدين الإسلامي لم يتعارض قط مع العقل والعلم . وقد وصلت الأمة الإسلامية في عصورها السابقة لمستويات عليا من الحضارة والتقدم، التي أفادت بها البشرية جمعاء. جراء تمسك المسلمين بدينهم الصحيح. إلا أننا كباحثين وبموضوعية يجب أن ندرك أن صياغة مثل هذه الأفكار إنما هي انعكاس لواقع اجتماعي عاش فيه سان سيمون وهو ما يعرف بالعصور الوسطى في أوربا.

المجتمع الإنتاجي:

إن التغيير الجديد الذي تريد إرساءه المقاربة الوضعية يقوم أساسا على العمل والإنتاج. وذلك بانتشار الأفكار الوضعية بفعل انتشار الصناعة .

يعتقد "سان سيمون" أن انتشار الأفكار الوضعية ستساعد وستشجع على انتشار الصناعة التي هي الشرط الأساسي والوحيد لقيام مجتمع وضعي ومعرفة وضعية ، فالصناعة بطبيعتها تخلق مجتمعاً وضعياً وتصورات وضعية في نفس الوقت استناداً إلى مبدأ يعتبر أن المعرفة العملية تعني المعرفة العلمية.

حيث يقيم "سان سيمون" مقاربة بين الإنتاج والكسل وأمة كسولة وأمة عاملة ويتساءل في إطار المقاربة الوضعية: هل يمكن أن يحصل تعايش بين الأمتين ؟ لذا يطالب سان سيمون بالحزم مع الأمة الغير منتجة بضرورة إزاحتها ولتحل محلها الأمة المنتجة ولكن ما هي أداة التغيير ؟

وفي المجتمع الإقطاعي يعود "سان سيمون" ليؤكد على استعمال أدوات المعرفة الوضعية والعمل على القضاء على الهوة الفاصلة بين البعد النظري والبعد التطبيقي للوصول إلى وحدة المعرفة، هذا هو جوهر المقاربة الوضعية. لذا نجد "سان سيمون" يصر على استبدال المضمون القديم للمسيحية بمضمون جديد يعمل على تطويرها من الداخل، هذا المضمون الجديد يتمثل في كتابه " النظام الصناعي " من خلال:

- التأكيد على سعيه إلى تكوين مجتمع حر.
- التأكيد على نشر المبادئ والقيم التي ستكون أرضية النظام الجديد.
- التأكيد على أن النظام الاجتماعي يستند على ثلاث فئات :

أ. الفنانون لأنهم يفهمون قيم التغير ويشكلون أداة تشجيع للمجتمع حتى يغير أوضاعه القائمة.

ب. العلماء الذين يقترحون تصورات وبدائل ووسائل عامة يمكن استعمالها لتحسين حال الأغلبية.

ج. الصناعيون الذين يشجعون المجتمع على القبول بالمؤسسات الجديدة .

أما منطق الترتيب أعلاه فهو التقاء الإلهام مع التفكير ومع الإبداع والمهم في هذا التصنيف أن الصناعيين يتربعون على قمة المجتمع الصناعي وفي أعلى مراتب النظام الاجتماعي الجديد. ولنقرأ أهمية المقولة التالية لـ سان سيمون:

" لو حدثت في ليلة صماء فاجعة مفاجئة ذهبت بأكثر الشخصيات الكبرى من الأسرة المالكة والوزراء وكبار القضاة. وسواهم ممن هم في هذه الطبقة، فإن الشعب الفرنسي سيبكيهم حتماً لأنه شعب حساس ، ولكن هذه الفاجعة لا تبدل شيئا مهماً أو تغير تغييراً ذا أثر في أعماق الشعب، أما لو ذهبت هذه الفاجعة برؤوس العلماء والصناعيين وأرباب المصارف والبنوك ... فإن خسارة المجتمع فيهم كبيرة جداً لأن مثل هؤلاء لا يمكن تعويضهم بسهولة !!" [1].

الخلاصة:

في ضوء ما سبق نجد أن أهم أفكار "سان سيمون" كانت تتركز في السعي لتأسيس المجتمع الجديد الذي يقوم على:

أ) مجتمع العدالة والمساواة: وهو المجتمع الحر الذي يقوم على حركة جماعية أي مجموعة من المواقف لم يعد الفرد فيه خاضعاً.

- هذا المجتمع أخرج الفرد من مرحلة الفكرة ليصبح مواطنا. وهذه نقلة سياسية واجتماعية.

- أشرك الفرد مع الآخرين (المجتمع) في عمل جماعي واحد وإبداع واحد وخلق واحد .

- يراهن "سان سيمون" على دور المجموعة على التغير ، هذه المجموعة التي تبنى على ثلاثة مستويات، وهي:

- الإنتاج.
- التقنية.
- الصناعة.

---

[1] للتوسع في المجتمع السايسموني انظر: هابرت ماركيوز (١٩٧٠). العقل والثورة هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية. ترجمة فؤاد زكريا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص ٣١٣-٣٢٦.

ب) العناصر الأساسية التي اعتمدتها المقاربة الوضعية مع سان سيمون هي :

١. تحييد الدين والفكر اللاهوتي عن كل مشاركة في الحياة العملية.

٢. وضع أسس مشروع علمي وفكري ومعرفي يقوم على مبدأين أساسين هما:

- مبدأ العلمية؛ فلا تعامل بعد الآن مع الظواهر والأشياء إلا من منظور علمي.

- مبدأ العلمنة وفيه تحييد وإقصاء صريح للدين.

هذه هي آليات التحليل العلمية التي ضمنها سان سيمون للمقاربة الوضعية وهي الآليات التي سنجدها مستعملة في نص أوجست كونت بطريقة أو بأخرى. هذه أيضا هي الأرضية المعرفية والعلمية التي سينطلق منها أوجست كونت ليجعل من المقاربة الوضعية أكثر قرباً من الواقع والتحليل. ومبدئياً فالمقاربة الوضعية ستجمع بين مستويين رئيسيين :

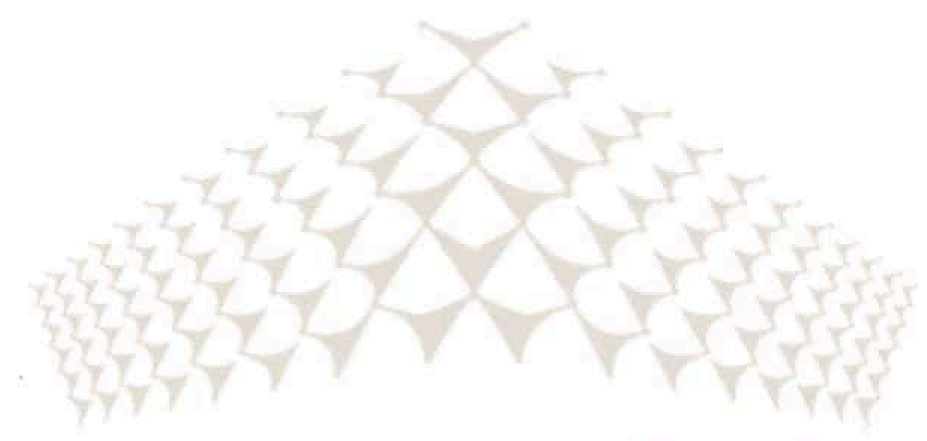
١. المستوى النظري: عبر قراءة العلوم وتنظيمها وتثبيتها وهو ما قام به سان سيمون .

٢. المستوى التطبيقي: وهو تطبيق عناصر المقاربة الوضعية في تحليل واقع المجتمع.

ومن هذه الأرضية المعرفية انطلق أوجست كونت في ترتيب بيت العلوم. وإكمال ما بدأ به أستاذه في تأسيس المجتمع الجديد وتحديد الأطر المنهجية لذلك[1].

---

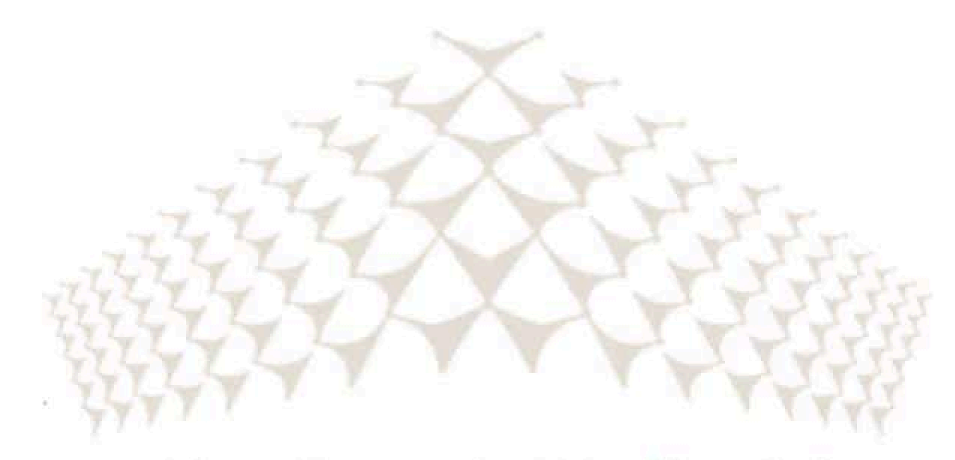
[1] راجع في ذلك: الخشاب، أحمد (١٩٨١). التفكير الاجتماعي. بيروت : دار النهضة العربية، ص٥٤٥-٥٥١. وكذلك: أسعيد، فايز (١٩٨٥). عباقرة الفكر الاجتماعي. الرياض: دار الوطن، ص٢٧٧-٢٨٠.




Auguste Comte

ثانياً- أوجست كونت.

- حياته.
- المنهج الوضعي.
- تأسيس علم الاجتماع .
- الديناميكا الاجتماعية.
- نظرية التقدم.
- المعالم الرئيسة لمشروع أوجست كونت الفكري.
- تحديد مكونات المجتمع.
- أسس الدراسة ومنهج البحث.



ثانياً: أوجست كونت / A. Comt
(1798 - 1857) :

حياته:

ولد "أوجست كونت" في فرنسا عام ١٧٩٨م وعمل سكرتيراً لسان سيمون في الفترة من ١٨١٧- ١٨٢٤م وتأثر به أشد التأثر خصوصاً في المنهج الوضعي وتطبيقه على دراسة الإنسان، والقوانين التي تحكم حياته البشرية. واتصل بتقاليد القرن الثامن عشر الموسوعية والتنويرية فكان ذا سعة معرفية. ويعد أوجست كونت مؤسس علم الاجتماع الوضعي الذي أخذ بمناهج العلوم الطبيعية لدراسة الظواهر الاجتماعية.

انتسب "كونت" لعائلة كاثولوكية متوسطة الحال. التحق بكلية الهندسة التي أثرت كثيراً في حياته العلمية. وقد مارس السياسة عقب انهيار الثورة الفرنسية (١٧٩٣م)، وعاصر الثورة الصناعية، وتزايد الصراع بين العلم والدين. كانت فلسفته تعبر عن ظروف عصره، وعن أزمة المجتمع الفرنسي خصوصاً ما يتعلق بالثورة وآثارها المروعة ونتائجها الهدامة. وخاصة ما يتعلق بالتفكك الاجتماعي والفوضى واضطراب النظام الأخلاقي، وحالة الفقر المادي والثقافي الذي عانت منه الكثير من الجماعات الاجتماعية. وقد امتاز مجتمعه بالاضطراب والفوضى حيث المرحلة الانتقالية بين التقليد والحداثة . ونجد أن عصره امتاز بشيوع ظاهرتي النماء (التنمية) والتقدم (التحديث).

وأشد ما يؤثر عن "أوجست كونت" سعيه إلى بناء " شجرة المعرفة" حيث صنف العلم تصاعدياً: الرياضيات – الفلك - الفيزياء – الكيمياء – الأحياء وأخيرا السوسيولوجيا.

لقد استطاع "كونت" من خلال اتجاهه الفكري الذي تميز به، وارتبط بنشأته كمفكر اجتماعي، وفيسلوف، أن يصوغ نسقاً من المعرفة يتميز بالإحكام المنطقي، كما أن عمله يمكن وصفه بأنه عمل تأليفي من الدرجة الأولى. وكان علم الاجتماع الذي دعى إليه أوجست كونت عمل تركيبي من الدرجة الأولى، استطاع من خلاله أن يربط

بين كتابات فلاسفة اليونان أرسطو وأفلاطون، ومونتسكيو Montesquieu [1]، وكوندرسيه[2]، بطريقة مبدعة ومبتكرة. واهتم بإسهامات فلاسفة التاريخ من أمثال فيكو Vico[3]، وهيجل Hegel[4] وتيرجو Turgot[5] . كما وجد في أعمال بعض رجال الاقتصاد من أمثال آدم سميث Smith[6]، وآدم

---

[1] منتسكيو، البارون تشارزدي Montesquieu, Baron Charlesde (١٦٨٩- ١٧٥٥م). مفكر فرنسي جغرافي وتاريخي وسياسي. درس القانون، والفسيولوجي، والتاريخ الطبيعي. عمل قاضياً. له تفسيرات جغرافية وبيولوجية للمجتمع. وله نموذج تاريخي في دراسة المجتمع. من كتبه " الخطابات الفارسية" ١٧٢١م في النظرية السياسية، و " روح القوانين" ١٧٤٨م وصدر في (٣١ كتاباً). و " أسباب عظمة وسقوط الرومان" ١٧٣٤م.

[2] مركيز دي كوندرسيه Marquis De Condercet (١٧٣٤- ١٨٤٩م). مفكر فرنسي. من كتبه "التقدم الفكري للنوع الإنساني" ١٧٩٣م. يرى الثورة الفرنسية العهد الجديد للحضارة البشرية. من المؤسسين لنظرية التقدم التاريخي ودورة الحياة الإنسانية: (مرحلة الرعي واستئناس الحيوانات، مرحلة الزراعة، مرحلة الحضارة اليونانية، مرحلة الحضارة الرومانية، القرون الوسطى المسيحية، عصر الإقطاع، عصر اختراع الطباعة، عصر الثورة الفرنسية).

[3] فيكو، جيامباتيستا Vico, Giambattista(١٦٦٨- ١٧٤٤م). فيلسوف إيطالي ومؤرخ وأستاذ للبلاغة بجامعة نابولي. وضع نظرية الأطوار للمجتمعات الإنسانية. كتب عن النظرية الدائرية للتغير التاريخي، وعن المذهب الوضعي، والنزعة التاريخية، والتطورية. ورغم أهمية تراثه العلمي إلا أنه قد جاء الكشف عن تراثه الفكري متأخراً.

[4] هيجل، جورج فيلهيام فردريك (١٧٧٠- ١٨٣١م) Hegel, George Wilhelm Friedric الشخصية المحورية في الفلسفة الألمانية. أعماله الرئيسة " فلسفة الحق"، و " ظاهراتية العقل"، و" فلسفة التاريخ"، صاحب نظرية الروح المطلق بين العقل والحقيقة. من اهتماماته بعلم الاجتماع كتاباته عن الاغتراب، وطبقة البروليتاريا. استفاد ماركس من كتاباته بل يعتبر ماركس أنه استطاع من خلال فكره إعادة فكر هيجل ذاته.

[5] تيرجو Turgot، مفكر فرنسي. جاء بفكرة دورة الصراع Combat Cycil . له تراث نظرية كبير ومهم في التغير الاجتماعي، والهجرات البشرية، والتجارة.

[6] آدم سميث (١٧٢٣- ١٧٩٠م) Smith, Adam ولد في أسكتلندا عام ١٧٢٣م . فيلسوف أخلاقي. شملت أعماله تاريخ العلم، وفلسفة التاريخ، وفن الأدب، والأخلاقيات، والاقتصاد السياسي. من كتبه " نظرية المشاعر الأخلاقية" ١٧٥٩م. وكتاب " بحث في الطبيعة وأسباب ثروة الأمم" ١٧٧٦م.=

فيرجسون[1] A. Fergnson بعض الأفكار المهمة التي تفسر التغيرات التاريخية التي تشهدها النظم الاجتماعية. وهكذا كان اتجاهه الفكري تركيبي. بمعنى أنه ينهض على ثلاثة مقومات أساسية هي: صياغة نسق موحد للمعرفة يتضمن المناهج القادرة على تحصيل المعرفة وتطورها ونموها، ووضع الأسس المنهجية للتحليل الاجتماعي والعمل الاجتماعي، وأخيراً وضع الأسس المنهجية للإصلاحات الدينية والأخلاقية.

تعرض للكثير من المضايقات جراء نشره لأفكاره مما جعله يفقد مناصبه الرسمية وبخاصة كممتحن في كلية الهندسة عام ١٨٤٤م. وعاش بقية حياته على المساعدات المادية التي يقدمها له أنصاره وبعض الأثرياء. وكان يرى أن خلاص أوربا لا يتم إلا من خلال العلم والصناعة. ومن أهم أعماله (الفلسفة الوضعية) (١٨٣٠-١٨٤٢م. وكتاب (خطاب في الفلسفة الوضعية). وكتاب (نظام السياسة الوضعية) (١٨٥٠-١٨٥٤م)[2].

المنهج الوضعي:

في ضوء ما ذهب إليه "سان سيمون" الذي اقترح تسمية علم الاجتماع بـ(الفزيولوجيا الاجتماعية)، و "أوجست كونت" الذي أسماه في البداية (الفيزياء الاجتماعية)، وكيتيليت الذي نشر عام ١٨٣٥م مؤلفا أسماه (حول الإنسان وتطور طاقاته). أو بحث في الفيزياء الاجتماعية. ومن سبق من المفكرين، والفلاسفة يمكن تلخيص المنهج الوضعي الجديد في علم الاجتماع، على النحو الآتي:

=والذي طرح فيه نظريته لاقتصاد السوق. وضع نظرية تطور المجتمع حسب النشاط الاقتصادي، والتي صنفها لأربعة مراحل: (صيد الحيوان والأسماك، الرعي، الزراعة، التجارة).

[1] فيرجسون، آدم (١٧٢٣- ١٨١٦م) A. Fergnson . أحد فلاسفة حركة التنوير الأسكتلندية. يعتبر أحد أهم علماء علم الاجتماع التاريخي. كان أستاذا للفلسفة الطبيعية في جامعة أيدنبرج. شملت دراساته في التاريخ الروماني، والأخلاق، والسياسة، من كتبه " المجتمع المدني" ١٧٦٧م.

[2] راجع: نيقولا تيماشيف (١٩٨٢). مرجع سابق. وكذلك: هاينز، موس (١٩٨١). الفكر الاجتماعي: نظرة تاريخية عالمية. ترجمة السيد الحسيني وجهينة العيسى، القاهرة: جامعة عين شمس. وكذلك: محمد، علي (١٩٨٦). تاريخ علم الاجتماع : الرواد والاتجاهات المعاصرة . الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية، ص ٨١-٨٥.

١- هو المنهج الذي يعتمد على الوقائع الحسية، ويستبعد التخيلات والمفاهيم الدينية والفلسفية، وسائر النظرية التي لا تعترف بوجود التجريبية الوضعية، ومسلمات المذهب الوضعي.

٢- اعتبار الظواهر المأخوذة من الواقع، نسبية، ومقابلتها، ومقارنتها فيما بينها، وتحاشي التشديد على ظاهرة معينة على حساب بقية الظواهر.

٣- توجيه البحث واستخدامه في مجال العمل التطبيقي، أي تحويله إلى دليل لرجل السياسة[1].

تأسيس علم الاجتماع بين الضرورة والحاجة:

إن قيام علم الاجتماع في عصر "أوجست كونت" جاء كضرورة اجتماعية وحاجة علمية ملحة حتمتها الرغبة في إصلاح المجتمع وإنقاذه من الفوضى الضاربة فيه. ذلك أن حالة المجتمع الفرنسي بعد الثورة اتسمت بفوضى عقلية فاضطراب خلقي وفساد عام. وأن انسجام المصالح المادية والمنافع المتبادلة لن تحقق الاستقرار والتقدم. لذا فإن تنظيم أي شأن من شؤون الاجتماع والأخلاق والسياسة والدين لن ينجح إلا إذا سبقه تنظيم عقلي للآراء ومناهج البحث وطرق التفكير.

وقد وجد "أوجست كونت" أن الفوضى العقلية ناجمة عن وجود أسلوبين متناقضين للتفكير وفهم الظواهر:

الأسلوب الأول: هو الأسلوب العلمي الذي يستعمله الناس للتفكير في الظواهر الكونية والطبيعية والبيولوجية .

الأسلوب الثاني: هو التفكير الديني الميتافزيقي الذي يستعمله الناس للتفكير في الظواهر المتعلقة بالإنسان والمجتمع .

وبالتالي وضع "أوجست كونت" ثلاثة مقترحات لمواجهة الفوضى:

أولاً: التوفيق بين التفكيرين الوضعي والميتافيزيقي بلا أي تناقض. ووضع كل منهما مجالاً يقوم به، وهو:

---

[1] لابساد، جورج، لورو ، رينيه (١٩٨٦). مقدمات في علم الاجتماع. ترجمة هادي ربيع، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص ٤٢-٤٤.

- المنهج الوضعي: والذي يقوم على الملاحظة وتقرير طبائع الأشياء كما هي. ويدرس الحقائق الجزئية وعناصر الظواهر بحثاً عن أسبابها المباشرة. ويؤمن بخضوع الظواهر لقوانين يمكن الكشف عنها. ويعتمد على منهج نسبي غايته كشف القوانين العلمية.

- المنهج الميتافزيقي : والذي يقوم على التأمل النظري والبحث المطلق، ويدرس الحقائق الكلية بحثاً عن العلل الأولى، وكذلك لا يؤمن بخضوع الظواهر لقوانين يمكن الكشف عنها، ويعتمد على منهج مطلق غايته وضع مبادئ فلسفية لا سبيل إلى تصورها.

من الواضح أن مقاربة هذين النمطين من التفكير أو أي محاولة للجمع بينهما ستؤدي إلى اضطراب عقلي في أذهان الناس. لذا ينبغي التخلي عن هذه المقاربة المستحيلة بسبب الفروقات الحادة بين الفكرين.

ثانيا: صرف النظر عن التفكير الوضعي وإنجازاته وإخضاع كل العقول والعلوم إلى المنهج الميتافزيقي كمنهج عام وشامل:

من استحقاقات هذا الحل القضاء ليس على الطريقة الوضعية فحسب بل إنكار كل الانتصارات العلمية التي تحققت في التاريخ الإنساني انطلاقاً من التفكير الوضعي. مثلاً علينا أن نتنكر لاختراع الطباعة وإنجازات كوبرنيك وجاليليو وديكارت وبيكون ونيوتن وغيرهم ممن اشتغلوا بالأبحاث الوضعية وأوصلوا لنا تراثاً عقلياً أورثونا إياه .

من جانب آخر فإذا تراجعنا عن الوضعية كنمط للتفكير فهل سننجح في تجميد القدرة على التفكير؟ هل نستطيع الحد من تطور التفكير وإبقائه جامدا على حاله؟ وهل نستطيع أن نتحكم في قوانين الطبيعة التي حكمت على المراحل السابقة بالفساد فنمنعها من أن تحدث النتيجة نفسها؟ من المؤكد أن جعل التفكير الوضعي شيئاً من قبيل العدم مستحيل شكلاً ومضموناً.

ثالثا: تعميم المنهج الوضعي وجعله منهجاً كلياً عاماً وشاملاً لكل ظواهر الكون:

من استحقاقاته القضاء على ما تبقى من الفكر الميتافيزيقي ومظاهره وأن يفهم الأفراد ظواهر الاجتماع اعتماداً على المنهج الوضعي بما في ذلك ظواهر الإنسان والمجتمع التي كانت تستبعد من التحليل الوضعي قبل أوجست كونت .

ولكن هناك شرطين لفهم الظواهر على الطريقة الوضعية :

١- أن تكون هذه الظواهر خاضعة لقوانين بحيث لا تسيرها الأهواء والمصادفات. وهذا شرط متوفر في الظواهر الاجتماعية كون المجتمع جزءاً من الطبيعة الكلية كما أن جميع نواحي الطبيعة خضعت لقوانين ثابتة أمكن الوصول إليها.

٢- معرفة الناس لقوانين الظواهر وهو أمر لا يتوفر إلا اعتمادا على الدراسة الوضعية عبر باحثين مهمتهم الكشف عنها. وهذه مسألة تتطلب قيام علم جديد وهو علم الاجتماع.

هكذا يمكن القضاء على الفوضى العقلية والاجتماعية والأخلاقية وتحقيق الإصلاح المنشود[1].

تأسيس علم الاجتماع وتحديد مجاله:

ولادة علم الاجتماع الحديث:

أول اسم أطلقه كونت على العلم الجديد كان " الطبيعة الاجتماعية = الفيزياء الاجتماعية = Physique Social " ثم أسماه بعلم الاجتماع Sociology .

مفهوم الظاهرة الاجتماعية :

لم يعط : أوجست كونت: تعريفاً للظواهر الاجتماعية على الرغم من حرصه على تعريف الظاهرة الطبيعية والكيميائية والبيولوجية . لأنه كان يرى أن علم الاجتماع يدرس كل الظواهر التي لم تدرسها العلوم السابقة عليه. ولأنه يرى من العبث تعريف الظاهرة الاجتماعية أو تحديدها باعتبار كل الظواهر الإنسانية بما في ذلك ظواهر علم النفس هي ظواهر اجتماعية.

موضوع علم الاجتماع :

في موضوع علم الاجتماع فمثل الظاهرة الاجتماعية لم يحدد "كونت" موضوعاً لعلم الاجتماع معتبراً أن الإنسانية هي موضوع العلم وهي الحقيقة الجديرة بالدراسة والبحث. إن الإنسانية كموضوع لعلم الاجتماع يدرسها كونت في حالتين:

---

[1] انظر تحليل للمنهجية الوضعية عند " أوجست كونت" في: هربرت ماركيوز (١٩٧٠). مرجع سابق، ص ٣٢٩-٣٤٤.

الحالة الأولى: **الديناميك الاجتماعي**: في هذه الحالة تهتم السوسيولوجيا بدراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلي للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقدم الذي تخطوه الإنسانية في تطورها. أي دراسة الاجتماع الإنساني برمته وانتقاله من حال إلى حال. هذه الحالة تقوم على أساس فكرة التطور والتقدم.

الحالة الثانية: **الإستاتيك الاجتماعي**: موضوعها هو دراسة المجتمعات الإنسانية في حالة استقرارها في فترة معينة من تاريخها. وكذلك الاجتماع الإنساني في تفاصيله وجزيئاته وفي نظمه وقواعده السياسية والقضائية والاقتصادية والأخلاقية والدينية ...الخ وفي عناصرها ووظائفها بهدف الكشف عن القوانين التي تحكم التضامن بين النظم الاجتماعية (فكرة التضامن والنظام).

الديناميكا الاجتماعية:

تدور أبحاث " كونت " في هذه الحالة حول نظريتين أساسيتين هما قانون الأدوار الثلاثة وتقدم الإنسانية.

أولا : قانون الحالات الثلاث:

يجيء ثمرة لدراسة أوجست كونت للديناميكا الاجتماعي الذي رأى فيه: "دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلي للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقدم الذي تخطوه الإنسانية في تطورها".

وملخص قانون الأدوار الثلاثة هو: " إن العقل الإنساني أو التفكير الإنساني قد انتقل في إدراكه لكل فرع من فروع المعرفة من الدور الثيولوجي (الديني اللاهوتي) إلى الدور الميتافزيقي وأخيراً إلى الدور الوضعي أو العلمي ".

وهذا يعني أن تاريخ الفنون والنظم والحضارة إجمالا وتطورها ومظاهر القانون والسياسة والأخلاق وما إليها لا يمكن فهمه إلا إذا وقفنا على تاريخ التطور العقلي بوصفه المحور الأساس الذي تدور حوله كل مظاهر النشاط الاجتماعي والسبب في ذلك أن الفكر هو الدعامة لكل نواحي الحياة الاجتماعية.

ولما كان الفكر (العقل) بهذه الأهمية الحاسمة فلا بد إذن أن يتبعه تطور منسجم معه في جميع نواحي الحياة الاجتماعية، وهذا يعني أن كل تغيير في الحياة الاجتماعية إنما يكون نتيجة لتطور التفكير.

محتوى القانون :

أ. الدور اللاهوتي: يقصد فيه "كونت" أن العقل سار على أساس التفسير الديني، فقد كانت الظواهر تفسر بنسبتها إلى قوى مشخصة أبعد ما تكون عن الظاهرة نفسها كالآلهة والأرواح والشياطين وما إلى ذلك كتفسير ظاهرة النمو في النبات بنسبتها إلى الله عز وجل أو إلى أرواح النبات وعدم الأخذ بأسباب النمو الدنيوية.

ب. الدور الميتافزيقي (الفهم التجريدي): في هذا الدور نسب تفسير الظواهر إلى معاني مجردة أو قوى خيالية أو علل أولى لا يمكن إثباتها كتفسير نمو النبات بقوة أرواح النبات.

ج. الدور الوضعي (العلمي): الدور العلمي هو أن يذهب العقل في تفسير الظاهرة بنسبتها إلى قوانين تحكمها وأسباب مباشرة تؤثر فيها كتفسير ظاهرة النمو النباتي بالعوامل الطبيعية والكيميائية والقوانين المؤلفة لهذه الظاهرة.

مدى صحة قانون الحالات الثلاث:

أ. القانون صحيح من حيث العودة إلى تاريخ العلوم من ناحية وتاريخ الإنسانية من ناحية أخرى، وقد ثبت بالدراسة والبحث لدى أوجست كونت أن كل فروع المعرفة مرت بصدد تفسيرها للظواهر من الدور اللاهوتي إلى الدور الميتافيزيقي انتهاء بالدور العلمي.

ب. يعقد كونت موازنة بين أدوار الإنسانية الثلاثة وبين الأدوار التي يمر بها الفرد في نشأته:

- المرحلة البيثولوجية = تشبه مرحلة الطفولة لدى الفرد.
- المرحلة الميتافيزيقية = تشبه مرحلة الشباب والمراهقة.
- المرحلة الوضعية = تشبه مرحلة الرجولة والاكتمال.

هكذا تبدو الإنسانية شأنها شأن الفرد في مراحل نموها وتقدمها[1].

[1] انظر: عرابي، عبد القادر (٢٠٠٠). مرجع سابق، ص ٤٥-٤٨. .

ثانيا: نظرية التقدم عند أوجست كونت:

فكرة أوجست كونت هي: " إن السير الاجتماعي لا بد أن يكون خاضعاً لقوانين". لذا فإن أوجست كونت يفهم من معنى كلمة (التقدم) سيراً اجتماعياً نحو هدف معين لا يمكن الوصول إليه إلا بعد المرور بأدوار ضرورية محددة. هكذا فطن كونت إلى القول بأن المجتمعات تسير وفقا لقوانين ضرورية تحدد بالضبط سير تقدمها والشروط أو الظروف الضرورية لذلك. وهو الأمر الذي لم يتوصل له سابقوه مثل بسكال وكوندرسيه وهلفيتيوس. حيث كانت الفكرة السائدة لدى أسلاف أوجست كونت من المفكرين حول الوضع الاجتماعي هي:

" أنهم درسوا الحركات الاجتماعية بوصفها اضطرابات، أو ذبذبات تحصل في المجتمعات ".

هناك مظهران مصاحبان للإنسانية في الانتقال، وهما متلازمان:

١. تحسن في الحالة الاجتماعية: هو تقدم مادي وهو أوضح وأسرع حركة وأسهل حدوثاً وأقرب تحقيقاً. ويتوقف حدوثه على مقدار معرفتنا بقوانين الظواهر الاجتماعية والتدخل على ضوئها لتحقيق الإصلاح أو التقدم المنشود، وبمقدار ما تعجل الإنسانية بتدخلها بمقدار ما تختصر الزمن لأن عملية التقدم شاقة وبطيئة وتعترضها كثير من الصعاب والأزمات.

٢. التحسن في الطبيعة الإنسانية: هو تحسن بيولوجي وعقلي. فالتحسن البيولوجي أدى إلى زيادة عمر الإنسان أو تقدم القواعد الصحية وفن الطب. أما التقدم العقلي فأدى إلى كشف وسائل جديدة للسيطرة على الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان لأن العقل والذكاء عبارة عن آلة يمكن استعمالها بصفة مطلقة في توسيع نطاق التدخل الإنساني والإشراف على الكون ومظاهره [1].

ب. الحالة الثانية: الإستاتيك الاجتماعية:

في هذه الحالة يتصدى أوجست كونت للمجتمع من خلال الإستاتيك الاجتماعي الذي يعرفه بـ :

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص٥٤-٥٨.

- دراسة المجتمعات الإنسانية في حالة استقرارها كونها ثابتة في فترة معينة من تاريخها.

- كذلك دراسة هذه المجتمعات في تفاصيلها وجزيئاتها من حيث العناصر والنظم الاجتماعية المكونة لها.

المعالم الرئيسة لمشروع "أوجست كونت" الفكري :

١- يقوم الإطار الفكري الأساس لدى "كونت" على دعائم الفلسفة الوضعية التي تنظر إلى جميع الظاهرات على أنها خاضعة لقوانين طبيعية لا تتغير.

٢- أن " أوجست كونت " هو الذي أعطى العلم الاسم المستخدم الآن ، فقد كرس جهده للدعوة للعلم ،أكثر من اهتمامه بتحديد موضوع العلم. وكان يرى أن انفصال علم الاجتماع عن دائرة العلوم الاجتماعية الأخرى لن يكون عمليا ومرغوبا فيه إلا فيما بعد.

٣- صنف العلوم إلى خمس مجموعات، بدأ ترتيبه لها من الأبسط إلى الأقل بساطة بادئا بالفيزياء السماوية والأرضية، تليها الفيزياء الميكانيكية والكيميائية ثم الفيزياء العضوية ،فالفيزياء النباتية والحيوانية ،وأخيرا الفيزياء الاجتماعية التي غير اسمها إلى علم الاجتماع .

٤- قسم دراسة علم الاجتماع إلى قسمين أساسيين: أطلق على القسم الأول اسم الديناميكا الاجتماعية Social Dynamics ويختص بدراسة قوانين الحركة الاجتماعية ، والسير الآلي للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقدم الذي تخطوه الإنسانية في تطورها .أي أنه يدرس المجتمع الإنساني في عمومه وكليته ومن ناحية تطوره، وانتقاله من حال إلى حال . وأما القسم الثاني فيعني بدراسة المجتمعات الإنسانية في حالة استقرارها وباعتبارها ثابتة في فترة معينة من تاريخها ويطلق على هذا الجزء الإستاتيكا الاجتماعية (social statics).

٥- في ضوء دراسته ومنهجه أفاد بأنه توصل إلى ما أسماه « قانون الحالات الثلاثة » وإيجاز هذه الحالات أن التفكير الإنساني في كل منحى من مناحي المعرفة مر من مرحلة التفكير الديني إلى التفكير الفلسفي لينتهي أخيرا إلى مرحلة التفكير العلمي الوضعي .كانت الظاهرات تفسر في المرحلة الأولى بنسبتها إلى قوى خارجة عنها، في

حين أنها تعزى في المرحلة الثانية إلى معان وأفكار مجردة وقوى ميتافيزيقية وعلل أولى لا يمكن إثباتها . وأما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الفهم العلمي التي يذهب فيها العقل إلى تفسير الظاهرات بنسبتها إلى القوانين التي تحكمها والأسباب المباشرة التي تؤثر فيها. ويفهم من هذا القانون أن « كونت » اعتبر الفكر محرك المجتمع ، صانعه ، ودافعه.

٦- تتمثل ركائز منهجه في الدراسة والبحث: في الملاحظة والتجربة التي تقوم على منطق المقارنة بين الظاهرات والمجتمعات، وأخيرا التحليل التاريخي المنطلق من دراسة الأفكار وتحليلها كمقدمة أساسية لفهم التطور الاجتماعي . وبأنه رغم إشارته إلى كل هذه الركائز فإنه عد الملاحظة أهمها وأكثرها دقة، لأنها هي الأكثر اتساقا والفهم العلمي .

٧- وأما عن غايات علم الاجتماع عند "أوجست كونت" فهي تتحدد بشعار السياسة الوضعية التي ترى في النظام غاية في ذاته ووسيلة لتحقيق التقدم . ولذا كان مسعى "كونت " من إنشاء علم الاجتماع إصلاح المجتمع الذي هزته الفلسفات النقدية والتحركات الثورية. ولهذا اعتقد "كونت " أن الاتجاهات النقدية اتجاهات هدامة، وبهذا يميل علم الاجتماع لديه إلى أن يكون أداة للمحافظة على النظام «انك تدرس لكي تضبط » ويبدو كل هذا متمثلا في المنطوق الأساس لكلمة وضعية BPositivism التي تعني الوقوف إيجابا من النظام الاجتماعي القائم[1].

تحديد مكونات المجتمع عند " أوجست كونت":

نظرة أوجست كونت للمجتمع:

ينظر "كونت" إلى المجتمع باعتباره كلية اجتماعية تتكون من جميع الأفراد الأحياء منهم والأموات أو ما يمكن تسميته بالذاكرة الاجتماعية الحية والماضية بكل ما تشتمل عليه من بنى ومؤسسات وعلاقات وتراث وسلوكات وثقافات تعبر بانصهارها جميعا عن كلية اجتماعية أو ما يمكن تسميته بالتعبير الفلسفي " الوجود الاجتماعي ". ويشدد "أوجست كونت" في بحوثه على تحليل القدرة الاجتماعية ليثبت

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

أن الاجتماع الإنساني هو الحالة الطبيعية للإنسان. وبالتالي فإن المجتمع مقدم على الفرد ولا يزول بزوال أفراده.

نظرة "كونت" هذه للمجتمع تنسف نظريات العقد الاجتماعي(*) التي تتعامل مع المجتمع وكأنه مركب صناعي تكون عن قصد بين الأفراد في صيغة عقد اجتماعي بينهم انتقلوا بموجبه من الحياة الوحشية العدوانية إلى الحياة المدنية.

مكونات المجتمع:

التحليل الإستاتيكي للمجتمع حسب "أوجست كونت" يتكون من تحليله لثلاث مكونات هي:

١- الفرد: فالفرد لا يعتبر عنصراً اجتماعياً ولا قيمة لقوته الطبيعية لأن القوة الاجتماعية مستمدة من تضامن الأفراد ومشاركتهم في العمل وتوزيع الوظائف بينهم، كما أنه لا قيمة أيضاً لقوة الفرد العقلية إلا باتحادها مع غيره من القوى. ولا قيمة أيضاً لقوة الفرد الأخلاقية وليدة الضمير الجمعي والتضامن الأخلاقي في المجتمع. وفي المحصلة فإن الفردية لا يتحقق فيها أي شيء من المظاهر الجمعية دون امتزاج العقول وتفاعل وجدانات الأفراد واختلاف وظائف وتنوع الأعمال ذات الأهداف الواحدة والغايات المشتركة .

(*) تنسب نظرية العقد الاجتماعي للفيلسوف جان جاك روسو Rousseau, Jean-Jacques (١٧١٢- ١٧٧٨م). والذي أصدر مؤلفه " العقد الاجتماعي" عام ١٧٦٢م. حيث يرى أن الاستقلال الطبيعي والنزعة غير الأخلاقية عند البشر قد تحولت إلى اعتماد متبادل فيما بينهم يتسم بالفساد الأخلاقي بسبب انعدام المساواة الاجتماعية والاقتصادية الناشئة عن نمو مؤسسة الملكية الخاصة. وعلى الرغم من أن هذا الاستقلال الطبيعي غير قابل للاسترداد، وذلك لأسباب اقتصادية؛ فإن التكامل الأخلاقي للفرد يمكن تحقيقه بإخضاع الحياة الاجتماعية للضبط عن طريق شكل معين من أشكال التنظيم السياسي، هو تحديداً الديموقراطية المباشرة وفي هذا الشكل يتنازل كل شخص عن ادعاءاته الخاصة في التحرر السلبي إلى مجلس يتمتع فيه كل شخص بالعضوية. ومن ثم يمكن أن تفهم القوانين التي يتخذها هذا الكيان على أنها تشريع ذاتي. كما أن فرضها بالقوة على أي شخص لا يشكل قيوداً على حريته الإيجابية. إنها تجبره على أن يكون حراً حيث إنها تعبر عن رغباته الخاصة. ومثل هذه النظرية استفاد منها أميل دوركايم فيما بعد في تشخيص وتحديد ماهية الوعي الجمعي، أو الضمير الجمعي.

٢- الأسرة: هي أول خلية في جسم التركيب الجمعي وهي أبسط وسط يتحقق فيه مظاهر الحياة الاجتماعية من امتزاج للعقول وتفاعل للوجدانات واختلاف في الوظائف وتنوع في الأعمال وهي أيضاً اتحاد له طبيعة أخلاقية لأن المبدأ الأساس في تكوينها يرجع في نظر كونت إلى وظيفتها الجنسية والعاطفية، إذ ثمة ميل متبادل بين الزوجين من جهة وعطف متبادل بينهم والأبناء من جهة أخرى. فالمشاركات الوجدانية موجودة بين أفراد هذا المجتمع الصغير وثمة واجبات على كل فرد في الأسرة وثمة تربية ونزعة دينية يغرسها الوالدان في أولادهم.

٣- المجتمع: هو وحدة حية ومركب ومعقد أهم مظاهره التعاون والتضامن لذا فهو من طبيعة عقلية ووظيفية أخلاقية تابعة لها ولاحقة ومترتبة عليها. أما مبدأ التعاون والتضامن فهو الذي يحكم المجتمع ويسيطر عليه . هذا المبدأ لدى المفكرين المحدثين يسمى " تقسيم العمل وتوزيع الوظائف الاجتماعية ".

تحقيق التضامن الاجتماعي:

يرى "أوجست كونت" أن التضامن الاجتماعي مبدأ لا يمكن أن يتحقق بصورة كاملة إلا إذا وجه المسؤولون عنايتهم إلى إصلاح ثلاثة نظم اجتماعية أساسية هي:

١. نظام التربية والتعليم:

يعتقد "كونت" أن النظام التربوي والتعليمي ينبغي أن يكون نظاماً وضعياً مبنياً على أسس علمية مرنة وبديلا عن النظام الميتافيزيقي ذي النظرة المجردة. وهذا يستوجب فصله عن السياسة لإبعاده عن النفاق والإثارة للخصومات وإفساد الطبائع. كما يرى ضرورة تقسيم مراحل التعليم إلى ثلاث مراحل هي الابتدائية والثانوية والعالية.

٢. إصلاح نظام الأسرة:

دعا "كونط" لأن تبنى الأسرة على أساس الأخلاق الكاثوليكية وترويض الأفراد على تقبل مبدأ التضامن الاجتماعي ونبذ الأنانية. ولهذا الغرض منح الأم دورا كبيرا في التنشئة الاجتماعية والتربية وغرس مبادئ الدين الوضعي في الأطفال أو ما أسماه أوجست كونت بـ" عبادة الإنسانية ".

٣. إصلاح النظام السياسي:

الحكومة هي دليل على تقدم المجتمع وليست شراً لا بد منه مثلما كان سائداً في القرن الثامن عشر لأن تقدم المجتمع مرهون بمدى انقياد الأفراد للحكومة ومدى بسط سلطتها عليهم، أما وظيفتها فهي تحقيق مبدأ التضامن الاجتماعي والحرص على وحدته، وعلى الحكومة أن ترعى وظيفتها المادية والروحية أي الجمع بين السلطتين الزمنية والدينية وأن تعمل على حفظ الدين وحمايته وغرسه في قلوب الأفراد.

ويجدر التذكير أن "أوجست كونت" درس النواحي الاقتصادية والأخلاقية والدينية في المجتمع، ونقد النظريات الاقتصادية السائدة في عصره وكذا الأخلاقية والحاجة الماسة إلى مجموعة منظمة من العقائد.

أسس الدراسة ومنهج البحث:

١. تشدد الوضعية كنمط تفكير علمي على إحلال فكرة القانون محل فكرة القوى الخارقة للعادة التي تحكمت طويلا بتفسير الظواهر العلمية. هكذا فإن الوصول إلى القانون العلمي الذي يحكم سير الظاهرة ويفسرها سيكون في إطار الوضعية المطلب الأول والمحور الأساس الذي تدور عليه الدراسة والبحث.

٢. إن من مبادئ الفلسفة الوضعية أيضاً إخضاع التخيل أو التصوير الفلسفي الذي كانت تقوم عليه المناهج القديمة إلى الملاحظة. وهكذا ضُرِبت الفلسفة الثيولوجية والميتافيزيقية في الصميم.

٣. يستند منهج البحث الوضعي إلى إعطاء العلاقات التي تربط بين الظواهر الاجتماعية أهمية كبرى انطلاقا من أن الفلسفة الوضعية تعتبر نفسها مفسرة للكون ومظاهره وتسعى إلى الكشف عن طبائع الأشياء والقوانين التي تحكمها وهذا بخلاف المناهج القديمة التي لم تعطنا فكرة واضحة عن تحديدها للعلاقات بين مختلف الظواهر وعن الارتباط الحقيقي بينها.

٤. إذا كانت المناهج القديمة تنزع في تفسيرها للظواهر إلى المعاني المطلقة والمبادئ الكلية والعلل الأولى مما يجعلها منتجة لمفاهيم جامدة غير قابلة للتطور فإن الوضعية كفلسفة تهتم بتحديد دائرة المعاني المطلقة وجعلها معاني نسبية مرنة قابلة للحركة والتطور بما يستجيب لنمو العقل ومستحدثات العصر ومتطلبات الظروف.

منهج البحث:

هناك نوعان من البحوث التي تؤدي إلى كشف الحقائق في ميدان الظواهر الاجتماعية، ويستعمل أحد هذه الأنواع ما يسميه "أوجست كونت" بالوسائل المباشرة والآخر بالوسائل غير المباشرة .

الوسائل المباشرة: وهي الخطوات المنهجية التي نستخدمها لكشف القوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية في نشأتها وتطورها ووظائفها ومجموع هذه الخطوات تكوِّن قواعد منهج البحث الاجتماعي.

الوسائل غير المباشرة: تنتج هذه الوسائل التي لا تقل أهمية عن المباشرة من رحم العلاقات الضرورية التي تربط علم الاجتماع بما عداه من العلوم الوضعية الأخرى التي تمده بصفة دائمة بنتائج وحقائق وقضايا لها أهميتها في ميدان البحث الاجتماعي.

الوسائل المباشرة:

١. الملاحظة: ليست هي الإدراك المباشر للظاهرة أو وصف للحوادث. إذ ثمة وسائل أخرى تكون مصاحبة لهذه التقنية بحيث تطور وتعمق من فهمنا للظاهرة الملاحظَة.

مثلا :

- دراسة العادات والتقاليد والآثار ومظاهر التراث الأخرى.
- تحليل ومقارنة اللغات.
- الوقوف على الوثائق والسجلات التاريخية .
- دراسة التشريعات والنظم السياسية والاقتصادية.
- الاهتمام بكل مصادر المعرفة التي تساعد على الكشف العلمي.

لأن الظواهر الاجتماعية هي ظواهر عادية ومنتشرة ومتداخلة في صميم الحياة الفردية بحيث يكون الباحث نفسه مشاركاً فيها سواء كانت قليلة أو كثيرة؛ ولأن الظواهر الاجتماعية معقدة أو كثيرة التغير ودائمة التفاعل حيث إن الباحث قد لا تتوفر له الفرصة للإحاطة واليقظة بالظاهرة والإشراف عليها وملاحقتها. ولأن الباحث قد يخطئ في تأويل أو إدراك ما يلاحظه في الظاهرة مما ينعكس على الاستنتاجات وبالتالي اختلاف عقول الباحثين في ملاحظة الظاهرة إياها. فإن أوجست كونت يرى أنه لا بأس

من اعتبار الملاحظة عاملاً مساعداً للكشف العلمي عن قوانين الظواهر ولكن بدون الإسراف المبالغ في الاعتماد عليها وتحويلها من وسيلة إلى أسلوب.

٢. التجربة:

يميز "كونت" في هذا السياق بين " التجربة الاجتماعية " التي تطبق على ظواهر المجتمع وبين " التجربة العلمية " التي تُجرى على الظواهر الطبيعية كالكيمياء والبيولوجيا.

في البحوث العلمية حيث تجرى التجارب على الظواهر الطبيعية؛ وبهدف استخراج القوانين يلجأ الباحث عادة إلى إجراء تجارب مقارنة بين ظاهرتين متشابهتين في كل شيء ولكنهما مختلفتين في حالة واحدة وهذا الاختلاف بين الظاهرتين يرجع إلى هذه الحالة فقط. ومهمة الباحث هي معرفة هذا العامل (القانون) الذي تسبب باختلاف الظاهرتين ثم دراسة مدى تأثير العامل الطارئ هذا على ظاهرة أخرى .

ويرى "أوجست كونت" أن المجتمع مثل جسم الإنسان لا بد وأن يتعرض إلى حالات مرضية سابقة من حين إلى آخر بفعل عوامل طارئة وتيارات ظرفية كالثورات والفتن والانقلابات، وهي حالات تحدث بلا شك طبقا للقوانين الاستاتيكية والديناميكية. ولا شك أن دراسة الحالات الباثالوجية هذه في المجتمع ستؤدي إلى تكون رصيد معرفي يساعد في إعادة المجتمع إلى سيره المعتاد.

وإذا تمكن الباحث من الوقوف من قبل على القوانين التي تخضع لها الظواهر في حالتها العادية حتى يمكن الكشف عن العامل الطارئ الذي سبب الحالة المرضية. ومع ذلك ليست التجربة وسيلة مجدية ولا مواتية في كل الظروف والمناسبات وبالتالي فهي غير فعالة.

٣. المنهج المقارن: المقارنة الاجتماعية هي وسيلة منهجية تتأسس على تحديد أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين الظاهرتين، ويبين كونت ثلاثة أشكال للمقارنة الاجتماعية، وهي:

أولا : مقارنة في مستوى الماكرو سوسيولوجي " مقارنات واسعة " وتشمل:

- مقارنة المجتمعات الإنسانية ببعضها.

- مقارنة ظاهرتين في مجتمعين إحداهما تطورت بسرعة وأخرى بطيئة التطور.
- ملاحظة وجود مجموعة من النظم في مجتمع بينما لا تؤدي الظاهرة نفس الوظيفة في مجتمع آخر أو ليست بالدرجة نفسها.

ثانيا : مقارنة في مستوى الميكرو سوسيولوجي " مقارنات أضيق نطاقا " .

مثلا كأن تقع مقارنة في مجتمع واحد بين الطبقات أو الهيئات والمؤسسات أو في مستوى المعيشة، والأخلاق، الأذواق العامة، اختلاف اللهجات ...الخ ، درجة التحضر والتريف.

ثالثا : مقارنات أكثر شمولاً وعمومية وأوسع نطاق:

مثلا مقارنة جميع المجتمعات الإنسانية في عصر ما بالمجتمعات الإنسانية نفسها في عصر آخر للوقوف على مدى التقدم الذي تخطوه الإنسانية في كل طور من أطوارها ومعرفة درجة التطور ما بين الشعوب الإنسانية.

٤. المنهج التاريخي " المنهج السامي ": و يقصد به كونت :

المنهج الذي يكشف عن القوانين الأساسية التي تحكم التطور الاجتماعي للجنس البشري باعتبار أن هذا الجنس وحدة واحدة تنتقل من مرحلة إلى أخرى أرقى منها ". وهو المنهج الذي أقام كونت على أساسه " قانون الأدوار الثلاثة ".

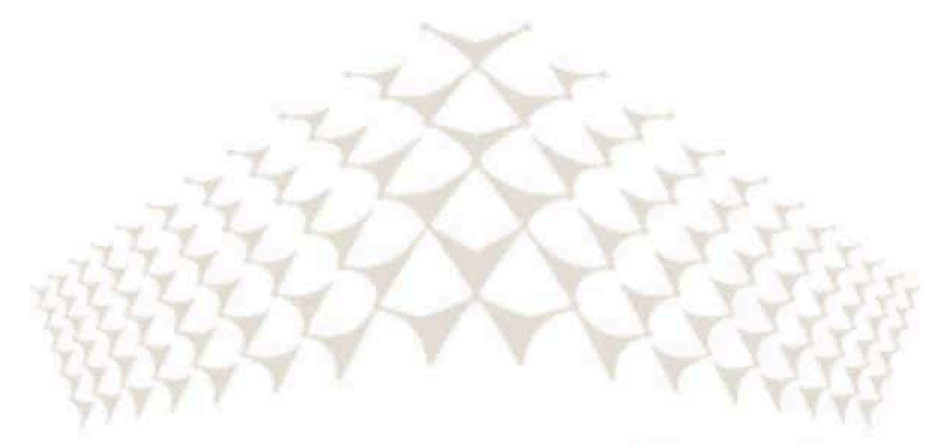
وهو منهج يعبر عن فلسفة أوجست كونت نفسها أكثر مما يعبر عن حقائق علمية، لأن أوجست كونت نفسه يقدم وسائل منهجية لدراسة الظواهر الاجتماعية والإنسانية تنسف ما يدعيه لا سيما أن الظواهر تتطور أو تبطئ أو تؤدي وظائف مختلفة في مجتمعات مختلفة، كما أنه يقر بالتباين والاختلاف لنفس الظواهر وما بين المجتمعات.



Herbert Spencer

ثالثاً- هربرت سبنسر:

- حياته.
- المبادئ العامة لفلسفة سبنسر.
- حقائق بيولوجية.
- تطبيقات الحقائق البيولوجية في الحقائق الاجتماعية.
- المجتمع بين الاستقرار والانحلال.
- نظرية سبنسر في تصنيف المجتمعات.



ثالثاً- هربرت سبنسر / H. spensser

(١٨٢٠ - ١٩٠٣) :

حياته:

ولد "هربرت سبنسر" عام ١٨٢٠م ولم يلتحق بأي مدرسة رسمية، وإنما تلقى تعليماً منزلياً. وقد اهتم في بداية حياته بالميكانيكا وعمل مهندساً في السكك الحديدية في لندن وبرمنجهام. بدأ حياته مدرسا ثم مهندساً. ولكنه ترك وظيفته واشتغل بالسياسة والأدب والاجتماع واعتنق مذهب التطور " في النشوء والارتقاء " ووصل إلى حقائق دقيقة قبل أن ينشر داروين بحوثه. يشكل هربرت سبنسر مكانة مهمة في تطور النظريات الاجتماعية. بل وضع قواعد ومبادئ ما زالت مؤثرة على المدارس الاجتماعية الحديثة والمعاصرة. ولم يكن هربرت سبنسر عالم اجتماع فقط بل كان فيلسوفاً، وعالماً بالمعنى العام لهذه الكلمة. لذلك يقال أن هربرت سبنسر استطاع أن يجمع بين التيارات الرئيسة للفكر الاجتماعي خلال القرن التاسع عشر. ولما نشر سنة ١٨٥٠م كتابه " الثوابت الاجتماعية " أخذ نجمه يسطع فكتب بعد ذلك في علم الحياة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والتربية، والسياسة. وقد حاول تطبيق فكرة " النشوء العضوي والتطور " على الكائنات الحية في ميدان علم الأحياء وعلى الإنسان في ميدان علم النفس والأخلاق وعلى المجتمع في ميدان علم الاجتماع والسياسة. ومن مؤلفاته الأخرى كتابه " المبادئ الأولى " وكتاب " التقدم وسببه"، وفي كتبه الأخرى " مبادئ علم النفس وعلم الحياة وعلم الاجتماع". كما كتب مجموعة من المقالات تتناول موضوعات أخرى مثل الأخلاق والنظرية السياسية، والتربية، والأحزاب السياسية، والفنون، والموسيقى وغيرها[1].

و يعد " هربرت سبنسر" من أكثر المؤثرين بأفكاره على السنوات الأولى من علم الاجتماع الأمريكي بدرجة أكبر من تأثير " كونت" وحتى من " دوركايم وماكس فيبر". حيث هناك من يرى أن السبب في ذلك هو نشره أي " سبنسر" لكتبه باللغة الإنجليزية.

---

[1] انظر سيرة هربرت سبنسر في كتاب : ميشيل مان (١٩٩٤). مرجع سابق، ص ٦٧٥-٦٧٨. وكذلك: هاينز، موس (١٩٨١). مرجع سابق.

يضاف إلى ذلك أن " سبنسر" لم يكتب أعماله بلغة متخصصة مما جعل أعماله سهلة الفهم. ورغم تلك الأسباب الوجيهة إلا أن هناك أسباب أخرى وراء ذيوع صيت "سبنسر" فقد طرح اتجاهاً علمياً جذب له جمهور القراء الذي أصبح مفتوناً بالعلم ومخرجاته التقنية. كما قدم "سبنسر" نظرية شاملة تتناول الحركة الكلية للتاريخ الإنساني. وقد أدى انتشار أفكاره على اختلاف مضامين نظريته باختلاف القراء. وأخيراً فإن نظرية " سبنسر" بثت الطمأنينة في المجتمع الذي يمر بتحول عنيف مع التصنيع، وهو المجتمع الذي يتحرك بخطى واثقة في اتجاه نحو مزيد من التقدم. وقد ترك "سبنسر" تأثيراً كبيراً في عدد من علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل . ورغم أن أهمية " سبنسر" اليوم تنطلق من منطلق تاريخي. إلا أن أفكاره كانت هامة في تشكيل النظرية الأمريكية في علم الاجتماع في بدايتها والتي اتضحت في أعمال " وليم سمر" و " ليسرت وارد"[1].

المبادئ العامة لفلسفته[2]:

يتحدث "سبنسر" عن نفسه قائلاً: " إن جرثومة فلسفتي ظهرت عندما توصلت إلى حقيقة بيولوجية أساسها أن الأنواع الدنيا من الحيوان تتألف أجسامها من أجزاء متماثلة لا يتوقف بعضها على بعض وأما الأنواع العليا من الحيوان فتتألف أجسامها من أعضاء متباينة تعتمد في أعمالها ووظائفها على بعضها البعض. وهذه نتيجة استقرائية وصلت إليها من بحوثي وتجاربي في ميدان الدراسات البيولوجية. وهذه الحقيقة تصدق كذلك على جماعات الأفراد. فكأن المجتمع شأنه شأن أي كائن حي يبدأ متجانساً ثم يميل إلى التفرد والانتقال من المتجانس إلى اللا متجانس ".

تشتمل مقولة " سبنسر" عن نفسه المبادئ العامة لفلسفته، وهذه المبادئ تقوم على التكامل / التجانس والتباين / اللاتجانس والعلاقة بينهما. وانطلاقا من مبدأ "النشوء

[1] مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٥٨.

[2] اعتمدنا في عرض أفكار هربرت سبنسر على مرجع : محمد، علي (١٩٨٣). المفكرون الاجتماعيون. بيروت : دار النهضة العربية، ص ٥٥-٨٨. ومرجع : الجوهري، عبد الهادي (١٩٩٥). تاريخ الفكر الاجتماعي. القاهرة: مكتبة نهضة الشرق ص ١٢٨- ١٣٢ . ومرجع: حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٥٩-٦٧.

والارتقاء " يمكن القول : أن الارتقاء في جميع مسالك الطبيعة من نبات وحيوان واجتماع إنساني وما يتصل بهذا الاجتماع من شؤون تتعلق بالأخلاق، السياسة، الفنون والعادات إنما يقوم على أساس واحد هو " الانتقال من التماثل والتشابه إلى التباين وعدم التجانس ".

حقائق بيولوجية :

نماذج الأنواع:

أ. نماذج التماثل والتشابه أو التجانس:

إن الأنواع الدنيا من النبات يكون التشابه فيها أكثر وضوحاً من الاختلاف في حين أن الأنواع العليا من النبات يكون الاختلاف فيها بارزاً . كما أن الأنواع الدنيا في الحيوان تكون هي الأخرى متماثلة كالأميبيا والإسفنج .

ب. نماذج الاختلاف والتباين أو اللاتجانس:

في النباتات الراقية يمكن ملاحظة الاختلاف في ميدان التذكير والتأنيث. وفي الحيوان يعتبر الإنسان هو الأرقى ولا شك أن الاختلاف أشد وضوحا.

مميزات الأنواع:

في الأنواع الدنيا من النبات والحيوان فإن الجزء يؤدي حصرا وظيفة الكل فإذا قطعنا جزءاً من جسم الإسفنج فالحياة مستمرة لأن باستطاعة الجزء أن يعيش ويقاوم حتى يصل إلى حالة التماثل الأولى وكذلك الأمر في بعض النباتات. هذا يعني أن التطور لن يصل في أحسن الأحوال إلا إلى حالة التجانس أما اللاتجانس فلا. هذا يعني أيضاً أن الجزء مستقل عن الكل حيث قوى النمو والتوالد كامنة فيه.

أما في الأنواع العليا من النبات والحيوان فإن الجزء لا يؤدي وظيفة الكل كما أن الجزء مستقل عن الكل نسبياً غير أن التباين والاستقلالية لا تعني الانفصال بل التكامل كما أن العضو مثلاً في الإنسان لا تكمن فيه قوى النمو والتوالد لذا فهو يؤدي وظيفة معينة إلى جانب وظائف الأعضاء الأخرى بحيث أن عملية التكامل الوظيفي تؤدي إلى وحدة القصد والهدف .

القانون العام :

من هذه الحقائق البيولوجية يستخلص "سبنسر" القانون التالي:" أن في الحياة ميلاً إلى التفرد والتخصص والانتقال من المتجانس إلى اللامتجانس ومن المتشابه إلى المتباين . فالجماد أو الجسم غير الحي كذرات التراب، النار والهواء يكون متماثلاً وغير متخصص في حين أن الجسم الحي يتمتع بذاتية وينفرد بشخصيته ويؤدي وظيفة خاصة ومحدودة يتعين عليه أن يؤديها وكلما زاد الكائن الحي ارتقاءً زاد تفرده وتخصصه ظهورا". وهكذا يقرر سبنسر أن التخصص هو غاية كل تطور وارتقاء في الموجودات .

دعائم القانون :

حسب تحليل " سبنسر" فالقانون يقوم على دعامتين :

أولا : كلما ازداد المركب الحيوي تعقيداً ازداد تخصصاً وتفرداً.

ثانيا : كلما ازدادت الأعضاء تفرداً واختصاصاً ازدادت استقلالاً.

ويمكن القول أن نظرية "سبنسر" في التطور تقوم على أساس فكرتين أساسيتين:

١- التباين : ويقصد به الانتقال من المتجانس إلى اللامتجانس وقد قرر في ذلك أن في الحياة ميلا إلى التفرد والتخصص وهو الغاية القصوى التي يصل إليها الكائن في ارتقائه وأن هذا الارتقاء والتطور كان دائما مصحوباً بالانتقال من التعميم غير المحدود إلى التخصص المحدود ومن التماثل المطلق إلى التباين المحدد .

٢- التكامل : وهذه الظاهرة تسير حيناً إلى جنب مع ظاهرة التباين بمعنى أن التفرد أو التخصص لا يؤدي إلى الاستقلال والانعزال والاكتفاء الذاتي ولكنه يؤدي إلى التضامن والتماسك واعتماد الأجزاء والوظائف بعضها على البعض الآخر فلا تستطيع إحداها أن تستغني عن الأخرى وذلك طبقا لمبدأ توزيع العمل البيولوجي بالنسبة للمركب الحيوي وطبقا لمبدأ التضامن والتكامل الاجتماعي بالنسبة لشئون الحياة الاجتماعية .

لذا يصل " سبنسر" إلى قناعة هي أن التخصص هو غاية كل تطور وهذا القانون قائم على دعامتين كما يتصوره :-

١. كلما ازداد المركب الحيوي تعقيداً كلما ازداد تخصصا وتفردا.
٢. كلما ازداد الأعضاء تفردا واختصاصا كلما زادت استقلالا .

وهو يرى أن الإسراف في التخصص لا يعني استقلال كل كائن عن الآخر وكل طائفة اجتماعية عن بقية المجتمع ولكن هذه التخصص ينطوي على التضامن والتعاون ويتجه إلى التآلف[1] .

تطبيقات الحقائق البيولوجية إلى الحقائق الاجتماعية:

نشط "سبنسر" في تطبيق ما توصل إليه في الميدان البيولوجي على الميدان الاجتماعي :

١. الأفراد وحياة الفطرة:

اتسمت حياة الجماعات البشرية الأولى بالتشابه والتماثل في انتسابهم إلى مجتمع تتشابه فيه طرق المعيشة والحاجات والغايات ووسائل العيش والاقتصاد والنمو والدفاع والأمن والزواج والدين والمعتقدات والأساطير...الخ. وفي مرحلة ما حدث تطور في الحياة الاجتماعية والانتقال من سذاجة الفطرة إلى مرحلة أكثر ارتقاء لوحظ فيه ظهور الفوارق بين الأفراد وتقاسم وظيفي لشؤون الأسرة والعمل وما إلى ذلك من شؤون الحياة الاجتماعية.

وفي مرحلة أكثر تطوراً ورقياً لوحظ ازدياد في التخصص والاستقلالية الفردية.

٢. انقسام المجتمعات:

إن الإسراف في التخصص لا يعني استقلال كل كائن عن الآخر أو كل طائفة اجتماعية عن بقية الطوائف الأخرى في المجتمع وعلى العكس من ذلك فالتخصص ينطوي على التضامن والتعاون ويتجه نحو التآلف؛ فالعدالة تستوجب ضمانات لتحقيقها كالقضاة والمحامين ووكلاء الدفاع والكتاب والمحضرين بحيث ينصرف كل إلى عمله ليتحقق القصد والهدف العام كما أن التآلف ينسحب على الدور التكاملي الذي يؤديه كل من التاجر والصانع والطبيب والمدرس وعامل النظافة والمزارع والجندي والشرطي بحيث ينصهر الجميع في بوتقة واحدة تنزع نحو وحدة القصد والهدف رغم التفرد والاختصاص .

---

[1] أبو طاحون، علي (د ت). النظريات الاجتماعية المعاصرة. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

نظرية هربرت سبنسر في طبيعة المجتمع:

أ. المحددات النظرية:

إن نظرية "سبنسر" في المجتمع تنبع أصلاً من فلسفته في التطور الاجتماعي هذه الفلسفة ستؤدي حتماً إلى مماثلة بين المجتمع والكائن الحي ولكن بشرط. أي أن المجتمع فقط يشبه الكائن الحي ولكنه يتطابق معه عبر ثلاث ماهيات، وهي:

١. ماهية المجتمع:

حسب داروين وهيغل بصفة خاصة يتفق "سبنسر" على اعتبار المجتمع جزءاً من النظام الطبيعي للكون. وبالتالي فهو يرفض الفكرة التي تعتبره شيئا خارجاً عن هذا النظام .

٢. ماهية علم الاجتماع:

يرى "سبنسر" أن اعتبار المجتمع جزء من النظام الطبيعي للكون يستوجب، النظر إليه كفرع من منظومة التفسير الطبيعي التي تطبق على سائر مظاهر الكون وليس على المجتمع فقط. وعلى هذا الأساس فإن علم الاجتماع هو محاولة لمعرفة نشأة المجتمع وتركيبه وعناصره وهيئاته ومراحل نموه وتطوره وما إلى ذلك من المظاهر التي تخلفها العوامل الطبيعية والنفسية والحيوية بوصفها عوامل تعمل متضافرة في عملية تطورية موحدة .

٣. ماهية التطور الاجتماعي:

هكذا فإن التطور الاجتماعي ليس إلا عملية تطورية عضوية ليس بالمعنى البيولوجي النصوصي بل بالمعنى الاصطلاحي الذي يخلص "سبنسر" إلى تسميته بالتطور فوق العضوي.

ب. التطور فوق العضوي :

إن التحدث عن تطور عضوي (بمعنى بيولوجي) وتطور فوق عضوي (بمعنى اصطلاحي) يعني أن سبنسر بصدد الحديث عن مقارنة الكائن الحي من جهة والمجتمع من جهة أخرى . وبما أن المنهج المقارن يستوجب ضبط التشابهات (التماثلات) والاختلافات (التمايزات) فمن الواضح أن سبنسر عندما يتحدث عن عناصر تشابه

بين المجتمع والكائن الحي إنما يتحدث أيضاً عن فروقات لذا نراه دقيقاً في اختياره للمصطلحات والمفاهيم بالقدر الذي يسمح له ببناء نظرية تجد لها موقعاً ملائماً بين النظريات الاجتماعية التي أعقبت ظهور علم الاجتماع على يد أوجست كونت .

الفروقات بين التطور العضوي والتطور فوق العضوي:

لدى مقارنته للمصطلحين في نطاق المجتمعات الحيوانية يرى سبنسر أن التطور فوق العضوي وإن كان موجودا في مجتمعات النمل والنحل مثلا بوصفها مجتمعات راقية إلا أنه يبقى أقل وضوحاً. إذن المسألة تتعلق بمدى تعقد المجتمعات المدروسة، أي بمدى تخصصها، وفي هذا السياق يعقد سبنسر مقارنة بين المجتمعات الحيوانية والمجتمعات البشرية. حيث لاحظ أن المجتمعات الحيوانية ليست معقدة كالتعقيد الذي يمكن ملاحظته في المجتمعات البشرية. مبدئياً فإن الاجتماع الحيواني يشتمل على ضرب من السلوك والأثر ما هو أشد تعقيداً مما لدى الاجتماع الإنساني ، غير أن الاجتماع الإنساني ينطوي على تفاعل في مستوى العلاقات الإنسانية وتشابك المصالح والرغبات بين الأفراد مما ينجم عنه ضروباً من السلوك والآثار أشد تعقيدا وأشد تنوُّعا إلى الحد الذي يجعله أرقى صورة للتطور العضوي.

ج. محتوى المماثلة البيولوجية : (المجتمع كائن حي):

إن فكرة المماثلة العضوية قديمة قدم الفلسفة الاجتماعية وقد حاول "سبنسر" أن يدلل في كتابه " مبادئ علم الاجتماع" المجتمع كالفرد ... فهو ينمو ، وكلما ازداد نمواً ازداد تعقيداً وكلما تعقد ازدادت أجزاؤه استقلالا وحياة المجتمع طويلة جدا بالنسبة إلى حياة أجزائه التي يتألف منها . والمجتمع كالفرد يعتريه زيادة في التجمع مقرونة بزيادة في التباين . وهكذا فإن تطور المجتمع يسير على التطور فنمو الوحدة السياسية من الأسرة إلى العشيرة والقبيلة والدولة وصولا إلى الإمبراطوريات[1].

في ضوء ما سبق فإن :

- المجتمع عبارة عن كائن عضوي أو مركب عضوي يشبه الجسم الحي.
- عناصر المجتمع وهيئاته تشبه نظائرها في الكائن الحي .

[1] عرابي، عبد القادر (٢٠٠٠). مرجع سابق.

١. من حيث التشابهات:

المجتمع كالفرد مزود بجهاز للتغذية يتمثل في هيئاته وطبقاته المنتجة، ومزود بدورة دموية تتمثل في نظم التوزيع وطرق المواصلات، ومزود بجهاز هضمي وإخراجي يتمثل في نظام الاستهلاك، ومزود بجهاز عصبي يتمثل في الجهاز التنظيمي والإدارة الحكومية التي تتولى قيادة المجتمع والإشراف على مصالحه.

٢. من حيث الفروقات:

- أن عناصر الكائن الحي تكون كلا متماسكاً ومتحدداً بصفة مباشرة. هذه الكلية تظهر جلياً في اتحاد مادي محسوس لجميع العناصر .

- ولكن في المجتمع فإن العناصر / العوامل إنما تؤدي إلى الوحدة / الكلية لأنها عناصر خارجية وليست عضوية كما هو التركيب العضوي للفرد . وهذه العوامل تتجلى باللغة والعواطف والانفعالات والأفكار والمعتقدات والتقاليد والعرف ...الخ.

- أن الجهاز العصبي، مثلاً، في عقل الكائن يشغل جزءاً صغيراً من التركيب البيولوجي - العضوي- للفرد، بينما في المجتمع نجده ممثلاً بالجهاز التنظيمي والإدارة والقيادة. أي أنه موزع بين الأفراد ولكل إنسان الحق في الإسهام فيه وفق إطار توجيه المجتمع.

- المجتمع يشبه الفرد من حيث النشأة والتكوين ، حيث ينشأ بصورة بسيطة ضيقة النطاق ثم يأخذ حجمه بالنمو وعدد أفراده بالتكاثر . إذن المجتمع يشبه الكائن الحي في حالة النشأة أي في الحالة التي يتبعها تميز في الهيئات والأعضاء والتركيب المعقد [انتقال من التجانس اللامحدود إلى التباين المحدود] ولكن نمو المجتمع لا يكون عن طريق التزايد البسيط الضيق، بل من خلال اندماج هيئاته واتحاد بعض المجتمعات الصغيرة وتفاعل اتجاهاتها والتيارات التي تسودها، هنا تبدأ حالة التعقيد في بنية المجتمع وتركيبه .

المجتمع بين الاستقرار والانحلال :

يقضي قانون النشوء والارتقاء بخضوع الكائنات الحية لوجهي القانون. فإذا كان الكائن الحي ينشأ وينمو فهو أيضاً ينحل. وهكذا المجتمع حين يشبهه سبنسر بالكائن الحي فهو حتماً خاضع للوجه الآخر للقانون وهو الضعف والانحلال .

١. استقرار المجتمع:

إن نشوء المجتمع مرحلة تتواصل مع مرحلة النمو، وما بين اكتمال نمو المجتمع وتعقيده من جهة وانحلاله من جهة أخرى ثمة مرحلة استقرار يبلغ فيها المجتمع من القوة ما يزيد من اندماج عناصره وهيئاته وتماسكها. في هذه المرحلة يكون المجتمع في أوج استقراره . وما أن تستمر الحياة الاجتماعية إلى حد ما حتى تأخذ الظواهر والنظم الاجتماعية في الارتقاء والتطور، وهذه العملية تعني الانتقال من حالة التجانس إلى حالة التباين والتخصص.

الصورة الأولى : هي الإستاتيكا الاجتماعية باعتبارها البناء التنظيمي للمجتمع والأنساق الاجتماعية .

الصورة الثانية: الديناميكا الاجتماعية عنده التطور المستمر لبناء المجتمع كما يرى سبنسر أن نظم المجتمع الكبرى تتكون من نظام الأسرة والنظام العشائري والنظام الكنسي والنظام المهني - (تقسيم العمل والنظام الصناعي) ولقد قسم سبنسر المجتمع إلى نسقين كبيرين : النسق الداخلي والنسق الخارجي .

النسق الداخلي : ويرتبط بتوزيع الوظائف .

النسق الخارجي : ويؤكد على الضبط الاجتماعي أو التنظيم الاجتماعي .

وتعمل هذه الأنساق الفرعية على المحافظة على المجتمع كوحدة عضوية في تطورها المستمر[1].

وخلال انتقالها من حالة إلى حالة فإن الظواهر والنظم الاجتماعية ستتأثر بنوعين من العوامل:

العوامل الداخلية:

تتعلق هذه العوامل بالناحية الفردية. أي كل الخواص الفردية ذات الصلة بالتكوين الطبيعي والتكوين العاطفي العقلي للأفراد الذين يكوّنون المجتمع. فالظواهر

[1] أبو طاحون، علي (د ت). مرجع سابق.

التي تقوم في المجتمع تنشأ في واقع الأمر متأثرة بالخواص الفردية هذه. بمعنى أن الأفراد يشكلون ظواهر المجتمع وفق الخواص المشار إليها.

العوامل الخارجية:

هي كل العوامل التي تقع خارج نطاق الخواص الفردية ولكنها تؤثر على الأفراد تأثيراً مباشراً وعلى الظواهر الاجتماعية بوصفها نتاج لأوجه نشاط الأفراد. هذه العوامل هي البيئة : كالبيئة الجغرافية والطبيعية وظروف المجتمع المناخية وموقعه وما إلى ذلك من المؤثرات البيئية .

٢. انحلال المجتمع:

إن ارتقاء وتطور المجتمع عملية تنسحب على شتى مناحي الحياة الاجتماعية من نمو في الوحدة السياسية (أسرة، قبيلة، مدينة، دولة، هيئة، أمم...الخ) والوحدة الاقتصادية (صناعة منزلية، مهن، ثورة صناعية آلية ثم ثورة صناعية كهربائية، وكذلك نظم الشركات المساهمة والاحتكار والاستعمار...الخ) ونمو في الوحدة السكانية (عائلة ثم قرية ثم مدينة...الخ)، وغيرها.

إن التطور كان وما يزال مصحوباً بظاهرة ملازمة هي ظاهرة " تنافر القوى وتنوع الوظائف وتفرع الاختصاصات". فالعامل الاجتماعي ازداد تنوعا فيما ازدادت المهن والصناعات تخصصاً وخضعت مظاهر الإنتاج الأخرى لهذه المبادئ. لا بل نجد تنوعاً بين خصائص الريف والمدن وبين دولة وأخرى أو بين وحدة إقليمية وأخرى، وفي كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية نجد تطبيقات صحيحة لهذه المبادئ في السياسة والدين والأخلاق والعلم والفن والاقتصاد. وفي المقابل نجد انحلالاً يعقب التطور. إذ ثمة مجتمعات تضعف بعد قوة ومدناً تتقوض وتنحل وتفقد مكانتها، ودولاً يحل بها الظلم والهوان والفقر والتخلف بعد مجد وسلطان وأخرى تقوم من جديد وتأخذ بأسباب النشوء والارتقاء في عملية خلق متجددة في الحياة الإنسانية.

نظريات سبنسر في تصنيف المجتمعات:

كثيرة هي النظريات التي يعرض لها سبنسر في فلسفته الاجتماعية، منها ما يتعلق بالشؤون السياسية والاقتصادية وبعضها يتعلق بالشؤون الأخلاقية والدينية[1].

وفي نظريته في تصنيف المجتمعات، يقسم سبنسر المجتمعات باعتبارين:

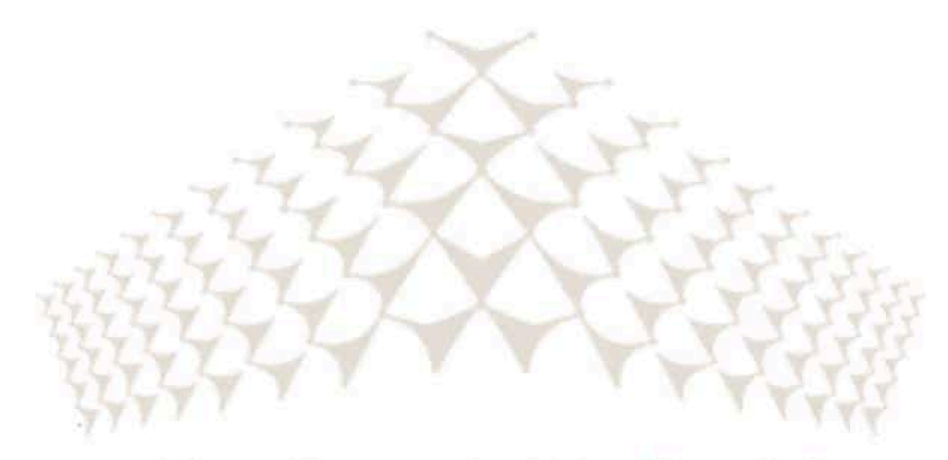
١. من ناحية التكوين المورفولوجي : مجتمعات بسيطة أو مركبة :

في هذا النوع تكون الوحدات الاجتماعية أو التجمعات البشرية متجانسة بما يشبه الفوضى البدائية شأنها في ذلك شأن الأنواع الدنيا من الحيوان ثم تأخذ في النمو كما ينمو جسم الإنسان فترتقي وتتجه بالتدريج نحو التعقيد في التركيب والتنوع في الوظائف والظواهر والنظم ومن ثم الاستقرار. ومن الضروري أن يحدث اتحاد بين هذه التجمعات إما عن إرادة وقصد وإما عن طريق القهر والتغلب لكي يحصل الانتقال من حالة التجمعات البسيطة الساذجة إلى حالة التعقيد والتركيب.

٢. من ناحية الوظيفة: مجتمعات حربية أو صناعية:

يرى "سبنسر" أن بعض المجتمعات من يعيش سكانها رغبة في القتال كالتي سادت نظم الحياة الإقطاعية في أوروبا سابقاً وهو حال المجتمعات الحربية . وهناك من المجتمعات من يقتصر عيشها على مكافحة المتاعب في الحياة والصراع في معركتها فليس لهم من غاية إلا العمل. مثل هذه المجتمعات ليس لها غاية إلا العمل للتغلب على مصاعب الحياة وهو حال المجتمعات الصناعية.

[1] نشرت هذه النظريات في كتابه (الثوابت الاجتماعية، عام ١٨٥٠م. وكتاب (التقدم وسببه) عام ١٨٥٧م وكتاب (مبادئ علم الاجتماع) عام ١٨٥٥م. وكتاب (دراسة المجتمع) عام ١٨٧٣م.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

الفصل الثالث
النظرية الوظيفية

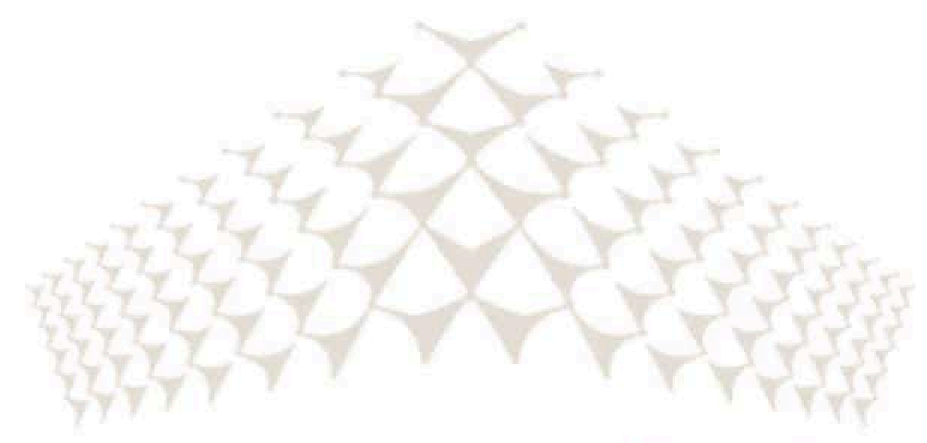
أولاً: النظرية الوظيفيـة.
ثانياً: البنيوية الوظيفية لدى دوركايم.
ثالثاً: راد كليف براون.
رابعاً: الوظيفية وتالكوت بارسونز.
خامساً: روبرت ميرتون والوظيفية.

أولاً- النظرية الوظيفيـة:

- الأصول العلمية للنظرية الوظيفية.
- أشكال النظرية الوظيفية.
- تعريف النظرية الوظيفية.
- الفرضيات الأساسية للنظرية الوظيفية.
- تصور الوظيفية للمجتمع.
- التوازن عند الوظيفية.
- الصراع الاجتماعي عند الوظيفية.

مناقشة قضايا الوظيفية وتصوراتها:

- اهم التباينات داخل الاتجاهات الوظيفية.
- مكانة النظرية الوظيفية في علم الاجتماع.
- أزمة النظرية الوظيفية.



مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

الفصل الثالث
النظرية الوظيفية

أولاً: النظرية الوظيفية:

الأصول العلمية للنظرية الوظيفية:

لا شك أن ظهور المدرسة الوظيفية عند بعض رواد علماء الاجتماع الغربيين ما لبث أن انتقل إلى العالم الجديد وبالتحديد إلى المجتمع الأمريكي حيث عرفت الوظيفية أوج نموها بين العديد من علماء الاجتماع الأمريكي فيما بين الخمسينات ١٩٥٦م والسبعينات ١٩٧٥م من القرن العشرين، إذ أصبحت المدرسة السوسيولوجية تتمتع بسلطة لا تضاهى في هذه الفترة بالذات. أي أنها كانت سيدة الموقف كنظرية سوسيولوجية معاصرة والأكثر انتشاراً.

وعندما نتعرض للوظيفية بالدرس والتحليل والفهم علينا أولاً أن نأخذ في الحسبان الأمور التالية:

١. أن للنظرية الوظيفية جذوراً معرفية تسبق تحول الوظيفية إلى نظرية، وعندما نبحث عن الجذور فإننا في الواقع نقوم بمقاربة للوظيفية كمفهوم قبل أن نقف عليها كنظرية هذه الجذور المعرفية نجدها لدى علماء الاجتماع الأوائل أمثال سان سيمون، وأوجست كونت، وإميل دوركايم، ومارسيل موس، وحتى كارل ماركس، وماكس فيبر. وهي في وضعها هذا لا تعدو أن تكون مجرد مقاربة ولكنها قابلة للارتقاء إلى مستوى النظرية.

٢. أن النظرية الوظيفية هي نظرية جزئية وليست نظرية كلية في علم الاجتماع وهذا هو حالها فيما لو قارناها بالنظرية الماركسية التي تقدم نظرة شاملة للمجتمع.

٣. بدءا من العقود الأولى للقرن العشرين أخذت الوظيفية بالهيمنة على ساحة علم الاجتماع خاصة بعد أن نشطت المدرسة الأنجلوسكسونية التي ضمت كلا من

روبرت ميرتون وراد كليف براون وتالكوت بارسونز ومالينوفسكي في إنجاز أبحاث استندت إلى النظرية الوظيفية أو ما عرف بالبنائية الوظيفية .

وبالتالي ترتبط النظرية الوظيفية بجذورها بالنظرية الوضعية وما بعد الوضعية. لقد أوجد أوجست كونت قطيعة بين ما يسميه هو بقرون الميتافيزيقيا والقرن التاسع عشر أو ما يسميه بالقرن الوضعي العلمي. هذه القطيعة ترتب عليها بروز تصورات جديدة تتعلق بالنظام السياسي والنظام الاجتماعي والنظام المعرفي. كما أن "كونت" بشر بوراثة العلماء والفلاسفة والصناعيين لرجال العهد الميتافيزيقي البائد، أي أنه بشر بنظام اجتماعي وسياسي سيرتكز على العلم والفلسفة والصناعة. وهكذا، فكلما تغيرت المعرفة بالاتجاه العلمي والوضعي، أمكن التوصل إلى إقامة نظام وضعي. وحين نبحث عن المحددات العلمية المرجعية للوظيفية سيكون أمامنا اثنتان من المرجعيات هما:

الأولى: هي العلوم الطبيعية.

الثانية : هي العلوم البيولوجية.

وستأخذ الوظيفية من هاتين المرجعيتين بعض العناصر الأساسية:

العنصر الأول: هو القوانين:

فالطبيعة تقوم على عدد من القوانين التي تتحكم بظواهرها فإذا ما حدثت تطورات جيولوجية معينة فمن الطبيعي أن يصاحبها أو يتولد عنها عددا من الظواهر الطبيعية. وثمة قوانين طبيعية تندثر بفعل عوامل طبيعية أخرى لذا نجد أوجست كونت يعرف الظواهر الاجتماعية تماما مثل تعريفه للظواهر الطبيعية ومثال ذلك تعريفه للدين كظاهرة اجتماعية تولد وتنمو وتكبر ثم تشيخ. أي تبدأ مرحلة التآكل والاندثار.

العنصر الثاني هو: الوظيفة الكامنة في التحليلات البيولوجية للمجتمع:

حيث نجد أن مفهوم الوظيفة هو مفهوم قديم في علم الاجتماع، فقد بدأ التفكير فيه مع هربرت سبنسر ثم تواصل مع أوجست كونت وتطور مع أميل دوركايم وأيضا مع سان سيمون. كل هؤلاء هم ممثلو المدرسة الوظيفية الفرنسية. ولا شك أن هاتين المرجعيتين (الطبيعية والبيولوجية) أرستا مبدأين أساسيين انطلقت منهما المقاربة الوظيفية هما :

الأول: أن المجتمع مثل الجسم البشري كلية متكاملة .

الثاني: إن كل عضو من أعضاء هذا الجسم لا يمكن فهمه إلا في إطار كلية.

إن الوظيفية كنظرية اجتماعية تعتبر المجتمع مجموعة من التنظيمات المترابطة التي يساهم كل منها في الاستقرار الاجتماعي للمجتمع هذا يعني أن الوظيفية تركز أكثر ما يكون التركيز على التوازن الاجتماعي للمجتمع وليس على التغير الاجتماعي. فالعناصر المكونة للمجتمع تُدْرَس من حيث الوظيفة الخاصة والمحددة التي تقدمها للحفاظ على ترابط النسق الاجتماعي لهذا المجتمع أو ذاك. أما النسق الاجتماعي فهو عبارة عن مجموعة من العناصر المترابطة بعضها ببعض، وأي خلل في أحدها لا بد وأن يؤثر في باقي العناصر. وبدورهم يقول الوظيفيون أن النسق الاجتماعي يمكن أن يحافظ على الاستقرار طالما أن كل عنصر يقوم بوظيفة.

وقد تأثرت الوظيفية بالاتجاهات السائدة في البيولوجيا وفي علم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية، إلا أن لها جذوراً من العلم الذي تنتمي إليه. فكل من "أوجست كونت، وهربرت سبنسر، وباريتو، ودوركايم" قد كان لهم دور في ظهور هذا الاتجاه. ومن ذلك:

١- أوجست كونت: نظر "كونت" إلى المجتمع باعتباره وحدة تتمتع بالكثير من الاستقرار، وعلى الرغم من أنه عارض الثورات والانقلابات والانتفاضات إلا أنه لم يبد قلقاً على مصير المجتمع بما أن الاستقرار يغلب عليه. بل إن "أوجست كونت" كان مؤمناً بأن المجتمع يتصف بالتوازن وليس بالصراعات. لذا رأى في الأنساق الاجتماعية وكأنها أنساق عضوية أو بيولوجية[1] .

٢- الوظيفية عند سبنسر: رأى "سبنسر" أن المجتمع في أنساق يتشابه مع كثير من الأنساق البيولوجية. بل إنه أكثر الرواد الذين شبهوا المجتمع بالأنساق البيولوجية، فالكائنات العضوية والأنساق الاجتماعية في المجتمع هي كائنات متشابهة من حيث قدرتها على النمو والتطور. إن ازدياد حجم الأنساق الاجتماعية كازدياد الكثافة السكانية - مثلا - سيؤدي إلى ازدياد انقسام المجتمع إلى أنساق أكثر تعقيداً وتمايزاً، وهذا هو حال الأعضاء البيولوجية أو الكائن الحي. وقد لاحظ سبنسر أن التمايز

---

[1] راجع الفصل الثاني في الجزء الخاص بالعالم أوجست كونت.

التدريجي للبنى في كل الأنساق الاجتماعية والبيولوجية يقترن بتمايز تدريجي في الوظيفة. ولعل أهم ما جاء به سبنسر هو استعماله لمصطلحي " البنية والوظيفة " هاتين الكلمتين بلورهما سبنسر أكثر من كونت. أخيرا فإن قانون التطور الاجتماعي الذي جاء به سبنسر قد أثر في نظريات التطور عند علماء الاجتماع الوظيفيين الذين جاؤوا بعده وفي طليعتهم تالكوت بارسونز ودوركايم[1].

٣- باريتو : قدم "باريتو" نموذجاً استقاه من الميكانيكا وصور المجتمع من خلاله نسقا متوازياً يتألف من أجزاء ومكونات بينها اعتماد متبادل وما يلاحظ على "باريتو" هو انه استعمل مصطلح المنفعة عوض الوظيفية. ويستعمل هذا المصطلح مرتين: مرة على أنه إضافة أو إسهاماً تقوم به ظاهرة بعينها لتأكيد هدف بعينه وإنجازه، ومرة أخرى بوصفها إشباعاً حقيقياً أو مفترضاً، بقصد تأكيد الحالة الراهنة للنسق الاجتماعي والمحافظة عليه[2] .

٤- دوركايم : إن قوة جذور الوظيفية الاجتماعية في علم الاجتماع تكمن أساسا في فكر دوركايم، وفي تأكيده على فكرة الدور أو الإسهام الذي تقدمه البناءات الاجتماعية للكل. ففي كتابه " تقسيم العمل" خصص جزأه الأول لدراسة وظيفة تقسيم العمل والتي تتمل في أنه أساس التضامن العضوي للمجتمعات المتقدمة المعقدة الشديدة التباين. كما قام في دراسته المعنونة بـ" الأشكال الأولية للحياة الدينية ". والتي رفض

---

(1) راجع الفصل الثاني في الجزء الخاص بالعالم هربرت سبنسر.

(2) فيلفريدو باريتو (١٨٤٨- ١٩٢٣م) Pareto, Vilfredo عالم اجتماع واقتصاد إيطالي. ولد في باريس لأب إيطالي وأم فرنسية. كان سياسياً ويعيش في المنفى. وتلقى تعليمه في إيطاليا. ترك ممارسة المشروعات الاقتصادية كي يخصص وقته لدراسة الرياضيات الاقتصادية الحديثة التي وضعها وال راس Walras td . خلف وال راس Walras td كأستاذ في مدرسة الاقتصاد في لوزان. كان عضوا في جمعية آدم سميث الاقتصادية. تمثل أعماله هجوماً عنيفاً على النظريات الماركسية، والاشتراكية، والليبرالية. ألف كتاب " مقدمة لعلم الاجتماع العام" أو حسب الترجمة الإنجليزية " العقل والمجتمع" عام ١٩١٦م. اهتم بدراسة الصراع الاجتماعي والطبقات الاجتماعية ونظريات الصفوة، منتقداً أفكار ماركس. أسس نظرية " النخبة الحديثة". انظر: محمد، علي (١٩٨٣). المفكرون الاجتماعيون. بيروت : دار النهضة العربية، ص ١٤٢- ١٨٩.

فيها فكرة أسطورية الدين، واعتباره وظيفة في المجتمعات البشرية تساهم في توحيد الناس وخلق روح التضامن الاجتماعي فيما بينهم.

هكذا ساهمت كل من العلوم الطبيعية والبيولوجية وعلم النفس والأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا في ظهور ما يعرف بالبنائية الوظيفية في علم الاجتماع وما أحدثته من انتشار في الأوساط السوسيولوجية.

أشكال النظرية الوظيفية البنائية:

إن الحديث عن تقسيم الوظيفية البنائية هو عمل صعب للغاية. ذلك أن هذه المدرسة تنقسم إلى عدة اتجاهات وكل اتجاه ينقسم بدوره حسب كل باحث، وعلى أية حال سوف نحاول إعطاء بعض التقسيمات المعتمدة.

التقسيم الأول: يقسم الوظيفية إلى ثلاثة: الوظيفية العامة التي تهتم بالتحليلات السوسيولوجية العامة، ثم الوظيفية التقليدية التي تدرس المجتمعات في كونها تهدف إلى الحفاظ على تكامل النسق وتوازنه، ثم الوظيفية الشكلية الصورية.

التقسيم الثاني: يقسمها أيضاً إلى ثلاثة: أولها : الوظيفية البنائية. ثانيها : البيولوجية ثم المعيارية. الأول : غايته الحفاظ على النظام، الثاني : يجعل من المجتمع غاية لإشباع حاجات بيولوجية والأخير يرى في التوازن الاجتماعي شيئاً يمكن تحقيقه عن طريق وجود قيم ومعايير عامة مشتركة بين الغالبية.

التقسيم الثالث : هو تقسيم الوظيفية إلى فردية والتي ترتكز على حاجات الفاعلين الاجتماعين والبنى الاجتماعية، والوظيفية العلاقاتية وتهتم بالتوترات التي قد تمر بها المجتمعات.

وهذه التقسيمات عامة حيث إن كل وظيفي داخل كل اتجاه يختلف عن نظيره في الاتجاه نفسه الذي ينتميان إليه.

ويمكن الوقوف على ثلاثة أشكال لها:

١. الوظيفية الفردية:

في هذا الشكل من النظرية فقد وقع التركيز على حاجات الفاعلين الاجتماعيين والبنى الاجتماعية التي تظهر لتلبية هذه الحاجات. ومثال ذلك، الأسرة النووية التي تتكون عادة من أبوين وبضعة أولاد ظهرت لتلبي بعض الحاجات الفردية كالتمتع

بالحرية والعيش بالاستقلالية والعمل والتربية الخاصة في مقابل ذلك لم تعد الأسرة الممتدة المكونة من الأبوين والأبناء والأزواج والزوجات وأبنائهم؛ لم تعد قادرة على تلبية الحاجات الفردية.

٢. الوظيفية العلاقاتية:

في هذا الشكل يقع التركيز على آليات العلاقات الاجتماعية التي تساعد في التغلب على التوترات التي قد تمر بها العلاقات الاجتماعية. هذا النوع نجده موضوع اهتمام لدى الأنثربولوجيين أمثال راد كليف براون، ومالينوفسكي. فالوظيفية العلاقاتية تعمل، مثلاً، عبر شعيرة طقسية من الشعائر ، على التخفيف من التوترات في إطار العلاج النفسي .

٣. الوظيفية الاجتماعية:

هنا يقع التركيز على البنى والمؤسسات الاجتماعية الكبرى، وعلى علاقاتها ببعضها البعض وتأثيراتها الموجهة لسلوكيات الأفراد والمجتمعات، مثل الوظيفية التي تقوم بها مؤسسات كالجامعة أو المستشفى أو الإذاعة أو التلفزيون أو الأسرة أو المسجد أو المدرسة.. فالمسألة تتعلق بالمجتمع لا بالأفراد .

تعريف النظرية الوظيفية:

أحيانا نكتفي باستعمال اللفظ " الوظيفية " للدلالة على النظرية. ولكن من أين أتت التسمية بـ" البنيوية الوظيفية " ؟. لقد أسمى "دوركايم" المجتمع بالحقائق الاجتماعية . وعندما ننظر إلى المجتمع بهذا المحتوى فإننا ننظر إلى البنى الاجتماعية بما فيها المؤسسات والبنى الطبقية والنوع الديمغرافي للسكان باعتبار المجتمع مدني . فلو نظرنا إلى البنية الأسرية (أب ، أم ، أخ ، ...الخ) كإحدى بنى المجتمع المدني وتساءلنا : ما هي وظيفة هذه البنية بالنسبة لاستقرار المجتمع؟ سنلاحظ إننا بصدد مواجهة عبارة "البنيوية الوظيفية " التي تفسر لنا الوظائف التي تؤديها البنى في المجتمع .

إذاً البنيوية الوظيفية هي : " رؤية اجتماعية ترمي إلى تحليل ودراسة بنى المجتمع من ناحية والوظائف التي تقوم بها هذه البنى من ناحية أخرى". وهذا يعني أن البنى لم

توجد بطريقة عشوائية لأن لها وظائف سوف تقوم بتحقيقها . وبهذا المعنى فإن للبنى الاجتماعية حتمية لا مفر منها وهي وجود وظائف لها . هكذا فلكل بنية اجتماعية وظيفة تؤديها ، وبما أن كل شيء محكم فسوف تسير الأمور على ما يرام في المجتمع دون انتظار طويل للصراعات والثورات، فالمجتمع عبارة عن سيمفونية من الوظائف تتسم بالتناسق والتوازن .

الفرضيات الأساسية للنظرية الوظيفية:

تضم النظرية الوظيفية مجموعة من الأفكار المرتبطة ببعضها في مجموعها النموذج التصوري لهذه النظرية وتدور هذه الأفكار حول الموضوعات التالية:

- الوحدات الأساسية التي يتألف منها المجتمع.
- طبيعة العلاقة القائمة بين هذه الوحدات.
- العوامل التي تؤدي إلى بقاء هذه الوحدات كما هي.
- العوامل التي تؤدي إلى تغير هذه الوحدات[1].

تتمثل أهم الأفكار الأساسية التي يضمها النموذج التصوري للنظرية الوظيفية في المقولات التالية: الوظيفة، البناء، التكامل والتوازن.

١-الوظيفة: هي ذلك الدور الذي يسهم به الجزء في الكل . فمقولة الوظيفة لها معان متعددة ومن هذه المعاني ما يحدد الأثر الذي يمارسه شيء ما أو ظاهرة معينة. فالعادات الاجتماعية ولتكن تقديم الهدايا في المناسبات الأسرية لها آثارها في المجتمع وتتمثل في تعزيز الترابط بين أفراد المجتمع وتقوية التماسك الاجتماعي. فالأثر الذي تمارسه هذه العادات الاجتماعية ناشئ عن وجود هذه الصور من أشكال السلوك الاجتماعي وهذا الأثر هو الوظيفة التي يؤديها السلوك الاجتماعي في المجتمع.

٢- البناء: هو مجموعة العلاقات الاجتماعية المتباينة التي تتكامل وتتسق من خلال الأدوار الاجتماعية ، فثمة مجموعة أجزاء مرتبة متسقة تدخل في تشكيل الكل الاجتماعي ، وتتحد بالأشخاص والزمر والجماعات وما ينتج عنها من علاقات، وفقا لأدوارها الاجتماعية التي يرسمها لها الكل وهو البناء الاجتماعي.

---

[1] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

أ-مستويات البناء الاجتماعي:

- المستوى الأول للبناء: يتمثل في الدور الذي يقوم به فرد معين في إطار نظام اجتماعي كدور الأم في الأسرة.

- المستوى الثاني للبناء: يتمثل في ترابط الأدوار الاجتماعية في نطاق نظام اجتماعي معين.... مثال ذلك : ترابط الأدوار التي يقوم بها الأب والأم والأبناء في ظل نظام الأسرة.

- المستوى الثالث للبناء : وهو أعم المستويات ووحداته مستوى المجتمع ككل...ويتحدد إذا نظرنا الى بناء المجتمع على أنه كل يتألف من مجموعة من النظم الاجتماعية المتساندة كالنظام الأسري والنظام الديني والاقتصادي.

ب- فكرة النسق:

تستند إلى بعدين هما ترابط مجموعه من الأجزاء التي يتألف منها هذا النسق وميل هذه الأجزاء واتجاهها إلى تحقيق التوازن في العلاقات القائمة بين هذه الأجزاء ولهذا توحي فكرة النسق بالترابط والتوازن معا والترابط الوظيفي يستند إلى التأثر الوظيفي المتبادل بين الوحدات المتساندة. ويتآلف النسق مع البناء والبيئة التي يمارس فيها البناء وظيفته وإذا كانت هناك مستويات للبناء الاجتماعي فإن للنسق أيضا مستوياته.

٣- التكامل: يرى أنصار النظرية الوظيفية المجتمع على أنه كل يتألف من مجموعه من البناءات تمارس وظائف محددة وهذا الكل منسق يعني أن أجزاءه متساندة وتستهدف تحقيق التوازن في العلاقات القائمة بينها والتكامل من أهم الخصائص التي يتصف بها الكل الاجتماعي. ويعني الكل المتكامل أن يتلاءم أجزاؤه أي الجوانب البنائية فيه مع بعضها لتحقيق حدا معينا من الترابط والوحدة والانسجام وينشأ هذا الترابط نتيجة للأثر الذي يمارسه أي بناء من الأجزاء المؤلفة للكل الاجتماعي على مختلف البناءات الأخرى.

٤- التوازن الاجتماعي: للتوازن الاجتماعي صورتان : التوازن الاستقراري، والتوازن الدينامي. فالمعنى الأول يشير إلى قدرة تلاؤمية تسم الظواهر الاجتماعية

وتجعل في ميسور هذه الظواهر أن تستجيب لتحقيق مطالب اجتماعية معينة ويشير المعنى الثاني إلى ميل النسق الاجتماعي عندما يطرأ عليه ما يؤدي اضطراره إلى أن يعود إلى حالته السابقة وإلى المستوى الذي كان عليه من التوازن[1].

٥- الضرورات الوظيفية: فيعنون بها جملة الوظائف التي يتوقف على وجودها المسبق ظهور أية وحدة اجتماعية أخرى تؤدي وظيفة .أما المتطلبات البنائية في ظروف مساعدة في الحفاظ على الوحدات الاجتماعية وهي تتشابه مع المتطلبات الوظيفية التي تتمثل في وجود أفعال أساسية ووظائف مسبقة لأداء وحدات أخرى لوظائفها ومهامها.

٦-الوظيفة الظاهرة والكامنة: فهي تلك التي يقصدها المشاركون في النسق من وراء تصرفاتهم وأفعالهم، أما الكامنة فهي التي تأتي بنتائج غير مقصودة أو معروفة من قبل المشاركين والوظيفة المعوقة أو الميسرة ،هي تلك الوظائف التي تحقق نتائج سلبية أو إيجابية في المجتمع.

على أن أول صياغة متسقة حول منطق الاتجاه البنائي الوظيفي في علم الاجتماع هي تلك التي قدمها " إيميل دوركايم "من خلال كتابيه "قواعد المنهج" و"تقسيم العمل الاجتماعي " حيث يحوي الكتاب الأول تمييزا بين كل من التفسير العلمي أو السببي وبين التفسير الوظيفي لظاهرات المجتمع ، مع ملاحظة أنه أكد الحاجة العلمية إلى كليهما[2].

تصور الوظيفية للمجتمع:

المجتمع عند الوظيفية هو: نسق من الأفعال والبنى المحددة والمنظمة. هذا النسق المجتمعي يتألف من متغيرات مترابطة بنائياً (بنى) ومتساندة وظيفياً (وظائف). وذي طبيعة متسامية ومتعالية تتجاوز وتعلو كل مكوناته بما فيها إرادة الإنسان. هذا التجاوز أو التعالي الذي تتحدد شروطه من خلال الضبط والتنظيم الاجتماعيين اللذين يُلزمان الأشخاص بالانصياع لهذه الطبيعة المتسامية والالتزام بها. إذ إن أي انحراف عنها يهدد أسس بناء المجتمع التي تعد المحافظة عليه وصيانته وتدعيم استمراريته غاية بحد ذاتها.

---

[1] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

[2] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

وهذا التصور هو تصور "دوركايم" متمثل في الضمير الجمعي. حيث يرى "دوركايم" أن للمجتمع ضميراً يتعالى على ضمائر الأفراد مجتمعين أو منفردين.

وبصياغة قريبة من ما سبق، المجتمع: " هو نسق من الأفعال والبنى المحددة والمنظمة، هذا النسق يتألف من متغيرات مترابطة بنائيا (البنى) المتساندة وظيفيا". بالإضافة إلى هذا فإن الوظيفية تنظر إلى المجتمع على أنه ذو طبيعة سامية متعالية. تعلو وتتجاوز كل مكونات الإنسان بما فيها إرادته.

وحسب الوظيفية فالمجتمع هو: " مجموعة لا متناهية من البنى وكل منها يقوم بوظيفة". فإذا تساءلنا مثلاً: لماذا بنية المجتمع الأسرية صغيرة ؟ نجيب بأن المجتمع يحتاج إلى مثل هذا النوع من الأسر كونها تلبي حاجات ووظائف اجتماعية . أن الضبط الاجتماعي هو أية وسيلة يستعملها المجتمع للتحكم بسلوك الأفراد سواء عن طريق اللغة، أو الأعراف، أو التقاليد ...الخ فهذه العملية تمثل رقيب اجتماعي . فالأفراد الذين يتكلمون لغة معينة أو يختصون بعادات وتقاليد وأعراف وتصورات معينة يصبحوا تلقائياً مقبولين في المجتمع ومعبرين عنه وعن احتياجاته ووظائفه وضميره الجمعي .

أن التنظيم الاجتماعي هو نتيجة للضبط الاجتماعي. وهاتان الآليتان (التنظيم والضبط) هما المسؤولتان عن إلزام الأفراد والجماعات بالانصياع لهما والالتزام بهما. وأي انحراف عنهما سيهدد الأسس الاجتماعية. ولا شك أن الوظيفية تمتاز بحساسية كبيرة تجاه عوامل التغير في المجتمع . فالتغير الاجتماعي ليس غاية إنما هو تهديد في حين إن الوظيفية تستهدف المحافظة على المجتمع وتحقيق الاندماج الاجتماعي.

في إطار هذا التكامل يمكن القول أن المجتمع يتحدد من خلال وظيفته أو وظائفه. بمعنى أن الوظيفة تتحدد داخل المجتمع، لذا نجد "راد كليف براون" يشير في كتابه " الوظيفة العامة " إلى هذه الأخيرة بأنها تلك التي تشمل بقية الوظائف الأخرى ولكن هذه بلا ريب نظرة حتمية . وفي هذا السياق ينبغي الإشارة إلى أن مفهوم الوظيفة حين انبثق في القرن التاسع عشر اتخذ طابع الحتمية متأثراً بأطروحات المدرسة الاجتماعية البيولوجية التي ترى أنه طالما أن كل جسم بشري يتمتع بعدد من الوظائف الثابتة والحتمية الثابتة فالمجتمع أيضاً يتمتع بعدد من الوظائف الثابتة[1]. مثل هذا الطرح نجده

---

[1] نيقولا تيماشيف (١٩٨٢). مرجع سابق ، ص٣٢٠.

لدى "هربرت سبنسر" ولدى "أوجست كونت"، وفيما بعد سنجد هذا المنطق الحتمي الذي يرى أن مبدأ الوظيفة العامة يتحكم في بقية الوظائف الأخرى شائعا عند رواد المدرسة الأنجلوسكسونية في علم الاجتماع أمثال "مالينوفسكي[1] وراد كليف براون وتالكوت بارسونز".

التوازن لدى الوظيفية:

الوظيفية اتجاه يرى المجتمع واقعاً وهدفاً يقوم على التوازن وأداء وظائفه وبقائه واستمراره وفي تتبعنا لخيوط مقولة التوازن نجدها أولاً عند "باريتو" الذي يرى المجتمع نسقاً متوازناً. ثم عند" بارسونز" الذي يؤكد على أهمية التوازن الثقافي لتحقيق التوازن الاجتماعي. وتوصف الوظيفية في بعض الأحيان بأنها:

- اتجاهات للتوازن. أي أنها ترى التوازن واقعاً وهدفاً يسعى المجتمع إلى أداء وظائفه وبقائه واستمراره.
- أن هذا التوازن يتحقق بعمليات التناسق بين مكونات البناء الاجتماعي والتكامل بين وظائفه الأساسية.
- هذا التوازن يعمل على تحقيقه شريط مفاهيمي تشترك فيه القيم والمعايير الثقافية والأفكار التي يرسمها المجتمع لأفراده وجماعاته الذين لا يملكون حق الخروج

---

[1] مالينوفسكي، برونسيلاو كاسبار Malinowski, Bronislaw Kaspar (١٨٨٤- ١٩٤١م) عالم أنثربولوجي بريطاني من مؤسسي النظرية الوظيفية. ولد عام ١٨٨٤م في بولندا. حصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية والفيريائية عام ١٩٠٢م. في عام ١٩١٠م التحق بمدرسة لندن للاقتصاد لإجراء بحوث حول ثقافة السكان الأصليين في أستراليا. وكذلك قام بدراسات حول سكان غرب المحيط الهادي عام ١٩١٤-١٩١٥م، ودراسة في جزر تروبرياند عام ١٩١٥-١٩١٦م. وفي عام ١٩٢٧م تم تعيينه في أول كرسي لأستاذ كرسي في الأنثروبولوجيا في لندن. وفي عام ١٩٣٨م توجه للولايات المتحدة الأمريكية ودرس في جامعة ييل حتى وفاته عام ١٩٤١م. من مؤلفاته " باحثون في غرب المحيط الهادي" ١٩٢٢م. و " الجريمة والعرف في المجتمع الهمجي" ١٩٢٦م. و " الجنس والكبت في المجتمع الهمجي". ونظرية علمية عن الثقافة ومقالات أخرى" ١٩٤٤م. و " السحر والدين ومقالات أخرى" ١٩٤٨م. انظر: مالينوفسكي، برونسيلا (١٩٩٥). السحر والعلم عند الشعوب البدائية. ترجمة فيليب عطية، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

عليها وإلا وقعوا تحت وطأة جزاءات الضبط الاجتماعي الرسمي وبالتالي تصنيفهم في عداد المنحرفين الخارجين عن مسيرة المجتمع[1] .

لذا يؤكد "بارسونز" على أهمية التوازن الثقافي لتحقيق التوازن الاجتماعي وإلا فإن اختلال النسق الثقافي سيؤدي إلى فقد المجتمع لتوازنه وذلك يعني انهيار المجتمع .

الصراع الاجتماعي عند الوظيفية:

تعتبر الوظيفية الاجتماعية أنها الاتجاه الذي يدرس المجتمع من فكرة توازنه. إلا أن المجتمع أيا كان لا يخلو بتاتاً من فكرة الصراع. وتتنوع مسألة الصراع عند علماء الوظيفية، وفقاً لما يلي:

أ- فكرة الصراع عند تالكوت بارسونز : يريد "بارسونز" تخصيص مكان للصراع داخل الدراسات الوظيفية فيلخص تصوره حول الصراع على النحو التالي: يوجد داخل النسق المهني مظهر للتنافس يتيح للأفراد التزاحم والمنافسة وأن هناك ميلاً استراتيجياً عاماً مؤداه أن القوي يحاول تسخير الضعيف لصالحه وأن النخبة المثقفة تحاول دائما تسيد أيديولوجيتها أيا كانت.

ب- فكرة الصراع عند جورج سمبسون : يعتبر "جورج سمبسون" الصراع شيئاً حاصلاً ومؤكداً في المجتمعات أيا كانت، وهو يصنف أنواع الصراع إلى ثلاثة: سياسي، اقتصادي، وديني.

ج- فكرة الصراع عند لويس كوزر: نظر "كوزر" للصراع من جانبه الإيجابي. فقد اعتبره عاملاً مساعداً على الحماية والتماسك كما يؤدي إلى توازن الجماعة إذا كان البناء منفتحاً على العالم الخارجي ويسمح بتغير المعايير وفق ما يتسق والظروف الجديدة. كما يشير إلى أن هناك نوعاً من الصراع يتعلق بالمصالح العامة [2] .

---

[1] انظر: ليلة، علي (١٩٩٤). البنائية الوظيفية في علم الاجتماع. القاهرة: دار المعاني للطباعة.

[2] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٤٤٥.

مناقشة قضايا الوظيفية وتصوراتها:

١- تصور المجتمع : تتصور البنائية الوظيفية في معظم اتجاهاتها الفرعية المجتمع على أنه نسق من الأفعال المحددة المنظمة ،ويتألف هذا النسق من مجموعة من المتغيرات المترابطة بنائيا والمتساندة وظيفيا . وأما عن قضايا التغير الاجتماعي في البنائية الوظيفية فهي تحتل موضعا مشكلا في البناء المعرفي للنظرية ، ففي الوقت الذي تركز فيه النظرية على مسائل الاشتراك والتوازن، وتغفل قضايا الصراع والتغير.

٢- مسألة التوازن الاجتماعي: توسم البنائية الوظيفية أحيانا بأنها اتجاهات للتوازن، تراه واقعا وهدفا يساعد المجتمع على أداء وظائفه وبقائه واستمراره ، ويتحقق بالتناغم بين مكونات البناء والتكامل بين الوظائف الأساسية يحيطها جميعا شريط ذهبي من الاشتراك في القيم والأفكار التي يرسمها المجتمع لأفراده وجماعاته فلا يملكون حق الخروج عليها، وإن خرجوا وقعوا تحت وطأة جزاءات الضبط الرسمي ، وإن وقع عليهم هذا عدوا منحرفين خارجين على مسيرة المجتمع.

وتتحدد معالم مفهوم "التوازن" في هذه الاتجاهات النظرية التي نذكرها فيما يلي:

١- إن المفهوم سواء لدى" باريتو "أو"بارسونز" أو غيرهما مفهوم مغلف بالغموض فالأول حدده بالقوة التي تحققه، والثاني خلطه بمفهومات أخرى لا تقل غموضا عنه حتى بدت الأمور مختلطة لديه. وحول هذه النقطة يشير دنكان ميشيل إلى أن بارسونز لم يستطع التفرقة بدقة بين جانبين من جوانب التوازن يتعلق الأول بافتراض أن توازن النسق ليس إلا وسيلة لتوضيح بعض المتغيرات المستقلة والتابعة داخل النسق. ويتعلق الثاني بافتراض وجود التوازن كحالة واقعية. بعبارة أخرى لم يستطع التمييز بين افتراض تكتيكي وبين وقائع الأمور.

٢- ترى الوظيفية في التحليل العام ، أن التوازن قاعدة استثناؤها التغير ودليل ذلك اعتبار بارسونز للنظام أولى الضرورات الوظيفية التي يستند عليها النسق. بل إن بعضا من الوظيفيين المحدثين من أمثال" ليبست وسملسر" عندما ميزوا بين التوازن الثابت والتوازن الديناميي عدوا الأخير حالة غير سوية للبناء وهذه فكرة موغلة في رفض التغير.

٣- لا يحوي الفكر الوظيفي أي تعيين أو تحديد دقيق لشروط التوازن ومستوياته ومعاييره وفي هذه الحالة يذهب هندرسون إلى أن ثمة خطأ وقع فيه الوظيفيون بفكرة غير واضحة وبمسألة بغير معايير ونحو هذا المعنى أشار كنجزلي دافيز الوظيفيين المشهورين إلى أن وضع مسألة التوازن في الفكر البنائي الوظيفي، يعبر عن فكرة مبدئية غير كاملة متروكة لما يسفر عنه حصاد الدراسات والبحوث في هذا الصدد[1].

هناك ثلاثة محاور أساسية يمكن عرض الاتجاه وتحليله بل ونقده من خلالها، وهي كما يلي:

المحور الأول : من أبرز النقاط التي ينطلق منها بعض الباحثين في هذا الصدد تشجيع الوظيفية على ما أسماه الباحثون بالتفسير الغائي الذي يعني في جوهره اهتمام النظرية بفروض عامة غير قابلة للاختبار. ولقد حاول "والتر بيكلي" تفسير مشكلة الغائية في الاتجاهات الوظيفية وأيضا مشكلة تعدد المفهومات وغموضها ، بإرجاعهما إلى الاستعارة والمحاكاة المبالغ فيهما للعلوم الطبيعية خاصة علم الحياة والميكانيكا والخلط في استخدام مفهوماتهما في كثير من الأحيان. وحتى عندما أراد بعض الوظيفيين أن يستبدلوا ببعض المفهومات غير الواضحة غيرها وقعوا أيضا في فخ المحاكاة. فإن القدرة التفسيرية للنظرية على الأقل واهية ،لا تخرج عن تفسير دائري يفسر الشيء بنفسه وبنتائجه دون تحديد عامل أو بضعة عوامل عامة أساسية. ولو حاولنا التعرف على حقيقة بعض المفاهيم الأخرى التي تستخدمها الوظيفية يتضح ما يلي:

١- ليس هناك اتفاق حول تحديد المكونات التي تترابط والأنساق الفرعية التي يمكن اعتبارها مستقلة نسبيا وأما عناصر المجتمع التي يهتم بها الوظيفيون فهي أيضا غير محددة كذلك أنواع العلاقات بين العناصر.

٢- إن بعض الاصطلاحات مثل التوافق أو الوظيفي نجد أنها غير محددة بدقة فكل الأنماط الاجتماعية داخل النسق يمكن تصورها على أنها متوافقة ، أو سيئة التوافق. ولقد أدرك بعض الوظيفيين أنفسهم من أمثال راد كليف براون صعوبة تحديد

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

التوافق ،لكنه لم يقدم شيئا حاسما بخصوصه. فيجب النظر إلى الوظيفية على أنها محاولة تحليلية دون الإسراف في نقد قدرتها التفسيرية.

المحور الثاني: ويتعلق بجوهر النظرية وكيانها ، والذي يتبين منه بوضوح مبالغتها في التشديد على أهمية بعض القضايا أو العناصر البنائية وإغفال البعض الآخر:

أولا: الجوانب التي بالغت النظرية في التأكيد عليها:

١- المبالغة في محاكاة العلوم الطبيعية: يرتبط هذا النوع من المبالغة بنشأة الوظيفية ونموها في تربة علم الاجتماع ، ويشهد على ذلك الرواد الأول الذين مهدوا التربة لنمو أفكار هذه النظرية . فالمبالغة في تقليد هذه العلوم قد تجعل الباحث لا يدرك الفروق الجوهرية بين طبيعة كل من الواقع الاجتماعي وظاهراته، والطبيعة وظاهراتها.

٢- المبالغة في تقدير أهمية الاشتراك في القيم: عقد بعض أنصار الوظيفية مثل بارسونز وميرتون أملا كبيرا على أهمية هذا الاشتراك في تحقيق تكامل عناصر النسق الاجتماعي ومكوناته. مما يشير إلى تحيز مسبق لنسق بعينه وتفضيله على غيره ، بل وتدليله في بعض الأحيان ، دون المكونات الأخرى، التي من المفروض وفق منطوق النظرية أن تتكامل معا.

ثانيا: الجوانب التي أغفلتها النظرة: لقد أغفلت الوظيفية أو بعبارة أكثر دقة قللت من أهمية بعض أبعاد الواقع الاجتماعي مما جعلها نظرية ذات منظور أحادي أستاتيكي ،هو منظور النظام أو التكامل أو التوازن. ولعل من بين أبعاد ذلك الواقع التي لم تولها النظرية اهتمامها بعدي التغير والصراع الاجتماعيين.

المحور الثالث: ويتعلق بالتحيزات الأيديولوجية التي يتضح بعضها من المحورين السابقين ويدلل عليه التأكيد على جوانب دون أخرى في البناء الاجتماعي، والرغبة الملحة في التأكيد والتشديد على الثبات، ومحاولة إلغاء كل إرادة واعية للإنسان بدعوى مبالغ فيها لسمو المجتمع وتفوقه على كل أعضائه بشكل متعال.

ويلخص "نيل سملسر" الانتقادات السابقة بطرحه مجموعة من التساؤلات على الوظيفية يمكن تلخيصها فيما يلي:-

١- لو أن الوظيفية كانت نظرية علمية فإن افتراضاتها يمكن اختبارها إمبريقيا.

٢- هناك بعض مجالات الضعف ،وتفاوت الاهتمام بموضوعات سوسيولوجية معينة كالتدريج الاجتماعي ، والصراع الاجتماعي ،والتغير الاجتماعي.

٣- هل تحوي الوظيفية تصورا متميزا حول الطبيعة الإنسانية؟

٤- هل تتضمن الوظيفية تحيزات إيديولوجية؟

وفي إجابته على هذه الأسئلة يشير إلى أن الوظيفية ليست إلا تنويعا وتنغيما للنزعة العضوية. وأنها أغفلت كثيرا من الأبعاد البنائية كالصراع والتدريج والتغير، وأنها لا تحوي نسقا فكريا حول الطبيعة الإنسانية والإرادة الإنسانية ، وأخيرا فإن الباحث الذي يلتزم بها يتمسك في الوقت نفسه بالإيديولوجيات المحافظة[1].

أهم التباينات داخل الاتجاهات الوظيفية:

يذهب بعض أنصار الاتجاه الوظيفي إلى أنه يحوي بداخله اتجاهات فرعية فهي تتباين في نقاط التركيز ومحاور البدء في التحليل، وفي هذا ميز بعض الباحثين بين ثلاثة اتجاهات فرعية هي:

الأول: ويوصف بالنموذج العام أو غير المحدد الذي يهتم بالتحليلات السوسيولوجية العامة للنسق الاجتماعي .وهو اتجاه يقوم في جوهره على دعوى نظرية مؤداها: أن السمات الاجتماعية القائمة في أي نسق اجتماعي في أي وقت من الأوقات بمثابة وحدات مترابطة معا ، بطريقة متسقة ،ولها علاقات منظمة ومرئية يمكن الكشف عنها من خلال الوقائع الاجتماعية والنظم الاجتماعية.

الثاني : وهو نموذج يبدو أنه أكثر شيوعا بين أنصار الاتجاهات الوظيفية ويوسم بالاتجاه التقليدي. وهو يقوم على قضية نظرية أساسية مفادها، أن معظم الأنماط الاجتماعية وجدت لتحافظ على تكامل النسق وتوازنه، بمعنى أن كل جزء في البناء ما وجد إلا ليؤدي وظيفة تحافظ على بقاء هذا البناء واستمراره وتوازنه. وهذه القضية في جوهرها تعني بأمرين أساسيين:

أ- أن النمط الاجتماعي يمكن تفسيره عن طريق نتائجه أو مصاحباته أو آثاره داخل البناء.

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

ب- أن هذه النتائج أو المصاحبات ضرورية لازمة لتحقيق النسق لوظائفه الاجتماعية الأساسية.

الثالث : ويشير الاتجاه الفرعي الثالث إلى ما يسمى بالوظيفية الشكلية أو الصورية لأنه لا ينطلق بالضرورة من رؤية نظرية أو من توجه نظري معين، ويكاد يشبه الاتجاه الإمبريقي الذي يعني بإجراءات جمع المعطيات الواقعية وتصنيفها وتبويبها . ويفصح استخدام هذا الاتجاه عن نفسه من خلال الدراسات التي قام بها كليد كلوكهون خاصة في دراساته حول السحر لدى قبائل النافاجو.

وهناك محاولة تصنيفية أخرى للاتجاهات البنائية الوظيفية قام بها الباحثان الإنجليزيان "دافيد ريدل، ومرجريت كولسون"، حيث ميزا بين ثلاثة اتجاهات فرعية هي على التوالي:

١-البنائية الوظيفية: وهي تمثل اتجاها يذهب إلى أن غاية المجتمع هي الحفاظ على النظام الاجتماعي وتأكيد ثباته النسبي واستمراريته وبالمثل يكون هدف كل مكون من مكونات البناء، وكذلك الطريقة التي ترتب وتنظم بها هذه المكونات هو تحقيق النظام والتوازن الاجتماعيين. ولعل من أبرز من تولوا تفسير هذا الاتجاه وتوظيفه رادكليف براون.

٢-بالوظيفية البيولوجية وهو يحاول تخصيص غرض وجود المجتمع وغايته من خلال إشباع حاجات بيولوجية بعينها للكائنات البشرية . وقد تشيع لهذا التوجه "برونسلاو مالينوفسكي".

٣- الوظيفية المعيارية: وينهض على فكرة مفادها أن الحفاظ على التوازن الاجتماعي يمكن إنجازه وتحقيقه عن طريق وجود قيم ومعايير عامة ومشتركة بين الغالبية العظمى من المشاركين داخل المجتمع. و كاد يكون "تالكوت بارسونز" من أبرز المتشيعين له.

وهناك نقاط اختلاف أخريات تكشف عنها المحاولات التحليلية للاتجاهات السابقة لا تقف عند حد التباعد بين اتجاه فرعي وآخر، بل توجد في الاتجاه الفرعي الواحد، بين باحث وآخر، ولعل التحليل التاريخي لبعض مسارات أفكار هذه الاتجاهات يكشف عن هذا المعنى المذكور:

١-اهتم "جورج هومانز " عام ١٩٣٥ بفحص أعمال كل من راد كليف براون، و"مالينوفسكي" من رواد الفكر الوظيفي ، واستنتج من تحليله أن براون كان أقرب إلى دوركايم من مالينوفسكي حيث اعتبر الأول الكل الاجتماعي هو المستوى الأساس الذي على الباحث أن يبدأ به تحليله للظاهرات الاجتماعية، في حين أن "مالينوفسكي" كان أكثر اهتماما بالجزء الاجتماعي وبالعضو الفرد ، باعتباره المرتكز الأساس للدراسة والتحليل.

٢-اكتسب التمييز السابق بين المستويات التحليلية مقدارا آخر من الدعم على يد "كليد كلوكهون" وذلك عام 1944 عندما أوضح أن ثمة لغتين في الوظيفية لغة التكيف التي تعني التركيز على الكيفيات التي تتواءم بها البناءات الاجتماعية مع بيئاتها الكلية . واللغة الثانية هي لغة التوافق والانتظام التي تعني تناغم البناءات وتوازنها في "جشطالت" اجتماعي واحد.

٣- أشار" ميلفورد سبيرو " عام ١٩٥٣ إلى أن هناك ما لا يقل عن اثني عشر اشتقاقا وتباينا داخل الوظيفية منها ثنائيات: الجزء - الكل- الشكل - المضمون.

٤- نشر " هاري بريد ماير" مقالة بعنوان "منهجية الاتجاه الوظيفي " عام ١٩٥٥ أوضح أن مرتكز الاتجاه البنائي الوظيفي هو دراسة الظاهرة الاجتماعية من خلال علاقتها ببعض الأنساق الاجتماعية . وأنصار هذا الاتجاه في توجههم نحو تحقيق هذه الدراسة يسلكون أحد مسلكين: يحاول الأول توضيح الدور الذي يلعبه نمط سلوكي معين في الحفاظ على النسق الأكبر الذي يحتوي هذا النمط. ويتمثل الثاني في التركيز على قدرات وإمكانات نمط سلوكي معين على الاستمرار، وذلك بدراسة ظاهرة معينة من خلال أسبابها في العقل.

٥- يذهب "ألفن جولدنار" إلى القول بأنه برغم تركيز" بارسونز وميرتون " على مفهومات النسق بوصفها مفهومات محورية في بناء التنظير الوظيفي ، فإن كلا منهما يغاير الآخر في نقطة الانطلاق، ففي الوقت الذي يركز فيه ميرتون على بعض وحدات السلوك ،بقصد معرفة استمراريتها وتغيرها ومصاحباتها على البناء الاجتماعي فإن" بارسونز" يركز مباشرة على السياق البنائي بوصفه نسقا. وافتراض

"بارسونز" هنا يفيد أنك عندما تهم بدراسة أي نمط محدد أو أي جزء اجتماعي ، فهذا يقتضيك أولا أن تطل على الكل بوصفه نقطة البدء في بحث أي نمط خاص وتحليله[1].

مكانة النظرية الوظيفية في علم الاجتماع:

نالت هذه النظرية النصيب الأوفر من الكتابات التي تصدت لموضوع النظرية الاجتماعية . وحتى أواخر الستينات من القرن العشرين ظلت هي النظرية المهيمنة على ساحات علم الاجتماع بل أنها أكثر النظريات انتشاراً وهيمنة. ومع أنها شهدت تراجعاً ملحوظاً عن مكانتها منذ السبعينات من القرن العشرين بسبب ظهور نظريات أخرى كعلم الاجتماع الديناميكي وعلم اجتماع التنظيمات والفردية المنهجية والبنيوية التكوينية إلا أن هذا التراجع لا يبرر عدم التوقف عندها ومحاولة فهمها لا سيما إزاء المدة الطويلة التي هيمنت فيها على الساحة الاجتماعية .

أيضا وقبل الدخول في ماهية النظرية ينبغي الاعتراف بأن البنيوية الوظيفية هي نظرية كبيرة وليست نظرية صغيرة، فهي تنطلق من المجتمع ولا تعطي أهمية للفرد، ولكونها نظرية مجتمعية فهي غير مستوحاة من الفرد .

في أواخر أيامها تعرضت النظرية لموجة من النقد. فقد قام عالم الاجتماع الأمريكي " ألفن غولندر " سنة ١٩٧٠ بتحليل نقدي لعلم الاجتماع الغربي من خلال نقده للبنيوية الوظيفية ذاتها . وهناك من نعتها بأنها الطغيان الإمبريالي . أما عالم الاجتماع الامريكي (بوتو مور ١٩٧٨) الذي ارتبط اسمه كثيراً بالنظرية الوظيفية فقد مثّل شاهد من أهله حين اعترف بأن استعمال البنيوية الوظيفية أصبح محرجاً في علم الاجتماع المعاصر (النظري). كما تعرضت إلى النقد على خلفيتها الأيديولوجية حيث اعتبرها الباحث يويوف صاحب كتاب " نقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر " سوسيولوجية رجعية تدافع عن النظام الرأسمالي المهترئ وما فطر عليه هذا النظام من معايير وقيم أهمها: الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وأنها تعتبر أن أية ثورة على هذا النظام هي شذوذ اجتماعي يهدد سلامة الجسم الاجتماعي[2].

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

[2] انظر رؤية " ألفن جولدنر" في الفصل التاسع من هذا الكتاب. وكذلك انظر: بوتو مور (١٩٧٨). تمهيد في علم الاجتماع. ترجمة: محمد الجوهري وآخرين، القاهرة: دار المعارف. وكذلك: بوتو مور (١٩٨٥). علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي. ترجمة عادل الهواري، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية.

أزمة النظرية الوظيفية:

لما كانت النظرية الوظيفية في كل تطوراتها وباعتبارها وريثة للاتجاه الوضعي وحتى مع تطورها في الأنثروبولوجيا الإنجليزية، وفي صياغة "دوركايم" لها خلال الفترة الكلاسيكية لعلم الاجتماع أقل اهتماماً بالدولة وأهمية دورها ومسؤولياتها فيما يتعلق بإدارة وتوجيه الاقتصاد وحل المشكلات الاجتماعية راجعة إلى انهيار نسق القيم.

وتبين كذلك أن هذه الميكانزمات التلقائية هي التي تحافظ على النظام في المجتمع. ويمكن لنا أن ندرك مدى التعارض بين المسلمات البنائية الوظيفية وحاجات دولة الرفاهية. وهذا التعارض أمر متوقع لأن البنائية الوظيفية كان لها جذورها في بناء العواطف والتنشئة الاجتماعية في الدولة السابقة على دولة الرفاهية حيث كانت تأخذ بالنزعة الإرادية.

ومن هنا كان يرى البعض أن البنائية الوظيفية تنطوي على أيديولوجيا للوضع القائم، عندما تصورت الأنساق على شاكلة المشروعات المنظمة في اقتصاد السوق. إلا أن هذا التعارض من ناحية أخرى والخلاف بين حاجات دولة الرفاهية، جعل علماء الاجتماع في أوروبا الغربية وأمريكا يعتقدون أن علمهم دخل عصر الأزمات والمتاعب وأنه يمر بفترة أزمة مماثلة للفترة السابقة على ظهور نموذج تصوري جديد يوجه البحث الاجتماعي في ظل دولة الرفاهية بدون أن يتعارض معها[1].

الاتجاه الثوري المضاد للوظيفية:

لردة الفعل الثوري عدة مظاهر تتجلى في تيار النقد الهجومي الشديد الذي بدأ يظهر مع حلول الستينات وفي حالة السخط والشعور بالغربة التي سادت بين علماء الاجتماع الشبان على علم الاجتماع الأكاديمي عموماً والوظيفي بوجه خاص. والتي تبلورت في تكوين الخلايا الجماعية المنظمة والحركة الراديكالية واليسار الجديد المتفرع عنها. إذ كان تيار النقد الذي ظهر في بدايات الستينات من القرن الماضي يحاول كشف الصورة شبه الأيديولوجية للبنائية الوظيفية. وقاد عملية توجيه انتباه العلماء الاجتماعيين نحو الضبط الاجتماعي والاهتمام بعملية التكيف مع الوضع القائم وانصراف نظرهم عن التغير الاجتماعي.

---

[1] جلبي ، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص٢٢٤.

وتعد حركة تحرير علم الاجتماع الذي تفرع عنها اليسار الجديد بمثابة ظاهرة عالمية انتشرت في العالم. حيث لها مجموعة متباينة من الاتجاهات السياسية. وتستند إلى مجموعة من الأبنية السفلية. وترتبط التغيرات والأحداث التي طرأت على البناء الثقافي والاجتماعي للمجتمع، وتفادي كل ما يحط من شأن القيم الإنسانية وتتطلع إلى العلاقات الإنسانية الدافئة بدلاً من النظام الرشيد في المهن. فإن هذه الحركة رفضت الجانب السياسي في الماركسية التاريخية بدلاً من أن تستمد تأييدها من الطبقة العاملة استمدته من نمو دولة الرفاهية ومن فئات اجتماعية مثل الطلاب والسود وبعض الأغنياء والفنانين وغيرهم. ومن هنا كانت الحركة الراديكالية واليسار الجديد ترفض البنائية الوظيفية.

وتتابع البحث عن اتجاه نظري جديد يناسب الواقع الاجتماعي الذي يعيشونه وهذا ما ظهر في مؤلفات "دافيل وجابريل كوهين بنيه" ولم تكن هذه الثورة جديدة على البنائية الوظيفية. وإنما سبق إليها بعض تلاميذ بارسونز القدامى، والمنتمين إلى مجموعته الأساسية ومن هنا أنكر كنجرلي دافنرز وجود نظرية يمكن أن يطلق عليها التحليل الوظيفي ويسهل تمييزها عن غيرها من نظريات في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا لأن الاتفاق على المقصود بالتحليل الوظيفي أصبح أمراً بالغ الصعوبة.

الاتجاه الثوري المضاد:

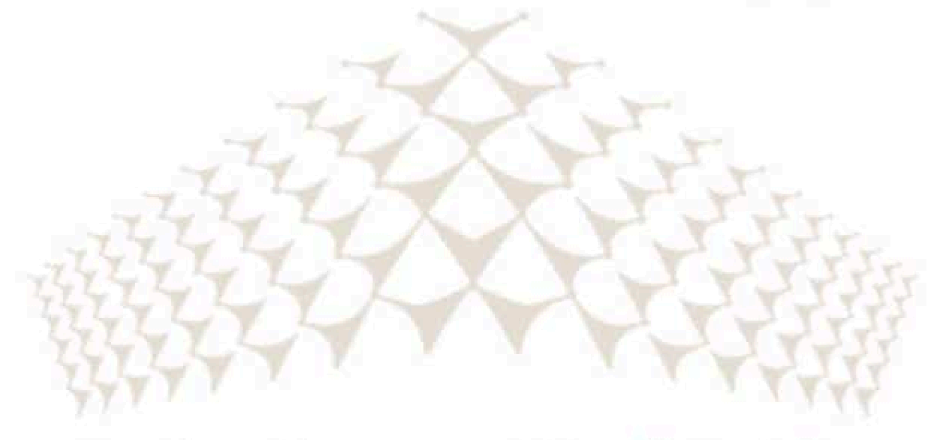
على الرغم من أن الاتجاه الثوري قد ترك أثره على التماسك والوحدة التي سادت بين الباحثين في علم الاجتماع الغربي منذ الحرب العالمية الثانية. إلا أن الميدان لم يخل من فريق آخر من الباحثين الذين حاولوا المحافظة على تماسك السابقة عن طريق مواجهة الاتجاه الثوري. ولقد تدفق عن تيار الثورة المضادة مقالات ومؤلفات "كانسيان وبراديمير وسملسر" وغيرهم. وعندما اهتم "كوزر" بتحليل الصراع فإنه ركز أساساً على وظائف الصراع دون معوقاته، والتي يترتب عليها زيادة في تكيف العلاقات الاجتماعية والجماعات. وأوضح أن للصراع عدداً من الوظائف أهمها:

١- إسهامه في الحفاظ على الحدود الجماعية.
٢- أن يحول دون انسحاب أعضاء الجماعة منها.

وكان "فانديبرج" يعتقد أنه يمكن التوفيق بين البنائية الوظيفية والديالكتيكية لأن كل منهما بمثابة وجهة نظر لدراسة المجتمع من جانب واحد ومن ثم فهما يكملان بعضهما[1].

الاتجاه النظري الجديد:

مال بعض علماء الاجتماع الآخرين في محاولتهم بلورة نماذج جديدة تماماً تتميز بالشمول والراديكالية باختلاف مسلماتها وأفكارها الرئيسة عن مسلمات وأفكار البنائية الوظيفية وهم "أفرينج جوفمان وأرفولدجار فينكل وجورج هومانز" وغيرهم الذين اشتهروا بمحاولتهم صياغة مثل هذه النماذج الجديدة. والذي نجم عنها مدرسة التفاعلية الرمزية، والمدرسة التبادلية[2].



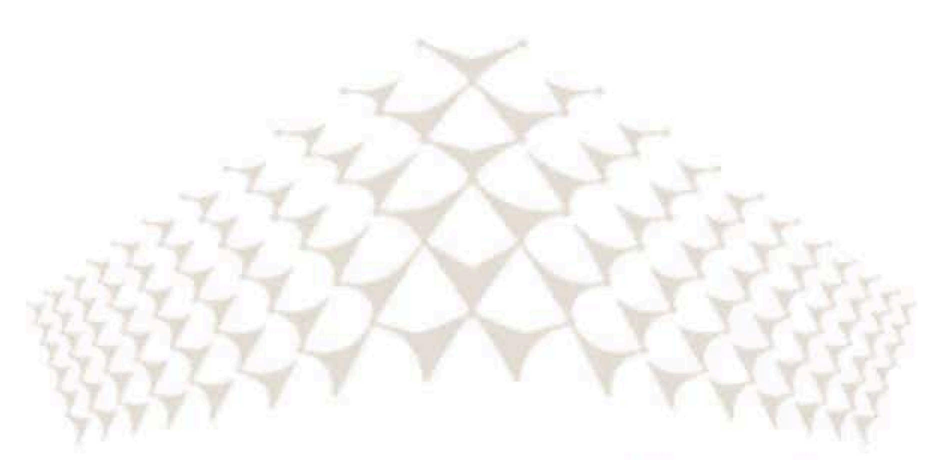
[1] جلبي ، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص٢٢٩. انظر تحليل نقدي للنظرية الوظيفية في: إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٨٠-٩١.

[2] انظر: بيرسي، كوهين (١٩٨٠). النظرية الاجتماعية الحديثة. ترجمة عادل الهواري. القاهرة مكتبة نهضة الشرق. وكذلك الفصل الخامس الخاص بالنظرية التفاعلية الرمزية، والفصل السادس الخاص بالنظرية التبادلية من هذا الكتاب.



إميل دوركايم

- حياته.
- الرؤية الفكرية لدوركايم.
- إسهامات دوركايم في تأسيس الوظيفية.
- معنى النسبية.
- مفهوم الوظيفية .
- تعريف المجتمع.
- دراسة الظواهر الاجتماعية.
- قواعد المنهج العلمي.
- الدين والمجتمع.
- التضامن الاجتماعي.
- الضمير الجمعي.
- نظرية تقسيم العمل.
- دراسة الانتحار.
- نظرية الاغتراب الاجتماعي.
- التحليل الاجتماعي للأنساق التربوية من منظور دوركايم.



ثانياً: إميل دوركايم Emile Durkhiem (١٨٥٨- ١٩١٧م)

حياته:

يعد أعظم الأسماء في السوسيولوجيا الحديثة. ولد عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم في ١٥ أبريل عام ١٨٥٨م في مدينة إيبينال بمقاطعة الفوج شرق فرنسا لأسرة يهودية. وأتم تعليمه الابتدائي في مدينة إيبينال. وتلقى تعليمه الثانوي في مدرسة لويس الكبير التي تجلت فيها ميوله نحو الدراسات الإنسانية والتربوية. والتحق بمدارس المعلمين عام ١٨٧٩م وتخصص في الدراسات الفلسفية. وكانت فلسفة التربية أهم ما جذب دوركايم أثناء الدراسة واستأثرت بكثير من قراءاته. ودعته إلى التفكير في صلة التربية بنوع المجتمع وتطور مفاهيمها. وتخرج من مدرسة المعلمين عام ١٨٨٢م. ودرس الفلسفة في الفترة من (١٨٨٢- ١٨٨٧م) في عدد من المدارس الثانوية في مختلف المدن الفرنسية. وكان يقرأ في الدراسات التربوية والاجتماعية خاصة لدى أوجست كونت وهربرت سبنسر وألفرد إسبانس A. Espinas. ثم أخذ إجازة دراسية وذهب إلى ألمانيا حيث درس الدراسات الاجتماعية المتقدمة. وفي عام ١٨٨٨م التحق بجامعة برودو لتدريس مادة التربية. فتقدم لدراسة الدكتوراه في جامعة السوربون وقدم رسالة دكتوراه حول الظواهر الاجتماعية. التي كونت فيما بعد نظريته الشهيرة. ووضح فيها تأثره بالمدرسة الوضعية والنظرة العضوية للمجتمع. توفي عام ١٩١٧م[١].

ومن أهم كتبه: " قواعد المنهج في علم الاجتماع" عام ١٨٩٥م. وكتاب "الانتحار" عام ١٨٩٧م. وكتاب "الأشكال الأولى للحياة الدينية" عام ١٩١٢م. وكتاب "تقسيم العمل الاجتماعي" عام ١٨٩٣م. ومن الكتب التي نشرت بعد وفاته كتاب "التربية وعلم الاجتماع"، "وكتاب علم الاجتماع والفلسفة"، "وكتاب التربية الأخلاقية". كما أسس دوركايم مجلته الاجتماعية باسم "التقويم الاجتماعي" عام ١٨٩٦م. والتي نشر فيها عدد من الأبحاث المهمة منها، طبقات المحارم في التزاوج، الظواهر الدينية، التصنيف، التوتمية، نظم الزواج في مجتمعات أستراليا[٢].

ويُعدّ "دوركايم" المؤسس الرئيس لعلم الاجتماع بالمعنى الأكاديمي والجامعي، إذ بفضل جهوده وإصراره على أن الدراسات الاجتماعية تختلف نوعياً عن الدراسات

---

(١) حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٦٨.

(٢) أبو طاحون، عدلي (ب د). مرجع سابق، ص ١٠٧.

الفلسفية والنفسية، وعمله على تأسيس كرسي أكاديمي لعلم الاجتماع في الأكاديمية الفرنسية، ظهر علم الاجتماع في شكل مؤسسي. ولقد سعى "دوركايم" من البداية للتنظير للظاهرة الاجتماعية، مؤكداً على أنها شيء ملموس ومستقل عما حولها ومن ثم يمكن قياسها، وهي تفرض تأثيرها وحضورها فيما حولها. وفي كتابه "قواعد المنهج" سعى لإبراز "المنهجية العلمية" في دراسة الظواهر الاجتماعية انطلاقاً من فهمه للفلسفة الوضعية. ولعل دراسته لظاهرة "الانتحار" والتي نحى فيها منحى "اجتماعي" بعيداً عن الجوانب النفسية، تشكل مثالاً نموذجياً لكيفية الدراسات التي سعى دوركايم للتأكيد عليها. لكن تبقى دراسته "عن تقسيم العمل الاجتماعي" والتي نظر فيها لفكرته عن تحولات المجتمع الحديث من مجتمع التكافل والعلاقات الحميمة إلى المجتمع الصناعي الحديث التي تفرض ألواناً جديدة من المفاهيم والقيم الأخلاقية، بعد الإسهام الأبرز له. ولا تزال أطروحات وأفكار "دوركايم" موضع عناية، وإن كانت الدراسات الاجتماعية تجاوزت العديد من نتائجه .

الرؤية الفكرية لدوركايم:

١- أشار" دوركايم" أكثر من مرة إلى ما أطلق عليه الفروع الخاصة لعلم الاجتماع وكان يحبذ صراحة ازدهار هذه الفروع ونموها على نطاق واسع. وقد أيد "دوركايم" البدء في علم الاجتماع بالمرحلة التي أسماها "كونت" مرحلة التخصص.

٢- نسجت الفلسفة الوضعية التي عبر بها " كونت" عن تصوره لعلم الاجتماع خيوط فكر "دوركايم" ويبدو هذا بوضوح في تأكيده على ضرورة تناول الظاهرات الاجتماعية كأشياء ، وهو التأكيد الذي يعني صراحة أو ضمنا محاكاة العلوم الطبيعية وتطبيق نظرتها وتصوراتها للظاهرات الطبيعية على الظاهرات المجتمعية. ويتأكد هذا التوجه لدى دوركايم من أخذه بالفكر العضوي الذي أقام مماثلة بين الظاهرة الاجتماعية، والظاهرة البيولوجية. وفي هذا يقرر" "راد كليف براون": " أحد مؤسسي الاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع ، أن" دوركايم" هو أول من أقام المماثلة بين المجتمع والحياة العضوية على أساس وظيفي".

٣-من بين أهم ما اهتم به "دوركايم" محاولته تحديد الظاهرة الاجتماعية وتشخيصها، بوصفها الموضوع الأساس لعلم الاجتماع. وفي هذا حدد لها من

الخصائص التي يفيد التركيز فيها في معرفة موقفه من المسألة السوسيولوجية والمسألة المجتمعية. فالظاهرة الاجتماعية أولا تلقائية بمعنى أن الفرد ليس بصانعها لأنها موجودة قبل أن يوجد الأفراد. وهي ثانيا جبرية وملزمة فليس الفرد حرا في اتباع النظام الاجتماعي أو الخروج عليه. وهي ثالثا عامة بمعنى أنها لا توجد في مكان دون آخر. ورابعا فالظاهرة الاجتماعية خارجية بمعنى أن لها خواص سابقة للأفراد ومستقلة عنهم.

٤-أما المجتمع عنده فيذكر نصا في كتابه" قواعد المنهج" : "أن العامل الفعال الوحيد الذي يؤثر في المجتمع هو البيئة الاجتماعية بمعنى الكلمة". ونعني بها البيئة الإنسانية .

٥- يمثل كتاب" تقسيم العمل الاجتماعي" أهمية كبرى في التعرف على فكر دوركايم "، لأنه كان موضوع أطروحته للحصول على الدكتوراه، ولأنه العمل الرئيس الذي قد يلي قواعد المنهج في الأهمية، لأنه من خلال قضاياه وأفكاره يبين لنا تأثره الواضح بفكر أوجست كونت بل وبالمماثلات البيولوجية التي عقدها صراحة وضمنا مع المجتمع الإنساني.

٦- تتلخص الأبعاد المنهجية لبحثه للظاهرات الاجتماعية في ضرورة دراسة هذه الظاهرات كأشياء، وتحرر الباحث من كل فكرة يعرفها عن الظاهرة موضوع دراسته. وأما عن أساليبه البحثية فتتمثل في الملاحظة والمقارنة ، وتتبع تطور الظاهرة، وتفسيرها تفسيرا وظيفيا من خلال إنجازاتها وأدوارها في السياق البنائي الكلي.

٧- وأخيرا يتحدد المسعى العلمي لديه في الكشف عن القوانين التي تحكم الظاهرات الاجتماعية ، وذلك لهدف مجتمعي هو علاج المشكلات الاجتماعية ، حتى نصل بالمجتمع إلى التضامن الاجتماعي المنشود وتقسيم العمل الوظيفي الفعال[1].

إسهامات دوركايم في تأسيس الوظيفية:

أولاً: إن اهتمام "دوركايم" بالوقائع الاجتماعية جعله يهتم أيضاً بالأجزاء المكونة للنسق الاجتماعي من جهة وعلاقات الأجزاء ببعضها البعض ومن ثم تأثيرها على المجتمع . ففي حديثه عن الوقائع الاجتماعية وجد نفسه مضطراً لإعطائها أهمية كونها تندرج في إطار بنى ومؤسسات سعى دوركايم إلى البحث عنها .

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

ثانيا : اعتنى "دوركايم" كثيراً بالبنى والوظائف وعلاقاتها بحاجيات المجتمع. وهذا يعني اهتمامه بالبنية والوظيفة كعنصرين هامين في التحليل السوسيولوجي .

ثالثا : من أهم الأمور التي قام بها "دوركايم" تمييزه بين مفهومين هما " السبب الاجتماعي " و " الوظيفة الاجتماعية ". إذ إن دراسة " السبب الاجتماعي " سيعني الاهتمام بمبررات وجود البنية. أما دراسة " الوظيفة الاجتماعية " فستعني الاهتمام بحاجيات المجتمع الكبيرة وكيفية تلبيتها من طرف بنية معينة.

مثال: إذا درسنا سبب ظهور الأسرة النووية فسنفكر ما إذا كان التصنيع وانتقال الناس من حال إلى حال هو السبب في ذلك، كما سنتساءل عن وظيفة الأسرة النووية كبنية جديدة في المجتمع الصناعي.

معنى النسبية:

تعني النسبية أنه ليس هناك قواعد ثابتة للتفسير العلمي متأثراً بعوامل الزمان والمكان والبيئة والذات وغيرها. ويميل "دوركايم" إلى جعل مفهوم الوظيفة مفهوما نسبيا خاليا من الحتمية . فإذا لم يكن من الضروري اعتبار كل وظيفة تعبير عن حاجة الجسم فليس من الضروري أيضا أن تكون لكل حاجة وظيفة في الجسم. وبالتالي الوظيفية لدى "دوركايم" هي تطبيق نسبي. هذا ما يتوصل إليه انطلاقا من تجربة المجتمعات الأوروبية عامة وفرنسا خاصة. حيث لا يتجاهل "دوركايم" وصف "أوجست كونت" الذي كان يعتبر القرن الثامن عشر تكريسا للقطيعة مع الفكر اللاهوتي والميتافيزيقي. أي قطيعة مع كل فكر إطلاقي حتمي.

يعتبر "دوركايم" الظاهرة نسبية بحكم ظروف نسبية إنتاجها وظروف التحكم بها وفي الوقت نفسه يرى أن الظواهر المعتلة والشاذة هي أيضا لها وظائف وليس صحيحا أنها ظواهر غير طبيعية . فظاهرة الاختلال في عمل المؤسسات أو في التجارة هي ظواهر معتلة وشاذة ولكنها أيضاً طبيعية أما حالات الانخرام الكامل كانخرام النظام الاجتماعي فهذه - مثلاً - حالة غير طبيعية لأنها تعبر عن صراع مدمر وهو ما يرفضه دوركايم الذي يعتبر فكرة الصراع المدمر هي حالة غير طبيعية تماماً.

وذلك أن مفهوم الوظيفية عنده يتضمن (أصلاً) بعداً أخلاقياً واضحاً. ومن المهام العلمية التي يطرحها على نفسه هي تأسيس علم الأخلاق. فهذه الأخلاق هي

أخلاق اجتماعية مدنية. كما أن دوركايم يربط بين الوظيفية وشيء آخر هو " التجانس". وهو مفهوم مركزي لدى دوركايم. لذا نراه يصر على نسبية الظاهرة وعدم إطلاقها كون التحليل الاجتماعي لا يبحث في علة الظواهر بل في وظيفتها. وهذه الوظيفة ذات بعد متجانس.

ومن أهم أسباب تفسير النسبية عند "دوركايم":

١. يريد "دوركايم" أن يحتكر تأسيس العلم الجديد. لذا لن يكون بإمكانه تبني التعريفات نفسها التي نجدها عند كل من كونت وسيمون وسبنسر. خاصة وأن " دوركايم" يعتبر نظرية "كونت" ضربا من ضروب الفلسفة المجردة في حين أنه يدعي لنفسه تأسيس العلم الجديد.

٢. رغب "دوركايم" أن يتميز في أطروحاته عن كونت مبيناً أن علم الاجتماع لا يقوم على مبدأ الحتمية ولا يستند إليها.

٣. أراد " دوركايم" أن يتخلص من هذه المرجعيات غير الاجتماعية وأن تكون للظاهرة الاجتماعية مرجعيتها المحضة وليست المرجعية البيولوجية أو الطبيعية.

٤. بدا المجتمع عند " كونت وسبنسر" على أنه كلية اجتماعية، وعليه فإن الحياة الاجتماعية والحياة العضوية ستكونان خاضعتين لنفس القانون (قانون التطور) .

مثال: المؤسسات تملك نفس الأهداف والوظائف التي تمثل أعضاء الإنسان وهو ما يرفضه "دوركايم" باعتبار أن "سبنسر" يختزل النشاط الإنساني في الوظيفة التي تقوم بها كل ظاهرة اجتماعية والتي يتم إرجاعها إلى حاجيات الجسم الإنساني .

وعند المقارنة ما بين الوظيفية قبل "دوركايم" وما أتى به هو نجد ما يلي:

- أن الوظيفية كانت قبل دوركايم تعرف على أنها حالة من التطابق ما بين الجسم وحاجاته، فكلما عبر الجسم عن حاجة ما إلا واستشعر الحاجة إلى وظيفة ما.

- إن المقاربة الوظيفية انطلقت من هذا التطابق الكلي ما بين الوظيفة والحاجة . لأن علوم البيولوجيا كانت تشكل نوعا من مرجعيات علم الاجتماع لدى دوركايم وكونت وسيمون ... الخ.

- أراد "دوركايم" أن يقصي العلوم البيولوجية والطبيعية من أي تأثير في علم الاجتماع ، وحرص على استقلاله والحد من تدخل علوم البيولوجيا فيه، لذا ستتخذ الوظيفية عند دوركايم منحىً آخر غير التطابق وهو المنحى المعرفي.

- يعتبر "دوركايم" أن الممارسة الاجتماعية لا ينبغي أن تعتمد على الحتمية لذا يؤكد على نسبية الوظيفة " فليس الشعور بالحاجة يستوجب الوظيفة ".

من المهم معرفة أن هناك اعتباران لدى "دوركايم" يقفان خلف نسبية الظاهرة الاجتماعية، وهما:

الأول: هو صعوبة اعتماد التحليل الحتمي في علم الاجتماع. فالظاهرة الاجتماعية نسبية بحكم ظروف نسبية إنتاجها وظروف التحكم فيها .

الثاني: هو أن الظواهر المعتلة والشاذة هي أيضا لها وظائف ولا يمكن القول بأنها ظواهر غير طبيعية. وهذا يعني أن علم الاجتماع لا يبحث في علة الظواهر بقدر ما يبحث عن الوظيفة التي يمكن أن تؤديها (في العلاقات والأدوار).

مفهوم الوظيفة عند دوركايم:

يعرف " دوركايم" الوظيفية بأنها: " تتمثل وظيفة العناصر الاجتماعية في مساهمتها في الحفاظ على مجرى الحياة في المجتمع " . فالثقافة هي التي تمثل جانباً من العناصر الاجتماعية فتشمل اللغة، العادات، والتقاليد، والعقائد الدينية، القيم الثقافية، وكل هذه العناصر تمثل مؤسسات اجتماعية لها وظيفتها ولا يمكن الاستغناء عنها لأهميتها في مجرى الحياة الاجتماعية ولكونها تشكل العناصر البنيوية في المجتمع.

ومن ملامح الوظيفية النظرية أنها تنظر إلى المجتمع كنسق اجتماعي أي وحدات اجتماعية مختلفة نسبياً تساهم في وظائف مختلفة لدفع المجتمع وتقدمه. وحسب "دوركايم" فـ" إن الانسجام من ملامح الرؤية الوظيفية " بل أنها تنظر إلى المجتمع على أساس أنه مستقر وليس هناك ما يعكر صفوه من صراعات ونزاعات بما أن أجزاءه تتكامل في القصد والهدف .

تعريف المجتمع:

في كتابه " التربية الأخلاقية "، عام ١٩٦٦م يعرف " دوركايم" المجتمع وفقاً لما يلي:

١- المجتمع لا يمكن أن يستمر إلا إذا وجدت درجة كافية من التجانس والتربية ترسخ وتدعم هذا التجانس .

٢- أما وظيفة المجتمع فهي تحقيق التجانس، وأدوات التجانس هي التربية.

٣- أن المجتمع هو قبل كل شيء ضمير، وهو ضمير المجموعة الذي يجب إيصاله إلى الطفل.

ويتكون المجتمع عند " دوركايم" من:

١-النظم الاجتماعية أو القواعد الاجتماعية. فالنظم والمؤسسات الاجتماعية ما هي إلا مجموعة قواعد تضبط السلوك لتحقيق هدف المؤسسة الاجتماعية.

٢- الظواهر، أو الوقائع الاجتماعية. وهي أنماط متكررة من السلوك الجماعي يشعر بها أفراد المجتمع.

٣- قوى عقلية أو فكرية أو تيارات فكرية ثقافية تتحكم في السلوك أو الفعل الاجتماعي.

دراسة الظواهر الاجتماعية:

اهتم " دوركايم" أساساً بفهم الظواهر الاجتماعية وتأثيرها على ظهور المشكلات الاجتماعية. وكان ناقداً للتفسيرات الفردية التي طرحت في ذلك الوقت. ولقد رأى "دوركايم" أن علم الاجتماع يهتم بالظواهر الاجتماعية والالتزامات الأخلاقية الجمعية، وخاصة تلك الظواهر التي تقهر الفرد على أن يسلك سلوكاً معيناً داخل الجماعة. كما قدم "دوركايم" إطار عمل لعلم الاجتماع يهتم بالظواهر الموجودة في الخارج مثلما عرض منهجاً لدراسة هذه المعطيات الاجتماعية . وكان "لدوركايم" دوراً مهماً في تأسيس وتطوير علم الاجتماع بوصفه علماً جديداً متميزاً يركز على المجتمع كظاهرة حقيقة لها وجود مستقل. وقد أعطى "دوركايم" اهتماماً لكل مظاهر المجتمع وهي القانون والأخلاق وأساليب الضبط والبناء السياسي والاقتصادي والجريمة [1].

---

[1] جراهام لينلوش (١٩٩٠). تمهيد في النظرية الاجتماعية. تعريب محمد سعيد فرج، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

ومن تعريف المجتمع ومكوناته ينظر " دوركايم" أن الظواهر أو الوقائع الاجتماعية حقيقة واقعية موجودة تنشأ عن طبيعة المجتمع الإنساني ومعرفة حقيقة هذه الظواهر أو الوقائع الاجتماعية لا يأتي إلا بدراسة الظواهر الاجتماعية نفسها. لأنها بنظر "دوركايم" هي عبارة عن القوى الطبيعية. فالظواهر الاجتماعية ذات طابع عقلي على الرغم من أنها صنع اجتماعي، وذات طبيعة اجتماعية فهي تصدر من العقل الجمعي الذي هو نتيجة التفاعل فوق العضوي بين العقول الفردية.

ينظر " دوركايم" إلى علم الاجتماع من حيث كونه يهتم بدراسة المجتمع، وما ينبعث عنه من ظواهر دراسة علمية وصفية تحليلية. ولكي يتحقق هذا فإنه لا بد من منهج علمي يستطيع بفضله الوصول إلى قوانين الظواهر.

والظاهرة الاجتماعية عند " دوركايم" لها صفات في ذاتها خاصة بها، ولها صفات مشتركة مع غيرها من الظواهر. ومن أهم هذه الصفات الذاتية للظاهرة الاجتماعية ما يلي:

- تنشأ الظواهر الاجتماعية بنشأة المجتمع وهي بذلك ظواهر إنسانية لها كل صفات الإنسان.

- الظواهر الاجتماعية عبارة عن أساليب وقوالب للتفكير والعمل الإنساني.

- الظواهر الاجتماعية شيئية لها صفة خارجية. أي أنها تقع خارج شعور الفرد. وهي أيضاً لها خاصية الانتقال من جيل إلى جيل آخر. ولا تتبدل وتتغير إلا في حدود ضيقة وهي أسبق من وجود الفرد.

وبالتالي من أهم معالم حدود الظاهرة الاجتماعية عند " دوركايم" الجوانب التالية:

١- الظواهر الاجتماعية خارجية عن نطاق الإنسان الفرد.

٢- الظواهر الاجتماعية تمارس نوعاً من القهر الأخلاقي.

٣- الظواهر الاجتماعية نتاج جمعي غير فردية وغير شخصية.

٤- الظواهر الاجتماعية محايدة تنبع من المجتمع وأكبر من مجموع الأفراد.

٥- الظواهر الاجتماعية تشكل أسلوباً للحياة فهي تعكس رؤية يسير عليها الفرد[1].

تعد نظرية "دوركايم" في الظواهر الاجتماعية من أهم النظريات التي أدت إلى تدعيم علم الاجتماع واستقلاليته. وقد فرق دوركايم بين نمطين كبيرين من الظواهر الاجتماعية هما :

١- الظواهر الاجتماعية المادية .

٢- الظواهر الاجتماعية لامادية .

وتقع معظم أعمال "دوركايم" وجوهر علم الاجتماع عنده في دراسة الظواهر الاجتماعية اللامادية، وما يسميه علماء الاجتماع اليوم القيم والمعايير تعد أمثلة جيدة لما كان يقصده دوركايم بالظواهر الاجتماعية اللامادية الأفضل النظر إلى الظواهر الاجتماعية اللامادية على أنها ظواهر عقلية ولكنها ظواهر عقلية خارجية وتمارس على الأفراد قهرا عليهم.

قسم "دوركايم" الظواهر إلى مستويات من الواقع الاجتماعي يبدأ "دوركايم" بمستوى الظواهر الاجتماعية المادية ليست لكونها أكثر المستويات أهميه بالنسبة" لدوركايم". ولكن لأن عناصرها تمثل في نظريته أولوية سببية بمعنى أنها تؤثر في الظواهر الاجتماعية اللامادية التي تعد محور الاهتمام الأساس في دراسته.

١- الظواهر الاجتماعية المادية مثل : المجتمع، المكونات البنائية للمجتمع (الدوله)، العناصر المورفولجية للمجتمع.

٢- الظواهر الاجتماعية اللامادية مثل: المبادئ الأخلاقية، الضمير الجمعي، التصورات الجمعية، التيارات الاجتماعية[2] .

قواعد المنهج الاجتماعي:

في ضوء تحديد "دوركايم" لماهية ومحددات الظواهر الاجتماعية وأشكالها. ومن أجل دراسة الظاهرة الاجتماعية وضع في كتابه " قواعد المنهج في علم الاجتماع" عام ١٨٩٥م بعض القواعد، والخطوات لدراسة الظواهر وهي:

---

(1) George. Ritzer, Barry, Smart (2001). Handbook Of Social Theory. London: SAGE Publications

(٢) جراهام لينلوش (١٩٩٠). مرجع سابق، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

١- دراسة نشأة الظاهرة والوقوف على عناصرها لأن الظاهرة شيء معقد وتتألف من أجزاء كثيرة.

٢- دراسة تطور الظواهر والوقوف على مختلف أشكالها.

٣- دراسة العلاقات التي تربط الظاهرة بما عداها من الظواهر التي تنتمي إلى شعبتها.

٤- الانتفاع بمنطق المقارنة في دراسة الظواهر.

٥- الكشف عن الوظيفة الاجتماعية التي تؤديها الظاهرة وما خضعت له هذه الوظيفة من تطور وذلك في ضوء دراسة تاريخ الظاهرة.

٦- تحديد القوانين التي يصل إليها الباحث من دراساته. ويجب صياغة هذه القوانين بدقة لأنها هي التي تكون مادة العلم[1].

الدين والمجتمع:

رفض " دوركايم" رفضاً قاطعاً فكرة أسطورية الدين، وأكد في المقابل على أنه ظاهرة عالمية. وبالتالي لا بد وأن تكون له وظيفة في المجتمعات البشرية . فمن بين وظائف الدين عند دوركايم وابن خلدون العمل على توحيد الناس وخلق روح التضامن الاجتماعي بينهم عن طريق القيم الثقافية والاعتقادات الدينية التي يدعو إليها هذا الدين أو ذاك .

ويرى " دوركايم" أن الدين عبارة عن :" مجموعة من العقائد أو المعتقدات التي يشترك فيها أفراد المجتمع". وقسم الدين إلى نوعين:

الأول : القسم القدسي العقدي أي الأشياء القدسية من عناصر وقيم.

الثاني : عملي وهي عبارة عن الطقوس التي يزاولها أفراد المجتمع.

ويرى دوركايم أن العقل الجمعي هو الذي يجمع المقدسات والمعتقدات الروحية.

ويقدم " دوركايم" في كتابه " الأشكال الأولية للحياة الدينية " عام ١٩١٢م نموذجاً للمعنى الاجتماعي للشعائر الدينية أو الحفلات المراسمية. ففي نظره تحقق الشعائر الدينية التماسك الاجتماعي من خلال أدائها لأربع وظائف:

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص١٨٥.

- مراسم الحفل، وهذه تهيئ الفرد للحياة الاجتماعية من خلال فرض الطاعة عليه.

- إن وظيفة الشعائر الدينية تتمثل في كونها تقوي من تماسك المجتمع وترابط العلاقات بين الأفراد والمجموعات.

- تجدد الشعائر الدينية لدى ممارستها التزام الفرد لتقاليد المجتمع.

- يشعر الفرد بالراحة والحماس الاجتماعي أثناء مشاركته في الحفل الديني.

عبر هذه الحالات الأربع فإن الشعائر الدينية تساهم بتلبية الحاجات الدينية للفرد. ومن ثم يتضح من التفكير الاجتماعي عند " دوركايم" أن كل وحدة اجتماعية في المجتمع لها علاقة بالمجتمع الكبير وفي كل الوحدات الموجودة فيه. ويعتقد "دوركايم" إن الانسجام في المجتمع يصبح واقعاً مجسماً عندما تسود هذه الحالة الطبيعية. أي عند قيام هذه الوحدات الأربع بوظائفها في المجتمع ككل[1].

التضامن الاجتماعي:

يعتبر من أهم إسهامات " دوركايم" تصوره وجود شكلين أساسين من التضامن بين أفراد المجتمع يعكسان بصورة أساسية نظريته نحو التطور والتغير الاجتماعي. وهما:

١- التضامن الآلي:

وهو إحدى خصائص المجتمعات التقليدية التي يتضاءل فيها نظام تقسيم العمل. حيث يحدث نوع من التماثل والتشابه بين أنماط العمل السائدة في هذه المجتمعات. كما تظهر المعايير الاجتماعية باعتبارها قوة ضاغطة وتمارس نوعاً من القهر والإجبار. وتحدث نوعا من التماسك. حيث تتماثل المعايير والأعراف والتقاليد والقيم، وتتقارب وجهات النظر والآراء إلى درجة كبيرة.

٢- التضامن العضوي:

وهو إحدى خصائص المجتمعات الحديثة المتقدمة التي تقوم على نظم معقدة لتقسيم العمل وتنوع نمط العلاقات التعاقدية. التي تؤدي إلى انخفاض درجة التضامن الاجتماعي، وندرة مظاهر التضامن. بحيث يكون الفرد في المجتمعات الحديثة أكثر

[1] George. Ritzer, Barry, Smart (2001). Handbook Of Social Theory. London: SAGE Publications, p79.

استقلالية. كما تؤدي إلى تفكك العلاقات الاجتماعية وضعف قوة الضبط الاجتماعي، وظهور مظاهر متعددة للانحراف والجريمة، والتعدي على حقوق الآخرين. ويقارن "دوركايم" بين المجتمع في حالة التضامن العضوي، والجسم البشري الحي الذي يتشكل من أعضاء مختلفة يقوم كل واحد منها بوظيفة ودور معين.

النمط المجتمعي	الوحدة	اللحمة	قاعدة اللحمة	الجزء
المجتمعات التقليدية	التشابه أو التماثل	التضامن الآلي	الأعراف والتقاليد الموروثة	الأفراد متشابهون
المجتمعات الحديثة	التميز والاختلاف	التضامن العضوي	القانون والتشريعات الحديثة	الأفراد متمايزون
المصدر: خليل، فؤاد (٢٠٠٨) : المجتمع، البناء، البنية في موضوع علم الاجتماع وإشكاليته . بيروت: دار الفارابي، ص٥٥.				

الضمير الجمعي:

يعد " الضمير الجمعي" أحد المفاهيم الرئيسة عند "دوركايم". أما من حيث القانون والأخلاق والضبط الاجتماعي فهناك ولاء ملحوظ للضمير الجمعي الذي يعني مجموعة من المعتقدات والعواطف العامة بين أعضاء المجتمع، والتي تكون نسقاً خاصاً ومثل هذا الضمير له وجوده الخاص المتميز. فهو يدوم عبر الزمن، ويعمل على توحيد الأجيال. والضمير الجمعي يعيش بين الأفراد. ولكنه يتميز بالقوة والاستقلال. وبخاصة حينما تزداد درجة التشابه بين الأفراد. وتعكس دراسة الضمير الجمعي عند "دوركايم" نظريته عن القهر الاجتماعي. وترتبط معالجته للظواهر الاجتماعية ارتباطاً وثيقاً بمناقشة الضمير الجمعي. حيث يعد المفهوم من مفاهيم " دوركايم" الرئيسة حيث عرفه بأنه: "مجموعة من المعتقدات والعواطف المشتركة لدى متوسط أعضاء المجتمع الواحد والتي تشكل نظاماً اجتماعياً محدداً له حياته الخاصة به".

ويعتمد الضمير الجمعي في وجوده على الأحاسيس والعواطف والمعتقدات الموجودة في الضمير الفردي. وبالتالي أوضح أن هناك ارتباطاً ذا تأثير متبادل بين الضمير الجمعي والأفكار الاجتماعية في الواقع الاجتماعي نتيجة الضغوط التي يمارسها الضمير الجمعي على أعضائه. لذلك تعد قضية الضمير الجمعي بطابعها الحتمي بالنسبة للفاعل والتفاعل الاجتماعي هي الفكرة الأساسية التي أخذها "دوركايم" عن الفكر الألماني وهي فكرة لعبه دورا جوهريا في البناء النظري لدوركايم لفكرة الضمير أو العقل الجمعي إلى فكرة العقل الكوني المتنامي أو الروح الشاملة التي قال بها " هيجل". في إطار ذلك نجد أن "دوركايم" قد استبدل هذا العقل الكوني بعقل الجماعة أو الضمير الجمعي الذي يمثل لديه الشكل الأعلى للحياة العقلية هو الفكرة الثانية حيث أدرك أن المجتمع يشكل موقفا كليا في بعده التاريخي والمعاصر بحيث تستوعب هذه الكلية كافة المواقف وأنماط السلوك الجزئية .

الفكرة الثالثة التي نقلها دوركايم عن الفكر المثالي بهوية المجتمع وخصائصه الأساسية إذ نجد أن المجتمع ككائن عضوي تكون له هويته وخصائصه المتميزة عن هوية وخصائص أفراده المكونين له ونجد أن هناك أفكار متعددة أخذها "دوركايم" عن المثالية الألمانية منها مثلا الفكرة المتعلقة بأهمية المثل والوحدة الأخلاقية بالنسبة لاستمرارية المجتمع وكذلك أهمية الفرد كوسيلة فعالة وكمستقبل للتأثيرات الاجتماعية بل إننا نجد أن الطبيعة المزدوجة بارتباط الفرد بالمجتمع أخذها " دوركايم" عن الفكر المثالي حيث تتضمن هذه العلاقة الالتزام من ناحية والارتباط الإيجابي بالمثال من ناحية ومنذ البداية نجده يرفض الطابع النقدي لإدراك الواقع الاجتماعي ولما كانت المثالية النقدية تمتلك دائما تصورا مسبقا للواقع يعتبر إطارا مرجعيا يتم على أساسه نقده وتغييره [1].

نظرية تقسيم العمل الاجتماعي:

تقسيم العمل يختلف باختلاف حجم المجتمع، وكثافة السكان وشدة التفاعل الاجتماعي. فازدياد السكان عامل أساس لتقسيم العمل. ويعد كتابه " تقسيم العمل" عام ١٨٩٣م أهم الأطروحات المنهجية في علم الاجتماع والتي حللت التصورات

---

[1] ليلة، علي (١٩٩١). مرجع سابق.

الطارئة خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادية، لذا خصص "دوركايم" الكتاب ليوضح رؤيته في إمكانات تطبيق المقاربة الوظيفية انطلاقاً من مبدأ يعتبر الوظيفية مبدأ نسبياً منهجياً. وهو يرى أنه قد ترتب على تقسيم العمل شدة الصراع من أجل البقاء والاستمرار. فكثرة العدد تفرض على الأفراد ضرورة التخصص المهني مما يقلل من حدة الصراع. ويتيح فرصة أوسع للحصول على وسائل الحياة.

وعن الوظيفة الإيجابية لتقسيم العمل، يرى "دوركايم" أن تقسيم العمل وما يترتب عليه من تباين بين الأفراد يعمل على تدعيم نوع من التماسك المتبادل في المجتمع وينعكس هذا التساند المتبادل على العقلية الإنسانية والأخلاقيات. كما أنه يبرز في ظاهرة التضامن العضوي ذاتها. وكلما ازداد هذا التضامن رسوخاً قلت أهمية الضمير الجمعي. وهكذا يستبدل القانون الجنائي القائم على جزاءات رادعة بقانون مدني إداري. يهدف إلى حفظ حقوق الآخرين بدلاً من العقوبة[1].

دراسة الانتحار:

تعد دراسة "دوركايم" من افضل الدراسات التي تمثل البحث الاجتماعي الذي يقوم على أسس نظرية واضحة. وتعد دراسة الانتحار أول دراسة متكاملة للبحث الاجتماعي خلال الفترة التي ظهرت فيها. وقد استخدم " دوركايم" المنهج الاحصائي ودعم موقفه النظري بالبيانات والشواهد الواقعية. حيث يعد " دوركايم" من الأوائل الذين صاغوا نظرية عن إحدى الظواهر الاجتماعية في دراسة تحليلية على ظاهرة الانتحار في أوروبا مقارناً بين حجم انتشار الظاهرة بين مختلف الدول الأوروبية متخذاً من الإحصاءات الرسمية مصدراً لدراسته. وقد ظهرت دراسة "دوركايم" الهامة عن الانتحار وذلك بعد مضي عامين على نشر مؤلفه "قواعد المنهج في الاجتماع". وأول خطوة بدائها "دوركايم" بأنه عرف الانتحار حيث واجه صعوبة في ذلك إلى أن خلص إلى أن الانتحار هو: " كل حالات الموت التي يكون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لفعل سلبي أو إيجابي قام به المنتحر نفسه، وهو يعلم أنه سيؤدي إلى هذه النتيجة". وأشار إلى

---

[1] راجع في ذلك: كمال، الزيات (١٩٩١). بناء النظرية في علم الاجتماع: نموذج نظرية تقسيم العمل. القاهرة: مكتبة نهضة الشرق.

أنها كلمة شاع استخدامها بين العامة وتحمل أكثر من معنى وأن الباحث قد يستخدمها بنفس المعنى دون أن يحاول تعريفها علميا حتى لا يقع بمخاطرة سوء الفهم .

والانتحار في نظر "دوركايم" لا يعود لأسباب سلالية أو وراثية فهو لا ينتج عن انتقال الجينات من الآباء إلى الأبناء. ولا يعتمد على ظروف عضوية، وحتى إذا سلمنا بأن الأبناء الذين انتحروا كان أباؤهم قد انتحروا من قبل؛ فإنه يؤكد أن هذا الفعل لا يرجع إلى الجانب الوراثي وإنما إلى مزاج الفرد المنتحر واستخلص "دوركايم" من هذه الدراسة أن المجتمعات التي تتسم بروابط اجتماعية قوية ويتوافر فيها معايير وقواعد تحدد سلوكهم يقل فيها معدل الانتحار عن المجتمعات التي تتسم بضعف الروابط الاجتماعية فمعدل الانتحار في المدن أعلى منه في القرى وبين العزاب أعلى منه بين المتزوجين .

وبعد أن يحدد "دوركايم" تعريف الانتحار ينتقل إلى مناقشة نقطة أخرى ذات أهمية وهي المجموع الكلي لحالات الانتحار في بلد معين يسمح لنا إن بحسب معدل الانتحار وهذا المعدل هو (الظاهرة الاجتماعية). بعد ذلك حلل الانتحار من ناحية غير اجتماعية مثل ربط الانتحار بالمرض العقلي وأيضا ربط الانتحار بالعوامل الكونية وأخيرا ربط الانتحار بالتقليد والمحاكاة وبعد ذلك يعتقد "دوركايم" بعد أن فرغ من دراسته لجميع هذه الأمور أنه قد نجح في استبعاد العوامل الغير اجتماعية وبذلك ينتقل مباشرة إلى معالجة الأسباب الاجتماعية والمواقف الاجتماعية التي تحدد هذه الأسباب.

حاول "دوركايم" جمع حالات الانتحار في ثلاثة نماذج حيث يتضمن كل نموذج مجموعة من الأسباب الاجتماعية والنماذج الثلاثة للانتحار هي :

١- انتحار الوحدانية أو العزلة الاجتماعية، الانتحار الأناني.
٢- انتحار التضحية في سبيل الآخرين، الانتحار الغيري أو الإيثاري.
٣- انتحار التفسخ الاجتماعي الانتحار الأنومي[١].

ومن أهم الفرضيات التي ضاغها " دوركايم" حول الانتحار:

- الانتحار ظاهرة اجتماعية وليست فردية .

---

(١) Durkheim , E. (1997). Suicide: Astudy in Sociology. New York: The free Press.

- يتزايد حجم انتشار الظاهرة مع انخفاض درجة التضامن الاجتماعي في المجتمع.

- كان أوضح ظهوراً وأوسع انتشاراً في المجتمعات البروتستانتينية عنها في المجتمعات الكاثوليكية وفي المجتمعات التي تعاني من التفكك والفوضى السياسية والأخلاقية والاقتصادية أكثر من المجتمعات التي لا تعاني من هذه المشاكل .

-المجتمعات التي يسودها قدر أكبر من الإنفاق القيمي والتضامن الاجتماعي والاستقرار الاقتصادي والسياسي كانت أقل هذه الدول انتشاراً للظاهرة وتركزت غالبيتها في المجتمعات الأوروبية الجنوبية التي تجتذبها البروتستانتينية والتي حافظت على وحدتها الاجتماعية[1] .

نظرية الاغتراب الاجتماعي:

تناول "دوركايم" مفهوم الاغتراب في سياق تحليله لمفهوم (الأنومي) اللامعيارية. ويعتقد دوركايم بأن "سعادة الإنسان لا يمكن تحقيقها بشكل تام ما لم تكن حاجات الفرد متناسبة أو متوازية مع الوسائل التي يمتلكها لإشباعها، ويؤكد بأن الحضارة الصناعية التي تسير بخطوات سريعة تعاني من مرض (الأنومي) أو فقدان المعايير وأن هذا الفقدان يؤدي بالنتيجة إلى تشويه والقضاء على الحياة المتسمة بالعمل السليم من أجل الفرد والمجتمع، ويذهب إلى القول كذلك بأن العالم الصناعي والديمقراطية الجماهيرية والنزعة العلمانية قد أدت إلى النزعة الفردية التي سادت التاريخ المعاصر والتي بدت مظاهرها في اليأس والوحدة وخوف الذات واكتئابها وقلقها الزائد والتي تمثل الاغتراب"[2].

وتشير "اللامعيارية" في نظرية دوركايم، إلى "حالة اضطراب تصيب النظام ، أو حالة من انعدام الانتظام De-regulation أو التسيب، تنجم عن: أزمات اقتصادية، أو كوارث أسرية، في نفس الوقت الذي تؤدي فيه إلى الانحراف " أو إلى " حالة تكون

---

[1] المقدم، مي (١٩٩٢). محاكمة دوركايم في الفكر الاجتماعي العربي. بيروت: دار النهضة العربية، ص ٣٥-٤٥. وكذلك: عبد الجواد مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٢٤-٢٢٥.

[2] جابر، سامية (١٩٨٩). مشكلة الاغتراب. في كتاب (الفكر الاجتماعي)، بيروت: دار العلوم العربية.

العلاقات فيها بين الأعضاء في عملية تقسيم العمل، غير منظمة، أو غير متسقة في اتصالها مع بعضها البعض، وفي استمرارها واعتمادها المتبادل، ومن ثم تكشف هذه الحالة عن مظاهر انحرافية، أي تكون مظهراً للانحراف.

وطبقاً "لدوركايم" فإن مجالات اللامعيارية ثلاث، وهي:

- المجال الاقتصادي بوجه عام: والذي توصل فيه دوركايم إلى أن الأزمات والكوارث العظمى تحدث عند الفقدان التام لعملية التنظيم، وما يترتب عليه من المخاطرة والعشوائية.

- مجال تقسيم العمل: والذي يرى فيه دوركايم أنه قد يؤدي إلى التضامن إذا كان قائماً على أسس سليمة، وإذا كانت القواعد والنظم المحددة له واضحة بحيث تؤدي إلى التكامل بين أدوار الجماعات المهنية، مما يؤدي إلى نمو التضامن والشعور بالجماعة من جانب الأفراد. وإذا لم يؤد تقسيم العمل إلى التضامن فإن ذلك يرجع إلى أن العلاقات بين الأعضاء غير منظمة، أي أنها تعتبر في حالة لا معيارية.

- مجال الأسرة والحياة الزوجية: وأشار "دوركايم" إلى أن "اللامعيارية الأسرية أو الزواجية" يمكن أن تؤدي إلى الانتحار، فالانتحار الذي يحدث في أزمات الترمل، ينجم عن "اللامعيارية الأسرية"، وهي التي ترتبط بوفاة الزوج أو الزوجة، وتعتبر كارثة أسرية تؤثر على الطرف الذي لا زال على قيد الحياة، فيعجز عن التوافق مع الموقف الجديد، الذي يجد ذاته فيه، وبالتالي فإنه يكشف عن مقاومة أقل للانتحار. وطبقاً لدوركايم فإن هناك نوعاً آخر من الانتحار اللامعياري، يعتبر أكثر وقوعاً وإيضاحاً لطبيعة الزواج ووظائفه، وهو الانتحار الذي يحدث في حالات الطلاق والانفصال. والذي يرجعه "دوركايم" إلى تغير النظام الأخلاقي والأساس المادي الذي كان قائماً أثناء الزواج ويذهب دوركايم إلى أن ارتفاع عدد حالات الانتحار عند الأزواج، ليس نتيجة لوجود أزواج سيئين أو زوجات سيئات، وإنما يكون محصلة بناء أخلاقي ذي طبيعة خاصة، انبثق هو ذاته عن ضعف الانضباط الزواجي، ولذلك فالبناء الأخلاقي الذي أسس بواسطة الزواج، هو الذي يخلق الميل إلى الانتحار. وبهذا وطبقاً لدوركايم فإن سعادة الإنسان لا يمكن أن تتحقق بشكل طبيعي ما لم يكن هناك توافق بين الحاجات

وأساليب ووسائل إشباعها. والفرد الذي يعاني من الاغتراب في نظر دوركايم هو ذلك الفرد الذي لا يخضع لمعايير من أي نوع، والذي يفتقد قواعد وأساليب لتنظيم حاجاته ولتوجيهه نحو العمل وممارسة أدواره الاجتماعية في الحياة ويرى دوركايم أن غياب الضبط الاجتماعي يدمر التركيب الذاتي للفرد ويؤدي إلى الفوضى الاجتماعية. فالضبط يعتبر أساسياً لاستقرار المجتمع، نظراً لحاجة الإنسان إلى ضوابط اجتماعية تساعده على التكيف مع بيئته[1].

التحليل الاجتماعي للأنساق التربوية من منظور دوركايم:

يرى "دوركايم" أن التحليل الاجتماعي ينطوي على مفاهيم ثلاثة تتمثل في:

- النسق System .
- البناء Structure .
- الوظيفة Punction .

ويمثل النسق في التنظيم الاجتماعي الكلي الذي يظهر لإشباع الحاجة المرتبطة بنسق القيم المحوري للمجتمع ، كما أن البناء الاجتماعي لهذا النسق يعرف بالمثل بواسطة هذه القيم، فأي نظام خاص في البناء ، يقوم بوظائفه لتحقيق الرابطة بينه وبين عناصر البناء الأخرى، كما أن أهميته تتجسد في تأكيده لمبادئ النسق القيمي ، وتحقيقها في الحياة اليومية. ولهذا فإن النظم مثل النظام السياسي، والاقتصادي، والتربوي ، تقدم الأساس الذي يحدد ما يكون مقبولا أو غير مقبولا من أنماط السلوك الاجتماعي بالإضافة لتقديم الأساس الذي يساعد على تعلم الأفراد للقيم العامة للمجتمع[2].

حيث يرى دوركايم (Dorkiem) أن التربية نظام اجتماعي يتفاعل مع نظم ومؤسسات المجتمع الأخرى ، ويرى أن دور التربية هو إعداد الفرد للحياة في مجتمعه لكي يصبح قوة منتجة فيه، ومن ثم يؤكد على ضرورة الاهتمام بالتخطيط التربوي،

---

[1] Charles, H, Powers (2010). Making Sense Of Social Theory. U K: Littlefield Peblishers, INC. P101-113.

[2] الجولاني، فادية (١٩٩٧). علم الاجتماع التربوي. الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب ، ص٢٠٢- ٢٠٣.

ولكن في ضوء التخطيط الشامل للمجتمع، وأن للمعلم مكانة اجتماعية عالية باعتباره ممثلاً للدولة وللقيم الأخلاقية السائدة في المجتمع [1].

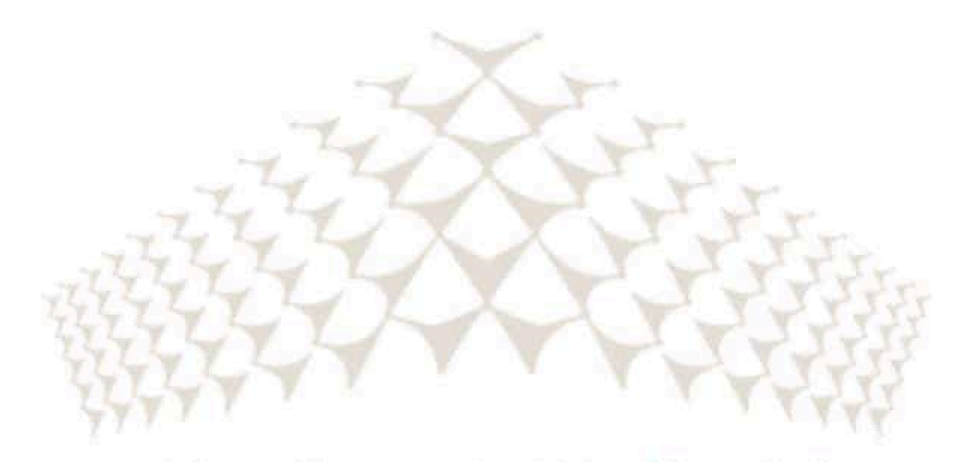
كما يرى "دوركايم" أن المؤسسة التربوية هي جزء من البناء الاجتماعي. فالطفل في المدرسة يتعلم ويكتسب عن طريق العملية التربوية كل ما يلقن به من معلومات أساسية ومهارات وخبر وتجارب إذ يكتسب هذه الأشياء بصورة تلقائية وبدون أي تردد. ذلك أن ما يعطى له في الصف من حقائق ومعلومات يعد قوى وأدوات خارجية ينبغي اكتسابها وتعلمها وعدم الاعتراض عليها وإلا لا يتعلم الخبر والمهارات والمعارف وبالتالي لا يمكن أن يجتاز الاختبارات المطلوبة التي تبرهن كفاءاته ومقدرته في الدروس التي تعطى له في المدرسة. وأكد "دوركايم" في نظريته التربوية الاجتماعية أن المدرسة لا تزود الطالب بالخبرات والمهارات والمعلومات فقط بل تصب أيضاً السمات الأساسية للشخصية النموذجية في عروقه منذ الصغر بحيث ينشأ وهو يحمل الشخصية النموذجية لمجتمعه[2]. وإذا ما نظرنا إلى التربية من منظور " دوركايم " فإن أي تساؤل حول التنظيم والعملية التربوية يصاغ دائما في سياق وظيفة النسق التربوي، مثال ذلك بالنسبة لدور التربية وعلاقتها بعملية التنشئة الملائمة للفرد، يتم في ضوء وجهة نظر " دوركايم " النظر للتربية كقوى محافظة، ومحققة لتكامل الأفراد في المجتمع[3].

---

[1] الشخيبي، علي السيد (٢٠٠٢). علم اجتماع التربية المعاصر. القاهرة: دار الفكر العربي، القاهرة، ص٥٤.

[2] الحسن، إحسان (٢٠٠٥). علم الاجتماع التربوي. بغداد: دار وائل للنشر، ص ٥٥.

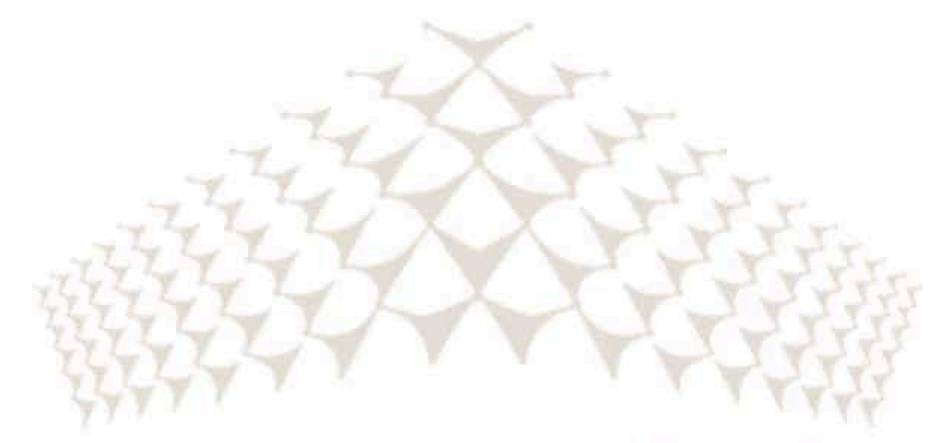
[3] الجولاني، فادية (١٩٩٧). مرجع سابق، ص ٢٠٣.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library



ثالثاً- راد كليف براون:

- حياته.
- موضوع علم الاجتماع.
- أهم النظريات لدى براون.
- نحو علم اجتماع طبيعي.
- البناء الاجتماعي.
- مفهوم الوظيفية.
- دراسة سكان الأندمان.
- أهم الانتقادات التي وجهت له.
- الخلاصة.



ثالثاً: راد كليف براون **A. R. Radcliffe Brown**
(١٨٨١م -١٩٥٥م) :

حياته:

ألفريد ريجنالد راد كليف براون (١٨٨١م -١٩٥٥م) تخرج من جامعة كمبرج، ودرس على " هادن " و "رفرز "، وتأثر بدوركايم كثيراً. أضفى على مفهوم البنية الاجتماعية أهمية كبيرة في منهجه وربطها بمفهوم الوظيفة. وقد شبّه الحياة الاجتماعية بالحياة العضوية، كما يعزى له أيضاً فضل اكتشاف المضامين النظرية للنزعة الوظيفية بوصفها تمثل العلاقة بين العرف الاجتماعي والظروف الأساسية لوجود نظام اجتماعي. ويرى أن عناصر البنية الاجتماعية لها وظائف للمجتمع بصفة شاملة الذي يُشار إليه بوصفه كياناً عضوياً متكاملاً، كما تكون متنمطة ضمن علاقات اجتماعية يفسرها بأنها جوانب اجتماعية تتوافق مع قواعد أو معايير اجتماعية مقبولة. وهذه القواعد هي التي تربط أفراد المجتمع بأنشطة مفيدة اجتماعياً. وقد حاول الابتعاد عما أسماه مالينوفسكي بـ " حاجات " الكائن الاجتماعي، وتحدث بدلا من ذلك عن الشروط الضرورية للوجود لأنه كان يريد تجنب التفسيرات الغائية التي تتبنى فكرة وجود أرواح موجهة أو قوى غيبية أسطورية في الحياة الاجتماعية. وعلى الرغم من أنه كان حريصاً على الابتعاد عن ثنائية (السحري / الديني عند جيمس فريزر) و (المقدس / الدنيوي عند دوركايم) فيما يخص الشعائر، نجده تبنى مصطلح "القيمة الشعائرية "، وعرّف الفعل الشعائري بأنه كل فعل رمزي له قيمة اجتماعية مهمة.

ويعد أحد كبار أساتذة الأنثربولوجيا ليس في بريطانيا وحدها حيث شغل كرسي الأستاذية للأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة أكسفورد وإنما تولى نفس المنصب في جامعات أقطار أخرى من أستراليا وأفريقيا والولايات المتحدة الأمريكية، حيث استطاع إعادة صياغة الأنثروبولوجيا الاجتماعية في ضوء إطارات ومفهومات نظرية واضحة تماماً. وكذلك إعادة توجيه البحث الحقلي للمجتمعات الصغيرة والبسيطة مستخدماً منهجية بالغة الدقة وأسهم مع "ماليفونسكي" في إعادة تطوير الأسس النظرية

للأنثروبولوجيا في ضوء التحليل السوسيسولوجي وتطبيق ذلك في دراسة الشعوب البدائية[1]. وهكذا كانت كتابات راد كليف براون ودراساته الحقلية بمثابة عرض منظم لأسس البنائية الوظيفية في الأنثروبولوجيا، باعتبارها تمثل مدرسة قائمة بذاتها من مدارس الفكر الاجتماعي.

موضوع علم الاجتماع:

يقول "راد كليف براون" أن العلم المتميز يجب أن يكون له موضوع متميز أيضاً، وميدان محدد للبحث والدراسة، وهنا يتساءل راد كليف براون ما موضوع علم الاجتماع ؟ وأين تقع تلك الظواهر التي يدرسها هذا العلم ؟ ويجيب أن علم الاجتماع هو علم الدراسة النظرية المقارنة لأشكال الحياة الاجتماعية وتكون الأنثروبولوجيا فرعاً منه يدرس هذه الصور بين الشعوب البدائية.

أهم النظريات لدى راد كليف براون :

١. نحو علم طبيعي للمجتمع :

العلم الطبيعي في نظر "براون" هو البحث المنهجي في بناء الكون كما تظهره لنا الحواس ويتفرع العلم إلى عدد من العلوم المهمة المنفصلة التي يعالج كل منها فئة معينة أو نوعاً معيناً من الأبنية بقصد اكتشاف الخصائص المميزة لكل الأبنية المتدرجة تحت هذا النوع، من خلال ذلك اعتقد أن ثمة مكان لفرع آخر من العلم الطبيعي سوف يوجه همه إلى اكتشاف الخصائص العامة لتلك الأبنية الاجتماعية التي تتألف من الكائنات الإنسانية. ولقد كان هذا العلم الذي يتحدث عنه العالم براون هو علم الاجتماع المقارن والتي تعتبر الأنثروبولوجيا فرعاً منه[2].

٢. البناء الاجتماعي:

كلمة بناء تشير بالضرورة إلى وجود نوع من التنسيق والترتيب بين الأجزاء التي تدخل في تكوين الكل الذي نسميه بناء وعلى هذا الأساس يكون للجملة بناء مكون

---

[1] محمد، على (١٩٨٦). مرجع سابق، ص٤٥٤. وانظر : ميشيل مان (١٩٩٤). مرجع سابق، ص٥٨٧-٥٨٨.

[2] أبو طاحون، عدلي (ب د). مرجع سابق، ص ١٤٨.

من عبارات... وللبناية بناء وهكذا. وأن هناك علاقات وروابط معينة تقوم بين هذه الأجزاء التي تؤلف الكل وتجعل منه بناء متماسكاً ومتميزاً وبمقتضى هذا الفهم تكون الوحدات الجزئية الداخلة في تكون البناء الاجتماعي هي الأشخاص أعضاء المجتمع الذين يحتل منهم مركزاً معيناً ويؤدي دوراً محدداً في الحياة الاجتماعية.

وضمن هذا الإطار يفرق " براون" بين الأفراد والأشخاص:

١- الإنسان كفرد: هو عبارة عن كائن عضوي بيولوجي أي مجموعة هائلة من الجزئيات التي تنتظم في بناء مركب تجري في داخله ما دام حيا من أفعال وأوجاع وعمليات وتغيرات جسمية أو نفسية. ومن هنا كان الإنسان كفرد يتخذ موضوعاً لدراسة علماء النفس والفسيولوجيا .

٢- الإنسان كشخص: فإنه عبارة عن مجموعة من العلاقات الاجتماعية فهو مواطن، زوج وأب ويمارس مهنة وهو عضو في جماعة دينية... وهكذا.

أنواع البناء الاجتماعي:

ميز "براون" بين نوعين من البناء هما :

- البناء الواقعي: ويقصد به البناء من حيث هو حقيقة موجودة بالفعل ويمكن ملاحظته مباشرة وهو مجموعة العلاقات القائمة فعلاً بين عدد من الأشخاص في مكان معين بالذات وفي فترة محددة من الزمن.

- الصورة البنائية: أو الصورة العامة أو السوية لعلاقة من العلاقات بعد تجريدها من مختلف الأحداث الجزئية ولكن دون إغفال هذه التمايزات مع ذلك.

ويرتبط التمييز بين البناء الواقعي والصورة البنائية عند " براون" ارتباطاً وثيقاً بفكرة استمرار البناء المجتمعي في الزمان. فالبناء الواقعي يتغير بسرعة واستمرار يعكس الصورة البنائية العامة التي تحتفظ في العادة بخصائصها وملامحها الأساسية بدون تغيرات لفترة أطول من الزمان، وهي تتمتع بدرجة عالية نسبيا من الثبات[1].

ويفرق " براون" بين الإستاتيكا والديناميكا، فالإستاتيكا تهتم ببحث طبيعة حالة الأنساق التي تميز كافة الأنساق الاجتماعية. أما الديناميكا فهي تدرس الصور

[1] إبراهيم، عبد الله (٢٠٠١). علم الاجتماع . الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، ص ١٧٤-١٧٥.

الفعلية وتباين حالات الأنساق في العالم وأنماط النظم والتغيير، ومن ثم فإن القضايا التحليلية النظرية لإستاتيكا تمثل موجها لبحوث الديناميكا الاجتماعية.

وقد قبل "راد كليف براون" بالمنظور التطوري الذي صاغه "سبنسر" على أساس أن تطور صور الحياة الاجتماعية العضوية من البسيط إلى المركب، يمكن أن يكون بمثابة فكرة أو أداة تحليلية ذات قيمة بالغة. ومن أهم مزايا هذا المنظور أنه يجعلنا ننظر إلى صور العلاقات الاجتماعية بوصفها تنطوي على عمليات توافقية مع الظروف البيئية، وينطبق ذلك على الأنساق الاجتماعية.

وقد فرق " براون" بين ثلاثة عمليات توافقية رئيسة هي:

١- الأيكولوجية: وتعني التوافق مع البيئة الطبيعية.

٢- النظامية: ويقصد بها تحقيق حالة النظام والاستقرار.

٣- الثقافية: وتشير إلى عملية التنشئة الاجتماعية للأفراد واكتساب الخلق والسلوك اللازم للنظام العام[1].

٣. مفهوم الوظيفية:

مع أن مفهوم النظرية الوظيفية ظهر منذ وقت طويل في الكتابات الاجتماعية لرواد الاجتماع أمثال "دوركايم وسبنسر" وغيرهم. إلا أن " راد كليف براون" بوجه عام قد تقبل تعريف دوركايم لوظيفة النظام الاجتماعي والتي هي:

" التناظر بين هذا النظام وبين حاجات الكائن العضوي الاجتماعي" إلا أنه يرى في الوقت نفسه ضرورة إدخال بعض التعديلات أو التغييرات على ذلك التعريف حتى يمكن إزالة ما يعتريه من غموض وما يلابسه أحياناً من التأويلات. ولذا يقترح "براون" أن تستبدل كلمة "حاجات" التي يستخدمها " دوركايم" بمفهوم " الشروط الفردية للوجود". وإذا كان لا بد من استخدام كلمة حاجات فيجب أن يفهم منها هذا المعنى وحده.

[1] لطفي، طلعت، والزيات، كمال (١٩٩٩). النظرية المعاصرة في علم الاجتماع. القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر.

ويقول " براون" إن أية محاولة لاستخدام مفهوم الوظيفية في العلم الاجتماعي تتضمن الدعوى بأن هناك شروطاً ضرورية لوجود الكائنات العضوية الحيوية، وأن في الإمكان اكتشاف هذه الشروط عن طريق البحث العلمي الملائم[1].

يأخذ "راد كليف براون" الوظيفة الاجتماعية على أنها نصيب النشاط الاجتماعي الجزئي في النشاط الكلي الذي يؤلف هو جزءا فيه. فوظيفة أي ظاهرة من الظواهر أو أي عنصر من عناصر السلوك الاجتماعي هي الذي تؤديه هذه الظاهرة في الحياة الاجتماعية التي تعبر عن النسق الاجتماعي الكلي وتصدر عنه. والمقصود بالنسق الاجتماعي الكلي هنا هو البناء الاجتماعي. وكذلك كل المناشط والممارسات والعادات الاجتماعية التي ينعكس البناء فيها من ناحية ويستمد منها وجوده وكيانه من الناحية الأخرى.

٤. دراسة سكان جزر الأندمان :

يمكن القول أن دراسة " براون" الشهيرة عن سكان جزر الأندمان هي أساس دراسة تستهدف التحقق الواقعي لافتراضات وفروض صاغها دوركايم تتعلق بمفهوم الوظيفة، ولعل أهمها أن وظيفة الطقوس هي تحقيق التضامن الاجتماعي، والإسهام في استمرار المجتمع محافظاً على بقائه وتوازنه.

يقول براون أنه عندما يتصالح طرفان من سكان شمال جزر الأندمان فإنهما يقيمان احتفالاً راقصاً حيث ينقسم الراقصون إلى فريقين يمثل أحد هذين الفريقين مشاهد العداء نحو الطرف الآخر والطرف الآخر يقبل ذلك ولا يظهرون الخوف ولا الحقد إزاء المعاملة التي يلاقونها .... وأخيراً يتلاشى الغضب ويتم التكفير عن المساوئ وتنتهي العداوة.

يعلق على ذلك " براون" أن الغرض من الاحتفال هو إحداث تغيير في مشاعر كل طرف نحو الطرف الآخر. فمشاعر العداء يحل محلها مشاعر الصداقة والتضامن. ويعتمد أثر الاحتفالات على الغضب ومشاعر العداء تختفي عندما يتم التعبير عنها بحرية

[1] أبو طاحون، عدلي (ب د). مرجع سابق، ص ١٤٨- ١٤٩.

فكان الوظيفة الاجتماعية للاحتفال هو عودة حالة التضامن بين الجماعتين المحليتين، راد كليف براون يقول أن هناك عدة مناسبات محددة يتم فيها البكاء الشعائري:

- عندما يتقابل اثنان من الأصدقاء بعد فترة زمنية طويلة من الانفصال.
- في احتفال الصلح أو السلام بعد عداء بين طرفين.
- بعد وفاة احد الأقارب أو الأصدقاء.
- في مناسبات الزواج.
- عند استعادة عظام رجل أو امرأة.

ومن خلال استعراض نظرية " براون" نجد أنها أقرب إلى الواقع باختلاف بعض الآراء التي طرحها عن الأمور الشعائرية في دراسته الشهيرة لسكان جزيرة الأندمان.

أهم الانتقادات التي وجهت له :

تدخل الانتقادات التي وجهت لأطروحات " براون" ضمن الانتقادات التي وجهت لعلماء البنائية الوظيفية. فقد وجه للنظرية الوظيفية مجموعة من الانتقادات لعل أهم هذه الانتقادات هي :

- إهمالهم للصراع والتغير الاجتماعي وتركيزها على التوازن والتكامل، وأثير أيضا انتقادات حول كونها نظرية أصلاً لها طابع متميز وإنما هي طريقة لتحليل النظم والظواهر الاجتماعية.

- نجد " براون" يركز اهتمامه على دراسة المجتمع أكثر من تركيزه على الحضارة نفسها.

- بعض نتائجها قامت على التخمين وذلك مثل دراسة " براون" لسكان جزر الأندمان.

- لم يتفق الوظيفيون حول تحديد مفهوم الوظيفية بطريقة واضحة حيث ركز "براون" على الدور و"مالينوفسكي" على الحاجات أما "بارسونز" فقد ركز على الفعل.

وغير ذلك من مثل هذه الانتقادات التي تجعل النظرية البنائية الوظيفية في شكل تطور من وقت إلى آخر والباحث يسلم بالانتقادات التي دارت حول هذه النظرية لكن

من وجهة نظري إنها نظرية حققت ذيوعا وانتشارا حيث إنها تحولت إلى فكر تميز لعم الاجتماع به من جميع الاتجاهات[1].

الخلاصة:

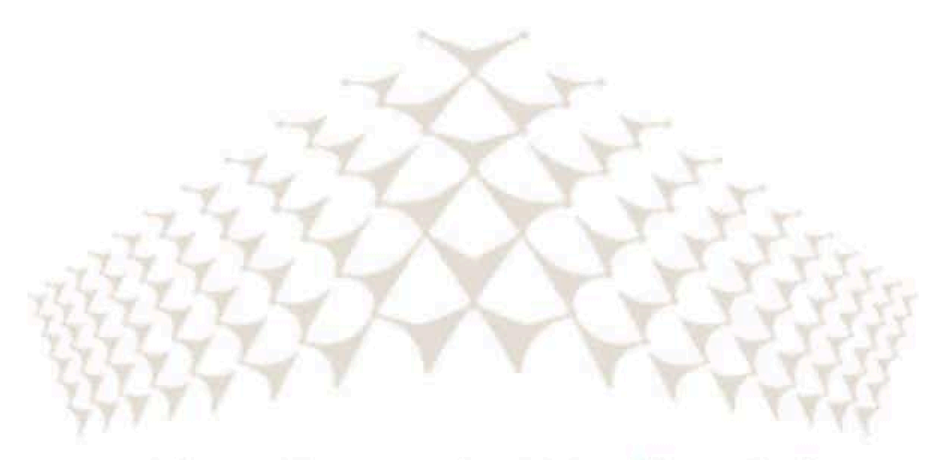
في ضوء ما سبق يمكن تلخيص أهم الأفكار التي جاء بها "براون" من خلال النقاط التالية:

- المجتمع : هو موضوع الدراسة عنده حيث يمكن ملاحظة الظواهر وليس الحضارة كما ركز مالينوفسكي.
- المماثلة البيولوجية : هي أساس تفكير " راد كيف براون" الوظيفي والتي استقاها وطورها في ضوء أفكار وأطروحات العالم " هربرت سبنسر".
- البناء الاجتماعي: وهو عنده شبكة من العلاقات الوظيفية بين الوحدات ويعطي مماثلة بيولوجية.
- المنهج: أن تضع النظريات كفرض تحت الاختبار.
- الوظيفية: هي ما يهتم به الجزء في الكل من أجل استمرار حياة البناء الاجتماعي.
- الفرد والشخص: يفرق براون بين الفرد البيولوجي والعضوي وبين الشخص الاجتماعي.
- الوحدة الوظيفية: فالنسق عنده يعمل في إطار وحدة وظيفية تتصف بدرجة عالية من الانسجام والتماسك[2].

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٤٥٢-٤٥٧.

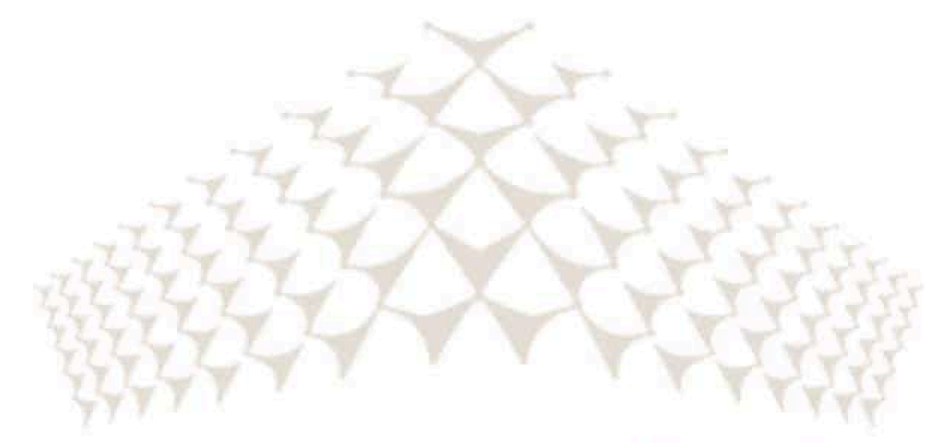
[2] للتعرف على التراث النظري للعالم راد كليف براون، انظر: ليلة، علي (٢٠٠٤). راد كليف براون رائد الأنثروبولوجيا الاجتماعية. الوظيفية. الإسكندرية: المكتبة المصرية للطباعة والنشر.





رابعاً - تالكوت بارسونز: *Talcott Parsons*

- حياته.
- افتراضات بارسونز.
- منهجية بارسونز العلمية.
- المتغيرات النمطية.
- نظرية الفعل الاجتماعي.
- نظرية الأنساق الاجتماعية.
- الاندماج والاستقرار الاجتماعي.
- التوازن والتغير عند بارسونز.



رابعاً: تالكوت بارسونز.Talcott Parsons

(١٩٠٢-١٧٩م) :

حياته:

يعد "بارسونز" أشهر عالم اجتماعي وظيفي في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربي على العموم. وعلى امتداد أكثر من نصف قرن من الكتابة والبحث استطاع بارسونز طبع علم الاجتماع بتحليلاته الوظيفية. كما يعتبر "تالكوت بارسونز" أحد أبرز رواد علم الاجتماع الأمريكي بشكل عام والوظيفي بشكل خاص. ولد عام ١٩٠٢م في ولاية كولورادو الأمريكية في مدينة سبرنغ. ومنحدر من عائلة مدينة ذات ثقافة رفيعة. كان والده قسيساً وبروفيسوراً بروتستانتياً في كنيسة. ورئيساً لعدة كليات جامعية صغيرة. حصل على البكالوريوس عام ١٩٢٤م. ثم ذهب للدارسات العليا في لندن . ذهب لمدينة هايدلبرغ التي كان يعمل بها فيبر ولكن "فيبر" توفي قبل وصوله وظل بارسونز متأثرا بأفكاره . نال الدكتوراه في عام ١٩٢٧ واسم أطروحته "مفاهيم الرأسمالية و نظريات ماكس فيبر ووارنر سومبارت ". عين محاضرا في عام ١٩٢٧ وترجم كتاب فيبر الأخلاق البروتستانتية و روح الرأسمالية ، وثبت كأستاذ جامعي عام ١٩٣٧م . ثم رئيساً لقسم علم الاجتماع عام ١٩٤٤م. أسس قسم العلاقات الاجتماعية عام ١٩٤٦م، ثم أستاذ كرسي عام ١٩٤٦. وظل في منصبه حتى وفاته عام ١٩٧٩م [1]. انتخب رئيساً للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع. منذ عام ١٩٥١م أصبح أبرز الشخصيات في علم الاجتماع الأمريكي. وكانت وفاته علامة على نهاية عصر في علم الاجتماع. وقد تعرف على النزعة الوظيفية في الأنثروبولوجيا أثناء دراسته في مدرسة الاقتصاد العليا بجامعة لندن. وتأثر بفكر فيبر أثناء دراسته في جامعة هيدلبرج. فقد كانت رسالته في مجال علم الاجتماع والاقتصاد. وقد سعى بارسونز لصياغة نظرية عامة عن المجتمع، تستند على أن الإنسان فاعل يصنع القرار. وأن المجتمعات تتصف بخصائص عامة فبالإمكان تطبيق نظريات تطبق على كل المجتمعات وتفسر نموها وتطورها .

---

[1] العمر ، معن (٢٠٠٠). معجم علم الاجتماع المعاصر . عمان: دار الشروق.

ومن أهم كتبه: كتاب بناء الفعل الاجتماعي ١٩٣٧م. وكتاب النسق الاجتماعي ١٩٥١م. وكتاب نحو نظرية عامة في العقل ١٩٥١م. وكتاب أنساق المجتمعات الحديثة ١٩٧١.[١]. بالإضافة إلى عدة مقالات ذات التأثير القوي في علم الاجتماع[٢].

افتراضات بارسونز:

-يعبر البناء الاجتماعي عن عدد من الوظائف الرئيسة. وتتكون هذه الوظائف من التكامل والمحافظة على النمط وإدراك الهدف والتوافق.

-مستوى الاكتفاء الذاتي في مختلف البيئات هو الأساس الذي يقوم عليه المجتمع .

-المحور الأساس للمجتمع يميل لتحقيق التوازن أو المحافظة على الاتزان.

-لا ينظر للنسق بأنه جامد بل يمتلك القدرة على التطور وتتكون العمليات الأساسية التي تهدف لتحقيق التطور من:

١- التباين: والذي يشير إلى زيادة تقسيم العمل وتخصص الأبنية الوظيفية.

٢- التوافق: والذي يشير إلى تزايد حرية الوحدات الاجتماعية واستقلالها عن محدودية الموارد.

٣- اندماج الأبنية الجديدة في النسق المعياري وتعميم القيم: والتي تشير إلى تطور أنساق القيم إلى أعلى مستويات العمومية من أجل المحافظة على التكامل أثناء التطور.

---

[١] عرابي ، عبد القادر (٢٠٠٠) مرجع سابق، ص ١٧٦ .

[٢] للتعرف على الدور المهم للعالم تالكوت بارسونز في النظرية الاجتماعية راجع كتاب: بوتو مور (١٩٨٥). علم الاجتماع : منظور اجتماعي نقدي. ترجمة عادل الهواري، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ص ٣٥-٥٤. وكذلك: محمد، عارف (١٩٨٢). تالكوت بارسونز رائد الوظيفية المعاصرة في علم الاجتماع. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. وكذلك" جي روشيه (١٩٨١). علم الاجتماع الأمريكي دراسة لأعمال تالكوت بارسونز. ترجمة محمد الجوهري وأحمد زايد، القاهرة: دار المعارف.

- الثقافة المسيحية هي الدافع الأول وراء عملية تطور المجتمع الحديث، وأن تطور المجتمع يتحقق أثناء تقدمه في مراحل تاريخية ليصل إلى أمريكا الحديثة كما نراها اليوم[1].

منهجية بارسونز العلمية:

- المواءمة بين المنهج النظري والأحكام الحقيقية الإمبيريقية التي اختيرت لإثبات صحة التفسير النظري وعندما تجمع هذه النقاط سويا يصبح في الإمكان النظر إلى منهج "بارسونز" باعتباره استدلالاً لصيغ العلاقات الاجتماعية.
- يقوم هذا الاستدلال على التاريخ والمماثلة البيولوجية، وتعززه المضاهاة بين الفكر النظري والحقائق الإمبيريقية .
- من هنا يصل لصياغة محكمة للنموذج البنائي الوظيفي في المجتمع استنادا على الاستدلال التاريخي والمنطقي الذي يقوم على قبول التعريف البيولوجي للحقيقة الاجتماعية [2].

المتغيرات النمطية:

أبرز البعض إسهامات " بارسونز" بالنسبة للنظرية الوظيفية وحصرها في فكرته عن البدائل النمطية ، التوجيهات القيمية والتي تنحصر في متغيرات النمط الخمس والمتمثلة في :

١ ـ الوجدانية في مقابل الحياد الوجداني: حيث يعتبر النمو وجدانياً إذا كان تتيح الإشباع المباشر لحاجة الفاعل بينما يعتبر محايدا من الناحية الوجدانية إذا كان يفرض النظام ، ويتطلب التخلي عن الخاص ، عن الخاص من أجل مصالح الآخرين.

٢ـ المصلحة الذاتية في مقابل المصلحة الجمعية: فقد تعتبر المعايير الاجتماعية أنه من المشروع سعي الفرد وراء مصالحه الخاصة أو تجبره على العمل من أجل مصالح الجماعة .

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٨٩-٩٠.

[2] جراهام، كينلوتش (١٩٩٠). مرجع سابق .

٣ـ العمومية مقابل الخصوصية: ويشير المتغير الأول إلى مستويات القيمة التي على درجة كبيرة من العمومية بينما يشير الثاني إلى المستويات التي لها دلالة لفرد معين في علاقات معينة مع أشخاص معينين .

٤ـ الأداء في مقابل النوعية: وكان "بارسونز" يسميها أولا الوراثة في مقابل الاكتساب ويعني بها تلك المعالجة الأولية لشيء على أساس ماهيته في حد ذاته أي حقيقة مواصفات الشيء ، أو أن يكون الفعل على أساس تحقيق أهداف معينة موضوعة وهذا هو الأداء .

٥ـ التخصص في مقابل الانتشار: فيمكن أن تعرض مصلحة ما على وجه التخصيص ، بحيث لا يكون هناك ثمة إلزام أبعد من تلك الحدود المرسومة أو تعرف بشكل عام بحيث لا تتجاوز الالتزامات حدود التعريف الظاهر الذي يفترض وجوده.

ويعتقد "بارسونز" أن الفاعل يهدف الوصول إلى أكبر إرضاء والفروض من الناحية الواقعية لا يمكن أن يرغب في الحصول على كل شيء ، ولذلك لا بد من أن يقف محايدا إزاء بعض الأشياء ، ومن تحليله لهذه البدائل النمطية استطاع أن يصل إلى فكرته عن متغيرات النمط الخمس والتي ترتبط بنظرية الأنساق لبارسونز ، كما أن "بارسونز" أوضح أيضا وظيفة البناءات، فذهب إلى أن التحليل البنائي الوظيفي يتطلب معالجة منظمة لأدوار ومراكز الفاعلين في موقف اجتماعي معين وبالإضافة إلى معالجة النظم الاجتماعية المتضمنة لها.

ويشير المركز على مكان الفاعل في نسق علاقات اجتماعية ينظر إليها باعتبارها بناء والدور رغم ارتباطه بالمركز إلا أنه بمثابة الوجه الدينامي له ، كما أنه يشير إلى سلوك الفاعل في علاقته بالآخرين، أما الأنماط النظامية في التوقعات النمطية أو البنائية فهي التي تحدد السلوك الثقافي المناسب للأشخاص الذين يقومون بأدوار اجتماعية متعددة ومختلفة[1].

---

[1] جبي وشيه (١٩٨١). علم الاجتماع الأمريكي دراسة لأعمال تالكوت بارسونز . ترجمة محمد الجوهري وأحمد زايد، القاهرة: دار المعارف.- وكذلك : إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٧٦-٧٧.

نظرية الفعل الاجتماعي :

يؤلف الفعل الاجتماعي عند " بارسونز" الوحدة الأساسية للحياة الاجتماعية، ولأشكال التفاعل الاجتماعي بين الناس، فما من صلة تقوم بين الأفراد والجماعات، إلا وهي مبنية على الفعل الاجتماعي، وما أوجه التفاعل الاجتماعي إلا أشكال للفعل التي تتباين في اتجاهاتها وأنواعها ومساراتها، ولهذا يعد الفعل عنده الوحدة التي يستطيع الباحث من خلالها رصد الظواهر الاجتماعية وتفسير المشكلات التي يعاني منها الأفراد، وتعاني منها المؤسسات على اختلاف مستويات تطورها.

وكان " بارسونز" تواقاً إلى تمييز نظرية الفعل عن النزعة السلوكية. فهو استخدم مصطلح " الفعل" لأن له دلالة تختلف عن دلالة مصطلح " السلوك". فالسلوك يعني الاستجابة الآلية للمثير، في حين يدل الفعل على عملية ذهنية إبداعية مفعمة بالنشاط. وأوضح " بارسونز" أن نظرية الفعل لا يمكنها أن تفسر الأبنية والنظم الاجتماعية تفسيراً ملائماً، مع أنها تستطيع البحث في أهم صور الحياة الاجتماعية.

والفعل الاجتماعي بالتعريف هو" سلوك إرادي لدى الإنسان لتحقيق هدف محدد، وغاية بعينها، وهو يتكون من بنية تضم الفاعل بما يحمله من خصائص وسمات تميزه من غيره من الأشخاص. وموقف يحيط بالفاعل ويتبادل معه التأثير . وموجهات قيمية وأخلاقية تجعل الفاعل يميل إلى ممارسة هذا الفعل أو ذاك، والإقدام على ممارسة هذا السلوك أو غيره" . ولهذا يلاحظ أن "بارسونز" يدرس الفعل الإنساني بوصفه منظومة اجتماعية متكاملة، يسهم كل عنصر من عناصرها في تكوين الفعل على نحو من الأنحاء، وهي مؤلفة من أربع منظومات فرعية تتدرج من المنظومة العضوية إلى المنظومة الشخصية، فالاجتماعية فالثقافية والحضارية.

وفي حين تحدد المنظومة العضوية الخصائص العضوية للفاعل، تتحدد من خلالها حاجاته وإمكاناته، وقدراته، ولا يستطيع المرء أن يمارس الفعل الاجتماعي إلا في الحدود التي تسمح بها عضويته، ومكوناتها .وتختلف عن ذلك المنظومة الشخصية التي تحمل قدراً كبيراً من الخصائص التي تميز الفاعلين من بعضهم بعضاً بما أوتوا من تفاضل في القوة والتأثير والقدرة على تحمل المصاعب، وغير ذلك من الصفات التي تجعل الأفراد يتفاوتون أيضاً في قدراتهم على ممارسة الفعل الاجتماعي الواحد. أما

المنظومة الاجتماعية في الفعل فتنطوي على نظم التفاعل والروابط التي يقيمها الناس بين بعضهم بعضاً، ويستطيعون من خلالها ممارسة الفعل على النحو الذي يصيرون فيه قادرين على ممارسة الفعل، فهم يتوزعون المواقع الاجتماعية التي تتيح لكل منهم ممارسة الفعل على نحو مختلف تبعاً للموقع الاجتماعي الذي يشغله في بنية المنظومة الاجتماعية، فالمرء لا يستطيع أن يمارس الأفعال الاجتماعية إلا في الحدود التي تسمح بها المواقع والمهام التي يشغلها في بنية التنظيم.

وتأتي المنظومة الحضارية والثقافية في أعلى مستويات منظومة الفعل، حيث تنطوي على القيم والأخلاق والمبادئ العامة التي توحد تنوعات المنظومة الاجتماعية، ومنها يستقي الأفراد المعاني والدلالات التي تنطوي عليها الأفعال، ومن خلالها يستطيع المرء أن يميز أشكال الفعل، ويحكم على صلاحيتها بالنسبة إلى ثقافته وحضارته.

وتبرز وحدة المجتمع بوحدة المنظومة الثقافية والحضارية التي تؤلف مصدر تقويم الأفعال وتوجيهها، وبفضل وحدة المنظومة الثقافية أيضاً يتحقق للتنظيم الاجتماعي توازنه واستقراره، وليس من اليسير أن تتغير معالم المنظومة الثقافية بين عشية وضحاها، بل تتأكد من خلالها شخصية التنظيم الاجتماعي وهويته، ومن خلالها يظهر التباين بين المجتمعات الإنسانية والحضارات المتعددة .

ويشير "بارسونز" إلى جملة من الآليات (الضوابط) التي تسهم في حفظ النظام وتوازنه مع اختلاف الزمن والمراحل التي يمر بها التنظيم الاجتماعي، ومن ذلك التنشئة الاجتماعية التي يُلَقّن من خلالها الفرد، منذ صغره، القيم والمعايير الثقافية التي يعود لها الفضل في ضبط السلوك وأشكال الفعل وتوجيهها. كما يعود استقرار التنظيم الاجتماعي وبقاؤه إلى قدرته على التكيف مع التغيرات التي تطرأ على تفاعله مع المحيط، وتلبية الحاجات التي تدعو إليها عمليات التغيير، وخاصة بالنسبة إلى كل مكون من مكونات التنظيم، وبذلك يحقق التنظيم الاجتماعي وظيفتين بآن واحد، تكيفه مع البيئة المحيطة به من جهة، وتكامل مكوناته من جهة أخرى .

وتسهم نظرية الفعل الاجتماعي التي عمل" بارسونز" على تطويرها في توضيح الكثير من القضايا الاجتماعية، مما جعل هذه النظرية تأخذ موقعاً متقدماً في دراسات علم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي معظم دول العالم، ولا سيما الدول

الأوربية، بالنظر إلى ما تحتويه من قدرات تحليلية تمكن الباحث من معالجة الكثير من القضايا الاجتماعية وقضايا علم الاجتماع .

مكونات الفعل الاجتماعي :

أولا : الفاعل : دور الفاعل باعتباره الفرد الواعي الذي يقوم بأداء الفعل عن طريق استخدامه لفعله وذاته ، وإن يتم اتخاذ القرار بصورة واعية وتترجم في عدد من التصرفات أو السلوك العقلاني .

ثانياً : الموقف : يعتبر نوع من الظروف التي يكون فيها الفاعل مجبراً لاتخاذ قرار يتم اختياره بنفسه ، ويترجم ذلك في مجموعة الأدوار الوظيفية التي يقوم بها الفرد في حياته اليومية ، أو الجماعات داخل النسق أو النظام الذي توجد فيه .

ثالثا: توجيهات الفاعل : فلقد ميز بارسونز بين نوعين من التوجيهات :

١ - التوجيهات الدافعية : ويتضمن هذا النوع من التوجيهات مجموعة من الجوانب التي توجه الفاعلين للقيام بأعمال أو أفعال أو سلوكيات تجاه الموقف الذي يواجههم ، وذلك من أجل إشباع حاجاتهم أو متطلباتهم الفردية أو الجمعية أو النسقية وينقسم هذا النوع من التوجيهات إلى ثلاث أقسام فرعية وهي :

- التوجيهات الإدراكية .
- التوجيهات الانفعالية .
- التوجيهات التقويمية .

٢ - التوجيهات القيمية: ويعكس هذا النوع من التوجيهات عدد من المعايير والقيم التي يؤمن بها الفرد ويعتنقها من خلال مجموعة المعتقدات والأعراف والتقاليد التي توجد في النسق أو البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها .

سعى "بارسونز" إلى تقسيم التوجيهات القيمية إلى ثلاث أنواع فرعية :

- التوجيهات المعرفية.
- التوجيهات التقديرية.

▪ التوجيهات الأخلاقية [1].

وصنف "بارسونز" الفعل الاجتماعي إلى ثلاثة أنواع هي :

١. الفعل التمهيدي (التهيئي) : أي التصرف الذي يتوجه نحو إنجاز هدف أولي لكي يساعد الفاعل على تحقيق هدف أكبر وأثمن من الأول . بتعبير آخر، إنه تصرف أولي يكون ممهداً للقيام بتصرف أكثر مراداً وأهمية بالنسبة للفاعل .

٢. الفعل التعبيري : أي التصرف الذي يحقق الهدف الأكثر مراداً وثمناً يأتي بعد تحقيق الفعل التمهيدي .

٣. الفعل المعنوي: إي التصرف الذي يعكس مصالح الفاعل الذاتية والقيمية والثقافية[2].

تبرز نظرية الفعل الاجتماعي اتجاهات "بارسونز" وتأثره بأفكار من درس لهم، ولكن وفق صياغة جديدة، فكانت تعبيرا عن ثلاثة اتجاهات دراسية تبلورت لديه وهي :

• التفكير النفعي : الذي ينمو بالفعل الإنساني إلى الانقسام والتجزئة والاختيار الحر القائم على المنعة .

• التفكير الوضعي : وهو يعالج السلوك في ضوء القوانين العلمية ، ويرفض فكرة التوزيع العشوائي للغايات لأنه يرفض النفعية .

• التفكير المثالي : فيفسر ظواهر الفعل انطلاقاً من قيم المجتمع التي هي رموز ثقافية مشتركة.

وفي رأي المثاليين أنه من الصعب أن نفسر السلوك تفسيراً جزئياً ، لأن فهم السلوك يستلزم الإحاطة بكل جوانب الموضوع ، وذلك الفهم لا يكون إلا بمنهج ذا طابع كيفي تاريخي فلسفي يؤدي إلى عالم المعاني أو المُثُل . وقد جاء تصور "بارسونز" للفعل الاجتماعي متأثرا بهذه الاتجاهات الفكرية الثلاث ولكن وفق صياغة جديدة

---

[1] عبد الرحمن ، عبد الله . (٢٠٠٦) النظرية في علم الاجتماع . القاهرة: دار المعرفة الجامعية . ص٣٦- ٣٧.

[2] عمر ، معن (١٩٩٧) . مرجع سابق . ص ٨٥.

وفقت بين آراء هذه الاتجاهات ، وأكدت على أهمية التنظيم الاجتماعي في ضوء معايير وقيم ، وعن طريق التنشئة الاجتماعية السليمة [1].

نظرية الأنساق الاجتماعية:

إن أكبر إسهام جاء به " بارسونز" في علم الاجتماع هو تركيزه في التحليل الاجتماعي على المجتمع بشمولية. ويرى " بارسونز" أن هذا التركيز يساعد عالم الاجتماع على تحاشي الاهتمام بدراسة مواضيع معزولة مثل جنوح الأحداث أو المشكلات العائلية. ويعتقد أنه يجب دراسة تلك القضايا في إطار عمل النسق الاجتماعي بصفة عامة.

ويلاحظ " بارسونز" أن الرؤية الوظيفية تبدأ من الكلي وتتجه نحو الأحداث . فعندما نرى جزئية في المجتمع فإننا سنحاول تفسيرها وليس العكس بأن نفسر المجتمع من خلال جزئياته. وفي توجهاته النظرية يتشابه " بارسونز" مع " كارل ماركس" في هذه النقطة بالذات. أي أن كلاً منهما يركز تحليله على المجتمع ككل وهذا واضح في كتابات كارل ماركس الذي انطلق من المجتمع في طبيعته ، من الناس ومن المجتمع ككل . لذا نرى " بارسونز" أيضا يتبنى منهج " ماركس" الذي انطلق من الكل لتحليل الجزئيات .

حاول " بارسونز" أن يطرح عدة تعاريف حول النسق الاجتماعي وربما كان أوضحها تعريفه التالي الذي يرى فيه أن النسق الاجتماعي عبارة عن فاعلين أو أكثر يحتل كل منهم مركز أو مكانه اجتماعية متميزة عن الآخر ويؤدي دوراً متميزاً (فهو عبارة عن نمط) منظم يحكم العلاقات بين الأفراد وينظم حقوقهم وواجباتهم تجاه بعضهم البعض كما أنه يعتبر إطار من المعايير أو القيم المشتركة بالإضافة إلى أنه يشتمل على أنماط مختلفة من الرموز والموضوعات الثقافية المختلفة[2] .

وتفسر نظرية الأنساق العامة ذلك بأنه لا يمكن فهم النسق موضوع الدراسة إلا في ضوء تحليل العلاقات بين مكونات ذلك النسق (أي الأنساق الفرعية التي يتكون

---

[1] مرسي ، محمد (١٩٨٥). علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي : دراسة تحليلية نقدية . القصيم: مكتبة العليقى الحديثة . ص ٧-٨.

[2] عبد الرحمن ، عبد الله (٢٠٠٦). مرجع سابق . ص ٢٧ .

منها) من جهة، وفي ضوء تحليل علاقات النسق مع البيئة والأنساق العليا التي تؤدي وظائفها في نطاقها من جهة أخرى، مع التأكيد على فكرة الاعتماد المتبادل، والتأثير والتأثر بين مختلف مستويات الأنساق بكل مستوياتها صعوداً وهبوطاً. حيث أوضح "بارسونز" أن الحياة البشرية تقوم على التأثير والتأثر المتبادل بين المستويات التالية من الأنساق:

١- الأنساق الثقافية: ووظيفتها الأساسية الحفاظ على القيم الأساسية.

٢- الأنساق الاجتماعية: ووظيفتها الأساسية تحقيق التكامل والنظام في الحياة الاجتماعية.

٣- الأنساق الشخصية: ووظيفتها الأساسية تحقيق الأهداف في البيئة الاجتماعية.

٤- الأنساق العضوية: ووظيفتها الأساسية تكييف الحياة الإنسانية مع البيئة الطبيعية[1].

وفي تفصيل وظائف الأهداف الاجتماعية وفق الأنساق الرئيسة لها في الحياة الاجتماعية، جاء تحديد تلك الأهداف وفقا لما يلي:

الأنساق الفرعية	وظيفة النسق
الاقتصادي	تحقيق النظام
القانوني	الضبط والحفاظ على المعايير
السياسي	تحديد وتوجيه الأهداف
التنشئة الاجتماعية	التكيف وخفض التوترات

ونوضح تلك الوظائف وفقاً لما يلي:

١-الوصول إلى الهدف: أي فاعلين بداخل أي نسق اجتماعي يسعون إلى تحقيق أهداف، وإلا ما كان هناك نسق أصلا، ومع أن الفاعلين يشغلون مراكز اجتماعية مختلفة، ويؤدون أدوارا مختلفة، إلا أن هناك أهدافا جمعية يجب السعي إليها ، والعمل

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٩٠-٩٦.

على تحقيقها، وعن طريق تنظيم المراكز وتحديد الأدوار داخل كل جماعة ، ومن خلال توضيح الوسائل والغايات يتجه النسق الاجتماعي نحو تحقيق أهدافه التي رسمها لنفسه .

٢-التكيف: ويقصد به أن كل نسق فرعي داخل نسق أكبر (بناء جزئي داخل بناء اجتماعي كلي) عليه أن يخضع ظروف البيئة الاجتماعية والمادة لمشيئته ، ويسيطر عليها، حتى يمكنه أن يستمر فيها ويحقق أهدافه، وكذلك يجب أن تتكامل وظيفة النسق الاجتماعي الفرعي (البناءات الاجتماعية الأقل) مع وظيفة النسق الاجتماعي الأكبر، كما ينبغي ألا تتعارض وظيفة أي نسق فرعي مع أهداف أي أنساق فرعية أخرى .

٣-التكامل: ويعنى بالتكامل العلاقات التي تتم داخل النسق الاجتماعي بالذات، وهو يرى أن دراسة العلاقات الداخلية بين أفراد النسق ذات منظور سسيولوجي أصيل، وذلك لأن العلاقات الإنسانية تختلف عن العلاقات بين الكائنات الحيوانية والحشرية الأخرى. فمجتمع الحشرات مثلا يشترك مع المجتمع الإنساني في وظيفة تحقيق الهدف وفي وظيفة التكيف - فالحشرات لها تنظيم اقتصادي (إنتاج وتوزيع واستهلاك) كما تعمل على استمرار النوع، وأيضاً تتكيف الحشرات مع البيئة الخارجية بما فيها من حرارة ورطوبة وظلمة ونور وتضاريس .

٤-دعم النمط وإدارة التوتر: وهو يركز على الأسرة كنسق اجتماعي في التنشئة الاجتماعية حيث تقوم بتعليم الأطفال وتقبلهم للصيغ الفكرية والقيمية المميزة لنسق الثقافة مما يحقق التكامل المعرفي للفاعل مع القيم والمعايير والأبنية الاجتماعية للنسق، كما أن الأسرة تساعد أفرادها على التعبير عن توتراتهم وتستجيب لمطالبهم، وبذلك تخفف من التوترات ويترتب على ذلك أنها تساعد أعضاءها على أداء وظائفهم بقدر أكبر من الفاعلية وتساند الأسرة تنظيمات أخرى متخصصة ينشئها المجتمع لنفس الغرض وتحقيق وظيفة دعم للنسق الاجتماعي بحيث يكون الفاعل متكيفا ومتكاملا تماما مع بناء النسق[1] .

---

[1] مرسي ، محمد (١٩٨٥). مرجع سابق . ص ٩- ١١

تحليل وظائف الأنساق الاجتماعية الفرعية:

عند تحليل الوظائف الأربعة لأنساق المجتمع الفرعية نجد أن "بارسونز" ميز من خلالها بين أنساق أربعة :

١- النسق الاقتصادي: ويشتمل على مجموعة الأنشطة الخاصة بالإنتاج والتوزيع، يحقق وضيفة التكيف أي أنه يمكن المجتمع من خلال عملية تنظيم الإنتاج من أن يتكيف مع البيئة ويسيطر عليها لكي يستمر في الوجود .

٢- النسق السياسي: ويشتمل على مجموعة الأنشطة التي تتصل باتخاذ القرارات وتعبئة الموارد ، فيحقق وظيفة تحقيق الهدف أي أنه يرسم للمجتمع أهدافه ويعمل على تعبئة المواد الممكنة لتحقيق هذه الأهداف .

٣- الروابط المجتمعية (القانوني): وهي مجموعة النظم التي تعمل على إقامة علاقات متبادلة بين الأفراد والجماعات وجعلهم يحققون درجة عالية من التضامن مثل القانون والدين والنظم القضائية وكل المؤسسات التي تجمع الناس على أهداف معينة ، تحقق وظيفة التكامل أي أنها تفرض التنسيق اللازم لاستمرار المجتمع بدون كثير من الفوضى .

٤- التنشئة الاجتماعية: التي تقوم بوظيفة المحافظة على نمط المجتمع . فعن طريق التنشئة الاجتماعية يتم نقل ثقافة المجتمع إلى الأفراد الذين يستدمجونها وتصبح عاملا هاما في خلق الدفاعية للسلوك الملتزم .

وترتبط هذه الأنساق الأربعة بعلاقات اعتماد متبادل . فكل نسق فرعي من أنساق المجتمع يهدف إلى تحقيق وظيفة تعد مستلزم أساسي للنسق ككل إذا غابت ينهار النسق ويجعل الأداء الوظيفي لبقية الأنساق الفرعية . فالاقتصاد مثلا والذي يسعى لتحقيق التكيف مع البيئة من خلال تنظيم عمليات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك لا يستطيع أن يؤدي وظيفته دون النسق السياسي الذي يرسم الأهداف وينظم الأساليب التي من خلالها يتم توزيع الموارد وتعبئتها وكلاهما لا يمكن أن يؤدي وظيفته دون التأثير الذي تمارسه الروابط المجتمعية ودون وجود الملتزمين الذين تخلقهم التنشئة الاجتماعية[1] .

---

[1] زايد ، أحمد . (١٩٨٣) . علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية . القاهرة: دار المعارف، ص ١٢٤- ١٢٥

وظائف بعض الأنساق الاجتماعية:

لقد عالج " بارسونز" بعض المؤسسات المحددة كالأسرة والاقتصاد والدين والحكومة ليبين كيف يساهم كل منها في الاستقرار الاجتماعي. ولو أخذنا الأسرة كنموذج لدراساته ووظيفتها في الاستقرار الاجتماعي، نجد أن "بارسونز" أوضح أن للأسرة النووية الأمريكية وظيفتين هما :

١. التنشئة الاجتماعية للأجيال الجديدة ، فلكي يقع دمج هذه الأجيال بالمجتمع الكبير ينبغي عليها أن تتعلم القيم الاجتماعية والثقافية والأنشطة والمهارات الاجتماعية لمجتمعها.

٢. تعمل الأسرة النووية بنظر بارسونز على تمكين شخصية الكهول من الاستقرار. فالعمل والعلاقات الخارجية عن الأسرة في المجتمع يمكن أن تكون صعبة ومصدراً للضغوطات على الأفراد والكهول ومن ثم يعتقد "بارسونز" أن وظيفة الأسرة الحديثة تتمثل في التقليل من درجة التوتر الناتج عن المحيط الخارجي للأسرة. وهكذا تحافظ الأسرة النووية على توازن واستقرار شخصية الكهول وهو ما لم تعد توفره الأسرة الممتدة في المجتمع الصناعي[1].

وتترتب مشكلات المحافظة على النمط والتحكم في التوتر ، والعمل على التكامل بين أفعال الأعضاء ، تترتب على الحقيقة التي مؤداها أنه يوجد هناك دائما أكثر من شخص واحد في النسق الاجتماعي ، وبعبارة أخرى من المعترف به أن التفاعل الاجتماعي ذاته يثير مشكلات من داخل المجتمع . وهاتان المشكلتان ينظر إليهما على أنهما يتعلقان بالجوانب التعبيرية إلى حد كبير ، بمعنى المحافظة على القيم الاجتماعية وضبط التغيرات الانفعالية ، وعلى أن مجتمع لكي يحل هذه المشكلات ويحافظ بالتالي على وجوده أن يوفر أربعة سمات بنائية رئيسية ، وهذه السمات البنائية في نظر بارسونز تتمثل في الأنساق الفرعية الرئيسية المتعلقة بالاقتصاد والسياسة والقرابة والتنظيمات الثقافية والمحلية .

---

[1] للتوسع في نظرية بارسونز انظر: مرسي، محمد (١٩٨٥). مرجع سابق. وكذلك: محمد، عارف (١٩٨٢). تالكوت بارسونز رائد الوظيفية المعاصرة في علم الاجتماع. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. وكذلك: عرابي، عبد القادر (٢٠٠٠). مرجع سابق، ص ١٧٨- ١٩٢.

وتؤدي النظم القرابية وظائف المحافظة على الأنماط المتوقعة للتفاعل الاجتماعي وتساعد على ضبط التوترات الشخصية المتبادلة إلى حدٍ كبير من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، والواقع أن عملية التنشئة الاجتماعية هي التي تشكل شخصيات من يلعبون الأدوار بالدافعية الكافية والالتزام بقيم المجتمع . أما النظم الثقافية والمحلية مثل الدين المنظم والتعليم ووسائل الاتصال فهي تقوم بوظيفة العمل على التكامل بين العناصر المتباينة في النسق الاجتماعي . وهذه النظم بإمكانها أن تشكل القيم الاجتماعية وتعمل على تدعيمها في الوقت نفسه ، وقد تكون هذه النظم في حاجة إلى مساعدة تتلقاها من الهيئات الرسمية الخاصة بالضبط الاجتماعي ، مثل قوة البوليس والجيش أو من نظم قانونية خاصة بالمحاكم والتشريع خاصة إذا اتضح عدم كفاية هذه النظم الثقافية .

ويتأثر الشكل الخاص الذي تأخذه هذه الأنساق البنائية الفرعية أو النظم في أي مجتمع بنسق القيم الخاص بهذا المجتمع وكان "بارسونز" متأثرا إلى حدٍ كبير بأعمال دور كايم ، لأن كلاً منهما كان يعتبر المجتمع في أساسه بمثابة كيان أخلاقي ، وعندما يشير بارسونز إلى بناء المجتمع بمعنى البناء الاجتماعي ، فإنه يشير إلى البناء المعياري بمعنى أنه يشير إلى بناء التوقعات الذي يتجسد في عملية لعب الأدوار وكل الأنساق النظامية الفرعية مثل القرابة والاقتصاد والسياسة المشار إليها سلفا تتكون من أدوار .

الاندماج والاستقرار الاجتماعي:

إن علماء الاجتماع الوظيفيين الذين ساروا على مدرسة "بارسونز" جعلوا من الاستقرار والتوازن الاجتماعي الهدف النهائي للتحليل الاجتماعي. وهذا يعني أنهم يركزون في المقام الأول على الظروف التي تؤدي إلى علاقات اجتماعية متلاصقة وإلى الإدماج السهل للعديد من الأجزاء المفصولة في المجتمع وترتيبها في وحدة مترابطة .

فتحليل "بارسونز" يفيد بأن تركيبة المجتمع الأمريكي تتكون من [فئات بيضاء وسوداء وأسيوية وأمريكية لاتينية] ومداخيل مختلفة [أغنياء، وفقراء، متوسطي الدخل ومتدينين]. وفئات عمرية مختلفة [كهول، شيوخ، أطفال ...الخ] . ويتساءل "بارسونز": كيف تستطيع هذه الفئات المتباينة أن تتضامن مع بعضها بطريقة متناسقة نسبيا دون أن يذهب كل في طريقه بحيث تكون النتيجة الصراع الخطير؟

هذا التساؤل يطرح في واقع الأمر قضية " التآلف " عند دوركايم أو ما يعرف بالتضامن الآلي في المجتمعات البدائية والتضامن العضوي في المجتمعات الحديثة. هذا هو ما يشدد عليه بارسونز الذي يعتقد أن التحليل الوظيفي يؤكد أنه رغم التباينات والاختلافات والفروقات فإن المجتمع يؤمن لنفسه الاستقرار وبالتالي ينبغي ألا نتخوف من تنوع التركيبة المجتمعية ، فثمة نوع من الإدماج الذي يتكون من أجزاء تترابط بفعل عوامل اللغة مثلاً. فاللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية وكل شخص يحضر إلى الولايات المتحدة عليه واجب تعلم اللغة الإنجليزية .

رفض "بارسونز" تبسيط "ماركس" للصراع الاجتماعي واختزاله إلى الصراع الطبقي فقط، مؤكدًا أن الروابط المهنية والقومية تحمي المجتمع من الصراع وتمثل الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة لبارسونز أكثر البلدان تقدمًا من الناحية الاقتصادية لأنها أكثر البلدان تقدمًا في الصناعة وهي كذلك بسبب أصولها البروتستانتية وروحها الديموقراطية وتطور بنائها الرأسمالي، فرأسمالية اليوم ليست الرأسمالية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، لقد تكيفت مع بعض المتطلبات التي ساعدت الرأسمالية ذاتها في خلقها فالرأسمالية الأمريكية بصفة خاصة لم تعد رأسمالية أفراد أو شركات تملكها عائلات كبيرة بل إنها تضم الآن شركات إدارية واسعة النطاق خاصة في المجالات الرئيسية للإنتاج الصناعي[1].

واعتبر "بارسونز" التنظيم البيروقراطي وما يصاحبه من النمو المهني للقوة العاملة هو الشكل الجديد والضروري للإنتاج ليس فقط في مجال الصناعة وإنما في مجال التجارة والمال أيضًا وبصورة متزايدة في قطاع الخدمات، ويساعد النمط البيروقراطي الرأسمالي الأفراد ذوي الخبرات المهنية الضرورية على السيطرة في مجال الأعمال، ولقد تطورت الرأسمالية في الولايات المتحدة نحو هذا الشكل الجديد بصورة أسرع وأعمق في تطورها في أي مكان آخر وبهذا استفاد النشاط الاقتصادي الأمريكي من فائض من المهارات لم تعد الأعمال المرتبطة بالأسرة قادرة على توفيره بنفس الدرجة، وتنحصر الفائدة التي جنتها الرأسمالية الأمريكية عندما تحركت نحو الاعتماد على الشركات

[1] جي روشيه (١٩٨١). مرجع سابق.

الكبرى ذات المسئولية المحدودة في أنها تزودت بدم جديد حيث استعادت روح الاختراع وحب المخاطرة والإنجاز[1].

ومن الأسس التي ترتكز عليها الديموقراطية الليبرالية ما أطلق عليه "بارسونز" (التعددية) Pluralism والتي يقصد بها الاعتراف الرسمي أو شبه الرسمي بتنوع المصالح التي تشكل مجتمعا حديثًا كالمجتمع الأمريكي، فالصراع بين جماعات الضغط يمثل جانبًا جوهريًا لهذا النمط من المجتمع، فهو يضفي على الرصيد الثقافي والاقتصادي ضربًا من الدينامية والحيوية ويتعارض تحليل بارسونز هنا مع ما ذهب إليه س. رايت ميلز الذي رأى أن القوة في المجتمع الأمريكي تتركز في أيدي فئة قليلة أطلق عليها صفوة القوة، وطبقًا لما ذهب إليه بارسونز فإن الصورة التي قدمها (رايت ميلز) للمجتمع الأمريكي بها قدر من التبسيط لموقف أكثر تعقيدًا في الواقع. لقد نظر ميلز إلى المجتمع على أنه يقوم على تحكم القلة Monobithic في الوقت الذي يجب أن نؤكد بدلاً من ذلك على تعدد جماعات المصلحة، وتعدد مصادر التأثير والقوة والسلطة، فمواضع صنع القرار في المجتمع الليبرالي التعددي متعددة ومنتشرة على نطاق واسع، وهناك فرصة أمام جماعات الضغط لتتكون وتتعدد كما يرى بارسونز (النزعة الفردية الملتزمة بالنظم القائمة) والتي تمثل بالنسبة له الخاصية السائدة في المجتمع الأمريكي وهو يقصد بهذا المفهوم البناء الاجتماعي الذي تكون فيه حرية الفرد مصونة -على ما ذهب توكفيل- من خلال وجود الهيئات المتعددة والمختلفة الأهداف كما يتم التعبير عن هذه الحرية عن طريق هذه الهيئات، ويترتب على ذلك من الناحية المنطقية أن هذه الهيئات تسلك تجاه بعضها البعض من خلال نفس النزعة الفردية التي يعتنقها الأفراد[2].

ومن المجالات التي تظهر فيها بجلاء التعددية والنزعة الفردية الملتزمة ذلك الخاص بالأقليات السلالية فدمج هذه الأقليات في المجتمع الأمريكي لم يتم من خلال حصرهم في طراز فكري واحد ولكن تم عن طريق إعطاء الحرية لكل جماعة لكي تحدد هويتها الخاصة محتفظة ببعض عاداتها القومية وأحيانًا ببعض الاستقلال والمحقق أن التدرج الهرمي للأقليات السلالية والدينية يعد أحد الجوانب الهامة في نمط التدرج

---

[1] جي روشيه (١٩٨١). مرجع سابق.

[2] جي روشيه (١٩٨١). مرجع سابق.

الاجتماعي الموجود في المجتمع الأمريكي فهذا المجتمع ليس مجتمعًا لا طبقيًا كما يحلو للبعض تصويره ولكن الطبقات في هذا المجتمع أقل صلابة كما هو الحال في بعض المجتمعات الأخرى، كما يوجد به معدل أكبر من الحراك الاجتماعي. ويلقي هذا ضوءًا على الحراك الذي مرت به الجماعات السلالية عبر التاريخ الأمريكي فأعضاء هذه الجماعات استفادوا من الأصل الاجتماعي للجماعات ككل. ولكن حدث في نفس الوقت أن أصبحت هذه الجماعات مفتوحة بالنسبة لأعضائها، وساعد ذلك على السماح بالحراك الفردي وتشجيعه ومن ثم استطاع النسق التعليمي أن يعمل كأحد القنوات الهامة للحراك الاجتماعي الذي لا يرتبط بالأصول السلالية أو الدين.

ولم ينظر "بارسونز" إلى الولايات المتحدة الأمريكية على أنها مجتمع متناغم فهناك داخل هذا المجتمع بعض المصادر الواضحة للتوترات والخلاف، ولقد كان تعدد الأقليات السلالية والدينية والعرقية في الحياة الأمريكية أحد هذه المصادر لوقت طويل. أما أعمق هذه المصادر فهي تتصل بالقيمة العالية التي يضفيها هذا المجتمع على الرشد والعمل والإنجاز والنجاح والتجسدات الواقعية لهذه الأشياء في النظام الاقتصادي والتنظيم البيروقراطي والعلم والتكنولوجيا وما يحدثه هذا من ردود أفعال، وتعد هذه قيم جادة ما تزال تحتفظ بصرامة نزعة الطهارة وبصرامة البرجوازية التجارية التي انحدرت منها، وليس من المستغرب أن توجد بعض أشكال المعارضة لهذه القيم في المجتمع الأمريكي - الثقافة الفرعية للشباب والفساد السياسي والثقافات الفرعية المنحرفة والبديلة، لقد صدق بارسونز على فكرة ماكس فيبر عن دور نزعه الطهارة في تطور الرأسمالية والعلم والتكنولوجيا.

ويقول "بارسونز" إن من الأشياء الملحوظة في الولايات المتحدة أن الأخلاق الطاهرة لم تظل مقصورة على البروتستانت، بل إنها انتشرت إلى كل الجماعات السلالية والدينية، ولقد خلق ذلك من الولايات المتحدة الأمريكية مجتمعًا تنافسياً، يرفض البعض نتائجه (الثقافة الفرعية للشباب) ويسلك البعض الآخر طرقًا ملتوية لتحقيق النجاح (الفساد السياسي والانحراف) ولقد نظر "بارسونز" أيضًا إلى البروتستانينة على أنها أحد المصادر التي تؤدي إلى النزعة الجمعية الأمريكية [1].

---

[1] جي روشيه (١٩٨١). مرجع سابق.

وأدى الطابع الجمعي للمجتمع الأمريكي "ببارسونز" إلى الاعتقاد بأن التوترات داخل هذا المجتمع لن تؤدي إلى انهيار أو إلى إحداث تغيرات جذرية داخلية، فلأن الاتجاه الجمعي يسمح ويشجع بعض مظاهر الصراع بين المصالح المختلفة، فإنه بالرغم من وجود قدر لا بأس به من التغيرات البنائية إلا أن المجتمع لديه القدرة على تنفيذ هذه التغيرات دون إحداث تغيير جذري فلم ير بارسونز على سبيل المثال أن المجتمع الأمريكي من المحتمل أن يتحول من الاقتصاد الرأسمالي المختلط إلى الاشتراكية الراديكالية أو إلى مجتمع يسود فيه النظام الديموقراطي إلى نظام سياسي تسلطي، لقد ذهب على العكس من ذلك إلى أن الولايات المتحدة لديها الموارد الضرورية التي تمكنها من التطور دون إحداث ثورة والتي تمكنها من التحول دون حدوث اضطرابات راديكالية. وقد رسم بارسونز صورة لمجتمع يسيطر عليه الاتفاق العام على القيم، ومن ثم يسود فيه النظام العام والتناغم والاستقرار وسؤال هوبز الخاص بالنظام وهو (لماذا يعيش الناس سويًا في مجتمع دون أن يحطموا بعضهم البعض؟).

ويقول "بارسونز" لم يصل الفلاسفة إلى جواب مقنع لهذا السؤال –ولقد اعتبر بارسونز- أن الحلول التي قدمها كل من "فرويد ودوركايم وميد وكولي" تمثل أهم اكتشاف في العلوم الاجتماعية لقد ذهبوا إلى أن أساس الحياة الاجتماعية يكون فيما أسماه بارسونز بالالتقاء بين التشكل النظامي من القيم والمعايير في الإطار الاجتماعي واستدماج نفس القيم والمعايير داخل ذاتية الفرد ويفسر الظهور المشترك لهاتين العمليتين ليس فقط وجود المجتمع البشري وإنما يفسر أيضًا الاستقرار النسبي لهذا المجتمع، وجعل بارسونز هذا الحل حجر الزاوية في نظريته العامة للفعل[1].

فالمشروع النظري "لبارسونز" انعكاس للواقع الأمريكي من حيث طبيعة التفكير السيوسيولوجي السائد به أو الأحداث التي وقعت في إطاره بالإضافة إلى أنه اعتبر معبرًا عن موقف أيديولوجي ينظر للواقع الرأسمالي ويفند إمكانيات تحقق الماركسية في إطاره فبارسونز يجند نفسه ليلعب دور البطولة في خدمة الرأسمالية وليجعل لنظريته حول الفعل الاجتماعي في خدمة الرأسمالية تلك النظرية التي يحكم التفاعل فيها دافع القيمة، واعتبر أن أي خروج أو انحرف عن النظام مرضًا اجتماعيًا[2].

---

[1] جي روشيه (١٩٨١). مرجع سابق.

[2] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

ولكن ما هو الاسم الملائم للأيديولوجية التي تظهر من تصور "بارسونز" عن المجتمع الأمريكي؟ يمكن وصف "بارسونز" بأنه ليبرالي متشرب لروح دولة الرفاهية إنه لا يشجع النظام القائم ولا يشجع الثورة عليه وإنما يثق في دينامية بناء المجتمع وفي تقدم الرشد الإنساني[1].

التوزان والتغير عند بارسونز:

يعد " تالكوت بارسونز" Talcott Parsons. أشهر من طور الأفكار الوظيفية في هذا الاتجاه . إن المجتمع عند " بارسونز" هو أحد الأنساق الأساسية للفعل التي حددها " بارسونز" في أربعة أنساق: النسق العضوي - نسق الشخصية - المجتمع - الثقافة - . والمجتمع بدوره ينقسم من الداخل إلى أربعة أنساق فرعية هي : الاقتصاد - السياسة - الروابط المجتمعية والقانونية - نظم التنشئة الاجتماعية. كما أن المجتمع كنسق يعيش في حالة توازن من الداخل حيث يحقق أنساق علاقات منتظمة ومتوازنة . عندما يتعرض المجتمع لحالة تغير ، فإنه لا يفقد توازنه، فهذا التوازن دينامي ومستمر. لذلك فإنه يمكن للمجتمع دائما من أن يتكيف مع التغيرات الجديدة ، ويدمجها داخل بنائه.

لم يقف "بارسونز" من أزمة البنيوية الوظيفية والانتقادات التي وجهت لها سواء من النظريات اليسارية، أو التفاعلية جامداً؛ بل قدم بعض الإسهامات التي حاول بها توسيع تصوره للنسق المتوازن ليشمل قضية التغير البنائي عن طريق وضع الأنساق الاجتماعية في الإطار الأكبر للتطور الاجتماعي[2].

ويذهب " بارسونز" إلى أن التطور يمر بمرحلتين:

١- مرحلة بداية وهي المرحلة المرتبطة بالمجتمع البدائي أو القبلي، وتتميز بسيادة نظام القرابة والتي تستند فيها المكانة الاجتماعية إلى معايير القرابة والنسب وهذه المرحلة بمثابة نقطة انطلاق لمرحلة التطور الثانية.

---

[1] جي روشيه (١٩٨١). مرجع سابق.

[2] جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ٢٣٠.

٢- المرحلة الثانية وهي تلك التي تشمل كل ما يأتي بعد المرحلة الأولى والتي تظهر نتيجة لأثر التبرير الشرعي والثقافي للوظائف الاجتماعية السياسية المتمايزة.

ثم يحدد " بارسونز" أربعة قوانين أخرى للتطور تؤثر في هذه المرحلة وهي أنساق السوق ورأس المال والبيروقراطية والاتحاد الديمقراطي والقانون هذا فضلاً عن المتطلبات السابقة على التطور الثقافي والاجتماعي التي يحصرها في التقنية واللغة والقرابة والدين. إلا أن إسهام بارسونز الجديد يعتمد على ميكانزمات التطور دون الثورة وهذه العوامل متوافرة في المجتمع الأمريكي باعتباره يمثل ذروة النمو التطوري، بينما تفتقر آفاق حديثة أخرى وخاصة الاتحاد السوفيتي - السابق- بعض هذه العوامل ، والنتيجة التي يمكن استخلاصها من هذا الإسهام الجديد أن بارسونز يحاول أن يراهن مستعيناً بالقوانين التطورية على تفوق النسق الأمريكي على النسق الروسي[١].

وكان " بارسونز" قد وضع وصفاً لمراحل من التطور الاجتماعي ابتداء من عصور المسيحية الأولى ومروراً بالثورة الصناعية وانتهاء بالوضع الحالي في أمريكا المعاصرة وهي:

- بداية المسيحية: التخصص الوظيفي للبناء التنظيمي للكنيسة.
- العصور الوسطى: مساهمة الكنيسة في المعرفة.
- عصر النهضة والإصلاح الكنسي: ظهور الثقافات العلمانية والنزعات الفردية والإصلاح الديني البروتستانتي.
- حركات الإصلاح المضادة: التي أكدت تعدد القيم وشرعية المجتمع العلماني.
- الثورات الصناعية والديمقراطية: التصنيع والمناداة بالديمقراطية.
- نشأة المجتمع الأمريكي الحديث: النزعات العلمانية القوية والتصنيع والديمقراطية[٢] .

---

[١] للتعمق في التطورات التي حدثت لفكر بارسونز والتغيرات التي أجراها على نظريته، انظر: بول، لازرسفيلد (١٩٨٠). الاتجاهات الأساسية في علم الاجتماع. ترجمة أحمد النكلاوي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق.

[٢] جراهام لينلوش (١٩٩٠). تمهيد في النظرية الاجتماعية. تعريب محمد سعيد فرج، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

أنواع التغير عند تالكوت بارسونز:

١- التغيرات قصيرة المدى :

هي تغيرات تظهر داخل المجتمع نتيجة عوامل داخلية (من داخل المجتمع كالتوترات التي تفرض اتجاها للتغير مثل تلك الناتجة عن ظهور الاختراعات والأفكار الجديدة) . أو عوامل خارجية (تظهر في أي نسق من الأنساق التي تشكل بيئة المجتمع كتغير أساليب استغلال الطبيعة، أو الحروب) . إن هذه التغيرات تحدث تأثيرا على حالة التوازن التي ينتظم فيها المجتمع . إنها تكسر التوازن أو تهدده من جراء ما تخلفه من توترات في بناء العلاقات الداخلية بين مكونات النسق الاجتماعي. إذا استمرت هذه التغيرات ، فقد تؤدي إلى القضاء على المجتمع أو إلى إحداث تغيرات بنائية عامة فيه (كما يحدث في حالة الثورات) ، ولكن هذا لا يحدث إلا في ظروف نادرة. لأن المجتمعات لديها قدرة تكيفية داخلية ناتجة من حالة التوازن الدينامي التي يتميز بها المجتمع .

عندما تحدث التوترات والضغوط المولدة للتغير داخل المجتمع، فإنها تؤثر على حالة التوازن، ولكن المجتمع ما يلبث أن يمتص هذه التوترات والضغوط ويستعيد توازنه ويظل محتفظاً بهذه الحالة من التوازن، حتى تظهر توترات أخرى ، وهكذا يوصف التوازن بأنه دينامي. أي مستمر قابل لأن يستوعب كل ما هو جديد. وأن يعيد تكيف النسق معه بحيث تظهر التغيرات في أضيق الحدود. وتتصف التغيرات قصيرة المدى داخل النسق الاجتماعي بعدة خصائص :

أ - تدريجية لا تؤدي إلى انهيار النسق أو تغيره بشكل جذري.

ب- ترتبط بعمليتين ملازمتين هما التوازن واللاتوازن . تعتبر الأولى دائمة . والثانية عملية عارضة .

ج- جوهر التغير هو التغير البنائي الوظيفي .

د- الاتفاق العام على القيم وأدوات الضبط هما اللذان يحفظان للنسق الاجتماعي توازنه الدائم .

٢- التغيرات بعيدة المدى :

أي تغيرات واسعة النطاق تحدث على فترات متباعدة . فسر " بارسونز" هذه التغيرات من خلال مفهوم العموميات التطورية. يقصد بالعمومية التطورية : التجديد البنائي الذي له قدرة على الاستمرار والبقاء ، ويخلق بدوره تجديدات وتطويرات أخرى، أنها تخلق ضربا من الانكسار في البناء القائم ، وتدفعه إلى آفاق جديدة من التغير. هذه العموميات التطورية هي التي خلقت كل التحولات بعيدة المدى في تطور المجتمعات، فظهور نسق الشرعية الثقافية وظهور نسق التدرج الاجتماعي، قد أدى إلى ان تتحول المجتمعات البدائية إلى مجتمعات وسيطة . كما أن ظهور النقود والأسواق والقانون هو الذي أدى إلى تحول المجتمعات الوسيطة إلى مجتمعات حديثة .

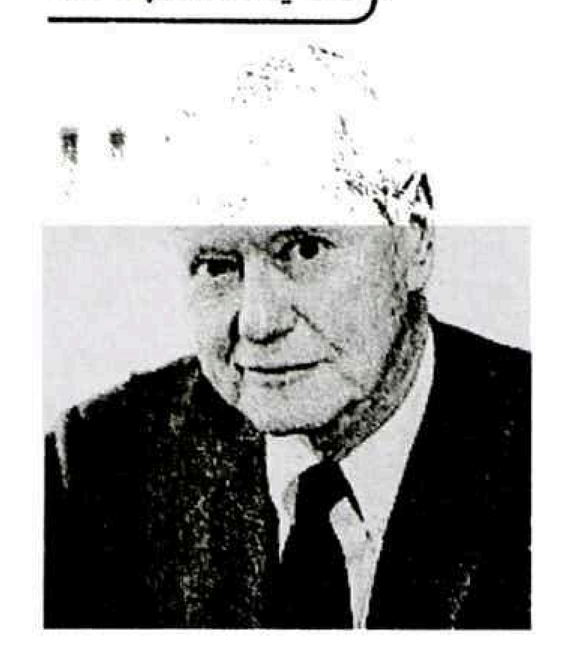
عندما تظهر العمومية التطورية، تخلق تبايناً اجتماعياً واسع النطاق، وتحولات بنائية ملموسة، ولكن هذا التباين لا بد وأن يقابله عمليات تكامل تضبط هذا التحول وتقوده إلى أن يصبح هذا التحول الذي خلقته العمومية التطورية تحولاً عاماً أو طبيعياً. استخدم " بارسونز" هذا التحليل لرصد حركة التطور في المجتمعات الحديثة عبر تطورها من المرحلة البدائية إلى المرحلة الوسيطة إلى المرحلة الحديثة.

ويستند التغير الاجتماعي عند " تالكوت بارسونز" [1] إلى عملية التباين أساسا، إذ يحدث من خلال نمو منظم، أو بناءات جديدة ومتميزة تتولى إنجاز وظائف معينة. ومع ظهور البناءات المتمايزة حديثا، فإن بعضا من المعايير الأخلاقية التي تحكم كل وحدة تتغير، كما تتغير العلاقة بين هذه البناءات أيضا. كما أكد "بارسونز" على أن هناك أربعة عوامل تطورية عامة تتولى نقل المجتمع أو مجموعة المجتمعات عبر المراحل التاريخية والتطورية المختلفة، وأن كل عامل من هذه العوامل يضيف تقدما حضاريا للإنسانية لم تكن تمتلكه من قبل. وتتمثل هذه العمليات التطورية في ظهور الأسواق، والنظام النقدي، والبيروقراطية، والنظام التشريعي الشامل، والمنظمات الديموقراطية[2].

---

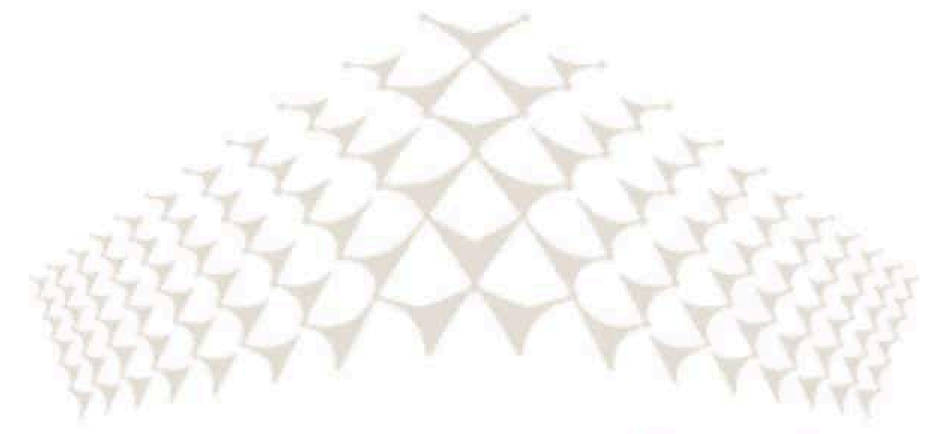
[1] انظر: تالكوت بارسونز (٢٠٠٤) قضايا تطورية تنموية في المجتمع. في كتاب (من الحداثة إلى العولمة تأليف، ج تيونز روبيرتس وأيمي هايت، ترجمة سمير الشيشكلي، الكويت: المجلس الأعلى للفنون والثقافة والآداب، ص ١٢٧-١٥١.

[2] راجع: الغريب، عبد العزيز (٢٠١٠). التغير الاجتماعي والثقافي. الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية.



خامساً- روبرت ميرتون:

- حياته.
- المنطلقات النظرية.
- التحليل الوظيفي.
- نظريات المدى المتوسط.
- العوق الوظيفي.
- تصنيفات ميرتون للوظائف.
- النظرية اللامعيارية.
- تصنيف أنماط استجابات الأفراد.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

خامساً: روبرت ميرتون Robert Merton
(١٩١٠- ٢٠٠٣م) :

حياته:

روبرت ميرتون عالم اجتماع أمريكي. ولد عام (١٩١٠م) وتوفي عام (٢٠٠٣م) ومعنى ذاك أنه ولد بعد بارسونز بثمان سنوات وعاش بعده ما يقارب الواحد وعشرين سنة. تلقى تعليمه بجامعة هارفارد، وتمبل. وبعد أن درس في هاتين الجامعتين، انتقل إلى قسم الاجتماع بجامعة كولومبيا وظل في التدريس فيها حتى تقاعده عام ١٩٧٩م. ومن مؤلفات روبرت ميرتون كتاب "الإقناع الجماهيري" عام ١٩٤٦م، وكتاب " النظرية والبناء الاجتماعي" عام ١٩٤٩م. وكتاب " سوسيولوجيا العلم " عام ١٩٧٣م. وكتاب "سوسيولوجيا التذبذب" عام ١٩٧٦م، ومن هذه العناوين تعطي انطباعاً باتساع دائرة الاهتمامات العلمية لميرتون. ويعد ميرتون من رواد النظرية البنائية الوظيفية المعاصرة ولعله أسهم من خلال جهوده في تطوير كثير من المفاهيم في البنائية الوظيفية من خلال عرضه لمجموعة من الإسهامات النظرية والمنهجية أكثر وضوحاً وملامسة للواقع الاجتماعي من مفاهيم "بارسونز" المعقدة والصعبة والتي تكاد تنزع نحو التجريد أكثر من القدرة على التطبيق في الواقع الاجتماعي مما جعلها محور شديد للنقد من رايت ميلز وجولدنر والكثير من العلماء الذين لم ترق لهم مصطلحات بارسونز المعقدة[1].

ولا شك أن أطروحات "ميرتون" تمثل إضافات مهمة بالنسبة لعلماء الاجتماع الذين يصرون على استعمال التحليلات الوظيفية في دراساتهم للوظائف الاجتماعية ، فتعديلات ميرتون للصيغ القديمة للنظرية الوظيفية تعد تعديلات ضخمة بحيث يمكن تسمية علماء الاجتماع الذين تبنوا تفكيره بـ" الوظيفيين الجدد ".

المنطلقات النظرية:

كما أشرنا سابقاً يعد " روبرت ميرتون" من أهم علناء الوظيفية والمجددين لكثير من أطروحاتها، ومن أهم الإسهامات قدمها "ميرتون" الجوانب التالية:

---

[1] عبد الرحمن، عبد الله (٢٠٠٢). النظرية في علم الاجتماع. القاهرة: دار المعرفة الجامعية .

١- تبنيه مدخل النظريات متوسطة المدى التي تتجنب النقد الذي وجه للنظريات الكبرى والصغرى وقد استفاد "ميرتون" في هذا الإطار من نظرية " دوركايم" في الانتحار، ونظرية "ماكس فيبر" في الأخلاق البروتستانتية ودور الدين في الحياة الاجتماعية.

٢- تناوله ما أسماه بالوظائف الكامنة وغير المباشرة والوظائف الظاهرة: وهنا يبرز الفرق بين إضافة ميرتون على "بارسونز" الذي اكتفى بتناول الوظائف الظاهرة والمباشرة والملاحظة للظاهرة الاجتماعية دون التطرق للوظائف المستترة.

٣- الأنماط الوظيفية: ويقصد بها العلاقة بين الأهداف الثقافية والمجتمعية والوسائل التي تتيح تحقيق تلك الأهداف وتحدث عن أنواع عديدة وأشكال مختلفة كالامتثال والانسحاب والطقوسية والابتداع والتمرد.

٤- البدائل الوظيفية: ويقصد بها عدم التسليم المطلق بفكرة الوظيفية التي قد تظهر في بناءات وأنساق اجتماعية معينة [١]. فمثلاً الدعارة من منظور وظيفي تمثل إشباع لاحتياجات أفراد لا يتسنى لهم إشباعها على نحو عاجل من خلال الصور قبولاً من الناحية الاجتماعية مثل الزواج. ويحصل الفرد على الجنس دون أدنى مسئولية عن الإنجاب أو الاقتراب العاطفي. في المقابل تحصل " بائعة الهوى" على قوت يومها من خلال عملية التبادل. ويخلص هذا التحليل إلى أن " الدعارة" تحقق أهداف معينة يحتاجها المجتمع، وهذا لا يعني أن الدعارة شكل مرغوب فيه أو شكل مشروع من أشكال السلوك الاجتماعي. ولا يطلق الوظيفيون على هذه الأحكام، ولكنهم يأملون في تفسير كيف أن جانباً من جوانب المجتمع- والذي يتعرض بشكل مستمر للهجوم- يمكنه مع ذلك أن يظل باقياً رغم كل هذه الإدانة الدينية والأخلاقية[٢].

ويعد مقال روبرت ميرتون " Toward the codification of Functional analyes in Sociology" أهم نقد وجه للبنيوية الوظيفية في علم الاجتماع . فما هو محتوى المقال ؟ ولا شك أن توضيحات "ميرتون" تمثل إضافات مهمة بالنسبة لعلماء

---

[١] جلبي، علي (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٢٠٩- ٢١٢. وكذلك انظر: عبد الرحمن، عبد الله (٢٠٠٢). مرجع سابق.

[٢] مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٣٥.

الاجتماع الذين يصرون على استعمال التحليلات الوظيفية في دراساتهم للوظائف الاجتماعية. فتعديلات ميرتون للصيغ القديمة للنظرية الوظيفية تعد تعديلات ضخمة بحيث يمكن تسمية علماء الاجتماع الذين تبنوا تفكيره بـ" الوظيفيين الجدد ". وسعى "ميرتون" في هذا المقال سعيا دقيقاً لإيضاح العناصر الرئيسة للنظرية الوظيفية. وأوضح "ميرتون" : أن الوظيفية لا ينبغي أن تركز على دراسة الوظائف الإيجابية فقط. ولكنها يجب أن تهتم أيضاً بالآثار السلبية " الاختلالا الوظيفية"، ويجب أن تركز أيضاً على التوازن الصافي بين الوظائف والاختلالات الوظيفية، أو على ما إذا كان البناء يقوم بأداء وظائفه أو يعاني من اختلالاً وظيفياً[1].

التحليل الوظيفي:

ينتقد "ميرتون" ثلاث مسلمات يتصف بها التحليل الوظيفي :

١. الوحدة الوظيفية للمجتمع: ترى هذه المسلمة أن كل العقائد والممارسات الثقافية والاجتماعية تؤدي وظيفة واحدة لكل من الأفراد والمجتمع . كما تعتقد أن أجزاء النسق الاجتماعي تتمتع بدرجة عالية من التكامل . وفي هذه النقطة بالذات يشير ميرتون إلى صحتها ولكن بالنسبة للمجتمعات البدائية الصغيرة وليس بالنسبة للمجتمعات الكبيرة المعقدة . لذا ينبغي عدم تعميم هذه المسلمات .

٢. الوظيفية الشاملة: تعني هذه المسلمة أن كل الأشكال والبنى الثقافية والاجتماعية في المجتمع تقوم بوظائف إيجابية. ويرى "ميرتون" أن هذا قد يكون مخالفا لواقع الحياة إذ ليس بالضرورة أن تكون كل بنية أو تقليد أو عقيدة تتصف بوظائف إيجابية.

٣. ضرورة وجود الأجزاء: ترى هذه المسلمة أن الأجزاء المكونة للمجتمع لا تقوم بوظائف ايجابية فحسب بل هي تمثل عناصر ضرورية لعمل المجتمع بصفة عامة. وهذا يعني أن البنى الاجتماعية والوظائف ضرورية بالنسبة لمسيرة المجتمع الطبيعية أي أنه ليس هناك بنى ووظائف أخرى قادرة على القيام بمسيرة المجتمع كالوظائف القائمة

---

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٨١.

الآن. وحسب "ميرتون" لا بد من الاعتراف بوجود عدة بنى ووظائف داخل نفس المجتمع .

يرى "ميرتون" أن المسلمات الثلاثة السابقة لا تستند إلى معطيات إمبريقية بقدر ما هي مجرد أفكار وأنساق نظرية بحتة في حين أن واجب عالم الاجتماع فحص مدى مصداقية كل منها إمبريقياً. لأن الاختبار الإمبريقي وليس المقالات النظرية هو الذي يمكن التحليل الوظيفي من التوصل إلى إرساء منظور أو شكل تحليل يكون بمثابة مرجع لتكامل النظرية مع البحث الإمبريقي[1].

وبالتالي رأى "ميرتون" أن هذه الافتراضات غير صحيحة ولذلك فإنه أقام نظريته على ثلاث فروض أساسية بديلة هي :

١ــ العناصر الاجتماعية أو الثقافية قد تكون وظيفية بالنسبة لمجموعات معينة وغير وظيفية بالنسبة لمجموعات غيرها ، وضارة وظيفيا بالنسبة لمجموعات أخرى ، وعلى ذلك فلا بد من تعديل فكرة أن أي عنصر اجتماعي أو ثقافي يكون وظيفيا النسبة للمجتمع بأسره .

٢ــ أن نفس العنصر قد تكون له وظائف متعددة ونفس الوظيفة يمكن تحقيقها بواسطة عناصر مختلفة ، مثال : الملابس التي يمكن أن تؤدي عدة وظائف مختلفة ، فهي تساعد على الوقاية من الطقس أو تكسب الفرد مكانة اجتماعية معينة أو يكون لها دور تحديد مدى جاذبيته الشخصية . ومعنى ذلك أن هناك تنوعا في الوسائل التي يمكن أن تحقق هدفا وظيفيا معنيا وقد استخدم ميرتون لذلك مفهوم البدائل الوظيفية .

٣ ــ يجب أن يحدد التحليل الوظيفي الوحدات الاجتماعية التي تخدمها العناصر الاجتماعية أو الثقافية ، ذلك أن بعض العناصر قد تكون ذات وظائف متعددة وقد تكون بعض نتائجها ضارة وظيفيا .

يرى "ميرتون" أن التحليل الوظيفي ينبغي أن يدرس ظواهر محدودة مثل : الأدوار الاجتماعية ، العمليات الاجتماعية ، الأنماط الثقافية ، الانفعالات المحددة ثقافياً ، المعايير الاجتماعية ، تنظيم الجماعة ، البناء الاجتماعي ، وأساليب الضبط

---

[1] انظر: ليلة، علي (٢٠٠٦). روبرت ميرتون والتجديد من داخل النظرية الوظيفية. الإسكندرية: المكتبة المصرية للطباعة والنشر.

الاجتماعي. ومن الواضح أن " ميرتون" أولى أهمية للدراسات الإمبريقية في النظرية الوظيفية بدلا من التركيز على الدراسات الإمبريقية لظواهر محدودة كجنوح الأحداث أو مدى علاقة أدوات الضبط الاجتماعي في الانحراف، وما إذا كانت الانحرافات ناجمة عن خلل في التنشئة الاجتماعية أو المنظومة القيمية والمعيارية. وبذلك جعل بؤرة اهتمام النظرية الاجتماعية ما أسماه بالعناصر الثقافية المقننة .

حيث يقوم تفسير "ميرتون" للسلوك الاجتماعي بشكل عام، على مقدار التطابق بين الأهداف الثقافية السائد في عصر ما، والمعايير المستخدمة كوسائل مشروعة لتحقيق تلك الأهداف. فهو يميز بين الأهداف الثقافية من جهة، وبين القيم والمعايير المنظمة لتحقيق تلك الأهداف من جهة أخرى. وعلى ذلك فإن تحقيق الأهداف يكون من الصعوبة ما لم تتطابق معه المعايير والقيم المستخدمة لتحقيقة. وتناسبه بشكل كامل. فمثلاً القيم المعطاة للسلوك العلماني في المجتمعات الحديثة، لا تنفصل عن طبيعة الأهداف العامة لتلك المجتمعات، والتي تكمن في العمل على تحقيق المساواة بين المواطنين على مستوى الحقوق والواجبات بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية، أو القبلية، أو العشائرية. كما أن القيمة المعطاة للعلم في مجتمع محدد لا تنفصل أيضا عن الأهداف الرامية إلى تأكيد وظيفته في التنمية المجتمعية، وتعزيز مسارات نموه الخاص.

وبالتالي فإن كل سلوك أو تصرف للأفراد لا يقوم على المعايير والقواعد التي تتوافق وأهداف المجتمع الثقافية والحضارية هو سلوك منحرف.

كما أن "ميرتون" فرق بين " الدور" الذي يعالج فكرة الصراعات في المجتمع ويزداد تنوعاً وتخصصاً في المجتمعات المعقدة وبين " الوظيفية "، فالفرد مثلا يمكن أن يؤدي أدوارا معقدة ومتخصصة ولكنه يعجز عن القيام بكل الوظائف. لهذا تبرز فكرة التخصص في الأدوار عوضا عن القيام بشتى الوظائف .

وتتمثل الافتراضات الأساسية للتحليل الوظيفي بما يلي:

١- أن لكل عنصر أو جزء في كل، وظيفة أساسية مرتبطة به. وقد يكون هذا الكل نظاما اجتماعياً أو ثقافياً.

٢- تأخذ الوظيفة المتعلقة بكل جزء أو عنصر شكلاً ظاهراً أو كامناً.

٣- أن كل العناصر ضرورية بالنسبة للمنظومة، بصرف النظر عن طبيعة وظيفتها.

وبذلك تقوم الوظيفية وفق رؤية " ميرتون" على أساس وحدة الوظيفية للمجتمع، وضرورة العناصر الثقافية في تلك الوحدة، وإمكانية شمول التحليل الوظيفي للواقع الاجتماعي والثقافي.

نظريات المدى المتوسط :

يرى "ميرتون" أن اهتمام "بارسونز" بوضع نسق شامل من التصورات محاولة عقيمة وعديمة الجدوى ، حيث أن البحث عن نظام شامل للنظرية الاجتماعية يشمل كل جوانب السلوك الاجتماعي والتنظيم والتغير هو نوع من التحدي الكبير والآمال الواسعة ، وأن مثل هذا النظام الشامل سيكون شأنه شأن الكثير من الأنظمة الفلسفية الشاملة والتي كان مصيرها الإهمال.

ويعرف " ميرتون" النظرية متوسطة المدى بأنها تلك التي تقع بين طرفين ، الطرف الأول يتمثل في مجموعة الافتراضات العلمية البسيطة، التي تقابلها عند إجراء البحوث الميدانية، والطرف الثاني يتمثل في النظريات الشاملة الموحدة التي تسعى على تفسير كل ملاحظة عن انتظام في السلوك الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي . أي أن "ميرتون" يقترح مستوى للنظرية الاجتماعية أعلى قليلا من مستوى الفروض التي تعتمد عليها البحوث الإمبيريقية، والتي لا تتضمن قدرا يذكر من التجريد، ولكنه أقل مستوى من النظريات الكبرى، والتي تتضمن قدرا كبيرا من التجريد ، وبرر "ميرتون" دعوته إلى هذا المستوى المتوسط من التجريد بأنه يسمح بإخضاع ما يتضمنه من قضايا للاختبار الأمبيريقي نظراً لقرب هذه القضايا من الوقائع الملموسة. وعلى ذلك فإن النظرية متوسطة المدى تتناول أساساً جوانب معينة من الظاهرات الاجتماعية ، وليست الظاهرات في عموميتها ، فيمكن مثلاً أن تكون لدينا نظرية عن الجماعات المرجعية ونظرية عن الحراك الاجتماعي ، ونظرية عن صراع الأدوار ونظرية عن تكون القيم .... الخ . وبعد أن تصبح لدينا هذه النظريات المتعددة ذات المدى المتوسط يمكننا في المستقبل أن نصوغ منها نظرية عامة موحدة ، ولكن الوقت لم يحن بعد لتكوين مثل هذه النظرية الموحدة .

العوق الوظيفي " الاختلال الوظيفي ":

يؤمن "ميرتون" بأن العناصر الاجتماعية يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبية، ولإصلاح هذا النقص المهم في النظرية الوظيفية استخدم "ميرتون" مفهوم " الاختلال الوظيفي ". إذ يرى " ميرتون" أن البنى والتنظيمات الاجتماعية مثلما تساهم في الحفاظ على الأجزاء الأخرى للنسق الاجتماعي للمجتمع أيضاً يمكن أن تكون لهما انعكاسات سلبية. ويقصد بالاختلال الوظيفي :" أن عنصراً من عناصر المجتمع أو عملية من عملياته تقوض النظام الاجتماعي أو تؤدي إلى تهديد استقراره" .

مثال: لاحظ " ميرتون" في دراسة بعنوان (البناء البيروقراطي والشخصية) أن العديد من العناصر المتأصلة في البيروقراطية يمكن أن تؤدي إلى نتائج مؤذية للأداء الانسيابي للبيروقراطية نفسها. ويرى أن الاختلالات الوظيفية للبيروقراطية تشمل:

- الطقوسية البيروقراطية: وتعني التمسك الحرفي بالقواعد بأي كلفة حتى في الحالات التي يمكن أن توجد فيها حلول أخرى أفضل للمنظمة.

- الالتزام بالقواعد البيروقراطية يمن أن ينال الأسبقية على أهداف المنظمة الأساسية.

مثال: كان للنظام العبودي في الولايات المتحدة آثار إيجابية على المواطنين البيض لا سيما فيما يتعلق بتوفير الأيدي العاملة الرخيصة التي ساعدت على تحسين اقتصاد القطن وحسنت من المكانة الاجتماعية للبيض، غير أن لهذه الميزة العنصرية آثارا سلبية جعلت السكان الجنوبيين في الولايات المتحدة يعتمدون كثيرا على الاقتصاد الزراعي مما أبقاهم غير مؤهلين "مهيئين " لتقبل التصنيع . فالفروق بين سكان الشمال وسكان الجنوب الأمريكي يمكن إرجاعه إلى العوق الوظيفي للنظام العبودي في الجنوب ففي الوقت الذي أدى فيه النظام العبودي وظيفة النمو الاقتصادي والاجتماعي في الشمال نراه أعاق عملية التقدم الاقتصادي في الجنوب[1] .

---

[1] انظر: ليلة، علي (٢٠٠٦). مرجع سابق.

تصنيفات ميرتون للوظائف:

قسم "ميرتون" الوظائف في المجتمع إلى نوعين :

١. الوظائف الظاهرة **Manipest**: وهي التي تسعى أو تهدف إلى تحقيقه التنظيمات الاجتماعية. أو هي النتائج الموضوعية التي يمكن ملاحظتها والتي تسهم في الحفاظ على النسق ، والتي يقصدها المشاركون في النشاط مثلاً بأن تكون الجامعات مخصصة للدراسة والبحث العلمي والخدمة الاجتماعية.

٢. الوظائف الكامنة غير الظاهرة **latent**: فهي التي لم تكن مقصودة أو متوقعة، وهي التي لا تأخذ التنظيمات الاجتماعية بالحسبان تحقيقها أو العمل لأجلها، أو تسيطر على الأهداف الرئيسة لتلك التنظيمات الاجتماعية، كأن تمارس الجامعة وظائف سياسية أو اقتصادية أو تمثل فضاءات اجتماعية للتسلية والترفية وإضاعة الوقت أو تحقيق مكانات اجتماعية ...الخ[1].

مثال ذلك: دور الدين في تحقيق التكامل الاجتماعي ، هذا الدور مثلما قرر "دور كايم" لم يكن مقصودا ، وعلى ذلك فإن التكامل الاجتماعي يعتبر في هذه الحالة وظيفة كامنة للدين . أما إذا استخدم الدين عن قصد بواسطة الطبقة الحاكمة لتخدير الطبقات المحكومة وإخضاعها للنظام مثلما قرر "ماركس" ، فإن هذه النتائج تكون وظيفة ظاهرة للدين[2].

الجدير بالذكر أن "ميرتون" لم يستحدث مفهومي الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة ، ولكنه استعار هذين المفهومين من "فرويد" الذي استخدمها في التمييز بين المحتوى الظاهر (أي الشعوري) والمحتوى الكامن (أي اللاشعوري) للحلم ، مما دل على تركيز "ميرتون" على الجوانب النفسية.

وقد فرق " ميرتون" تفرقة مهمة بين الوظائف الظاهرة والكامنة. والوظائف الظاهرة للمؤسسات، هي الوظائف الصريحة والمعلنة والمقصودة، وتشتمل هذه الوظائف الأهمية المقصودة والمعروفة مثل دور الجامعة في ضمان التنافس والامتياز الأكاديميين. وعلى العكس من ذلك تكون الوظائف وظائف غير مقصودة وغير معلنة،

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص٤٦٠.

[2] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق ، ص ٢٣٥-٢٣٧.

وتعكس أهدافاً خفية للمؤسسة. ومن الوظائف الكامنة للجامعة الحد من البطالة، كما تؤدي الجامعة وظيفة كامنة أخرى مكان يلتقي فيه الأشخاص الذين يبحثون عن قرين للزواج[1].

وفي الدراسة السابقة الذكر عن البيروقراطية لاحظ " ميرتون" أن الوظائف الظاهرة للقواعد البيروقراطية هي ضبط الاختصاصات وتوزيع الوظائف لتحقيق التكامل بين نشاطات التنظيم أو المنظمة. إلا أنه تظهر إلى جانب تلك الوظائف وظائف لم تكن متوقعة، وهي تحول تلك القواعد من وسائل لتحقيق أهداف نوعية محددة، إلى أهداف بحد ذاتها. وتنجم عن ذلك معوقات وظيفية لهذه القواعد تكمن في تقديس السلوك، وتصلبه، الأمر الذي يحد من استجابة أعضاء التنظيم لمتطلبات عملهم، وينمي الشعور بالعزلة عن العامة من الناس الذين يتعامل معهم التنظيم، ويصبح التنظيم من جهة ثالثة، دائم البحث عن بدائل وظيفية تضمن له استمرارية عمله[2].

النظرية اللا معيارية عند ميرتون :

أشرنا سابقاً عند الحديث عن " دوركايم" إلى فكرة اللامعيارية تطبيقاً على دراسته عن الانتحار. نجد أن " بروت" استفاد من تلك الأطروحات في صياغة رؤيته نحو اللامعيارية. يرى "دوركايم" أن الانتحار اللامعياري يحدث في تلك الحالات التي يتهتك فيها النسيج الاجتماعي على حد تعبيره وبالتالي تنشأ حالة من اللامعيارية أو انعدام المعايير في المجتمع أو حالة الاضطراب المعياري ، ينجم عن أي خلل في التوازن سواء كان هذا الخلل في التوازن مؤديا إلى نتائج إيجابية أو نتائج سلبية ، فأي تغييرات مفاجئة في النظام الاجتماعي تؤدي إلى حالة من اللا معيارية أو التفكك الاجتماعي ، فمثلا الكساد الاقتصادي أو الرخاء الاقتصادي حالتان تمثلان تغيرا مفاجئا في النظام الاجتماعي ، يترتب عليها درجة من اللا معيارية تؤدي إلى زيادة معدل الانتحار في المجتمع .

---

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٣٦.

[2] انظر: ليلة، علي (٢٠٠٦). مرجع سابق.

وبينما ركز "دوركايم" كما نرى في نظريته على ربط اللا معيارية بالانتحار ، نجد "ميرتون" يجعل نظريته أكثر شمولاً لتسع البناء الاجتماعي وكيفية صياغته للأهداف والوسائل التي يمكن للفرد أن يحقق أهدافه من خلالها. ففي دراسة "ميرتون" حول البناء الاجتماعي واللا معيارية ، طبق نظرية الوظيفية في تحليل المصادر الاجتماعية والثقافية للسلوك المنحرف وكان هدف ميرتون من هذه الدراسة أن يبين كيف يمارس البناء الاجتماعي ضغوطا محددة على أشخاص معينين في المجتمع لممارسة سلوك غير امتثالي بدلاً من ممارستهم لسلوك امتثالي . وقد بدأ "ميرتون" بالتسليم بأن البنية الاجتماعية والثقافية تصوغ صفة المشروعية على أهداف معينة وعلاوة على ذلك تحدد أساليب معينة مقبولة لتحقيق، أي أن ميرتون قد ميز بين عنصرين رئيسيين فيما أسماه بالبناء الثقافي للمجتمع، الأهداف المحددة ثقافيا من جهة. والأساليب النظمية لتحقيق هذه الأهداف من جهة أخرى.

وفي المجتمع جيد التكامل نجد تكاملا و تناغما بين الأهداف والأساليب فكلاً من الأهداف والأساليب تجد تقبلاً من أفراد المجتمع ككل، كما أنها تكون ميسورة لهم، ويحدث اللا تكامل في المجتمع عندما يكون هناك تأكيد على أحد الجانبين بدرجة لا تتناسب مع التأكيد على الجانب الآخر . وهذا ما يحدث في المجتمع الأمريكي فهناك في هذا المجتمع تأكيد على أهداف معينة مثل النجاح الفردي وجمع النقود وارتقاء السلم الاجتماعي دون تأكيد مماثل على الأساليب النظمية لتحقيق هذه الأهداف ، فأساليب تحقيق هذه الأهداف غير متاحة للجميع في المجتمع.

وقد نشأ عن ذلك حالة من اللا معيارية في المجتمع ، ذلك أنه لا بد من أن تكون هناك درجة من التناسب بين هدف تحقيق النجاح وبين الفرص المشروعة للنجاح بحيث يحصل الأفراد على الإشباع الضروري الذي يساعد على تحقيق النسق الاجتماعي لوظائفه ، فإذا لم يتحقق ذلك فإن الوظيفة الاجتماعية تصاب بالخلل ويحدث ما أسماه بالمعوقات الوظيفية .

وكما هو واضح فإن "ميرتون" استخدم أفكار "دوركايم" بشكل أوسع كثيرا ويتجاوز حالة انعدام المعيارية ، ومع ذلك فإنه يتفق مع ما ذهب إليه "دوركايم" من حدوث خلل في التنظيم نتيجة لانعدام الضمير الجمعي ، فمن وجهة نظر "ميرتون" فإن

حالة الأنومي توجد حينما لا تنظم الأهداف الثقافية السائدة أو الوسائل المعيارية المشروعة سلوك الفاعلين .

تصنيف أنماط استجابات الأفراد:

قدم "ميرتون" تصنيفا لأنماط الاستجابات لدى الأفراد أو تكيفهم لذلك التفاوت أو الانفصام ين الأهداف المرغوبة والمحددة ثقافيا (أي النجاح) وبين الأساليب المتاحة لتحقيق هذه الأهداف ، وقرر أن هناك خمس أنماط لتكيف الأفراد في المجتمع ، أول هذه الأنماط وظيفي ، أي يساعد على بقاء النسق الاجتماعي ، والأربعة الآخرين ضارين وظيفيا أو أنماط تكيف منحرفة (أي يهددون بقاء هذا النسق)، وهذه الأنماط الخمسة هي :

أ) نمط الامتثال :

يحدث هذا النوع من التكيف حين يتقبل الأفراد الأهداف الثقافية ويمتثلون لها، وفي نفس الوقت يتقبلون الأساليب التي يحددها النظام الاجتماعي بوصفها أساليب مشروعة لتحقيق هذه الأهداف ، مثال ذلك تقبل الأفراد لهدف تحقيق النجاح والحصول على دخل مرتفع وتقبلهم لاستكمال تعليمهم كأسلوب لتحقيق ذلك الهدف ، فإذا كانت فرصة التعليم متاحة لكل أو غالبية أفراد المجتمع ، فإن حالة من الثبات أو التكامل سوف تسود المجتمع ، لأن غالبية الناس سوف تتقبل الأهداف وأساليب تحقيقها في نفس الوقت ، أما إذا كان بالمجتمع تأكيد على الأهداف فقط دون إتاحة الأساليب اللازمة لتحقيقها لكل الناس ، فإن أحد الأنماط التالية من التكيف الانحرافي يمكن أن تحدث . إذا فأسباب الامتثال ببساطة عكس تلك الأسباب التي تسبب الشذوذ والانحراف وهذه العلاقة يوضحها "ميرتون" في هذا الفرض : كلما كانت أهداف النجاح المحددة والمعروفة ثقافيا أوسع انتشارا وأكثر بروزاً من الناحية السيكولوجية وكلما كانت الوسائل البنائية المشروعة لتحقيقها متاحة على قدر المساواة لأعضاء الجماعة، كلما قل احتمال الأنومي وزادت معدلات السلوك المتمثل في ذلك النظام .

ب) نمط الإبداع أو الابتكار :

يرى "ميرتون" أن هذا النمط من التكيف هو أهم أنماط التكيف الانحرافي في المجتمع الأمريكي ، ويعني به أن نسبة كبيرة من الناس في المجتمع تتقبل أهداف النجاح التي تؤكد عليها الثقافة الأمريكية ولكنها تجد فرص تحقيق هذه الأهداف موصدة أمامها لأن توزيع هذه الفرص غير متكافئ ، وفي هذه الحالة يرفضون الأساليب المشروعة لتحقيق النجاح (مثل التعليم) ويبتدعون أساليب غير مشروعة لتحقيق هذا الهدف ، ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقة العاملة. وفي محاولة لشرح وتفسير لماذا ينبغي حدوث الابتكار يطرح ميرتون فروضا ضمنية :

أولاً : يذهب ميرتون إلى أن خبرات التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية للفرد لا سيما في الأسرة هامة بصفة خاصة في تحديد رغبتهم في استخدام وسائل مشروعة .

ثانيًا : في المجتمعات التي تؤكد فيها القيم الثقافية على الإنجازات الفردية على عكس إنجازات الجماعة أو الجمعية يتعرض الأفراد لضغوط كبيرة لتحقيق أهداف النجاح حتى لو انطوى ذلك على استخدام وسائل غير مشروعة ثقافيا ، وعدم اللجوء إلى ذلك يعرض الشخص للوصف بالفشل، وهكذا فإذا كان لدى الفرد وازع داخلي ضعيف ضد استخدام الوسائل غير المشروعة وكانت أهداف النجاح واضحة جلية ازداد احتمال الانحراف الابتكاري .

ثالثًا : يوجد استدلال ضمني وهو أن الوسائل غير المشروعة والتي سبق أن استعملها الناس في الماضي حسب الضغوط الشاذة ستكون متاحة بشكل أسهل للأفراد المحتاجين للبحث عن النجاح والذين لديهم رغبة في مخالفة الوسائل المشروعة ثقافيا ، هذه الظروف والشروط الضمنية التي تتخذ موقفا ابتكاريا نجدها موضحة في الفرض رقم ٤ .

رابعًا : كلما كانت الوسائل البنائية المشروعة ثقافيا أقل توافرا لأعضاء مجتمع معين وكان الوازع الداخلي ضد استخدام الوسائل غير المشروعة أضعف ثقافيا ، كلما عظم حدوث السلوك الابتكاري في أولئك السكان . متى كانت القيم الثقافية التي تفرض الإنجاز الفردي واسعة الانتشار وبارزة وكانت بالوسائل غير المشروعة متاحة بسهولة.

ج ـ نمط الطقوسية :

يتمثل هذا النمط من التكيف في التخلي عن الأهداف الثقافية للنجاح الفردي وتحقيق الثروة وصعود السلم الاجتماعي أو التقليل من مستوى طموح الفرد حتى يصل إلى درجة منخفضة يمكن معها إشباع هذا الطموح وفي نفس الوقت يظل الفرد ملتزما بطريقة شبه قهرية بالأساليب المشروعة لتحقيق الأهداف على الرغم من أنها لا تحقق له شيئا يذكر .

ويسود هذا النوع من التكيف لدى الطبقة الوسطى الدنيا مثل صغار الموظفين البيروقراطيين في الشركات والمصالح الحكومية، ويفسر ميرتون وجود هذا النمط من التكيف بأنه يرجع إلى أسلوب التنشئة الاجتماعية الصارم السائد في هذه الطبقة وإلى الفرص المحددة للتقدم المتاحة لأعضاء هذه الطبقة . ويحل الأعضاء هذه الأزمة التي يواجهونها بالامتثال مع الوسائل ورفض أهداف النجاح وتتضح هذه الفروض الضمنية في الفرض رقم ٥ :

كلما توفرت الوسائل البنائية المشروعة ثقافيا لدى أعضاء من السكان وكلما عظم القلق على المكانة التي يشغلها أعضاء من ذلك المجتمع في السعي وراء أهداف النجاح الثقافية ، كلما زاد حدوث السلوك الشعائري الطقوسي بين هؤلاء السكان ، وذلك عندما : أ) تكون القيم الثقافية التي تفرض وتملي الإنجاز الفردي واسعة الانتشار بارزة ، وعندما ب) تكون ممارسات التنشئة الاجتماعية التي تحقق الالتزام السيكولوجي المتين بالوسائل المشروعة ثقافيا واسعة الانتشار .

د- نمط الانسحابية :

وهو من أقل الأنماط شيوعا في المجتمع الأمريكي ، والفرد الذي يلجأ إلى هذا النمط الانسحابي يعيش في المجتمع ولكنه لا يكون جزء منه بمعنى أنه لا يشارك في الاتفاق الجماعي على القيم المجتمعية . والانسحابي يتخلى عن كلا من الأهداف والأساليب التي يحددها النسق ، ومن أمثلة هذا النمط من التكيف الانحرافي حالات الجنون والتشرد وإدمان الخمور وإدمان المخدرات، ويرى "ميرتون" أن هذا النوع من الأفراد لا يقبل الأساليب الإبداعية (أي غير المشروعة) لتحقيق الأهداف وفي نفس الوقت لا تتاح له الفرصة لاستخدام الأساليب المشروعة لتحقيقها ولا يكون أمامه من مفر سوى أن ينسحب من المجتمع إلى عالمه الخاص (الجنون أو السكر أو الأوهام) وهكذا يحل هذا الفرد الصراع النفسي عن طريق الهروب الكامل من المجتمع .

وبالنسبة للأفراد الذين يجدون أنفسهم في هذا الموقف يعتبر الانسحاب من الالتزام بأهداف النجاح الثقافية وكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة أكثر التوافقات احتمالاً ، هذا الفرض يصاغ شكلياً على النحو التالي :

" كلما قل توفر الوسائل الإنشائية المشروعة ثقافياً لدى أفراد مجتمع معينة كلما زادت الموانع الداخلية ضد استخدام الوسائل غير المشروعة ثقافيا - كلما زاد حدوث السلوك الانسحابي في هؤلاء السكان عندما أ- تكون القيم الثقافية التي تفرض الإنجاز الفردي واسعة الانتشار وبارزة وعندما ب - تكون ممارسات التنشئة الاجتماعية التي تخلق التزاما قويا بالوسائل المشروعة واسعة الانتشار.

هـ- نمط التمرد :

يتسم هذا النمط من التكيف بإدانة ، وليس مجرد رفض كما هو الحال في النمط السابق ، كلاً من الأهداف الثقافية للنجاح والالتزام بالأساليب النمطية لتحقيقها أي إذا كان النمط السابق يتسم برفض الأهداف والأساليب رفضا سلبيا والهروب من المجتمع، فإن هذا النمط يتسم بالرفض الإيجابي والسعي إلى استبدال البناء الاجتماعي القائم ببناء آخر يضم معايير ثقافية مختلفة للنجاح وفرصا أخرى لتحقيقه .

وفي نظر "ميرتون" فإن سلوك التمرد أكثر احتمالاً في حدوثه عندما يتزايد ويتصاعد بشكل خطير الإحباط ومشاعر الحرمان المدركة من الفشل في تحقيق الأهداف من خلال القنوات الشرعية وحينما توجد جماعات تطرح أيدولوجية قادرة على تعبئة مشاعر الحرمان ، وتتضمن مناقشته للتمرد أن مشاعر الحرمان لا تحتاج إلى أن تكون مطلقة وإنما أن تكون نسبية في أن أهداف النجاح الثقافية تثير توقعات ورغبات في النجاح إلى درجة تتصاعد معها الإحباطات ومشاعر الحرمان وبصرف النظر عن النجاح المحدود وبالوسائل المشروعة فإن هذا الفرض الضمني في نظرية ميرتون يمكن صياغته شكليا كما يلي : الفرض رقم ٧ : كلما زاد إحساس الأعضاء في مجتمع معين بالإحباط والحرمان بالنسبة لاشتراكهم في الوسائل المشروعة ثقافيا لتحقيق أهداف النجاح وكلما توفر لهؤلاء الأعضاء جماعات تنقد أيدولوجيا هيكل النظام كلما زاد حدوث سلوك التمرد في هؤلاء السكان[1].

---

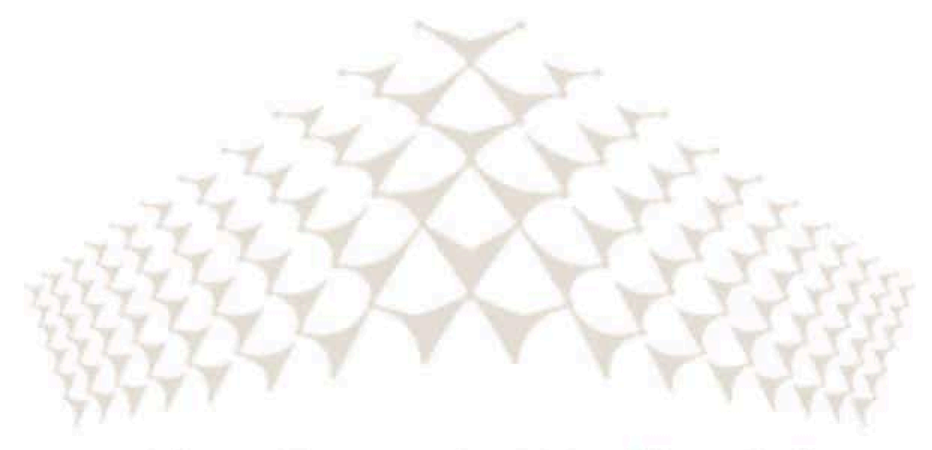
[1] انظر: تيرنر جوناثان (١٩٩٩). بناء نظرية علم الاجتماع. ترجمة محمد فرح، الإسكندرية: منشأة المعارف. وكذلك: نعيم، سمير (١٩٨٣). مرجع سابق.

الفصل الرابع
نظرية الصراع

أولاً- مقدمة في نظرية الصراع.
ثانياً- البنائية التاريخية الصراعية عند كارل ماركس.
ثالثاً- الصراع عند رايت ميلز.
رابعاً- الصراع الاجتماعي عند لويس كروز.
خامساً- نظرية الصراع الاجتماعي عند رالف داهرندوف.
سادساً- الاتجاه الماركسي الجديد.

أولاً- مقدمة في نظرية الصراع:

- تعريف الصراع.
- مبررات حيوية الصراع.
- مشروعية الصراع الاجتماعي.
- الصراع في علم الاجتماع.



الفصل الرابع

نظرية الصراع

أولاً: مفهوم الصراع الاجتماعي :

يحدث الصراع الاجتماعي نتيجة لغياب الانسجام والتوازن والنظام والإجماع في محيط اجتماعي معين. ويحدث أيضا نتيجة لوجود حالات من عدم الرضا حول الموارد المادية مثل السلطة والدخل والملكية أو كليهما معاً. أما المحيط الاجتماعي المعني بالصراع فيشمل كل الجماعات سواء كانت صغيرة كالجماعات البسيطة أو كبيرة كالعشائر والقبائل والعائلات والتجمعات السكنية في المدن وحتى الشعوب والأمم . والفكرة الأساسية تتمثل في القول أن قضية الصراع بين المجموعات البشرية هي في الواقع ظاهرة عضوية في الحياة الإنسانية والعلاقات السائدة بينها. ويمكن إيراد نوعين من العوامل حول القول بأن الصراع الاجتماعي ظاهرة اجتماعية بين المجموعات البشرية :

١. ما يسمى بـ" الرموز الثقافية" وهو نوع من العوامل التي تؤدي إلى انسجام بين البشر أو إلى خصام. والخصام في هذا السياق قد يتجلى في الاختلاف على مفهوم السلطة المادية.

٢. من وجهة نظر ماركسية فإن قضية العدالة الاجتماعية تعد متغيراً بنيوياً في إثارة الصراعات الاجتماعية طالما أن هناك توزيعاً غير عادل للثروة .

تعريف الصراع الاجتماعي عند رالف داهرندوف:

يعرف رالف داهرندوف الصراع على أنه "حصيلة العلاقات بين الأفراد الذين يشكون من اختلاف في الأحداث " [1].

---

[1] ناصر، سعيد (١٩٩٣) . نظرية الصراع عند داهرندوف. مجلة البحوث العربية ، كلية العلوم الاجتماعية ، طرابلس ، العدد (٢) ، ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

مبررات حيوية الصراع:

١- أن الصراع هنا يعني الصراع الذي يسعى إلى إعادة توزيع السلطة بطريقة عادلة ، أو الذي يسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، فالوجود ليس سوى عملية صراع من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية ، والصراع هو البعد الواضح للتعامل في عمليه السعي المستمر نحو خلق نظام جديد.

٢- يترتب على هذا أننا نستطيع أن نحلل من خلال قضية الصراع، قضية النظام، فمشكلة النظام تنشأ بناء على تصور الواقع على أنه "حرب الكل ضد الكل"، أي أنه واقع يخبر عمليات غير منظمة من الصراع، الأمر الذي يفرض ضرورة قيام نظام بين عناصر هذا الواقع، ووجهة النظر التي تنطلق من مفهوم الصراع لا تفرض هذا ولكنها تضع شروطا لنوعية النظام الذي يجب أن يقوم.

٣- وأكثر من هذا فإن التركيز على مفهوم الصراع يتيح لنا أن نتناول أشكالا أخرى من النظام غير ذلك الشكل القائم على الالتزام بالمعايير، فمن خلال تصور أي نظام اجتماعي على انه يحوي عمليات مستمرة ومتنوعة من الصراع يمكن أن يمتد التحليل إلى أشكال أخرى من النظام غير ذلك النوع القائم على الالتزام بالمعايير فمن الممكن التمييز بين النظام العام - كجبرية اجتماعية تفرضها طبيعة الوجود الإنساني ذاته_ وهو النظام يحوي عناصر صراعية مستمرة تمتد عبر مستويات متعدد تبدأ من جزئيات النظام وتنتهي بكياناته وبين النظام العام كجبرية سياسية محددة تاريخيا، وهذا النظام تفرضه طبقه اجتماعية محددة تعمل على الحفاظ على وضعيته العامة والخاصة من خلال مكانيزمات متعددة للضابط الاجتماعي، ومن خلال تطويع الصراع عن طريق نقله إلى مستويات دنيا بحتة باستخدام أدوات ثقافية - وسائل الإعلام على سبيل المثال- وبين نوع ثالث من النظام هو النظام القبلي الذي تفرضه سلطة دينية أو قبلية من خلال عزل المجتمع عن التيارات الخارجية والقضاء على أي بادرة صراع عبر كل المستويات البنائية الجزئية والكلية على حد سواء، وبين نوع رابع هو النظام القائم على فرض السلطة العسكرية التي تكبح أي مظهر للصراع من خلال أساليب بوليسية وإعلامية متعددة. وتدل هذه الأشكال على أن للنظام العام أشكالا وألوانا تجعله يختلف باختلاف الفترات التاريخية ، وباختلاف الإطار المكاني الذي ينشأ فيه، وهو على اختلاف أنواعه يمثل رد فعل لمشكلة أكبر وأضخم[1] .

---

[1] زايد، أحمد (١٩٨٣). مرجع سابق.

مشروعية الصراع الاجتماعي:

تهتم النظريات الاجتماعية باستكشاف أسباب الصراع الاجتماعي وانعكاساتها، وتحاول أن تطرح رؤىً فكرية بخصوص إمكانية نفي المفهوم أو التحكم فيه. أي البحث في استعمال المفهوم وتوظيفه لتبرير غايات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو حتى فلسفية. إن الفكر النظري حول الصراع الاجتماعي هو فكر قديم جداً، ولعل نظرية "كارل ماركس" حول الصراع الطبقي تمثل حصيلة لتراكم الزاد المعرفي لهذه النظرية. فالصراع الاجتماعي عند "ماركس" له جذور اقتصادية تشكل الطبقات الاجتماعية أساسه عند المجموعات البشرية . فالصراع الطبقي حسب الماركسية هو القوة المحركة للتاريخ .

من جهة أخرى يرى البعض كـ " روبرت مالتوس "[1] صاحب النظرية الشهيرة في السكان بأن الثروات وقتل الملايين من الأفراد عبر وسائل العنف المتعددة والمتنوعة هي مسألة ضرورية لتقدم البشرية. بعبارة أخرى فالصراع الاجتماعي من هذا المنظور أساسي وضروري لإحداث تغير اجتماعي إيجابي وكأن فلسفة التقدم والتنمية التي اجتاحت أوربا في القرن التاسع عشر ما كان لها أن تنجح لولا البعد العنفي الكامن فيها. وفي هذا السياق يبدو أن للصراع وظيفة إيجابية .

الصراع في علم الاجتماع :

حيث تُعَدُّ نظرية الصراع الاجتماعي كطليعة للفكر الماركسي، فإنها من جهة ثانية تُعَدُّ بديلاً للنظرية البنيوية الوظيفية، بل أنها تمثل مخرجا للنظريتين فهي من جهة تحمل بذور الوظيفية وفي نفس الوقت تحمل بذور الماركسية لذا فهي تستعمل مضامين

---

[1] مالتوس، توماس روبرت Malthus, Thmmas Robert (١٧٦٦- ١٨٣٤) عالم اقتصاد سياسي إنجليزي. ولد قرب مدينة دوركينج بمقاطعة سوري الإنجليزية من أسرة من الطبقة المتوسطة. حصل على الرسالة الكهنوتية عام ١٧٩٧م من كلية المسيح. كان يميل للاهتمام بالمشكلات المعاصرة وينظر إلى الزيادات السكانية في عصره باعتبارها من العوامل التي تسهم في ترسيخ الحرمان بشكل مستمر. عمله الشهير " مقالة عن السكان" صدر عام ١٧٩٨م لطرح أحد العوامل المحددة للتفاؤل الاقتصادي ولمثل المجتمع الحر ذي النظام الرشيد في القرن التاسع عشر. وفي عام ١٨٠٥م أصبح أستاذاً للتاريخ والاقتصاد السياسي بكلية هاليبيري التابعة لشركة الهند الشرقية.

وفرضيات كل من الوظيفية والماركسية بحيث يستحيل ردّ أطروحاتها إلى أي من هما منفردة . وقد ظهرت نظرية الصراع لتضيف أبعادا واقعية إلى الإطار الفكري الذي يستخدمه علم الاجتماع في تحليل المجتمع واتخذت هذه النظرية مفهوم الصراع مفتاح رئيسي لتفسير الظواهر الاجتماعية بدلا من فكرة التضامن العضوي الذي استندت إليه النظرية العضوية وقد ترتب على ذلك نتائج فكرية مهمة منها:

١- لم يعد النظام العام في المجتمع هو الحقيقة الأولية الأساسية بل أصبح نتيجة نهائية لبعض العمليات الاجتماعية.

٢- اختفت من قاموس المصطلحات المستخدمة في نظرية الصراع بعض المفهومات مثل الإنسانية والمجتمع وظهرت مفهومات أخرى مثل الجماعات الخاصة التي تواجه بالحرب والصراع.

٣- لم يعد تفسير النظام العام في المجتمع مستندا إلى الاتفاق المشترك على المعايير والقيم بل أصبح هذا النظام في ضوء نظرية الصراع نتيجة لعملية القهر التي تفرضها الجماعات التي تملك القوة السياسية والاقتصادية وإخضاع هذه الجماعات المغلوب على أمرها.

٤- فرقت نظرية الصراع بين شكلين من القواعد المنظمة للسلوك الاجتماعي هما:

- القواعد الأخلاقية.
- القانون.

ويؤكد الباحثون في علم الاجتماع أن الصراع ظاهرة لصيقة بالحياة في المجتمع وأنها توجد في كل مستويات هذه الحياة على مستوى الظواهر الاجتماعية ذات النطاق الضيق كالصراع بين الأدوار أو العلاقات الاجتماعية في الجماعات الصغيرة. وتعد آراء ماركس من أبرز المحاولات التي نظمت نظرية الصراع ذلك أن الماركسية ترى أن أساس الصراع يمكن في العلاقات الاجتماعية للإنتاج[1].

وسبقت الإشارة إلى النقد الذي تعرضت له النظرية الوظيفية على عدة مستويات باعتبارها نظرية محافظة ذات طابع إيديولوجي وغير قادرة على التعامل مع

---

[1] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

التغيرات الاجتماعية كونها ركزت في انطلاقاتها على استقرار البنى الاجتماعية حتى فقدت القدرة على تحليل الصراع الاجتماعي. لذا يمكن القول أن نظرية الصراع الاجتماعي تمثل محاولة قام بها العديد من علماء الاجتماع للمحافظة على الاهتمام بمفهوم البنية وفي الوقت نفسه الاعتناء بمفهوم الصراع.

ويعد كتاب عالم الاجتماع الأمريكي " لويس كوزر" المنشور تحت اسم "وظائف الصراع الاجتماعي" ١٩٥٠ م أول محاولة تنظيرية في هذا الصدد. أي أنه أول محاولة أمريكية تتعامل مع الصراع الاجتماعي انطلاقا من رؤية البنيوية الوظيفية مما يعني أن "كوزر" انفرد نوعاً ما بنظرة إيجابية للصراع الاجتماعي. ومع ذلك فالبعض يرى أن دراسة الصراع الاجتماعي يجب أن يتجاوز الوظائف الاجتماعية الإيجابية لهذا الصراع.

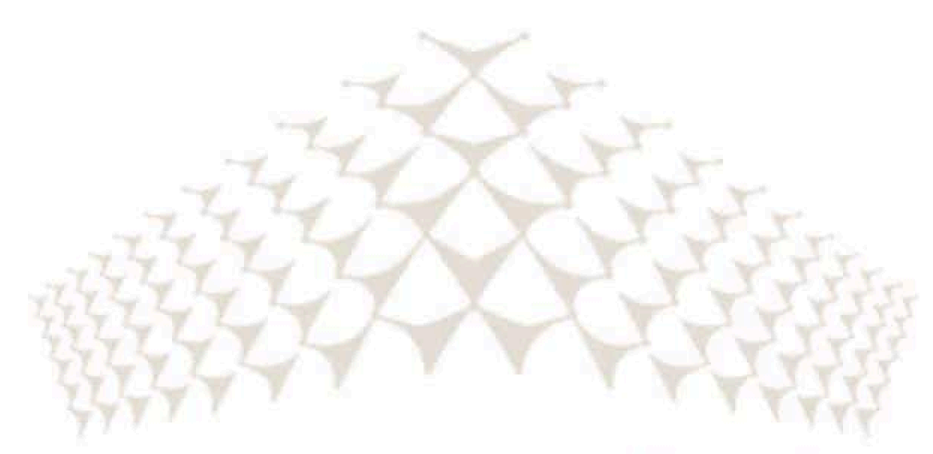
والمعنى يكمن في النظرية الماركسية. فلعل أبرز ضعف تشكو منه نظرية الصراع الاجتماعي هو فقدانها لأرضية النظرية الماركسية، ولعل الاستثناء الوحيد في هذا الميدان هو عالم الاجتماع الألماني " رالف داهرندوف " الذي حاول تلقيح نظرية الصراع الاجتماعي بأطروحة الفكر الماركسي فكان كتابه " الطبقة وصراع الطبقات " أهم عمل اجتماعي حول نظرية الصراع الاجتماعي. ومع هذا فإن "داهرندوف" يكاد يستعمل نفس الإطار التحليلي الذي تبناه علماء الاجتماع الوظيفيون " البنى والتنظيمات الاجتماعية ". ومن ناحية أخرى فقد نبه "داهرندوف" إلى أن عناصر النسق الاجتماعي يمكن أن تعمل معاً متناسقة ويمكن أن تعرف صراعاً وتوترات ذات بال، فالمجتمعات تتمتع بحركية والصراع هو أحد ملامح هذه الحركية وكما أن هناك تناسقاً اجتماعياً فهناك أيضا مجابهات وتوترات اجتماعية[1].

وفي النهاية يمكن النظر إلى نظرية الصراع الاجتماعي على أنها مرحلة عابرة في تاريخ تكوين النظرية الاجتماعية . ويعود فشل تبلورها إلى عدم الاستفادة الكافية من الفكر الماركسي الذي كان انتشاره ضئيلاً قبل الخمسينات في القرن العشرين بين علماء الاجتماع الأمريكان ومع ذلك فالنظرية الصراعية هيأت الظروف المناسبة لقبول الفكر الماركسي بين المثقفين الأمريكان مع مطلع الستينات من القرن نفسه.

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٥٠٧-٥١١.

ومما يؤخذ على نظرية الصراع الاجتماعي أيضاً أنها تركز في تحليلاتها على البنى الاجتماعية مهملة بذلك دور الأفراد وتفكيرهم وسلوكاتهم، فالوظيفية أصلاً لم تعط دوراً للفرد ولا أهمية له[1].

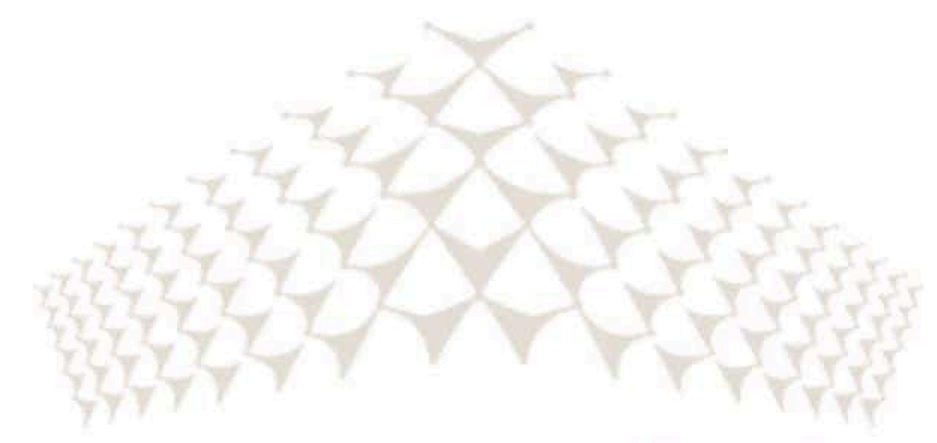


[1] راجع الفصل الحادي عشر (الصراع والتغيير الاجتماعي) في كتاب : بوتو مور (١٩٨٥). علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي. ترجمة عادل الهواري، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص٢٠٨-٢٣١. والذي تضمن عرضاً لتطورات النظريات الصراعية وأسباب الاهتمام بالصراع الاجتماعي في مرحلة الرواد، ثم العزوف عنه، ومن ثم العودة إليه بعد بروز النظريات الصراعية الحديثة.



ثانياً- البنائية التاريخية الصراعية عند ماركس:

- حياته.
- الفكري الماركسي وتطوره.
- المفاهيم والمقدمات العامة في فكر ماركس.
- الأطروحات العامة لماركس.
- المفاهيم الرئيسة:
- المادية التاريخية.
- العمل الإنساني.
- الطبقة الاجتماعية.
- الاغتراب.
- التغير الاجتماعي.
- التكوين الاقتصادي والاجتماعي.
- الوجود الاجتماعي والوعي.
- البناء الغرضي وتحليل المجتمع الرأسمالي.
- توجيه البنائية التاريخية للبحث العلمي في علم الاجتماع.
- الانتقادات الموجهة لرؤية ماركس.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

ثانياً- البنائية التاريخية الصراعية عند كارل ماركس
Karl Marks (١٨١٨-١٨٨٣م) :

حياته:

ولد "كارل ماركس" عام ١٨١٨م في مدينة تريف Trieve في منطقة بروسيا. من أب يهودي. كان والده مولعاً بالثقافة وفلسفة التنوير. حصل على الثانوية والتحق بجامعة بون. ثم بجامعة برلين بكلية الحقوق عام ١٨٣٧م. وفي عام ١٨٤١م حصل على الدكتوراه في الفلسفة برسالة بعنوان " الفرق في فلسفة الطبيعة بين أبيقور وديمقراطيس". والتحق أستاذاً بجامعة برلين وانضم لجماعة الهيجليين اليسار. وعلى الرغم من أن "كارل ماركس" قد توفي قبل أكثر من ثمانين عاماً (١٨٨٣م)، إلا أن أعماله ظلت باقية إلى اليوم وتشكل في الحقيقة حجر الزاوية وفي الإطار النظري والتصوري، بل كان لأفكاره أثر بارز في تشكيل بعض السياسات الواقعية.

تأثر "ماركس" بالثورة الصناعية في إنجلترا وكذلك بالثورة السياسية في فرنسا والثورة الثقافية في ألمانيا، وقد التقت هذه المؤثرات والتيارات جميعا عند "ماركس" ونسجت خيوط نسقه الفكري وشكلت مقدماته المنطقية التي تنزع نحو النقد والعمل من أجل التغيير. كان ماركس يصر على ضرورة الصراع السياسي باعتباره وسيلة التحرير الاجتماعي. ومن ثم وجه انتقاداته للاشتراكية العاطفية المثالية. وأخذ يبشر باشتراكية جديدة. تستند إلى العلم وتقوم على الجدل المادي وتتزود من زاد الاقتصاد السياسي.

التقى مع إنجلز Engils عام ١٨٤٤م في باريس[1]. ومنذ ذلك الوقت أصبحا رفيقين، حيث اشتركا في الجمعيات الثورية في فرنسا. وأخرجا معا نظرية البرولوتاريا

---

[1] فريدريك إنجلز Engels, Friedrick (١٨٢٠- ١٨٩٥م) صديق العمر والشريك لكارل ماركس. وكان صحفياً بارعاً ومؤرخاً اجتماعياً ومتخصصاً في الشؤون العسكرية، ورجل أعمال. قدم الدعم المادي والفكري لماركس. كان لديه قدرة على التصنيف المنهجي والتبسيط العلمي للمادية التاريخية. ولد في بارمن في ألمانيا وتوثقت صداقته بماركس منذ عام ١٨٤٤م، وكان لدراسته الاقتصاد السياسي في ذلك الوقت تأثير كبير في تطوير فكر ماركس. أصدر عام ١٨٤٥م كتاب " ظروف الطبقة العاملة في إنجلترا"، وفي عام ١٨٤٥- ١٨٤٦م اشترك مع ماركس في كتاب " الأيدولوجيا الألمانية". من أعماله الأخرى " فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية" عام ١٨٨٨م. و " جدل الطبيعة" والذي نشر بعد وفاته عام ١٩٢٥م. وكتاب " نشأة العائلة: الملكية الخاصة والدولة" ١٨٨٤م. وفي العقد الأخير من حياته نشر المجلد الثاني من كتابه " رأس المال" ١٨٨٥م، والجزء الثالث عام ١٨٩٤م.

الثورية .في عام ١٨٤٧م التحق بالحزب الشيوعي. كتب البيان الشيوعي للثورة عام ١٨٤٨م. له عدد من المؤلفات أهمها كتاب " رأس المال" عام ١٨٤٨م، وكتاب " البناء الشيوعي" عام ١٨٤٨م، وكتاب " نقد الاقتصاد السياسي " عام ١٨٥٩م، وكتاب "الاقتصاد الوطني والفلسفة" عام ١٨٤٤م، وكتاب " بؤس الفلسفة" عام ١٨٤٧م.

يعد "ماركس" مؤسس لما سمي بالاشتراكية العلمية. ويقصد بها ما توقعه ماركس وأتباعه من خلال البرهان العلمي بحتمية سقوط المجتمع الرأسمالي ليحل محله نظام اقتصادي واجتماعي اشتراكي[1]. كما تُعدّ كتابات "كارل ماركس" وتحليلاته في دراسة المجتمع الرأسمالي والعلاقة بين أسلوب الإنتاج والعلاقات الاجتماعية ومن ثم ظهور الأيديولوجيات والصراع الطبقي ، وكيف أن أساليب إنتاج معينة تشكل ليس فقط العلاقات الإنتاجية ومن ثم الاجتماعية ، وإنما تشكل كذلك صورة الإنسان وقيمه وتصوراته عن ذاته وعلاقاته بمَن ومع مَن حوله من أهم الكتابات في العلوم الاجتماعية. ويعد تناوله لقضايا مثل : الاغتراب والتشيؤ وصنيمة السلعة من أهم القضايا التي تواجه مصير الإنسان الحديث في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، أو كيف يجد نفسه ضحية لأعماله ، بل وكيف أن هذه التحولات المادية الإنتاجية تعيد صياغة مفهوم الإنسان وعلاقته بالكون والحياة ، بل لعلنا لا نبالغ إن قلنا أن مفاهيم الاغتراب والأزمات الدورية والصراع الطبقي وأسلوب الإنتاج وغيرها من المفاهيم الجوهرية في فكر "ماركس" لم تشكل وتبلور الفكر الحديث في مجال العلوم الاجتماعية فقط ، وإنما شكلت مفاهيم الإنسان الحديث ، بحيث لم يعد بإمكانه التفكير والتأمل من خارج إطارها . ولذا يعدّ تأثير "ماركس" في العلوم الاجتماعية بارز واضح ، حتى قيل إن هذا العلم عالة على أفكاره وأن الانتقادات والتطويرات التي يجري إبداعها إنما تشكل حواراً مع " خيال ماركس ".

ولا يقتصر فكر ماركس فقط على الدوائر الأكاديمية والفكرية ، وإنما تم تبنيه وتطبيقه بأشكال وتفسيرات مختلفة تشكل سياسات وحكومات وأنظمة ، ولكن، على الرغم من فشل معظم هذه المساعي لوضع أفكار ماركس موضع التطبيق ، بل ورغم أن جل نبؤاته لم تتحقق ، فإن المعمول به في الدوائر الأكاديمية هو ضرورة فصل أفكار

---

[1] أسعيد، محمد (١٩٨٥). عباقرة الفكر الاجتماعي. الرياض: دار الوطن، ص ٣١٥-٣١٧.

ونظريات وإسهامات "ماركس" عما ظنه البعض تطبيقاً لأفكاره . ولذا فإنه رغم سقوط المعسكر الشرقي - الذي يرى البعض أنه يجسد أفكار "ماركس" - إلا أن أفكار وأطروحات "ماركس" لا تزال قيد التناول بين المختصين في علم الاجتماع ، بل دون مبالغة لا تزال أفكاره وأطروحاته نابضة بالحياة ، قادرة على إنتاج فريد من التأمل والتفكير[1] .

الفكر الماركسي وتطوره:

هناك اتفاق على تقسيم الإنتاج الفكري عند "ماركس" إلى مرحلتين:

١- المرحلة الأولى هي مرحلة الشباب التي تضم أعمال ماركس التي كتبها في الفترة ما بين ١٨٤١م-١٨٨٣م. وبين الأعمال المهمة في هذه الفترة دراسته عن العائلة المقدسة وكتابه بؤس الفلسفة.

٢- تبدأ المرحلة الثانية منذ ١٨٤٨ وحتى نهاية حياة ماركس ويظهر الطابع الاجتماعي واضحا في فكر ماركس ويتسم تحليله للنظام الاقتصادي برؤية اجتماعية واضحة[2].

الواقع أن تيار الفكر الماركسي منذ وفاة ماركس علم ١٨٨٣م قد ظل مؤثرا في نظرية علم الاجتماع وقد تشكل هذا التأثير بصورتين هما:

- الصورة الأولى : تمثلت في الاتجاهات النقدية لآراء "ماركس" على يد الرواد مثل، "دوركايم "، و"تونيز" و"فيبر"، وعلى يد المعاصرين أيضا من أمثال "سوروكن وبارسونز".

- الصورة الثانية: تمثلت في المراجعات التي قام بها أنصار "ماركس" لتعديل آرائه لكي تتلاءم مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي استحدثت بعد وفاته أو لإضافة أفكار وأبعاد جديدة إلى النظرية وممن هؤلاء "جرامشي ولينين ولوكاش". هذا ولم يعد

---

[1] راجع الفصل الخامس (كارل ماركس: سوسيولوجي أم ماركسي). في كتاب : بوتو مور (١٩٨٥). علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي . ترجمة عادل الهواري. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص٩١- ١٠٦. والذي تضمن تحليلاً علميا لفكر ماركس، وتأثيره على النظرية الاجتماعية.

[2] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

الصراع أمرا محتوما بين الطبقات لأن المجتمعات قد استطاعت أن تنظم هذا الصراع في صورة نظم وقوانين تحقق في صورة سليمة وظائف الصراع[1].

المفاهيم والمقدمات العامة في فكر ماركس:

يقوم منظور" ماركس" للصراع وتفسيره للعالم الاجتماعي على ستة افتراضات مهمة وهي:

١- يمتاز العالم - بما في ذلك العالم الاجتماعي - بالمرونة والتغير.

٢- لا يعد التغير في العالم الاجتماعي أمراً عشوائياً بقدر ما هو منظم إلى حد يمكن ملاحظته.

٣- يمكن أن نجد مفتاح هذا النمط للتغير في العالم الاجتماعي خاصة في علاقات الناس داخل النظام الاقتصادي وعالم العمل.

٤- بالإمكان النظر إلى المجتمع باعتباره نسقاً مكوناً من أجزاء متشابكة.

٥- تشكل النظم الاجتماعية كلاً في اتجاهات وسلوك الناس داخل المجتمع.

٦- وفي النهاية تعرف عموماً وجهة النظر الأساسية الفلسفية التي يأخذ بها ماركس في فهم طبيعة الإنسان وعلاقته بالعالم الطبيعي باسم المادية التاريخية[2].

وعلى ذلك يقرر "ماركس" عدة مبادئ أساسية :

١-المجتمع يضم مجموعات اجتماعية وأنشطة اقتصادية واعية وهادفة .

٢- يختلف وضع المجموعات على حسب موقعها في نظام الإنتاج الاجتماعي .

٣- تختلف المجتمعات من حيث درجة التطور الاجتماعي .

٤- هناك نوعان من القوانين تحكم ظواهر الكون : قوانين عامة وأخرى نوعية .

٥- ويرى أن التطور في المجتمع نتاج التفاعل المستمر بين الإنسان والطبيعة .

٦- من شروط قيام حياة اجتماعية متطورة العمل المادي مع شرط وجود علاقات إنسانية .

---

[1] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

[2] جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص١٠٣-١٠٥.

٧- تعتمد هذه العلاقات على ما يسميه وسائل الإنتاج الاجتماعي أي موضوعات العمل وأدوات الإنتاج [1].

الأطروحات العامة لماركس:

١- رفض "ماركس" استخدام تسمية علم الاجتماع في أي من كتاباته، لا لأنها تسمية غير موفقة فحسب، وإنما أيضا لارتباطها بالفلسفة الوضعية التبريرية التي روج لها "أوجست كونت" وفضل تسمية العلم بعلم المجتمع وحدد موضوعه الأساسي بدراسة المجتمع الإنساني، ككل تاريخي متغير، من خلال دراسة القوانين الاجتماعية لتطور التكوينات الاجتماعية الاقتصادية Socio-Economic Formation . وبحث مختلف العلاقات الداخلية لجوانب الحياة الاجتماعية ، وأما عن الموضوع الأساسي للبحث السوسيولوجي الماركسي فيتحدد بالعلاقات الاجتماعية الأساسية الموضوعية ، التي يأتي في مقدمتها العلاقات الإنتاجية . -علاقات الماركسية- وتحدد أيضا بالوجود الاجتماعي الموضوعي. وتعد التفرقة التي أثارها ماركس بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي انتقالا حاسما أكسب علم المجتمع طابعا متميزا، ونقله من مرحلة الفلسفة الاجتماعية إلى إطار النظرية السوسيولوجية.

٢- يتألف الفكر الماركسي من مكونين أساسيين: هما المادية الجدلية والمادية التاريخية ويؤكد رواد هذه النظرية أن المادية التاريخية تمد علم المجتمع بإطاره الأساسي، الذي يقدم لهذا العلم إجابة علمية على المسألة السوسيولوجية المعرفية الأساسية ، مسألة العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي. فالمادية التاريخية هي إطار علم الاجتماع العلمي الذي يدرس القوانين العامة للتطور الاجتماعي، وصور حدوثها وتجسداتها من خلال النشاط الاجتماعي التاريخي للإنسان. فقضايا المادية التاريخية وكذلك فروضها، هي الامتداد المحسوس لقضايا المادية الجدلية وفروضها لأن المادية الجدلية بمثابة الإطار الفلسفي العام، في حين تعد المادية التاريخية الإطار السوسيولوجي الأساس.

---

[1] حجازي، محم (١٩٨٨). مرجع سابق.

٣- ليس المجتمع لدى" ماركس " مفهوما مطلقا أو حقيقة مجردة بل هو موجود واقعي يتوقف كيانه على أسلوب الإنتاج وطبيعته التي تسم بطابعها كل مجتمع من المجتمعات . ومن ناحية أخرى لا يتصور" ماركس" الإنسان إلا في مجتمع، ولا تتحقق ماهية الإنسان إلا بالعمل، لأنه هو الذي يكسب الإنسان حقيقته الواقعية. ولقد هاجم "ماركس" أكثر من مرة الأفكار التي كانت ترى وجود تناقض بين الإنسان والمجتمع، أو تضاد بين المجتمع والفرد. وفي هذا يؤكد على ضرورة استبعاد أي تجريد للمجتمع في مقابل الإنسان.

٤- يعد تأكيده على مفهوم الطبقة الاجتماعية إبرازا وتجسيدا لتركيزه على ما هو اجتماعي داخل المجتمع. فلم يستسلم في أي من كتاباته لتحويل علم المجتمع إلى دراسة اختزالية للأفراد، تركز على الأبعاد البيولوجية أو السيكولوجية فيهم وإنما عد الطبقة مفهوما أساسيا ومقولة تحليلية[1]. وقد حدد الطبقة بمحددات موضوعية. وتتحدد الطبقة عن طريق الملكية وعن طريق قوى الإنتاج والتقسيم الاجتماعي للعمل حسبما تسمح به المرحلة التاريخية.

٥- لا يعني التفسير المادي- الاقتصادي- لتاريخ الإنسان والمجتمع ،أن الناس عن وعي أو بلا وعي ، وكلية وأصلا تحركهم الدوافع الاقتصادية ولم يعتقد ماركس أن مكونات البناء الفوقي كالأفكار والقيم والفنون..الخ، غير ذات أهمية أو أنها سلبية لأن ما حاوله هو إزاحة الغطاء عن الظروف الاقتصادية التي تشكلها وتعلل قيامها وسقوطها. وذكر "ماركس "أيضا في افتتاحية" إسهام في نقد الاقتصاد السياسي" أن بعض عناصر البناء الفوقي تستمر حتى بعد زوال الظروف المادية التي أنتجتها مما يفهم منه وجود استقلال نسبي لهذا البناء.

٦- تقوم الدعائم المنهجية للبحث السوسيولوجي الماركسي على المنهجين الجدلي والتاريخي ، مع عدم استبعاد أهمية الطرائق البحثية التي كانت تستخدم في زمانه، وقد ساعده المنهج التاريخي على كشف القوانين العامة والنوعية للتطور الاجتماعي كما ساعده المنهج الجدلي على التمييز في الحياة الاجتماعية بين الموضوعي والذاتي، والعام والخاص، والضروري وغير الضروري ، والاجتماعي وغير

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

الاجتماعي . وقد ساعد هذا على إكساب علم المجتمع طابعا علميا وطابعا نوعيا في الوقت نفسه.

٧- تتركز وظائف علم المجتمع وأدواره في وظيفة علمية وأخرى مجتمعية ،كل منهما تثري الأخرى وتنميها وتطورها. فإذا كان مسعى البحث السوسيولوجي الماركسي هو الكشف عن تجسدات القوانين العامة والقوانين النوعية للتطور الاجتماعي فإن القصد من هذا هو توفير أرضية علمية للتنبؤ بالمسار الاجتماعي، الذي يفيد في إعادة النظر فيما هو قائم، وما يمكن أن يؤول إليه لو ترك على تلقائيته وما يقتضيه الأمر من تخطيط وتدخل له لتجاوز تناقضاته وسوءاته سواء ما يتعلق بالاستغلال أو الاغتراب أو أية صورة أخرى من صور استلاب الإرادة الإنسانية المبدعة ولهذا كان الرجل حريصا على تأكيد أهمية إسهام العلم والبحث في إحداث التغيير المقصود حين قال في رده على فويرباخ : لقد درس الناس العالم على أنحاء عدة ،غير أن المهم في الأمر هو تغييره[1].

المفاهيم الرئيسة:

١-مفهوم المادية التاريخية:

يحاول "ماركس" بالمادية التاريخية أن يصبغ وجهة نظر فلسفية تستطيع أن تحقق المعالجة بين وجهتي نظر فلسفتين متعارضتين حول طبيعية الواقع، هما المثالية والمادية. وتشير المثالية في صورتها إلى أن العالم يوجد في أذهان البشر، وأنه بالإمكان تغير العالم من خلال تغير الفكر. وتندفع المادية نحو الطرف الآخر وتشير إلى أن العالم الخارجي وعالم الأشياء المادية والطبيعية هو الذي يشكل تصورات وأفكار الناس. وقد نتج عن المادية التاريخية حتميات متعددة:

١- ليس بؤس الفقراء ناجماً عن خبث قائم في طوية النفس البشرية المتسلطة. بل هو ناجم بعض الشيء من وقوعهم تحت المكينة الاقتصادية الطاحنة. فهو بهذا نتيجة لتطور لا سيطرة للإرادة عليه.

٢- يتحدد سلوك البشر تبعاً لمراكزهم وأعمالهم وانتماءهم إلى مختلف الأوساط الاقتصادية، فهو تعبير عن مفاهيم طبقتهم.

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

٣- تنبأ بنهاية النظام الاقتصادي المعاصر له. والقائم على المنفعة الفردية (الرأسمالية). وأن هذه النهاية ستكون حتماً على يد التقدم الفني والتطور الاقتصادي، وبخاصة تمركز الأعمال الصناعية. وهو مثل " أوجست كونت" القائل بأن المرحلة الإيجابية هي النهائية في سلك التطور. بعد أن بين "ماركس" بأن كل شكل من أشكال الحياة الاجتماعية يحمل تناقضاته في أدوائه لم يتحدث عن الدولة الاشتراكية التي تنبأ بها ولا عن الأشكال الطبيقية التي ستتخذها[1].

٢-مفهوم العمل الإنساني:

أدرك "ماركس" أن ما يرتبط بالعمل من شرور وآلام، فصاغ مفهوم اغتراب العمل وذهب إلى أن العمل المغترب هو الذي يفرض على الإنسان بواسطة الآخرين كعمل إجباري يتعارض مع النشاط الابتكاري الحر.

ويطرح "ماركس" بهذا التصور للعمل المغترب فكرة انقسام المجتمع إلى جماعتين رئيسيتين هما: سادة ظروف الإنتاج من ناحية والمنتجين المباشرين من ناحية أخرى. وباستطاعة العمل الإنساني أن يغير من نفسه ومجتمعه في إطار قدرته على تغيير الطبيعة.

٣-مفهوم الطبقة الاجتماعية:

بالإمكان تمييز أعضاء الطبقة الاجتماعية من خلال مجموعتين في المعايير الموضوعية:

يشير "ماركس" إلى أن أساس الطبقات الاجتماعية يمكن أن يتجسد في العلاقات المتباينة للجماهير بوسائل الإنتاج وتعتبر مثل هذه العلاقات علاقات حاسمة في تحديد فرص الحياة وأسلوب الحياة للأفراد الذين تخصهم بالذكر المعايير الذاتية. كما يشير "ماركس" إلى أن التاريخ يؤكد أن العبيد والفلاحين كانوا عادة لا يشكلون طبقة اجتماعية وإنما كانوا طبقة اجتماعية كافة أو محتملة، وعندما يفصل موسم الحصاد وترتفع الإيجارات فجأة. فإن الفلاحين الذين يعتبرون على نطاق واسع قد يتحدون ويشكلون جيشا ثائراً ساعياً نحو تصحيح الظلم الذي يعيشونه ومثل هذا الفعل يحول الطبقة الاجتماعية الكامنة (ذاتها) إلى طبقة اجتماعية حية (من أجل نفسها). الطبقات في

[1] أسعيد، محمد (١٩٨٥). مرجع سابق، ص ٣١٩.

السياق الماركسي هي عبارة عن مجموعات كبيرة العدد تختلف كل منها عن الأخرى حسب الموقع الذي تحتله في نظام الإنتاج الاجتماعي وبتحليل أفكار الماركسية فيما يتعلق بالطبقات نجد ما يلي :-

١- ينقسم المجتمع الطبقي بالضرورة إلى مجموعات طبقية منها ما هي أساسية أو فرعية .

٢- يتحدد الدور الذي تلعبه هذه المجموعات تبعاً لموقف طبقي محدد .

٣- يتكون المجتمع الطبقي غالباً من طبقتين أساسيتين طبقة مالكة ووسائل الإنتاج (مستغلة) وأخرى لا تملك هذه الوسائل (مستغلة) ويكونا متناقضتين .

٤- يتم التناقض على مستوى المصالح الطبقية وذلك نظراً للأهداف التي تحاول كل طبقة أن تحققها مما يحول الأمر إلى ثورة اجتماعية .

٥- تهدف الثوره الاجتماعية إلى تغيير علاقات الإنتاج الطبقية [١].

هناك طبقتان رئيسيتان في أي مجتمع من المجتمعات تمثل إحداهما نظام الإنتاج البائد بينما تمثل الثانية النظام الآخذ في التكوين، والصراع الطبقي هو الوسيلة التي تنقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى ، وتنتصر في النهاية الطبقة الصاعدة أو المنبثقة في هذا الصراع وتشيد نظاما جديدا للإنتاج يحمل بدوره في داخله بذور دماره والقضاء عليه لتستمر العملية الديالكتيكية من جديد ، وقد استخدم "ماركس" وأتباعه الإطار الجدلي في تحليل المجتمع الغربي المعاصر الذي دعوه بالمجتمع الرأسمالي . والفكرة الرئيسة للرأسمالية هي حرية العمل وحرية امتلاك وسائل الإنتاج فأصحاب العمل لا بد لهم من تشغيل العمال للعمل في مصانعهم ويتنافس هؤلاء الملاك فيما بينهم لتحقيق أكبر ربح ممكن ولذلك يحث العمال على العمل إلى أقصى جهد بأقل أجر ممكن. وقد أطلق ماركس مصطلح" وسائل الإنتاج " على جميع الآلات والأجهزة والمواد الخام التي يمتلكها صاحب العمل، وأطلق مصطلح "بورجوازي" على الأفراد الذين يمتلكون وسائل الإنتاج، وأطلق "ماركس" أيضا مصطلح "البروليتاريا" على العمال الذين يعملون لأصحاب رؤوس الأموال، ويرى ماركس أن المجتمعات الرأسمالية لا بد وأن تصل إلى مرحلة التمزق نتيجة الصراع الحتمي القائم بين الطبقة البورجوازية والبروليتارية .

---

[١] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

ويؤكد "ماركس" على أن الرأسمالية تحمل بذور فنائها ، فأصحاب رؤوس الأموال سيحاولون تخفيض أجور العمال لتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح إلى درجة تجعل العمال قد لا يجدون ما يسد رمقهم وزيادة الفقر والجوع لدى العمال ستجعلهم يتحدون معا للثورة على الطبقة الرأسمالية الغنية. وعند ذلك تؤسس الطبقة العاملة حكومة جديدة تمتلك جميع وسائل الإنتاج ، ولن يكون هناك ملكيات خاصة بل ستصبح الملكية جماعية لجميع أفراد المجتمع ويكون هناك طبقة واحدة في المجتمع ، ولن يكون هناك غني أو فقير ، ويتكون مجتمع لا طبقي كما يرى "ماركس" أن ليس هناك طبقة سعيدة وراضية عن أوضاعها في المجتمع الرأسمالي ففي الوقت الذي يرى "ماركس" أن العمال يعانون من الفقر والاستغلال يرى أن الطبقة البورجوازية كذلك ونتيجة للمنافسة والصراع المستمر فيما بينها لتحقيق أكبر ربح ممكن تعاني من ضغوط العمل والقلق لذا فكل الطبقتين تعانيان في ظل الرأسمالية وإن اختلفت طبيعة معاناة كل منهما ومن هنا نجد أن المجتمعات الرأسمالية من وجهة نظر ماركس غنية ماديا إلا أنها فقيرة اجتماعيا وروحيا .

وأن السيطرة أو ملكية وسائل الإنتاج تحدد الوضع الاجتماعي والقوة الاجتماعية أو هي تحدد الوضع الطبقي في المجتمع والرؤية الماركسية تقول أن هناك دائما في أي مجتمع طبقي طبقتين اجتماعيتين أساسيتين هما الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة أو الطبقة المستغلة والطبقة المستغَلة أو الطبقة القاهرة والطبقة المقهورة أو الطبقة الظالمة والطبقة المظلومة ولا ينطبق ذلك على النظام الرأسمالي فقط بل إن الصراع الطبقي في المجتمع الطبقي في أي مرحلة تاريخية هو الظاهرة الفعالة والمحركة للتاريخ والمؤدية إلى انتقال المجتمع من نظام وتكوين إلى آخر عبر مسيرته التاريخية[1] .

فالمجتمعات كما يرى "ماركس" تتحول من مجتمعات عبودية إلى مجتمعات إقطاعية ومن مجتمعات إقطاعية إلى مجتمعات رأسمالية ومن رأسمالية إلى اشتراكية وهكذا تقود الظاهرة الطبقية إلى الظاهرة الصراعية وتقود الظاهرة الصراعية إلى التغير أو التحول الاجتماعي[2] .

---

[1] انظر: بوتو مور (١٩٨٣). نقد علم الاجتماع الماركسي. ترجمة محمد علي وعلي جلبي، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

[2] عبد الباسط، عبد المعطي (١٩٩٥). مرجع سابق.

٤- مفهوم الاغتراب:

يقرر "ماركس" أن الناس يغتربون بعضهم عن الآخر ويغتربون عن منتجاتهم المادية والفكرية كما أنهم يغتربون أيضاً عن مجتمعهم . وقد تكمن الأسباب في الطريقة التي يتم بها بناء علاقات الإنسان الاجتماعية بالنسق الاجتماعي والتي تنظم حوله قداسة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج. ويقرر "ماركس" أنه في المجتمع الرأسمالي فقط يصل الاغتراب أقصى حد في تطوره.

ويشير معنى الاغتراب عند "ماركس":" الاغتراب يعني فقدان الإنسان لذاته، أو العملية التي يفقد الفرد خلالها قدرته على التعبير عن ذاته"[1]. وهذا المعنى انتهى إليه " ماركس" من خلال الفحص النقدي لوضع العامل في النظام الرأسمالي، فالعامل فيه مغترب عما ينتجه لأن الإنتاج ليس لإشباع الحاجات الإنسانية وإنما لزيادة رأس المال. ويرى أن التخصص وتقسيم العمل وعدم المساواة في توزيع المزايا والمكافآت التي اتسم بها النظام الرأسمالي جعل العامل منفصلا عن عملية الإنتاج وباغتراب العامل عن عمله اليومي أصبح مغتربا عن ذاته وإمكانياته الخلاقة وعلاقاته الإنسانية مع غيره في المجتمع. وهذا بدوره عزله عن طبيعته الإنسانية وجعله منعزلا عن زملائه في العمل وخارج نطاق العمل. فالعامل في ظل هذا النظام لا يمكنه الهروب من واقعه المفروض عليه والمتحكم في قدراته[2].

ويمثل الاغتراب أزمة للعامل في المجتمع الرأسمالي فهو في حاجة مستمرة إلى تبديد طاقاته الجسمانية في سبيل قبول الرأسمالي بالسماح له بالتبادل مع السلع التي هو أنتجها في سبيل إعادة إنتاج الطاقة البشرية للعامل ذاته . يعد مفهوم الاغتراب واحد من المفهومات الأساسية في السوسيولوجيا الماركسية فيرى "ماركس" أن أهم ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية هي قدرته على التخيل والإنتاج والإنسان يشعر بالسعادة وهو يجني ثمار عمله فالفلاح يكون في غاية السعادة وهو يجني المحاصيل والنجار يشعر بالفخر بعد أن يكمل العمل الذي يقوم به لكن في ظل النظام الرأسمالي ونتيجة

---

[1] شتا، علي (١٩٩٣). نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ص ١٢٥.

[2] السيد، سميرة (١٩٩٧). مصطلحات علم الاجتماع . الرياض: مكتبة الشقري، ص٤.

لاستغلال الطبقة الرأسمالية يفقد العمال الشعور بالفخر بعملهم لأن عملهم لم يعد ملكا لهم بل هو ملك لأصحاب رؤوس الأموال ومن هنا يرى ماركس أنه ستتكون حالة الاغتراب لدى العمال في المجتمعات الصناعية والاغتراب هو "شعور الفرد بأنه غريب في مجتمعه ويشعر بأن الحياة لا طعم ولا معنى لها" إذ يصبح العمل بالنسبة للعمال عمل بلا روح ولا معنى فهو عمل روتيني ممل وتحت تأثير التصنيع والاستغلال الرأسمالي تحول من رجل طبيعي إلى رجل مغترب ، ومن ثم فإن الهدف الأيدولوجي لماركس هو إعادة تحويل المجتمع إلى حالة يوجد فيها الرجل الطبيعي بدلا من المغترب .

ويتصور "ماركس" إلى أن نظاما استغلاليا كهذا محكوم عليه بالفناء والتحول من خلال هذا التناقض الأساسي ، هذا التحول لا بد أن يتم بشكل ثوري وعنيف لسبب بسيط وهو أن الطبقة المسيطرة لا يمكن أن تتنازل عن امتيازاتها ومكاسبها واستغلالها طواعية واختيارا وسوف تحث هذه الثورة حينما تعي الطبقة العاملة وجودها ووضعها والظلم الواقع عليها ومن ثم تعيد تنظيم مصالحها المشتركة حتى تتمكن من القضاء على أسباب القهر ومن ثم تخلق مجتمعا جديدا يقوم فيه التوزيع ليس على أساس الملكية وإنما على أساس العمل ثم الحاجات الإنسانية[1] .

مما لا شك فيه أن الاستغلال الاجتماعي هو القاسم المشترك في المجتمعات الطبقية . والاستغلال في أحد معانيه الاجتماعية هو تحقيق أكبر قدر ممكن من فائض القيمة لصالح أصحاب رؤوس الأموال في المجتمع الرأسمالي . أو بالأحرى لصالح تلك الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج الاجتماعي في المجتمع . ولتحقيق فائض قيمة أكبر للطبقة الرأسمالية تلجأ هذه الطبقة إلى أساليب متعددة ومتجددة من استغلال للطبقات العامة، تلك التي لا تملك سوى جهدها البشري . وعلى ذلك يصبح الاستغلال هو الوسيلة الأساسية لحصول مجموعة من الأفراد لاتقوم بالعمل الفعلي، على فائض عمل مجموعات أخرى تقدم طاقاتها الجسمانية في سبيل تحقيق العملية الإنتاجية كاملة .

إن فائض قيمة العمل يمثل بؤرة الصراع بين تراكم الثروة لدى الطبقة الرأسمالية المستغلة، واغتراب العمل عن إنتاج عملهم . ولا بد أن تحدث أزمة تنتهي - في ظل

---

[1] عبد الباسط، عبد المعطي (١٩٩٥). مرجع سابق.

شروط النظم الرأسمالي - إلى صراع طبقي، بين الطبقة صاحبة رأس المال، والطبقة المنتجة في المجتمع. وحتى يتم هذا الصراع يمتد الاغتراب إلى كل مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية حتى يصبح المجتمع في حالة عزلة عن أفراده، وتسود العلاقات الفردية داخل البناء الاجتماعي وتصبح أزمة البناء هي أزمة اغتراب بين الفرد والنظام [1].

٥- مفهوم التغير الاجتماعي:

يفهم من تصور "ماركس" للتغير الاجتماعي أن الطبقة الاجتماعية تعد بمثابة ميكانيزما حاسماً يعمل على تغير الأنساق الاجتماعية، ويشير إلى أنه من أجل أغراض فهم الكيفية التي يتغير بها البناء الاجتماعي وبطرق رئيسة فإن هناك جماعتين لهما أهميتهما في هذا الصدد، الجماعة التي لها مصلحة قوية في الحفاظ على النسق القائم، والجماعة التي لها مصلحة قوية في تغييره. ويتحقق التغير الاجتماعي من خلال النضال السياسي والقانوني والاقتصادي والعسكري حتى بين هاتين الجماعتين.

ولقد طور " ماركس" هذا التحليل بمساعدة المفاهيم الإضافية وثيقة الصلة منها: قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج والأساس الاقتصادي والبناء الفوقي.

ويمكن أن نمثل للتغير الاجتماعي على أنه يبدأ عند قاع المثلث ويظل متجها إلى أعلى القمة، وذكر "ماركس" أنه لكي يتحقق وجود نموذج جديد للمجتمع، على جماهير الشعب أو العمال الأحرار أن يصبحوا مدركين لما قد يحدث في مجتمعهم ويدركوا الروابط المشتركة والأزمة المشتركة التي تربط بينهم في كيان مشترك للعمال الأحرار، وعليهم أن يصبحوا جماعة اجتماعية فعالة أو طبقة اجتماعية ويطلق ماركس على العمال الذين ينظمون على هذا النحو في طبقة لذاتها اسم البروليتاريا.

٦- مفهوم التكوين الاقتصادي الاجتماعي:

مفهوم أساس في فكر " ماركس"، يمثل نموذجاً تاريخياً للمجتمع يقوم على أساس أسلوب إنتاجي محدد. كان لوجهة النظر المادية فضل في ظهور وبلورة مفهوم

---

[1] حجازي، أحمد (١٩٩٨). مرجع سابق.

التكوين الاقتصادي الاجتماعي الذي يعتبر حجر زاوية في وجهة النظر المادية والذي جعل من الممكن تحديد مرحلة التطور التاريخي الذي وصل إليه المجتمع في إحدى البلدان أو غيرها وكذلك صياغة السمات المميزة لهذه المرحلة في ضوء العناصر أو الأجزاء التي يشتمل عليها هذا التكوين والتي تتمثل في البناء الأساسي أو الاقتصادي وفي البناء الفوقي هذا فضلا عن أهميته في تحديد نظرتنا إلى العلاقة بين هذه العناصر المكونة للتكوين الاقتصادي الاجتماعي باعتبارها علاقة تفاعلية وكذلك نظرتنا إلى المجتمع على أنه كائن عضوي اجتماعي متماسك والذي يجعل من السهل علينا تحليل الظواهر الاجتماعية المتباينة في السياق التاريخي الاقتصادي[1] .

٧- مفهوم الوجود الاجتماعي والوعي:

يعرف الوجود الاجتماعي باعتباره الحياة المادية التي تتمثل في العلاقات بين الناس والطبيعة وبين الناس أنفسهم، أما الوعي يقصد به الأفكار والتصورات والمشاعر التي تساعد الناس والجماعات والمجتمع على تمثل العالم المحيط أو استيعابه[2]. إن الإشكالية التي تطرحها العلاقة بين الوعي والواقع، هي ما يعرف في الفلسفة بمسألة الأولوية أو نظرية الانعكاس، أي: أيهما يحدد الآخر؟ الوعي أو الواقع؟. لقد اكتشف "ماركس" تلك الحقيقة التي تقول أن الناس يجب بالدرجة الأولى أن يأكلوا ويشربوا ويملكوا مسكناً ويلبسوا قبل أن يتمكنوا من الاهتمام بالسياسة والعلم والفن والدين وما إلى ذلك. وأن إنتاج الوسائل المادية المباشرة للحياة، وكل درجة معينة من التطور الاقتصادي للشعب، يشكلان الأساس الذي تنشأ فوقه مؤسسات الدولة والنظرات الحقوقية والفن وحتى التصورات الدينية للناس المعنيين. أي أن الوعي وفق هذا التصور هو انعكاس للواقع، وهو ما عبر عنه " ماركس " بشكل دقيق بقوله: " ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم ولكن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم". وهو الذي عرف فيما بعد بالقانون الأساس للمفهوم المادي للتاريخ. من هنا استنتج العلماء

---

(١) Charles, H, Powers (2010). Making Sense Of Social Theory. U K: Littlefield Peblishers, INC.P115-120.

(٢) جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٠٦.

وفق هذه الرؤية الماركسية أن أسلوب الحياة المادية يحدد عملية الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية بوجه عام[1].

يرى " ماركس" في نظريته المادية التاريخية عدم عدالة توزيع عائد الإنتاج بين صاحب رأس المال وبين العمال، ذلك أن صاحب رأس المال يملك وسائل الإنتاج واعتبر ماركس الملكية الخاصة هذه هي سبب استغلال أصحاب رؤوس الأموال لطبقة العمال وهو بذلك أراد أن يمحو هذه الملكية الخاصة ويحولها إلى ملكية جماعية . لكن يلاحظ أن عدم عدالة التوزيع مفهوم يتضمن عنصرا أخلاقيا إذ أن التوزيع هو مفهوم اقتصادي ولكن عدالته أو عدمها فعل أخلاقي ومفهوم التوزيع بذاته مجردا من كل صفة أمر غير موجود في الواقع الاجتماعي ولكن ما يعطيه الوجود الاجتماعي هو إضافة صفة العدالة أو عدمها ومن ثم فعدالة التوزيع أو عدمها فعل اقتصادي قائم على قاعدة أخلاقية توجهه إذ أن الإنتاج بذاته لا يقوم بعملية التوزيع ولكن القائم بعملية التوزيع هو صاحب رأس المال ومن ثم فعدالة التوزيع أو عدمها فكرة أخلاقية في تصورات الرجل الرأسمالي الذي يملك ويؤدي دور الموزع في النظام الرأسمالي الذي أعطاه هذا الحق ، ومن ثم يتضح أن مفهوم عدالة التوزيع أو عدمها هي علاقة اجتماعية ذات طابع اقتصادي أساسها لا مادي وذلك عكس ما ذهب إليه ماركس ومن ثم فإن التغيير في العلاقات الإنتاجية لم يؤد إلى تغير في البناء الأعلى ولكن البناء الأعلى بما يحتويه من تصورات فكرية وعناصر أخلاقية هو الذي يشكل العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي أي هو الذي وجه عملية الربح أي أن هناك عنصرا أخلاقيا سلبيا عند أصحاب رؤوس الأموال هو الذي أدى إلى سوء عدالة التوزيع فلو أنه وجد العكس أي عنصرا أخلاقيا إيجابيا في تصورات البرجوازيين يؤدي إلى توجيه عملية التوزيع نحو العدالة لما وجد ماركس مادة يستخرج منها نظريته ، وهكذا يلاحظ أن عدم عدالة

---

[1] انظر: ياسين، السيد (١٩٧٠). الاتجاهات الحديثة في الفكر الماركسي. مجلة الفكر المعاصر، العدد (٥٩)، القاهرة، ص ٧٠-٧٩. وكتاب: كارل ماركس (١٩٦٨). نقد للاقتصاد السياسي. القاهرة: دار النهضة العربية، ص ٧.

التوزيع هي الفكرة المحورية في النظرية الماركسية وهذه الفكرة كما ذكرنا نابعة من سلبية أخلاق البرجوازيين في عصره ولكن تعنت ماركس وأيديولوجيته أعمته عن الحقيقة[1] .

البناء الغرضي وتحليل المجتمع الرأسمالي:

من خلال البناء الغرضي وتحليل المجتمع الرأسمالي أشار إلى:

١- علاقة الاستغلال وطبيعة النظام الرأسمالي:

أوضح ماركس الموقف الذي تتمتع فيه جماعة صغيرة هي جماعة الرأسماليين بمزايا اجتماعية واقتصادية، والتي آلت إليها وبدرجة كبيرة من جراء كفاح جماعة كبيرة أخرى هي جماعة العمال الأحرار التي لا تحصل إلا على أجور أقل، والتي كانت دائماً تحت تهديد البطالة.

وأشار أنه موقف استغلالي صريح. بمعنى أن العلاقة الوحيدة بين الجماعتين تتم من خلال النقود، وهكذا فإن الرأسمالية كانت مجتمعاً يضرب بجذوره في علاقات الاستغلال الصريحة التي يمارسها القلة على الأكثرية.

٢- تناقضات الرأسمالية وميكانيزماتها البنائية:

لاحظ "ماركس" أن النسق الرأسمالي ذاته ينتج التوترات والصراعات التي تهدده بالتمزق إلى أجزاء، مثالها: الصراع مع العمال المأجورين حول أجورهم وظروفهم، والتنافس العنيف بين الرأسماليين، والخيار بين اللاشعور بالنشاط والحيوية وبين اليأس الذي تتسبب فيه دائرة التجارة.

ويذهب "ماركس" إلى أن هذه التوترات سوف تشتد من خلال ميكانيزمات أربعة أساسية كان قد لاحظها في المجتمع الرأسمالي، وهي:

(أ) الاستقطاب: كان التصنيع قد عمل على تقويض ومحو المهارات التقليدية وكانت كل الجماهير التي تعتمد على أنفسها في العمل المستقل قد بارت سلعهم الرخيصة في السوق نتيجة تأثير التصنيع في الاقتصاد.

---

[1] عبد الباسط، عبد المعطي (١٩٩٥). مرجع سابق.

(ب) التجانس: أصبح الأفراد داخل كل من الفئتين الأساسيتين، الرأسماليين والعمال، أكثر تماثلا أو تجانساً من نواح عديدة ومهمة. وداخل فئة الرأسماليون حيث يميل التنافس التجاري مع الوقت إلى اختفاء الأعمال الصغيرة بينما يميل الرأسماليون الناجحون إلى توسيع نطاق أعمالهم. وهكذا فإن الرأسمالي النموذجي يميل إلى أن يصبح مالكا لمؤسسة عمل ضخمة ونامية ويصبح ثرياً.

(ج) زيادة حالة الفقر والبؤس: يميل الرأسماليون في اندفاعهم المستمر نحو قدر أكبر من الربح إلى الوصول بالأجور إلى المستويات الأدنى، والمستويات الضئيلة اللازمة لحفظ أجور العمال، فالعدد الكبير من المتعطلين يفيد الارتفاع أو الزيادة في مستويات الأجور حتى ولو زاد طلب الرأسماليين على العمل، وهكذا تصبح فترات الكساد عبر الزمن أكثر طولاً وتقصر فترة الازدهار.

(د) عملية الاحتكار: كانت عملية الاحتكار تمثل أحد جوانب تجانس العمل الرأسمالي. ولما كانت الوحدات الصغرى المستقلة مجبرة عن طريق التنافس المخيف إلى الاختفاء وتصبح الوحدات الباقية هي وحدات الإنتاج الكبرى، وكلما كبر حجمها زاد العائد لها في الاقتصاد.

وهذه الميكانزمات الأربعة متشابكة وتكمل بعضها الآخر.

٣- تؤدي التناقضات إلى تغير جذري وعنيف للنسق:

تؤكد خصائص الاستغلال والتناقض والصراع في التكوين الرأسمالي ضرورة التغير الجذري والعنيف لهذا التكوين وعلى المرء أن يفهم أولاً وبوضوح وعلى أساس علمي كيف كان يعمل النسق الاجتماعي الرأسمالي. وذهب "ماركس" إلى أنه على طول التاريخ كان طابع المجتمع يتشكل من خلال نظمه الاقتصادية وكانت الملكية الخاصة من أكثر النظم أهمية. ويعني ماركس بالملكية الخاصة ملكية وسائل الإنتاج في المجتمع، ودعا من خلال دراساته إلى توضيح كيف أن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج تؤثر على نحو حيوي في مجمل بناء المجتمع[1].

---

[1] جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١١٦-١١٩.

توجيه البنائية التاريخية للبحث العلمي في علم الاجتماع:

من خلال مناقشات "ماركس" المتنوعة نجد أنه قدم مضموناً جديداً لعلم الاجتماع، يؤكد فيه أهمية عدة قضايا:

١- إن تأكيد "ماركس" على البناء الاقتصادي للمجتمع. وإن كان هذا ليس جديداً وشائعاً بين علماء الاقتصاد. إلا أن الإسهام الماركسي الحقيقي في هذا الصدد يتمثل في السياق الذي ناقش ماركس في ضوئه البناء الاقتصادي، وسياق التطور التاريخي للعمل الإنساني على أنه علاقة أولية بين الإنسان والطبيعة، ومحاولة تصنيف المجتمعات الإنسانية على أساس نظمها الاقتصادية.

٢- كان إسهام "ماركس" الأكثر أصالة هو تحليله للبناء الفوقي الإيدلوجي وعلاقته بما سماه الأساس الحقيقي للمجتمع. أسلوب الإنتاح والعلاقات الاجتماعية الطبقية. ثم تأكيده أنه ليس وعي الإنسان هو الذي يحدد وجوده الاجتماعي، وإنما وجوده الاجتماعي هو الذي يحدد وعيه وشعوره.

٣- الثورة الاجتماعية التي أهملها علماء الاجتماع بصورة واضحة. بل إن مشكلة التغير الاجتماعي بصفة عامة لم تلق العناية التي تستحقها. فإن اهتمام علماء الاجتماع بهذا الموضوع كان محدوداً إلى أبعد حد. بل إن تراث علم الاجتماع يكاد يفتقر إلى دراسة كاملة عن الثورات. ولهذا يمكن القول أن علم اجتماع الثورة يعد إسهاماً لماركس.

٤- قدمت كتابات "ماركس" تحليلاً لمستقبل المجتمع الإنساني. وهنا يتضافر كل من علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية في تقديم ذلك المذهب الذي وضعه ليكون في الوقت نفسه جزءاً من بنيان المعرفة الإنسانية. وباعثاً للعمل السياسي.

والمتأمل للنسق الفكري الماركسي يستطيع أن يلاحظ أنه قد تناول مجموعة من المشكلات السوسيولوجية، وقد اتخذ من الأحداث التاريخية مصدراً لتعميماته وقضاياه الرئيسة.

ولعل من أهم النتائج العامة التي أسفر عنها هذا النسق الفكري:

١- اعتبار الطبقة الاجتماعية مقولة تحليلية في فهم بناء المجتمع.

٢- اعتبار الصراع مقولة تحليلية أخرى في فهم التغير الاجتماعي.

وتشكل هذه الجهود وغيرها تيار البحث في علم الاجتماع الموجه بأفكار البنائية التاريخية وقد حاولوا تطوير وتنقيح المفاهيم والقضايا النظرية التي قدمها لنا "ماركس" كطريقة منسقة في محاولة فهم تفسير العالم الاجتماعي[1].

الانتقادات الموجهة لرؤية ماركس :

هناك انتقادات ذات طابع فلسفي عام، وأخرى ذات طابع عقائدي وأيديولوجي، وثالثة ذات طابع اقتصادي، وجهت " لماركس" في دراسته السوسيولوجية للإنسان والمجتمع بعض الانتقادات الهامة التي يمكن تركيز أبرزها في اثنين:

الأول: ويتعلق بالتفسير المادي للتاريخ ولتطور المجتمع البشري .ويعد بيترم سروكين من أبرز من حاولوا التأكيد على هذا النقد. صنف ماركس بين أنصار الاتجاه الاقتصادي ،ثم أشار إلى أن تفسير "ماركس " تفسير على - سبي- أحادي الجانب، ويعد ضربا من الميتافيزيقا حيث يستعصي تطبيقه في المجال الاجتماعي على عدد كبير من العلاقات التي هي في الأصل ذات اعتماد متبادل. ومثل هذا النقد الذي يكاد يكون أكثر ذيوعا في كثير من الكتابات المناوئة لماركس يرى أنه لم يضع في حسبانه بعدين أساسين:

١- أن "ماركس وإنجلز" أكدا أكثر من مرة أن العامل الاقتصادي ليس، عاملا وحيدا، بل هو عامل مهم ،لا يلغي أدوار بقية العوامل بما في ذلك مكونات البناء الفوقي .

٢- أن "ماركس" لم يعتمد التفسير العلي في أي من دراساته. فمنطق الجدل يعني تبادل التأثير والتأثر بين الظاهرات المجتمعية، بين الكلي والجزئي، والشكل والمضمون . والضرورة والصدفة.

وحول هذا النقد يذهب "هنري لوفيفر" H.Lefevure إلى أن" ماركس" لم ير في الطبيعة البشرية سوى الإنسان الاقتصادي في حين أن "ماركس" نفسه، وأنصار فكرة

---

[1] جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٢٧.

السوسيولوجي يقررون أن سيطرة العامل الاقتصادي على الوجود الإنساني بأسره هي ما يسميه "ماركس " باسم اللاإنساني.

والأمر الثاني : ويتعلق بمصداقية التنبؤ الماركسي بمسار التطور الاجتماعي، وانتقال التكوين الرأسمالي إلى التكوين الاشتراكي. فهو يرى أن العلم علم بنائي ويرى المجتمع كلا تاريخيا متغيرا ومتطورا ، كما يرى أن المنهجين التاريخي والجدلي يسهمان في وصول أكثر دقة وأكثر واقعية إلى الظاهرات المجتمعية ، وأن المجتمع في تطوره وتغيره لا يسير سيرا عشوائيا متخبطا تحكمه الأهواء الفردية والنوازع السيكولوجية محكوم بقوانين اجتماعية نوعية للتطور الاجتماعي، وأنه نتاج للعمل الإنساني المبدع الخلاق، وأن غاية العلم ليست الدقة والأناقة المنهجية ،وإنما التخطيط لمستقبل أفضل للإنسان يتجاوز الحالات البنائية الراهنة بمشكلاتها وتناقضاتها إلى أخريات مقصودة ومرغوبة [1].

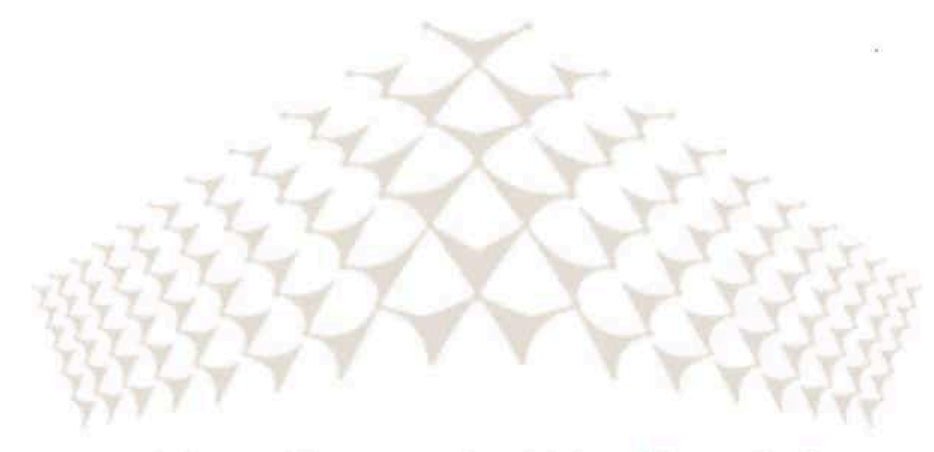
---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.



ثالثاً- الصراع عند رايت ميلز:

- حياته.
- الرؤية الصراعية.
- منهجية البحث الاجتماعي عند رايت ميلز.
- تصورات رايت ميلز لعلم الاجتماع.
- الواقعية الرعناء.
- أزمة علم الاجتماع.
- طبيعة وشكل أزمة المجتمع.
- أزمة الخيال السوسيولوجي.



ثانياً- الصراع عند رايت ميلز: **Wrigitt Mills** (١٩١٦-١٩٦٢م) :

حياته:

هو عالم اجتماع أمريكي ولد عام ١٩١٦م . في ولاية تكساس لأبوين من الطبقة الوسطى . وتوفي عن خمس وأربعين عاماً في نيويورك عام ١٩٦٢م. وقد حصل رايت ميلز على شهادة الدكتوراه من جامعة وسكنس Wisconsin عام ١٩٤١م. بدأ حياته الأكاديمية بالتدريس في جامعة ميرلاند. وفي عام ١٩٥٦م عمل أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة كولومبيا. وكان موضع اهتمامه دراسة الصراع وأنماط التطرف. ومن مؤلفاته الرئيسة كتاب " الياقات البيضاء" عام ١٩٥١م White Collar. وكتاب " قوة الصفوة" عام ١٩٥٦م The Power Elite. و كتاب " الشخصية والبناء الاجتماعي" عام ١٩٥٣م. وكتاب " الثورة في كوبا" عام ١٩٦٠م. وكتاب " الماركسيون The Marxists" وكتاب " الخيال السوسيولوجي" عام ١٩٥٩م Sociological Imagination. الذي حمل هجوماً على السوسيولوجيا الأمريكية لكونها مجرد بحث إحصائي في الأمور التافهة، أو بحث في النظرية الكبرى المجردة. ولقد نجحت كتاباته الواضحة والجريئة في جذب جمهور واسع، كما كان لمدخله الأخلاقي الملتزم للسوسيولوجيا تأثيراً كبيراً على اليسار الأمريكي الجديد[1]. اعتبر من العلامات الفارقة في علم الاجتماع التي قيمت التراث الكلاسيكي في علم الاجتماع حيث كان يرى أن المنظرين الكلاسيكيين انكبوا على اهتمامات أساسية مشتركة[2].

الرؤية الصراعية:

يتمثل الاتجاه الصراعي موقف "رايت ميلز" نحو الوظيفية في أن فكرة الصراع هي القوام التصوري لنظرية عامة في علم الاجتماع تنافس الوظيفة في كل الاعتبارات، فكأنه لا يقتصر على إبراز الوظائف الاجتماعية الإيجابية التي يقوم بها الصراع في

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ١٣٨. وانظر كذلك: ميشيل مان (١٩٩٤)، مرجع سابق، ص ٤٥٥- ٤٥٦.

[2] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٦٤.

المجتمع كما يفعل " لويس كوزر"، ولا يضع صياغة نظرية للصراع الاجتماعي محاولاً أن يكون فيها استكمالا للإطار التصوري لتحليل المجتمع إضافة إلى الوظيفة كما يرى "داهرندوف"، بل يرى "ميلز" أن نظرية الصراع نظرية شاملة عن المجتمع يمكن أن تحل محل الوظيفة كإطار تصوري للتحليل الاجتماعي.

ولهذا يسأل "ميلز" ثلاثة أنواع من الأسئلة:

١- ما هو بناء المجتمع المعين ككل؟

٢- أين يقف هذا المجتمع في المجتمع الإنساني؟

٣- أي النوعيات من الرجال والنساء السائدة في هذا المجتمع وفي هذه الفترة؟[1]

ولقد لفتت مشكلة السلطة نظر "رايت ميلز"، وما يتبدى في هذه السلطة من توزيع متفاوت بين الفئات والجماعات في المجتمع . فهناك الصفوة من تلك الجماعات التي تتراكم لديها السلطة والمكانة والثروة، وهناك جماهير الشعب الذين يمثلهم رجل الشارع- كما يقولون- وهم الذين حرموا من القدرة على التأثير في الشؤون العامة، والذين يلتزمون بقيود فرضت عليهم ولا قدرة لهم على التحكم فيها، والذين تاهوا في عالم مغترب تبتلعه المنظمات الكبرى، والذين يعجزون حتى عن مجرد توافر الوعي لديهم بمكانهم في المجتمع.

ويتفق "رايت ميلز" مع "ماركس" في أنه يرد الصراعات الاجتماعية إلى مصادرها في البناء الاجتماعي الشامل في المجتمع، وفي وجهة نظره في انقسام المجتمع إلى جزأين بينهما عداء مستحكم ولكل منهما متعارضة، وهو يشير في صورة بالغة الوضوح إلى الفروق بين الاتجاه الماركسي في دراسة المجتمع، وبين الاتجاهات السائدة في العلوم الحديثة[2].

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق، ص٢٥٨.

[2] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٥٦- ١٥٧. وكذلك انظر: حجازي ، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ١٣٩.

منهجية البحث الاجتماعي عند رايت ميلز:

إذا كان الباحثون الاجتماعيون يتناولون في دراستهم تفصيلات الأوساط الاجتماعية المباشرة ذات النطاق الضيق كالأسرة والمدرسة والمصنع ، فإن ماركس يتناول هذه التفصيلات أيضاً ولكنه يدرجها دائماً في نطاق بناء المجتمع ككل ، وإذا كان الباحثون الاجتماعيون يعلمون عن التاريخ نزراً يسيراً ، ويدرسون الاتجاهات ذات المدى الزمني القصير ، فإن "ماركس" يستخدم المادة التاريخية باقتدار وإتقان متخذاً من الحقبة التاريخية ذات المدى الطويل وحدة لدراسته وإذا كانت قيم الباحثين الاجتماعيين قد أدت بهم إلى تقبل ظروف مجتمعهم على أنها أحسن وأجمل ما يمكن أن تكون ، فلقد أدت القيم التي يعتنقها "ماركس" إلى أن يدين المجتمع الذي يعيش فيه.

وإذا كان الباحثون الاجتماعيون يرون أن مشكلات مجتمعهم هي مجرد مظاهر للتفكك الاجتماعي، فإن "ماركس" ينفذ إلى أعماق هذه المشكلات ويردها إلى التناقضات المتأصلة في البناء الاجتماعي القائم ، وإذا نظر الباحثون الاجتماعيون إلى المجتمع على أنه حلقة في سلسلة من التطورات لا يترتب عليها أي انفجارات كيفية أو تحولات جذرية في بناء المجتمع ، فإن رؤية ماركس تختلف عن هؤلاء ذلك أن مجتمع المستقبل سيطر عليه التحول الكيفي الجذري ليبتدئ بناء المجتمع في المستقبل في صورة جديدة، بل إن المستقبل سيرى حقبة تاريخية جديدة تتحقق بوساطة الوسائل الثورية.

ويتفق "رايت ميلز" مع "ماركس" في رأيه عن رسالة الباحث في علم الاجتماع. فليست مهمة هذا الباحث مقصورة على تقديم وعرض المعطيات الاجتماعية التي يحصل عليها من دراساته للمجتمع، ولكن قوام رسالة هذا الباحث أن يكون عوناً للإنسان العادي على أن يحدد اتجاهه في الحياة التي يعيش فيها، وعلى أن يكتشف معالم الطريق الذي يسير فيه خلال متاهات الخبرة بالحياة اليومية التي يعيش فيها هذا الإنسان.

تصور رايت ميلز لعلم الاجتماع:

يؤكد "رايت ميلز" على أهمية دراسة التفاعل بين الإنسان والمجتمع، بين التاريخ الشخصي والتاريخ العام، بين الذات والعالم الذي تعيش فيه هذه الذات. وهكذا يبدو علم الاجتماع في تصور رايت ميلز علماً واسع المطامح، يسترد مجالاته كما تمتد جذورها إلى آراء الرواد في القرن التاسع عشر، محاولاً العودة مرة أخرى إلى دراسة

الظواهر ذوات النطاق الواسع التي تشغل الإنسانية وتعكس همومها لأن مثل هذه الظواهر قد أغفلتها الاتجاهات الأمبريقية التي سادت علم الاجتماع تحت تأثير النزعة التي تتجنب الغوص في دراسة المشكلات الاجتماعية التاريخية التي تواجه المجتمع الإنساني كالحروب والاستغلال والفقر والتخلف والظلم الاجتماعي، بحيث أصبح تركيز الاهتمام في ضوء النزعة التجريبية منصباً على دراسة مشكلات الحياة اليومية بينما ظلت المشكلات الحقيقية التي يعاني منها المجتمع الإنساني بعيدة عن متناول الدراسة[1].

ولقد بدت قناعة "رايت ميلز" في ضرورة إيجاد رؤية تصورية جديدة لعلم الاجتماع، وهي رؤية لا تستند إلى إبراز التعارض بين فكرة الصراع أو الوئام، أو بين التغير والاستقرار، بل إن قوامها دراسة الإنسان في إطار التاريخ، أو كما يقول ميلز دراسة التفاعل بين التاريخ الشخصي والتاريخ الإنساني، وهذا يعني من جانبه عوداً إلى علم الاجتماع التاريخي الذي أغفلته الوظيفية. ذلك أن علم الاجتماع في تصور ميلز ينبغي أن يكون تاريخياً حتى يستطيع أن يدرك المشكلات الاجتماعية الحاسمة التي تواجه البشرية وذلك لأن طبيعة الظواهر الاجتماعية تستلزم قيام تصور لهذه الظواهر يحوي أبعادها التاريخية. ويساهم الخيال السوسيولوجي في :-

١- توجيه الفكر السوسيولوجي نحو دراسة الواقع من رؤية بنائية تاريخية شاملة تلغي التجزيئية والأمبريقية المجردة.

٢- مساعدة عالم الاجتماع في فهم العناصر البنائية - التاريخية حيث تعطيه الرؤية الحقيقية عن مشكلات العصر.

٣- يساعد الخيال السوسيولوجي على كشف الدعاوى الفكرية المزيفة .

٤- تدعو فكرة ميلز إلى ضرورة فهم المجتمع خلال علاقتهما الجلية المتبادلة فلا يمكن فهم القضايا الخاصة بمعزل عن القضايا الكبرى[2].

---

[1] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٦٠-١٦٢.

[2] حجازي، أحمد (١٩٩٨). علم اجتماع الأزمة تحليل نقدي للنظرية الاجتماعية في مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

ولقد كان لتصور ميلز لمجال علم الاجتماع ومهامه نتائج منهجية عديدة :

فهو لم يحاول أن يحاكي معاصريه من الباحثين في علم الاجتماع في تجميع المعطيات الكمية عن الظواهر الاجتماعية. كما أنه كان يبدي تبرمه بكل أشكال التجريد وذلك لأن اهتمامه كان مركزاً في دراسة مجتمع معين في زمان ومكان محددين ، وكان هدفه هو فهم هذا المجتمع في حدوده التاريخية والمكانية والاجتماعية والثقافية، وأن ينشر هذا الفهم على الناس في المجتمع والعالم الذي يعيشون فيها. ولهذا فهو يشكك في إمكان الوصول إلى قوانين سوسيولوجية عامة عن بناء المجتمع أو عن دينامياته، ويرى أن كل القوانين أو التعميمات السوسيولوجية التي تتجاوز التعميمات التاريخية المستندة إلى دراسة معطيات التاريخ إن هي إلا تجريدات خاوية فارغة.

ولا يعتقد "رايت ميلز" في التحرر الأيديولوجي للباحث في علم الاجتماع أو في موقفه المحايد من القيم. ذلك لأن الالتزام الأخلاقي والسياسي من جانب هذا الباحث يعد ضرورة، لأن جهده في الدراسة يسلم إلى شكلين من أشكال المعرفة الفنية المتخصصة وتحوي البيانات المليئة بالمصطلحات والتعبيرات العلمية وهي تقدم للصفوة الحاكمة يمكن استخدامها واستغلالها في تحقيق أغراض مختلفة.

أما الشكل الثاني من المعرفة فهو الذي يقدمه الباحث في علم الاجتماع للمواطن العادي حتى يتهيأ لمثل هذه المواطن أن يتكون لديه طابع عقلي خاص يسميه رايت ميلز بالعقلية الاجتماعية الناقدة، وهي - أي العقلية الاجتماعية الناقدة- نوع من الإدراك الذاتي يوجد لدى كل من يستطيع أن يرى أن مصيره كفرد في إطار الفترة التاريخية التي يعيشها، وفي إطار البناء الاجتماعي الذي يوجد فيه، هو - أي مصير الفرد- حلقة في سلسلة من العمليات التاريخية، وأن هذا المصير الفردي عنصر من عناصر يألفها كل اجتماعي متباين، وبهذا يتمكن الفرد المزود بهذه العقلية من تفسير العمليات التاريخية، والبناء الاجتماعي، في ضوء ما تمارسه هذه العمليات وذلك البناء من أثر في الكائنات البشرية.

ذلك أن العقلية الاجتماعية تمكن كل من يوجد لديه هذه الرؤية من فهم دلالة الحقبة التاريخية التي يعيش في ظلها الفرد، وما لهذه الدلالة من تأثير في الحياة الداخلية للفرد وفي مستقبله ومصيره... وبوساطة هذه العقلية الاجتماعية يستطيع الفرد أن يفهم

خبرته الذاتية، ويقدر مصيره، بأن يدرج ذاته في إطار الفترة التاريخية التي يعيشها...، وبواسطتها يدرك الفرد أن وجوده في الحياة يسهم بقدر- مهما كان ضئيلاً- في تشكيل مجتمعه، وفي تحديد مجرى تاريخه.

وبهذا يصبح خلق هذا العقلية الاجتماعية هو الهدف الأول لعلم الاجتماع ويعد خلق هذه العقلية عملاً فكرياً وسياسياً في الوقت نفسه طالما أنه يحقق تحول المجتمع، لأنه يخلق الوعي الاجتماعي لدى الفرد بوجوده التاريخي والاجتماعي وما يترتب على هذا الوعي من قيام الفرد بسلوكه الاجتماعي بحيث يتشكل هذا السلوك في ضوء هذا الوعي الاجتماعي الذي يخلقه العقل الاجتماعي. وبهذه الوسيلة تتحول المشكلات الشخصية التي يعاني منها الأفراد إلى شكل ظاهر صريح يطفو على سطح المجتمع مشكلاً هموماً جماعية يواجهها المجتمع، وتتحول اللامبالاة والسلبية من جانب الجماهير إلى نوع من الالتزام بالقضايا العامة التي تشغل المجتمع.[1]

مصطلح الواقعية الرعناء:

مصطلح «الواقعية الرعناء» أطلقه عالم الاجتماع الأميركي سي .رايت ميلز عام ١٩٥٨ عندما نشر كتابه «أسباب الحرب العالمية الثالثة»[2]، اعتبر ميلز في كتابه أن النخب الحاكمة في الولايات المتحدة تعبّر عن تفوقها على عامة الشعب بإعلانها عدم انخداعها بالخطاب المثالي وادعاءها التأقلم والتكيف مع الوقائع والمتغيرات الصعبة للسياسة، إلا أن هذه النخب كما شرح ميلز تصبح سجينة ادعاءاتها الضيقة، فلا تعود ترى حلولاً لمشكلاتها مع الآخرين سوى اختلاق الحروب. وقد سمى ميلز عدم القدرة على التفكير بحلول خارج إطار اللجوء إلى القوة «الواقعية الرعناء». من المفيد اليوم

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق، ص٢٥٥-٢٥٧.

[2] وهو قريب من مصطلح الصفوة القوية الذي نشره عام ١٩٥٦م. والتي وصفها (التوافق المضطرب دائماً للقوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية). وهو يرفض وصفها بالطبقة الحاكمة القائم على المصلحة الاقتصادية. (انظر: بوتو مور (١٩٨٥)، مرجع سابق، ص ١٦٩. كما أنها في بعض الترجمات يطلق عليها " نخبة السلطة" انظر: جان كزوف (١٩٨٩). دعائم علم الاجتماع. ترجمة عادل العوا، دمشق: دار طلاس، ص٢٧٥.

العودة إلى كتابات ميلز لكونها من أولى الكتابات التي لحظت وصول طلائع نخب جديدة إلى السلطة في الولايات المتحدة.

اعتبر "ميلز" الذي كتب في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، أن أراضي الولايات المتحدة تشكل، لأول مرة في تاريخها، كتلة مجتمعية مرتبكة، فإذا كان الاقتصاد في السابق عبارة عن تجمّع وحدات إنتاج محلية أو إقليمية الطابع، فإنه الآن مسيّر في اتجاه خدمة حاجات بضع مئات من الشركات الكبرى. وإذا كانت السلطة السياسية، يوماً، مجموعة في الولايات التي يربط بينها الكونغرس، فإنها الآن تخضع لرغبات موظف رسمي نافذ. وإذا كانت المؤسسة العسكرية يوماً ممانعة لمبدأ الجهوزية التامة، فإنها اليوم تستهلك نصف الموازنة العامة، وقادتها وجنرالاتها يجلسون في مكاتبهم في واحدة من أكبر بنايات العالم.

الأدوات السلطوية التي تمتّعت بها هذه الاحتكارات الثلاثة: الإنتاج، الإدارة السياسية، والعنف، تضمّنت القدرة على منع القضايا والأفكار من الوصول إلى الكونغرس في الدرجة الأولى. وإذا كان معظم الأميركيين لا يزالون يؤمنون بأن النقاش في الحيّز العام يوجّه القضايا السياسية، فإنه «علينا الاعتراف اليوم بأن هذا التوصيف ليس إلا محض خرافة»، كتب "ميلز": "إذ إنه توصيف لا يصلح حتى ليكون نموذجاً تقريبياً لكيفية عمل نظام السلطة الأميركي" . لذلك فقد مثّلت مجموعات الرجال الصغيرة الواقفة على رأس الاحتكارات الثلاثة صعوداً لنخب جديدة عكست بسلوكها، وخصائصها الثقافة اللاديموقراطية للمؤسسات التي تديرها. فالشركات الكبرى تختار موظفيها فقط من كليات إدارة الأعمال المرموقة، وتفرض برامج تدريب تتطلب طاعة شديدة من الموظفين.

والمؤسسة العسكرية تختار جنرالاتها وقادتها من معاهد الخدمة وتغرس فيهم «شعور الجماعة» عبر عزلهم عن الحياة التشاركية للبلاد. وفي معظم الأحيان، لم تعد برامج التدريب المحلية تشكل جواز مرور إلى المناصب الإدارية للدولة، فمن بين الموظفين الأعضاء في إدارة الرئيس أيزنهاور، وجد ميلز أن عدداً لا يستهان به من هؤلاء لم يخضع يوماً لمبدأ الانتخاب على أي من المستويات. أشار ميلز إلى طبيعة العلاقات التبادلية بين وزارة الدفاع والبيت الأبيض والشركات الكبرى، حيث إن

المناصب الثلاثة الأكثر ارتباطاً بالسياسة العامة: وزارات الخارجية والمال والدفاع، كان يشغلها مديرون تنفيذيون سابقون للشركات الكبرى، فيما كان رئيس الجمهورية جنرالاً سابقاً. وقد حاجج بأن التوجه الموازي في السياسة الخارجية يتفرد به «مجمع عسكري - مالي» ويقضي بتجاهل الأمم المتحدة فيما يبقى الكونغرس محتفظاً فقط بصلاحية إعطاء الثقة أو حجبها. تصبح السياسة الخارجية آنذاك بمثابة العقيدة التي تُلقّن للجمهور عبر وسائل الإعلام. «لأول مرة في تاريخ أميركا، الرجال في السلطة يتحدثون عن حالة طوارئ من دون أية نهاية في المدى المنظور».

كتب "ميلز" منذ نصف قرن: « هؤلاء الرجال هم الواقعيون الرعناء: باسم الواقعية أسسوا لواقع توجّسي يخصّهم وحدهم» في الواقعية الرعناء، كتب ميلز في مقطع لا يزال بالغ التأثير بعد نحو نصف قرن على صدوره، «يتحد خطاب أخلاقي طنّان مع انتهازي يزحف وسط مخاوف وطلبات كثيرة مبعثرة. ويحل توقع الحرب الكثير من مشكلات الواقعيين الرعناء وبدلاً من الخوف المجهول والقلق بلا نهاية يفضل بعض رجال الدوائر العليا تبسيط كارثة معروفة.. وهم لا يملكون حلولاً لتناقضات الشرق الأوسط وأوروبا والشرق الأقصى وأفريقيا إلا بإنزال قوات المارينز..»[1].

بدوره فإن عالم الاجتماع الأميركي رايت ميلز كتب عام ١٩٤٤م يقول: " إن المثقف هو من بين الشخصيات القليلة الباقية المزودة بالقدرة على المقاومة والكفاح ضد تنميط الأشياء الأصيلة، وأنه لا ينبغي عليه الهروب إلى عالم الفن الخالص أو الأدب الخالص. إذن المثقف ليس هو ذلك الشخص الذي ألف الكثير من الكتب أو عرف العديد من النظريات، أو امتلك ناصية الخطابة والتنظير"[2].

---

[1] يمكن قياس مثل هذه الأطروحة على أحداث وقعت في العالم بشكل عام، والشرق الأوسط بشكل خاص منذ الخمسينات من القرن الماضي وحتى يومنا هذا! جراء مثل هذه الأطروحات لرايت ميلز. والتي ظهرت في كتابات العولمة والإرهاب والهيمنة الأحادية للسلطة والنفوذ الأمريكي، وصراع الحضارات. من قبل بعض العلماء وأهمهم بيتر بيرغر وهنتنتون - توفي عام ٢٠٠٨م- وفوكوياما.

[2] انظر: زايد، أحمد (١٩٨١). علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية. القاهرة: دار المعارف، ص ٢٤١-٢٨٧.

أزمة علم الاجتماع:

يمكن تلخيص أهم جوانب فكر رايت ميلز فيما يلي:

١- يرى علم الاجتماع برؤية براجماتية. فالأفكار والنظريات ليس لها قيمها بذاتها، بقدر قيمتها ما تستطيع أن تفعله في الواقع. لذلك كان يصف ويحلل العمليات والعلاقات الإنسانية، ويقدم في الوقت نفسه حلولاً للمشكلات الخطيرة التي يتعرض لها البناء الاجتماعي الأمريكي.

٢- دعا إلى الأخذ بالنظرة الشاملة في الدراسة السوسيولوجية. بحيث يركز الباحث على مستويات ثلاثة هي: الإنسان والمجتمع والتاريخ. حيث يقول: " عندما تصاغ مشكلات العلوم الاجتماعية صوغاً حقيقياً، لا بد أن تتضمن كلا من المتاعب والقضايا والتاريخ الشخصي للأفراد، وأيضاً التاريخ العام، ومجال العلاقات المعقدة القائمة بينهما، لأن حياة الفرد وتكوين المجتمعات كليهما يجريان في نطاق هذا المجال.

٣- يرى أن أزمة علم الاجتماع الغربي ترجع إلى التصورات الخاطئة للعلم نفسه. فالمفهوم السوسيولوجي لا بد أن يكون فكرة ذات مضمون أمبريقي، وليست تجريدية فقط.

٤- عاب على المشتغلين بعلم الاجتماع في الولايات المتحدة الأمريكية موقفهم المسبق من التراث الماركسي. دون إدراك ووعي وفهم لهذا التراث. وكان مؤلفه "الماركسيون" محاولة لعرض خصائص الفكر الماركسي، وبعض المحاولات الإبداعية فيه. ودلل على ذلك باهتمام الفكر الماركسي بالبناء الاجتماعي الذي هو جوهر علم الاجتماع، وبالتالي رفض هذا الفكر هو رفض لعلم الاجتماع ذاته.

٥- ألف كتابه " الطبقة المتوسطة". وكتابه "الصفوة" ليبين أن حقيقة أي طبقة هي في الواقع وإلى حد كبير محصلة لعلاقاتها بسائر الطبقات الاجتاعية. وأن مراكز القوة الاقتصادية في المجتمع الأمريكي أصبحت تسيطر على السياسة الحكومية، وتؤثر في تشكيلها. هذا بجانب انتقال السلطة إلى أيدي جماعات صغيرة تتمثل في أصحاب الشركات الكبرى ومديريها والصفوة العسكرية.

٦- لذلك طالب بتسلح الباحث الاجتماعي بالخيال الاجتماعي "السوسيولوجي" حتى يتسنى له إدراك أبعاد مشكلات المجتمع. فهذا كفيل بأن يساعد

الباحث الاجتماعي على إدراك أن الفرد جزء من بناء اجتماعي. وأن البناء الاجتماعي جزء من مرحلة من مراحل التاريخ. وبالتالي إدراك سياق المشكلات. وأنه سياق بنائي، وليس فردياً أو شخصياً ذاتياً[1].

طبيعة وشكل أزمة المجتمع كما يراها "ميلز" :

من أهم القضايا التي طرحها " رايت ميلز" في تفسيره لأزمة المجتمع الغربي، تلك الأزمة التي انعكست آثارها على علم الاجتماع الكلاسيكي ثم نذيل عرضنا لأفكاره برؤية نقدية وموقف تحليلي لتصوراته حول مفهوم الأزمة وأشكال الحلول المطروحة . وفي هذا السبيل نجد أنفسنا في موقف اضطراري للبحث عن المنهل الفكري والأيديولوجي "لرايت ميلز ". وذلك ليس بهدف تحديد هويته . بل بهدف التعمق في فهم أهداف الحركة النقدية الشاملة التي ظهرت في هذه المرحلة التاريخية كرد فعل لأزمة البناء الاجتماعي الغربي .

ومن هنا كانت انتقادات "ميلز "الصارخة للفكر التقليدي، البعيد تماماً - من وجهة نظره - عن الواقع الاجتماعي - التاريخي لهذه المجتمعات . ونعرض أهم هذه الانتقادات في النقاط التالية :

١- يرى "ميلز " أن ضعف علم الاجتماع الكلاسيكي منذ نشأته يرجع في المقام الأول إلى بعده عن الاتجاه البنائي التاريخي في تحليل المشكلات الاجتماعية وأزمات الواقع.

٢- ومن خلال هذه الرؤية للفكر الكلاسيكي قدم "ميلز" انتقادات مبررة إلى النزعة الأمبيريقية التجزيئية السائدة في العلوم الاجتماعية، تلك التي تغفل دور النظرية في توجيه البحث الاجتماعي حيث إنها تهتم بجمع بيانات متعددة ومجزأة ليس بينها رابط واضح لذلك تأتي نتائج هذه الدراسات تعميمية إلى حد كبير لكنها بعيدة كل البعد عن الواقع التاريخي البنائي للمجتمع الإنساني .

---

[1] انظر: رايت ميلز (١٩٨٧). الخيال العلمي الاجتماعي. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. وكذلك : عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق، ص ٢٥٤- ٢٥٨.

٣- ويدعو ميلز إلى رفض الرؤية الوضعية في علم الاجتماع والتخلص من الأفكار المجردة التي يلجأ إليها علماء الاجتماع في نظرياتهم المتضخمة أو ما يطلق عليها " النظريات الكبرى " فهذا "بارسونز " الذي قدم مفهومات مجردة وغامضة حول النسق الاجتماعي ماذا قدم لعلم الاجتماع الواقعي؟ إنها من وجهة نظر "ميلز" ما هي إلا "تدريب لفظي " لا يسهم في تناول المشكلات الحقيقية في المجتمع الإنساني .

٤- عارض "ميلز " الفكر السوسيولوجي الكلاسيكي المحافظ أيضاً، أنه يقلل من دور قضايا التناقض والتغير الاجتماعي ويرجع ذلك بسبب انطلاق العلم الاجتماعي هذا من مقولة الرضا بالواقع والمحافظة عليه [١].

أزمة الخيال السوسيولوجي :

يصف" ميلز" الخيال السوسيولوجي بأنه :" الوعي بالعلاقة بين الفرد والمجتمع الأكبر. ويتيح هذا الوعي بنا جميعا وليس لعلم الاجتماع فهم الصلات بين أوضاعنا الاجتماعية الشخصية القريبة منا من جهة والعالم الاجتماعي اللاشخصي البعيد عنا والذي يحيط بنا ويساعد في تشكيلنا من جهة ثانية"[٢] . ولا جدال في أن الخيال السوسيولوجي الذي قدمه "رايت ميلز "ينطلق من رؤية نقدية واضحة للاتجاهات الكلاسيكية في الفكر الاجتماعي الغربي . ولم تقتصر هذه الرؤية على نقد الفكر الكلاسيكي المحافظ مثل فكر" تالكوت بارسونز "بل إن أعمال "ميلز" "لا تخلو أيضاً من نقد صريح للأفكار الماركسية المتزمتة . وربما لهذا السبب يعد "رايت ميلز "من رواد الاتجاه النقدي الجديد الذي ظهر في علم الاجتماع في الستينيات من القرن العشرين .

وهكذا يساهم " الخيال السوسيولوجي " في :

أولاً : توجيه الفكر السوسيولوجي نحو دراسة الواقع من رؤية بنائية تاريخية شاملة تلغي التجزيئية والأمبيريقية المجردة .

ثانياً : مساعدة عالم الاجتماع في فهم العناصر البنائية - التاريخية حيث تعطيه الرؤية الحقيقية، لا المزيفة عن مشكلات العصر فهي تدعو عالم الاجتماع إلى تأمل

---

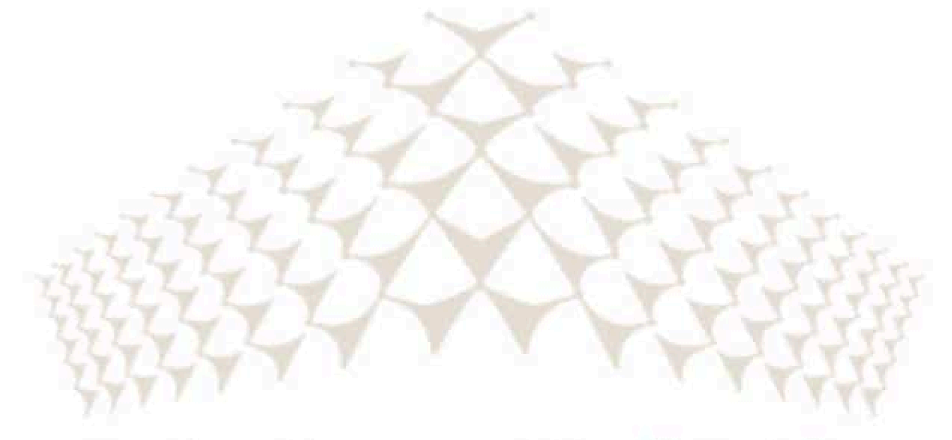
[١] حجازي، أحمد (١٩٩٨). مرجع سابق.

[٢] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢١٧.

العصر الفكري الذي يعيشه والوقوف على أهم المشكلات التي يعاني منها الإنسان الغربي مما يسهم في ترسيخ قيم إنسانية حرة .

ثالثاً : يساعد الخيال السوسيولوجي على كشف الدعاوى الفكرية المزيفة تلك الدعاوى التي سادت خمسينيات القرن العشرين استقلالية الفكر الاجتماعي وارتباطه بالمؤسسة العسكرية الحاكمة وبرجال السلطة وصفوة القوى مما أدى إلى تخليهم عن القيم الأخلاقية والعلمية وبالتالي أصبحوا في حالة عزلة واغتراب .

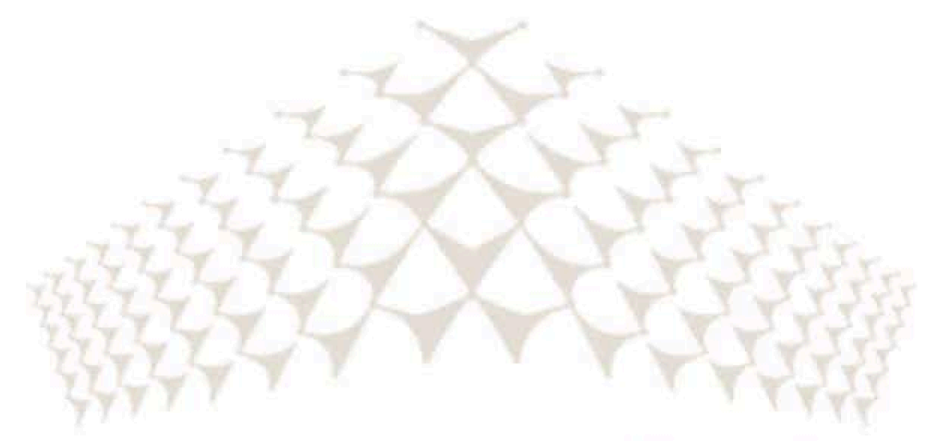
رابعاً : تدعو فكرة "ميلز" إلى ضرورة فهم المجتمع والإنسان خلال علاقاتهما الجدلية المتبادلة ، فلا يمكن فهم القضايا الخاصة بمعزل عن القضايا الكبرى، ولا يمكن فصل القضايا العامة عن المشكلات الخاصة بالإنسان[1] .



[1] حجازي، أحمد (١٩٩٨). مرجع سابق.

رابعاً- الصراع الاجتماعي عند لويس كرزر:

- حياته.
- مفهوم الصراع.
- الوظائف الإيجابية للصراع.
- فروض النظرية.
- انتقادات لنظرية كوزر.



ثالثا- الصراع الاجتماعي عند لويس كوزر:
Lewis Coser
حياته:

لويس كوزر، هو عالم اجتماع أمريكي معاصر اهتم بالنظرية الوظيفية وقدم إسهاماً نافعاً في نظرية الصراع الاجتماعي. ولد في كوزر في ألمانيا عام ١٩١٣م وحصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٤م. وقد تتلمذ على يد عالم الاجتماع الأمريكي "روبرت ميرتون Robert Merton ". يعد كتاب عالم الاجتماع الأمريكي "لويس كوزر" المنشور تحت اسم " وظائف الصراع الاجتماعي" ١٩٥٠م أول محاولة تنظيرية في هذا الصدد. أي أنه أول محاولة أمريكية تتعامل مع الصراع الاجتماعي انطلاقاً من رؤية البنيوية الوظيفية مما يعني أن "كوزر" انفرد نوعاً ما بنظرة إيجابية للصراع الاجتماعي. وقد تناول "لويس كوزر" مشكلات الصراع الاجتماعي. في كتابين "وظائف الصراع الاجتماعي" ١٩٥٦م، وكتاب " الاتصالات الفكرية في دراسة الصراع الاجتماعي١٩٦٧م"[1].

مفهوم الصراع:

يحدد " لويس كوزر " اهتمامه بالصراع بقوله[2]: " تنصب أساساً على الكشف عن الوظائف الإيجابية التي يقوم عليها الصراع الاجتماعي أكثر مما يحاول إظهار المعوقات الوظيفية له. ويعني ذلك إبراز النتائج المترتبة على وجود الصراع والتي تؤدي إلى زيادة قدرة العلاقات الاجتماعية أو الجماعات على تحقيق التكيف أو التلاؤم في المجتمع، بدلاً من إظهار تلك النتائج التي تقلل من قدرة هذه العلاقات والجماعات على القيام بهذا الكشف. ذلك أنه بدلاً من أن يكون الصراع عاملاً سلبياً يفرق المجتمع ويمزق أوصاله، يمكن أن يحقق هذا الصراع عدداً من الوظائف المحددة بالنسبة للجماعات أو لغيرها من العلاقات الاجتماعية، فهو يسهم مثلاً في المحافظة على حدود الجماعة ويمنع انسحاب أعضائها منها".

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ١٥٤.
[2] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٤٩.

ويعرف لويس كوزر الصراع: " أنه مجابهة حول القيم أو الرغبة في امتلاك الجاه والقوة أو الموارد النادرة " . أو هو: "عملية اجتماعية ضرورية لفهم العلاقات الاجتماعية واعتباره نضالاً وكفاحاً حول القيم والمكافآت ومصادر القوة".

وهو يرى أن الصراع يسهم داخل الجماعة في إقامة الوحدة والاتساق Cohesion عندما تكون الجماعة مهددة بالمشاعر العدائية والمتعارضة بين أعضائها. وتتوقف فائدة الصراع في تحقيق التكيف الداخلي على نمط المسائل المتصارع عليها ونمط البناء الاجتماعي الذي يظهر داخله الصراع [1].

كما بين " كوزر" أن الصراع يمكن أن يزيد من التوافق والتكيف والاحتفاظ بالحدود بين الجماعات ولا يؤدي إلى التفكك أو الانحلال الاجتماعي. أي أن الصراع يؤدي وظيفة إيجابية كما يؤدي إلى الإحباط الوظيفي، حيث إن الصراع يعمل على زيادة التوافق والتكيف داخل المجموعة أو الجماعة الواحدة. وبالتالي يؤدي إلى وظائف إيجابية[2].

وفي هذا السياق للتعريف فإن الأطراف المتصارعة لا ينحصر اهتمامها بكسب الأشياء المرغوب فيها بل أنها تهدف إلى وضع المناوئين أما في حالة حياد أو أن يقع الإضرار بهم أو القضاء عليهم.

الوظائف الإيجابية للصراع:

في التعريف السابق للصراع يشير "كوزر" إلى أن اهتمامه بفكرة الصراع يرتكز في الكشف عن الوظائف الإيجابية التي يقوم بها الصراع الاجتماعي أكثر مما يحاول إظهار المعوقات الوظيفية له، ويعني ذلك إبراز النتائج المترتبة على وجود الصراع والتي تؤدي إلى زيادة قدرة العلاقات الاجتماعية أو الجماعات على تحقيق التكيف أو التلاؤم في المجتمع بدلاً من إظهار تلك النتائج التي تقلل من قدرة هذه العلاقات الاجتماعية والجماعات على القيام بهذا التكيف. ذلك أنه بدلاً من أن يكون الصراع عاملاً سلبياً يفرق المجتمع ويمزق أوصاله، يمكن أن يحقق هذا الصراع عدداً من الوظائف المحددة

---

[1] عمر، معن (١٩٩٧). نظرية معاصرة في علم الاجتماع. عمان: دار الشروق، ص ٦٨.

[2] عرابي، عبد القادر (٢٠٠٠) مرجع سابق، ص ١٤٩.

بالنسبة للجماعات أو لغيرها من العلاقات الجماعية فهو يسهم مثلاً في المحافظة على حدود الجماعة ويمنع انسحاب أعضائها منها[1].

ولقد أراد "كوزر" أن يلفت نظر معاصريه من الباحثين في علم الاجتماع بما تقوم به الصراعات من دور حاسم في الحياة الاجتماعية عن طريق إبرازه للإسهامات التي تقوم بها هذه الصراعات في تحقيق التكامل. وتعني هذه المحاولة من جانبه رؤية جديدة للصراع الاجتماعي دون التخلي عن الإطار التصوري للوظيفة. كما أنه أرجع مصادر الصراع ومنابعه إلى الطموحات الفردية بدلاً من أن يرد منابع الصراع إلى الخواص المميزة للبناء الاجتماعي. وكان مهتماً بأن يبرز أثر الصراعات الاجتماعية في البناء الاجتماعي أكثر من اهتمامه بالكشف عن أثر البناء الاجتماعي في خلق الصراع كما يفعل " كارل ماركس"، وهو يرى أن البناء الاجتماعي يحدد الشكل أو المظهر الذي تتبدى فيه الصراعات الاجتماعية، كما يحدد شكل الحلول التي تتخذ لوضع حد لتلك الصراعات، ولكن منبع الصراع الاجتماعي لا يكمن في بناء المجتمع بل في مصادر أخرى . كما أنه لم يفرد أهمية كبيرة لفكرة التعارض بين مصالح الجماعات المتصارعة رغم أن هذه الفكرة تلعب دوراً حاسماً في الاتجاهات الصراعية الأخرى[2].

ومن هذا المنطلق وضع كوزر صورة للمجتمع تؤكد على ما يلي:

١- يمكن النظر إلى العالم الاجتماعي كنظام أو نسق من الأجزاء المترابطة بشكل مختلف.

٢- في كافة الأنساق الاجتماعية يظهر اختلال التوازن والتوترات والصراعات المصلحية بين مختلف الأجزاء المترابطة.

٣- العمليات داخل وبين مختلف الأجزاء التي يتألف منها النظام تعمل في ظل ظروف من أجل صيانة وتغيير وزيادة أو تقليل تكامل وتوافق النظام.

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص١٥٤.

[2] زايد، أحمد (١٩٨٤). مرجع سابق، ص ١٦٩.

٤- كثير من العمليات كالعنف والتفكك والانحراف والصراع والتي تعتبر مفككة للنظام يمكن اعتبارها في ظل ظروف معينة معززة لأسس التكامل في النظام وأيضاً لقدرة النظام على التوافق مع البيئة[1] .

فروض النظرية:

الفرض الأول: كلما اشتد الصراع كانت حدود كل طرف في الصراع واضحة.

الفرض الثاني: كلما اشتد الصراع كان عمل كل طرف فيه متمايزاً وبالتالي زاد احتمال مركزية اتخاذ القرار لكل طرف.

أ- كلما اشتد الصراع قل التمايز في البناء، وكلما كان البناء والتماسك الداخلي أقل استقرارا، زاد احتمال أن تكون المركزية استبدالية.

الفرض الثالث: كلما اشتد الصراع زاد الإدراك أنه سيؤثر على جميع القطاعات لكل جماعة ويعزز الصراع التماسك البنائي والأيديولوجي بين أعضاء كل جماعة مشتركة في الصراع.

الفرض الرابع: كلما كانت العلاقات أولية بين أعضاء جماعات الصراع أدى الصراع إلى قمع الانشقاق والانحراف داخل كل جماعة وفرض الامتثال للمعايير والقيم.

أ- كلما أدى الصراع بين الجماعات إلى الامتثال الإجباري أو القسري زاد تراكم العداوات زاد احتمال الصراع الداخلي بين الجماعة في الأمد الطويل.

في هذه الفروض يرى "كوزر" أن شدة الصراع - أي اشتراك الناس فيه والالتزام بمواصلته تزيد من رهافة الحدود الفاصلة ومركزية السلطة والتماسك الأيديولوجي وقمع الانشقاق والانحراف داخل كل طرف من أطراف الصراع. ويفترض أن شدة الصراع وظيفية لأنها تعزز وتقوي التكامل ولو أن "كوزر" يعني أن المركزية المستبدة وقمع الانحراف والانشقاق توجد في الأجل الطويل ضغوطاً سيئة على التكامل، وهكذا يبدو أن هناك جدلاً متأصلاً في توحيد جماعة الصراع مما يخلق ضغوطاً نحو التفكك . ولسوء الحظ فإن كوزر لا يحدد الظروف التي في ظلها يحتمل أن تطفو على السطح الضغوط التفكيكية. وفي تركيزه على الوظائف - أي القوى المعززة للتكامل

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ١٥٥-١٧٥.

لم يكن تحليله بعيداً عن منطقة ومجال واعد بالبحث، بل إن هذا الإنجاز يصبح أكثر وضوحاً عندما ينقل "كوزر" اهتمامه إلى وظائف الصراع بالنسبة للكل النظامي الذي يحدث داخله الصراع .

الفرض الخامس: كلما كان البناء الاجتماعي الذي يحدث فيه الصراع بين الجماعات أقل صرامة وجموداً، تكرر الصراع وأصبح أقل شدة وزاد احتمال أن يؤدي الصراع إلى تعزيز النظام بوسائل تعزز القابلية للتوافق والتكامل.

أ- كلما كان النظام أقل صرامة زاد احتمال تعزيز الصراع للابتكار والإبداع في النظام.

ب- كلما كان النظام أقل صرامة وجموداً قل احتمال أن ينطوي الصراع على إزاحة العداوات إلى أشياء بديلة وزاد احتمال مواجهة الصراع لمصادر واقعية للتوتر.

ج- كلما كان النظام قائماً على الاعتماد الوظيفي المتبادل تكرر الصراع وكان أقل عنفاً وزاد احتمال إعاقته للتوترات بدون استقطاب النظام.

د- كلما كانت العلاقات الأولية أكثر استقراراً في النظام تكرر الصراع وكان أقل شدة وزاد احتمال إطلاق التوترات بدون حدوث استقطاب في النظام.

هـ - كلما كان النظام أقل صرامة وتصلباً زاد احتمال إدراك الصراع من جانب الذين يتولون السلطة والقوة كمؤشر لسوء التوافق الذي يحتاج إلى إصلاح.

الفرض السادس: كلما تكرر الصراع، قل احتمال اعتباره انعكاساً للاختلاف والانقسام حول قيم صميمة وكان الصراع وظيفياً لصيانة توازن النظام.

أ- كلما كان في مقدور جماعة الصراع الالتجاء إلى القيم الصميمة للنظام، قل احتمال أن يؤدي الصراع إلى الانقسام والاختلاف حول تلك القيم وزاد احتمال تعزيز الصراع لتكامل النظام.

ب- كلما كانت جماعة الصراع لا تدافع عن تفسيرات متطرفة للقيم الصميمة قل احتمال تكوين جماعة صراع وقادة وكان الصراع أقل تمزيقاً للنظام.

الفرض السابع: كلما تكرر الصراع وكان أقل شدة، زاد احتمال تعزيزه للتنظيم المعياري للصراع.

أ- كلما كان النظام أقل صرامة وتصلباً، تكرر الصراع وكان أقل شدة.

ب- كلما كان النظام أقل صرامة وتصلباً، زاد احتمال إحياء الصراع للقيم والمعايير السائدة.

ج- كلما قلت صرامة وجمود النظام، زاد احتمال أن يؤدي الصراع إلى معايير جديدة.

د- كلما تكرر حدوث الصراع وكان أقل شدة، زاد احتمال تمركز الجماعات في محاولة لتعزيز امتثال أعضاء كل جماعة للمعايير التي تحكم الصراع.

هـ- كلما كانت قوة جماعات الصراع متعادلة، زاد احتمال أن يؤدي الصراع إلى المركزية التي تقوي وتعزز الامتثال المعياري والقيمي.

الفرض الثامن: كلما كان النظام أقل صرامة وتصلباً، زاد احتمال تحقيق وتوطيد الصراع لتوازنات السلطة والتسلسل الهرمي لها في النظام.

أ- كلما قل مستوى معرفة جوانب القوة لدى الخصم وقلت مؤشرات تلك القوة، زاد احتمال حدوث الصراع بين جماعتين تتسابقان على القوة لتعزيز توازن علاقات في النظام.

الفرض التاسع : كلما كان النظام أقل صرامة وجموداً، زاد من احتمال أن يؤدي الصراع إلى تكوين تحالفات ترابطية تزيد من تماسك وتكامل النظام.

أ- كلما كان الأطراف الآخرين في النظام مهددين من تحالفات الأطراف الآخرين، زاد احتمال تكوينهم لتحالفات ترابطية.

ب- كلما كان النظام مبنياً على الاعتماد الوظيفي المتبادل، زاد احتمال أن تكون التحالفات وسيلة وأقل استمرارية.

١- كلما كشف النظام، زاد احتمال أن يكون للجماعات المنضمة إلى تحالف صراعات المصالح الخاصة بها وكلما زاد احتمال أن يكون التحالف وسيلياً.

٢- كلما كان التحالف مؤلفاً لأغراض دفاعية، زاد احتمال أن يكون وسيلياً.

ج- كلما كانت العلاقات محكمة البناء أولية في النظام، زاد احتمال طرح التحالفات لمعايير وقيم مشتركة وتكوين جماعات دائمة.

١- كلما كانت التحالف مكون من أفراد أو بصفة عامة كلما كانت الوحدات المكونة للتحالف صغيرة ، زاد احتمال تطورها إلى جماعة دائمة.

٢- كلما زاد التفاعل المتبادل المطلوب بين أطراف التحالف، زاد احتمال تكوينهم لجماعة دائمة.[١]

انتقادات لنظرية كوزر:

بالرغم من الانتشار الكبير الذي حققته نظرية " لويس كوزر" للصراع الاجتماعي وإسهامها في فهم جديد للصراع بعيداً عن نظرية ماركس ذات المنهج الأحادي. إلا أنه قد وجهت لها مجموعة من الانتقادات سواء من أصحاب المدارس اليسارية، أو السلوكية وغيرها ومن أهم تلك الانتقادات[٢]:

١- محاولة "كوزر" الاستعاضة عن البنائية الوظيفية التي اعتبرها ذات جانب واحد؛ إلا أنه سقط في فخ إذ اعتبر الصراع تكيفا وتكاملاً.

٢- أفرط "كوزر" في تبسيط منابع الصراع الاجتماعي.

٣- يمكن اعتبار القضايا التي طرحها "كوزر" قضايا عامة (مايكرو) حتى أنه يصعب استخدامها لفهم مواقف معينة.

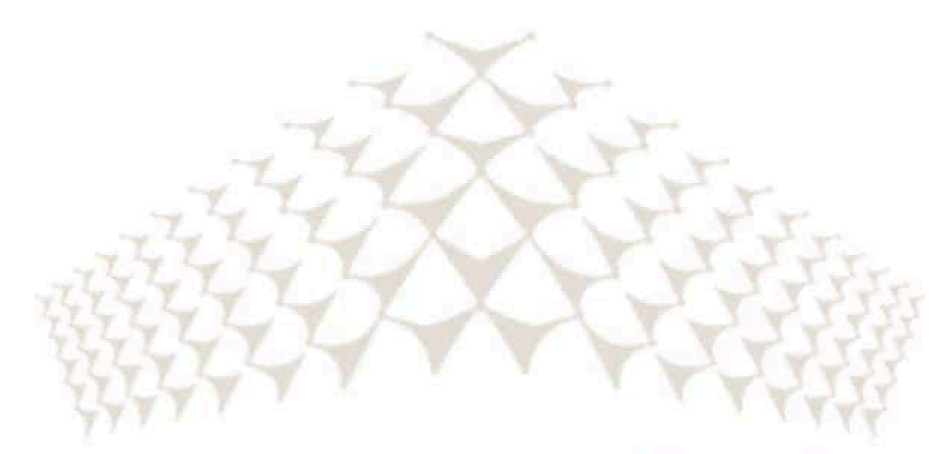
٤- يمكن اعتبار نظرية "كوزر" أكثر قرباً للنظرية الوظيفية منها إلى نظريات الصراع[٣].

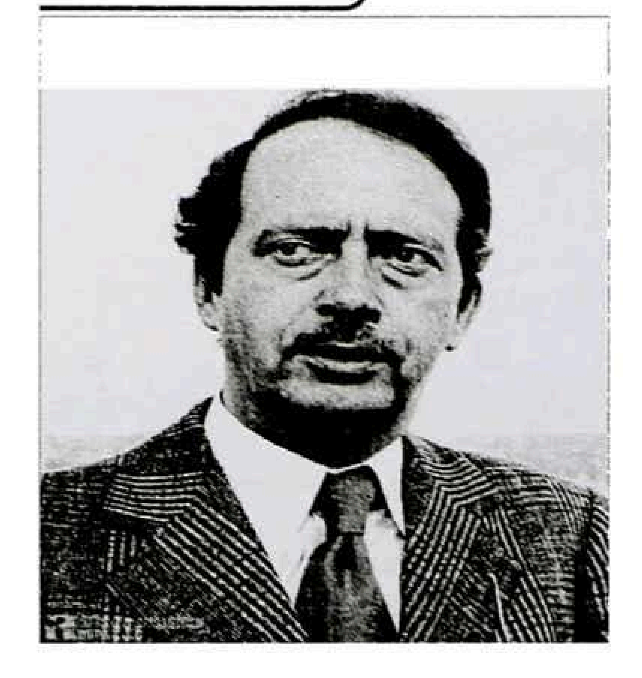
---

[١] انظر: فرح ، محمد (١٩٩٧). تمهيد في النظرية الاجتماعية تطورها ونماذجها الكبرى. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص ٢٤٤.

[٢] الصالح، مصلح (٢٠٠٠). النظرية الاجتماعية أصولها التاريخية، بناءها، وظائفها، خصائصها وملامحها. الرياض: دار الفيصل، ص ١٣٥.

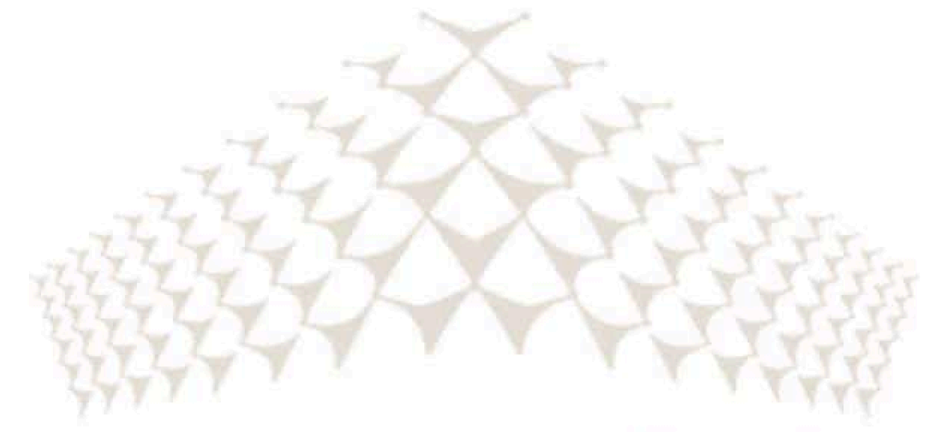
[٣] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٤٩-١٥٠.





خامساً- نظرية الصراع الاجتماعي عند رالف داهرندوف:

- حياته.
- طبيعة الصراع في المجتمع الرأسمالي.
- مفهوم السلطة عند داهرندوف.
- السلطة كواقع اجتماعي.
- النظرية الكبرى للصراع.



خامسا- نظرية الصراع الاجتماعي عند " رالف داهرندوف " :
R. Dahrendof

حياته:

رالف داهرندوف عالم اجتماع من أصل ألماني ولد في هامبورج بألمانيا عام ١٩٢٩م. وبعد الحرب العالمية الثانية حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هامبورج عام ١٩٥٣م في مجال الفلسفة وكان موضوعها (ماركس: وجهة نظر). أما رسالته للدكتوراه التي حصل عليها من جامعة لندن عام ١٩٥٦م فكانت عن (العمالة غير الماهرة في الصناعة البريطانية). وعمل أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة لندن ، وفي جامعة هامبورج وكونستانز. كما عمل في مراكز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية في بالوالتو Palo aito. ومديراً لمدرسة لندن للعلوم الاقتصادية عام ١٩٧٤م، وكان أستاذاً زائراً للكثير من الجامعات الأمريكية.

صدر له كتاب (الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي في المجتمع الصناعي) عام ١٩٥٧م. والذي تضمن آراءه ونظرياته حول مشكلات التغير والعنف والصراع في البناء الاجتماعي. وكان اتجاهه الفكري يقوم على مراجعة ونقد الاتجاه الماركسي في تفسير الصراع الاجتماعي. وكان عمله البحثي يصب في أربعة موضوعات، الطبقة ونظرية الصراع، نظرية الدور، المجتمع والديموقراطية، والتحديث كعملية كونية. ويمكن النظر لمنهج داهرندوف بأنه مزيج بين أفكار كارل ماركس، وماكس فيبر[1]. كما عبر عن آرائه النظرية في مقالة " بعيداً عن اليوتوبيا: نحو إعادة توجيه التحليل السوسيولوجي" عام ١٩٥٨م. وكتابه " الإنسان الاجتماعي" عام ١٩٥٨م. وفي كتابه " مقالات عن نظرية المجتمع " عام ١٩٦٧م. وفي آخر مراحله الفكرية أصدر كتابه " فرص الحياة " عام ١٩٧٩م [2].

---

[1] الدويبي، عبد السلام (١٩٩٧). لمحة مختصرة عن حياة داهرندوف. طرابلس: جامعة الفاتح.
[2] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٥٠.

مكونات نظرية الصراع:

تتشكل رؤية " داهرندوف" للصراع من عدة أفكار من أهمها ما يلي:

١- كل مجتمع يظل عرضة بصفة دائمة إلى عملية التغير .

٢- كل مجتمع يمر وفي كل لحظة بخبرة الصراع الاجتماعي. فالصراع الاجتماعي قائم في كل زمان ومكان.

٣- يستند كل مجتمع على القيود التي يفرضها بعض أعضاء المجتمع على بعض الأعضاء الآخرين.

٤- أن بعض من عناصر النسق الاجتماعي تسهم في تفكك المجتمع وإحداث التغير فيه.

٥- كل مجتمع له نظام اجتماعي قائم على سلطة القهر والتهديد التي يمارسها أفراد المجتمع المنتصبون على قمة الهرم الاجتماعي[1].

في ظل هذه الرؤية فإنه من المستحيل أن يبقى المجتمع جامدا لا يتحرك. لذلك قسم "داهرندوف" النظرية الاجتماعية إلى قسمين :

- نظرية الصراع Conflect Theory : وهذه تهتم بدراسة صراعات المصالح وأشكال القهر التي تحافظ على سلامة المجتمع .

- نظرية الوفاق Consens Theory : وهذه تركز على دراسة الدمج في المجتمع " مثل النظرية الوظيفية "

وهكذا يعترف داهرندوف أن المجتمع لا يمكن أن يوجد بدون وجود الصراع والوفاق معا واللذين يكملان بعضهما البعض. ولأن الصراع يحدث في المجتمع الذي يسوده الاتفاق في جميع أجزائه فإن الصراع أيضاً يحدث طالما يولد الحاجة إلى الوفاق. لذلك ينبغي بناء النظرية الاجتماعية على مبدأين :

- مبدأ الصراع.

---

[1] انظر: ناصر، سعيد (١٩٩٣). نظرية الصراع عند داهرندوف. مجلة البحوث العربية، كلية العلوم الاجتماعية ، طرابلس ، العدد (٢). انظر: العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٥٢.

- مبدأ الوفاق .

هذا يعني حسب النظرية الصراعية أنه لن يكون هناك وجود لأي مجتمع بدون حضور المبدأين الضروريين لبعضهما البعض. فالمجتمع الذي يسوده الاتفاق بين أجزائه يحدث فيه صراع بين أجزائه والعكس صحيح ، فالصراع يؤدي إلى اتفاق فيما بين أجزائه.

طبيعة الصراع في المجتمع الرأسمالي:

يرى " داهرندوف" في كتابه "الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي في المجتمع الصناعي" عام ١٩٥٧م؛ أن تحليل "ماركس" للمجتمع الرأسمالي صحيحاً إلى درجة كبيرة وأن مفاهيمه ونظرياته كانت لها قيمتها غير أن هذه المفهومات والنظريات في حاجة إلى تعديل إذا كان لها أن تنطبق على المجتمع الصناعي الحديث لأنها تشير إلى المجتمع الرأسمالي، ولقد حدثت هناك تغيرات لها دلالة هامة في البناء الاجتماعي بعد ظهور أطروحات "ماركس" وهذه التغيرات كانت ضخمة بما فيه الكفاية لكي تسبب في تشكيل نموذج جديد من المجتمع ليصبح مجتمعاً صناعياً حديثاً أو مجتمع ما بعد الرأسمالية.

١- أسس مجتمع ما بعد الرأسمالية:

١- يغير كل مجتمع من قيمه ونظمه باستمرار. وقد يكون هذا التغير سريعاً أو تدريجياً عنيفاً ومنظماً شاملاً أو محدوداً. ولكن لا يمكن أن يغيب عن الذهن أبداً أن الأفراد يخلفون تنظيمات ليعيشوا في إطارها سوياً متعاونين وهي حالة التوازن والنظام.

٢- يجب إعادة صياغة النظرية الاجتماعية لتخرج من عالم اليوتوبيا. إذ إن نموذج الصراع له كفاءة إمبريقية تتمثل في قدرته الكبيرة على دراسة التغير. فالصراع هو القوة الخلاقة التي تصاحب التغير.

٣- أن المجتمع له وجهان متساويان. الأول يكشف عن الاستقرار والتآلف والاتفاق العام (التوازن أو الوفاق). والثاني يكشف عن التغير والتحول (الصراع). ومن هنا ليس بمقدورنا تصور وفهم الواقع بشكل حقيقي إلا إذا وضعنا أيدينا على التفاعل الإيجابي بين الثبات والتغير والتكامل في الصراع.

٤- لم تعد النظرية الماركسية تتلاءم مع بناء المجتمعات الصناعية الحديثة. فقد تغير وتحول هذا البناء الاجتماعي الرأسمالي عن الوقت الذي كتب فيه ماركس أطروحاته[1].

٢-التغيرات في المجتمع ما بعد الرأسمالي:

١- ضعف قوة رأس المال: مع نمو حجم الشركات بفضل التقدم التكنولوجي ونتيجة لتطور وظهور الشركات ذات رأس المال المشتركة والمسؤولية القانونية المحددة، ضعفت الصلة بين الملكية والسيطرة في الصناعة، ويمارس الآن المديرون الذين يعملون بأجر سلطة وسيطرة أكبر والذين يميلون على أن يستمدوا الشرعية لوضعهم في الصناعة والمجتمع من أسس مغايرة تماماً لتلك الأسس التي عرفها النظام الرأسمالي.

٢- ضعف قوة العمال: لقد أصبح العمال باعتبارهم جماعات لها قدرة من السيطرة أكثر اختلافاً حيث بدأت نسبة العمال المهرة وشبه المهرة تنمو وبدأت نسبة العمال غير المهرة تتناقص وبدلاً من أن تصبح هذه الجماعات أكثر تجانساً من حيث الوعي الطبقي أصبحوا واعين على نحو متزايد بالاختلافات فيما بينهم.

٣- نمو الطبقة الوسطى الجديدة وتطورها: يشير هذا المفهوم إلى تجمع كبير ونامٍ من مجموعات متباينة أسهمت عملية تصنيع المجتمع على تكوينها واتساع نطاقها وهي تمثل فئة أكثر مما تعبر عن فكرة الطبقة وذلك في ضوء استخدام ماركس لهذا المفهوم وهي تتكون من العاملين ذوي الياقات البيضاء من أمثال المعلمين والمحاسبين.

٤- زيادة فرصة الحراك الاجتماعي: حدث هناك الكثير من فرص الحراك ما بين الأجيال وبين المهن وزادت مسألة التجنيد الذاتية حيث يتبع الابن مهنة والده بخاصة في المهن العليا.

٥- نمو المساواة: استخلص داهرندوف أنه يمكن تمييز المجتمع على نحو صحيح في ضوء الصراع بين جماعات المصلحة المتنافسة وقد تصبح الصراعات في مجتمع ما بعد الصناعة بمعنى أنها تنمو على نحو منظم ونمطي ويمكن التنبؤ بها والتحكم فيها.

ويشير "داهرندوف" إلى ما اعتبره من قبل ضعف نظريات "ماركس". واقتراح مجموعة الطرق التي يمكن بها تعديل هذه النظريات في سبيل توفير أساس مفيد لتحليل

---

[1] زايد، أحمد (١٩٨١). مرجع سابق، ص ٢٠٠.

كلا من المجتمعات الرأسمالية. ويكمن الضعف الأساس في فكر "ماركس". فيما يرى "داهرندوف" في الطريقة التي يربط بها ماركس بين القوة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وبين ملكية وسائل الإنتاج، وهنا يحدد الطبقات الاجتماعية على أنها فئات منظمة أو غير منظمة من الناس يشتركون في مصالح ظاهرة أو كامنة تنشأ عن أوضاعهم في أبنية السلطة التي يجدون فيها أنفسهم ولهذا يعتبر الصراع الطبقي في رأيه مجرد أي صراع بين الجماعات ينشأ عن علاقات السلطة، وزعم "داهرندوف" أن معظم الناس في المجتمع لا يحتمل أن يشاركوا في صراع من نوع الصناعي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي ينشأ عن مصدر بنائي واحد ونعني عن علاقات الملكية. وبدلا من ذلك، خلقت التغيرات في البناء الاجتماعي، الأساس البنائي الاجتماعي الذي يستند إليه الطابع الجمعي لجماعات المصلحة وكذلك الطابع الجمعي للأساس التي تثير الصراع[1].

مفهوم السلطة لدى داهرندوف:

في دراسته لعنصر السلطة في المجتمع ومبدأ نشوء الصراع الاجتماعي، يرى "داهرندوف" أن المجتمع يحافظ على النظام بواسطة ما يسميه بالضغوط القوية. وهذا يعني أن بعض المواقع الاجتماعية في المجتمع تتفوق بقوة السلطة على مواقع أخرى في نفس المجتمع. هذه قضية تذكرنا بنظرية ابن خلدون في الصراع الاجتماعي حين تتخذ القبيلة الأقوى من العصبية مبررا للهيمنة والتسلط وإخضاع القبائل الأخرى الأضعف وبالتالي إقامة الحكم ، فالعصبية الغالبة هي التي تتفوق على العصبيات الأخرى الضعيفة وهي التي تنصب نفسها صاحبة القوة على قمة الهرم الاجتماعي وليس لها من وظيفة إلا المحافظة على النظام الاجتماعي القائم في المجتمع[2] .

هذا الواقع التسلطي لبعض القوى على القوى الأخرى قاد داهرندوف إلى الاعتقاد بأن التوزيع التفاضلي للسلطة يصبح ، باستمرار ، بمثابة العامل الحاسم في

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٥٣١-٥٣٢.

[2] ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٨٩). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. المقدمة (الجزء الأول). تونس: الدار التونسية للنشر، ص١٨٥.

بلورة الصراعات الاجتماعية. وهذا الاعتقاد يطرح تساؤلات عديدة يبرزها الواقع الاجتماعي حول الجوهر الذي تدور حوله الصراعات الاجتماعية مثل: من له السلطة الأكثر في المجتمع ؟ أو من هو صاحب الامتياز الأكبر في احتكار السلطة؟ هل هو الثقافي ؟ هل هو الرأسمالي ؟ من يتحكم بمن ؟ ومن يسيطر على من ؟.

السلطة كواقع اجتماعي :

يشير "داهرندوف" في فكرته الرئيسة عن السلطة عن مواقع اجتماعية في المجتمع تتمتع بأحكام ورؤى مختلفة للسلطة، وهذه المواقع هي التي تمتلك السلطة. أي أن الأفراد في المجتمع بوضعياتهم الفردية في المجتمع لا يملكون السلطة. ولكن المواقع الاجتماعية التي يشغلها الأفراد هي التي تمتلك السلطة. فالسلطة لا تأتي إلى الفرد من حيث كونه فرد، إذ أن المجتمع هو في أحد مكوناته يمثل مجموع الأفراد وليس من المعقول أن يتولى مجموع الأفراد السلطة. وبالتالي فالسلطة لا تأتي إلى الأفراد من مواقعهم الفردية إنما من خلال المواقع الاجتماعية.

حين نتحدث عن مواقع اجتماعية فلا بد لنا أن نتحدث عن الأدوار الاجتماعية لأن كل موقع اجتماعي يؤدي دوراً وهذه مسألة تحدَّث عنها الوظيفيون أو بعض من اهتم بالنظرية الوظيفية حينما جرى التميز بين الوظيفة والدور، فالدين مثلاً بنية تؤدي وظيفة اجتماعية؛ ولكن الكاهن / الشيخ / القسيس يلعب دوراً دينياً قد يكون مختلفا عن الوظيفة التي يؤديها الدين. كذلك الأمر فيما يتعلق بالسلطة، فالسلطة تؤدي وظيفية في المجتمع باعتبارها عنصراً بنيوياً مركزياً فيه لا يمكن الاستغناء عنه. ولكن المتمتع بموقع سلطوي يلعب دورا مختلفا عن الوظيفة التي تؤديها السلطة. وإذا كانت السلطة تمثل حاجة اجتماعية كما ترى الوظيفية فإن الدور لا يمثل حاجة اجتماعية إنما يعبر عن موقع اجتماعي يلعبه فرد ما.

لذلك فإن "داهرندوف" يرى بأن الأصل البنيوي للصراعات الاجتماعية ينبغي البحث عنه في منظومة الأدوار الاجتماعية التي تكشف عن مواقع الهيمنة ومواقع الخضوع . ولكي نفهم بنية سلطة مهيمنة ومهيمن عليها يجب أن نبحث عن طبيعة الأدوار الاجتماعية التي يضطلع بها كلا الفريقين. وعليه فإن المهمة الأولى عند

"داهرندوف" في صياغته لنظرية الصراع تتمثل بتحديد أدوار السلطة المختلفة في المجتمع .

وبالتالي السلطة الممنوحة إلى المواقع الاجتماعية هي عنصر رئيس في المنظور الاجتماعي عند "داهرندوف" وهؤلاء الأشخاص الذين يتمتعون بمواقع سلطوية يُنتظر منهم التحكم بأولئك الذين لا يملكونها. ونظراً لأن السلطة تكتسب شرعية معينة فعلينا أن ننتظر معاقبة كل من يخالفها[1].

وفي ضوء هذا المفهوم للسلطة. فقد جاءت فرضياته للصراع كما يلي:

١- طبيعة الحياة الاجتماعية تزيد من القهر لدى فئات من المجتمع.

٢- أن الصراع ناتج عن القوى المتعارضة (المصالح) وانعكاس للفروق في توزيع القوة بين الجماعات المسيطرة، والجماعات الخاضعة.

٣- وجود مصالح كامنة مشتركة غير شعورية في أوضاع اجتماعية معينة داخل كل تكتل في المجتمع أو جماعات غير منظمة يتقاسم أفرادها تلك المصالح.

٤- تتحول المصالح الكامنة إلى مصالح واضحة محددة تعارض مصالح جماعات أخرى وتتحول الجماعات غير المنظمة إلى طبقات اجتماعية.

٥- أن المصالح بين الجماعات قد تتوافق وتتفق مما يجعلها تتوسع وتتنوع.

٦- تعتمد تلك المصالح بين الجماعات على وجود عوامل أخرى كظروف التقنية (مجموعة الموظفين وعقود العمل)، والأوضاع الاجتماعية (الاتصال التعبئة)، والأوضاع السياسية (تشكل الاتحادات)، والنفسية (التوحد بمصالح الدور).

النظرية الكبرى للصراع:

استخدم "داهرندوف" مقولات ماركسية في تحليل الصراع بين الفئات الاجتماعية المختلفة أو مكونات المجتمع البنيوية . ويمكن أن يتخذ التحليل طابع الماكرو سوسيولوجي كتحليل الصراع بين نمطين اقتصاديين عالمين كالرأسمالية والاشتراكية مثلا، ويمكن أن يتخذ التحليل طابع الميكرو سوسيولوجي كالتنازع بين المجموعات المهيمن علها والمجموعات المهيمنة في إطار اجتماعي ما. وباعتبار "داهرندوف" عالم

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق، ص٢٣٣-٢٣٥.

اجتماع ماركسي فهو يرى أن الصراع أساسه إما الميدان الاقتصادي أو ملكيات وسائل الإنتاج. ولكن مثل هذه الصراعات باتت قديمة الطابع . ففي المرحلة الصناعية ظهرت صراعات جديدة مختلفة عن الصراعات القديمة. ومن هنا نستنتج أن منطلقات "داهرندوف" التي ظهرت في كتابه الشهير حول نظرية الصراع في المجتمعات الصناعية تتأسس، أولا وقبل كل شيء، على تعميم عناصر الصراع الموجودة في نظريه "كارل ماركس" كمنطلق لبناء نظرية صراع كبرى. وهذا يعني أن محاولات "داهرندوف" تجاوزت المحتوى الماركسي لتبحث عن عوامل صراع جديدة[1].

وبالتالي المجتمع حسب هذه النظرية يتكون من مجموعتين يتحدد موقع كل منهما بما يمتلك من قوة وهما :

١- المجموعة المهيمنة.

٢- المجموعة المهيمن عليها.

سمات المجموعتين الصراعيتين:

١. كل مجموعة من المجموعتين تكوِّن مجموعة مصالح مشتركة تجعلها تقف موقف العدو من المجموعة الأخرى، فحتى تحافظ كل من المجموعتين على وحدتها لا بد أن تخلق كل منهما بعض المصالح وإن كانت متناقضة .

٢. تهتم المجموعة المهيمنة بالمحافظة على الوضع كما هو لأنها تقع في منطقة امتيازات أي مواقع اجتماعية نافذة بينما تهتم المجموعة المهيمَن عليها بالعمل على تغيير الوضع لصالحها . مثلاً كأن تكافح المرأة لتغيير الوضع القائم لصالحها ، ففي هذا المثال يتضح أن المنظومة القيمية تحد من حرية المرأة وحقوقها بحيث يبدو مجتمع الرجال مهيمنا على مجتمع النساء في كافة مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ...الخ .

٣. وكمجموعات منظمة لكل منها مصالح مشتركة فمن الطبيعي أن يشعر أفرادها بالانتماء المشترك ويعملون على إنشاء وسائل مادية وأيديولوجية وقيادية للدفاع عن مصالحها. الأمر الذي يؤدي إلى تبلور الصراع بطريقة واضحة وظاهرة، أي أن

---

[1] انظر: أبو طاحون (ب د). مرجع سابق. جراها كينلوتش (١٩٩٠)- لطفي، طلعت والزيات، كمال (١٩٩٩).

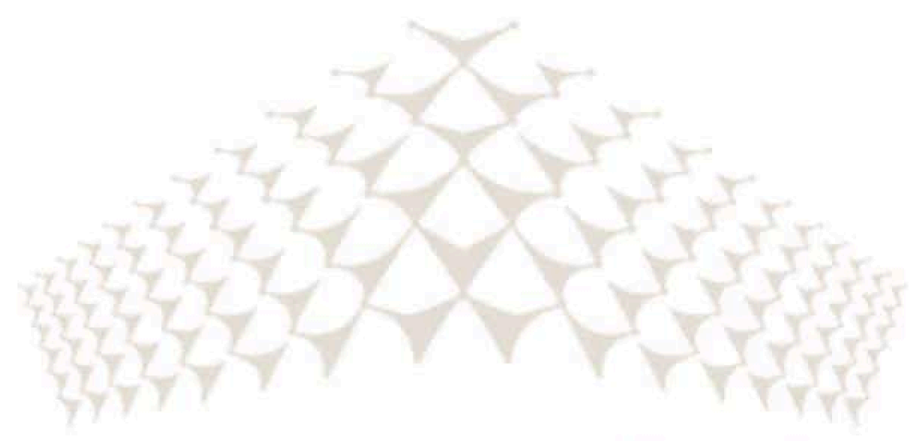
الصراع سيتحرر من حالة الجمود " الخفاء " إلى حالة البروز " الظهور" ليصبح صراعاً مفتوحاً.

٤. يرى "داهرندوف" أن الصراع كظاهرة اجتماعية في المجتمعات الرأسمالية الصناعية من الممكن أن يؤدي إلى التغيير في المجتمع، وهذا التغيير يحدث كلما استطاعت المجموعة المهيمَن عليها أن تضعف قوة المجموعة المهيمِنة عند ذلك يصبح التغيير الاجتماعي أكثر احتمالا بما يلائم أهداف المجموعة الحقيقية. والفكرة الأساسية تتعلق في وظيفة الصراع كوسيلة من وسائل التغيير.

٥. ولكن ما أن تنتصر المجموعات الضعيفة وتنتصب على قمة الهرم الاجتماعي حتى تظهر في المقابل مجموعات معارضة جديدة، وفي هذا السياق يتحدث "داهرندوف" عن حركية التغيير المستمر في المجتمع كونه متحركاً غير جامد.

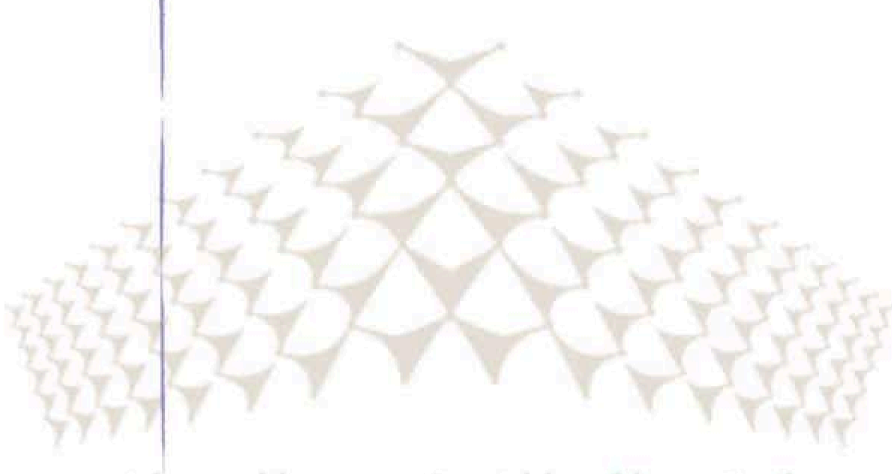
٦. يعتقد "داهرندوف" أن الصراع بين مجموعتين في المجتمعات الرأسمالية والديمقراطية الحديثة ينتشر ليمس كل جوانب الحياة الاجتماعية في المجتمع كصراع المرأة ضد الرجل فيما يتعلق بالمشاركة في السلطة السياسية والمواقع الاقتصادية والأكاديمية والأسرية، وحتى الدين والعلوم والفنون باتت معرضة للصراع.

وينتهي "داهرندوف" إلى التأكيد على أنه كلما انتقلت هذه النظرية من تفسير الصراعات الخفية إلى تفسير التغير الاجتماعي، أصبح واجباً أن تأخذ النظرية بعين الاعتبار سلوكيات الأفراد والجماعات في أوضاع اجتماعية معينة، إذ أن منطق الصراع تكمله حركية الصراعات. وهكذا فإن نظرية الصراع الكبرى عند "داهرندوف" مثل نظرية "كارل ماركس" تعتمد على النشاطات الصغرى MICRO ACTIVE كمنطلق في تفسير العمليات التاريخية الكبرى المحددة والموجهة للتغير.



سادساً- الاتجاهات الماركسية الجديدة:

- تعريف الماركسية الجديدة.
- قضايا الماركسية الجديدة.
- مكانة علم الاجتماع في النسق الماركسي.
- قضايا الطبقات الاجتماعية وأدوارها في التغير.
- الوعي بالواقع والوعي الممكن.
- لوكاش والأيدولوجيا:
- حياته.
- منطلقاته الفكرية والمنهجية.
- لوكاش والمصلحة.
- معارضة الماركسية الجديدة للنظرية البرجوازية.
- الماركسية الجديدة والماركسية القديمة.



سادساً: الاتجاه الماركسي الحديث:

مع أن اصطلاح ماركسية جديدة ليس محببا لدى عدد كبير من الماركسيين، لأنهم يرون إما أن يكون الفكر ماركسيا أو لا يكون، أو إما أن تكون ماركسيا أو تحريفيا ومع أن الإجابة على سؤال ما هي الماركسية الجديدة وبالتالي ما هو الماركسي الجديد؟ تعد هامة علميا وأخلاقيا لأنها إجابات تساعد في تحديد الفرق الموضوعي بين التجديد والتحريف في هذه النظرية ولأن المبالغة في الجانب الأول قد تنقل الناقد إلى الجانب الثاني- التحريفي- ولو بحسن نية . والأساس في أية نظرية علمية استيعابها للحقائق الجديدة وإلا تحولت إلى بناء جامد منفصل عن الواقع. ومعنى هذا أن قدرة الماركسية على استيعاب ما يستجد لا يسم الجهود المستندة إلى إطارها بأنها جديدة.

تعريف الماركسية الجديدة:

تمثل الماركسية الجديدة المبادئ والأسس التالية:

١-أن الماركسية الجديدة تسلم ابتداء بمفهومات الماركسية ومنطقها المنهجي والقوانين العامة التي توصلت إليها كما وضحها روادها المؤسسون.

٢-أن الماركسية الجديدة تنطلق من الحقائق الجديدة التي يفرزها الواقع أو بعبارة أكثر دقة تتعامل مع القوانين النوعية للتطور الاجتماعي.

٣-أن الماركسيين الجدد يمكن أن يكونوا كل من التزم بالبندين الأولين، وأتى بعد الرواد المؤسسين وقدم أسهما على طريق فهم المعطيات والحقائق الجديدة بشرط ألا يخرج عن الإطار العام المعرفي والأيديولوجي للنظرية.

٤-الأيدولوجية المبطنة في الفكر البرجوازي والتي تعمل على تبرير الواقع، بما في ذلك عدم المساواة والاستغلال في إطار المجتمع، وتكريس التخلف للدول النامية في علاقاتها بالدول الرأسمالية المتقدمة.

٥-على مستوى التنظير والتحليل تصدى مفكرو الماركسية الجديدة لمحاولات تجزئة القضايا الاجتماعية، منادون بالأخذ بالمنظور التكاملي والكلي، إلا من أخذ بمفهوم ما بعد الحداثة ممن لهم جذور ماركسية.

٦-الاهتمام بدراسة العلاقات الطبقية والثورة، معارضين مفهوم التدرج الذي يخفي العلاقات الدينامية والتناقضية للطبقات.

٧-رغم الاهتمام بالعامل الثقافي والوعي، شهدت الاتجاهات الجديدة، العودة إلى إبراز دور العامل الاقتصادي على مستوى المجتمع والعالم في تكريس اللامساواة والاستغلال والتخلف والتبعية، في الوقت الذين كانوا يؤكدون فيه حق المظلومين والمحرومين في التحرر والثورة[1].

قضايا الماركسية الجديدة:

١- مكانة علم الاجتماع في النسق الماركسي:

من أبرز القضايا التي أثارها المشتغلون بعلم الاجتماع الذين ينطلقون من الماركسية قضية العلاقة بين علم الاجتماع والنسق الفكري الماركسي، على اعتبار أن "ماركس" نفسه رفض استخدام مصطلح Sociology الذي صكه "أوجست كونت" ولم يأت هذا الرفض تقليلا من أهمية العلم ودوره وإنما من بنائه ومضمونه وتوجهاته ووظائفه كما كانت سائدة أيام ماركس فضلا على رغبته في دحض تجزئة الواقع وتفتيته من خلال علوم اجتماعية جزئية تهدم الصورة البنائية الكلية. على أن التصور الماركسي الجديد يؤكد ضرورة الاهتداء بالمادة التاريخية لقيادة البحوث الاجتماعية وتوجيهها موضوعا وتصميما مع الإفادة من الأساليب الفنية البحثية التي توصل إليها العلم مع ملاحظة ألا يمسخ علم الاجتماع إلى نوع من السيكولوجيا أو إلى دراسات جزئية بل لا بد أن يكون علما بنائيا له توجهات مستقبلية وتكون مهمة البحث ساعية إلى إثراء النظرية وتطويرها بما يجعلها أكثر قدرة على استيعاب الوقائع المعطيات الجديدة . وهذا لا يأتي إلا بالتخطيط لدراسة القضايا البنائية والظاهرات المجتمعية النوعية والعامة المحلية والعالمية.

٢- قضايا الطبقات الاجتماعية وأدوارها في التغيير:

يبدأ الماركسيون الجدد تناولهم مسائل الطبقات الاجتماعية بالتأكيد على أن ماركس أكسب التصور العام للطبقة الاجتماعية معنى سوسيولوجيا فتصوره ليس إستاتيكيا سكونيا كما فعل السابقون عليه ، كما أنه جعل من الطبقة مقولة تحليلية وتفسيرية لكثير من الظاهرات الاجتماعية فضلا عن تحديده لها تحديدا موضوعيا من

---

[1] عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). النظرية المعاصرة في علم الاجتماع. عمان: دار الشروق، ص ١٥٤.

خلال موقعها من نظام الإنتاج والتنظيم الاجتماعي للعمل .فالبعض يرى بأن "ماركس" نفسه لم يضع تعريفا للطبقة فالتعريف الشائع هو ذلك الذي صاغه لينين والذي رأى فيه الطبقات جماعات من الناس تحتل مواقع متماثلة -نسبيا - في نظام الإنتاج الاجتماعي ..الخ وذلك لأن "ماركس" في الجزء الثالث من رأس المال عنى بمحددات الطبقة فقط. وأن تقسيم " ماركس " للطبقات حصرها في اثنتين أساسيتين - المستغيلة والمستغلة- دونما اهتمام بتفصيلات وحصر للطبقات في المجتمعات المعاصرة.

وأما النقطة الأخيرة فتتعلق بمسألة الدور الثوري للبروليتاريا وهي مسألة أصبحت من وجهة نظر البعض بحاجة إلى إعادة نظر خاصة بعد التطورات التي طرأت على الطبقة العاملة في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة وبعد الحقائق التي أفرزتها التجارب النوعية لبعض المجتمعات[1].

٣- الوعي بالواقع والوعي الممكن:

أ- في تصويره لعلم الاجتماع يشير "جولدمان" إلى أنه بقدر ما يقتصر علم الاجتماع على دراسة الصور والأشكال الاجتماعية فإنه يعجز عن فهم المجتمع وتقديمه لنا. وأن لوكاش وجولدمان لا يدينان جميع الأحكام التي قدمها العلم البورجوازي ذلك لأن ثمة أحكاما تقويمية قدمتها البورجوازية التقدمية في نضالها ضد الإقطاع مثل الحرية لكنهما يريان معا أن علم الاجتماع هو علم الكليات الاجتماعية في جوهرها ودينامياتها ولهذا فافتراض وجود بناءات ثابتة لا يقل خطأ عن التوجهات الجزيئية في العلم البورجوازي .فالبناء الاجتماعي هو دائما عملية دينامية للبناء والهدم.

ب- اعتبر" لوسيان جولدمان" إن تطوير" جورج لوكاش " لمفهوم الوعي الممكن هو إسهامه الأساسي في علم الاجتماع فهو أكثر من غيره من المفهومات يعد نقطة ارتكاز منهجية جدلية للبحث الاجتماعي لهذا اعتبر "جولدمان " الوعي عملية دينامية ومحافظة في الوقت نفسه . فهي دينامية عندما يحاول الإنسان مد نشاطاته إلى العالم من حوله ومحافظة عندما يحاول أن يحافظ على بناءات الفكرة الداخلية.

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

عندما تحدث " ماركس "عن وعي الطبقة العاملة - وليس مجرد وعي أفرادها- إنما كان يميز الوعي بالواقع والوعي بالممكن أما الكتابات السوسيولوجية المعاصرة فهي تقتصر على الوعي بالواقع نتيجة لإغراقها في الأساليب الوصفية والاستبيانات واستمارات البحوث.

يرى " وليم مايرل " أن مسألة ارتباط العلوم الإنسانية وأي نتاج آخر للوعي الإنساني بالنضال من أجل الأهداف المجتمعية كانت من أكثر الأفكار التي أثر بها "لوكاش" في "جولدمان" ما ساعد الأخير على بلورة فكرة أن الوعي الطبقي يتكون من الأفكار والمشاعر التي يملكها أفراد الطبقة عندما يقدرون موقفهم الطبقي تقديرا صحيحا وذلك لأن الوعي الطبقي ليس مجموع أو متوسط ما يفكر به الأفراد فهذا هو الوعي الإمبريقي الآني السيكولوجي. كما ذهب لوكاش . أما الوعي الطبقي فهو رد الفعل- فكرا وموقفا وسلوكا- العقلاني المناسب لوضع خاص في عملية الإنتاج.

ج- يرى "جولدمان " أنه من الضروري لمن يريدون التدخل في الحياة الاجتماعية - لإحداث التنمية مثلا - أن يعرفوا أية معلومات يريدون نقلها وكيف يمكن هذا وأيها سيتعرض للتحريف عند استقباله وأيها يصعب استقباله في ظروف نوعية محددة وهنا يجب أن نضع في الاعتبار أن أي جماعة - جماعات المصلحة مثلا - تسعى إلى معرفة الحقيقة ولكن ليس للحد الذي يتعارض مع وجودها ومصالحها . وينبه "جولدمان" في الوقت نفسه إلى خطورة أساليب الاتصال الجماهيري الإعلامي التي قد تحدث وعيا بالواقع قاصرا ومحدودا يصعب التعامل معه من وجهة نظر مستقبلية [1] .

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

لوكاش والأيديولوجيا:

حياته:

ولد جورج لوكاتش ولد في بودابست عام ١٨٨٥ وتوفي فيها عن ستة وثمانين عاماً في الخامس من تموز ١٩٧١ . فيلسوف ومفكر ماركسي ، ناقد أدبي ، اهتم بعلم الجمال والفن ، وانشغل بالسياسة ، درس الحقوق في بودابست ، وبرلين حيث حصل على الدكتوراه . صدر كتابه الأول بعنوان « الروح والأشكال » الذي تجلت فيه نظرته الفلسفية والجمالية من خلال دراسات تناول فيها مجموعة من الأدباء والشعراء ، والفنانين . عاش في هايدلبرغ بين عامي ١٩١٢ - ١٩١٧ ، ومنذ عام ١٩١٧ ساهم في نشاطات كل من « حلقة الأحد » ، و« المدرسة المستقلة للعلوم الفكرية » وفي عام ١٩١٥ التحق بالخدمة العسكرية غير المسلحة « خدمة ثابتة » ، ولكن أعفي منها عام ١٩١٦ ، وقد زادت الحرب العالمية الأولى من كرهه للرأسمالية ، فوجد طريق الخلاص في الثورة ، فانتسب إلى الحزب الشيوعي المجري ، وصار مسؤولاً سياسياً في الجيش الاحمر ، خلال فترة ما يسمى الجمهورية النيابية أو جمهورية المجالس في المجر ، بعد سقوط الجمهورية ، لجأ إلى فيينا ، ومارس من هناك عمله السياسي كعضو لجنة مركزية في الحزب الشيوعي المجري ، حضر أعمال المؤتمر الثالث للكومنترن في موسكو . ومنذ عام ١٩٢٦ اشرف على معهد ماركس - إنجلز - لينين ، وفي عام ١٩٤٥ عاد إلى وطنه الأم « المجر » ، وإلى العاصمة بودابست بالذات ، وغدا نائباً في المجلس البلدي ، لكنه استقال من منصبه ليصبح أستاذاً في الجامعة ، ثم عضواً فخرياً لأكاديمية العلوم المجرية ، وفي تلك الآونة ، دار في هنغاريا ما يسمى « حوار لوكاتش » الذي تركزت مناقشاته حول نظرة جورج لوكاتش حول الديمقراطية . عيّن عام ١٩٥٦ وزيراً للفنون الشعبية ، شارك في أعمال اللجنة التنظيمية المؤقتة لحزب العمال الاشتراكي المجري ، وفي تشرين الثاني من نفس العام التجأ إلى السفارة اليوغسلافية في بودابست ، وغادرها بعد أسبوعين ، اعتقله السوفييت ، ونفي إلى رومانيا ، ثم عاد إلى الوطن - منفاه الداخلي ، فلم يسمح له بنشر أعماله إلا في الصحف الغربية.

من مؤلفاته كتاب" الروح والأشكال الفن والمجتمع الأدب العالمي الأدب المجري - الثقافة المجرية طريقي إلى ماركس و"التاريخ والوعي الطبقي" عام ١٩٣٣م. و" فلسفة الفن والجمال" وكتاب " نظرية الرواية" عام ١٩١٦م. و: الرواية التاريخية" عام ١٩٤٧م.

منطلقاته الفكرية والمنهجية:

اتخذ "جورج لوكاش Lukacs " من قضية الأيديولوجية موقفًا مختلفًا عن ذلك الذي اتخذه مانهايم، وعلى الرغم من أن لوكاش قد اهتم شأنه شأن مانهايم بقضية (النسبية الأيديولوجية) إلا أنه قد تبنى مفهوم (المصلحة) كعامل حاسم قادر على التمييز والزيف، ويذهب لوكاش إلى أن البروليتاريا تشكل موضوعًا للتاريخ بقدر ما تمثل هدفًا له إذ أنها تمثل مجال المعرفة الأقرب إلى الحقيقة وذلك من خلال وعيها برسالتها التاريخية المتمثلة في تحرير كل الناس من الاغتراب الرأسمالي، وقد أوضح لوكاش أن البروليتاريا والبرجوازية يوجدان في ظل واقع واحد هو الرأسمالية ويدركان العالم على أنه شيء خارجي ثابت إلا أن وعي كل منهما بتغييره يختلف كل الاختلاف، فإذا كان الفكر البرجوازي غير قادر على الابتعاد عن مجموعة المفاهيم الوسيطة التي تمكنه من تحليل الواقع، فإن الفكر البروليتاري قادر على إدراك ذاته من خلال مواقف تاريخية ملموسة يتضمنها الوعي الطبقي[1].

ومن الواضح أن "لوكاش" قد رفض فكرة (النسبية الأيديولوجية) لأنه أصر على مناقشة قضية الأيديولوجية من وجهة نظر البروليتاريا ودورها التاريخي، ويترتب على ذلك التسليم بتعارض (أيديولوجية البروليتاريا) و(أيديولوجية البرجوازية) إلا أن لوكاش أوضح أن أيديولوجيا البروليتاريا تكتسب مكانة علمية موضوعية إذا ما قورنت بأيديولوجية البرجوازية ذلك أن الأولى تتجاوز بطبيعتها مشكلة التحقق الإمبيريقي بانطلاقها من منظور جدلي تاريخي حقيقي. ويصف لوكاش في مواضع عديدة من كتابه (التاريخ والوعي الطبقي) الفكر البرجوازي بافتقاده الدقة الأيديولوجية لأنه يميل إلى

---

[1] الحسيني، السيد (١٨٩٢). مرجع سابق. مزيد من التفاصيل انظر: هنري لوفيفر (١٩٧١). عصر الأيديولوجيا ، ترجمة محمد محيي الدين صبحي، دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

معالجة الأشياء بمعزل عن بناء المجتمع وحركته حتى ليبدو دور الفرد هو الحاسم في التحول الاجتماعي، ومعنى ذلك أن الجزء قد اكتسب مكانة كبيرة لا يستحقها، بينما لم يحظ الكل إلا بمكانة متدنية هي أكبر منها بكثير.

إن مصدر القوة الكامنة في الفكر البروليتاري -في نظر "لوكاش"- يتمثل في اعتماده على (طبقة كادحة) تطمح من خلال وعيها وممارستها النضالية من أجل تغيير المجتمع كوحدة كلية في ضوء نظرة شاملة بل إن هذه الطبقة تحاول أيضًا تحقيق ذلك حتى ولو كانت خاضعة لوعي مزيف ذلك أن هذا الموقف لا يعدو أن يكون موقفًا خاطئًا ما يلبث أن يتخذ وضعه الطبيعي، على أن النقد الأساس الذي يمكن أن يوجه إلى (لوكاش) يتمثل في تصوره للبروليتاريا إذ أنه قد اعتبرها قوة جماهيرية متجانسة تواجه هيمنة برجوازية متحدة، إن مثل هذا التصور يتجاهل الديناميات الداخلية لكل من البرجوازية والبروليتاريا، ويطمس بالتالي إمكانية ظهور أيديولوجيات متناقضة أكثر تعقيدًا من تلك التي تصورها (لوكاش)، وهكذا نجد تصورات هذا المفكر الأيديولوجي لا تعتمد اعتمادًا أساسيًا على المحددات الواقعية للبناء الطبقي مما أظهرها في نهاية الأمر وكأنها تعبير عن نموذج نظري بالغ التجريد[1].

لوكاش والمصلحة:

تبني "لوكاش" مفهوم (المصلحة) كعامل حاسم قادر على التميز بين (الحقيقة) و(الزيف) ففي كتاب (التاريخ والوعي الطبقي) نجد لوكاش يذهب إلى أن البروليتاريا تشكل موضوعا للتاريخ بقدر ما تمثل هدفا له. إذ أنها تمثل مجال المعرفة الأقرب إلى الحقيقة وذلك من خلال وعيها برسالتها التاريخية المتمثلة في تحرير كل الناس من الاغتراب الرأسمالي كذلك يذهب لوكاتش إلى أن الماركسية تمثل التعبير الفكري عن الحركة الثورية وأن (الوعي الذاتي) بالرأسمالية ما يلبث أن يتجسد في صورة (وعي طبقي) لدى البروليتاريا، أو (الممارسة الثورية) المتمثلة في الاشتراكية فتتجاوز مشكلة النسبية وتنأى بقضية صدق الماركسية بحيث لا تعد احتكارا للفكر البرجوازي، ومعنى ذلك أن هذه القضية بالتالي جزءاً من الرصيد التاريخي للبروليتاريا.

---

[1] الحسيني، السيد (١٩٨٣). مرجع سابق. وكذلك : ياكوب باريون (١٩٧١). ما هي الأيديولوجية ، ترجمة سعد رزق، بيروت: الدار العلمية.

وقد أوضح "لوكاش" أن البروليتاريا والبرجوازية يوجدان في ظل واقع واحد هو الرأسمالية ويدركان العالم على أنه شيء خارجي ثابت، إلا أن وعي كل منهما بتغيره يختلف كل الاختلاف، فإذا كان الفكر البرجوازي غير قادر على الابتعاد عن مجموعة المفاهيم الوسيطة التي تمكنه من تحليل الواقع فإن الفكر البروليتاري قادر على إدراك ذاته من خلال مواقف تاريخية ملموسة يتضمنها الوعي الطبقي.

ومن الواضح أن "لوكاش" قد رفض فكرة (النسبية الأيديولوجية) التي طالب بها مانهايم، ذلك لأنه (أي لوكاش) قد أصر على مناقشة قضية الأيديولوجية من وجهة نظر البروليتاريا ودورها التاريخي. ويترتب على ذلك التسليم بتعارض أيديولوجية البروليتاريا وأيديولوجية البرجوازية. يبدو أن لوكاش ما لبث أن أوضح أن أيديولوجية البروليتاريا تكتسب مكانة علمية موضوعية إذا ما قورنت بأيديولوجية البرجوازية، ذلك أن الأولى تتجاوز بطبيعتها مشكلة التحقق الإمبيريقي بانطلاقها من منظور جدلي تاريخي حقيقي[1] .

وفي مواضع عديدة من كتابه (التاريخ والوعي الطبقي) نجد لوكاش يصف الفكر البرجوازي بافتقاد (الدقة الأيديولوجية) لأنه يميل إلى معالجة الأشياء بمعزل عن بناء المجتمع وحركته حتى يبدو دور الفرد هو الحاسم في التحول الاجتماعي ومعنى ذلك أن الجزء قد اكتسب مكانة كبيرة لا تستحقها، بينما لم يحظ الكل إلا بمكانة متدنية هو أكبر منها بكثير أن مصدر القوة الكامن في الفكر البروليتاري يتمثل في اعتماده على (طبقة كادحة عالمية) تطمح من خلال وعيها وممارستها النضالية من أجل تغيير المجتمع كوحدة كلية في ضوء نظرة شاملة.

بل إن هذه الطبقة تحاول أيضا تحقيق ذلك حتى ولو كانت خاضعة (لوعي مزيف) ذلك أن هذا الموقف لا يعدو أن يكون موقفا خاطئا ما يلبث أن يتخذ وضعه الطبيعي، على أن النقد الأساسي الذي يمكن أن يوجه إلى لوكاش يتمثل في تصوره للبروليتاريا، إذ أنه قد اعتبرها قوة جماهيرية متجانسة تواجه هيمنة برجوازية متحدة إن مثل هذا التطور يتجاهل الديناميات الداخلية لكل من البروليتاريا والبرجوازية أو يطمس بالتالي إمكانية ظهور أيديولوجيات ناقصة أكثر تعقيدا من تلك التي تصورها

---

[1] الحسيني، السيد (١٩٨٣). مرجع سابق. ص٩٦ – ٩٧ .

لوكاش، وهكذا نجد تصورات هذا المفكر للأيديولوجية لا تعتمد اعتمادا أساسيا على المحددات الواقعية للبناء الطبقي، مما أظهرها في نهاية الأمر وكأنها تعبير عن نموذج نظري بالغ التجريد[1].

معارضة الماركسية الجديدة للنظرية البورجوازية:

تأخذ هذه المعارضة عدة أبعاد منها:

١- بعد أيديولوجي : يتمثل في أن النظريات الاجتماعية البورجوازية تبرر الدور الإمبريالي للرأسمالية المعاصرة وتحاول أن تخفي تكريسها لتخلف الدول النامية وتبعيتها لها . وأخذ هذا النقد صورا متعددة منها ما شكل نقدا عاما للفكر السوسيولوجي والتنموي البرجوازي كما فعل شارل بالنهايم وبول باران اللذان حاولا كشف التزييف الأيديولوجي الذي تمارسه القوى الإمبريالية .

وثمة مواجهات حاولت كشف انحيازها الأيديولوجي من خلال دراسة حالات محددة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا .وهناك انتقادات وجهت لمنظرين بورجوازيين معينين من أمثلتها انتقادات أندرو فرانك لكتابات ماكليلاند خاصة عمله مجتمع الإنجاز ونقد بيرت هوسيلتز لبارسونز وخاصة في فكرته عن متغيرات النمط التي أرادها معايير للتخلف والتحديث.

٢- بعد الكلية : يذهب الماركسيون المحدثون وفي مقدمتهم جورج لوكاش ولوسيان جولدمان إلى أنه لفهم المجتمع المعاصر يجب النظر إليه في كليته .ويذهب هذان المفكران إلى أن جوهر الماركسية ليس فقط فكرة الأساس الاقتصادي وإنما أيضا كونها منهجا للكلية وتعني الكلية لديهما التفوق الشامل للكل على الأجزاء ذلك لأن منهج تقسيم المشكلات إلى أكبر عدد يمكن من الأجزاء وفق المنهج الديكارتي قد يصلح في الرياضيات لكنه لا يصلح في العلم الاجتماعي وذلك لأن تقدم المعرفة هنا لا يكون من البسيط إلى المركب ولكن من المجرد إلى المحسوس ومن خلال التنقل بين الكل وأجزائه والربط بين التوصيف والتفسير العلميين. فعند وصف البناء النوعي الخاص للموضوع قيد البحث وصفا خاصا يجب ربطه في الوقت نفسه بالبناء الأشمل . وهذا ما يدعم جدل الجزئي والكلي والنوعي والعام.

---

[1] الحسيني، السيد (١٩٨٣) مرجع سابق، ص ٩٦، ٩٧.

٣- الثورة والطبقة الاجتماعية : عارض الماركسيون الجدد قضايا دراسة الطبقات في الفكر البورجوازي وانتقدوا بشدة دراسة الطبقات من خلال التدريج الاجتماعي الذي يخفي الملامح الدينامية والعلاقات الكلية بين الطبقات الاجتماعية . وقدموا تفصيلات للبناءات النوعية للطبقات في بعض المجتمعات الحديثة والمعاصرة . أما فيما يتعلق بمسائل الثورة فيرى بعض الماركسيين المحدثين وفي مقدمتهم فرانز فانون أن العنف هو السبيل الوحيد للقضاء على الاستعمار. وقد أبرز الماركسيون الجدد بجانب الدور الثوري للبروليتاريا دور الفلاح والبورجوازية الصغيرة نظرا لقلة عدد أعضاء البروليتاريا وتمركزها في المدن وحاجتها إلى تحالفات طبقية.

٤- الاقتصاد : فيما يتعلق بالقضايا الأساسية ومع الاعتراف بالبعد الاقتصادي الداخلي في فهم كثير من أبعاد البناء الكلي للمجتمع فإنهم أبرزوا دور النظام الاقتصادي العالمي في تكريس تخلف الدول النامية وبالتالي أبرزوا قضايا التبعية بصورها المالية والنقدية والتكنولوجية والسياسية على نحو ما أوضح شارل بالنهايم في عمله التنمية والتخطيط[1].

الماركسية الجديدة والماركسية التقليدية:

١- ركز الماركسيون الجدد على الإمبريالية العالمية ودورها وأساليبها في التعامل مع ضحاياها كيف تقيدهم؟ وكيف تهزمهم؟ ومن المحاولات التجديدية ما اقترحه لوسيان جولدمان بإشارته إلى أنه يجب أن نستبدل بمصطلح الرأسمالية عند ماركس مصطلح الإمبريالية عند لينين وروزا لوكسمبورج كما أن مفهومهما هذا يجب تعديله لكي يعكس الطبيعة المنتظمة للنظام الرأسمالي العالمي المعاصر .كما وضحوا أساليب الاستعمار الجديد في التعامل مع دول العالم الثالث وسعيه إلى الحفاظ على كبار الموظفين ورشوة البورجوازيات الوطنية والتأثير الأيديولوجي أي المثقفين والتغلغل في المؤسسات العلمية والثقافية والإعلامية .

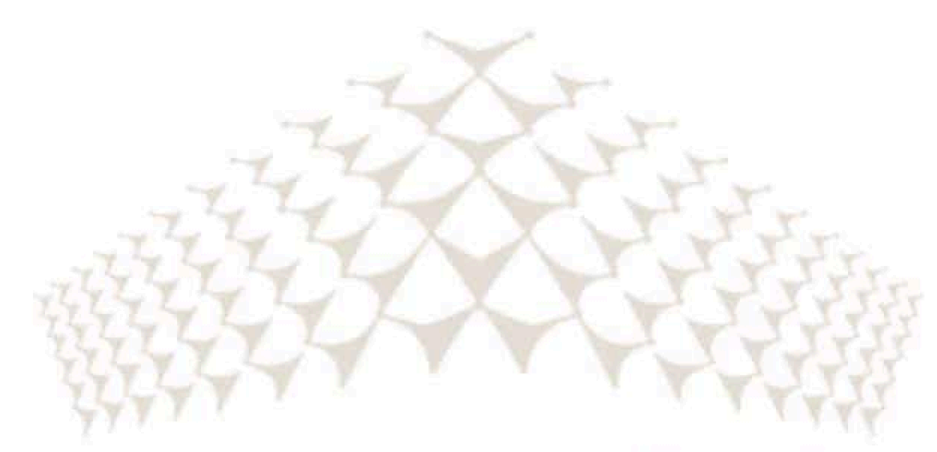
٢- اهتموا بالخصوصيات القومية ودور الأمة في التحرر الشامل بوصفها تجسدات لعمل القوانين النوعية للتطور الاجتماعي.

---

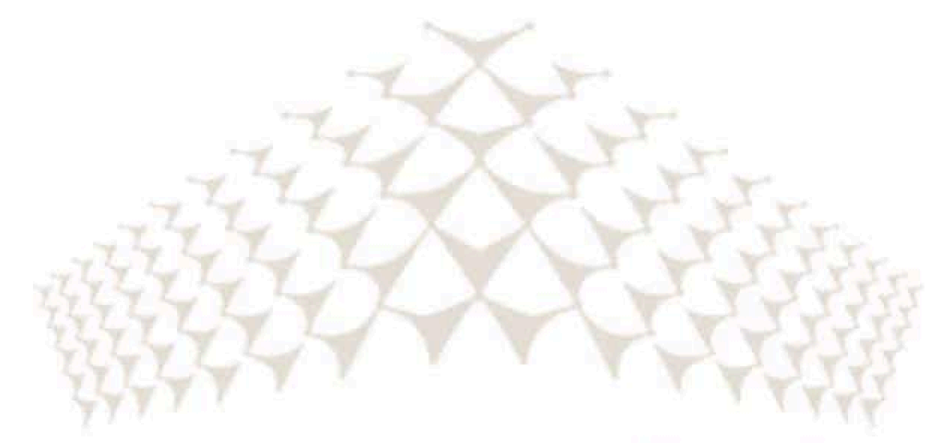
[1] عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص ١٥٥-١٦٠.

٣- وفيما يتعلق بالمسائل الطبقية فهم يطرحون قضية نظرية وهي أنه يجب النظر إلى تطور المجتمع الأوروبي ومراحله ومقولاته بوصفها حالات استقاها ماركس من تاريخ الإنسان ولكن لا ينبغي أن يوضع تاريخ الإنسان في قوالب تمثلها مراحل ومقولات تطور المجتمع الأوروبي.

٤- وثمة نقاط فرعية أخرى تتعلق بجدل الاستغلال الصاعد والهابط: من استغلال المدن في الدول النامية للقرى حيث تجذب الأولى رؤوس الأموال وفائض الإنتاج والقوى البشرية من خلال الهجرة[1].



[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق. وانظر: عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص ١٥٥-١٦٠.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

الفصل الخامس
النظرية التفاعلية الرمزية

أولاً- مدخل إلى النظرية التفاعلية الرمزية.

ثانياً- ماكس فيبر.

ثالثاً- جورج ميد.

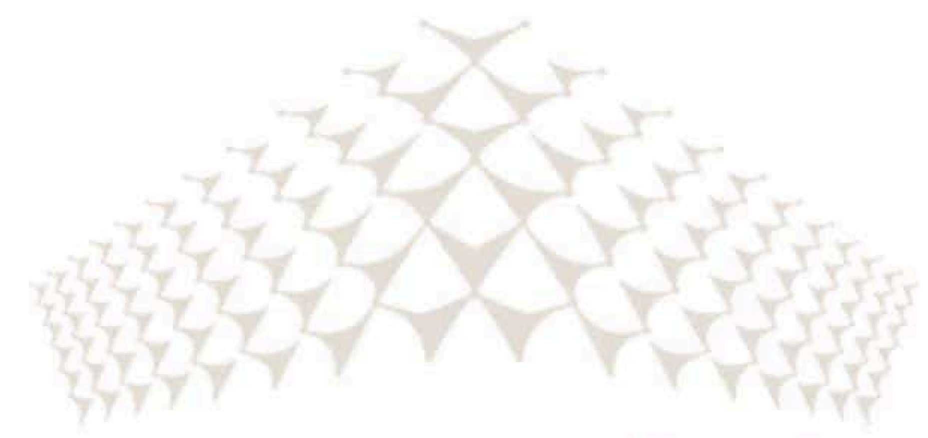
رابعاً- هربرت بلومر.

خامساً- إيرفينج جوفمان.

سادساً- جارفنكل والمنظور الإثنوميثودولوجي.

أولاً- مدخل إلى النظرية التفاعلية الرمزية:

- تمهيد في النظرية.
- ماهية التفاعلية الرمزية.
- مصطلحات النظرية.
- القضايا الرئيسة للتفاعلية الرمزية.



الفصل الخامس
النظرية التفاعلية الرمزية
SYMBOLIC INTERNATIONALISM

أولاً- مدخل إلى النظرية التفاعلية الرمزية:

تمهيد للنظرية:

تعد التفاعلية الرمزية واحدة من المحاور الأساسية التي تعتمد عليها النظرية الاجتماعية في تحليل الأنساق الاجتماعية. وهي تبدأ بمستوى الوحدات الصغرى (MICRO) منطلقة منها لفهم الوحدات الكبرى بمعنى أنها تبدأ بالأفراد وسلوكهم كمدخل لفهم النسق الاجتماعي. فأفعال الأفراد تصبح ثابتة لتشكل بنية من الأدوار. ويمكن النظر إلى هذه الأدوار من حيث توقعات البشر بعضهم تجاه بعض من حيث المعاني والرموز وهنا يصبح التركيز إما على بنى الأدوار والأنساق الاجتماعية أو على سلوك الدور والفعل الاجتماعي [1].

ونشأ منظور التفاعلية الرمزية بوصفه دليل عمل سوسيولوجي لفلسفة الذرائع (البراجماتية) التي اهتمت بالخبرة الإنسانية بوصفها منبعاً للمعرفة[2]. منطلقة في صياغة أفكارها من الاهتمام بالخبرات السابقة أساساً لتنظيم الحاضر والمستقبل من خلال أيمانهم بمبدأ (صحة المقدمات تقاس بصحة النتائج).

واستمرارا للفلسفة البراجماتية نشأ الفكر التفاعلي الرمزي في الولايات المتحدة الأمريكية ليكشف عن جوانب طالما عالجتها الاتجاهات الوضعية في سياق شمولي لا يستطيع أن يكشف الأبعاد الحقيقية لها. إذ عالج هذا الاتجاه المشكلات الاجتماعية كالهجرة والطلاق والجريمة وانحراف الأحداث وكذلك الأمراض النفسية والعقلية التي ولدتها الحياة العصرية أملاً في الكشف عن هذه المشكلات والعمل على وضع الحلول

---

(1) Cruib , Ian.(1992). Modern Social Theory. Harvester: second Edition.P 130-131.

(2) عمر، معن خليل (١٩٩١). نقد الفكر الاجتماعي المعاصر. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ص١٧٣.

المناسبة لها. لقد تقدم منظور التفاعلية الرمزية ليضع نفسه منافساً قوياً للاتجاه البنائي الوظيفي متخذاً من المشكلات الاجتماعية والنفسية منفذاً لتوصيف رؤية جديدة لعلم الاجتماع يؤمن بالعمل لا بالتنظير.

كما ولد هذا المنظور اهتماماً بمفاهيم لها دور في فهم الاتصال والتفاعل مثل، الرموز والنفس واللغة والأنا والذات والعقل. فهذا المنظور ينظر إلى أن البشر يسلكون إزاء الأشياء في ضوء ما تحمله تلك الأشياء من معان ظاهرة لهم، وما هذه المعاني إلا حصيلة للتفاعل ولكن البشر يستطيعون تعديل هذه المعاني وإعادة تشكيلها من خلال عمليات التأويل التي يستخدمها الأفراد في تفاعلهم مع الرموز. أي إن التفاعلية الرمزية اتجهت نحو فهم الذات الفاعلة والنفس البشرية من خلال فهم العمليات التفاعلية والعكس صحيح ، بحيث أصبح موضوع الذات والنفس البشرية أساسا في علم الاجتماع.

فالرمز من هذا المنظور شيء يعبر عن معنى شيء آخر. فعندما يضع الفرد على سترته رمزاً فإنه يعني بذلك أنه ينتمي لدولة ما، أو لجمعية ما أو هيئة ما، أو عضواً في نادي، أو مؤسسة بعينها. والسيارة الفارهة إنما هي رمز للثراء والمكانة الاجتماعية العالية. وكل كلمة نتفوه بها إما هي رمز لمعنى يختلف استيعابه بحسب الموقف أو المكان الذي ننطق به لهذه الكلمة. والأصوات والإشارات الجسمية إنما هي رموز لها معانيها ومدلولاتها. فعندما يصيح أحدهم بكلمة (حريق)، وهو في سوق عام. فمعناه سرعة إخلاء المكان. بينما عندما يرفع صوته وهو داخل مكتبة مثلاً فإن سلوكه يعد مشيناً يعاقب عليه النظام، والعكس لو ارتفعت أصواتنا في الشارع، أو في سوق عام. بحيث لكل مكان نظامه وفهمه للمعاني الرمزية. ولكل مكان نجلس فيه رموزه لو استخدمناها في مكان آخر قد يختلف معناها. كما تختلف باختلاف الثقافات والمجتمعات. وبالتالي علينا فهم الإطار أو السياق الذي يحدث فيه السلوك كي نفهم السلوك الإنساني. وبالتالي نفهم معناه ودلالته[1].

وقد حاز مفهوم الذات (النفس البشرية) على اهتمام واسع من قبل الفلاسفة وعلماء النفس، وذلك لأهمية وحيوية الحوار فيه، ومع اهتمام علماء الاجتماع

---

[1] بتصرف من : العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٨٩- ١٩٠.

بالتفاعل أكثر من اهتمامهم بالفاعل وبالذات الفاعلة، إلا أن هنالك العديد من الدراسات السوسيولوجية التي تأثرت وبشكل واضح بالدراسات النفسية، قامت بتضييق الحيز المجالي للظاهرة الاجتماعية، من خلال اختزاله في تفاعلات على نطاق ضيق تتجاوز حدود الرؤية الشمولية للمجتمع التي تجاذب أطرافها علماء الاتجاه الوظيفي نحو فهم فاعلية الذات في المواقف الحياتية اليومية مناقشين دقائق الحياة التفاعلية، مهما كانت بسيطة أو ساذجة في نظر الوظيفيين.

وهؤلاء هم علماء التفاعلية الرمزية الذين اختطوا منظوراً خاصاً بهم يعبر عن رؤية فاحصة للواقع الاجتماعي تعالج مشاكله وتعمل على تجاوزها. ورغم أن هدفهم لم يكن إصلاحيا خالصا وإنما كان الهدف الكشف عما يكتنف حياة الإنسان من مشكلات من خلال فهم الإنسان لذاته الفاعلة وأدواره والمواقف التي يمر بها، داخل الحيز المجالي الذي يتفاعل ويتعايش فيه.

ولذلك فإننا نلحظ اتفاقاً بين علماء التفاعلية الرمزية وأصحاب الاتجاه الفينومينولوجي فلقد درس كل منهما الأفعال القصدية والذات الفاعلة ووعي الذات متأثرين بالفلسفة الوجودية التي أكدت على خبرات الفرد الذاتية ودورها في رسم تصورات الإنسان الخاصة مع نفسه ومع الآخرين. كما نظروا للإنسان على أنه يمتلك عنصر المبادأة بالفعل مؤكدين على وجود علاقة جدلية بين الذات والواقع الاجتماعي الذي يحياه الإنسان[1].

إن أصحاب النظرية التفاعلية يبدؤون بدراستهم للنظام باعتبارها بنى للأدوار بنفس طريقة بارسونز إلا أنها لا تشغل نفسها بالتحليل على مستوى الأنساق بقدر اهتمامها بالتفاعل الرمزي من الفصل الدراسي (مكان حدوث الفعل الاجتماعي) فالعلاقة في الفصل الدراسي والتلاميذ والمعلم هي علاقة حاسمة لأنه يمكن التفاوض حول الحقيقة داخل الصف إذ يدرك الطلاب حقيقة كونهم ماهرين أو أغبياء أو كسالى وفي ضوء هذه المقولات يتفاعل التلاميذ أو المدرسون بعضهم مع بعض حيث يحققون في النهاية نجاحاً أو فشلاً تعليمياً[2].

---

[1] زايد ، أحمد (١٩٨٤). مرجع سابق، ص٣٨٨-٣٩٣.

[2] للتعرف على الرمزية العربية انظر: بو عزيزي، محسن (٢٠١٠). السيميولوجيا الاجتماعية. مجلة إضافات، العدد (٩)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت، ص٧١-٩١.

ماهية التفاعلية الرمزية:

يشير مفهوم التفاعلية الرمزية إلى التفاعل الذي ينشأ بين مختلف العقول والمعاني. والذي يعد سمة مميزة للمجتمع الإنساني. ويستند هذا التفاعل الاجتماعي على حقيقة مهمة، هي أن يأخذ المرء ذاته في الاعتبار. وأن يحسب حساباً أيضاً للآخرين. أي أن يستوعب أدوار الآخرين. وعلى هذا النحو يمكن صياغة صورة المجتمع الإنساني. تلك الصورة التي تعبر عن التفاعل والتساند والاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع، بين السلوك الخارجي والذات الاجتماعية[1].

ولا شك أن التفاعلية الرمزية قد أظهرت اتجاهاً لا يستوعب تماماً كل العواطف الإنسانية وبنفس القدر أيضاً تجاهلت فكرة البناء الاجتماعي ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن هذه المدرسة ليست منحازة تماماً لعلم النفس ولست منحازة تماماً لعلم الاجتماع. ويبدو أن ذلك راجع إلى عامل اهتمام أصحاب هذا الاتجاه ـ برغم ما وجه إليهم من انتقادات بتأكيد انعدام التفرقة بين المستويين الأصغر والأكبر للتحليل السوسيولوجي للواقع الاجتماعي. كما أنها لا تزعم أن العواطف الإنسانية هي كل شيء في الحياة الاجتماعية أو أن البناء الاجتماعي هو المفهوم الوحيد الملائم لفهم الواقع الاجتماعي ومن ثم يجب التوحد معه ولقد أراد أصحاب هذا الاتجاه أن يكون منظورهم عاماً للسلوك الإنساني والحياة الاجتماعية ولهذا فإن التفاعلية الرمزية تعبر فعلاً عن التوجه الاجتماعي لعلم النفس الاجتماعي فهي استطاعت أن تكشف عن المصادر الاجتماعية للسمات الفريدة للإنسان وأوضحت أن العقل والذات هما أبسط صور المجتمع ووصفت كيف يستطيع أعضاء الجماعات الإنسانية تطير تصوراتهم للعالم الذي يعيشون فيه وألقت ضوءاً ساطعاً على عملية التفاعل حين كشفت عن الناس يشاركون بعضهم بعضاً خلال هذا التفاعل أكثر من كونه يستجيبون للسلوك الظاهر المتبادل أو هي بعبارة أخرى وضعت الفرد في قلب المجتمع كما جعلت المجتمع يعيش في الأفراد . وليس من شك أن أعمال التفاعليين الرمزيين قد جذبت إليها لأن الناس في هذا العصر يريدون أن يعرفوا الكثير عن أنفسهم وذواتهم وأهمية هذه الذات في الحياة الاجتماعية وهي توضح ذلك كله بمناهج الاستعانة بالتجريب أو القوانين الصارمة والواقع أنه طالما لا توجد

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٢٦٢.

طريقة عامة متفق عليها للوصول دفعة واحدة إلى الحقيقة المطلقة فيما يتصل بحياتنا الاجتماعية فإن المجال مفتوح للمزيد من وجهات النظر يكمل بعضها بعضاً من أجل التقدم نحو تحقيق فهم أفضل للحياة الاجتماعية وليس من شك أن الإسهام الذي تقدمه التفاعلية الرمزية في هذا الصدد له أهميته ويغطي مجالاً مهماً من حياتنا يتعذر أن يكتسب بصدده معرفة ملائمة من أية اتجاه نظري آخر غيرها .

مصطلحات النظرية :

١ـ التفاعل **INTERACTION** : وهي سلسة متبادلة ومستمرة من الاتصالات بين فرد وفرد أو فرد مع جماعة أو جماعة مع جماعة .

٢ـ المرونة **FLEXIBILITY**: ويقصد بها قدرة الإنسان أن يتصرف في مجموعة ظروف بطريقة واحدة في وقت واحد وبطريقة مختلفة في وقت آخر وبطريقة متباينة في فرصة ثالثة.

٣ـ الرموز **SYMBOLS**: وهي مجموعة من الإشارات المصطنعة يستخدمها الناس فيما بينهم لتسهيل عملية التواصل وهي سمة خاصة في الإنسان وتشمل عند جورج ميد اللغة وعند بلومر المعاني وعند جوفمان الانطباعات والصور الذهنية .

٤ـ الوعي الذاتي **SELF _CONSCIOUSNESS** : وهو مقدرة الإنسان على تمثل الدور فالتوقعات التي تكون للآخرين عن سلوكنا في ظروف معينة هي بمثابة نصوص يجب أن نعيها حتى نتمثلها على حد تعبير جوفمان[١].

القضايا الرئيسة للتفاعلية الرمزية:

من أشهر ممثلي النظرية التفاعلية الرمزية جورج ميد (١٨٦٣- ١٩٣١م)، وتشارلز كولي C.H. Cooley (١٨٦٤- ١٩٢٩م)[٢]، ووليام إسحاق توماس

---

[١] جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص٢٣٧.

[٢] تشالرز هورتون كولي Cooly, Charies Horton (١٨٦٤- ١٩٢٩م) عالم اجتماع أمريكي درس في جامعة متشجن وأصبح أستاذاً فيها، من المؤسسين للاتجاه النفسي والاجتماعي. وتأثر بعدد من علماء الاجتماع والنفس والفلاسفة، ويعد مفهوم الجماعة الأولية والجماعة الثانوية من أهم المفاهيم التي ارتبطت بتشالرز كولي، إضافة إلى مفهوم " الذات الشفافة". كما أسس مدخل الأفكار الشخصية= =

W.Thomas (١٨٦٣- ١٩٤٧م)[١] وجـون ديـوي J.Dewey (١٨٥٩- ١٩٥٢م)[٢]، ووليـام جـيمس W. James (١٨٤٢- ١٩١٠م)، وروبـرت بـارك Park Robert، (١٨٦٤-١٩٤٤). والتي تعتبر أعمالهم هي الركيزة الأساسية لمختلف اتجاهـات التفاعليـة الرمزية. كما أن هناك محاولات عديدة لتطوير هذه النظرية. ومن أهمها أعمـال كـل مـن هربرت بلومر H. Blumer (١٩٠٠-، وإيرفينج جوفمـان (١٩٢٢- ١٩٨٢م). كمـا أن هناك عدداً كبيراً من العلماء الذين لم تُناقَش أعمالُهم بشكلٍ واسع، مع أنهم مـن أعـلامٍ ومؤسسي النظريـة التفاعليـة الرمزيـة. ومـن هـؤلاء مـانفرد كـون Kuhn Manferd، (١٩١١-١٩٦٣). وهـو عـالم اجتمـاع أمريكـي، ومـن رواد مدرسـة (آيـوا) للتفاعليـة الرمزيـة. وهـوارد بيكـر[٣] Becker, Howard وكـذلك كـل مـن ميلتـزر Meltzer، وهيرمان Herman، وجلاسر Glaser، وستراوس Sturauss، وغيرِهم.

كوسيلة للتواصل في المجالات الأدبية والفنية المختلفة. وكذلك تحديده لعملية الاتصال والعلاقات داخل الجماعات. وكذلك أفكاره حول تشكل الرأي العام. من أهم أعماله " الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعي" ١٩٠٢م. و " التنظيم الاجتماعي" ١٩٠٩م. و " العملية الاجتماعية" ١٩١٨م. و " النظرية الاجتماعية والبحث الاجتماعي" ١٩٣٠.

[١] وليام توماس W.Thomas (١٨٦٣- ١٩٤٧م) من أهم رواد علم الاجتماع النفسي. التحق عام ١٨٩٣م بقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو. من أهم كتبه (المرجع في الأصول الاجتماعية)، (الفلاح البولندي في أوربا وأمريكا) (١٩١٨- ١٩٢١م)، وكتاب (الفتاة غير المتوافقة) (١٩٢٣م)، وكتاب (الطفل في أمريكا) (١٩٢٨م). وقد أسهمت أعماله في تطوير ما يعرف بدراسات السلوك والشخصية كمجال من مجالات علم الاجتماع.

[٢] جون ديوي Dewey, John (١٨٥٩-١٩٥٢م) فيلسوف ومنظر سوسيولوجي طبيعي. وأحد المفسرين لمبدأ البراجماتية Pragmatism وصاحب تأثير كبير على جورج ميد وعلى التفاعلية الرمزية.

[٣] هوارد بيكر Becker, Howard عالم اجتماع أمريكي. ولد عام ١٩٢٨م في شيكاغو. حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة نورث وسترن في شيكاغو في الفترة من ١٩٤٦- ١٩٥١م. صار أستاذاً لعلم الاجتماع وشؤون المجتمع، بجامعة نورث وسترن في شياكاغو عام ١٩٦٥م. تأثر تأثراً شديداً بأفكار هربرت بلومر. ومن مؤلفاته " الغرباء" ١٩٦٣م الذي عرض فيه لنظريته " نظرية الوسم". وفي علم المناهج ولا سيما الملاحظة بالمشاركة. وفي الدراسات الميدانية للثقافات الطلابية. وفي التفاعلية الرمزية بشكل عام ومن مؤلفاته الأخرى " عوالم الفن"، و " إسهام التصوير الشمسي في علم الاجتماع".

ولقد لخص هبرت لومر H. Blumer القضايا الأساسية للتفاعلية الرمزية في ثلاث مقدمات، وهي:

١- أن الكائنات الإنسانية تسلك إزاء الأشياء في ضوء ما تنطوي عليها هذه الأشياء من معاني ظاهرة لهم.

٢- أن هذه المعاني هي نتاج التفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني.

٣- أن هذه المعاني تتعدل وتتشكل من خلال عملية التأويل التي يستخدمها كل فرد في تعامله مع الرموز التي تواجهه[1].

ومن أهم الأفكار:

١-أن الحقيقة للواقع لا تتوفر بمعزل عن تفاعل الناس، وتأويلهم لما هو موجود.

٢-يتذكر الناس ويشكلون معرفتهم بالعالم بناء على ما يرونه نافعاً ومفيداً.

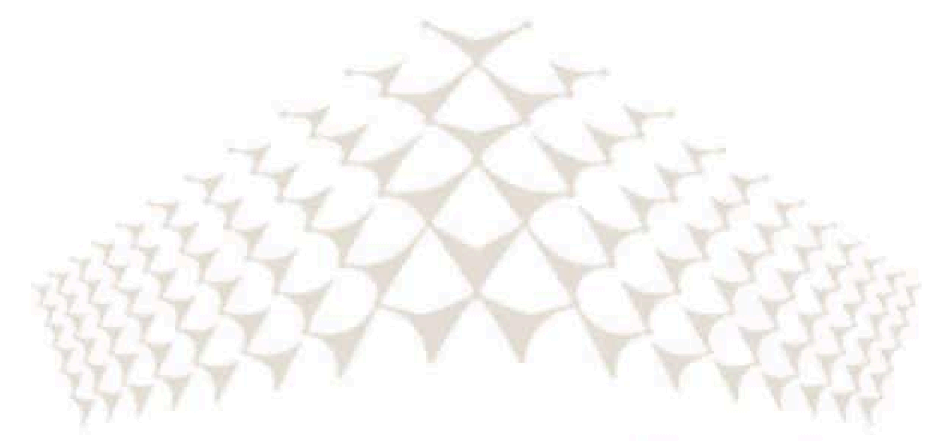
٣-يعرف الناس أيضاً المواضع الاجتماعية والطبيعية على أساس ما يتصور ما فيها من منافع.

٤-يرتبط فهمنا للتفاعل بناءً على ما يقوم به فعلاً[2].

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٢٦١.

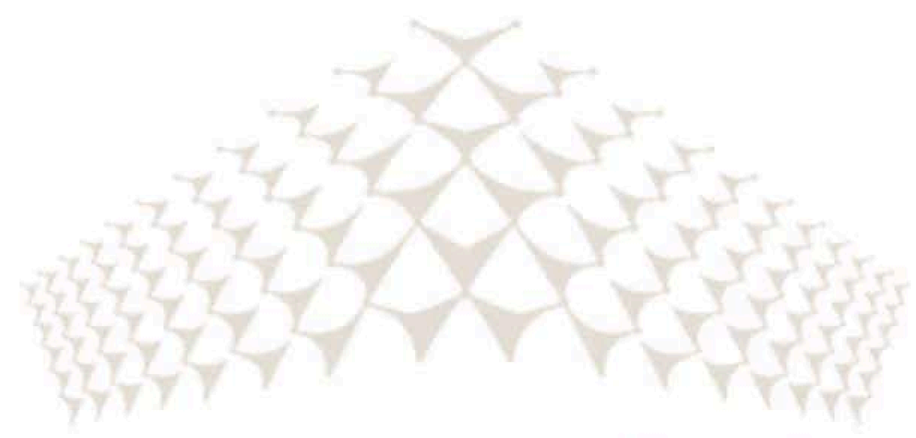
[2] عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص ١١٤.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library



ثانياً- ماكس فيبر:

- حياته.
- تأثيره في علم الاجتماع.
- علم الاجتماع عند ماكس فيبر.
- أهم مفاهيم ماكس فيبر في علم الاجتماع.
- النماذج المثالية.
- نظرية الفعل الاجتماعي.
- العلاقات الاجتماعية.
- نظرية البيروقراطية.
- نظرية السلطة.
- ماكس فيبر والنظام الرأسمالي.
- تأسيس علم الاجتماع الديني.



ثانياً: ماكس فيبر:

Max Weber (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠):

حياته:

عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر ترك بصماته على أهم العلوم الإنسانية وما زالت أعماله مرجعية مهمة للمهتمين والدارسين. ولد ماكس فيبر في مدينة إيرفورت وتوفي في ميونيخ عام ١٩٢٠م. خلّف وراءه إرثا يعتبر من أهم ركائز علم الاجتماع.

إن دور ماكس فيبر (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠)، ترك بصماته على أهم العلوم الإنسانية وما زالت مدرسته وأفكاره تلاقي اهتماماً متزايداً بين علماء معاصرين يحاولون تفسير مستجدات الساحة الاجتماعية واستكشافها من جديد. ويجمع المؤرخون على أن دراسات عالم الاجتماع الألماني تتمحور حول الجدل الدائر بخصوص نشوء المجتمعات الصناعية وظهور الرأسمالية كأسلوب إنتاج جديد. في حين ركّز مواطنه كارل ماركس على العوامل الاقتصادية في ظهور الرأسمالية، أعطى فيبر أهمية كبيرة للمعتقدات الدينية والقيم في نشوء وظهور هذا النظام الاقتصادي. ومن أهم المصطلحات العلمية التي أثرى بها ماكس فيبر علم الاجتماع وتعتبر جزءاً مهماً منه ومرجعاً كبيراً للمهتمين بهذا العلم هي: العقلانية، والكارزما، والفهم، وأخلاق العمل.[1]

وُلد "ماكس فيبر" في الثاني والعشرين من شهر نيسان/إبريل عام ١٨٦٤م في مدينة إيرفورت (ولاية تورينغن) وترعرع في عائلة محافظة. وبعد أن أنهى دراسته، التحق عالم المستقبل بجامعات عديدة في برلين وهايدلبرغ ودرس علوم الحقوق والفلسفة والتاريخ والاقتصاد القومي. وكان موضوع رسالته للدكتوراهة (الشركات التجارية في العصور الوسطى). وعند بلوغه سن الثلاثين دُعي فيبر للعمل كبروفسور في كلية الاقتصاد القومي في جامعة فرايبورغ (جنوب ألمانيا). وبعد ذلك، انتقل إلى جامعة هايدلبرغ. ولكنه بعد انتقاله إلى هذه الجامعة العريقة، أُصيب بمرض نفسي أجبره على مزاولة عمله على مدى سبع سنوات بشكل متقطع. وكان عام ١٩٠٤م بمثابة ولادة

[1] نيقولا تيماشيف (١٩٨٢). مرجع سابق، ص ٢٥٣.

جديدة لفيبر، فقد بدأ من جديد بنشر أعمال كان لها أهمية كبيرة في مجال علوم الاجتماع والفلسفة والاقتصاد. وفي عام ١٩٠٩ شارك فيبر في تأسيس الجمعية الألمانية لعلوم الاجتماع. ومن ثم بدأ فيبر عام ١٩١٣ بكتابة أحد أهم أعماله وهو "الاقتصاد والمجتمع" والذي نُشر لأول مرة عام ١٩٢٢، أي بعد وفاته. وبدأت تظهر اهتمامات فيبر بالأمور السياسية الراهنة عام ١٩١٥. هذا ويُعتبر فيبر أحد المؤسسين للحزب الديمقراطي الألماني عام ١٩١٩م وفي نفس العام كتب عملين مهمين هما "العلم كمهنة" و" السياسة كمهنة"[1].

تأثيره في علم الاجتماع:

صنف "ريمون آرون" أعمال "فيبر" على النحو التالي:

١-دراسات في المناهج والنقد والفلسفة وهي دراسات تتعلق أساسا بالعلوم الاجتماعية وبالتاريخ وعلم الاجتماع وهذه الدراسات تتميز بأنها دراسات تنتمي إلى مجال نظرية المعرفة الأبستمولوجيا أو أنها تسعى إلى تطوير مدخل يفسر العلاقة بين العلم والفعل الإنساني وضمن هذه الدراسات مجموعة أبحاث له بعنوان: دراسة في نظرية العلم.

٢-أعمال تاريخية أساسا وتشمل دراسة علاقات الإنتاج في الزراعة في العالم القديم .دراسة في التاريخ الاقتصادي العام (وتمثل هذه الدراسة مجموعة محاضرات قام فيبر بإلقائها ونشرت بعد وفاته) دراسة متخصصة تتناول المشكلات الاقتصادية في ألمانيا، أو أوربا المعاصرة، وبخاصة دراسته للموقف الاقتصادي في المقاطعات الشرقية بألمانيا، والعلاقة بين الفلاح البولندي والطبقات الحاكمة الألمانية.

٣- دراسات في علم الاجتماع الديني وتبدأ بدراسته عن العلاقة بين الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ثم قام فيبر بعد ذلك بدراسات مقارنة تناولت الأديان الكبرى والعلاقة المتبادلة بين الظروف الاجتماعية والاقتصادية من جهة والاتجاهات الدينية من جهة أخرى.

٤-هناك دراسة قدمها فيبر بعنوان الاقتصاد والمجتمع ونشر هذا العمل الضخم بعد وفاته[2].

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٢٨١-٢٩٠.

[2] انظر: ريمون بودون (٢٠٠٧). المعجم النقدي لعلم الاجتماع. دمشق: وزارة الثقافة، الهيئة السورية العامة للكتاب.

ولا شك أن " لماكس فيبر" أثره الكبير في تطوير علم الاجتماع الغربي. خلافاً "لدوركايم"، فقد أفسح مجالا مهما للفرد كأساس لفهم السلوك الإنساني. واختار أن يقيم علم الاجتماع على أساس مفهوم الفعل الاجتماعي وجعله في أنماط هي : الفعل التقليدي والانفعالي وللاعقلاني. والفعل الاجتماعي في نظره هو الفعل الذي يحمل معنى. أما بالنسبة للتغير الاجتماعي فقد فسره "فيبر" بعوامل عدة ولكنه ركز على أهمية الدين وما يحمل من قيم بوصفه عاملا أساسيا في المرحلة المنهجية[1].

إن من يدرس علم الاجتماع عند " ماكس فيبر" يستطيع أن يقف على تيارات عديدة تجمعت وتشكلت وأنتجت نسقاً فكرياً متكاملاً. فلقد أدخل "فيبر" العنصر النفسي. إذ يعتقد أن علم الاجتماع كعلم يتعين أن يبحث عن تفسير سببي للفعل الإنساني قادر على معرفة غاياته ومقاصده. والتفسير السببي للفعل الإنساني صفة "العلم" التي كافح من أجلها أوجست كونت، وأميل دوركايم[2].

يعد "ماكس فيبر" الرائد الثالث من رواد علم الاجتماع الحديث بعد "كارل ماركس وأميل دوركايم". فهو صاحب أفكار ومفاهيم وأطروحات غاية في الأهمية ولا تزال معظم أفكاره راهنة بل وتتلقى مدرسته وأفكاره اهتماماً متزايداً ، بل يمكننا القول بأن إعادة استكشاف أفكاره ما زالت مستمرة، ومن ثم زيادة تأثيرها في توجيه الأفكار الحديثة التي يحتاجها العلماء لتفسير ما يجري على الساحة الاجتماعية راهناً. وتعد دراساته في الاقتصاد والمجتمع، نقداً عميقاً لأفكار كارل ماركس وبالذات في الجدل الذي دار ولا يزال يدور حول قيام المجتمعات الصناعية وظهور الرأسمالية كأسلوب إنتاج وموجه لتشكيل العلاقات الاجتماعية. ولقد أعطى "ماكس فيبر" دوراً كبيراً للقيم والمعتقدات الدينية في تأسيس وظهور الرأسمالية ، على عكس "ماركس" الذي اهتم بالعوامل الاقتصادية في هذا المضمار[3] .

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ١٦٦-١٩٣.

[2] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٢٨٤.

[3] انظر : دونالد ماكري (١٩٨٣). ماكس فيبر. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ويعد كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية "[1] من أبرز أعمال "ماكس فيبر" وأكثرها تأثيراً في الفكر الاجتماعي الحديث . إذ أكد في كتابه هذا على أن القيم الدينية التي قال بها رجال الدين الذين راموا إصلاح الكنيسة الكاثوليكية انعكست في قيم وأخلاق العمل عندهم، ومن ثم أثرت بالتالي في تكوّن الروح التي تأسست عليها وظهرت من رحمها الرأسمالية الحديثة. ولقد قام فيبر، نفسه، بمراجعة نظرية قارن فيها قيم أديان اليهود والصين والهند ومقتطفات من قيم ومعتقدات المسلمين " ليبرهن " على أن هذه الأديان، وإن توافرت لها معظم الأسباب الكفيلة بقيام وتأسيس الرأسمالية إلا أنها لم تنجح في ذلك، وكانت قيم المذهب الكالفاني وحدها هي التي شكلت المحفّز لذلك الظهور. بالإضافة إلى أطروحته هذه، قدم "فيبر" رؤى ومفاهيم دقيقة لدراسة علم الاجتماع الديني موضحاً بنيته التراتيبية لرجال الدين ومن ثم نوعية البيروقراطية والهيمنة في الوسط الديني الذي له علاقة كبيرة بعمليات الإصلاح والتجديد داخل المؤسسة الدينية وديناميكيتها ومن تأثير ذلك على المجتمع والسياسة والاقتصاد في المجتمع . ولقد أفصح بأن المؤسسة الدينية مؤسسة محافظة تقاوم التغيير وعندما يقع التغيير فإنه يتم من خارجها وغالباً ما يأخذ منحى جذرياً[2] .

ويعد " ماكس فيبر" من أبرز مَن أسهموا في دراسة السلطة والنفوذ والهيمنة والبيروقراطية والنظام، انطلاقاً من تصورات مفاهيمية تتعلق بما أسماه الفعل الاجتماعي، الذي ينقسم إلى أربعة أنواع من الفعل، ينتج عنها ثلاثة أنواع من السلطة أو النفوذ تؤدي بالتالي إلى ثلاثة أشكال من البيروقراطية : البيروقراطية الكارزماتية والتقليدية والعقلانية. ولقد أسهب فيبر في توضحيها وضرب الأمثلة عليها من تاريخ وتجارب الأمم.

ولقد اهتم "فيبر" كثيراً بما يمكن تسميته فلسفة العلوم الاجتماعية وبالذات في جانبها المنهجي. وطوّر العديد من المفاهيم والقضايا التي أصبحت من ركائز علم الاجتماع الحديث ، لعل من أبرزها مفهوم "النموذج المثالي" و "الحياد الموضوعي".

---

[1] ترجم هذا الكتاب للغة العربية بواسطة محمد علي مقلد.

[2] من الدراسات النقدية لمثل تلك الأطروحة لفيبر حول الأديان دراسة: براين ، تيرنر (١٩٨٧). علم الاجتماع والإسلام: دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر. ترجمة أبو بكر باقادر. بيروت: دار القلم.

وقدّم في هذا الخصوص تصورات تعكس ما يمكن تسميته بالمدرسة الألمانية في دراسته لمناهج العلوم الاجتماعية وهي - بحسب رأيه - تختلف نوعياً عن مناهج العلوم الطبيعية فلسفة وغاية .

وقد أثرى "فيبر" علم الاجتماع بالعديد من المصطلحات التي أصبحت تشكل جزءاً مهماً من مخزون المشتغلين بعلم الاجتماع من أمثال : "أخلاق وقيم العمل" و"الكارزيما" و "الفهم" و"الفعل والفاعل الاجتماعي" و "العقلانية" وغيرها من المفاهيم التي لا زالت حتى اليوم .

علم الاجتماع عند ماكس فيبر:

اهتم " فيبر" بعلم الاجتماع خاصة وأنه عاصر فترة ظهور هذا العلم سواء في ألمانيا أو فرنسا أو العديد من الدول الأوربية الأخرى ، وخاصة أنه عاش في النصف الأخير من القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين ، وجاءت اهتماماته الاجتماعية في علم الاجتماع لتحليل النظريات السوسيولوجية وتطويرها وانتقادها لتصورات و تحليلات ماركس وخاصة تصوراته الاقتصادية والدينية والسياسية ووقف بينها موقفا معارضا بصورة ملحوظة، وهذا ما جاء على سبيل المثال في تصور ماركس للدين و انتقاد فيبر له واعتباره الدين من أهم العوامل التي تشكل الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ولقد اهتم فيبر بتعريف علم الاجتماع وذلك في العديد من مؤلفاته مثل تعريفه لعلم الاجتماع بأنه : العلم الذي يحاول أن يصل إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي ، لكي يتمكن من تقديم تفسيرا سببيا لمجراه ونتائجه . كما حاول "فيبر" أن يوضح أن موضوع علم الاجتماع يكمن في مهمته المتخصصة في تفسير السلوك في ضوء المعنى الذاتي. كما يهتم هذا العلم (علم الاجتماع) بدراسة الظواهر والحقائق التي يمكن فهمها وتحليلها بصورة ذاتية علاوة على ذلك حرص فيبر على أن يقدم عددا من المناهج والمفاهيم المثالية النموذجية التي يمكن الاستعانة بها بواسطة الباحثين في دراسة الظواهر الواقعية وهذا ما جاء في تصوراته عن النماذج المثالية المختلفة . كما تكشف تصورات فيبر ومعالجته للظواهر الاجتماعية مثل البيروقراطية والرأسمالية الطبقات الاجتماعية والعلاقة بين الدين أو المذهب البروتستانتي ونمو وازدهار الرأسمالية وغيرها من الدراسات الأخرى ، والتي تكشف عن حرصه على استخدام نظريته عن الفعل

الاجتماعي لدراسة هذه الظواهر أو النظم الاجتماعية بصورة سوسيولوجية متميزة ، كما حرص "فيبر" على أن يربط بين علم الاجتماع ودراسة الثقافية ، وهذا ما يعتبر نوع من الإسهام الفيبري في مجال علم الاجتماع وتطوره ووضع الجذور الأولى سواء لفرع علم الاجتماع الثقافي أو المعرفي.

لقد تبنى "فيبر" كل من الدراسات المقارنة والمنهج التاريخي وغير ذلك من المداخل التفسيرية عند دراسته لقضايا وموضوعات علم الاجتماع ولهذا يمكن أن نصنف "فيبر" على أنه أول من استخدم المدخل التفسيري بين العلوم الاجتماعية الأخرى . وبالطبع كان "لفيبر" قدرات تفسيرية فائقه لاهتمامه ليس فقط بعلم الاجتماع ولكن بعلم الاقتصاد و السياسة والنفس والتاريخ وغيرها من العلوم الاجتماعية الأخرى التي ينادي أصحابها الآن بضرورة الاهتمام بالدراسات البيئية (بين العلوم الاجتماعية) لما فيها من إنجاز لتطوير هذه العلوم وتحديثها مثل العلوم الطبيعية. [1]

أهم مفاهيم ماكس فيبر في علم الاجتماع:

إن المجلد الأول من كتاب ماكس فيبر "الاقتصاد والمجتمع" والذي أسهم مع آخرين في ترجمته وتحريره روث يكاد يحوي معظم التصورات والأفكار الفيبرية حول علم الاجتماع وقضاياه. خاصة جزءه الأول الذي حوى المفهومات الاجتماعية الأساسية التي عدت أدوات فيبر التحليلية للمجتمع وأنساقه وأفعاله الاجتماعية ففي هذا العمل:

١- يعرف علم الاجتماع بوصفه علما يكرس جهوده للوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي أسبابه، ومصاحباته. ويعرف الفعل بوصفه نتاجا للمعنى الذاتي الذي يخلعه الأفراد على سلوكهم، سواء كان هذا المعنى واضحا أو كامنا مواربا. ويعد الفعل اجتماعيا بالقدر الذي يضع فيه الفاعل سلوك الآخرين في حسبانه توجها وتصرفا. وأن فيبر أعطى مفهوم الفعل الاجتماعي معنى واسعا كل السعة، بوصفه الموضوع الأساسي للبحث السوسيولوجي من وجهة نظره فقد ضمنه كافة أنواع السلوك ما دام الفاعل يخلع عليها معنى .

---

[1] ليلة، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ٣٦٤-٣٦٧.

٢- ونظرا لتحديده لعلم الاجتماع بوصفه علما وشاملا للفعل الاجتماعي اقتضاه هذا أن يبذل جهدا في تصنيف الأفعال الإنسانية وتنميطها. ويقصد بالعام والشامل من وجهة نظره، فهم المعنى الذي يخلعه الإنسان على سلوكه.

٣- تستند دعائم التصور النظري لدى ماكس فيبر على مسألتي النموذج أو النمط المثالي ونظرية التنظيم، وبشأن المسألة الأولى نجده أشار إلى أن أفضل طريقة في دراسة المعاني الذاتية للظاهرات الاجتماعية تتمثل في استخدام النمط المثالي. وهذا النمط ليس فرضا، ولكنه يوجه الباحث إلى وضع الفروض وليس وصفا للواقع بل يستهدف توفير الوسائل الواضحة للتعبير عن هذا الوصف. وأن النمط المثالي لا يشكل أسلوبا للفعل الواقعي وإنما يعتمد أسلوبا مثاليا مفترضا يمكن المضاهاة في ضوئه والمقارنة أيضا التي تساعد على فهم ما هو قائم.

وأما عن نظريته في التنظيم فهي تستند وبصفة أساسية على مفهومه للسلطة التي ميز فيها بين ثلاثة أنماط هي السلطة الكاريزمية المستندة إلى الإلهام والتي تنسب إلى وجود قائد ملهم له خصائص نادرة مقتضاها يضحى قائدا أو زعيما، ويتمثل النمط الثاني في السلطة التقليدية التي تستند إلى قدسية التقاليد والإيمان بخلود الماضي، وبمقتضاها ينظر الناس للنظام الاجتماعي القائم بوصفه مقدسا وخالدا وغير قابل للانتهاك. وأما النمط الثالث والأخير فسيستند إلى الإيمان بسيادة القانون، ومن ثم يوسم بالسلطة القانونية التي تفترض وجود مجموعة رسمية من المعايير المستقرة نسبيا، والتي تسعى إلى تنظيم السلوك كي يكون سلوكا رشيدا.

٤- وعن تصوره للعلاقات الاجتماعية فيقصد بها سلوك جمع من الفاعلين تتحدد بمضمونات معنى هذا السلوك وبالقدر الذي يضع كل الآخر فيحسبانه ويوجه سلوكه في ضوء هذا.

٥- وبشأن موقعه من قضايا الصراع والتغير في المجتمع الإنساني. يذهب "ألبرت سالون" إلى أن "فيبر" اجتهد في رسم إمكانات حل الصراع ، وأنكر قدراته الدافعة نحو التغير، فقد رأى أن الصراع يمكن أن يتطور تطورا جدليا دينامي بمعنى أن وجوده لا يحول دون بقاء المجتمع واستمراره فتغييره تماما أمر لا يحدث إلا في حالات استثنائية[1] .

---

[1] عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق.

النماذج المثالية :

ترتبط إسهامات "ماكس فيبر" في علم الاجتماع بطرحه مجموعة من النماذج المثالية التي ارتبطت بتحليلاته وأفكاره وميزته عن غيره من علماء الاجتماع بصورة عامة ولقد حرص "فيبر" على أن يطرح هذه النماذج كمحاولة منه لتعزيز الأدوات المنهجية، التي يمكن أن يستخدمها الباحثين ويسترشدون بها عند دراستهم وتحليلاتهم للظواهر والمشكلات والتي يهتمون بمعالجتها . كما هدف فيبر من هذه النماذج بأن يسهم في فهم الفعل الإنساني وتقديم تفسيرات سببية لهذا الفعل ومجموعة السلوك والأنشطة ، التي تتم داخل الجماعات أو في إطار المجتمع البشري الذي تظهر فيه . وحاول "فيبر" أن يوضح ما المقصود بالنموذج المثالي ، ويجيب على ذلك عندما يشير إلى هذا النموذج بأنه ما هو إلا بناء أو تشييد عقلي يظهر من خلال وجود سمة أو خاصية أو علاقة أو وجهة نظر يمكن للباحث ملاحظتها في الواقع .

كما أكد "فيبر" على أن النماذج المثالية لا يمكن أن توجد في الواقع بصورة كلية فقد تتماثل بصورة جزئية لما هو موجود بالفعل ، وهذا النموذج ليس فرضا علميا طرحه الباحث ليتحقق منه بقدر ما هو أداة أو وسيلة تسهم في تحليل الأحداث والظواهر والشواهد الواقعية ، أو هي بمثابة أداة تحليلية توجه الباحث في دراسته ليكون أكثر دقة عندما يسترشد بمثل هذه النماذج، إذن فالنموذج المثالي يتكون من مفهوم أو مجموعة من المفاهيم التي يمكن مقارنتها في الواقع عند دراسة الحياة الاجتماعية أو الأفعال والسلوك البشري ، ومعرفة الأسباب التفسيرية لكيفية حدوثها وتكرارها. [1]

وعن علاقة "ماكس فيبر" بكل من المثالية والوضعية. نشير إلى أنه كان للفكر الفلسفي التي شهدت مولد النظرية الاجتماعية وطأتها على تفكير "ماكس فيبر" بتصنيف اللوم أو المنهج الملائم لإدراك الحقيقة موضع الاهتمام يرفض المواقف الاستقطاعية ذات الطابع الدوجماطيقي وفيما يتعلق بالمثالية نجده يوافق منذ البداية على الفصل الحاد الذي أسسه (كونت) بين الحقائق والقيم فيما يتعلق بتصنيف العلوم الذي صاغته المثالية نجد أن فيبر لا يتفق معها في اختلاف العلوم الطبيعية عن العلوم الثقافية ومع ذلك فهو يتفق مع المثالية فيما يتعلق بإدراك المعنى كدور أساس بالنسبة للعلوم الثقافية ويتأكد ارتباط فيبر

---

[1] ليلة، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ٣٨٣.

مع الموقف المثالي حينما يؤكد أن معنى الواقعة لا يتطابق مع القوانين التي يحكمها تبقى مسألة هامة وأخيرة كان "لفيبر" مع المثالية في إطارها اتفاق كبير إذ نجده يقف إلى جانب المثالية في تأكيدها على أن الموضوع الأساس للعلوم الثقافية ينبغي أن يكون الروح الإنسانية وتتسم علاقة "فيبر" بالوضعية بذات الملامح تقريبا ،فهو قد وافقها من ناحية أو رفض ما يتنافي مع موقفه النظري من ناحية أخرى ولذات السبب نجده ينظر بنوع من السخف الى محاولات بعض المفكرين إعطاء العلوم الإنسانية أساسا مشتركا ، بإرجاعها مثلا إلى علم النفس ويعتبر التأليف بين التفريد والتنعيم المنهجي نتاجا لالتقاء الوضعية والمثالية على الأرض الفيبرية يؤكدون أيضا اتفاق "فيبر" مع "دوركايم" في تحديد ما هو اجتماعي فبينهما نجده يبدأ بوجهة النظر الذاتية للفاعل المشارك ،إذا به يستبدله بآخر يحدد ما هو اجتماعي بما هو عام ومنتشر في مجتمع معين، بينما هو في ذات الوقت له وجوده المستقل عن إظهاراته الفردية [١].

نظرية الفعل الاجتماعي عند ماكس فيبر:

تضمن كتابه (الاقتصاد والمجتمع) عام ١٩٢٢م كثيراً من مفاهيمه وأطروحاته حول ماهية علم الاجتماع. حيث يرى ماكس فيبر أن علم الاجتماع هو العلم الذي يحاول أن يجد فهماً تفسيرياً للفعل الاجتماعي من أجل الوصول إلى تفسير علمي لمعنى هذا الفعل وآثاره. حيث إن الفعل الاجتماعي هو سلوك إنساني يضفي عليه الفاعل معنى ذاتياً سواءً كان هذا المعنى واضحاً أم كامناً[٢]. وقد أعطى "فيبر" الفعل الاجتماعي معنى واسعاً كل السعة بوصفه الموضوع الرئيس للبحث الاجتماعي من وجهة نظره. وهناك خاصتان في مفهوم "ماكس فيبر" للفعل الاجتماعي:

الأولى: يسلم " فيبر" بمدخل ذاتي بنظرية علم الاجتماع وذلك بتركيزه على أن المفهومات النظرية في علم الاجتماع يتعين صوغها في ضوء نموذج محدد للدافعية التي تحرك (الفاعل الفرضي) والذي يمثل تصوراً مفترضاً.

---

[١] ليلة، علي (١٩٩١). مرجع سابق.

[٢] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣١٢.

الثاني: تتعلق بمدلول مصطلح "فيبر" عن المعنى. فهو مصطلح معتبر من بين المصطلحات التي لعبت دوراً في الجدل الذي ساد في ألمانيا حول مسألة التاريخ والمناهج للعلوم الاجتماعية بعد ظهور أعمال "ماكس فيبر". إذ إنه عندما استخدم هذا المصطلح كان يعني به الإشارة إلى السلوك في ضوء الفرض الذي يسعى إلى تحقيقه الفاعل.

تعريف الفعل الاجتماعي:

عرف " ماكس فيبر " الفعل الاجتماعي بأنه: " صورة للسلوك الإنساني الذي يشتمل على الاتجاه الداخلي والخارجي الذي يكون معبراً عنه الفعل أو الإحجام عن الفعل. إنه يكون الفعل عندما يخصص الفرد معنى ذاتياً معيناً لسلوكه، والفعل يصبح اجتماعياً عندما يرتبط المعنى الذاتي المعطى لهذا الفعل بواسطة الفرد بسلوك الأفراد الآخرين ويكون موجهاً نحو سلوكهم".

أو هو :" سلوك إنساني ظاهر أو مستتر يمنحه الفرد الفاعل معنىً ذاتيا وعلم الاجتماع إذن هو العلم الذي يسعى على دراسة الفعل الموجه إلى سلوك الآخرين".

ويذهب" فيبر" إلى أن الفهم على المستوى الذاتي للفاعل يمكن التحقق منه في صورتين :

أ) الأولى تتمثل في الفهم الذي يركز على الملاحظة المباشرة للمعنى الذاتي ، فنحن نفهم المعنى وراء استخدام بندقية لصيد حيوان ، ونفهم المعنى الذاتي للأفعال غير العقلية التي تصدر عن إنسان غاضب ... الخ ، وهذه المعاني نستطيع أن ندركها ، لأننا على وعي وإدراك بالمقاصد الذاتية التي ترتبط بالأفعال المماثلة التي تصدر عنا .

ب) أما الصورة الثانية فهي متمثلة في فهم الدافع أو التبرير الذي يقدمه الفاعل لسلوكه وذلك عن طريق ما يسميه فيبر عملية التخصص الوجداني ، فعن طريق المشاركة التعاطفية يمكننا أن نفهم السياق العاطفي الذي أدى بالفاعل إلى سلوك مثل هذا السلوك ، أو بمعنى آخر لفهم الفاعل يجب على الباحث أن يضع الفعل في سياق الدوافع ويكون فهمه لطبيعة هذا السياق ووضع الفعل داخله بمثابة تفسير للمجرى الحقيقي للسلوك .

ولتحليل السلوك وفهم المعنى الذي وراءه يمكننا تخيل الانفعالات التي تظهر بين الناس حيث يتعرضون لموقف معين أو حادث معين ، وعلينا أن نتخيل الدافع الذي يكمن وراء الفعل الصادر عن الشخص أو الجماعة وعلينا بعد ذلك أن نكشف ونحدد

غايات الفعل التي ستكشف بدورها عن أن حالة الشعور التي نصف على أساسها فعلا معينا تخضع لتوجيه الشعور التي تفترض ظهورها بظهور موقف معين أو حدوث حادث بالذات وغالبا ما تثار مشكلة كيف ربط فيبر بين السببية والمعنى ؟

أنماط الفعل الاجتماعي:

حدد "ماكس فيبر" أربعة أنماط للفعل الاجتماعي، سعى من خلالها إلى تنميط الفعل الاجتماعي بأن يشمل مدى يتراوح بين الفعل الرشيد، والفعل غير الرشيد، وهي كما يلي:

١- **الفعل العقلي الرشيد عملياً**: الذي غاياته محددة ووسائله واضحة، إذ إن الفاعل يضع في اعتباره الغاية والوسيلة التي يقوم بتقويمها تقويماً عقلياً. أو هو الفعل الذي يختاره الفاعلون غايتهم ووسائل تحقيقها بطريقة محسوبة. فالمهندس الذي يصمم مشروعاً معمارياً والمضارب الذي يحسب ما يعود عليه بسبب مضارباته المالية، والقائد الذي يختار أفضل الخطط التي تحقق له النصر كلها أمثلة للفعل الاجتماعي العقلي.

٢- **الفعل العقلي الرشيد قيمياً**: وفي هذا النموذج يكون الفرد واعياً بالقيم المطلقة التي تحكم الفعل وهي قيم يمكن أن تكون أخلاقية أو جمالية أو دينية. ويوصف الفعل بأنه موجه ذو قيمة مطلقة في الحالات التي يكون فيها الفرد مدفوعاً لتحقيق مطالب غير مشروطة. ومعنى ذلك أن الاعتقاد في القيمة المطلقة واعياً ومتجهاً نحوها من أجل ذاتها خالياً من أية مطامح خاصة. ولهذا فهو يختار الوسائل التي تدعم إيمانه بالقيمة. أو هو الفعل الذي يتحدد بالاعتقاد الواعي في قيمة بعض الصور الأخلاقية والجمالية والدينية للسلوك في حد ذاتها بغض النظر عن احتمالات النجاح في ذلك.

٣- **الفعل العاطفي**: وهو سلوك صادر عن حالات شعورية خاصة يعيشها الفاعل. أو هو الفعل الذي يتحدد بالحالة العاطفية أو الوجدانية للفاعلين. والأمثلة على هذا النمط عديدة. حينما يختار الفرد الوسائل على أساس صلتها بالغايات، أو القيم، وإنما باعتبارها تنبع من تيار العاطفة.

٤- الفعل التقليدي: وهو سلوك تمليه العادات والتقاليد والمعتقدات السائدة. ومن ثم يعبر عن استجابة آلية اعتاد عليها الفاعل. أو هو الفعل الذي يتحدد بما اعتاد عليه الفاعلون في سلوكهم[1].

وتحتل هذه الأنماط للفعل الاجتماعي أهمية خاصة في النسق الاجتماعي الذي صاغه "فيبر"، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل منها:

١- أن "ماكس فيبر" تصور علم الاجتماع باعتباره دراسة شاملة للفعل الاجتماعي، ومن ثم أصبح تصنيف أنماط الفعل يمثل أعلى مستويات التصور التي تستخدم في دراسة المجال الاجتماعي. وعلى ذلك فهو عندما حدد مفهوم السلطة ونماذجها فهو قد اشتقها من أنماط الفعل الاجتماعي.

٢- أن علم الاجتماع عند "ماكس فيبر" يستهدف فهم معاني السلوك الإنساني. ومن هنا تأتي أهمية هذا التصنيف كمدخل ضروري لتحليل بناء السلوك.

٣- نماذج الفعل الاجتماعي تعد إلى حد ما أساس تفسيره للحقبة التاريخية المعاصرة. إذ يعتقد ماكس فيبر أن الخاصية الأساسية المميزة للعالم الذي يعيش فيها هي العقلانية.

العلاقات الاجتماعية:

وضع "ماكس فيبر" تصوراً للعلاقات الاجتماعية التي يقصد بها سلوك جمع من الفاعلين تتحدد بمضمونات معنى هذا السلوك. فالعلاقة الاجتماعية عند "ماكس فيبر" تعني تبادل الأفعال بين الأفراد على أساس فهم كل منهم للمعاني التي يضفيها كل فرد على سلوكه. إذ إن هناك مجرى للفعل. لكن ذلك لا يعني بالطبع أن يكون المعنى الذاتي هو نفسه بالنسبة لكل الجماعات التي تتجه اتجاهاً متبادلاً في علاقة اجتماعية معينة. وقد قدم "فيبر" تلخيصاً لفئات العلاقات الاجتماعية. والتي يمكن ملاحظتها واقعياً في خمس فئات، وهي:

١- العرف أو الإصلاح أي التماثل الفعلي للعلاقات الاجتماعية.

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣١٧-٣١٨. مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق ص ١٥١.

٢- العادة وهي العرف الذي يستمد وجوده من الألفة والتعود.

٣- الأسلوب أو العرف الذي يستمد بالتجديد والحداثة.

٤- العادة التقليدية: وهي العرف الذي ينبثق عن الرغبة في الهيبة الاجتماعية أو العرف الذي يتحدد على أساس أنماط معيارية.

٥- القانون: وهو مجموعة القواعد التي تنطوي على إلزام أو عقاب لمن يخرج عنها. ومع أن القانون يستند إلى العادة والعرف لكن الفارق بينه وبينهما هو عنصر الإلزام المتضمن في القاعدة القانونية[1].

نظرية البيروقراطية:

اشتهر "ماكس فيبر" في ميدان علم الاجتماعي الصناعي بدراساته المهمة عن البيروقراطية والسلطة. وقد أظهر ذلك جلياً في العديد من الدراسات التي تناولت علم الاجتماع الصناعي وتطبيقات أفكار "فيبر" في هذا المجال.

تعد البيروقراطية أحد المفاهيم الرئيسة لدى "ماكس فيبر". حيث إنها تستهدف إلغاء الطابع الشخصي من حيث توزيع الأعمال أو طرق أدائها. أو تقييم الأداء. وبمعنى آخر فإن البيروقراطية هي: " مجموعة النظم واللوائح التي تحدد السلوك التنظيم كما يجب أن يكون". اعتقاداً بأن هذا السلوك يمثل أفضل سلوك يمكن التنظيم من تحقيق أهدافه. واعتقاداً بأن هذه اللوائح هي ضمان لحماية التنظيم من الفساد والتسيب والانحراف.

ويرى "ماكس فيبر" أن العالم القديم قد عرف البيروقراطية. ويظهر ذلك بصورة جلية في مصر القديمة وبابل والصين والهند. ومع تقدم المجتمعات وازدياد حاجات البشر ظهرت الحاجة إلى وجود منظمات متخصصة. ومع ازدياد التقدم ظهرت هذه المنظمات كبيرة الحجم. ومنها ظهر مفهوم البيروقراطية بمعناه العلمي. فالبيروقراطية ترتبط بالمنظمات كبيرة الحجم. وهذه المنظمات تتميز بتعقد المشكلات التنظيمية والإدارية التي تواجهها. فمن ناحية نجد أن العمل مقسم إلى أجزاء صغيرة. وأن العمل الواحد يقوم به مجموعة من الأفراد. ومن ناحية أخرى يضم التنظيم مستويات إدارية متعددة تجعل عملية الاتصال رأسياً وأفقياً في منتهى الصعوبة.

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣٢٠.

ومن ناحية ثالثة فإن العلاقة بين الرئيس والمرؤوسين لا تصبح علاقة شخصية ومباشرة بحيث تصعب عملية تقييم كفاءة المرؤوسين. وفي ظل هذا المناخ التنظيمي المعقد يصبح من الضروري وجود لوائح ونظم وقواعد تحكم عملية تحديد الخطوط الفاصلة بين مختلف التخصصات ضماناً لعدم حدوث التضارب والاحتكاك بين الوحدات التنظيمية. ويصبح من الضروري أيضاً وجود مسالك محددة للاتصال الرسمي تحدده الإدارة العليا. وبهذه الوسيلة تتجرد الوظائف من شتى المؤشرات الشخصية التي قد تؤثر في أداء شاغلها لها.

يتميز مصطلح النموذج المثالي للبيروقراطية لدى فيبر كنوع من التنظيم التسلسلي والبعد العقلاني الذي يتضمن قطاعات كبيرة وخاصة في المجالات الإدارية الكبرى ، وقد استعمل هذا المفهوم ليميز به نوع معين من البناء وبصفة خاصة التنظيم العقلاني باعتباره الشريط الأحمر أو الخط الفاصل عبر معرفة العناصر البعيدة عن الكفاءة والفعالة ولرفضه للتعريفات الشائعة عن البيروقراطية التي ظهرت في العديد من الكتابات المختلفة ، ففيبر يرمي لتكوين نمط مثالي خالص للتنظيم العقلاني للبيروقراطية كصفة مجردة لها محاكاة ومقاييس معينة تستخدم من قبل الباحثين والدارسين في مجال التنظيمات البيروقراطية . ويعرض "فيبر" الخصائص أو العناصر العامة التي يتميز بها نموذجه المثالي للبيروقراطية كما يلي :

يرتبط التنظيم بالقواعد الوظيفية وبمستوى خاص أو معين من الكفاءة الإدارية كما أنه يقوم على مبدأ أو أسلوب تقسيم العمل و هذا بالضرورة يحتاج إلى إجراءات وقواعد لخضوع الأعضاء وامتثالهم في جميع الحالات والظروف التي تحيط بظروف العمل الوظيفية والمهنية ، كما يتألف من خلال أعضاء الجهاز الإداري أو هيئته التسلسل الذي يتم اختيارهم وفقا لنظام التعيين والانتخاب ، يخضع هؤلاء الأعضاء في التنظيم جميعا مبدأ التسلسل حيث يخضع كل عضو من أعضاء التنظيم إداريا ووظيفياً للفرد الذي يعلوه ويفوقه في المرتبة الوظيفية .

وهذا التسلسل بالطبع يأخذ طابعا أو شكلا هرميا ، والقواعد والإجراءات الوظيفية تقوم على أسلوب رتيب خاص ، حيث توجد القواعد التكنيكية المعيارية ووجود الخبرة التخصصية القائمة على نوع خاص ومعين من الترشيد بالإضافة إلى أن

وضع أفراد أو أعضاء التنظيم بعيدين كل البعد عن امتلاك وسائل السيطرة والإنتاج أما القواعد بصفة عامة فهي صارمة وجامدة . وتكون مسجلة أو مكتوبة حتى في الحالات التي تكون فيها المناقشات بين الأعضاء شفوية ، فيكون لها طابع الإلزام أو صفة الجبرية ، مثل غيرها من القواعد والوثائق المكتوبة. [1]

ويوضح "فيبر" أهم العناصر أو الخطوط الرئيسية التي تظهر وضع الموظف الإداري وعلاقات الداخلية الوظيفية سواء بينه وبين الأعضاء أنفسهم أو بينه وبين التنظيم ككل وهذه العناصر كما يلي :

١ - يكون الفرد في حرية شخصية ولكن امتثاله واحترامه للسلطة يكون طبقا للقواعد اللاشخصية

٢- تكون علاقة التنظيم للفرد واضحة محددة المعالم وحسب نظام التسلسل الداخلي للتنظيم ، كما أن وضع الفرد مرتبط حسب المكانة الوظيفية والإدارية التي يشغلها.

٣- كل موظف أو فرد له قدر معين من الكفاءة الإدارية والاقتدار .

٤- يكون الموظف بعيدا عن التعاقد الشخصي والعلاقات الشخصية داخل العمل غير موجودة.

٥- الموظف يعامل كفرد .

٦- يختار الموظفين حسب أسس تصنيفية مميزة مثل اختبار مميز أو الحصول على شهادات أو خبرة فنية أو كليهما.

٧- كل موظف يتقاضى راتبا محددا حسب مقدرته وكفاءته وانجازه ووضعه الإداري الداخلي في التنظيم وليس حسب مكانته الاجتماعية.

٨- يخضع الموظف بحذر لأسلوب ونظام العمل حسب القواعد الوظيفية المكتوبة .

يؤكد "فيبر" أنه يمكن الاسترشاد بهذا النموذج المثالي للتنظيم البيروقراطي في دراسة العديد من المجالات الكبرى ، والتنظيمات المعقدة أو التنظيمات الخاصة ، مثل

---

[1] ليلة، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ٤١١-٤١٨.

الأحزاب والكنائس والمدارس، فالنموذج المثالي قادر على التطبيق بسهولة في التنظيمات بأنواعها في المجتمع الحديث .

ويتناول "فيبر" بعض القضايا الهامة التي ترتبط بكتاباته عن البيروقراطية عموما فيوضح أن للبيروقراطية نوعين من المظاهر أو الأشكال التي تظهر من خلالهما ، وهما حكم الفرد والبناءات الكليلة ، وهي تنظيمات بيروقراطية تميل للأخذ بالديموقراطية والتعاون في ممارسة الحكم ، وتظهر كفاءات أو تنظيمات في مراحل التغير أو التحول الروتيني ، ولكن لها خصائصها البيروقراطية العقلانية . وكليهما يخضعان للتغير والتعديل فالنوع الأول يكون مفتوحا للتغير والتعديل والثاني يظهر من خلال عمليات فصل القوة وتحديدها وتظهر كبناءات غير مستقرة .

وقد قام "فيبر" بتطبيق دراساته على مصانع النسيج في ألمانيا . وكان يقوم بملاحظة ظروف العمل، واستكشاف مدى ملاءمة أدوات البحث النفسي لدراسة العمل الصناعي على نطاق واسع. كما اهتم بربط المعلومات التي تنطوي عليها سجلات المصنع. واستخدمها في تحليل ما يتوصل إليه عن طريق الملاحظة المباشرة للعمال في المصنع. وقد اهتم بما يسمى بالتحليل التنظيمي الداخلي والتحليل التنظيمي الخارجي. حيث يبحث في الأولى البناء الداخلي للتنظيمات الصناعية. والثاني يبحث أثر الصناعة في المجتمع. حيث قام من خلال هذه الدراسة بالحصول على إجابات لعدد من التساؤلات التي وضعها قبل قيامه بالمسح الاجتماعي كمنهج بحثي اتبعه لتطبيق هذه الدراسة، حيث اهتم بدراسة الفروق الاجتماعية والاقتصادية بين طبقات العاملين. والبرامج التدريبية المقننة التي يحصلون عليها. وفرص الترقي أمام العمال اقتصادياً وتنظيمياً وسيكولوجياً. وتأثير نتاج تلك الظروف على الطابع النفسي للعمال وأسلوب حياتهم. كما تناول في هذه الدراسة سياسة الأجور، ونظام المكافآت. وقد نهضت هذه الدراسة فيما بعد بأبحاث ودراسات علم الاجتماع الصناعي ووجهت مسيرته البحثية. أي أن فيبر هنا سعى للمزاوجة بين الظروف البيئية والتنظيمية وانعكاساتها على الأوضاع الاجتماعية والنفسية لعمال التنظيمات الصناعية[1].

---

[1] George. Ritzer, Barry, Smart (2001). Handbook Of Social Theory. London: SAGE Publications, p54.

وقد اهتم "ماكس فيبر" بدراسة البيروقراطية بتحليل التغير الذي طرأ على التنظيم الصناعي في المجتمع الحديث. فضلاً عن توضيح خصائص المقومات النموذجية للتنظيمات الرسمية التي أصبحت تمثل أكثر أشكال التنظيم شيوعاً في هذا المجتمع. لهذا فإن أطروحاته تعد قاعدة لنوعين من الدراسات هي الدراسات التاريخية التي تتبع التحول الواضح نحو البيروقراطية. والبحوث التطبيقية التي تناولت التنظيمات وخصائصها البنائية[1].

نظرية السلطة:

تتركز تحليلات "فيبر" للبيروقراطية على تصوره لطبيعة علاقات القوة في المجتمع. كما اهتم بنموذج لعلاقة القوة، وهو ما أطلق عليها مصطلح السلطة. وهو علاقة القوة بين الحاكم والأفراد. حيث إن ممارسة السلطة على أعداد من الأفراد تقتضي وجود هيئة إدارية قادرة على تنفيذ الأوامر وتحقيق الصلة الدائمة بين الرؤساء والمرؤوسين. وهكذا حاول فيبر أن يضع نموذجاً للسلطة وفقاً لمعيارين هما:

- الاعتقاد في شرعية السلطة.
- وجود جهاز إداري ملائم.

ولقد ميز "ماكس فيبر" بين ثلاثة نماذج مثالية للسلطة تعتمد على تصورات مختلفة للشرعية وهي:

١- السلطة الكارزمية الملهمة.
٢- السلطة التقليدية.
٣- السلطة العقلانية .

لقد طرح فيبر مجموعة كبيرة من السمات لكل نموذج من تلك النماذج وفقاً لما يلي:

أولاً : السلطة الكارزمية : وهي تقوم على الاعتقاد المطلق لفرد معين لديه صفات استثنائية ، أو غير عادية تفوق الأفراد الذين يوجدون معه في المجتمع . والأمثلة التي قدمها فيبر وتمثل هذا النوع من السلطة تشمل الأنبياء والقواد المشهورين

[1] انظر: الحسيني، السيد (١٩٨١). النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم. القاهرة: دار المعارف.

والزعماء السياسيين الناجحين ، ويوضح أنه لما كان هذا النوع من السلطة لا يستند على قواعد متفق عليها سواء عن طريق عقلاني أو تقليدي وإنما يستند على الزعامة المطلقة وصفات الحاكم الخارقة . لذا كان هذا النوع من السلطة لا يتسم بالعقلانية ومن ثم فإن شرعيتها متوقفة على استمرارية وجود هذه الصفات الخارقة وإلا انهار النظام . ويمكن أن تتسامى بالروتين العادي وتضيف قيماً راديكالية ، للحياة اليومية كما أنها دعوة إلى العنصر غير العقلي وهاتان السمتان تجعلان من الكرزما كما يقول فيبر : القوة الثورية المتميزة في التاريخ ، وتمنح الفرصة دائما لظهور الكرزما في حالات الضرورة والظروف القاهرة ولهذا فإن القائد الكارزمي راديكالي بطبيعته ، يحاول تحدي النسق الثابت وذلك بمعالجة جوهر المشكلة ، فالقائد الكرزمي في تأثيره يقود حركة اجتماعية أو دينية جديدة وغالبا ما يقنع أتباعه بهدف جديد ومن ثم فإنه عندما تدرك كرزمته في البناء الاجتماعي وفلسفته القيمة ، فإنه من المتوقع أن يتصفا بالثورية ويؤكد فيبر أنه من أجل تفتيت الوضع الراهن وخلق نسق قيمي جديد لإحداث التغير فإن المصلحة المادية لا تكفي لخلق أو تفسير ذلك مما يحتاج إليه قوة روحية أو كرزما دينية .

ثانياً: سلطة التقاليد: وهي تقوم على الاعتقاد بقدسية التقاليد القديمة المتوارثة وشرعية السلطة فيها كما انها تستمد مكانتها الاجتماعية من الأفراد الذين يتمتعون بالسلطة . فالسلطة الأبوية وسلطة رئيس القبيلة وسلطة الأمير أو الملك على أفراد شعبه تمثل أنواعا مختلفة للسلطة التقليدية ، إذ أن الأساس الذي تستند عليه هذه السلطة هو اعتقاد الأفراد بوجود قواعد معينة لها قدسية أو قوة سحرية معينة بحيث يتعرض المخالف لها لعقاب دنيوي أو روحي.

ثالثاً: السلطة العقلانية : يكون الاعتماد في هذا النوع من السلطة على قواعد معينة يعتقد بها الأفراد و الشخص الذي يأتي إلى السلطة استنادا إلى هذه القواعد بنصوص دستور أو قواعد معينة غير شرعية يؤمن بها الأفراد والشخص الذي يصل إلى السلطة عن طريق هذه القواعد هو الذي تكون سلطته شرعية ، ويذهب "فيبر" إلى أن السلطة في المجتمع الغربي قائمة على أساس الاقتراب من النموذج العقلي. حيث يرى أن نمط الفعل الأكثر تمييزاً للمجتمع الرأسمالي هو الفعل العقلي الرشيد عملياً[1].

---

(1) Charles, H, Powers (2010). Making Sense Of Social Theory. U K: Littlefield Peblishers, INC. P126-137 .

كما اهتم "ماكس فيبر" باستخدام مصطلح " التحول نحو الديموقراطية" حيث أن هذا التحول مرتبط بظهور أنماط للسلوك والتفكير تشيع في كافة مجالات الحياة الاجتماعية ، نتيجة انتشار النزعة العقلية. تلك التي تشير إلى الإحاطة النظرية بأبعاد الواقع من خلال مفاهيم محددة ومجردة. والتوجيه المنظم نحو تحقيق هدف، أو غاية معينة بعد دراسة كافة الوسائل الممكنة والمفاضلة بينها[1]. ومن نتائج هذا التصور للعقلانية ازدهار العلم وازدياد الاعتماد عليه كنسق فكري يزجه السلوك والعمل بدلاً من الاعتماد على التفسيرات والأفكار الغيبية والميتافيزيقية[2].

ماكس فيبر والنظام الرأسمالي :

عرض " فيبر" لتطور الأساليب الصناعية وظهور نظام المصنع الحديث ونوعية الآلات والصناعات التي ظهرت في بريطانيا وعلاقتها بالإنتاج والعمل والتوزيع والعرض والطلب وغير ذلك من العمليات التي مهدت لظهور الرأسمالية الحديثة ، كما يربط فيبر بين تلك المرحلة وظهور مفهوم المواطنة وعلاقته بمفاهيم الاقتصاد والسياسة والطبقة الاجتماعية ، والصراع بين الطبقات وديموقراطية العصور الوسطى والكلاسيكية ، ولقد سعى ماكس فيبر ليبرهن على أن الرأسمالية تعد نظاماً اجتماعيا واقتصاديا في العصر الحديث ، وهي في مجملها نتاجا طبيعيا للدين البروتستانتي ومايقوم

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣٣٠. ليلة، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ٤١١-٤١٨.

[2] يعد رينهارد بيندكس Bendix. Reinhard وهو عالم اجتماع ألماني أمريكي من مدرسة فيبر. والذي ذاعت شهرته كدارس رائد لفكر ماكس فيبر. ولد في برلين عام ١٩١٦م وهاجر للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٧م. وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو عام ١٩٤٨. رأس الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع من عام ١٩٦٩- ١٩٧٠م. واستطاع من خلال كتابه " ماكس فيبر: صورة لمفكر" أن يعرف كثير من علماء الاجتماع الناطقين بالإنجليزية على عمل فيبر وعلى جوانبه التاريخية والمقارنة، وكان بذلك مماثلاً للصورة التي قدمها بارسونز Parsons في كتابه " بناء الفعل الاجتماعي". ومن أعماله الأخرى " العمل والسلطة في الصناعة" ١٩٦٤م، و " بناء الأمة والمواطنة" ١٩٦٤م. و"العقل الحصين" ١٩٧٠م. و " ملوك أم شعب" ١٩٨٠م. وقد اشترك مع ليبست Lipset في كتابين مهمين هما " الطبقة والمكانة والقوة" ١٩٥٣م. وكتاب " الحراك الاجتماعي في المجتمع الصناعي" ١٩٥٩م.

عليه من مبادئ وقيم ومعتقدات وتصورات دينية ومجتمعية خاصة لأنها تتوجه بفضل الأخلاق الكالفينية ، علاوة على ذلك أن كلا من الأخلاق الكالفينية وروح البروتستانتية توجه الحياة الاجتماعية اليومية العادية ولا سيما نحو الأنشطة الاقتصادية المنتجة مثال ذلك الادخار والاستثمار والعمل والإنتاج واحترام المهن وقدسيتها ، كما تنظم مجموعة من الواجبات والحقوق والسلوك الاقتصادي وتنذر من عواقب الكسل والخمول والاتكالية كما تحبب الفرد في تنمية علاقاته مع جماعات العمل عن طريق قيم علمية ودينية في نفس الوقت ولا سيما قيم الأمانة والصدق وضرورة اكتساب الخبرة .

من هذا المنطلق نجد أن "فيبر" قد ركز بوضوح على توجيه تحليلاته الدينية وظاهرة الرأسمالية لمعرفة العلاقة بينهما، كما وجهت معظم تحليلاته للبرهنة على أفكاره في تفسير الظواهر المجتمعية والاعتماد فقط على العوامل المادية في فهم الواقع الاجتماعي المتغير ومنتقدا العوامل المؤثرة في تشكيله بصفة عامة .

ومن هنا اهتم " فيبر" بدراسة الرأسمالية الصناعية وحاول أن يتعرف على ظروف نشأتها التاريخية وأسباب انتشارها واستمراريتها كما أنه رفض بعض التحليلات التي ترجع ظهور هذا النوع من الرأسمالية لأسباب تتعلق بزيادة السكان أو لتدفق المعادن النفيسة (الذهب والفضة) إلى المجتمعات الغربية الأوربية مشيرا إلى أن هناك الكثير من أجزاء العالم الأخرى ظهرت فيها هذه الأسباب بوضوح ولكنها لم تنشأ أو تتطور فيها الرأسمالية عامة لذا يؤكد فيبر على أن السبب الأساسي وراء ظهور الرأسمالية كنظام اقتصادي واجتماعي في المجتمعات الأوربية يرجع إلى ظهور الديانة البروتسانتية وخاصة المذهب الكالفيني الذي أسهم في تأسيس الظروف السيكولوجية التي أدت دورا في تبني الرأسمالية ، كما أنه يضيف أن ذلك المذهب اهتم أيضا بالنواحي الإدارية والبيروقراطية كأسلوب عقلاني في تنظيم علاقات العمل والإنتاج في النظام الرأسمالي .

وبأسلوب تحليلي ناقش العلاقة بين الاقتصاد الحر والاشتراكي والفوارق المختلفة بينهما ، ونوعية تحقيق وإشباع الرغبات الأساسية لهذين النوعين من الاقتصاد، حيث يشير إلى أن الاقتصاد الحر أو اقتصاد السوق يكون الفعل الاقتصادي العقلاني فيه، دائما على أساس تحقيق المصالح الخاصة ويحدث العديد من أوجه التعاون خلال

ما يعرف بعملية التبادل في مقابل ذلك فإن الاقتصاد الاشتراكي يركز الفعل الاقتصادي العقلاني فيه لإقامة النظام بغض النظر عن الموافقة أو عدم الموافقة عليه.

أنساق المجتمع الرأسمالي:

يشير "فيبر" إلى أن البحث في نشأة النظام الرأسمالي تتطلب الإشارة إلى أنساق أساسية ثلاثة: نسق الدين والقيم والنسق الاجتماعي ونسق الشخصية.

١-**نسق الدين والقيم**: يرى فيبر في البروتستانتية وخاصة أفكارها الكالفينية العامل الأساسي المولد للنظام الرأسمالي واعتبر فيبر الكالفينية مصدر الإلهام الحقيقي لنشأة النظام الرأسمالي، إذ يؤكد أنها شكلت نسقًا ثيولوجيا له معناه ومن ثم فقد احتوى هذا النسق على عدد من القضايا التي شكلت في مجموعها نسقًا منطقيًا له تماسكه واتساقه[1].

٢-**النسق الاجتماعي**: شهد النسق الاجتماعي هو الآخر عوامل ذات صلة بنشأة النظام الرأسمالي بشكل ما بنشأة البروتستانتية ذاتها ومن هذه العوامل سيادة النزعة التقشفية فنظرًا للتعالي الكامل لله والانفصال بين المسائل الدنيوية والسماوية فإن هذا الوضع استبعد تمامًا الاتجاه الصوفي للاتحاد بروح السماء والاستغراق في إطارها، ولقد أدى هذا الاعتقاد في النظام السماوي إلى نتيجتين الإيمان بنظام الطبيعة حيث أصبح بلا شك دافعًا هامًا بالنسبة لتأسيس العلم الحديث وأدى ذلك أيضًا إلى العداوة القوية نحو أية طقوس تتضمن نوعًا من الوثنية أو الاعتقاد في المسائل الغيبية ويرتبط بالعلم ويستند إليه نشأة التكنولوجيا الحديثة أو ما يمكن تسميتها بالتكنولوجيا العقلانية التي سادت المجتمع الغربي وأدت إلى تأسيس تشكيلات إنتاجية واجتماعية عديدة أسهمت في مجموعها في تأسيس النظام الرأسمالي ويرتبط بذلك عوامل أخرى كاصطباغ الحياة الاقتصادية بالطابع التجاري وتأسيس العمل الحر. وإلى جانب اعتبار التكنولوجيا إحدى نتائج العلم الحديث فهي تتضمن رفض المنطق التقليدي لإنجاز الأعمال وتنطوي على أداء أكثر كفاءة لتحقيق مجد الله كما تملي ذلك القيم البروتستانتية في مذهبها الكالفني. ويعتبر تقسيم العمل والمهنة في المجتمع. كنتيجة مباشرة للتطور الإلهي للأشياء فتباين

---

[1] ليلة، علي (١٩٩١). مرجع سابق.

البشر إلى الطبقات والمهن يعتبر بالنسبة لمارتن لوثر نتيجة مباشرة لإرادة السماء فمواظبة الفرد ومثابرته في إطار الحدود التي عينها الله له يعتبر بالنسبة له واجب ديني.

٣-نسق الشخصية: يؤكد "فيبر" أن الرأسماليين بشر نشأوا في مدرسة الحياة الصعبة فهم ذو دقة وجرأة، وقبل كل شيء فهم معتدلون وذوو ثقة بأنفسهم، أذكياء يدخرون وقتهم كله لأعمالهم ذووا آراء ومبادئ برجوازية محددة، ويذهب إلى أنه من أهم ملامح الشخصية الرأسمالية أن لديها القدرة على التحرر من التقاليد وأنها ذات نظرة ليبرالية كما أن العمل المستمر الدؤوب الذي يتم في إطاره يشكل جانبًا هامًا من حياتهم. وذلك هو في الحقيقة الدافع الوحيد، وتصبح الثروة موضعًا للإدانة الأخلاقية إذ هي كانت طريقًا إلى البطالة والاستمتاع المذنب بالحياة وامتلاكها يصبح سيئًا حينما يكون الهدف من الحياة هو المرح والاستهانة. ومن خواص الشخصية الرأسمالية التي تعمل وفقًا للتعاليم البروتستانتية عدم استخدام الثروة في اكتساب قوة أو مهابة اجتماعية فالنموذج المثالي لصاحب العمل الرأسمالي لا يتصل بطابع الانتهازية والتسلق فهو يتجنب التظاهر والبذخ في الإنفاق[١].

وقد أشار " جونز لويس" في كتابه (ماكس فيبر وعلم اجتماع متحرر من القيمة) أن فيبر رفض مراحل ماركس التاريخية ورفض تجاوز المجتمع الرأسمالي لأن فيبر كان ينقصه الرؤية الواسعة التي ترى الإنسان يتحكم في مجتمعه ويصنع حياته بنفسه أي أنه هو مسيطر على الطبيعة ويخضعها لإرادته، كما يدرك فيبر أن الإنسان هو صانع التاريخ وليس التاريخ هو الذي يصنع الإنسان ولذلك لم يستطع ماكس فيبر تجاوز الواقع الرأسمالي إلى واقع أفضل وهو المجتمع الاشتراكي[٢].

تأسيس علم الاجتماع الديني:

على الرغم من أن " ماكس فيبر" ألّف أعمالاً كثيرة، إلا أن أبرز هذه الأعمال وأكثرها تأثيرا في الفكر الاجتماعي كان كتاب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" وبحسب المؤرخين، قراءة لدور القيم الدينية في ظهور قيم وأخلاق العمل في المجتمعات

---

[١] ليلة، علي (١٩٩١). مرجع سابق.

[٢] John Lewis, "Max weber & Value-free sociology "Amarxist critique", Lawrence And wishart, London, 1975,P.P 46. 66.

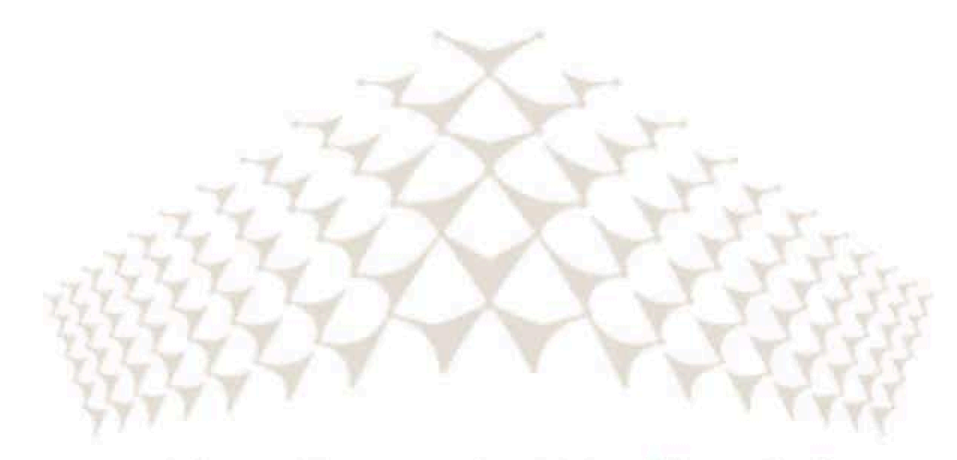
الصناعية الجديدة التي كانت أساس ظهور النظام الرأسمالي. وتأتي أهمية دراسات وأطروحات "فيبر" من اهتمامه المنقطع النظير بفلسفة العلوم الاجتماعية ومناهجها. على أنه في هذا الكتاب لم يعالج الجوانب المختلفة للدين بوصفه ظاهرة اجتماعية بل اكتفى بدراسة الأخلاقيات الاقتصادية للدين ويقصد بها ما يؤكد عليه الدين من أخلاق اقتصادية.

ثم قام "فيبر" بدراسات مقارنة تناولت الأديان الكبرى (الإسلام، المسيحية، اليهودية، الكونفوشية، الهندوكية، البوذية)، والعلاقة بين الظروف الاجتماعية والاقتصادية من جهة، والاتجاهات الدينية من جهة أخرى. وكان فيبر من خلال دراسته لتأثير الأخلاق البروتستانتية على الرأسمالية يريد تأكيد نقطتين هما:

١- أن سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات يفهم في إطار تصورهم العام للوجود وتعتبر المعتقدات الدينية وتفسيرها إحدى هذه التصورات للعالم التي تؤثر في سلوك الأفراد والجماعات بما في ذلك السلوك الاقتصادي.

٢- أن التصورات الدينية هي بالفعل إحدى محددات السلوك الاقتصادي ومن ثم فهي تعد من أسباب تغير هذا السلوك[1].

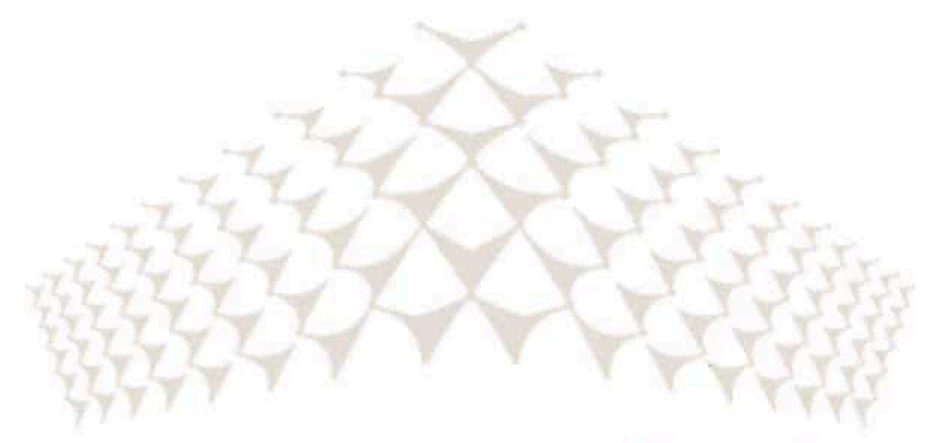
[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣٢٤.





ثالثاً- جورج ميد:

- حياته.
- الذات لدى ميد.
- تشكل الذات.



ثالثاً- جورج هربرت ميد George Mead
(١٨٦٣- ١٩٣١) :
حياته:

ولد جورج هربرت ميد عام ١٨٦٣م بولاية ماساتشوستش. وكانت والدته رئيسة لكلية (مونت هوليوك) في الفترة من (١٨٩٠- ١٩٠٠م). وقد تلقى تعليمه في كلية " أوبرولين" (١٨٧٩- ١٨٨٣م). وجامعات هارفرد، وليبزج، وبرلين (١٨٨٧- ١٨٩١م). وبعد توليه التدريس في جامعة ميتشجن (١٨٩١- ١٨٩٤م) تأثر بأفكار ديوي Dewey وكولي Cooley . ثم انتقل لقسم الفلسفة بجامعة شيكاغو حيث ظل يقوم بالتدريس فيها بقية حياته. جورج هربرت ميد عالم أمريكي في علم النفس الاجتماعي. ومؤسس نظرية التفاعلية الرمزية. وأهم من وضع أسس التفاعلية الرمزية في علم الاجتماع على الرغم من أنه فيلسوف مهتم بالعمليات الاجتماعية أكثر من كونه عالم اجتماع . وربما يفسر لنا ذلك العمق الفكري الذي اتسمت به معالجة هربرت ميد للعلاقة بين العقل والذات والمجتمع. لقد كان أستاذاً للفلسفة بجامعة شيكاغو منذ عام ١٨٩٤م حتى وفاته عام ١٩٣١م. كما قام بالتدريس في موضوعات عن الفكر وفلسفة العلم. وتشمل أعماله الرئيسة" العقل والذات والمجتمع". وكتاب "الحركات الفكرية في القرن التاسع عشر". وكتاب " فلسفة الفعل الاجتماعي". ورغم قلة كتاباته إلا أنها عكست اتجاها فكرياً متماسكاً ومتميزاً فهو على وعي تام بمختلف الاتجاهات وبكيفية تناولها للقضايا الاجتماعية في عصره إنه كان مهتماً على سبيل المثال بتناول بيرجسون للتطور من خلال مفهومه عن التطور الإبداعي وبالمثل كان في معالجته للاتصال واللغة والرمز واعيا كل الوعي بمعالجته هو للنزعة الرمزية SYMBOLSM [1].

وقد تبنى جورج ميد يعض الأفكار المهمة في صياغته للنظرية التفاعلية الرمزية، منها:

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ١٩٤.

١-ضرورة التركيز على عمليات التفاعل الاجتماعي بين الفاعل وبيئته الاجتماعية والطبيعية، بافتراض أن حقيقة البيئة بوجهيها ترتكز على تأويل الفرد لمحيطه.

٢-النظر إلى الفاعل وعلاقاته بالعالم على أن كل منهما متغير يتصف بالدينامية، وليس جامداً ثابتاً.

٣-النظر إلى الفاعل ككائن قادر على تأويل العالم من حوله، أي قادر على قراءة المعاني التي يتصورها لعالمه الاجتماعي والطبيعي[١].

الذات لدى ميد:

ينظر " ميد" للذات على أنها المحور الأساس في عمليات التفاعل فهو ينظر للذات على أنها الأساس الذي يتحول بموجبه الفرد إلى فاعل اجتماعي له ارتباط بالآخرين. إذ من خلال الذات يكون الإنسان صورة نفسه وصورة الآخرين بوصفها موضوعات أساسية للتفاعل[٢].

يرى " ميد" أن هناك علاقة تبادلية بين الذات والمجتمع. فالمجتمع هو حصيلة تفاعل مستمر بين العقل البشري والنفس البشرية. كما أنهما يتشكلان أصلا عن طريق التفاعل أي من خلال التنشئة الاجتماعية والتي تعد مفهوماً مركزياً لأنها - أي التنشئة الاجتماعية- لها القابلية على صياغة سلوكنا في ضوء ما يتوقعه الآخرون منا[٣].

إن السلوك على وفق طروحات " ميد" يجمع ثلاثة عناصر أساسية هي (العقل والنفس والمجتمع) . ووفق أفكار " ميد" نجد أن الذات تشمل العقل والنفس. والعقل عند " ميد" يعني القدرة على تمثل الرموز والإشارات التي لها معان اجتماعية وثقافية والتي يكون بموجبها السلوك ممكنا[٤]. إذ ينمو الإنسان عقلياً من خلال عمليات التقليد للرموز التي يستخدمها الأكبر منه سناً، وبعد مرحلة الطفولة الأولى يحاول الطفل أن

[١] عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص ١١٤-١١٥.

[٢] زايد ، أحمد (١٩٨٤). مرجع سابق، ص٣٩٦-٣٩٧.

[٣] انظر: غي روشيه (١٩٨٣). مدخل إلى علم الاجتماع : الفعل الاجتماعي. ترجمة مصطفى دندشيلي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ٦٦-٧٠.

[٤] عمر، معن (١٩٩١). نقد الفكر الاجتماعي المعاصر. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ص١٩٤.

يختار لنفسه سلوكا بين جملة أنماط سلوكية وهنا تكون مهمة العقل إدماج الطفل بالمحيط الاجتماعي مع العلم أن قدرة الإنسان على اكتساب الرموز سواء كان ذلك تقليدا أم اختيارا عملية قابلة للتطوير والتغير[1].

ويتطابق هذا الرأي جزئيا مع رأي العالم "جيوفاني بوسينو" الذي يفهم العقل من خلال كونه أسلوباً يمكننا من تسهيل العلاقة بين الجسم العضوي والوسط الاجتماعي ، ولكن العقل عند الأخير يمثل القدرة على الخلق والإبداع بل هو الذي يخلق المواد الاجتماعية ويزودها بدلالات رمزية[2].

أما النفس البشرية والتي هي بتعبير آخر، الذات الفاعلة بالتآزر مع العقل البشري ، فتنشأ عبر عمليات التفاعل واكتساب الخبرة المتولدة عنه وعن طريق استخدام الرموز واللغة والإشارات[3].

يقسم (ميد) مكونات النفس إلى جزأين هما:

١- جزء عفوي مندفع أطلق عليه الأنا (I).

٢- الجزء الآخر اجتماعي ضميري ناشئ عن القيم والمعايير والتوقعات الاجتماعية أطلق عليه ،الذات الاجتماعية (Me).

ورغم أن " ميد" لم يشر إلى حالة من الصراع بين الفرد والمجتمع. لكنه أوضح بأن الأنا لا تخضع دائما لسيطرة أو ضبط الذات الاجتماعية بدليل أن الإنسان يخترق القواعد الاجتماعية ويسلك سلوكا قد لا يتوقعه الآخرون منه.

كما ينظر إلى فكرة الذات عند " ميد" على أنها مركب من جوانب بيولوجية اجتماعية ولذلك يصعب فصلها عن مفهوم الأنا المفعول أو الذات الخارجية ، ويعول ميد على اللغة في تكوين الذات الخارجية إذ إنها تنبثق عن الأفعال الكلامية والحوارية مما يعمل على تطوير الوعي بفكرة لذات ، ومن هذا نجد أن الذات الداخلية إنما هي استجابة الفرد لاتجاهات الآخرين أما الذات الخارجية فهي اتجاهات الآخرين ومواقفهم

---

[1] عمر، معن (١٩٩١). مرجع سابق، ص١٩٥.

[2] جيوفاني بوسينو (١٩٩٥). نقد المعرفة في علم الاجتماع. ترجمة محمد عرب صاصيلا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ص١٩٥ .

[3] عمر، معن (١٩٩١). مرجع سابق، ص١٩٥.

كما يفهمها ويتصورها الفرد. إذ تعمل هذه الاتجاهات على تكوين الأنا المفعول. وبالتالي فإن الفرد يتحول عند التفاعل معها إلى أنا داخلية تنظر برؤية متكاملة داخلية وخارجية تجاه الآخر.

ومن خلال هذا الفهم الذي يطرحه "ميد" لفكرتي الذات الداخلية والخارجية فإنه يقترب إلى حد ما من الرؤية الفرويدية للشخصية البشرية ،فالذات الداخلية هي حصيلة تفاعل بايولوجي واجتماعي وهذه الفكرة مقاربة لفكرة (الهو) و(الانا) عند "فرويد" ، فالهو هو مجموعة دوافع غريزية لا اجتماعية، في حين يكون (الأنا) امتداد للهو يخضع لمبدأ الواقع بدلا من الاعتماد على اللذة بشكل مباشر في حين يقترب مفهوم الذات الخارجية من مفهوم الأنا الأعلى. لا سيما وأن الأخير يعمل على ترسيخ فكرة الضبط الاجتماعي عن طريق نقل القواعد والقيم التي يؤمن بها المجتمع إلى داخل الإنسان بواسطة عمليات التفاعل والتنشئة الاجتماعية ، وبموجب ذلك يدرك الإنسان أنه يمثل موضوعا بالنسبة للآخرين كما يشكلون هم بالنسبة إليه موضوعات يتفاعل معها كما تستوعب الذات صورتها على أنها عنصر مستقل له خصوصيته ، وهذا يعني أن الذات تفهم على أنها عملية انعكاسية بين ذات الفرد والعالم الخارجي [١].

وهذا يشير إلى أن الذات تقع في عملية تفاعل مع المجتمع كموضوع متناقض معها وليس مجرد نتاج له. وهذا يعني بالضرورة أن الإنسان من الممكن أن يخلق وعيا خاصا به يخلق بموجبه نمطه السلوكي بدلاً من الاستجابة الحتمية للواقع [٢].

تشكل الذات:

مثل هذه الطروحات الخاصة "بميد" لا تتفق وطبيعة الطروحات التي جاء بها "ماركس" الذي يرى أن تشكل العقل الإنساني ناشئ عن طبيعة الحياة المادية التي يحياها الإنسان. فالبشر لا يحددون وعيهم وإنما وعيهم يتشكل بفعل الحياة التي يحيونها وهذا يعني أن الذات عند "ماركس" ما هي إلا حصيلة لتأثير الحياة المادية المؤثرة في مجمل عناصر الوجود الاجتماعي الذي يعمل بدوره على ترتيب وعي الذات أو الإنسان،

---

[١] زايد ، أحمد (١٩٨٤). مرجع سابق، ص٣٩٦-٣٩٧.

[٢] زايد ، أحمد (١٩٨٤). مرجع سابق ، ص٣٩٧.

ولكن مع هذا فالإنسان بالنسبة لماركس هو عنصر خلق وإبداع وليس عملية استجابة مجردة للوجود كما أن "ماركس" يؤمن بأن الذات تقع في حالة جدل مع الموضوع (الطبيعة) فالطبيعة تمثل عنصراً خارجياً ومستقلاً وغريباً عن الذات ولهذا يؤكد ماركس بأن العمل والإنتاج المنظم يعد عاملاً أساسياً في دمج الذات مع الموضوع (المجتمع)، على أنه وفق طروحات "ميد" فإن الإنسان من الممكن أن ينظم الواقع أو يعيد ترتيب الواقع وهي فكرة متآزرة إلى حد ما مع فكرة الخلق والإبداع الماركسي الخاص بالذات الإنسانية. وعطفاً على ذلك يذهب ميد إلى أن الإنسان لا بد من أن يحدد رغباته وأهدافه وذاته بالتقابل مع الواقع والفرق بين الذوات الفاعلة يكمن في قدرتها على تنظيم الواقع وتشكيل خط خاص بها، ومع ذلك يفرق "ميد" بين مرحلتين في تفسير الواقع من قبل الذات، الأولى هي مرحلة الرؤية الفردية للواقع والتي تنشأ عن توجهات الذات نحو الآخرين واتجاههم نحوها، والثانية هي الرؤية " النحنوية" والتي يبدأ فيها الفرد بالتفكير من خلال منظور الجماعة وليس من خلال منظور الفرد وبالتأكيد فإن هذا يعمل على تكييف الذات مع الواقع والرؤية النحنوية هي بمثابة انصهار الأنا والآخر في بوتقة الذات بحيث يصبحان كلاً واحداً وهذا ما يولد فكرة (الآخر المعمم) الذي يمثل فكرة الجماعة التي تحتضن ذلك الفرد.

ويعتقد "ميد" بأن الشخصية تتشكل في مرحلتين الأولى مرحلة اللعب المرتبطة بطفولة الإنسان وتتبلور هذه المرحلة من التفاعل مع الأبوين ولذلك فإن الإنسان يدرك جوانب محددة من التفاعل، أما المرحلة الثانية، فهي مرحلة المباراة والتي يتسع نطاق التفاعل ليشمل أوجهاً متعددة منه يتعين على الإنسان استيعابها مما يجعل الذات في هذه المرحلة تمثل انعكاساً لاتجاهات الآخرين وهذا ما دفع "ميد" إلى استخدام مفهوم لعب الدور في المرحلة الأولى في حين استخدم مفهوم اكتساب الدور في المرحلة الثانية[1].

ووفق رؤية "غي روشيه" (١٩٨٣) في تحليله لتأثير أعمال " جورج ميد" في تحديد ماهية الفعل الاجتماعي. أنه قد استنتج ميد في نتاجه الفكري أن الشخصية الفردية تنمو وتتكون من احتكاك مع الآخرين ومن خلال الآخرين وبتمثل الآخرين. وأن الشخصية النفسية، من حيث أصولها بالذات، ظاهرة اجتماعية أو نتاج اجتماعي

[1] محمد علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣٨٩.

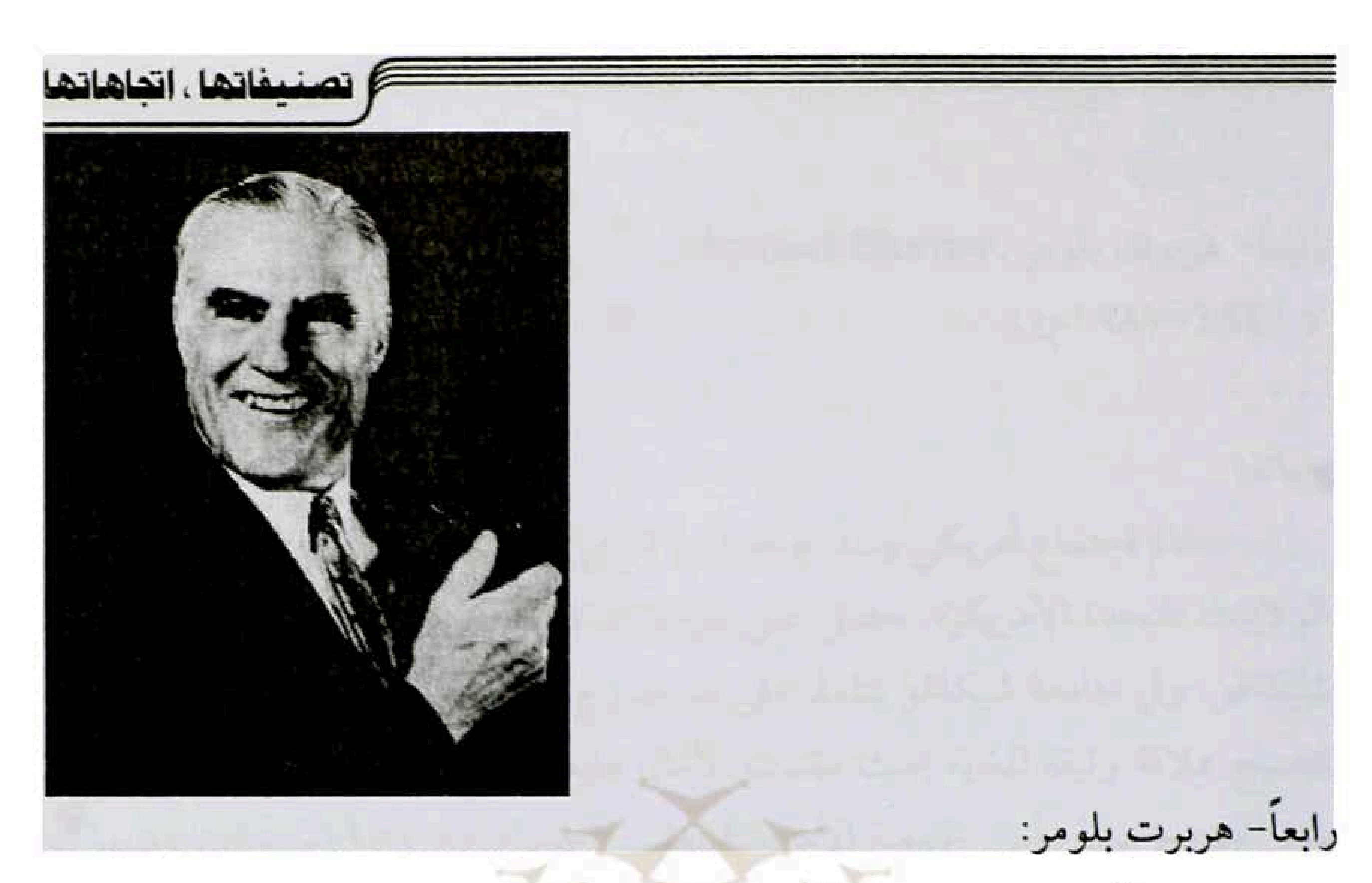
على أقل تقدير. غير أنها ليست انعكاساً للوسط المحيط بها. إنما هي دائماً تكيف فردي مع الوسط، وإعادة بناء لهذا الوسط[1].

وهذا يعني أن مرحلة المباراة من وجهة نظر " جورج ميد" أكثر قدرة على تشكيل شخصية الإنسان، وهذه الرؤية معاكسة لرؤية " فرويد" الذي أكد على مرحلة الطفولة في صياغة الشخصية وتكوين قواعدها الأساسية في حين يعد "ميد" هذه المرحلة مرحلة تقليد يلعب فيها الإنسان أدواراً معينة يقلد بموجبها الأقرب إليه في التفاعل في حين يتشكل وعي الذات لاحقا مما يحفز الإنسان نحو اختيار واكتساب الأدوار التي يعيها ويعي اكتسابها وهذا يؤكد الثقل الأساس لمرحلة المباراة في تكوين الشخصية انطلاقاً من فكرة أن الشخصية هي مجموعة أدوار ويفترض أن الأدوار الأكثر فاعلية هي التي تتولد في مرحلة المباراة [2].

---

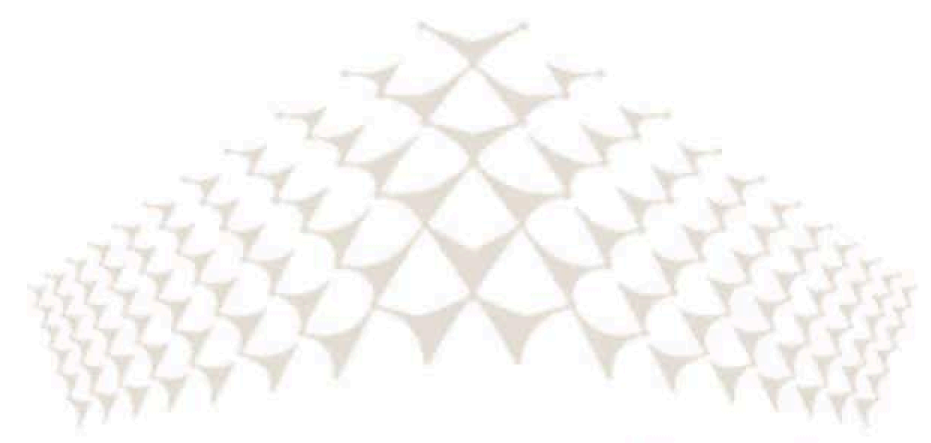
(1) غي روشيه (١٩٨٣). مرجع سابق، ص ٤١.

(2) راجع كذلك: Chales, H, Powers (2010). Making Sense Of Social Theory. U K: Littlefield Peblishers, INC. p138-145.



رابعاً- هربرت بلومر:

- حياته.
- منهجية بلومر.
- المعاني والسلوك التفاعلي.



رابعاً- هربرت بلومر :Herbert Blumer
(١٩٤٠-١٩٨٧م) :

حياته:

عالم اجتماع أمريكي ولـد عـام ١٩٠٠م في سـانت لـويس بـولاين ميـسوري في الولايات المتحدة الأمريكية. حصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتمـاع مـن جامعـة شيكاغو. وفي جامعة شيكاغو تتلمذ على يد جورج هربرت ميد، وتطـورت علاقتـه بـه لتصبح علاقة وثيقة للغاية بحيث عقدت الآمال عليه ليصبح أهم رواد التفاعلية الرمزيـة بعد "جورج ميد" رأس الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع عام ١٩٥٦م. وكان وقتـها أي في الفترة ١٩٣٠-١٩٣٥م سكرتيرا وأمينا لـصندوق الجمعيـة. كمـا كـان رئيـساً لجمعيـة دراسة المشكلات الاجتماعية عام ١٩٥٥م. ورئاسة تحرير مجلة علم الاجتماع الأمريكيـة (١٤١- ١٩٥٢م).

ولقد ركز "هربرت بلومر" اهتمامه حول دعم وتطوير مفاهيم ميـد وذلـك مـن خلال دراسته الإمبريقية للسلوك الجمعي Collective Behavior ولكنه أيـضاً حـاول أن يعمـق تحـليلات التفاعليـة الرمزيـة للمجتمـع فـضلاً عـن اهتمامـه بمناقـشة المنـاهج السوسيولوجية الملائمة لمنظور التفاعلية الرمزية. من أهم كتبه كتاب " التفاعلية الرمزيـة: أفق ومنهج" عام ١٩٦٩م. حيث يعد المؤسس لاصطلاح التفاعـل الرمـزي Symbolic Interaction عام ١٩٣٧م[1].

منهجية بلومر:

لم يكتب " هربرت بلومر" مثله في ذلك مثل أستاذه " جورج ميد" الكـثير ولكنـه تناول القضايا في معالجة مختصرة فوجهة نظره عن المجتمع من المنظور التفـاعلي الرمـزي لا تزيد عن بضع صفحات. أما ما يتعلق بالنواحي المنهجيـة فقـد أظهـر بلـومر اهتمامـا خاصاً بالمنهج أو بفلسفة العلوم الاجتماعية إذ يعتقد أن ما يمكـن أن نطلـق عليـه تحليـل

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٢١٠.

المتغيرات Variable analysis لا يمثل طريقة ملائمة لعلم الاجتماع لأنها لا تتناسق مع التكوين المتغير للسلوك وعملية التفاعل المتبادل[١].

ولقد انتقد "هربرت بلومر H. Blumer " كثيراً من أفكار النظرية الوظيفية وبالذات تصورها للمجتمع. إذ لا يرى النظرة للمجتمع أو الجماعات على أنها أنساق اجتماعية. بل يجب أن ننظر إلى سلوك الجماعة على أنه تعبير عن نسق يوجد. إما في حالة من التوازن، أو أنه يسعى نحو تحقيق التوزان. أما أن نتصور سلوك الجماعة على أنه تعبير عن وظائف يقوم بها المجتمع، أو تقوم بها جماعة ما، أو تدرك سلوك الجماعة على أنه تعبير خارجي لعناصر قائمة في المجتمع أو في الجماعة. كما تتمثل العناصر في الحاجات الثقافية، أو أغراض المجتمع، أو القيم الاجتماعبة، أو الضغوط التي تفرضها النظم. فكل هذه الأفكار تتجاهل النظرة إلى حياة الجماعة. على أنها مؤلفة من أفعال جماعية منسقة يقوم بها الأفراد سعياً من جانبهم لمواجهة مواقف الحياة التي تقابلهم[٢].

لذلك اهتم "بلومر" بالمنهجية أو فلسفة العلوم الاجتماعية. إذ انتقد مناهج البحث التجريبي القائم على تحليل المتغيرات والضبط الصارم فيها. ويعتقد أن هذه المناهج لا تلائم طبيعة الموضوعات التي تتناولها التفاعلية الرمزية. مما جعل التأثر به واضحاً في اتباع المناهج الكيفية.

لذلك يرى من المهم إعادة النظر في فكرة المفاهيم Concepts. إذ يرى أن العلوم الطبيعية تستخدم مفاهيم محددة وواضحة ودقيقة ومتفق عليها. لأنها تستخدم بنفس هذه المعاني في بحوثها. بينما في علم الاجتماع الحاجة لنوع آخر من المفاهيم هي المفاهيم ذوات الحساسية Senstizing Concepts، وهي مفاهيم لا نصوغها في ضوء تعريفات جامدة. وإنما هي أفكار تدخل إلى عقل الباحث بوصفها مبادئ مجردة توجهه نحو الحاجات التي ينبغي دراستها في الموقف الاجتماعي[٣].

لذلك كتب عن أهمية الملاحظة بالمشاركة والاندماج الاجتماعي. وتحرر الباحث الحقلي من الإجراءات الصارمة للبحث، باعتبار أن ذلك هو أفضل طريقة لاكتشاف

---

[١] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣٩٤-٣٩٨.

[٢] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٨١-١٨١.

[٣] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣٩٦- ٣٩٧.

المعرفة من الموقف الاجتماعي من خلال رؤية الناس والمشاركين في هذا الموقع له. تلك الرؤية التي يتعين على الباحث الاجتماعي أن يركز عليها في كل بحوثه[1].

اعتبر " هربرت بلومر" أن الناس سواء أفراد أو جماعات مجهزون للفعل على أساس معاني الأشياء التي يتضمنها عالمهم ومن ثم يقوم السلوك على أساس المعاني الاجتماعية المتطابقة مع ثلاثة أنماط رئيسية هي : النمط الطبيعي مثل الأشجار والأنهار والنمط الاجتماعي مثل زملاء العمل ونمط تجريدي مثل مبادئ الأخلاق . ويرى "بلومر" أن المجتمع عملية رمزية تفاعلية تفسيرية في داخل الأفراد [2]. وقد عبر "هربرت بلومر" عن رفضه لكثير من الأفكار التي يستند إليها التصور الوظيفي للمجتمع محتجاً على تلك الأفكار التي تتناول المجتمع أو الجماعات على أنها أنساق اجتماعيه[3].

ولقد لخص هربرت لومر H. Blumer القضايا الأساسية للتفاعلية الرمزية في ثلاث مقدمات، وهي:

١-أن الكائنات الإنسانية تسلك إزاء الأشياء في ضوء ما تنطوي عليها هذه الأشياء من معاني ظاهرة لهم.

٢-أن هذه المعاني هي نتاج التفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني.

٣-أن هذه المعاني تتعدل وتتشكل من خلال عملية التأويل التي يستخدمها كل فرد في تعامله مع الرموز التي تواجهه[4].

المعاني والسلوك التفاعلي:

تعد المعاني من أهم المفاهيم التي أتى بها "هربرت بلومر". وتقوم فكرة "بلومر" على تفسير مجرى الفعل من خلال المعاني التي يضفيها الناس على سلوكهم، واستيعاب دور الآخرين في تحقيق صورة موضوعية للذات. ودراسة الفعل بوصفه استجابة ذكية. والمعاني ترتبط بالرموز، ذلك أن الرمز الدال هو المعنى المشترك، وهو يتطور في سياق عملية التفاعل التي تتلخص هي ذاتها في سعي البشر لتحقيق نتائج عملية في التعاون فيما

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣٩٨.

[2] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق.

[3] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق.

[4] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٢٢. محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٢٦١.

بينهم. فالمتفاعلون لا يستجيبون فقط للآخرين؛ وإنما يؤولون أفعال هؤلاء. لأن استجابة الفاعل لا تكون قوية أو مباشرة، إنما تقوم على تقويم معنى الفعل، الأمر الذي يجعل استعمال الرموز يتوسط التفاعل الإنساني من خلال تأويل أو تأكيد معنى أفعال أخرى[1].

ومن هذه النتائج يمكن استخلاص النتائج التالية[2]:

١- أن المجتمع هو مجموعة من الذوات الفردية تتفاعل معاً من أجل إتيان سلوك اجتماعي. أي أن التفاعلية الرمزية لا تنظر إلى الأفراد منغلقين داخل بناء معين. فهم لا يشاركون في شيء لم يصنعوه بأنفسهم، ولذاتهم. ومن ثم فإن الأفعال المترتبة على ذلك تتخذ شكل " العادة" وهو ما يسميه علماء الاجتماع مصطلح (البناء).

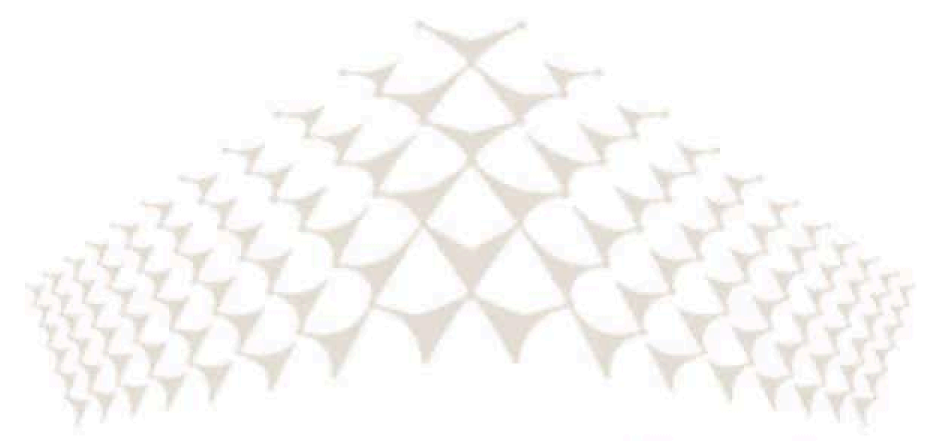
٢- أن المواقف (التي هي أزمنة محسوسة، وأماكن محدودة للسلوك الفعلي) هي ملامح الحياة الاجتماعية التي يجب أن يحددها الناس وفي سياقها يمارسون أنشطتهم. وبالتالي فإن القيم والمعايير النظامية المجردة للسلوك لا تلعب دوراً حاسماً عند بلومر. ويرجع ذلك إلى أن المكونات الفعلية للمواقف المباشرة، هي التي توجه الأشخاص في اختيارهم لكيفية سلوكهم.

٣- أن الاستيعاب المعرفي للموقف أمر ضروري للسلوك الاجتماعي الذي يمارس فيها. فقبل أن يصبح الموقف له معنى محدد. وقبل أن يتصرف المرء إزاءه، على الأشخاص أن يفهموا هذا الموقف تماماً على نحو يمكن كل فرد من معرفة مكانته فيه، والنتائج المترتبة على أي سلوك يقوم به.

[1] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٣٣. خليل، فؤاد (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص ٩٥-٩٦.
[2] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٣٩٤- ٣٩٥.

خامساً- جوفمان إرفينج:

- حياته.
- الرؤية التفاعلية.
- مفهوم الذات.
- الحياة الاجتماعية والحياة المسرحية.
- تكوين وتشكل الوعي بالأدوار.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

خامساً- جوفمان إرفينج
: Goffman Erving (1922-1982)

حياته:

جوفمان إرفينج عالم اجتماع أمريكي حقق شهرة واسعة في مجال علم الاجتماع بفضل تحليلاته لأسلوب العلاقات ما بين الأشخاص. وصاحب شخصية محورية في علم الاجتماع الأمريكي. وتتلمذه على يد أستاذه هربرت بلومر. ويعد آخر المنظرين البارزين في مدرسة شيكاغو الأصيلة. ولد جوفمان عام ١٩٢٢م في ماتيفيل بكندا. وحصل على الدرجة الجامعية الأولى من جامعة تورنتو بكندا عام ١٦٤٥م. وعلى درجة الماجستير عام ١٩٤٩م، والدكتوراه عام ١٩٥٣م من جامعة شيكاغو. من أهم كتبه كتاب " تصور الذات في الحياة اليومية" عام ١٩٥٦م. وعمل في مشروعات بحثية في شيكاغو. وعمل في أقسام الطب النفسي بواشنطن ما بين عام ١٩٥٤- ١٩٥٧م. والذي من ثماره تأليف كتاب " ملاجئ" نشر عام ١٩٦١م. اهتم بدراسات الفن المسرحي والانحراف. وشغل منصب الأستاذية في جامعة بيركلي. ومنصب الرئاسة في الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع عام ١٩٨١م. ومن مؤلفاته الأخرى كتاب " تحليل الإطار" عام ١٩٧٤م. وكتاب "أشكال الحديث" عام ١٩٨١م. وكان اهتمامه الدائم بنماذج التواصل البشري[1].

الرؤية التفاعلية:

تنهض التفاعلية الرمزية على قضية مؤداها أن تنظيم الحياة الاجتماعية ينشأ من داخل المجتمع ونتيجة لعملية التفاعل بين أعضائه وهي لا تقبل الفكرة القائلة بأن هذا التنظيم راجع إلى تأثير عوامل خارجية جغرافية أو اقتصادية ، حقيقة أنها لا تنكر هذه العوامل في تشكيل الحياة الاجتماعية لكنها تؤكد أن هذا محكوم بالتوافق الذكي الذي يحققه الأفراد مع هذه العوامل وينتج عن ذلك تنوع أشكال التنظيم الاجتماعي وفقاً

[1] ميشيل مان (١٩٩٤). مرجع سابق ، ص ٢٩٢.

لتنوع استجابات الأفراد وأنماط توافقهم والمجتمع هو نتاج لتفاعل أعداد كبيرة من الجماعات المتجانسة وتدخل مختلف جماعات المجتمع العنصرية والطبقية والسياسية والدينية في تفاعل وعلاقات متبادلة تنتج عنها صور مختلفة للتنظيم الاجتماعي ويتسم هذا التفاعل بطابع التنافس من أجل السيطرة على عمليات الضبط الاجتماعي والتنظيم والاتصال ولقد أسهمت كتابات "إرفينج جوفمان". وكذلك كتابات "إنسلم تراوس وهوارد بيكر" في تناول هذه العلاقة الجديدة بين الأفراد والجماعات وبين شكل التنظيم الاجتماعي للمجتمع وهو تناول يختلف بالطبع في اتجاهه العام عن النظريات البنائية التي تفترض مسبقاً شكلاً معيناً لبناء المجتمع [1].

مفهوم الذات:

في كتابه " تصور الذات خلال الحياة اليومية"، انطلق " جوفمان" من مفهوم الذات لكي يعالج الصلة بينها وبين تنظيم المجتمع. فهو مثل "جورج ميد" يرى أن الذات كيان اجتماعي وجد خلال عملية التفاعل الاجتماعي. وأن الفرد لا يعي فحسب (الآخر المعمم). وإنما هو يستخدم القيم والاتجاهات السائدة في وسطه الاجتماعي. أو هو يتعلم هذه القيم والاتجاهات ويدخلها ضمن تكوينه النفسي بطريقة تجعله قادراً على تطوير اتجاهاته الاجتماعية تلقائياً. وتنمية خبرته ومشاعره وإتيان أفعال اجتماعية ملائمة. كما أن أعضاء المجتمع بوصفهم كائنات على وعي بذواتهم ويستخدمون ذكائهم في تنظيم أفعالهم. والذي يقتضي نمو الذات ووصولها إلى هذا المستوى من الوعي بنفسها. والذي يتحقق من خلال العلاقات الاجتماعية والاتصالات المتبادلة بين الأفراد. الذي يهتم فيها كل منهم بالكشف عن ماهية ذواتهم. فكل فرد يوضح للآخر من هو؟ وكيف تكون طبيعة ذاته؟.

الحياة الاجتماعية والحياة المسرحية:

اهتم "جوفمان" بتنظيم الاتصالات الشخصية المتبادلة وتحليلها. إذ يرى أن كثيراً من خصائصنا الذاتية متعذر ملاحظتها مثلما نلاحظ الخصائص الجسمية.

[1] جلبي ، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص٢٦٦.

ويتعلق ذلك خاصة بالاتجاهات والنزعات والرغبات وغيرها من السمات الاجتماعية المسئولة عن تحديد طبيعة الذات. وتلك هي الجوانب التي يهتم جوفمان بإبرازها وملاحظتها لأنها أكثر الجوانب تأثيراً في تعريف الذات وبيان سماتها الأساسية. وهو هنا استعار منظر الحياة المسرحية لينظر به للحياة اليومية.

فالحياة الاجتماعية مماثلة للحياة المسرحية تضم فرقاً منظمة لدعم التصور الذاتي. فمثلما يعمل الفريق المسرحي على التعاون لتحقيق إقناع الجمهور الذي يشاهد العرض المسرحي الذي يقدمه الفريق. ففي كل مواقف الحياة الاجتماعية، ومنظماتها، نستطيع أن ننظر إلى الأعضاء المشاركين في هذه المواقف بأنهم يشبهون الفريق، ويهدفون إلى تحقيق أهداف مماثلة لأهدافه. ففريق العاملين في مستشفى - مثلاً- يحاولون إقناع المرضى بأنهم قادرين على خدمتهم طبياً. وأن احتمالات الشفاء عالية في هذا المستشفى.

ويشير "جوفمان" إلى أننا نقنع جمهورنا أو أولئك الأفراد الذين يجب أن نعيش معهم، بأننا من نكون وبما نشرع في اتخاذه بأنفسنا بنفس طريقة الممثل. فطرقنا في الملبس وأساليبنا في الحديث والحركة، وخصائصنا الفيزيقية وممتلكاتنا المادية وموقعنا الجغرافي وكل هذه الأمور يمكن توصيلها. وأن نعاملها بأنها طريقة متفق عليها على أنها تعبيرات عن الدور والشخصية والاتجاه.

وقد اعتبر "جوفمان" المسرح النموذج لفهم الحياة الاجتماعية ولذلك يحدد نقطة الانطلاق في تحليله في دخول الفرد ذاته على الآخرين ويركز على ما يحدث في هذا الموقف من تصرفات وسلوك يعبر بها الفرد عن ذاته ومدى تأثر الآخرين بهذا السلوك وبمظهر الفرد نفسه. ويذهب إلى أن الأفراد يناضلون من أجل توصيل صورة مقنعة عن ذواتهم إلى الآخرين، وهم بهذا يلعبون أدواراً أكروباتية ويشاركون في الألعاب، بهدف رفع قيمة الذات وذلك دون الاعتماد على الأخلاق والاحترام وإنما على إثارة الشعور الضئيل بالشفقة المتبادلة بين الناس وبعضهم البعض. ومن ثم تصبح الحياة الاجتماعية أو الواقع بمثابة مجموعة من قواعد الألعاب التي يمكن التحكم فيها من ناحية أكثر منها مجموعة من الالتزامات الأخلاقية التي يمكن الإحساس بأثرها، فالحياة الاجتماعية ليست بمثابة أبنية اجتماعية ثابتة ومحددة، وإنما هي شبكة مهلهلة تدفع في تأرجح عبر ممر ضيق

يصعدها الأفراد في حذر. كما أن الأفراد ليسوا نتاجاً للنسق، وإنما هم منفصلين ومغتربين عنه.

فعندما ننظر لمسرحية تاريخية تجسد صراعاً على القوة بين ملوك العصور الوسطى. فيمكننا النظر إلى حرص المستشفى على تمكن فريقه الطبي من شفاء المريض حتى ولو كان هناك توقع بتدهور الحالة المرضية، أو توقع وفاة المريض، أو أنهم فاقدي الثقة ومدركين لوقوعهم في أخطاء.

ويصف السلوك في المسائل الاجتماعية بأنه يمثل مجموعة طقوس معقدة تتعلق بضبط عملية الاتصال. إذ يسعى نحو التعامل مع الرموز التي تتفرع إليها نشاطاتهم ومظهرهم وتعبيراتهم بتلك الطريقة التي تعمل على دعم تصوراتهم الخاصة وتصورات الآخرين لذواتهم الشخصية. وفي إطار مجموعة تصوراتهم الخاصة وتصورات الآخرين لذواتهم الشخصية، وفي إطار مجموعة من الطقوس، نجد أن هذه التلميحات أو الأفعال البسيطة، والتي قد تبدو لا صلة لها بالموضوع قد ينظر إليها على أنها توصل شيئاً، أو جزءا من عملية تقديم الذات[١].

تكون وتشكل الوعي بالأدوار:

في مؤلفه (طقوس التفاعل: مقالات في سلوك المواجهة) عام ١٩٦٧م. استطاع "جوفمان" أن يطور أبعاد التفاعلية الرمزية. والتي لم يسبقها لها آخرون.

وعن العملية التي أسهمت في تكوين الوعي بالأدوار التي تقوم على مسرح الحياة الاجتماعية. يؤكد جوفمان هنا على عملية التنشئة الاجتماعية. حيث إن عملية التنشئة الاجتماعية لا ترتبط بالمراحل المبكرة فقط. وإنما عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة عبر مراحل دورة الحياة المختلفة. بل إن أنماط التعلم لدى الكبار وخبراتهم خلال مرحلة النضج قد تكون ذات تأثير حاسم في تكوين شخصياتهم وإحساسهم بذواتهم[٢].

---

[١] جلبي، علي (١٩٩١). مرجع سابق، ص ٢٧٠.

[٢] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٤٠٥- ٤٠٨.

انتقادات " لجوفمان":

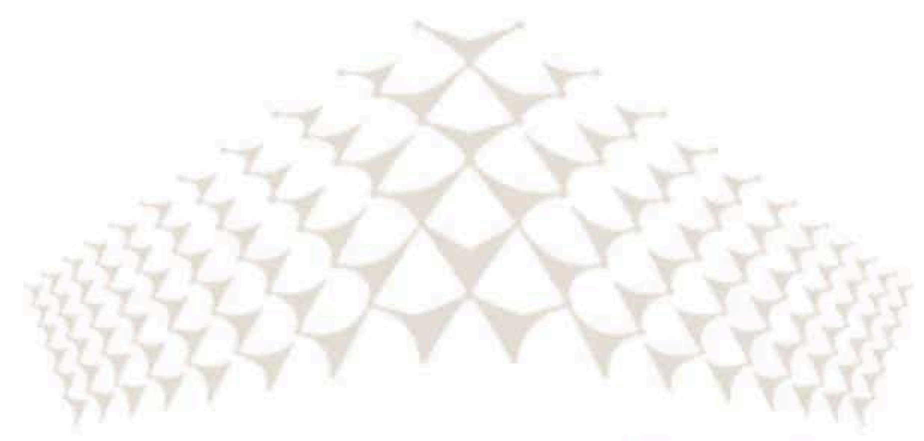
على الرغم من المكانة العلمية " لجوفمان" خاصة في مدرسة التفاعلية الرمزية، وأعماله المشهورة بنظرية المسرحية أو ما عرف بالتحليل المسرحي، إلا أنه وجهت له بعض الانتقادات ومنها:

١- أنه انشغل بموضوعات محددة بدلاً من الاهتمام بالجوانب الأساسية الفعلية للحياة الاجتماعية.

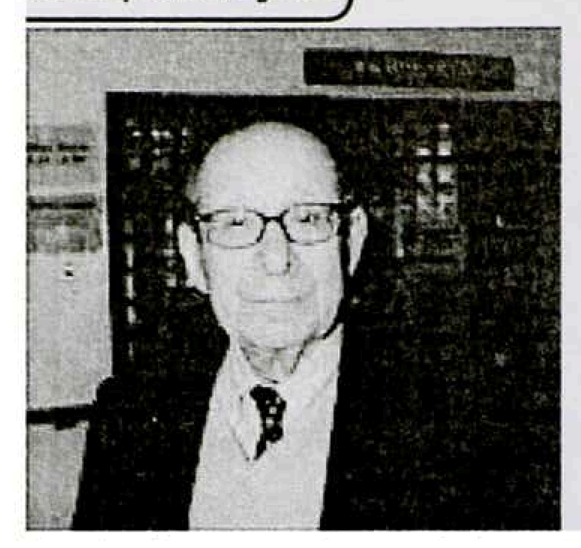
٢- أنه كان منظراً على المستوى المجهري في وقت كان الإطراء فيه من نصيب المنظرين على مستوى الوحدات الصغرى.

٣- أنه جذب باعماله عدداً محدودا من الطلاب الذين استطاعوا أن يبنوا على آرائه. والحقيقة أن بعضهم آمن بأنه يستحيل أن تبنى على أعمال " جوفمان" التي ينظر إليها على أنها ليست سوى سلسلة من الآراء الذاتية اللامعة[1].

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٨٩.

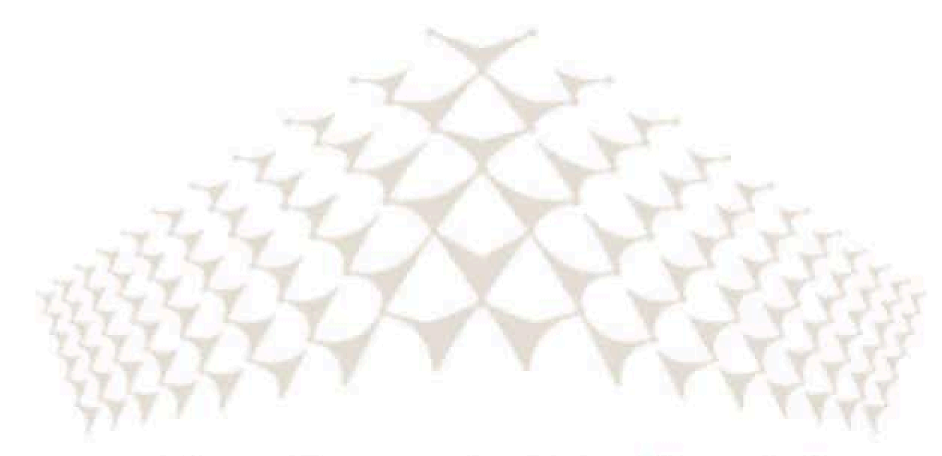


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library



سادساً- جارفينكل والمنظور الأثنوميثودولوجي:

- حياته.
- الجذور الفكرية للمنظور الأثنوميثودولوجي.
- المفاهيم الرئيسة في المنظور الأثنوميثودولوجي.
- تصور الواقع الاجتماعي.
- المناهج المستخدمة في الدراسات الأثنوميثودولوجية .
- تقييم المنظور الاثنوميثودولوجي.



سادساً- جارفينكل والمنظور الأثنوميثودولوجي:

حياته:

يعد " هارولد جارفينكل H. Garfinkil " من العلماء الاجتماعيين المعاصرين، وكان محور اهتمامه التنظيم الاجتماعي وخاصة في الحقل المسمى مناهج بحث الشعوب أو (المنهجية الشعوبية) الذي ساهم فيه مساهمة كبيرة ويعتبر أهم منشوراته العلمية هو كتابه "دراسات في مناهج بحث الشعوب"[(١)]. ولد في نيويورك عام ١٩١٧م. وتتلمذ على يد تالكوت بارسونز، وأتم رسالته للدكتوراه عام ١٩٥٢م حول موضوع " إدراك الآخر". ونظريته التي تعد بمثابة إطار مرجعي بديل للبنائية الوظيفية " المنهجية الإثنية" ذلك لأنها تعتبر عملية ممارسة الحياة اليومية بواسطة وسائل يبني بها الفاعلين عالمهم ويشيدون واقعهم أمراً مشكلا، وذلك على خلاف البنائية التي كانت تسلم جدلاً بهذه العملية على أنها أمر معطى، وكان جارفينكل في اهتمامه بالنظام الاجتماعي ومتطلباته يتخذ موقفاً راديكاليا بحيث لا نجده يدرس القيم الأخلاقية المشتركة كأساس لهذا النظام وإنما يقوم بالبحث الدقيق عن بناء الفعل الاجتماعي في ثنايا لغة الحديث اليومية كوسيط للتفاعل الاجتماعي وبحيث أنه كان يحاول الكشف عن العلاقات المعقدة بين التفكير والعقل ويربط بينهما في عملية المحادثة بين الأفراد ويبحث الأبنية التي يمكن بواسطتها التعبير عن مشاعرهم، ويستخدم "جارفينكل" مناهج الفطرة السليمة والبرهنة والحادثة في استخلاص وصياغة قضايا نظرية. يتصف هذا الاتجاه مثل غيره من الاتجاهات الظاهراتية بموقفه النقدي والرافض للاتجاه الوضعي في علم الاجتماع، وقد ظهر مصطلح (الأثنوميثودولوجيا) في عام ١٩٦٧ م حينما نشر العالم الأمريكي هارولد جارفينكل ، كتابه بعنوان : " دراسات في الاثنوميثودولوجيا " حيث صاغ جارفينكل مصطلح الأثنوميثودولوجي متأثراً بالفلسفة الظاهراتية (فلسفة الظواهر) ومن ثم فقد نهض المنظور الأثنوميثودولوجي على أسس فلسفية وعلى مستوى من التنظير يوصف بأنه ما وراء النظرية[(٢)].

---

(١) حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٢١٩.

(٢) نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص ٢٤٥.

الجذور الفكرية للمنظور الأثنوميثودولوجي :

ترجع الجذور الفكرية لمنظور الاثنوميثودولوجي إلى كل من التفاعلية الرمزية والفلسفة الظاهراتية (الفينومينولوجي)، وعلى الرغم من تأثر هذا المنظور بآراء هاتين المدرستين من مدارس الفكر الاجتماعي ، إلا أن هذا المنظور قد اتخذ له وجهة نظر مختلفة عن الواقع أو العالم الاجتماعي ، مما أدى إلى ظهوره على اعتبار أنه أحد البدائل النظرية المعاصرة المطروحة في علم الاجتماع الغربي ، ويذهب " والاس " إلى أنه يمكن اعتبار المنظور الأثنوميثودولوجي على أنه بمثابة أحد الاتجاهات المعاصرة للتفاعلية الرمزية . وإذا كان المنظور الأثنوميثودولوجي قد استمد جذوره من التفاعلية الرمزية والفينومينولوجية ، إلا أن هذا المنظور كما يرى " ألفن جولدنر " يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاتجاهات النقدية التي شهدها علم الاجتماع في الستينات من القرن العشرين، وقد ظهر المنظور الأثنوميثودولوجي كأحد البدائل النظرية التي تتخذ موقفاً نقدياً من النظريات الاجتماعية التقليدية ، وخاصة من الاتجاه الوضعي في علم الاجتماع وامتداداته المعاصرة والرجوع إلى الفلسفة الظاهراتية أو فلسفة الظواهر .

ومن داخل هذا الإطار المتأثر بالتفاعلية الرمزية والفينومينولوجية والاتجاهات النقدية ، صاغ عالم الاجتماع الأمريكي " هارولد جارفينكل " مفهومه عن المنظور الأثنوميثودولوجي واستطاع جارفينكل تكوين مدرسة فكرية لتبني هذا المنظور الجديد في جماعة كاليفورنيا حيث كان يزاول مهنة التدريس في مدينة لوس أنجلوس ، ثم انتشر هذا المنظور حديثاً في باقي الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وغير ذلك من الدول[1].

المفاهيم الرئيسة في المنظور الأثنوميثودولوجي :

يتكون مصطلح Ethnomethodology من مقطعين ، يتكون المقطع الأول من الكلمة اليونانية Ethno والتي تعني الشعب أو الناس أو القبيلة أو السلالة ، أما المقطع الآخر methodology فيشير إلى المنهج أو الطريقة التي يستخدمها الناس في صياغة وتشكيل الحقيقة الاجتماعية ، مما يشير إلى أن المنظور الأثنوميثودولوجي يهتم أساساً بتطوير مناهج للبحث ، ويدفعنا إلى البحث عن هذه المناهج المستخدمة في الدراسات

---

[1] لطفي، طلعت، الزيات ، كمال (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٤٣-١٤٥.

الأثنوميثودولوجية . اعتبر "جارفينكل" أنه يوجد نظام أخلاقي عبارة عن بناء اجتماعي من القيم المعيارية ، ويمثل أسس التنظيم الاجتماعي ، وهو عنده يعتبر موضوع علم الاجتماع . واعتبر "جارفينكل" أن دوافع الفرد هي أن تكون متطابقة ومتوافقة مع النظام الأخلاقي عند تفسير الواقع الاجتماعي . وأن عملية التفسير العقلي تحدث في كل أنواع السلوك وأنه يمكن القول أن أي وضعية اجتماعية منظمة ذاتيا بمعنى أن كل المواقف الاجتماعية تنظم نفسها أي تكتسب لنفسها تنظيما من خلال محاولة أعضاء الموقف إضفاء المعقولية أثناء التفاعل . ومثل هذا التنظيم طالما أنه يحدث أثناء عملية التفاعل فهو ديناميكي[١].

عرف "جارفينكل" مصطلح "الأثنوميثودولوجي " على أنه يعني استقصاء الخصائص العقلية لمجموعة التعبيرات والأفعال العلمية التي تتم أثناء الحياة اليومية وبتعبير آخر ، يشير هذا المصطلح إلى دراسة المعاني التي يعطيها الناس لكلماتهم وأنماط سلوكهم . كما حدد جارفينكل المقصود بالاثنوميثودولوجيا بقوله : إن الدراسات الأثنوميثودولوجية تحلل أنشطة الحياة اليومية تحليلاً يكشف عن المعنى الكامن خلف هذه الأنشطة وتحاول أن تسجل هذه الأنشطة وتجعلها مرئية ومنطقية وصالحة لكل الأغراض العلمية . وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الطرق التي يسلكها أعضاء المجتمع خلال حياتهم اليومية ، لتكوين نوع من الألفة بالأحداث والوقائع . وبالإضافة إلى تحديد مفهوم " الاثنوميثودولوجي" نجد أن أصحاب هذا المنظور قد قاموا بتطوير بعض المفاهيم الأساسية مثل مفهوم " الفعل المنعكس " ومفهوم " البيئة" المرتبطة بالمعنى .

ويشير مفهوم الفعل المنعكس إلى أن كثيراً من أنماط التفاعل التي تحدث بين أعضاء المجتمع تهدف إلى المحافظة على رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية التي قاموا بتشكيلها في مواقف محددة ونجد أن كثيرا من أنماط التفاعل بين أعضاء المجتمع تعتبر أفعالاً منعكسة ، فالكلمات والإشارات والإيماءات التي نستخدمها أثناء عملية التفاعل تهدف إلى المحافظة على رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية ، ويستخدم في تشكيل وتفسير وإعطاء المعاني للعالم الاجتماعي .

---

[١] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق.

أما مفهوم البيئة المرتبطة بالمعنى ، فيشير إلى أن التفاعل المتبادل بين أعضاء المجتمع يتضمن معان تدركها عقولهم مباشرة ، وهي معانٍ تفوق دلالاتها ومغزاها ما قد تدل عليه إشارة أو كلمة أو عبارة في حديث تبادل بينهم ، ومن ثم فإن الإشارات أو الكلمات أو العبارات التي ترسل أو تستقبل أثناء عملية التفاعل بين أعضاء المجتمع يكون لها عدة معانٍ ترتبط بموقف معين أو بيئة أو ظروف معينة .

ومن خلال مفهومي " الفعل المنعكس " و " البيئة المرتبطة بالمعنى " حاول أصحاب المنظور الأثنوميثودولوجي التعرف على كيفية قيام أعضاء المجتمع باستخدام الإشارات والكلمات والعبارات في تشكيل العالم الاجتماعي الذي يعيشون فيه ، ونجد أن ممثلي هذا المنظور لم يتركز اهتمامهم حول التعرف على حقيقة اجتماعية معينة أو على محتويات هذا العالم الاجتماعي ، بل حول المناهج أو الطرق التي يستخدمها أعضاء المجتمع لتشكيل رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية والمحافظة عليها ، أو تغييرها ، ومن ثم يهتم المنظور الأثنوميثودولوجي بالكشف عن الطرائق أو أساليب الناس أو الشعب في التعبير عن أنشطتهم وتوصيلها للآخرين ، والكشف عن الإجراءات التي يستخدمها أعضاء المجتمع في تشكيل وتفسير وإعطاء المعاني لعالمهم الاجتماعي[1] .

تصور الواقع الاجتماعي:

على الرغم من أن المنظور الأثنوميثودولوجي يعتبر أحد الاتجاهات المعاصرة للتفاعلية الرمزية ، إلا أن هذا المنظور يعتبر منظورا مختلفا تماما عن غيره من النظريات الأخرى التي تشكل الاتجاه التفاعلي ، إذ يهتم هذا المنظور بتحليل الطرق التي يتحدث بها أعضاء المجتمع إلى بعضهم البعض في الحياة اليومية بحيث يظهر هؤلاء الأعضاء على أنهم كائنات عقلانية توجه سلوكهم مناهج عقلية رشيدة . وعلى سبيل المثال يهتم المنظور الأثنوميثودولوجي بالطرق التي يتبعها أعضاء المجتمع لإقناع بعضهم البعض بأن أحد الأفراد يكون أو لا يكون منحرفاً ويفترض أصحاب المنظور الأثنوميثودولوجي أن النظام الاجتماعي العام يتم بالمحافظة عليه عن طريق استخدام أعضاء المجتمع لعدة طرق وإجراءات منهجية تجعلهم يشعرون بالحقيقة الاجتماعية الخارجية أو النظام

---

[1] لطفي، طلعت ، الزيات، كمال (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٤٥-١٤٩.

الاجتماعي العام ، أي أن اتفاق أعضاء المجتمع على مجموعة عامة من الطرق أو الإجراءات هو الذي يشكل معنى الواقع الاجتماعي بوجه عام . لذلك لا بد من دراسة الطرق والإجراءات المعقدة التي يتخذها أعضاء المجتمع بشكل شعوري أو لا شعوري من أجل تشكيل الواقع الاجتماعي .

ويرى أصحاب هذا المنظور أنه يجب إثارة التساؤلات حول الأبنية الاجتماعية القائمة فكثيرا من القواعد والمعايير الاجتماعية ليست معروفة بشكل واضح لأعضاء المجتمع ، ومع ذلك فهي تستخدم كأشياء مسلم بها ، ومن ثم لا بد من إثارة بعض التساؤلات التي تكشف عن الطرق والإجراءات التي يستخدمها أعضاء المجتمع لجعل أفعالهم وأهدافهم وخبراتهم الماضية قابلة للتفسير والفهم من قبل الأعضاء الآخرين في المجتمع .

ويهدف المنظور الأثنوميثودولوجي إلى وصف كيفية قيام أعضاء المجتمع أثناء تفاعلهم في الحياة اليومية بصياغة المفاهيم حول المواقف المختلفة وكيفية قيامهم بتشكيل الحقيقة الاجتماعية ، ويرى أصحاب هذا المنظور أن تشكيل الحقيقة الاجتماعية تعد عملية مستمرة من التفسير ، وذلك نظرا لأن موافقة أعضاء المجتمع حول تعريف مواقف الحياة تعد عملية متغيرة (ديناميكية) وغير ثابتة ومن ثم فإن أصحاب المنظور الأثنوميثودولوجي يضيفون إلى الاتجاهات النظرية الأساسية في علم الاجتماع واهتمامهم بدراسة التغير الاجتماعي على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغيرة النطاق .

ويتضح مما سبق أن المنظور الأثنوميثودولوجي يؤكد أن الواقع الاجتماعي في حالة تغير دائم وأنه يمكن دراسة هذا التغير على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى دون الوحدات الكبرى ونجد أن هذا المنظور يحث الأفراد على تغيير ذواتهم بدلاً من تغيير النظام الاجتماعي القائم.

المناهج المستخدمة في الدراسات الأثنوميثودولوجية :

يتضح مما سبق أن مصطلح الاثنوميثودولوجي يشير إلى المناهج الشعبية أو الطرق التي تستخدمها الجماعة في صياغة وتشكيل الحقيقة الاجتماعية في حياتهم اليومية، لذلك يرى الباحث ضرورة توضيح المناهج المستخدمة في الدراسات

الأثنوميثودولوجية وفي هذا الصدد نجد أن جارد فنكل وزملاءه من الباحثين قد قاموا بإجراء بعض الدراسات الإمبيريقية التي تكشف عن المناهج المختلفة التي يمكن أن تكشف عن المناهج المختلفة التي يمكن أن يستعين بها الباحث الأثنوميثودولوجي لكي ينفذ إلى مواقف الحياة اليومية ويتعرف على أفكار وقواعد سلوك المبحوث .

وقد انتقد أصحاب المنظور الأثنوميثودولوجي طرق وأدوات البحث المستخدمة حاليا في علم الاجتماع مثل المسح الاجتماعي والمقابلات ، كما رفضوا استخدام صحيفة الاستبيان كوسيلة لجمع البيانات الكمية التي تتطلبها الدراسات الاثنوميثودولوجية ، وذلك على أساس أن مثل هذه الأساليب الكمية تفصل بين الباحث و موضوع دراسته ، وتتضمن معرفة سابقة بالواقع يفرضها الباحث فرضاً على أداة بحثه ، بالإضافة إلى أن موقف التفاعل بين الباحث والمبحوث يؤثر على حجم نوعية البيانات التي يتم الحصول عليها.

ولكي يتعرف الباحث الاثنوميثودولوجي على أفكار وقواعد سلوك المبحوث دون أي تدخل من طرق الباحث، يرى أصحاب هذا المنظور أنه يمكن استخدام طريقة الملاحظة بالمشاركة، كما يستخدمها أصحاب منظور التفاعلية الرمزية، وذلك بالإضافة إلى استخدام بعض المناهج مثل ذلك (المنهج شبه التجريبي) الذي يطلق عليه (التجربة الاثنوميثودولوجية) والمنهج الآخر الذي يطلق عليه جارفينكل (المنهج التوثيقي) وهو المنهج الذي يستخدمه كل من الباحث والأفراد العاديين في تفسير سلوكهم أثناء تفاعلهم في المواقف المختلفة للحياة اليومية .

وهذه المناهج التي يستخدمها المنظور الأثنوميثودولوجي في دراساته تشير إلى أنه يعتبر متحيزاً للأسلوب الكيفي . كما أن هذا المنظور يختلف عن النظريات التقليدية في علم الاجتماع من حيث أنه لا يهدف أساساً إلى تفسير السلوك البشري والتعرف على حقيقة اجتماعية معينة بل إنه يهتم أساساً بالكشف عن المنهج أو الطرق التي يستخدمها الناس في تشكيل الواقع الاجتماعي والمحافظة عليه مما يشير إلى أن المنظور الأثنوميثودولوجي قد ساهم في تطور مناهج البحث أكثر مما ساهم في تطور نظرية علم الاجتماع المعاصرة[1].

---

[1] لطفي، طلعت ، الزيات، كمال (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٤٥-١٥٦.

ويمكن أن نتلمس المضمون الأيديولوجي لهذا الاتجاه من خلال المسلمات التي ينطلق منها وهي:

- إنه يصور الواقع الاجتماعي على أنه مجرد المعاني والخبرات الفردية المشتركة ويهمل تمامًا الأساس الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع.

- يجعل وحدة تحليل البناء الاجتماعي أفكار الأفراد.

- يسلم بثبات البناء الاجتماعي.

- يجعل الإنسان عاجزًا حيال هذا الواقع ويدعوه إلى التأمل في ذاته واكتشافها وتغييرها بدلاً من دعوته لتغيير واقعه الاجتماعي.

ويرى نعيم (١٩٨١) أن هذا الاتجاه قد فشل في إقامة نظرية بديلة لأنه يركز على الخبرات والمعاني المشتركة بين الأفراد في المجتمع بوصفها أساسًا للحياة الاجتماعية وبإهمال الاختلافات والصراعات الواقعية داخل المجتمع ويتعارض ذلك تمام التعارض مع التحليل العلمي الواقعي الذي يبين بالأدلة القاطعة أن العالم تمزقه الصراعات على كافة المستويات وأن القدر المتاح من المعاني والخبرات المشتركة بين الأفراد في المجتمع الواحد أو في مجتمعات العالم أقل بكثير من الاختلافات والصراعات فهناك صراعات عديدة بين (الشباب والشيوخ) (والنساء والرجال) (الأميون والمتعلمون) (أصحاب السلطة والقوة والخاضعين لهم) (دعاة السلام ودعاة الحرب) (الاشتراكية والرأسمالية) (العالم الثالث والبلدان المتقدمة) أي أن المسلمة الأساسية التي تنهض عليها التحليلات الفينومينولوجية عن طبيعة الواقع الاجتماعي (الخبرات الفكرية المشتركة) لا تدعمها الأدلة الإمبيريقية بل هناك أدلة تنفيها.

- تجاهل أصحاب الاتجاه الفينومينولوجي مسألة الصراع الطبقي العنيف في مجتمعاتهم ورفضوا حتى أن يروه أو يشيروا إليه على الرغم من أنه كان يفرض نفسه على الجميع.

- كما أنهم تجاهلوا الواقع الاجتماعي الاقتصادي للجميع ودرسوا الخبرة اليومية وأسلوب التفكير كما لو كان منفصلين عن الواقع ولا يتأثران به.

- تحول علم الاجتماع الفينومينولوجي إلى دراسة ميكروسوسيولوجية (أي دراسات اجتماعية للوحدات الصغيرة وليس للبناء الاجتماعي) تركز أساسًا على

الخصائص الكلية للأفعال والمعانِي الشائعة مما يؤدي إلى قصر اهتمام علم الاجتماع على دراسة ذلك الحيز المحدود من الحياة كما لو كان منعزلاً تمامًا عن كل ما يحيط به.

- يشترك الاتجاه الفينومينولوجي مع الاتجاه الوظيفي وخاصة عند "بارسونز" في إنه كان يعانِي من تضخم لفظي يتزايد باستمرار كما أنه يتصف بقدرة على وصف مجموعة من الحقائق البديهية التي نعرفها جميعًا سويًا دون أن يضيف إلى معرفتنا شيئًا جديدًا[1].

تقييم المنظور الأثنوميثودولوجي :

واجه هذا المنظور العديد من الآراء الناقدة لما حمله من أفكار ، حيث يرى عالم الاجتماع الأمريكي "آلفن جولدنر" أن "جارفينكل" يقدم بفكره بديلاً للعنف في مقاومة الوضع القائم في المجتمع الأمريكي، ذلك أنه يدعو إلى نوع من الفوضوية قد يروق للشباب الساخط على النظام الاجتماعي، فالمنهجية الشعوبية دعوة إلى تغيير الذات بدلاً من تغيير النظام أو هو مواجهة فردية صغيرة ومقاومة غير عنيفة للوضع القائم لا تزيد عن كونها تمرداً رمزياً يستجيب لمشاعر الشباب حتى لا يعبروا عنها بالثورة أو العنف[2].

ويشير حجازي (١٩٨٨) إلى أن هناك عدة ملاحظات يمكن أن توجه لهذه النظرية وهي :

١- تعتبر المنهجية الشعوبية وجهة نظر أكثر منها نظرية، خاصة أنها تكشف عن كثير من الثغرات النظرية من حيث إفراطها في تبسيط الحقيقة الاجتماعية.

٢- نقطة أخرى وهامة وهي أن جارفينكل أهمل المحتوى البنائي الذي فيه تنبعث عملية الترشيد، مثل تأثير خصائص الجماعات المختلفة في هذه العملية.

٣- جعل جارفينكل من كل نواحي النسق الاجتماعي وظيفة لعملية التطابق والترشيد وفي هذا إفراط في تبسيط ما هو مركب ومعقد ويبدو أن هذه مشكلة دراسات الوحدات الصغرى عندما تتزايد في التصغير[3].

---

[1] نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق.

[2] نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص ٢٤٩.

[3] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٢٢٢.

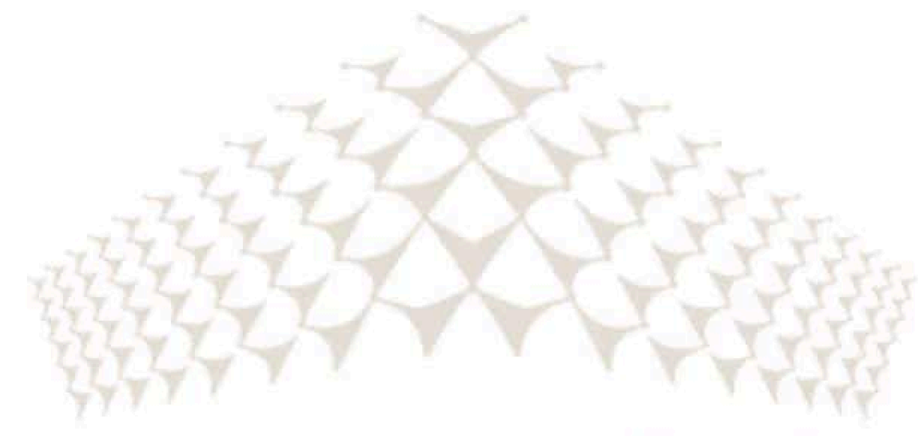
وفي تقييمه لهذا المنظور يقول نعيم (١٩٨١): " لا بد أن أعترف هنا للقارئ أنني كنت أكن احتراماً للفلسفة الفينومينولوجية وللاستفادة منها في فهم الواقع الاجتماعي ... وظللت أحاول أن ألم بما قدمه جارفينكل من إسهام ولكنني اكتشفت أن كل ما كتبه وما كتب عنه لا يمكن أن يزيد عن سطور قليلة مكررة بعشرات الصيغ ومدعمة بعشرات الأمثلة التوضيحية وندمت ندماً شديداً على الوقت الذي أنفقته في هذه القراءة، ولكن خفف من حدة ندمي أن زال سحر التسمية من عقلي ولم أعد أجهل المضمون الفارغ لهذه البدعة النظرية وقوي اعتقادي بأن هناك جهداً مقصوداً لشغل طلاب الاجتماع والمثقفين بأفكار جديدة ينفقون وقتاً هائلاً في محاولة فهمها ثم مناقشتها ونقدها ورفضها وما إن ينتهوا من ذلك حتى تفرض عليهم أخرى وهكذا لا يلتفتون إلى القضايا الأساسية للمجتمع ولا يصلون إلى فهم علمي حقيقي له ، ورأيت من واجبي أن أقدم هذه الصورة من الأفكار للقارئ العربي حتى يستفيد منها درساً وحتى لا ترهبه الأسماء الكبيرة أو التسميات البراقة التي تتخفى وراء ستار علمي "[١].

ربما هذا يعيدنا للظروف التاريخية التي ترافقت مع نشأة هاتين الفلسفتين (الظاهراتية والمنهجية الشعبية) وكيف كانت كرد فعل على عدم ملاءمة قيم المجتمع الرأسمالي الصناعي ويرى عالم الاجتماع البريطاني باري سمارت أن تشجيع المؤسسات العلمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية لهذا النوع من الدراسات إنما يرجع إلى أن جارفينكل ومنهجه الشعوبي يركز الاهتمام على مواقف الحياة اليومية وكيفية تصور الناس لها بحيث يصرف الاهتمام تماماً عن أي شيء يتصل بالبناء الاجتماعي وعن أزمات هذا البناء ، فهو يقدم علم اجتماع محور اهتمامه هو الكلام والكلام عن الكلام بدلاً من الاهتمام بطبيعة ما يفعله الناس وبالعلاقة الجدلية بين الفكر والواقع [٢].

---

[١] نعيم ، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص٢٤٧.

[٢] نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص ٢٤٨.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

الفصل السادس
النظرية التبادلية

أولاً- مدخل إلى النظرية التبادلية.

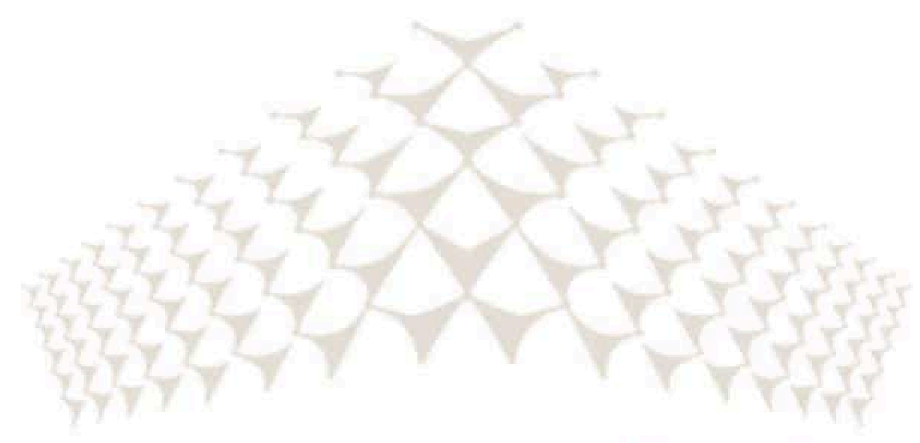
ثانياً- بيتر بلاو.

ثالثاً- جورج هومنز.

رابعاً- ريتشارد أميرسون.

أولاً- مدخل إلى النظرية التبادلية:

- القضايا الرئيسة للنظرية التبادلية.
- مفاهيم النظرية التبادلية.
- بعض القواعد والأسس التنظيرية في التبادل الاجتماعي.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

الفصل السادس

النظرية التبادلية Exchange theory

أولاً- مدخل إلى النظرية التبادلية:

يعد "بيرت بلاو وجورج هومانز " من رواد النظرية التبادلية أو نظرية "الاختبار العقلاني" التي تشير إلى ميل الأفراد للحصول على أكبر قدر من تحقيق المصالح الشخصية أثناء تفاعلاتهم الاجتماعية مع الآخرين إذ يقوم التفاعل على أساس نفعي فيحسب كل طرف مقدار الفائدة التي يحصل عليها من هذا التفاعل أي أن الافتراض الأساس هنا هو أن كل شخص في أي تبادل فعلي يسعى لتحقيق أقصى فائدة وفي الوقت نفسه يقلل من التكلفة إلى أدنى حد وليس شرطاً أن يكون العيار الذي يقام عليه الأخذ والعطاء معياراً مادياً بل يدخل ضمنه العديد من المتغيرات الاجتماعية والنفسية.

وبالتالي المنطلق الأساس للنظرية التبادلية يتمثل في أن البشر يمارسون سلوكاً، يجلب لهم منافع ويشبع لديهم حاجات، أو أن موضوع بحثها الرئيس يتمحور حول السلوك الفعلي أو التفاعل بين الأشخاص. وهو ما يعني أن تبادل النشاطات الإنسانية يتم في ضوء " المكافأة والتكلفة "[1]. وأن تلك النشاطات تفسر من خلال المقارنة بين تكلفة أفعال معينة، والمكاسب التي تتحقق من ورائها بالنسبة للفاعل، ما يبين أن هذا التفاعل المجتمعي وفق رؤية النظرية التبادلية هو تبادل للمنافع والخدمات. بحيث يحاول كل فاعل من خلاله أن يختزل التكاليف ويعظم من المنفعة والأرباح[2].

القضايا الرئيسة للنظرية التبادلية :

١ـ يتطلع البشر في علاقاتهم الاجتماعية إلى تجنب السلوك المكلف الذي لا يعود بالفائدة عليهم ويتأسس التبادل وفقاً لذلك على أساس حساب التكلفة والعائد.

---

[1] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص١١١ .

[2] إرفنج زايلتن (١٩٩٧). النظرية المعاصرة في علم الاجتماع. عمان: دار الشروق، ص١١٨-١١٩.

٢ـ السلوك البشري يتم من خلال المقارنة بين البدائل المختلفة تبعاً لمبدأ التكلفة والعائد ومن ثم الحياة الاجتماعية تعد سلسلة مختلفة من الاختيارات ويفهم التفاعل بين الناس تبعاً لذلك على أساس التبادل الذي يكون محدداً في العلاقات التجارية وغير واضح الحدود في علاقات الصداقة.

٣ـ التبادل لا يقتصر على الجانب الاقتصادي فقط وإنما يرتبط بالجوانب النفسية والاجتماعية فتسير الحياة وفق سلسلة من التبادل تزيد وتنقص من مخزون الأفراد أو الجماعات من القوة أو الصيت ويتم التبادل وفق قيم المجتمع ومعاييره فينتج عنه ما يطلق عليه التبادلية المعممة. وتعني أن الفرد عندما يقدم على مساعدة الآخرين يأمل في أن يصل على مثلها عندما يحتاجها وهي نظرية تقوم على تفسير السلوك التفاعلي بين الأفراد وكذلك تفسير عمليات الجماعة[1].

مفاهيم النظرية التبادلية:

١- مفهوم الكسب: ويعني التعادل الذي يعيشه الفرد بين المكافأة والتكلفة والمكافأة يقصد بها النتائج المرغوبة والتكلفة هي الجهد المبذول.

٢- علاقة وتفاعل الأفراد ببعضهم البعض : ويقصد به أن كل فرد من الأفراد يمارس السلوك في ظل وجود الآخر. ففي كل حالة تحددها على أنها حالة لا بد وأن توجد على الأقل إمكانية أن تؤثر أفعال كل شخص في الشخص الآخر .

٣- المتتالية السلوكية Behavior Sequence: فقد اختيرت كوحدة لتحليل السلوك فكل متتالية سلوكية إنما تتكون من عدد من الأفعال الحركية واللفظية المنظمة بشكل متتال وموجهة نحو أحد الأهداف المباشرة.

٤- الذخيرة السلوكية Behavior Repertoire: ويشير المصطلح إلى كل المتتاليات السلوكية[2].

---

[1] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٧٣-١٨٠. وانظر أيضا: أبو طاحون، عدلي (ب د). مرجع سابق، ص ٤٣٠-٤٤٦.

[2] العرابي، حكمت (١٩٩١). مرجع سابق، ص ١٧٣-١٨٠. وانظر أيضا: أبو طاحون، عدلي (ب د). مرجع سابق، ص ٤٣٠-٤٤٦.

بعض القواعد والأسس التنظيرية في التبادل الاجتماعي:

١-ما هو مكلف بالنسبة لفرد معين قد لا يكون كذلك بالنسبة لفرد آخر. وما هو غير مكلف لفرد معين قد لا يكون كذلك بالنسبة لفرد آخر مشترك معه في علاقة تبادلية.

٢-ما هو نافع لفرد قد يكون غير ذلك لفرد آخر. وما هو نافع لفرد معين قد يكون نافعاً لفرداً آخر مشترك معه في علاقة تبادلية.

٣-قد يكون النشاط التبادلي ذا كلفة ومنفعة لفرد فيما يكون أكثر من ذلك لفرد آخر. وقد يكون النشاط المتبادل ذا كلفة ومنفعة عالية لفرد، بينما يكون أقل من ذلك بالنسبة لفرد آخر مشترك معه في علاقة تبادلية[1].

كما يستخدم علماء الجماعات وديناميتها نظرية لتفسير العلاقات التبادلية بين الجماعات على مستوى نسقي صغير كالمدارس والفصول الدراسية ومؤسسات العمل وغيرها. والتي تعرف بنظرية التوجه للعلاقات الأساسية بين الأشخاص Fundamental Interpersonal Relationship . تهدف هذه النظرية إلى تفسير سلوك العلاقات بين الأشخاص في ظهور التوجهات نحو الآخرين. وتتضمن هذه النظرية محورين هما:

١ـ الحاجات وهي : التضمين والتحكم والوجدان.

٢ـ أنماط التفاعل: ويتضمن التآلفات التالية : التآلف التناوبي والتآلف التكاملي والتآلف التبادلي.

٣ـ الحاجات: وتوجد هذه الحاجات في مرحلة الطفولة وهي :

أـ التضمين : ويشير إلى الحاجة إلى الارتباط بالآخرين وهي على اتصال ما بين الود والاستحواذ.

ب ـ التحكم : ويشير إلى عملية اتخاذ القرار وتتباين هذه الحاجة على متصل ما بين الرغبة من السيطرة على الآخرين والرغبة في الخضوع لهم.

ج ـ الوجدان : ويشير إلى المشاعر والانفعالات الشخصية القوية بين شخصين وتتمثل على متصل الحب والكراهية .

---

[1] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

٢ـ أنماط التفاعل : يعد نمط التفاعل المتميز الذي يكشف عنه الفرد بالنسبة لكل حاجة من حاجاته بمنزلة النتيجة المترتبة على الأسلوب الذي عامله به والداه أو الراشدون الآخرون كما يعد كذلك بمنزلة النتيجة المترتبة على الطريقة التي استجاب بها لهذا السلوك وقد تكون أنماط التفاعل بين أي فردين متآلفة أو غير متآلفة[١].

وقد حدد شتز Schutz, W.C والذي ساهم في صياغة هذه النظرية عام ١٩٥٥م. وتعديلها عامي (١٩٥٨م و عام ١٩٦١م)، ثلاثة أنماط من التآلف مقابل عدم التآلف على النحو التالي :

أـ التآلف التناوبي: ويعتمد على درجة الاتفاق بين المكونين للعلاقة فيما يتصل بحجم التبادل المرغوب .

ب ـ التآلف التكاملي: ويعتمد على الدرجة التي تتسق بها الأنشطة التي يبدؤها شخص ما مع حاجات شخص آخر يكونان فيما بينهما ثنائياً.

ج ـ التآلف التبادلي: ويعتمد على درجة التوافق أو الانسجام بين سلوك كل شخص واحتياجات الشخص الآخر[٢].

---

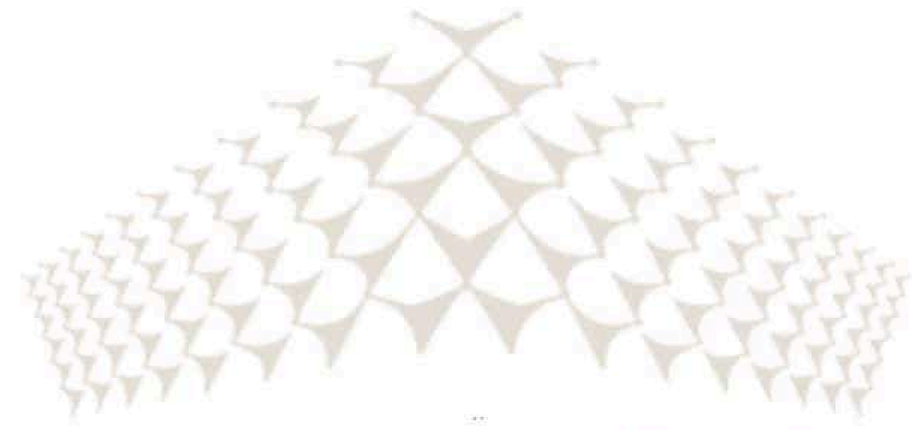
[١] Charles, H, Powers (2010). Making Sense Of Social Theory. U K: Littlefield Peblishers, INC. P211-216 .

[٢] مارفن، شو (١٩٩٦). ديناميات الجماعة. ترجمة مصري حذورة، محي الدين أحمد ، القاهرة: دار المعارف، ص ٤٤- ٤٩.



ثانياً- بيتر بلاو : القوة والتبادل :

- حياته.
- بناء دافع السلوك التبادلي.
- المفاهيم التي تقوم عليه نظرية بيتر بلاو للتبادل الاجتماعي.
- قضايا نظرية التبادل الاجتماعي .
- الأصول العلمية لمفاهيم بيتر بلاو.
- الاختلاف بين التبادل الاقتصادي والاجتماعي .
- التبادل والقوة.
- مفهوم القيم.
- البناء الاجتماعي.
- مفهوم التمأسس.
- أسس عملية التبادل في الحياة الاجتماعية .


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

ثانياً- بيتر بلاو : القوة والتبادل
: Peter Blau

حياته:

ولد بيتر بلاو في فيينا عام ١٩١٨م. وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٣م. ونال درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٠م في دراسة حول التنظيمات الرسمية. ويعد أحد أهم علماء النظرية التبادلية. وكان من أهم مؤلفاته "ديناميكية البيروقراطية" عام ١٩٥٥م، وكتاب " التبادل والقوة في الحياة الاجتماعية" عام ١٩٦٤م، وكتاب " البناء المهني الأمريكي" عام ١٩٦٨م، وكتاب "بناء المنظمات" عام ١٩٧١م. وكتاب " خرافة Fable" عام ١٩٨٠م.[١]. وقد أصبح " بلاو" في طليعة المنظرين الاجتماعيين. رأس الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع (١٩٧٣-١٩٧٣). ومنذ عام ١٩٧٠م عمل أستاذاً في جامعة كولومبيا. ومنذ عام ١٩٧٩م حصل على لقب أستاذ جامعي متميز.

بناء دافع السلوك التبادلي:

يعتبر " بيتر بلاو" دافع سلوك الفرد الرئيس في تفاعله وعلاقته مع الآخر، هو التبادل المادي أو المعنوي، والذي حدد له أربعة مراحل، هي:

١-التعامل اليومي بين الأفراد في الحياة الاجتماعية.
٢-الذي يؤدي إلى بروز اختلاف في مكانات الأفراد ونفوذها.
٣-الذي يكتشف من تسلسلها المنظم ومشروعيتها.
٤-التي تقوم على بذر بذور الاختلاف والتغيير الاجتماعي[٢].

أي أنه من خلال التعامل في الحياة اليومية تتضح المكانات الاجتماعية التي تمايز بين الأفراد، والتي في ضوئها تظهر الفروق جراء تلك التعاملات والتفاعلات. إذ أنه من

---

[١] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٢٢٣. عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص٢٣٤.

[٢] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

خلال ذلك تتبين أوضاع الأفراد في العملية التبادلية. حيث يتبين الأفراد الذين يستطيعون أن يقدموا خدمة للآخرين، والأفراد الذين لهم مصادر أخرى في إشباع احتياجاتهم، وآخرين لا يطلبون مساعدة من آخرين على الرغم من حاجتهم لها. وأفراد يخضعون لآخرين كي يحصلوا على مكافأة لهم منهم.

وبالتالي يبنى السلوك التبادلي من خلال:

١-يدخل الفرد في نشاط اجتماعي معين متوقع الحصول على مكافأة منه.

٢-كلما قلت قيمة المكافأة من قبل الفرد لممارسة نشاط اجتماعي معين قل نشاطه التفاعلي.

٣-كلما زادت قيمة المكافأة المستلمة نتيجة نشاط قام به الفرد تجاه فرد آخر، أو حصل على مكافأة سابقة منه زاد نشاطه تجاهه بدرجة أكبر مما سبق.

٤-إذا حصل الفرد على فائدة أو منفعة في تفاعله مع الآخرين، أوجبه ذلك رد هذه الفائدة كدين لهم، لأنه التزام أدبي أخلاقي.

٥-يوطد السلوك المتبادل بين فردين علاقة مشتركة ويوجد عندهم رابطاً موحداً.

٦-إذا حصل انحراف تبادلي بين فردين سبق وأن تبادلا في مكافأتهما، مثل عدم إرجاع الالتزام المكافئ. فإن ذلك يولد موقفاً سلبياً من قبل الطرف الذي لم ترد له مكافأة. وهذا يعد اختراق لمعايير التبادل[1].

وهنا أشار "بيتر بلاو" إلى أنواع المكافآت التي ميزتها نظريته وهي :

١-فعلية أو جوهرية مثل الحب أو الإعجاب أو الاحترام.

٢-عرضية أو خارجية مثل النقود أو العمل الخدمي .

٣-هذا التنوع في تقديم المكافآت يكشف عن اختلاف نفوذ المتفاعلين ضمن علاقتهما فنجد الأفراد المتفاعلين ينقسمون إلى:

-أفراد لهم القدرة على إجبار أو إلزام الآخرين بتقديم المساعدة لهم.

---

[1] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

-أفراد يجدون مصادر أخرى عند الآخر المتعامل معه في إشباع حاجاتهم .
-أفراد يصمدون ولا يطلبون مساعدة الآخر على الرغم من احتياجهم لها .
-أفراد يقدمون أنواع من سلوك الاستجداء والمجاملة للحصول على المكافأة.

المفاهيم التي تقوم عليه نظرية بيتر بلاو للتبادل الاجتماعي:

يمكن تحديد أهم المفاهيم التي تقوم عليها نظرية " بيتر بلاو" للتبادل الاجتماعي:
١- فرد متأثر بدوافع الجاذبية الاجتماعية والمكافآت.
٢- عملية التبادل الاجتماعي ونشأة التمايز في القوة والمكانات.
٣- التنظيم والشرعية يؤديان إلى التوازن.
٤- الإحساس بالاستغلال يؤدي إلى عدم التوازن الذي يؤدي إلى التعارض والتغير.
٥- الجدل الناجم بين التبادل واللاتوزان يؤدي إلى الديناميكية الاجتماعية[1].

قضايا نظرية التبادل الاجتماعي :

أولا : قضية مبنية على أسس عقلانية : إذا توقع الفاعل أنه سيحصل على منافع كثيرة من فاعل أخر عندما يشترك معه في سلوك معين أو نشاط فإنه يتجه نحوه بشكل واضح أملا في اكتساب منافع كثيرة منه.

ثانيا : قضية مبنية على أسس تبادلية : عندما يتبادل فاعلان مكافآت بينهما يزداد التزامهما التبادلي في تبادلات مستقبلية ومع تكرار هذا الالتزام التبادلي وعلى مر الزمن تتأسس قاعدة تبادلية فيما بينهما توجه وترشد التبادلات القادمة . وإذا حصل اختراق لبنود التبادل وحصل انحراف فإن الطرف الذي انحرف يحصل على عقوبة لقاء عدم التزامه بالبنود.

ثالثا : قضية مبنية على أسس قانونية: معايير التبادل تتأسس على قواعد قانونية تكافئ الملتزم بها بمكافأة وتعاقب الخارج عنها بالحرمان من المكافأة .

---

(1) Charles, H, Powers (2010). Making Sense Of Social Theory. U K: Littlefield Peblishers, INC. P 217-219 .

رابعا : قضية مبنية على أسس المنفعة الجدية: كلما بالغ الفاعل في توقعاته حول مكافآت مرتقبة لقاء قيامه بعمل ما ، ولم يحصل عليها ، قلت قيمة عمله وضعف تحمسه في إنجاز القادم .

خامساً: قضية مبنية على أسس غير متوازنة : كلما زاد استقرار وتوازن الطرفين في تبادلهما كثرت علاقتهما التبادلية تباعاً، بينما تضحى علائق تبادلية.

الأصول العلمية لمفاهيم بيتر بلاو:

إن معظم المفاهيم التي يستخدمها " بيتر بلاو" في وصف نظرية التبادل الاجتماعي إنما هي مفاهيم مشتقة مباشرة من الاقتصاد وذلك مثل التكلفة والفائدة والاستثمار بل لقد ذهب بلاو إلى أبعد من مجرد استخدام المفاهيم حينما أخذ يسعى إلى اكتشاف قوانين يمكن أن تنطبق على المجال الاجتماعي وتدخل في صميم التفسير السوسيولوجي فإذا استطعنا أن نصوغ مجموعة من الافتراضات الأولية حول التبادل الاجتماعي تشبه افتراضات النظرية الاجتماعية.

وهكذا استخلص " بلاو" مناقشته لديناميات التغير والتوافق في الجماعات من النظرية الاقتصادية وخاصة من نظرية الأسعار فإذا كان رجال الاقتصاد ينادون ويستطيعون تفسير ارتفاع الأسعار وانخفاضها في ضوء الطلب والحاجة والسوق الاجتماعي الاقتصادي، فإن نظرية التبادل يجب عليها أن تصل إلى تحليل مماثل باستخدام مفاهيم اجتماعية إذ ربما يؤدي هذا العمل إلى نتائج مستنبطة من قوانين عامة وهناك محاولات عديدة تؤدي إلى محاولات اقتصادية في تفسير السلوك الفردي والجماعي وكان هدفه من ذلك تقديم معالجة نظرية منظمة لاستقرار الأنساق الجماعية محتفظاً بوجهة النظر الفردية. ومن ثم قد يكون قد حقق تقدما كبيراً في تفسير ما هو جماعي على أساس ما هو فردي[1].

الاختلاف بين التبادل الاقتصادي والاجتماعي :

يحدث التبادل الاقتصادي في السوق وبعيدا عن الالتزامات الشخصية أو عرفانا بالجميل أو الحصول على المزيد من الاعتبار الاجتماعي كما هو الحال في

---

[1] حجازي، محمد (١٩٨٨). مرجع سابق، ص ٢٢٦.

التبادل الاجتماعي. بالإضافة إلى ذلك التبادل الاقتصادي تتحدد فيه نوع وكم السلعة المتداولة حسب عقد مكتوب وهذا غير وارد في التبادل الاجتماعي فهذا الالتزام الرسمي في التبادل الاقتصادي يكون مبنيا على أساس الربح والفائدة والمنفعة المادية ويكون التعامل بعقلانية خاضعا لحساب الربح والخسارة يستخدم فيها التاجر أسلوب الشطارة والغلبة للحصول على مكاسب مادية متقلبة بتقلبات نشاط السوق بينما التعامل الاجتماعي تحدده معايير وقيم بطيئة التغير[1] .

التبادل والقوة:

لعل أهم إسهام قدمه " بيتر بلاو" لهذه النظرية قد تضمنه مؤلفه بعنوان (التبادل والقوة في الحياة الاجتماعية) والأهمية التي ينطوي عليها هذا الكتاب تتمثل في محاولته إضافة بعض الأمور الأخرى المهمة.

اهتم "بيتر بلاو" بالتبادل الاجتماعي الذي يعتبر التبادل الاقتصادي أحد جوانبه على مستوى البناء الاجتماعي باعتبار أن هذا البناء ذاته ينبثق عن أنماط التبادل ومن ثم يعالج مفاهيم النظام العام والشرعية والتعارض والقوة ومع ذلك فإن بلاو ينطلق من نفس مسلمات " هومانز وتيبوت وكيلي" والتي تزعم أنه من الملائم تناول البناء الاجتماعي من وجهة النظر الفردية ذلك أننا لسنا بحاجة إلى أية معلومات عن الجماعات في حد ذاتها لكي نستطيع تفسير السلوك أو النشاط الاجتماعي إذ إن التفسير في علم الاجتماع يمكن أن يكون تفسيراً صاعداً أي يبدأ من الوحدات الأصغر إلى الوحدات الأكبر وهذا يتلاءم تماماً مع الدراسات التبادلية الاجتماعية للبناء الاجتماعي.

لقد اهتم "بلاو" بفحص التفاعل المتبادل وأنماط المكافآت والتكاليف التي ينطوي عليها هذا التفاعل وهو يفترض أن الأشخاص يسعون إلى زيادة المكافآت وتقليل التكاليف لكن هناك بالضرورة حالات عدم توازن فبعض التبادلات السلوكية قد لا تنطوي على مكافأة بالنسبة لطرفي التبادل وحالات عدم التوازن هذه جذبت "بلاو" واعتبرها ذات أهمية خاصة في فهم بناء الجماعة والقوة الاجتماعية وربما يمكن تفسير ذلك في ضوء اهتمامات "بيتر بلاو" بالدراسات التنظيمية وبحوثه في ديناميات

[1] عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص ٣٢٥.

البيروقراطية والتنظيم ومن ثم المكانة الخاصة التي تحتلها الجماعات غير الرسمية في هذا المجال .

ويعتقد "بلاو" أن التحليل البنائي في علم الاجتماع هو بحث الترتيبات الخاصة بتنسيق الجهود من أجل تحقيق الأهداف الجمعية وهكذا كانت محاولة بلاو تتلخص في تفسير البناء من خلال التبادل غير المتوازن وأيضاً باستخدام مفهوم الشرعية فالبناءات الاجتماعية الشرعية هي تلك التي تنطوي على درجة عالية من تقبل المشاركين فيها واستمرار الشرعية دليل على دوام البناء وتطويره أما حينما يغلب الفساد على البناء بحيث تضعف قيمة الضوابط وتقل قدرتها على السيطرة على سلوك المشاركين فإن ذلك معناه أن هذا البناء قد فقد شرعيته من وجهة نظر الأعضاء ويعتقد بلاو أن هذه الأعضاء والقوى قد تكون مسئولة عن التغير البنائي وهكذا فإن البناءات الاجتماعية المستندة إلى التبادل قد تتطور وتنمو وقد تضعف أو تفقد شرعيتها وهذا بدوره إما أن يحقق مزيداً من الاستقرار الاجتماعي أو يؤدي إلى حدوث التغير .

ويؤكد "بلاو" أن نفس العمليات الاجتماعية الأساسية التي تميز علاقات المواجهة تظل قائمة على مستوى الوحدات الأكبر ويطلق بلاو على وحدات التفاعل المنبثقة عن المواجهات المباشرة مصطلح البناءات الصغرى وهو يعتبرها بناءات لأن المكافآت التي ينطوي عليها هذا اللون من التفاعل أنها تدعم القواعد المنظمة للعلاقات والسيطرة والقوة والضبط الشرعي وتقسيم المهام وأما كونها صغرى فذلك راجع على أنها على مستوى علاقة المواجهة المباشرة لكن عدد الأعضاء يزيد باستمرار بحيث نستطيع أن نتحدث عن المنظمات الرسمية والهيئات والبيروقراطيات وهذه التجمعات الكبرى تتألف بدورها من بناءات صغرى.

إن "بيتر بلاو" ينظر إلى التنظيم الاجتماعي للمجتمع باعتباره ينطوي على صلات متبادلة أو مجموعة علاقات متبادلة بين البناءات الكبرى تنشأ بفعل وسائل عديدة وهكذا يستخدم بلاو مفهوم التبادل الاجتماعي لتفسير كافة أنماط التجمع الاجتماعي فهو يعتبر التبادل الميكانيزم الرئيس في الحياة الاجتماعية أو الرئيس الذي تنهض عليه الطبيعة البشرية أو يمثل على الأقل جزءاً جوهرياً منها.

لكن أنماط التبادل التي تشهدها كافة البناءات الصغرى والكبرى لا يمكن أن تعمل عملها بدون القوة الاجتماعية Social Power وهذا هو المفهوم الأساس الآخر الذي استخدمه "بلاو" ويشير هذا المصطلح إلى الميكانيزمات التي تكمل ضبط سلوك الآخرين عن طريق الجزاءات السلبية، فمن الضروري أن يكون هناك عقاباً لكل من يخرق القواعد التي تستند إليها النظم الاجتماعية العامة التي صاغها أصحاب القوة [1].

مفهوم القيم:

لمفهوم القيم Values أهمية خاصة عند "بيتر بلاو" وهي تمثل مفهوماً نظرياً لأن الأفراد يشاركون في علاقات متبادلة في ضوء مجموعة من القيم، إذ إن الأفراد يمارسون مجموعة قيم لعملية تقييم للمكافآت والتكاليف التي سوف تنطوي عليه أنماط التبادل، هذا فضلاً عن أن الغايات أو الأهداف العامة التي تسعى المنظمات إلى إنجازها قد يكون لها أثراً تكاملياً فما هي إذاً نتائج ذلك كله بالنسبة للتضامن الاجتماعي؟.

إن المشاركة في قيم الجماعة قد يترتب عليها نتيجتان من وجهة نظر "بلاو" الأولى أن الاشتراك في القيم قد يكون دليلاً على التضامن بين المشتركين؛ والثانية أن نفس هذا الاشتراك في القيم الذي يؤدي إلى التكامل والالتزام قد يكون علامة على عدم التشابه إذا أخذنا في اعتبارنا الجماعات الأخرى التي تتبنى قيم اجتماعية مختلفة يؤدي إلى تمايز الجماعات بعضها عن بعض وهذا بدوره قد يؤدي إلى العداوة والفرقة وربما ينشأ عن ذلك أيضاً معضلات أمام الأفراد بمعنى أن الالتزام بقيم اجتماعية معينة قد يكون هو السبيل لتحقيق مكانة أعلى داخل الجماعة لكن قد يثير كراهية وربما عداوة أعضاء الجماعات الأخرى.

وعادة ما يؤدي ذلك إلى ظهور مشكلات الولاء والانتماء الجماعي في مقابل المصلحة الخاصة. ومع ذلك فإن بعض القيم العامة تقلل من حدة هذه التناقضات. مثال ذلك أننا إذا اعتبرنا أن النجاح الاقتصادي يمثل قيمة مقبولة للإنجاز الاجتماعي. فإن ذلك من شأنه أن يمنح البناء الاجتماعي قدراً من التماسك بل يمكن أن يكون معياراً للتفرقة نسبياً بين الأفراد الذين يحققون هذا النجاح وأولئك الذين لا يستطيعون تحقيقه

(1) Charles, H, Powers (2010). Making Sense Of Social Theory. U K: Littlefield Peblishers, INC. P 218-220 .

بنفس الدرجة. وفي ذلك نجد وجهاً للشبه بين القضية التي يثيرها "بلاو" وبين مفهوم نسق القيمة المحوري عند "بارسونز" الذي ينطوي أيضاً على عوامل تؤدي إلى التعارض وتكون مسئولة عن ضعف التضامن الاجتماعي وتحلله. وفضلاً عن ذلك كله فإن البناءات الكبرى تشهد عملية تعدد. أي توجد بناءات عديدة جنباً إلى جنب، كما ينتمي الأفراد إلى مجموعة بناءات في الوقت ذاته. وهذا التنوع في البناءات الكبرى يؤثر في درجة تماسك الكل.

البناء الاجتماعي:

يرى "بلاو" أن البناء الاجتماعي يتألف من أنساق مختلفة ومتباينة سماها بـ (الأبنية الفرعية) مثل البناء الفرعي السياسي والبناء الفرعي الاقتصادي وغيرها . ومن أجل استمرار الأبنية الفرعية في وجودها البنائي عليها أن تعزل التجمعات الاجتماعية عنها وهي :-

١- التجمعات الفئوية.

٢- التجمعات المحلية.

٣- التجمعات المنتظمة.

٤- الأنساق الاجتماعية.

التجمعات السابقة تعكس التكتلات العرقية والجنسية والعمرية المتحكمة في علاقات الأفراد بعضهم ببعض ... فالتجمعات المحلية تضم أسراً مترابطة عرقياً أو رسمياً أو اقتصاديا يعيشون على بقعة جغرافية. أما التجمعات المنتظمة فتضم اتحادات من الناس منتظمين اجتماعياً بشكل متميز . والتجمعات الفئوية تعكس تكتلاً فئوياً مبنياً على قاعدة طائفية أو اقتصادية أو عرقية بينما تمثل الأنساق الاجتماعية تجمعاً منتظماً داخل مؤسسة رسمية. هذه الأبنية الفرعية تمتلك أسس عملية التبادل الاجتماعي وتمتلك قيماً وسيطة تعمل على ربط الأفراد بعضهم ببعض فضلاً عن ذلك فهناك:-

١- عضوية مشتركة عند كل فرد بمعنى يمتلك العضو أكثر من عضوية واحدة لأكثر من بناء فرعي في آن واحد.

٢- للفرد حرية التحرك عن بناء فرعي إلى آخر .

٣- وله حرية التحرك ضمن البناء الاجتماعي الكبير .

مفهوم التمأسس:

يرى " بلاو" أن هذا المفهوم يمثل مجموعة معايير اجتماعية تعمل على ربط أفرادها ببنائها وتنظم علاقاتهم المتبادلة وتنشط عمليات التبادل لتكون منسجمة مع القواعد القانونية المانعة والسامحة لتكون شبكة من العلاقات المتبادلة في تفاعلاتها ومكافآتها وتوقعاتها بشرط :-

١- أن تقدم عطاء نافعاً لطرفي العلاقة التبادلية .

٢- أن يكون أعضاؤها متماثلين مع معايير المؤسسة الرسمية وخاضعين لتأثيرات القيم الوسطية ليكونوا جزءا من نسيج العلاقات المتبادلة.

٣- أن تتوفر مكافآت مجزية تحرك الأعضاء نحو التماثل والخضوع لمعايير المؤسسة لكي ينقلوها إلى الأجيال القادمة.

أما إذا حصل عدم خضوع من الأفراد لهذه المعايير والقيم فإن المؤسسة تمارس أساليب الإلزام أو الإكراه أو الإجبار لإلزامهم بها من أجل ربطهم بالمؤسسة وجعلهم جزءاً منها وفاعلين فيها[1].

أسس عملية التبادل في الحياة الاجتماعية :

في دراسة "بلاو" للتبادل الاجتماعي بين الأفراد أدرك احتمالية حصول الفرد على مكافأة من فرد آخر وسمى هذه المكافأة المحتملة بـ " الجاذبية الاجتماعية " .. عندئذ يقوم المدرك بهذه الجاذبية بممارسة سلوك ترغيبي أمام مالك الجاذبية لإقناعه أو ترغيبه بما يتمتع به من جاذبية بهدف التأثير عليه والحصول على مكافأة إذا تبادل معه التفاعل وحصل منه على مكافأته عندها سيقدم له مكافأة بديلاً للمكافأة المرتقبة أو التي سيستلمها .. وعند ذلك تحصل علاقة تبادلية بين فردين تملكان مصادر مختلفة في نوعها وكمها إلا أنهما تبادلا قيما معينة اتفقا على تداولها فيما بينهما.

[1] Blau, Peter (1960). A Therory Of Social Intergration. American Journal Of Socilolgy, (65), PP 454-556.

أنواع المكافآت بشكل عام:

يوضح بلاو أربعة أنواع من المكافآت بشكل عام :-

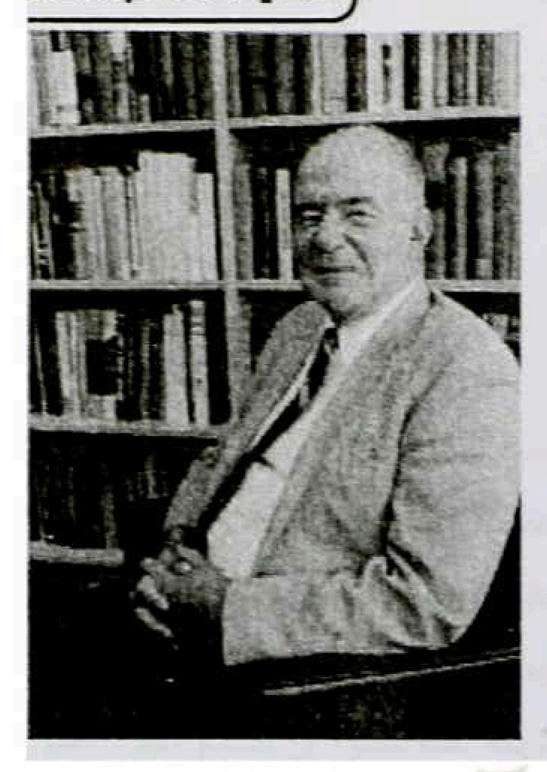
١- النقود: فمكافأة النقود في العلاقات التبادلية أقل قيمة لأن العلاقات الاجتماعية لا يمكن قياسها بالمال.

٢- القبول الاجتماعي: والقبول الاجتماعي مكافأة مناسبة وملائمة لبناء علاقة تبادلية لأنها وسيلة اجتماعية معنوية لا مادية و يمكن تداولها بين الأفراد من أجل تأسيس علاقة تبادلية.

٣- الاعتبار والاحترام الاجتماعي: يقدم الفرد خدمات إنسانية أو مساعدات يحصل بواسطتها على احترام اجتماعي من الآخرين فيمنحوه اعتباراً.

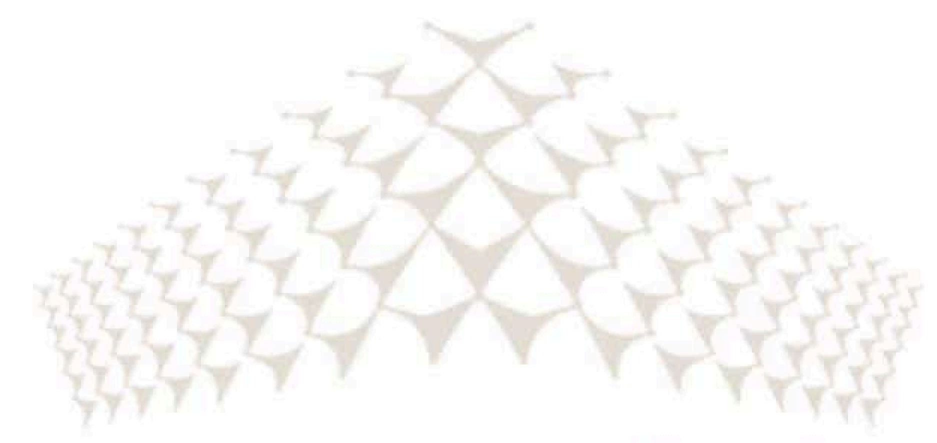
٤- التذمر أو التشكي: التذمر يعده بلاو قيمة عالية ومتميزة في العلاقات التبادلية على الرغم من كونها مكافأة سلبية لأنها تنتقد وتشتكي من الوضعية القائمة ومرد هذا التذمر هوا امتلاك الفرد نفوذاً متميزاً صادراً من قدرته على النقد أو التقويم أو التقييم أو تمتعه بقابلية تحمل جزاء الحرمان من استلام المكافأة أو تجميدها أو عدم أخذها في موعدها أي يدفع ثمن تذمره أو استيائه أو نقده أو غضبه[1] .

(1) Blau, Peter (1960). A Therory Of Social Intergration. American Journal Of Socilolgy, (65), PP 454-556.



ثانياً- جورج هومنز.

- حياته.
- ماهية التبادل.
- مواقع الجماعة الاجتماعية.
- افتراضات "هومنز" في عملية التبادل.
- الأسس والقواعد التنظيرية في التبادل الاجتماعي.
- العلاقات التبادلية.
- الظروف التي تخضع لها العلاقة التبادلية.
- الاستجابة للمكافآت.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

ثانياً- جورج هومنز
George C. Homans

حياته:

يعد جورج هومنز واحداً من أهم المنظرين في مجال التبادل. والذي سعى من خلاله إلى وضع نموذج لنظريته التي أطلق عليها (نظرية تبادلية استنباطية Deduetive Theory). والتي اعتمدت على العديد من نتائج البحوث الميدانية في مجال الجماعات والسلوك الاجتماعي[1]. بدأ عمله في علم الاجتماع عام ١٩٣٣م في جامعة هارفارد في قسم إدارة الأعمال. واهتم بدراسة المبادلات الاقتصادية وأثرها وعلاقتها بالتبادل الاجتماعي في المجتمع البدائي. كما أن له اهتمامات بعلم الاجتماع الثقافي. من مؤلفاته " الجماعة الإنسانية" عام ١٩٥٠م. وكتاب " النظرية المعاصرة في السوسيولوجيا" ١٩٦٤م. وكتاب " السلوك الاجتماعي".

ماهية التبادل:

يبدأ التبادل الاجتماعي عند " جورج هومنز" من تفاعل الأفراد التقابلي (وجهاً لوجه) عاكساً الأوجه النفسية والاقتصادية والاجتماعية لتكون قاعدة لعملية التبادل فيما بعد بين المتفاعلين قوامها أهداف وغايات اجتماعية كالسمعة والاعتبار والاحترام والتقدير والنفوذ الاجتماعي وليس المنفعة المادية الصرفة لأنها ليست دائماً هدف التبادل الاجتماعي.

ولأن الفرد داخل جماعته يشترك في عدة عمليات تبادلية مستمرة تستهدف القبول الاجتماعي من قبل أعضاء جماعته واحترامهم له الذي يزيد من اعتباره الاجتماعي ومكانته الاجتماعية وبدوره يكثف من تماثله الاجتماعي لقواعد جماعته. ويعد " هومنز" هذا القبول والاحترام والتماثل الاجتماعي مكافأة اجتماعية للفرد داخل جماعته.

مواقع الجماعة الاجتماعية:

تتألف الجماعة الاجتماعية من ثلاثة أنواع رئيسة من المواقع الاجتماعية هي- عليا، وسطى، دنيا، فالأفراد الذين يشغلون مواقع تدرجية عليا يحصلون على مكافآت

---

[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٤٩١.

اجتماعية كثيرة بسبب تماثلهم مع قيم وأهداف، جماعتهم، إذ كلما أدرك شاغلو هذا الموقع (العالي) أهمية المكافآت الاجتماعية التي سوف يحصلون عليها زادوا من مناشطهم الاجتماعية داخل جماعتهم، أي أنه كلما كان الموقع الذي يشغله الفرد عالي كلما زادت المكافآت الاجتماعية التي يحصل عليها.

أما الأفراد الذين يشغلون مواقع وسطى، فتكون آراؤهم وأحكامهم مختلفة عن شاغلي هذين الموقعين (العالي والمتدني). وحتى إذا كانت آراؤهم ومعتقداتهم وأحكامهم على صواب فإن ذلك لا يدفعهم إلى الحصول على مواقع عالية، بيد أنهم يحصلون على سمعة اجتماعية عالية، وهذا يعني أنهم لا يتمتعون بموقع اجتماعي حيوي ونشط وفعال متميز ومسموع داخل جماعتهم. لذا وجدهم " هومنز" ميالين إلى المحافظة على مواقعهم (الوسطى). أما إذا اتفق أصحاب المواقع الوسطى والدنيا في آرائهم وأحكامهم فإن ذلك لا يشير إلا إلى تماثلهم لأهداف الجماعة لا غير. إلا أنه عندما يكون أصحاب المواقع الدنيا على خطأ وبقية أفراد الجماعة على صواب فإنهم لا يخسرون شيئاً طالما ليس لديهم ما يفقدونه أكثر مما هم فاقدون لكنهم يحصلون على بعض الاحترام الشخصي من خلال احترامهم لأهداف الجماعة التي ينتمون إليها. بينما إذا كانوا على صواب فإنهم لا يحصلون على اعتبار اجتماعي عال، بيد أن تماثلهم لأهداف الجماعة يؤدي إلى فقدان استقلالهم الشخصي والاعتزاز برأيهم الخاص.

وعند تطبيق هذه الرؤية على المجتمع يقول "هومنز" : " كلما زاد الفرد من نشاطاته الاجتماعية (داخل المجتمع) زادت مكافآته الاجتماعية. وبالتالي تزداد نسبة نشاطاته الناجحة المؤهلة للمكافآت، ففي المجتمع الصناعي تزداد مناشط الفرد الاجتماعية وتقل في المجتمع الزراعي. لذلك يرى "هومنز" أن الرجل الصناعي تزداد مكانته وسمعته الاجتماعية من خلال ثروته ومساعديه في مكتبه واعتبر "هومنز" هذا مكافأة اجتماعية لنشاط الرجل الصناعي التي تعمل على زيادة مكانته وسمعته الاجتماعية في المجتمع [1].

[1] أبو طاحون، عدلي (ب د). مرجع سابق، ص ٤٣٠-٤٤٦. عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص ٢١٧-٢١٧.

افتراضات "هومنز" في عملية التبادل:

١-يؤدي تكرار التفاعل بين الأفراد وتواصله إلى زيادة المودة بين أطراف التفاعل.

٢-ترتبط زيادة المودة، بازدياد فرص التعبير عن هذا الشعور، من خلال النشاطات وعمليات التفاعل وزيادة أوجهها.

٣-كلما زاد التفاعل بين الأفراد، كلما زاد تماثل نشاطاتهم والمشاركة فيها، وزاد تعاطفهم.

٤-كلما علت مكانة الإنسان ، كلما زادت أوجه نشاطاته وفرص تفاعله ، وزاد عدد الذين يمكن أن يتفاعل معهم.

٥-كلما علت مكانة الإنسان، كلما زاد امتثاله لمعايير الجماعة.

٦-في حالة تساوي مكانات أطراف الجماعة، تزداد بسهولة هذه العملية، لعدم وجود سلطة لطرف على الآخر، بينما يتضمن تفاوت المكانات إمكانية علاقات تبادلية غير منسقة أو متساوية[1].

الأسس والقواعد التنظيرية في التبادل الاجتماعي:

١- أن ما هو مكلف بالنسبة لفرد معين قد لا يكون كذلك بالنسبة للفرد الآخر المشترك معه في علاقة تبادلية.

٢- أن ما هو غير مكلف لفرد معين قد لا يكون كذلك بالنسبة للفرد الآخر المشترك معه في علاقة تبادلية.

٣- أن ما هو نافع لفرد معين قد يكون غير ذلك لفرد آخر مشترك معه في علاقة تبادلية.

٤- أن ما هو غير نافع لفرد معين قد يكون نافعاً لفرد آخر مشترك معه في علاقة تبادلية.

٥- قد يكون النشاط المتبادل ذا كلفة ومنفعة عاليتين لفرد معين، بينما يكون أقل من ذلك بالنسبة لفرد آخر يشترك معه في علاقة تبادلية.

[1] عثمان، إبراهيم (٢٠٠٨). مرجع سابق، ص ٢١٨.

٦- قد يكون النشاط المتبادل ذا كلفة ومنفعة بسيطتين بالنسبة لفرد معين، بينما يكون أكثر من ذلك لفرد آخر مشترك معه في علاقة تبادلية.

٧- قد يكون النشاط المتبادل ذا كلفة بسيطة إنما منفعته كبيرة بالنسبة لفرد معين، إنما يكون ذا كلفة عالية ومنفعة قليلة عند فرد آخر يشترك معه في علاقة تبادلية.

٨- قد يكون النشاط المتبادل ذا كلفة كبيرة ومنفعة بسيطة بالنسبة لفرد معين، لكنه ذو كلفة أقل ومنفعة أكثر عند فرد آخر مشترك معه في علاقة تبادلية[١].

العلاقات التبادلية:

طرح " هومنز" بعض حالات العلاقة التبادلية وهي:

١- أن يقدم الفرد مكافأة من أجل الحصول على مكافأة بديلاً لها من قبل الطرف الآخر.

٢- إذا قام بسلوك عدائي تجاه شخص معين، فإنه يحصل على مكافأة لقاء ذلك من قبل الطرف الآخر المشترك معه في علاقة تبادلية.

٣- إذا قدم الفرد مكافأة لشخص معين، فإنه يحصل على سلوك عدائي لقاء ذلك من قبل الطرف الآخر المشترك معه في علاقة تبادلية.

٤- إذا قام فرد بسلوك عدائي لشخص معين، فإنه يحصل على سلوك عدائي بالمثل منه[٢].

الظروف التي تخضع لها العلاقة التبادلية وهي:

١- كمية المساعدة المقدمة من قبل الطرف الأول (في العلاقة التبادلية) للطرف الثاني خلال فترة زمنية محددة.

٢- كمية النشاطات البديلة التي يمنحها الآخرون للأشخاص المشتركين في العلاقة التبادلية.

٣- درجة القبول الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد خلال تبادله مع الآخر.

٤- قيمة القبول الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد خلال تبادله مع الآخر.

---

[١] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

[٢] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

٥- قيمة المناشط البديلة المستلمة خلال العلاقة المتبادلة.

علاوة على ما تقدم يضيف " هومنز" فيقول:" إن محفزات السلوك الإنساني هي درجة وقيمة وكمية المكافآت والعقوبة التي سوف يحصل عليها الفرد لقاء قيامه بها أو عدم ذلك".

وبالتالي كلما زادت قيمة مكافأة تقييم الفرد، زاد من نشاطه من أجل أن يحصل إلى مكافأة والعكس صحيح. لكن إذا كرر الفرد نفس السلوك في فترة زمنية أخرى، فإن قيمة المكافأة لا تكون عالية في تقييمه؛ لأنه سبق وأن حصل عليها. حتى قوة جاذبيتها للفرد فيمارس ذلك السلوك. إضافة إلى ذلك فإن قيمة المكافأة لا تبقي محافظة على درجتها وكميتها على مر الزمن. إذ قد تزداد أو تقل. وهذا بدوره يؤثر على جذب الفرد لممارسة سلوك معين.

ولأن الفرد في علاقاته التبادلية فإنه يقوم بنشاط معين لكي يحصل على اعتراف أو إعجاب أو قبول أو نفوذ اجتماعي. فالقبول الاجتماعي يلعب دوراً مهماً في تبادل التفاعلات والعلاقات كما تفعل النقود في عملية التبادل التجاري لكن وجه الاختلاف بينهما هو أن الفرد في العلاقات الاجتماعية لا يستطيع استخدام الاعتراف الاجتماعي كوسيلة للحصول على منافع أخرى في عمل آخر في أفراد آخرين كما تفعله النقود في المبادلة التجارية[1].

الاستجابة للمكافآت:

ميز " هومنز" بين نوعين من الاستجابة عند الفرد للمكافأة. ففي الحالات الاعتيادية يميل الفرد الذي استلم مكافأة إلى الفرد الذي قدم له أو منحه المكافأة إذ تتقارب وجهات نظرهما. أما إذا حصلت عقوبات، أي أن أحد الأفراد قام بفرض عقوبة على آخر فإن ذلك يؤدي إلى عدم توازن واستقرار العلاقة التبادلية بينهما حيث تحصل مواقف الابتعاد أو الهروب المؤقت بسبب حدوث الخسارة وهذا بدوره يؤدي بعدئذ إلى تبادل العداء بين الفردين المشتركين في العلاقة التبادلية التي قد تصل إلى علاقة صراعية بدلاً من تبادل المكافآت بشكل سليم. وفي هذه الحالة لا يجنيان شيئاً من

[1] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

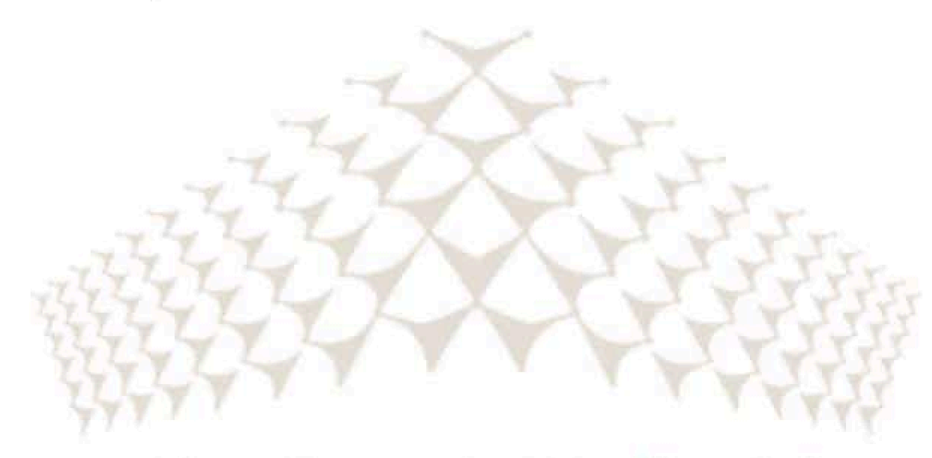
علاقتهما بل يكون أحدهما رابحاً والثاني خاسراً وهذه علاقة غير متكافئة إذ عندما يقول أحدهما للآخر إذا لم تعمل هذا العمل فسوف تدفع ثمنه. أي ستحصل على عقوبة جزاءً إلى عدم تأديتك لذلك أو لهروبك منه.

بالإضافة إلى ذلك فإن معرفة المكافأة أو العقوبة من قبل أحدهما يؤدي إلى معرفة كلفة التبادل الذي يعتمد على مفهوم البدائل الموجودة فعلاً أمام الفرد الأول. فترك البديل الأول يدفعه إلى الحصول على البديل الثاني وهذا يخضع لعامل الكلفة. إذ كلما كانت عالية بالنسبة للفرد ضعف ميله لممارسته أو امتنع عن أدائه. علاوة على ما سبق فإن المنفعة المتأتية من العلاقة التبادلية تتأثر بقيمة المكافأة وكلفة النشاط المراد قيامه، فقد تكون قيمة المكافأة عالية بالنسبة للفرد ، لكن بسبب صعوبة قيامه بالنشاط المراد، عندئذ يمتنع عن التبادل مع الفرد الآخر. أما إذا كانت العلاقة عكس ذلك، أي إذا كانت قيمة المكافأة أقل من كلفة النشاط الذي يجب أن يقوم به الفرد، فإن ذلك يدفعه للقيام بعلاقة تبادلية[1].

[1] أبو طاحون، عدلي، (ب د). مرجع سابق، ص ٤١٢- ٤٤٧.

رابعاً- ريتشارد إميرسون.

- حياته.
- المفاهيم التبادلية.
- التبادل المعنوي.
- الفرصة والعلاقات التبادلية.
- وحدة التبادل.
- مفهوم الاحتكار التبادلي الأحادي.
- قضايا نظرية التبادل الاجتماعي لدى إميرسون.
- قضايا متقدمة للتبادل الاجتماعي.



رابعاً- ريتشارد إميرسون
: Ritchard Emerson

حياته:

عالم اجتماع أمريكي معاصر ينتمي إلى الاتجاه التبادلي. وقد انضم إميرسون لقسم الاجتماع بجامعة واشنطن في الفترة من ١٩٦٤م وحتى وفاته عام ١٩٨٣م. قدم إضافات إلى النظرية التبادلية تكمل ما جاء به كل من جورج هومنز وبيتر بلاو. لكنه لم يبدأ في بناء نظريته من ملاحظات اجتماعية أو تأثره بفلسفة اجتماعية معينة أو نقده لنظريات غير تبادلية، بل وضع مفاهيم وانطلق منها لتوضيح أسس العلاقة التبادلية بين فردين أو أكثر. أسهم مع "كارن كوك Karen Cook " في تطور النظرية الاجتماعية التبادلية Social Exchange Theory. وقد لاقت دراستهم القبول في الأوساط العلمية. وأسهمت في تبلور الاتجاهات الحديثة في علم النفس الاجتماعي. مايز بين النظريات الاقتصادية والنظريات الاجتماعية للتبادل.

المفاهيم التبادلية:

١- الفاعل: الفرد أو وحدة اجتماعية يستلم تعزيزاً سلوكياً من محيطه الاجتماعي.

٢- التعزيز: امتداد المحيط بما يحتاجه الفاعل في تحقيق رضاه الاجتماعي وارتياحه السلوكي.

٣- السلوكيات : أفعال الفاعل ونشاطه ضمن محيطه.

٤- التبادل : سلوكيات يقوم بها فواعل يحصلون على تعزيز أو دعم من محيطهم الاجتماعي.

٥- القيمة: قوة تعزز السلوك الفردي المرتبط بسلوك الآخرين لتحصينه من الانحراف وحصوله على عقوبة اجتماعية.

٦- المكافأة: قيمة القيمة المرتبطة بنوع التعزيز المحيطي.

٧- البدائل : عدد المصادر المتاحة في محيط الفاعل القادرة على تعزيز سلوك الفاعل.

٨- الكلفة : كمية ونوعية المكافآت من نوع معين تسبق استلام مكافآت من نوع أخر.

٩- علاقة تبادلية : فرصة زمنية يتصرف الفاعل فيها حسب مؤثرات محيطية ينقلها إلى فاعل آخر ليحصل على مقابل لها منه.

١٠- الاعتماد أو التعويل: وضعية يكون فيها الفاعل مقرراً سلفاً اعتماداً على وظيفة فاعل آخر مرتبطة مع عدة بدائل للمكافآت وبسلوكيات معينة.

١١- التوازن : المستوى الذي يكون فيه الفاعل معتمداً على مكافآت الفاعل ب مساوية لاعتماد الفاعل ب على مكافآت الفاعل أ .

١٢- النفوذ: درجة إلزام فاعل فاعلاً آخر بتقديم منفعة له من خلال علاقته به.

١٣- المصادر : مكافأة يستطيع فاعل تداولها في علاقة تبادلية مع فاعل آخر[١].

الافتراضات الأساسية للتبادل:

١- أن الناس الذين تكون الأحداث نافعة لهم يميلون إلى التصرف بعقلانية حتى تقع تلك الأحداث.

٢- أن الناس في آخر الأمر يحققون إشباعاتهم كاملة مع الأحداث السلوكية حتى تصبح تلك الأحداث ذات فائدة ضعيفة.

٣- أن المنافع التي يجنيها الناس من خلال العمليات الاجتماعية تتوقف على المنافع التي يستطيعون إضافتها بالتبادل، وهذا يجعل تزرية التبادل تركز على تدفق المنافع من خلال التفاعل الاجتماعي[٢].

التبادل المعنوي:

وضع " إميرسون" بعض القواعد لتحليل التبادل المعنوي بين الأفراد، وهي على النحو الآتي:

---

[١] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

[٢] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٨٠.

١- معدل الاحترام المتبادل بينهما (سماه بمعدل المكافأة المتبادلة).

٢- أسلوب تقديم واستلام الاحترام بينهما (أي كيفية انتقال المكافأة المتبادلة).

٣- حركية علاقتهما بعد التبادل (أي هل ركدت أم استمرت بعد تبادل المكافآت بينهما).

٤- ما هو هدف المتبادلين بعد التبادل، وهل ستكون بمثابة صيغة أو قاعدة يسيران بموجبها فيما بعد.

٥- ما هي المؤثرات الاجتماعية التي تجعل علاقتهما متباينة أو مختلفة.

الفرصة والعلاقات التبادلية:

لا يهتم " إميرسون" بتحديد سبب أو أسباب وجود أو ظهور علاقة تبادلية؛ بل يرى أن " الفرصة" هي التي سنحت لهما بإقامة العلاقة التبادلية يقوم أحدهما بمبادرة تبادلية بهدف تحقيق أو إشباع حاجة يبتغيها من الطرف الآخر وهذا يتطلب منه تقديم مصدر لا يمتلكه الطرف الآخر أو شيء يحتاجه، بذات الوقت يتطلب من الآخر أن يعيد- على الأقل- قيمة ما استلم سواء كان من نفس المصدر أو ما يعوضه بمصدر لا يمتلكه الأول أو شيء يحتاجه. عندئذ تتشكل العلاقة التبادلية بينهما التي قد تتقدم خطوة أخرى وهي دراسة كل منها لنفوذ الآخر ومصادره من محيطه الاجتماعي. وإذا تم معرفة ذلك فاحتمال تكرار التبادل مرات عديدة وبأساليب جديدة أو قد تنقطع، وهنا يلعب نفوذهما دوراً في استمرار أو توقف علاقتهما.

ومن هنا طرح " إميرسون" قضية نظرية مفادها: " أن العلاقة التبادلية تتحول عبر الزمن من حالة عدم توازن إلى حالة توازن". وقد قدم "إميرسون" تفكيك أجزاء هذه القضية على النحو الآتي:

١- مكافأة ذات قيمة قليلة يقدمها الفاعل أ للفاعل ب.

٢- على الرغم من تعدد وتنوع البدائل المتاحة عند الفاعل أ عند تقديمه أحدهما إلى الفاعل ب.

٣- عندئذ يقدم الفاعل ب للفاعل أ مكافأة ذات قيمة عالية بالنسبة له وليس للفاعل أ .

٤- على الرغم من قلة البدائل المتاحة عند الفاعل ب الذي يريد تقديم مكافأة مرجعه إلى الفاعل.

٥- أي أن الفاعل أ يقدم مكافأة ذات قيمة قليلة إلى الفاعل ب على الرغم من امتلاكه (الفاعل أ) إمكانية مادية ومعنوية كبيرة يستطيع تقديمها إلى الفاعل ب.

٦- لكن بالمقابل يقوم الفاعل ب بتقديم مكافأة ذات قيمة عالية إلى الفاعل أ على الرغم من ضعف إمكانياته المادية والمعنوية، وذلك بسبب احتياج واعتماد الفاعل ب على الفاعل أ ، أي لكونه صاحب مصلحة فإنه يضحي فيقدم مكافأة أو مساعدة أو خدمة كبيرة بالنسبة لإمكانياته لا تحمل نفس القيمة العالية عند الفاعل أ كمثيلتها عند الفاعل ب.

هذا التباين في المكافآت وإمكانية صاحبيها لها يعكس اختلاف نفوذهما سواء كان متوازناً أو غير ذلك. لكن يرى "إميرسون" أن هذا الاختلاف النفوذي لا يستمر في اختلافه هكذا إلى الأبد بل يتقاربان على مر الزمن- فيصل إلى حالة متوازنة في مقاديرها بسبب ظهور مصادر جديدة للنفوذ الأمر الذي يؤثر على علاقتهما التبادلية ويظهر فواعل جدد في ميدان التبادل فلا يبقى المتنفذ محافظاً على وزنه النفوذي إلى الأبد ولا يبقى الفاقد للنفوذ محافظاً على افتقاره له بل تتغير الموازيين وتتقارب عبر الزمن[1].

وحدة التبادل:

ميز " إميرسون" بين نوعين من وحدة التبادل وهما :

١- مصادر تبادلية متباينة أو مختلفة: مثل تبادل سلعة بنقود.

٢- مصدر تبادلي واحد (نفس المصدر) مثل سلعة بسلعة.

مفهوم الاحتكار التبادلي الأحادي:

كشف " إميرسون" عن حالة تبادلية جديدة في مجال التبادل الاجتماعي وهي "الاحتكار الأحادي" قصد به: عندما يكون الفاعل (أ) مصدراً وحيداً لمصدر قيم ومطلوباً من قبل الفواعل (أ، ب، جـ، د، هـ)، عندئذ يضطرون إلى تقديم مصادرهم المتوفرة عندهم لكي يحصلوا على ذلك المصدر القيم والراغبين به وليس أمامهم سوى

---

[1] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

ذلك الفاعل (أ) فإن حاجتهم تكون ضرورية ولا يوجد غيره لإشباعها، أي أنه يحتكر هذا المصدر التبادلي الأمر الذي يؤدي به إلى أن يتحكم برغبتهم حسب مشيئته وطلباته، لذا عده إميرسون (ب) (المحتكر الأحادي)[1].

قضايا نظرية التبادل الاجتماعي لدى إميرسون:

أولاً: تزايد سلوكيات الفاعل أ في وضعية معينة تجعله يحصل على مكافآت مختلفة التي بدورها تدفعه إلى القيام بسلوكيات أخرى من أجل أن يحصل على مكافآت إضافية.

نتائج القضية:

١- إذا حصل الفاعل (أ) على مكافأة مجزية في علاقته التبادلية مع الفاعل (ب) فإنها تحفزه في مضاعفة سلوكه أملاً في حصوله على مكافأة مضافة.

٢- إذا تشبعت العلاقة التبادلية بين الفاعل (أ) والفاعل (ب) واستثمرت كافة المصادر المعززة لها، فإن الفاعل (أ) تقل مبادرته في تقديم مكافأة جديدة تحسباً بأنه سوف لا يحصل على مكافأة جديدة لم يسبق له أن حصل عليها من الفاعل (ب) .

٣- مع تزايد فوائد ومنافع نفوذ الفاعل (أ) التي جناها في علاقته التبادلية مع الفاعل (ب) ، تتكاثر رغبته في استثمارها من أجل استمرار علاقته التبادلية لكي يحصل على نفوذ أكثر وأكثر.

٤- إذا توازنت مكاسب الفاعل (أ) مع مكاسب الفاعل (ب) في مجال النفوذ عبر علاقتهما التبادلية، فإن الفاعل (أ) قد يندفع نحو اكتساب نفوذ أكثر من الفاعل (ب) بذات الوقت يتحمس الأخير لجني نفوذ مضاف من الفاعل (أ).

ثانياً: إذا تكرر استلام الفاعل (ب) مكافأة قيمة من الفاعل (أ) نتيجة نشاط قام به في موقف معين، يقل ميل الأخير (الفاعل أ) نحو قيام بسلوك مشابه للنشاط السابق مباشرة.

[1] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق.

نتائج القضية :

عندما يتكاثر تقديم مكافآت الفاعل (أ) للفاعل (ب) فإنها لا تستثمر على نفس الوتيرة والسرعة بل تقل مبادراته في تقديم مكافآته للفاعل (ب) نوعاً وكماً.

ثالثاً: إذا استوجب أن يقوم الفاعل (أ) بسلوكية معينة لكي يحصل على مكافأة مبتغاة من الفاعل (ب) محتملاً حصوله على مكافآت قيمة ومجزية في موقف يفرض التبادل بينهما، فإنه يتصرف بسلوك طرداً مع الموقف الذي هو فيه.

نتائج القضية:

١- إذا كان عدد البدائل المتاحة للفاعل (أ) عديدة عند تقديمه مكافأة في موقف معين، فإنه اعتماده على الموقف يقل.

٢- كلما قدم الموقف عدة مصادر لمكافأة الفاعل (أ) زاد اعتماده عليه تباعاً.

٣- إذا تزايدت قيمة مصادر المكافأة المقدمة من الفاعل (أ) للفاعل ب في وضعية معينة، زاد اعتماد الأخير (الفاعل ب) على الموقف الذي يتبادل فيه مع الفاعل (أ).

٤- إذا اكتنف الموقف مجهولية غامضة في رؤية فاعل معين عن قدرته في منحه مكافأة معينة، فإنه لا يقطع الرجاء بل يأمل أن يحصل عليها رغم غموض الموقف عنده.

٥- إذا كانت هناك علاقة تبادلية بين الفاعل أ والفاعل ب وقدم الفاعل الأخير (ب) مكافأة ذات قيمة ضئيلة للأول (أ) على الرغم من امتلاك (ب) مصادر عديدة للمكافآت فإن ذلك يضعف من متانة علاقتهما التبادلية أو تنقلب إلى الضد بعدما كانت ودية. لكن إذا كانت المكافأة المقدمة للفاعل (أ) من الفاعل (ب) ذات قيمة كبيرة على الرغم من امتلاك الفاعل (ب) عدداً قليلاً من المصادر البديلة للمكافآت فإن ذلك يعمل على تمتين العلاقة التبادلية بينهما.

٦- إذا تزايد تبادل العلاقة بين الفاعل (أ) والفاعل (ب) في وضعية معينة وزاد اتساعها أي انضم إليها الفاعل (ج)، فإن الفاعل (ب) يزداد اعتماده على الفاعل (أ) في رغبته وحاجته إليه بذات الوقت تقل البدائل المقدمة إلى الفاعل (ب) من قبل الفاعل (أ)

بحيث يصبح اعتماد الفاعل (ب) على الفاعل (أ) أكثر من اعتماد الفاعل (ب) على الفاعل (ج).

رابعاً: إذا كانت رؤية الفاعل في إمكانية حصوله على مكافأة لقاء نشاط تبادلي قام به مبهماً وغامضاً، علت قيمة المكافأة المتوقعة في نظره.

نتائج القضية:

ضمن العلائق التبادلية الكامنة (المستترة) إذا حصلت رغبة في إبقاء علاقة تبادلية والمحافظة عليها، فإن ذلك يكون على حساب علاقة تبادلية ضمن المجموعة العلائقية الكامنة، وذا كلفة عالية أعلى من كلفة استمرار تبادلات أخرى.

قضايا متقدمة للتبادل الاجتماعي:

١- كلما زادت قيمة المكافأة المقدمة إلى الفاعل (أ) في وضعية معينة زاد ميله نحو عرض نمط تبادله الصريح دون مجاراة أو محاباة الذي يعكس ميلاً متزايداً في تحقيق تبادل مبكر، إنما لا يبقى (هذا الميل) على نفس اندفاعه بل يقل تدريجياً على مر الزمن.

٢- كلما تزايد اعتماد الفاعل (أ) على مجموعة علائق تبادلية تعالت مبادراته للحصول على المزيد منها.

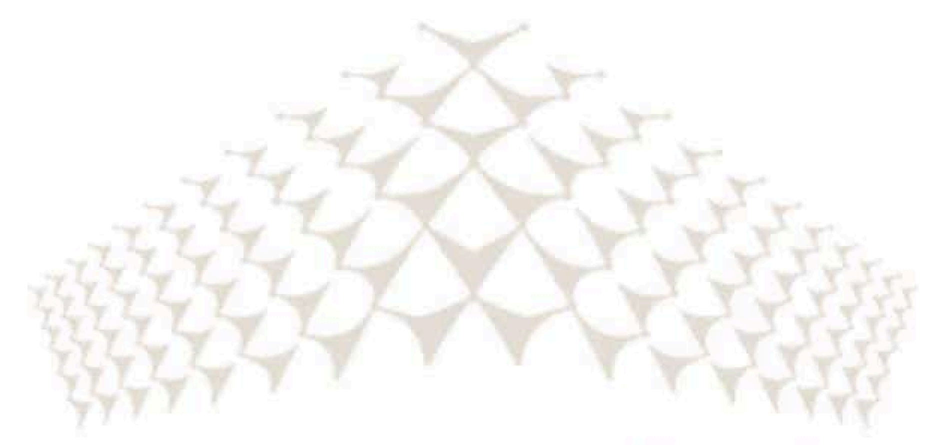
٣- كلما تزايد الغموض في رؤية الفاعل (أ) في علاقته التبادلية مع الفاعل (ب)، زاد اعتماده على الوضعية التبادلية التي هو فيها والعكس صحيح.

٤- كلما تزايد اعتماد الفاعل (ب) على الفاعل (أ) في طلبه مكافأة منه، زاد نفوذ الفاعل (أ) على الفاعل (ب) الذي يعكس عدم توازن علاقتهما.

٥- كلما تزايد عدم توازن علاقة الفاعل (أ) بالفاعل ب التبادلية في وقت معين، فإنها ستلقى التوازن مستقبلاً.

٦- كلما تقاربا في تبادل نفس وحدة المبادلة زاد ذلك من تقاربهما وقويت صلتهما.

٧- كلما كانت العلاقة بين الفاعل (أ) والفواعل الآخرين تمثل حالة " الاحتكار الأحادي" من جانب (أ) للآخرين وزاد ذلك من المصادر الإضافية التي يقدمها الآخرون له (للفاعل أ) من أجل استمرار علاقتهم التبادلية معه، بينما تبقى مصادر التبادل عند الفاعل (أ) على ما هي عليه إن لم تقل.





الفصل السابع:

النظرية النقدية Critical Theory

أولاً- مدخل إلى النظرية النقدية.

ثانياً - هربرت ماركوز.

ثالثاً ـ ماكس هوركهايمر .

رابعاً- هابرماس.

أولاً- مدخل إلى النظرية النقدية Critical Theory .

مراحل تطور مدرسة فرانكفورت.

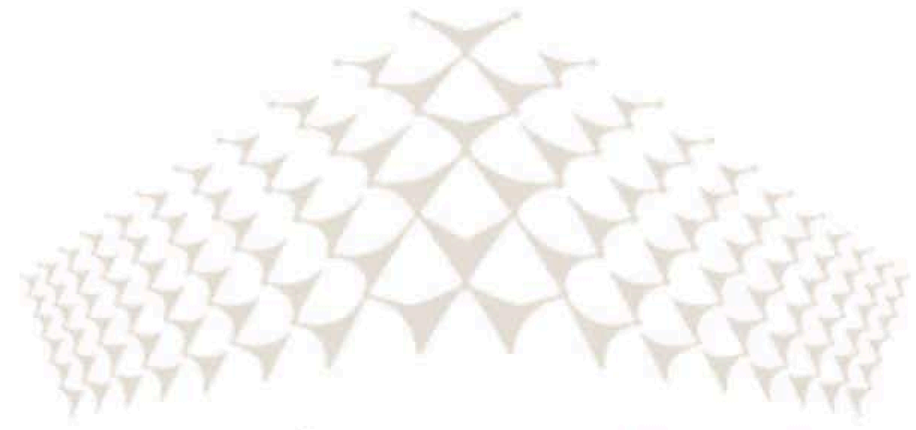
مدرسة فرانكفورت الرؤية العامة.

العقل الأداتي.

النظرية النقديـــة والعودة للفكر المثالـــي.

نقد النظرية التقليدية.

تفكير الهوية.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

الفصل السابع

النظرية النقدية Critical Theory

أولاً- مدخل إلى النظرية النقدية:

النظرية النقدية أو مدرسة النظرية النقدية في فرانكفورت Critical Theory كما يسميها البعض، هي حركة فلسفية نشأت بمدينة فرانكفورت سنة ١٩٢٣. بدأت الحركة في معهد الأبحاث الاجتماعية بالمدينة، وجمعت فلاسفة مثل "ماكس هوركهايمر، والتر بنجامين، وهيربرت ماركوز، ويورجن هابرماس" وهو الممثّل الأكثر شهرة للجيل الثاني للمدرسة. وقد هاجرت الحركة إلى جنيف سنة ١٩٣٣ مع وصول هتلر للحكم في ألمانيا، ثمّ إلى الولايات المتّحدة أثناء الحرب، قبل أن تعود مجدّدا إلى ألمانيا في بداية الخمسينيات. وهذا ما دفعهم إلى إعادة النظر في الماركسية كنظرية غير قادرة على فهم أبعاد الواقع المتغير ، وبعد الحرب العالمية الثانية عادت معظم أعضائها إلى ألمانيا وتابعو نشاطهم ضمن جامعة فرانكفورت وفي أواخر الخمسينيات والستينيات جذب المعهد إلى صفوفه مجموعة من الباحثين البارزين الذين يمثل كلّ واحد منهم وجهة نظر متميزة كما أن لهم اهتمامات دقيقة ومتباينة (اقتصاد - فلسفة - قانون - علم النفس - أدب - موسيقى ...) إلى أن تلاشى هذا المعهد أو انحل مع بداية السبعينيات[1] .

ولد هذا الفكر بألمانيا وهذه المدرسة في جامعة فرانكفورت حول معهد البحث الاجتماعي الذي تأسس عام ١٩٢٣ م، وكان مؤسسوها عدداً من الفلاسفة وعلماء الاجتماع، وهم ماكس هوركهايمر (1895-1973) ، والتر بنجامين (١٨٩٢-١٩٤٠)[2]، ثيودور أدورنو(1903-1969) [3]، هربرت ماركوز(1898-1978) ،

---

[1] علي غربي (د ت). علم الاجتماع الثنائيات النظرية : التقليدية والمحدثة. جامعة منشوري ، قسنطينة ، الجزائر.

[2] والتر بنجامين شاعر وناقد وفيلسوف ولد في برلين عام ١٨٩٢م. وانتحر في أحد فنادق برلين عام ١٩٤٠م. إنتاجه يعد قليلاً بالمقارنة مع المؤسسين الآخرين.

[3] أدورنو، تيودور فييتسجراند (١٩٠٣-١٩٦٩م) Adorno, Theodor Wiessengrund. عالم ألماني. ولد في فرانكفورت. ودرس في فرانكفورت فيينا. عمل أستاذاً في جامعة فرانكفورت. وكان وثيق =

إريك فروم [1](1900-1980)، ثم بعد مدة طويلة، يورجن هابرماس (١٩٢٩م). أسس المعهد (مجلة البحث الاجتماعي) لنشر أبحاث هذا الفريق، فكانت الأبحاث تحقيقاً لمشروع مشترك، وهو تأسيس النظرية النقدية للعلوم الاجتماعية في صيغة برنامج مشترك، وهو يعادل في الفكر المعاصر المذهب في الفلسفة الحديثة.

وقد اقترح هذا التيار "نظرية نقدية" تريد أن تكشف خلف وهم العقل الكوني الخطاب المهيمن لفعالية ولخبرة وإيديولوجيا مستلبة. إن العقل الحديث سيخفي بالفعل مصالح التكنوقراط والرأسمالية والبيروقراطية التوتاليتارية. وقد أجرت مدرسة فرانكفورت مراجعة شاملة للوعي الأوروبي تكويناً وبنية، وأعادت النظر في أهم مذاهب الفلسفة الغربية وتياراتها، وقد بيَّنَ هوركهايمر وأدرنو حدود التنوير بأنه أعلى ما وصل إليه الوعي الأوروبي، وأعلنا نهايته. كما واجهت مدرسة فرانكفورت في مرحلتها الأولى 1933 -1924 ومرحلة الرحيل القسري إلى الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٤- ١٩٥٠ عدة قضايا فكرية مرتبطة بالحداثة والنزعة العقلانية وربط النظرية بالممارسة أو ما يصطلح عليه في علم الاجتماع بربط المعرفة بالمصلحة.

مراحل تطور مدرسة فرانكفورت:

مرت مدرسة فرانكفورت بعدد من المراحل في تطورها :

= الصلة بمعهد البحث الاجتماعي الذي التحق به عام ١٩٣١م. غادر إلى أكسفورد عام ١٩٣٤م. ثم إلى نيويورك عام ١٩٣٨م حيث تأسس المعهد في المنفى. ثم عاد إلى فرانكفورت عام ١٩٤٩م وعمل مديرا لمعهد البحث الاجتماعي منذ عام ١٩٥٨م حتى عام ١٩٦٩م. يعتبر أدرنو من أهم مفكري المدرسة النقدية في فرانكفورت. ومن أهم أعماله " الجداليات السالبة " ١٩٦٦م. و " جدل التنوير " ١٩٤٧م. و" الشخصية المتسلطة " ١٩٥٠م. و " نظريات الجمال " ١٩٧٠م. وكان رائداً في سوسيولوجيا الثقافة والموسيقى.

[1] إريك فروم (١٩٠٠- ١٩٨٠م) عالم نفس وفيلسوف ألماني الأصل أمريكي الجنسية. ولد في مدينة فرانكفورت وهاجر للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٤م. من أعماله " الخوف من الحرية" ١٩٤١م، و " التحليل النفسي والدين" ١٩٥٠م. و " المجتمع والعقل" ١٩٥٥م. و " رسالة سيجموند فرويد: تحليل لشخصيته وتأثيره" ١٩٥٩م. و " أزمة التحليل النفسي" ١٩٧٠م. و " تشريح نزوع الإنسان إلى التدمير" ١٩٧٣م.

المرحلة الأولـى :

ترأسها في هذه الفترة " كارل غرسبورغ" حيث اشترك في تأسيسها وكـان مقتنعـا بوجود تحولات حتمية في النظام الرأسمالي إلى الاشتراكي وأكد في تحليلاته على التفسير المـادي، اتـسمت طبيعـة إدارة المعهـد بطـابع دكتـاتوري كمـا رفـض قبـول الـتغيرات السيكولوجية في دراسة الواقع الاجتماعي، وقد اهتمـت المدرسـة بالدراسـات البحثيـة الميدانية وركزت على مناقشة قـضايا المادية التـاريخي للماركـسية والاقتـصاد الـسياسي ومشكلات الأحزاب السياسية وتطور علم الاجتماع منـهجا وموضـوعاً. وقـد التزمـت المدرسة بموضوعين :

١- الالتزام بالخط الماركسي .

٢- محاولة إثراء الكتابات الماركسية عن طريـق الاسـتفادة مـن إجـراء البحـوث الأمبريقية والميدانية لدعم عمليات تحويل المجتمعات الأوروبية إلى النظام الاشتراكي .

المرحلة الثانية :

ترأس المدرسـة في هـذه الفتـرة "مـاكس هوركهـايمر" وسـعى إلى تغـيير منهجيـة المدرسة وفلسفة تحليلها للواقع والبعد عن مثالية "هيغل" والتطرف الماركسي التي أكـدت أن كل مـن الـنفس الاجتماعيـة والقـانون والفـن مـا هـي إلا انعكـاس للواقـع المـادي الاقتصادي ، ومن ثم أكدت النظرية النقدية على ضرورة الاعتـراف بالـدور المـستقبلي للثقافة في صياغة التفاعل الاجتماعي وقد كان اهتمام المدرسة في هذه الفترة مركز علـى ثلاث مجالات رئيسة :

١- دراسة البناء الاقتصادي للمجتمع .

٢- تحليل النمو أو التطور النفسي للفرد .

٣- دراسة الظواهر الثقافية[1] .

المرحلة الثالثة : ١٩٣٥ - ١٩٤٩:

تميزت هذه المرحلة بنشاط الرواد في الولايات المتحدة الأمريكيـة (المنفـى) وقـد جاءت أفكار المدرسة لتعكس بعدين أساسيين هما :

---

[1] عبد الرحمن ، عبد الله (٢٠٠٣). مرجع سابق، ص ٤٣٣-٤٣٤.

الأول: دراسة وتحليل الظروف الداخلية في ألمانيا خلال الفترة النازية، عن طريق تبني منظور علم الاجتماع والسعي إلى اكتشاف الخرافات الاجتماعية ، وقد تم إلغاء البحث الاجتماعي لأن علم الاجتماع قادر على كشف القوى الحقيقة في المجتمع الألماني.

الثاني: وهو طبيعة تباين المصالح وعلاقة جماعة المصلحة والضغط ودورها في صنع القرارات الداخلية والخارجية. وفي هذه الفترة لقي الكثير من منشئي هذه المدرسة مصرعهم والبعض منهم هاجر إلى أوربا ، إلا أن بعض رواد هذه المدرسة ظل يواجهون أفكارهم حسب الفكر الإيديولوجي النازي أمثال " هابنز فيفر - ولتر - إيبس ". وقد ركز البعض الآخر على دراسة الفلكلور باعتباره موضوع آمن من الناحية السياسية والاجتماعية لكن الجيل الثاني من المدرسة هم من اهتموا فعليا بتطور النظرية النقدية ، من أمثال " آدونو - ماركيوز- هوركهايم " فقد اهتموا بدراسة الواقع الرأسمالي عن قرب مستخدمين في ذلك الشواهد الواقعية والملاحظة بالمشاركة ، وتناولوا قضايا ومشكلات المجتمع الأمريكي بصورة نقدية وتحليلية ومع نهاية هذه المرحلة تغيرت اتجاهات معظم رواد هذه المدرسة فعمل " ماركيوز" بالمخابرات الأمريكية ثم أستاذا بجامعة هارفارد وجامعة برانديس اليهودية، وتحول إلى دراسة التحليل النفسي في نيويورك إلا أن "هوركهايمر" عاد إلى ألمانيا سنة ١٩٤٩ ليواصل عملية التحليل الواقعي لمشكلات المجتمع الحديث.

المرحلة الرابعة : ١٩٥٠ - ....:

وقد مثلت هذه المرحلة عودة عدد كبير من رواد هذه المدرسة إلى ألمانيا بعد انتهاء فترة وخاصة "أدرنو - هوركهايمر " وتركزت تحليلات المدرسة على بعدين هما:

الأول: مناقشة التفاعلات والأحداث الواقعية ، وخاصة ظهور مجتمع الوفرة وحياة الرفاهية التي عاشتها المجتمعات الرأسمالية ، وظهور النزعة التسلطية والبيروقراطية في المجتمع السوفياتي خلال فترة " ستالين " .

الثاني: الاهتمام بعلم الاجتماع في حد ذاته سواء في ألمانيا أو الدول الأوروبية، ومحاولة إعادة صياغته وتأسيسه على أسس علمية وموضوعية جديدة إلا أن هذه

المدرسة واجهت عدة صعوبات منها عدم تناول القضايا التي نتجت عن فترة الحكم النازي واستمرار كراهية السلطة لعلم الاجتماع [1].

ويمكن تلخيص جهود مؤسسيها فيما يلي:

تمثلت مدرسة فرانكفورت باتجاهات فلسفية واجتماعية مختلفة يمكننا إيجازها بما يلي:

١ ـ اتجاه "هوركهايمر وأدرنو" الذي تمثل بالمنهج النقدي الجدلي الذي يهدف إلى توحيد النظرية بالممارسة العملية وتقديم نظرية نقدية للمجتمع تستطيع الوقوف أمام فكرة التسلط، العنف وتسعى إلى جعل الفكر النقدي ليبراليا وغير ليبرالي في الوقت ذاته، وأن لا تخجل من الصراع الاجتماعي الواقعي وأن لا تبخل عن أية مهادنة، مع أية سلطة، ما دامت تهدف إلى الاستقلالية وإلى تحقيق سلطة الإنسان على حياته الذاتية، مثلما هي على الطبيعة.

٢ ـ اتجاه "روبرت ماركوز" (١٨٩٨ ـ ١٩٨٤)، الذي تمثل في رفض المجتمع القمعي القائم والثورة عليه من خلال تأكيده على الدور الحاسم والثوري للعقل في حياة الإنسان وعدم النظر إلى المجتمع من رؤية ذات بعد واحد.

٣ ـ الاتجاه النفسي ـ التحليلي الذي يتمثل بآراء أرك فروم والفرويديين الجدد، وهو اتجاه يقوم على مقدمات ماركسية في التحليل النفسي.

٤ ـ اتجاه يورجن هابرماس (١٩٢٩) وهو اتجاه فلسفي إنثروبولوجي يؤكد على دراسة الرأسمالية المتأخرة كمجتمع صناعي عقلاني ذي أيديولوجية تكنوقراطية، كما صاغها في نظريته في السلوك الاتصالي.

وبالتالي نجد أن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت اتخذت في مسارها الطويل اتجاهات مختلفة، بسبب الخلفيات الاجتماعية لروادها من جهة واهتماماتهم المختلفة التي ارتبطت بأفكار عصر التنوير. ومع ذلك فإن هناك ما يجمع بين روادها، مع اختلاف اتجاهاتهم، وهو نقدهم للمجتمع الصناعي الشمولي وما يفرزه من تناقضات، وبخاصة في ثقافة البرجوازية.

---

[1] عبد الرحمن، عبد الله (٢٠٠٣). مرجع سابق، ص ٤٣٥-٤٣٦.

مدرسة فرانكفورت الرؤية العامة:

تطلق هذه التسمية على مجموعة من الباحثين الألمان في مجال الفلسفة وعلم الاجتماع. وقد بدأوا بالتجمُّع عام ١٩٢٣ في معهد الأبحاث الاجتماعية الذي أُسِّس في فرانكفورت على يد "ماكس هوركهاير " . وكانت غايتهم وضع نظرية نقدية تستند إلى الفكر الماركسي؛ فقد كانوا يعتقدون في ذلك الحين أن واقع تجاوز المجتمع الرأسمالي بات وشيكًا. لكن هذا الأمل سرعان ما أثبت عدم صحته مع انتصار النازية أولاً (ما دفع معظم باحثي هذا المنحى، وكانوا من أصول بورجوازية يهودية، لأن يهاجروا بدءًا من عام ١٩٣٣)، ولأن الرأسمالية ترسَّخت في الولايات المتحدة ثانيًا (هناك وجد المعهد ملجأً له في نيويورك ولم يعد إلى فرانكفورت حتى العام ١٩٥٠)، وأيضًا بسبب نفس تلك الاشتراكية كما "طُبِّقت" على أرض الواقع - وقد اعترف "هوركهايمر" عام ١٩٦٨ أنها لا تتفق مع تلك التي كانوا يحلمون بها.

لذلك، وانطلاقًا من واقع أن مفهوم الثورة كان قد ترسَّخ في مجتمع ما زال يشوهه، أصبح " أدرنو" يؤكد على الفرد المنعزل كحلٍّ فلسفي نهائي. من هذا المنطلق، نلاحظ أن النظرية النقدية كانت تؤكد على كلِّ التعارضات بين الخاصية الفردية والغريزة الجمعية والتحاليل المجردة التي تضع الموضوع في مرتبة أدنى من الشيء، وتضع الخاص في مرتبة أدنى من العام. وأيضًا، كانوا ينتقدون فلسفات هوسرل وهايدغر - لأنها تبدِّي الجوهر أو الكائن على الشخصية الحقيقية. وكذلك، كانوا ينتقدون فلسفة هيغل (فبالنسبة لأدرنو الكلّ لا يمكن أن يتشكَّل إلا انطلاقًا من الجزء، لأنه ليس الأول كما أنه ليس الأخير). كما كانوا ينتقدون فلسفة ماركس الذي اتهموه بالتضحية بالسعادة الفردية من أجل واقع مستقبلي غير مضمون. من نفس المنطلق أيضًا، كانت النظرية النقدية تعارض الفلسفة الوضعية التي كانت تنطلق مما تفترضه استقلالية العلوم عن الأيديولوجيا؛ ما يعني أنها افترضت تدخلاً في البحوث التجريبية من أجل أن تتجاوز جدليًا الفصل التقليدي بين النظرية الفلسفية وبين التخصص العملي.

وأيضًا، بالإضافة إلى ما سبق، قامت مدرسة فرانكفورت بأبحاث تتعلق بالعلاقات بين السلطة العائلية (الأبوية) وبين القيم القمعية، وهذه الدراسات بيَّنت كيف

أنه حين تنتفي الصلة بين الأب والابن فإن البحث عن السلطة يمكن أن يتخذ شكلاً مازوشيًا من خلال البحث عن قائد - ومثل هذا الانزلاق قد أوصلنا إلى الفاشية. وهذه حجة إضافية للحفاظ على ما يستحق أن يحافظ عليه من الفردية. وأيضًا، بمقدار ما تظهر إشكالية مشابهة في الأدب، كما هي الحال عند بروست وكافكا، أو بشكل أعم كما في السوريالية، فإننا نلاحظ أن العديد من ممثلي مدرسة فرانكفورت "كأدرنو، وماكوز" قد تنبهوا بشكل خاص إلى المعاني الممكنة للأعمال الفنية، ما أعطاهم الفرصة كي يبتعدوا من دون رجعة عن الهموم الاجتماعية.

وكانت بداية المشروع العلمي لمدرسة فرانكفورت مع نشأة معهد البحوث الاجتماعية الذي مارس نشاطه في عام ١٩٢٣ وشهد صعود اليسار الألماني وانتكاساته وكانت في ألمانيا آنذاك تجارب جديدة تتوازى مع مشروع مدرسة فرانكفورت حيث قام أصحاب المذهب المثالي بتأسيس (معهد النقد) الذي أسسه فردريك شلنج ويوهان فختة وكذلك تجمع الهيجليين الشباب و(جمعية برلين للفلسفة العلمية) وكان من أعضاءها هانز رايشنباخ وكارل همبل وكذلك حركة فينا المركز التنظيمي والأيديولوجي للوضعية المنطقية وكذلك ظهرت الحلقات الراديكالية الماركسية التي ظهرت بعد إخفاق الثورة الألمانية وأبرز هذه الحلقات (أسبوع الأعمال الماركسية) التي نظمها فيلكس فايل صيف ١٩٢٢ بمدينة تيرنج وشارك فيها كارل كورش وجورج لوكاش وريتشارد سورج وبولوك وكارل فيتوفجل وغيرهم ومن ثم تم إنشاء معهد البحوث الاجتماعية بجامعة جوتة في مدينة فرانكفورت حيث ترأسه كيرت جيرلاخ ثم توفي وترأسه بعده المؤرخ كارل جرونبرج عام ١٩٢٩ وفي يناير ١٩٣١ خلفه هوركهايمر والذي انفتح المعهد في عهده على الفرويدية والظاهراتية ، وبعد استيلاء هتلر على الحكم في ألمانيا أغلق المعهد وصودرت مكتبته ، حيث هاجر أغلب أعضاءه إلى أمريكا ليعود بعدها عام ١٩٥١ إلى فرانكفورت مرة أخرى حيث عرف لأول مرة باسم (مدرسة فرانكفورت) وقد توالت أطروحات مدرسة فرانكفورت عبر أربعة مراحل مهمة متميزة تمثلت عام ١٩٣٠ في فترة تولي جرونبرج إدارة معهد الدراسات الاجتماعية حيث اتسمت بطابع ماركسي ثوري وتمثلت الثانية مع هوركهايمر في نقد الماركسية الأرثودكسية وتمثلت الثالثة عند خروج المعهد إلى المهجر والرابعة تمثلت عند عودة المدرسة إلى موطنها في فرانكفورت

حيث تجلى تأثيرها الواضح على حركات الشباب في أوربا والحركات الراديكالية التي اتخذت من الماركسية نظرية تهتدي بها مبتعدة عن الماركسية الأرثودكسية ومنظريها الذين حاولوا أن يجعلوا من تلك النظرية الحيوية مجرد مفاهيم ثبوتية غير قابلة للجدل وإفراغها من البعد الثوري الذي حاول مؤسسيها ومن أكملوا المشوار بعدهم جعل تلك الأفكار بديل لحالات الاستغلال والبؤس والاغتراب والتي تسلب الإنسان إنسانيته وتجعله مجرد آلة في دولاب الرأسمالية الكبير ، وفي نهاية السبعينات وهي المرحلة الأخيرة من المرحلة الرابعة حيث انتهى تأثير مدرسة فرانكفورت حيث مات تيودور أدرنو عام ١٩٦٩ ومات كذلك هوركهايمر عام ١٩٧٣ لتنتهي تلك الفترة من فترات نشاط تلك المدرسة وكذلك انتهى تأثير الماركسية عليها والتي وهبتها الحياة محاولة في مراحلها الأخيرة الابتعاد عن تأثير الماركسية الستالينية والتي اعتبرها الكثيرين هي الماركسية في فترة اندماجها وإفراغها من محتواها الإنساني .

لم تكن الماركسية هي الشغل الشاغل لمدرسة فرانكفورت بل كان اهتمامها بقضايا فلسفية عديدة وارتبطت بالأوضاع السياسية والاجتماعية لألمانيا المعاصرة وكان جوهرها هو النقد بمفهومه الواسع.. نشأت مدرسة فرانكفورت التي تميزت بنزعتها النقدية للمجتمع والفرد والسياسة عام ١٩٢٤ من مجموعة أساتذة عندما أسس كارل جرونبرج معهدا للعلوم الاجتماعية التابع لجامعة فرانكفورت التي أصبحت فيما بعد تيارا فكريا من بين أكثر ممثليه شهرة ماكس هوركهايمر (١٨٩٥-١٩٧٣) وتيودر أدرنو (١٩٠٣-١٩٦٩) وهربرت ماركوز (١٨٩٨-١٩٧٨)، الذي برز نجمه اللامع في ستينيات القرن العشرين، كذلك إريك فروم (١٩٠٠-١٩٨٠) وكثير غيرهم.. انتشر تأثيرها في أوروبا نهاية الخمسينيات من القرن الماضي بعد أن ظهر اليسار الجديد، قدمت مدرسة فرانكفورت نظرية نقدية تناولت مختلف نماذج الوعي النظري والعملي وبالأخص للإيديولوجية الكونية (الشمولية). ويذكر أن الدعوى الفلسفية الأساسية للنظرية النقدية هي دحض " نظرية الهوية" التي أعطاها الفيلسوف هيغل شكلها المكتمل وقد جمعت في آرائها بين الهيغلية والماركسية ومدارس علم الاجتماع والنفس بالشكل الذي جرى توظيفه في نقد نمطية الوعي والعقائد الجامدة. من هنا انتقادها للماركسية "الرسمية" التي جرى تحويلها إلى نصوص مقدسة. من هنا محاولتها تجديدها لتلائم متطلبات العصر

وتجاوز الماركسية الكلاسيكية.. الماركسية المعاد بناؤها عند "يورغن هابرماس" الذي يعتبر أن على الماركسية أن " تبرهن من جديد عن قوتها بواسطة التحليل الملموس" وهذا ما يلتمس إعادة بناء المادية التاريخية.

و يمكن اختصار رؤية النظرية النقدية في اختلافها مع الماركسية فيما يلي:

١-ترى الماركسية أن الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية يتم بواسطة الفعل الثوري للبروليتاريا التي تعمل على تدمير الجهاز السياسي للرأسمالية والإبقاء علو وسائل الإنتاج ، أما النظرية النقدية فنفرض هذه الرؤية وترى أن التكنولوجيا (من وسائل الإنتاج) تعتبر في حد ذاتها إحدى وسائل القهر وهي تمثل الاستخدام الشرير للعلم والحضارة.

٢-ترى النظرية أن العقل هو الوسيلة الأساسية للتحرير وليس الفعل الثوري الذي تؤكد عليه الماركسية.

٣- تؤكد النظرية النقدية على أن الثقافة الإيديولوجية تلعب دورا هاما ومستقلا في المجتمع ، ليست انعكاسا حتميا للواقع الاقتصادي وهي بالتالي ترفض فكرة البناء الفوقي والتحتي للماركسية[1] .

العقل الأداتي:

كان هناك سؤال رئيس قض مضجع المفكرين الرواد خلال مرحلة ١٩٥٠_١٩٧٣م، وهو: إلى أين تتوجه التقنية بالحضارة الإنسانية؟! إلا أن الإنسان سرعان ما وقع بين مخالب الآلة التي صنعها وأصبح صريع الاستهلاك الأرعن ولاهثا وراء صناعة اللذة والتسلية والتقليعات الإشهارية، بحيث أصبحت الوسائط الحديثة قادرة على صياغة أذواقه وتكييف رغباته وأنماط عيشه وصياغته قلبا وقالبا بالشكل الذي أصبح فيه طيعا ومنساقا وخنوعا، غير قادر على التمييز، بحيث شلت قدرته على التمييز بين الوسائل والغايات، بل أصبحت حياته مليئة بالتعقيد والاضطراب والتناقض والتوتر والقلق والانقباض والصدمة والوهم والعصاب والنرجسية، وكلها أمراض العصر الصناعي بامتياز، وإحدى آثار المدنية المنفلتة العقال كما تجلَّت في عقابيل الاستلاب والاغتراب والصنمية.

---

[1] غريب، علي (د ت). مرجع سابق، ص١٨٧-٣٢٧.

انتبه رواد مدرسة فرانكفورت لآثار العقلانية الأداتية والحسابية الخاصة بالرأسمالية مبكرا، وفحصوا سلبيات مجمل الأنساق والأنظمة الموضوعة من أجل تعميم السيطرة والهيمنة والربح والقوة. فوجدوا وراء الأكمة ما وراءها، أي أن تلك الأنظمة التي صاغتها العقلانية الأداتية والوظيفية أدت إلى تحلل القيم والمعاني المشتركة واستفحال الزيف والخواء الفكري والمعرفي والأخلاقي، وبالتالي أدى ذلك إلى تكبيل الإنسان وترويض طاقته وإلغاء إنسانيته عندما مارس على ذاته وعلى غيره الآليات والقوانين والأنساق والنظم نفسها التي مارسها على الطبيعة.

وعبر النقد الذي قدموه إلى العقل الأداتي والمنفعي والحسابي الذي قاد الحداثة إلى الأزمة، توجهوا أيضا إلى بلورة نقد حاد وعنيف لأسس الفكر الماركسي والليبرالي اللذان تغنيا بالتقدم والحداثة والجنة الموعودة على أديم الأرض . وعلى هذه العتبة ستقدم المدرسة إسهاما بالغا في نقد مضمونهما للحرية الإنسانية.

وقد وجدت النظرية النقدية أسس هذه القراءة النقدية للحداثة عند "ماكس فيبر"، وكان قد سبقها الفيلسوف "جورج لوكاش" إلى الاستعانة بماكس فيبر في معالجته لمفهوم التشيؤ، تلك المعالجة التي استعارتها النظرية النقدية مع فارق عدم حصرها في نقد الرأسمالية.

وقد انتهى مؤسسا النظرية النقدية، "هوركهايمر وأدرنو"، في جدل التنوير، إلى أن العقلانية الأداتية قد جعلت من العقل أسطورة جديدة في نقده للتفكير الأسطوري التقليدي. خاصةً إذا فهمنا مع هوركهايمر وأدرنو أن الأسطورة التقليدية كانت أيضاً محاولة لفهم الواقع والسيطرة عليه وتنظيمه، وكان يسودها أيضاً المنطق فالنتائج ترتبط بأسبابها وكذلك المعلولات بعللها. مما يعني أن الأسطورة كانت أيضاً عقلاً يهدف إلى السيطرة على الطبيعة، وهو ما نصف به العلم القائم على العقلانية المعرفية الأداتية، أي أن العقل أسطورة كما نستطيع أن نقول إن الأسطورة عقل. ولقد أفضت في مقالات سابقة في نقد العقلانية المعرفية الأداتية وأساسها المعرفي الذي كشف عنه هابرماس فيما بعد، وإنما الإشارة هنا إلى ما أنجزته النظرية النقدية في بداياتها[1].

---

[1] Joseph, Mc Carney (1990). Social Theory And Crisis Of Marxism. UK: Bookcraft,p 17-33.

النظرية النقديـة والعودة للفكر المثالـي:

جاءت أفكار المدرسة لتعيد دراسة النظرية الماركسية وما تبنته من أفكار وتصورات خاصة تصورات هيجل المثالية، والنظرية التشاؤمية عند "شوبنهاور" وهذا ما ظهر خلال وجود الكثير من التناقض في التحليل المثالي لقضايا الماركسية العامة مثل البروليتاريا كطبقة وقوة ثورية يعتمد عليها في عمليات التغيير الجذري في المجتمع وقضايا أخرى مثل الاغتراب أو التنبؤ بانهيار النظام الرأسمالي أو فكرة اختفاء الدولة الحديثة والسبب في ذلك حسبهم هو استنباط الأفكار دون تحليلها بصورة واقعية "أينشتاين" وهذا ما أثر على تصورات أصحاب المدرسة الذين رأوا ضرورة إعادة النظر فيما توصلت إليه الماركسية من قضايا ومقولات وقوانين لتطور الحياة الاجتماعية ، كما انتقوا تصورات "شوبنهاور" السلبية لهذا المجتمع مما أثر بدوره على عدد من رواد النظرية النقدية وطرحوا عددا من الأفكار ذات الطابع التشاؤمي مثل أفكار "هوركهايمر" عن العدالة الاجتماعية بالمستقبل وقيام المجتمعات الحديثة وطبيعة الحزن والبؤس .

نقد النظرية التقليدية:

قبل جدل التنوير كان " هوركهايمر" قد كتب مقالاً مهماً تحت عنوان : "النظرية النقدية والنظرية التقليدية"، الذي كان يعد ولفترة طويلة بمثابة شعار مدرسة فرانكفورت، وقد عمل فيه هوركهايمر على التمييز بين النظرية التقليدية التي تحافظ على الواقع الاجتماعي وتمضي إلى تفسيره والنظرية النقدية التي تنحو باتجاه تغييره. وقد أرسى بذلك معياراً صالحاً للتمييز بين نظريات التغيير الاجتماعي والنظريات المحافظة، أو بين اليسار واليمين.

وقد كانت الوضعية Positivism بالنسبة إلى مدرسة فرانكفورت؛ هي الممثل الرئيس للنظرية التقليدية المحافظة، ولذلك رأت فيها العائق الأساس أمام أي نظرية للتغيير الاجتماعي. وهي أحد العوامل التي دفعت الماركسية باتجاه التحول إلى نظرية للسيطرة إذ أن الماركسية - كما يرى هابرماس- تتوفر على جانب وضعي، كما ذكرنا من قبل.

وقد رأت النظرية النقدية في الوضعية دائماً الأساس النظري والمعرفي للرأسمالية، وبسبب ذلك أصبح نقد الوضعية أحد أهم سمات مدرسة فرانكفورت وتقاليدها، بل أحد الخطوط الرئيسة التي تجمع بين الفلاسفة الأساسيين لمدرسة فرانكفورت (هوركهايمر وأدرنو وماركوز وهابرماس).

والوضعية بحسب النظرية النقدية، لا يمكن مصالحتها مع أي نظرية للتغيير الاجتماعي لأن انجذابها غير التاريخي للوقائع الخام وبناءها لقوانينها المزعومة ابتداءً من هذه الوقائع يكرس الماضي والحاضر كإطار قانوني للمستقبل لا يمكن الخروج عليه.

إن الوضعية باتخاذها للوقائع الخام كحقائق تلغي أي إمكان لوجود بدائل أخرى. وبالتالي تلغي ابتداءً أي إمكان للتغيير. إن اتخاذ الوقائع الخام كحقائق يعني أن الوضعية تقوم على افتراضات ميتافيزيقية تؤيد الواقع ضمن مقولاتها. وأحد أهم دعائم التفكير الوضعي تتمثل في تفكير الهوية[1] .

ويمكن تلخيص الخلاف مع الوضعية في النقاط التالية:

١- تسعى الوضعية إلى تحقيق الدقة العلمية وتكميم الحقائق على حسب الشمول في إدراك المعنى الجوهري للظواهر الاجتماعية، مثلما تفعل النظرية النقدية .

٢- فصلت الوضعية أدائيا وإجرائيا ، أي يمكن تطبيق نتائجه في أي مجتمع وفي أي فترة تاريخية ، كما يمكن استخدامها كوسيلة للتحكم والهيمنة من جانب القوى الاجتماعية المتسلطة .

٣- تركز الوضعية على العقل الأدائي الذي يعلي من شأن الوسائل بينما تركز النظرية على العقل الموضوعي الذي يؤكد على الغايات .

٤- تؤكد النظرية النقدية على العلاقات الجدلية بين الفرد والمجتمع وترى الوضعية أن الأفراد كائنات سلبية في مواجهة المجتمع.

٥- تركز الوضعية على شكل الظواهر ودراستها من الخارج فيما تهتم النظرية النقدية بدراسة الجوهر الذي يكمن خلف الشكل الخارجي للظواهر[2] .

---

[1] Joseph, Mc Carney (1990). Social Theory And Crisis Of Marxism. UK: Bookcraft. P17-33.

[2] الحسيني، السيد (١٩٨٢). مرجع سابق، ص ٣٢٨. وكذلك انظر: إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٣١٥-٣٢١.

تفكير الهوية:

هنا تجيء مأثرة "أدرنو" وإسهامه الرئيس في نقد تفكير الهوية الذي جعل منه أحد أهم فلاسفة القرن العشرين، ووضعه مع جاك دريدا [1] فيلسوفاً للاختلاف. ويمكن القول إن التفكير الوضعي يقوم على ما يسميه هيجل بالأحكام المباشرة مثل القول: (هذه الوردة حمراء). ومثل هذه الأحكام المباشرة تتأسس على تفكير الهوية لأنها تقيم تطابقاً بين موضوعها ومحمولها بحكم أداة الربط بينهما التي هي واضحة في الإنجليزية، مثلاً is في This Rose is Red بينما هي مضمرة في اللغة العربية (هذه الوردة هي حمراء) ولكنها في كلا الحالتين تشير إلى الوجود وفعله، ومن ثم إلى التطابق بين وجود الموضوع ووجود المحمول. وهو أمر كشف هيجل عن خطئه: فالوردة شيء متعين ولذلك فهي ليست حمراء فقط وإنما لها رائحة وشكل معين وخصائص أخرى غير متضمنة في المحمول (حمراء). كما أن هنالك موضوعات أخرى حمراء. والنتيجة: أن الموضوع والمحمول لا يتطابقان على غير ما تدعي الرابطة بينهما في الحكم المباشر .

إن تفكير الهوية الذي تقوم عليه الأحكام المباشرة يتضمن تصنيفاً لموضوعه تحت مفهوم ما (المحمول)، أي أن الموضوع مجرَّد مثال Example وممثل لما يندرج الموضوع تحته في التصنيف. وهذا يعني أن الموضوع مختلف عن المحمول وغير متطابق معه كاختلاف أي مثال عن ما يمثله. وحتى لو أكثرنا من الأحكام المباشرة عن موضوع معين كأن نقول: هذه الوردة حمراء، وعطرها طيب، وملمسها ناعم.. إلخ، فإن مجموع هذه الأحكام لن يتطابق مع الوردة بسبب أن الوردة دائماً في هذه الأحكام مجرَّد مثال لما تندرج تحته، وبالتالي فإن هنالك دائماً ما يتبقى من الوردة ولا يندرج تحت أي محمول، وكما يقول أدرنو فإن الموضوع لا يذهب كله إلى المفاهيم.

إن تفكير الهوية تفكير محافظ لأن مطابقته بين الموضوعات ومفهوماتها (محمولاتها) تمنعه من النظر في أي ممكنات أخرى بديلة. وبذلك تظل الموضوعات هي كما تندرج تحت مفاهيمها بينما تظل الممكنات البديلة الأخرى خارج نطاق تفكير الهوية لأنها خارج مفاهيمه. وإذا كانت النظريات التقليدية تقوم على تفكير الهوية فإن النظرية النقدية يجب أن تقوم على تفكير اللاهوية، ولكن هل التفكير ممكن بغير مفاهيم، أي

[1] انظر أعمال جاك دريدا في الفصل التاسع ، الخاص بنظريات ما بعد الحداثة.

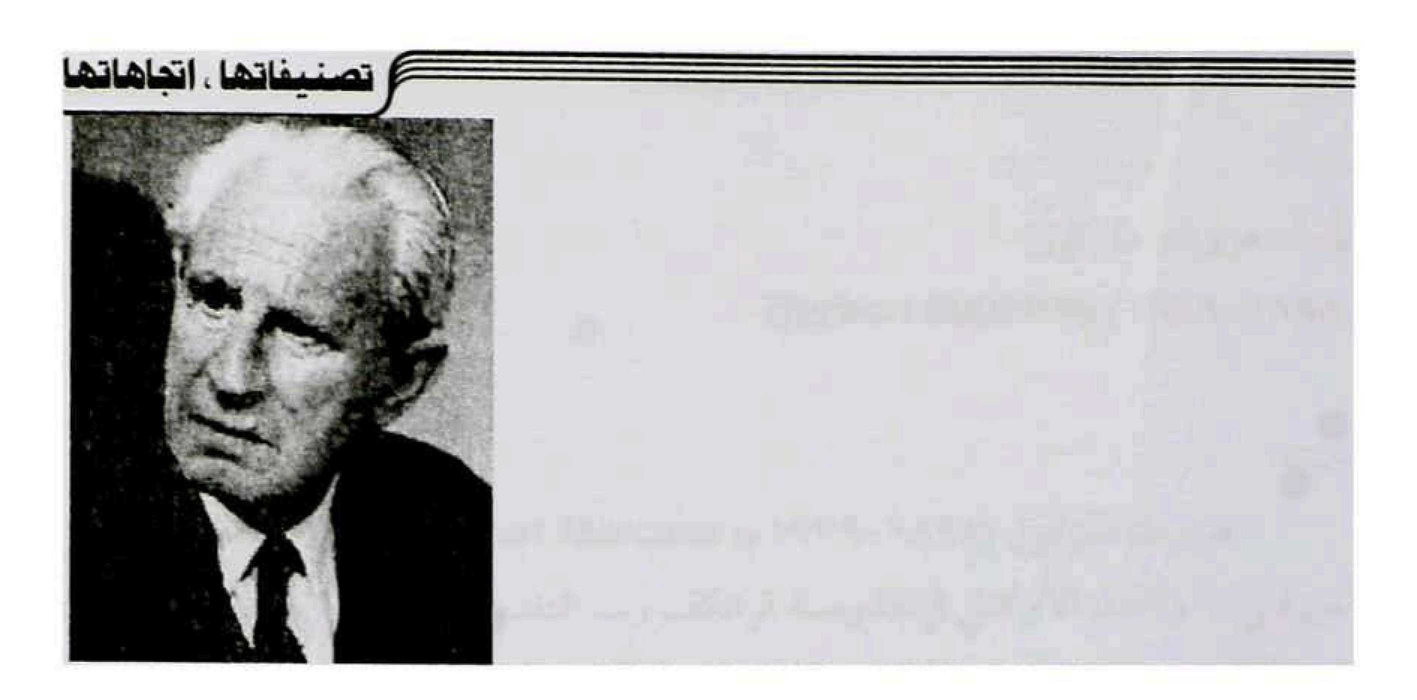
بغير تفكير الهوية؟ التفكير بدون مفاهيم غير ممكن، ليس هنالك تفكير وإلاّ وهو تفكير هوية. هل هذا يعني أن تفكير اللاهوية غير ممكن، أي مستحيل؟ بل هو ممكن، ممكن عن طريق الديالكتيك. إن الديالكتيك ليس هو تفكير اللاهوية ولا هو محاولة لتطهير التفكير من تفكير الهوية، إذ أن هذا مستحيل. الديالكتيك محاولة مستمرة لإظهار عدم كفاية تفكير الهوية، ولذلك فهو ديالكتيك سلبي.

والديالكتيك السلبي ليس محاولة أخرى لاستعدال هيجل ليقف على قدميه. فديالكتيك هيجل ليس ديالكتيكاً إيجابياً جاء هيجل ليقلبه إلى ديالكتيك سلبي .إن الديالكتيك من حيث هو كذلك سلبي. وإخفاق هيجل الأساسي لا يكمن في الديالكتيك حيث تتجلى مأثرته وإنما في تغليبه في نهاية الأمر لتفكير الهوية على الديالكتيك، تماماً مثلما هو إخفاق الماركسية. الديالكتيك محاولة للنظر من خلال التفكير (الذي هو بالضرورة تفكير هوية) إلى اللاهوية بينما تفكير الهوية محاولة للإمساك المباشر بالهوية كتطابق بين الموضوع ومفهومه (وهو تطابق مستحيل -كما رأينا- لأن الموضوع لايذهب كله إلى مفهومه، كما قلنا) وهذا يعني أنه بينما تفكير الهوية يقوم على هوية الهوية واللاهوية فإن الديالكتيك (الذي هو تفكير اللاهوية) يقوم على لا هوية الهوية واللا هوية.

ولذلك فإن الديالكتيك ليس منهجاً ولا هو رؤية للعالم. إذ لو كان منهجاً لصار مفاهيم ولأصبح تفكير هوية ولم يعد ديالكتيكاً، ولو كان رؤية للعالم لأصبح وجوداً ولم يعد ديالكتيكاً. إن الديالكتيك هو التضمين المستمر والمتبادل بين المفهوم والموضوع. هذا التداخل بين المفهوم والموضوع لا يقاربه التفكير إلاّ من خلال تفكير الهوية، ولذلك فهو لا يمكن الإمساك به مرة واحدة وللأبد، ولهذا السبب فإن التفكير النقدي مستمر. إن صعوبة الديالكتيك السلبي وتعقيده قد تشي باستحالته وعدم إمكانه ولكن هنالك ما يشير إلى إمكانه. وليس التغيير واستحضار البدائل فقط هي التي تشير إلى هذا الإمكان وإنما هنالك نشاط إنساني يشكل دليلاً أقوى ويرتبط جوهرياً بتفكير اللاهوية ويكتسب قيمته المعرفية منه وهو الفنون التشكيلية[1].

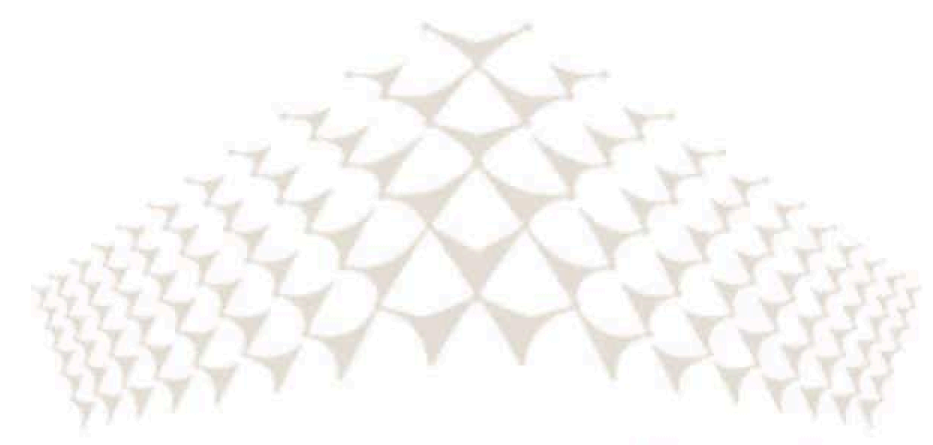
---

[1] انظر الدراسة المتخصصة في جدل التنوير: ماكس هوركهايمر وثيودورف أدرنو (٢٠٠٦) جدل التنوير شذرات فلسفية. ترجمة جورج كتورة. بيروت: دار الكتاب الجديد. وكذلك انظر الفصل الثالث عشر من كتاب: محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٥٤١-٥٤٨.



ثانياً- هربرت ماركوز:

- حياته.
- أهم أفكاره النقدية.



ثانياً- هربرت ماركوز:
(١٨٩٨-١٩٧٩) ***Herbert Marcuse***

حياته:

هربرت ماركوز (١٨٩٨-١٩٧٩م) Herbert Marcuse فيلسوف ومفكر ألماني أمريكي ، وأحد الأوائل في مدرسة فرانكفورت النقدية. معروف بتنظيره لليسار الراديكالي وحركات اليسار الجديد ونقده الحاد للأنظمة القائمة .

ولد في برلين عام ١٨٩٨م ، خدم في الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الأولى ودرس في جامعتها وحصل على الدكتوراه من جامعة فرايبورغ عام ١٩٢٢ وعمل بعدها لغاية عام ١٩٢٨ في بيع الكتب ثم انضم إلى مساعدة مارتن هايدجر في دراساته ، وكان منتسبا لمعهد الدراسات الاجتماعية في فرانكفورت (حيث أنه كان يشكل جماعة فكرية ذات توجه ماركسي) لغاية عام ١٩٣٣ ، حيث بعد استلام الحزب الاشتراكي القومي (الحزب النازي) السلطة قام الحزب بإغلاق المعهد وسافر "ماركوز" بعدها إلى سويسرا لمدة عام ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وانضم إلى معهد الدراسات الاجتماعية هناك في جامعة كولومبيا عام ١٩٣٤ ، عمل خلال الحرب العالمية الثانية في أجهزة الاستخبارات الحربية الأمريكية (مكتب المعلومات الحربية ومكتب الخدمات الاستراتيجية) حيث عمل في الدعاية المضادة للنازية وتفكيك النازية. خلال الخمسينات درّس الفلسفة والسياسة بشكل متتابع في جامعات كولمبيا وهارفارد وبرانديس وفي جامعتي كاليفورنيا .

ورغم أن "ماركوز" غادر ألمانيا إلا أنه بقي عضواً في جماعة فرانكفورت الثقافية مع ماكس هوركهايمر وثيودور أدرنو وكان يمثل الجناح اليساري فيها. ولقد ظهر تأثير ماركوز على القيادات الطلابية في الاحتجاجات الطلابية التي عمت جامعات أميركا وأوربا خلال أواخر عقد الستينات ، وقد ركز في كتاباته على نقد الرأسمالية وتجديد الأطروحات الماركسية مثل أن أهم تهديد للأنظمة القائمة سيأتي من الطلاب والأقليات في المجتمع وليس من طبقة العمال التي تطويعها من خلال النمط الاستهلاكي وتحقيق

احتياجاتها السطحية لتكون خاضعة للأوضاع القائمة والتركيز على البعد الفردي خلال النسق الماركسي. وقد توفي "ماركوز" عام ١٩٧٩ بسكتة دماغية أثناء زيارته لألمانيا وكان برفقته "يورجن هابرماس"، وهو من منظري الجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت.

حصل على الدكتوراه من جامعة فرايبورج تحت إشراف هيدجر، وكانت بعنوان "أنطولوجيا هيغل ، ونظريته التاريخية" أمضى معظم حياته في الولايات المتحدة الأمريكية حيث كان يمارس نشاطه فيها من خلال معهد (البحث الاجتماعي) الذي أسسه نخبة من الفلاسفة وعلماء الاجتماع والاقتصاد والنفس والنقد الأدبي والجمالي. درس الفلسفة في برلين وفرايبورج وحاضر في جامعات كولومبيا وهارفارد، وكان أستاذاً للفلسفة والسياسة في جامعة براندايز، ثم أصبح أستاذا للفلسفة في جامعة كاليفورنيا بسان دييجو. اتخذ "ماركوز" من الولايات المتحدة الأمريكية إحدى أكبر الدول الرأسمالية مكانا لإقامته ساعده على تحليل المجتمع الرأسمالي بعمق لمعرفة طبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القائمة فيه بقصد استكشاف إمكان قيام حضارة جديدة لا قمعية انطلاقا من تجسيدات الحضارة الغربية الحديثة ذاتها، وما وصلت إليه من غنى في الموارد والتقدم التقني. وذلك عبر تعريتها وإسقاط الأقنعة عن حريتها ورفاهها الزائفين وفضح ممارستها القمعية على كل الأصعدة السياسية والاقتصادية والإعلامية التي تمارسها على أفرادها لإبقاء سيطرتها عليهم.

وقد عبر "ماركوز" عن آرائه في الفلسفة الاجتماعية من خلال أهم كتبه:

العقل والثورة Reason and Revolution 1941 دراسة جدلية في النظريات الاجتماعية لهيغل مع إعادة تفسيرها وتتبعها عبر كيركغارد وفيورباخ وماركس وتبيين أثر هيغل في النظريات الاجتماعية خلال الثلاثينات وربطها بنشوء النظريات الفاشية.

الحضارة والرغبة ١٩٥٥م Eros and civilization

الماركسية السوفياتية ١٩٥٨م Soviet Marxism في هذا الكتاب انتقد ماركوز التطبيق السوفياتي للماركسية وأشار إلى اتجاهات تحررية داخل النظام السوفياتي تحققت في الثمانينات في عهد غورباتشوف.

الإنسان ذو البعد الواحد ١٩٦٤م One Dimensional Man وهو أهم أعماله على الإطلاق بحيث وجه فيه نقدا مشتركا للمجتمعات الرأسمالية والشيوعية

بحيث أن المجتمعات الصناعية الحديثة خلقت احتياجات وهمية للإنسان ومن خلال أجهزة الإعلام والإعلانات تم توجيه جميع الأفراد للفكر اللااستهلاكي[1].

أهم أفكاره النقدية:

طرح "ماركيوز" إمكان بناء حضارة لا قمعية بدفع القمع الحضاري عن الفرد وغرائزه كخطوة لإقامة مجتمع قائم على نظم متمردة من القهر والقمع بمختلف صورهما وأشكالهما السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

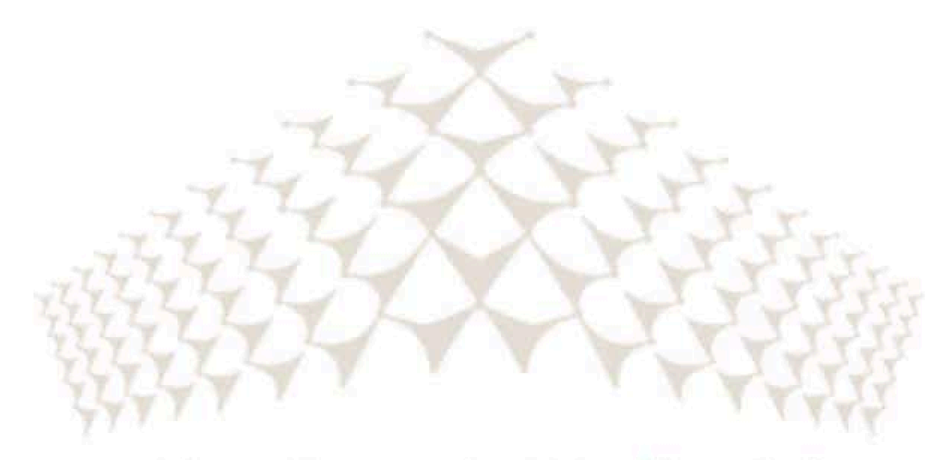
كما بنى ماركيوز مشروعه الجديد في الحضارة على أرضية من التناقضات الفكرية والفلسفية ربط فيها بين فلسفات تميزت بتصورها الإيروسي للحضارة وفلسفات تشهد بطابعها اللا إيروسي على ولادة تصورات عن حضارة المستقبل وقد كانت أداته في ذلك النقد والجدل اللذين تميزت بهما (النظرية النقدية الاجتماعية) التي انتمى إليها في إطار مدرسة فرانكفورت النقدية.

لقد شكل كتابة " الأيروس والحضارة (Eros and Civilization) "، الذي نشر في عام ١٩٥٥م، محاولة واضحة من قبله للدمج بين أفكار فرويد وماركس . وقد كان ماركيوز ملتزماً بقضية التحرر الجنسي للاشعور من طغيان العقل الواعي كالتزامه بالتحرر الثوري للجماهير من السيطرة السياسية والاقتصادية للطبقة الرأسمالية الحاكمة . وقد اشتهر ماركيوز بشكل خاص بسبب تحليله لطبيعة طغيان المجتمع الحديث، حين يكون رأسماليا، كما هو ظاهر في كتابه "الرجل ذو البعد الواحد" -One) (Dimensional Man، الذي صدر في العام ١٩٦٤م، أو شيوعياً كما ظهر في كتابه "الماركسية السوفيتية " (Soviet Marxism1958) .

وقد ركز علماء المدرسة النقدية في علم الاجتماع في تفسيرهم على مفاهيم العلم والثورة، حيث أشار هربرت ماركيوز H, Marcuse إلى الدور الثوري للعقل في حياة الإنسان واكتشاف البدائل التاريخية للمجتمع القائم الذي تسود فيه قوى محافظة تكرس الفساد وتخنق الحريات، ونفي هذا الواقع وعدم النظر إليه بوصفه السياق المطلق

[1] زايد، أحمد (١٩٨٤). مرجع سابق، ص ٢٢١- ٢٣٠.

للحقيقة. وبالتالي سعى ماركيوز Marcuse إلى نقد النظام القائم من خلال استيعاب مسؤولية الظروف الاقتصادية والإطار الاجتماعي الذي ينتظم فيه الواقع، ونقد ماركيوز مجتمع الوفرة الذي يرى في خصائصه أنموذجاً للسيطرة والاستغلال والصراع الطبقي في المجتمع[1].

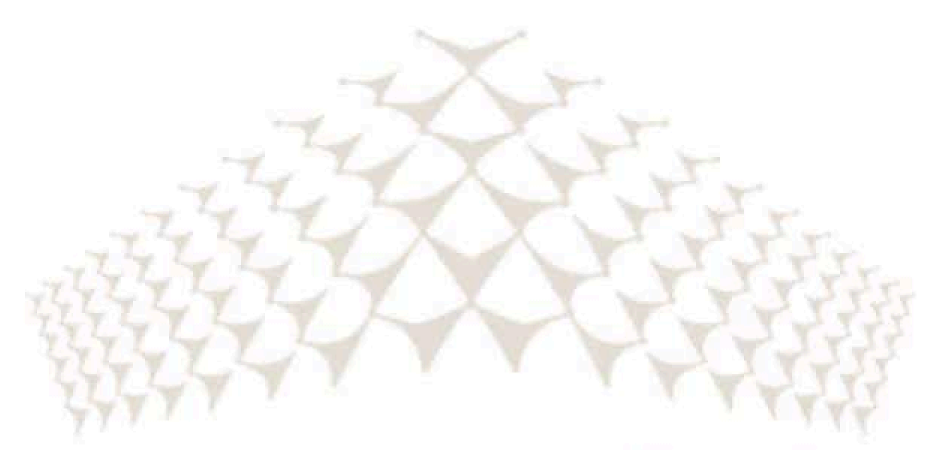


[1] محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٥٦١.



ثالثاً- ماكس هوركهايمر :

- حياته.
- إسهاماته النظرية.
- النماذج النظرية لدى هوركهايمر.
- نقد العقل.
- ربط العقل بالواقع والفلسفة بعلم الاجتماع.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

ثالثاً- ماكس هوركهايمر :

(١٨٩٥- ١٩٧٣م) Horkheimer, Max :

حياته:

هوركهايمر فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، ولد عام ١٨٩٥م، وتوفي عام ١٩٧٣م في " نورنبرغ" في ألمانيا. مؤسس لمدرسة فرانفكورت في الدراسات الاجتماعية. مؤسس معهد البحث الاجتماعي في فرانكفورت ومديره لمدة طويلة، من عام ١٩٣٠م إلى عام ١٩٥٨م. ومدير جامعة فرانكفورت منذ عام ١٩٥١م. ألف بالاشتراك مع أدرنو Adorno كتاب (جدل التنوير). عام ١٩٤٧م. وهو مؤلف كتاب (خسوف العقل) عام ١٩٤٧م. ومحرر مجلة : Studien Uber Autoritat And Familie.[1].

يُعدّ "ماكس هوركهايمر" واحداً من ألمع المفكرين الأوروبيين في القرن العشرين، وأحد أبرز منظّري الفلسفة النقدية. استطلع هوركهايمر عبر أطروحاته النظرية، بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية، مستعرضاً العلاقة بين الإيديولوجيا والمعرفة، والإيديولوجيا واليوتوبيا، والدور الوظيفي ميكافيلي لهذه العلاقة في الصراع الاجتماعي، عبر مطالعة أفكار عدد من المفكرين الغربيين " ميكافيلي ، هوبز، مور، فيكو، هيجل" وضعت معالجة "هوركهايمر" لأفكار ميكافيلي، الخطوط العريضة للفكر البرجوازي في مرحلته الأولى. غير أن هوركهايمر يتجاوز مجرد المعالجة التاريخية للأفكار والإيديولوجيات السياسية إلى فتح آفاق الفكر لفهم النظريات التاريخية المعاصرة، وفهم المستوى الإبستمولوجي المتعلق بالأنثروبولوجيا الفلسفية.

"ماكس هوركهايمر" الذي تمرد في شبابه على كل أنواع الظلم تولى عمادة معهد الأبحاث الاجتماعية عام ١٩٣٠ وكانت دراسته في علم النفس ووصل إلى منصب أستاذ علم النفس الاجتماعي بجامعة فرانكفورت وهو أول مؤسس لجوهر النظرية النقدية

[1] انظر: ماكس هوركهايمر وثيودورف أدرنو (٢٠٠٦) جدل التنوير شذرات فلسفية. ترجمة جورج كتورة. بيروت: دار الكتاب الجديد.

حيث تناول النظرية في مقال نشره عام ١٩٣٧م وبذلك استطاع أن يحدد الإطار العام لمدرسة فرانكفورت، بعد أن طور أسس النظرية النقدية في مجموعة دراسات بعنوان (النظرية التقليدية والنظرية النقدية). فنراه يجدد البعد المادي للنزعة النقدية. حيث ينطلق من أن حياة المجتمع هي نتاج العمل. وحتى إذا كان تقسيم العمل في العالم الرأسمالي يجري بشكل سيئ فذلك لا يسمح لنا أن نعتبر أن هذه القطاعات الخاصة للعلاقة الديناميكية التي يقيمها المجتمع مع الطبيعة وللمجهود الذي يبذله المجتمع من أجل الاستمرار كما هو. فلا بنية الإنتاج الصناعي والزراعي ولا انقسام الوظائف إلى قيادية وأخرى تنفيذية أمران ثابتان مؤسسان في الطبيعة.. وقد أبرَزَ "هوركهايمر" الطابع الماركسي الفرويدي في أعمال وأبحاث ودراسات مدرسة فرانكفورت فضلاً عن توجيهه النقدي الراديكالي.

إسهاماته النظرية:

تعد المقالات التي نشرها هوركهايمر تحت عنوان (النظرية) مدخلاً ملائماً لفهم هذه المدرسة . وقد كتبت هذه المقالات خلال عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠ وترجع أهميتها إلى أنها تتضمن عرضاً للخلفية الفكرية والفلسفية ١٩٤٠ وترجع أهميتها إلى أنها تتضمن عرضاً للخلفية الفكرية والفلسفية التي يمكن الاعتماد عليها في فهم الحركات الراديكالية والنقدية مثل حركة اليسار الجديد وبعض التيارات الفلسفية الاجتماعية والتي أهمها أعمال هربرت ماركيوز هذا فضلاً عن أن هذه المقالات لا تنطوي فحسب على رفض حاسم للوضعية وإنما تسعى إلى تعديل ومناهضة بعض المواقف المنهجية الكلاسيكية للماركسية كذلك. ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن هذه المقالات قد اتجهت نحو مناقشة القضايا الرئيسية التي دارت حول أعمال هذه المدرسة والتي عبر عنها بعد ذلك أعضاء هذه المدرسة.

ومهمة هذه النظرية النقدية في رأي "هوركهايمر" هي اختراق عالم الأشياء حيث يمكن بعد ذلك الكشف عن العلاقات الكامنة خلفها من الأشخاص أعضاء المجتمع وإذن فالنظرية النقدية لا تأخذ بما هو ظاهر من أنظمة وعلاقات وإنما تسعى إلى اكتشاف الخلفية الكامنة وإدارتها في ذلك هي نقد هذه القشرة الخارجية فهذا كان المظهر الخارجي

للنظام الرأسمالي الاجتماعي يبدو أنه يمنح فرصاً عادلة والربح فإن مهمة النظرية النقدية هي أن تكشف عن قاع هذا النظام الذي ينطوي على ضروب معينة من اللا مساواة.

من هنا فالفلسفة النقدية في رأي "هوركهايمر" لها وظيفة اجتماعية هامة هي نقد النظم والأوضاع الاجتماعية القائمة ولعل هو ما يلقي ضوءاً على نقاط الضعف الرئيسية في الفكر الوضعي إذ أن هذا الفكر حصر نفسه في نطاق الاعتراف بالدور الذي يقوم به العلم في تسجيل الوقائع ووصفها ثم التعميم على ما يجري في العلم الظاهر من وقائع وأحداث وهو بهذه المثابة قد اكتفى بالقشرة الخارجية ولم يستطيع أن ينفذ إلى أعماق الظواهر هذا فضلاً عن أنه أهمل التطور التاريخي لهذه الظواهر ومن ثم أصبح أحد أدوات المحافظة على بناء القوة القائم. والنقد الذي يوجهه "هوركهايمر" للنزعة الوضعية ينطبق على الاتجاهات البرجماتية التي تميز علم الاجتماع الأمريكي فلقد حولت هذه الاتجاهات أن تتبنى وجهة نظر تقوم على الربط بين القيمة والحقيقة فالعقل أصبح ينظر إليه في ضوء قيمته كوسيلة لتحقيق منافع معينة. وبالمثل فإن القيم التي تحدد السلوك الإنساني تماثل تماماً السلوك ذاته ولا يمكن بأية حال أن تتسامى عليه لقد حاولت الفلسفة البرجماتية أن تحذف كل ما هو غير عملي من الفكر وأن تضع تساؤلات لها نتائجها العملية دون أن تتخطى هذه الحدود مطلقاً وهي على هذا النحو لم تفتح أي مجال لظهور نظرية نقدية أخرى وإذا كانت الوضعية والبرجماتية قد فشلتا في النفاذ إلى ما وراء القشرة الخارجية فإن الميتافيزيقيا أولاً قد لا تنجح في فهم حركة الواقع الاجتماعي وتحولاته ولكنها على الأقل تستطيع أن تكشف عن التناقض بين ما هو عرضي ظاهر وبين ما هو جوهري غير ظاهر وهنا يحدثنا هوركهايمر عن الوظيفة الاجتماعية للفلسفة تلك الوظيفة التي تتمثل في كشف التناقضات التي ينطوي عليها النظام الاجتماعي الحديث فلا يزال هذا البناء يتسم بالتباين والتمايز وتمثل حالة البروليتاريا نموذجاً لهذا التناقض وربما كان ذلك هو الذي جعل "هوركهايمر" يربط نظريته القديمة بالحركة الاشتراكية واهتم اهتماماً بالغاً في فحص الموقف التاريخي والسياسي للبروليتاريا .

النماذج النظرية لدى هوركهايمر:

أقام "هوركهايمر" تفرقة حاسمة بين نموذجين أساسيين للنظرية هما : النظرية التقليدية والنظرية النقدية لوصفهما يمثلان أسلوبين لاكتساب المعرفة أما النموذج الأول

فهو النموذج الذي ارتبط بالمناهج الوضعية وبمحاولة احتذاء نمط العلوم الطبيعية والمفهوم الرئيسي للنظرية هنا هو تصورها بوصفها تمثل نمطاً استنباطياً Deductive يتألف من مجموعة من القضايا التفسيرية المنسقة منطقياً والتي تشتق إحداها من الأخرى بقوة المنطق وحده والعلاقة بين النظرية والبحث الإمبريقي تمثل نوعًا من التفاعل المتبادل فالنظرية تحتوي على فروض تخضع للتحقق الإمبريقي وبالأدوات والطرق والمناهج الدقيقة التي تسعى إلى أن تكون بنفس دقة وضبط أدوات العلوم الطبيعية والهدف النهائي لهذا اللون من البحوث هو إخضاع ظواهر العلم لسيطرة الإنسان بما ينتجه من أدوات تكنولوجية ومهارات بيروقراطية أما مسألة الأصول الاجتماعية للمشكلات العلمية والمواقف الفعلية التي يستخدم فيها العلم والأغراض التي يخدمها العلم فإنها كلها تمثل ظروفاً خارجة عن العلم وذاته .

أما النظرية النقدية فهي على العكس من ذلك تجعل من الإنسان موضوعاً وتنظر إليه بوصفه صانعاً لظروفه التاريخية وأسلوب حياته على وجه العموم والمواقف الواقعية التي تعد هي نقطة انطلاق العلم لا ينظر إليها ببساطة على أنها معطيات يمكن التحقق من صحتها والتنبؤ بها وفقاً لقوانين الاحتمال فهذه المعطيات لا تستند على الطبيعة فحسب وإنما على القوة التي يمارسها الإنسان على هذه الطبيعة إن الموضوعات والتساؤلات التي تطرحها والمعنى التي تنطوي عليها إجابتنا على هذه التساؤلات وهي جميعاً مسائل تتصل بالنشاط الإنساني ومبلغ قوة الإنسان.

وهكذا فإن النظرية النقدية إنما تسعى إلى إعادة صياغة مهمة البحث الاجتماعي وما يرتبط به من أدوار يقوم بها عالم الاجتماع إزاء الواقع الاجتماعي الذي يقوم بدراسته؛ فمن الملاحظ أولاً أن هناك مشكلات منهجية وموضوعية عديدة ترتبط على التصور الذي ساد في المجتمع البرجوازي والذي ينهض على أن البحث قضية منفصلة عن ذات الباحث القائم ببحثه وهو التصور الوضعي الذي يفصل بين الباحث وموضوع بحثه ويستبدل هوركهايمر هذه الفكرة بأن الباحث لا بد أن يندمج في موضوع بحثه ، فمن خلال هذا الاندماج فقط يتمكن الباحث من النفاذ إلى لب الظاهرة التي يقوم على دراستها ويكتسب بحثه طابعاً نقدياً وإنسانياً، ومن الملاحظ ثانياً أن البحث الذي يطلع فيه الباحث الاجتماعي بدور إيجابي أساساً إلى تغير الواقع وتحقيق مزيد من التحرر

للإنسان ومن ثم يتحول النقد إلى قوة مادية ثورية تتجسد في وعي الإنسان وإدراكه لدى قوته وتأثيرها في إحداث التغيير ولتحقيق ذلك كله يؤكد هوركهايمر أن مفهوم النظرية النقدية ذاته يخضع لبعض المتطلبات الأساسية فلا بد أن تكون هذه النظرية قادرة على استيعاب مسألة الصراع والجدل ولا بد أيضاً أن ترتبط ارتباطاً فعلياً بالسلوك السياسي. وإذن فالنظرية النقدية تأخذ في اعتبارها كل من البعد التاريخي والبعد السياسي [1].

نقد العقل:

يعد "ماكس هوركهايمر " من رواد مدرسة فرانكفورت النقدية أول من دعا إلى نقد العقل ومحاولة إنقاذه من براثن الهيمنة التي فرضتها الفلسفة الوضعية والإمبيريقية التي أفسدت العقل الغربي وحولته إلى عقل أداتي . انطلقوا من أن النظرية النقدية وضعت العقلانية على محك التساؤل والشك. وما كوارث القرن العشرين من الحروب العالمية والأهلية والاستعمار والكوارث البيئية إلا من نتائج تلك الهيمنة اللاعقلانية على العالم .

في نقده لعصر التنوير في الشكل الذي اتخذه في الفلسفة وعلم الاجتماع رأى "ماكس هوركهايمر" (1895-1973) أن النزعة العقلانية لعصر التنوير تضمنت في الأساس تصوراً للطبيعة كموضوع للسيطرة عليها والتحكم فيها واستغلالها، وهذا التصور كان أدى بالضرورة إلى نظرة متماثلة للإنسان ذاته حيث أصبح الإنسان، في علاقاته الاجتماعية المتبادلة، كموضوع للسيطرة . والنتيجة التي توصل إليها "هوركهايمر" هي نظرة تشاؤمية تمثلت في معظم أشكال التفكير الفلسفي والاجتماعي الواسعة الانتشار في الفكر الغربي والحضارة الحديثة، التي ما زالت تدعم السيطرة الكلية على المجتمع، وأن قلة قليلة من ممثلي الفكر النقدي بقيت تناضل ضدها. حتى النظرية الماركسية، التي أكدت بصفة خاصة على العمل البشري كأسلوب لتحقيق الذات وكذلك على أهمية نمو العلم والصناعة الحديثة، فإنها تنتمي إلى فكر عصر التنوير نفسه، إذ يمكن التأكيد على النظرة النقدية للعلم والصناعة بدلاً من فكرة السيطرة على الطبيعة

[1] انظر: ماكس هوركهايمر وثيودورف أدرنو (٢٠٠٦) مرجع سابق. وكذلك: محمد، علي (١٩٨٦). مرجع سابق، ص ٥٥٢-٥٥٥.

وتوسيعها إلى الممارسة الاجتماعية، وبدل السيطرة على البشر، باعتبارها الدعوة الأساسية لعصر التنوير في الفكر الفلسفي والسوسيولوجي.

أن الأمل في التغيير الذي طالما انتظره " هوركهايمر" واستسلام الحركة الثورية، إذ أخذا يتعادلان، دفعا " هوركهايمر" إلى إصدار كتابه "أفول العقل" عام ١٩٤٧م. رأى فيه أن هذه المرحلة المقررة تشير إلى أن النواة الجدلية في « النظرية النقدية» هي ليست في إحلال الفكرة بدل الممارسة ولا تحقيق ممارسة مثالية في الفلسفة، وإنما اتخاذ موقف راديكالي من النظرية نفسها، التي ينبغي أن تتخذ موقفاً راديكالياً ونقدياً سالباً «لتعرية ما يسمى بالعقل»، لأن نقد المجتمع هو في الوقت ذاته، نقداً ذاتياً للفلسفة.

يشير "هوركهايمر" إلى أن النظرية النقدية هي في المقام الأول ليست نظرية للمعرفة ولا نظرية للحقيقة، مع أنها جزء من المحاولات المستمرة التي تهدف للوصول إليها، انطلاقاً من اهتماماتها بالجانب الفلسفي للعلاقات الاجتماعية، فهي لذلك محاولة جادة لإيجاد بديل نظري - نقدي واضح المعالم للوقوف أمام التيارات الفكرية والفلسفية التقليدية التي مارست نوعاً من السلطة التي هدفت إلى تقويض طوعي في تاريخ الفلسفة، الذي أجبر النظرية على التراجع، وقامت على أساس منهجي قويم هو الربط الجدلي بين النظرية والممارسة. كما أكد "هوركهايمر"، أن جدلية النظرية والممارسة يجب أن تكون داخلية، حتى لو تنكرت النظرية لكل فهم ذاتي وفي لحظة تشكيل المصلحة، لكن على النظرية النقدية أيضاً أن تستغني، في الوقت ذاته، عن المماثلة والأحكام القاطعة التي تثير المصالح أو ترتبط بها، كما عليها ان تستغني عن كل وساطة، لأن قيمة أي نظرية نقدية للمجتمع لا تتقرر بالفصل الشكلي للحقيقة وإنما بالشروع في لحظة تاريخية معينة بالقيام بواجبها تجاه القوى الاجتماعية، وأن اتخاذ مثل هذا الموقف إنما يهدف أساساً إلى توجيه المعرفة الذاتية نحو المجتمع ونحو مصلحة عقلانية إيجابية، وهو ما مكنها من أن تكون فلسفة اجتماعية هدفها نقد المجتمع وتعريته من خلال نقد النظام القائم والكشف عن جوانب الخلل فيه ورفضه إذا كان سلبياً.

إن معالجة " هوركهايمر" للنظرية النقدية هو تشخيص «مرض العقل» بروح راديكالية روسو الشاب، الذي اعتبر أن كسوف العقل يعود إلى مكر الإنسان الأول الذي، اعتبر العالم غنيمة خاصة به وحده، وبذلك يصبح الإنسان من خلال ذلك،

مجرد موضوع للسيطرة. وهكذا يخفق العقل ويتحول إلى مجرد آلة للسيطرة. هذا ما يبرهن عليه تاريخ العقل. ولكن من الممكن أيضاً أن يبقى العقل أميناً لنفسه حين يلتزم بمبدأ الحقيقة ولا يحول السيطرة على الطبيعة إلى سيطرة على الإنسان. وطالما لا يفهم الإنسان عقله الخاص فإنه يدمره.

إن تدهور العقل الموضوعي وتحوله إلى عقل أداتي حدث بعد صعود عالم الصناعة التايلرية والستالينية والنازية وتشكل عالم القوة والجبروت الذي يسعى إلى تحقيق المصالح المالية، التي تعمل على تدمير العقل، لأن المصالح المادية هي عدوة العقل، كصورة جوهرية للوجود . لقد حلت الإيديولوجيات المسخرة لخدمة الربح مكان الأفكار واستبدلت الخصوصيات بكونية عصر التنوير، وانقطعت بذلك الصلة التي تربط بين الفرد والمجتمع، التي كان يكفلها العقل لها. هذه القطيعة التي بدأت مع الأزمة الحديثة أخذت تشمل كل شيء، ولم يعد الإنسان الحديث يتطابق مع القواعد الكونية للعقلنة وتحول دور العقل الأساس إلى إيجاد وسائل في خدمة الغابات التي يتبناها كل فرد في لحظة معينة، وهو عكس ما يعتبره فيبر «احتفاء» بانتصار العقلانية الوظيفية على العقلانية الجوهرية، وهو ما يعني قبول العقلانية الموضوعية وانتصار العقلانية الأداتية.

وكتعبير عن احتجاج شرعي ضد تصلب العقلانية المطلقة وضد ما يسير معها من معايير، التي تطبع الحياة في المجتمع الرأسمالي المتطور، طور "هوركهايمر" " فلسفة الحياة" التي هي في الواقع صرخة ضد هذا الواقع البائس، والتي يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط رئيسة تشكل في الحقيقة أسس النظرية النقدية عنده، فهي:

١-محاولة لإنقاذ الفرد من مخاطر المجتمع الصناعي الحديث.

٢-أن الغالبية من الفلاسفة اتجهوا إلى الزهد في الحياة وأهملوا البعد المادي للواقع.

٣- وهي النقطة الأهم، هو أن نقد فلاسفة الحياة للعقلانية المطلقة حوَّلها إلى شكل من أشكال العقلانية الشكلية التي أظهرتهم وكأنهم يرفضون العقلانية رفضاً قاطعاً، وهو ما أدى إلى أن تكون لا عقلانية وفارغة.

كما يشير " هوركهايمر" أن العقل لا يستطيع تجسيد نفسه إلا حين يقوم بإلغاء المطلق المزيف، الذي هو مصدر كل هيمنة عمياء . وبمعنى آخر، فالعقلانية التي طالب

بها عصر التنوير يجب أن تكون إنسانية أولاً وأخيراً، وهذه هي إحدى أهم سمات وأهداف عصر التنوير الكبرى وكذلك مدرسة فرانكفورت النقدية، التي جسدت التقدم والتحرر الحقيقي وليس المزيف[1].

ربط العقل بالواقع والفلسفة بعلم الاجتماع:

بحث كل من "هوركهايمر وأدرنو" مصائر العقلانية في العصر الراهن وإمكانيتها للتحرر عن طريق نقد العقل ذاته حيث توصلا إلى حكم يتضح من خلال مسألتين الأول هي إن الأسطورة هي صورة من صور تعقل الواقع، الثانية أن الإنسان المعاصر قد استمر على نفس منوال الإنسان الأول في إضفاء الطابع العقلي على كل الأشياء.. اهتم "أدرنو" بنقد العقل التماثلي أو نظرية الهوية التي تؤكد أن هناك تماثلا بين الذات والموضوع أو تطابقاً بينهما، والتي أعطاها هيجل مشروعيتها الفلسفية ويذكر أن "هوركهايمر" قد نقد فلسفة هيجل حيث أوضح وأبرز أن المثالية الألمانية من كانت إلى هيجل حاولت أن تصور الحقيقة على أنها وحدة الذات والموضوع، في وقت فسر "ماركيوز" فلسفة هيجل من خلال فكرة السلب أو النفي بدلا من مفهوم الهوية. ففي كتاب (خسوف العقل) يذكر هوركهايمر، أنه إذا كان المقصود بالتنوير والتقدم الفكري هو تحرير الإنسان من الإيمان الباطل بالقوى الشريرة وبالشياطين وبالحوريات والمصير الأعمى، أي إذا كان المقصود هو تحرير الإنسان من الخوف، فعندئذ تصبح إدانة ما يسمى بالعقل أكبر خدمة تؤدى للإنسان. لهذا نراه يعتبر التنوير فكرا برجوازيا. بينما كان"بنيامين" شديد الاهتمام بالمادية الجدلية[2].

في كتابه " شذرات التنوير" يتناول " هوركهايمر وأدرنو" معنى التنوير، والتنوير كلمة اصطلاحية أتت من كانط الذي وضع مقالة بعنوان "ما هو التنوير" والذي اعتبر التنوير في تلك الفترة أداة تحرر من الاستعباد وأداة تحرر من السحر وأداة تحرر من

---

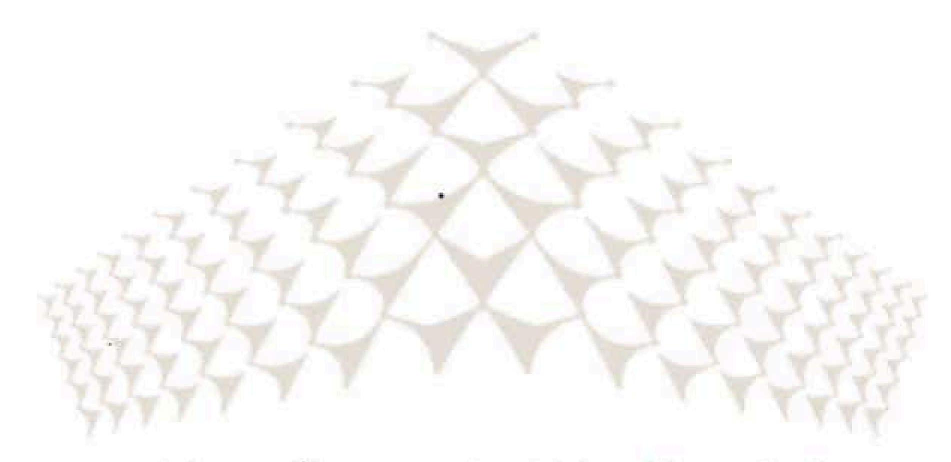
[1] ماكس هوركهايمر (١٩٨١). بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية. دمشق: دار التنوير للطباعة والنشر. وكذلك: ماكس هوركهايمر (٢٠٠٧). شذرات جدل التنوير. دمشق: الكتاب الجديد.

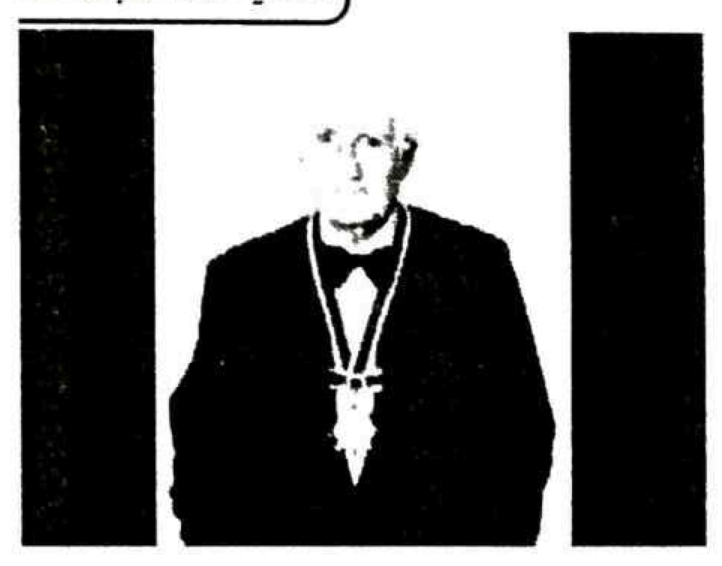
[2] طاهر، علي (١٩٨٧). مدرسة فرانكفورت من هوكهايمر إلى هابرماس . بيروت: مركز الإنماء القومي.

الرؤى الظلامية التي تحيط بالعالم أو التي بموجبها يمكن لنا أن ننظر إلى العالم، هكذا تصور كانط التنوير في بداية عصر التنوير أو ما سمي بعصر التنوير، ولكن هذا العقل انتهى مع كانط ومع هيغل بالذات إلى نوع من العقلنة الزائدة وهو ما يعرف في الفلسفة بالمعنى المعروف للكلمة بالعقل المثالي. الفلسفة النقدية تنتقد مثالية العقل أو العقل المثالي أي العقل الذي يعتبر عقلا صرفا وذلك من أجل ربط هذا العقل بالواقع ولعدم تصور الحقيقة حقيقة مثالية فقط يمكن الوصول إليها بالعقل دون أي ارتباط بالواقع. من هنا كان الترابط القائم في فلسفة مدرسة فرانكفورت بين الفلسفة والاجتماع وبالتالي ربط الحقيقة، إذا كانت الفلسفة بحثا عن الحقيقة، ربط هذه الحقيقة بالواقع ولا مجال لمعرفة الواقع دون الاجتماع وبالتالي دون علم الاجتماع. هذه الفكرة الأساسية في الكتاب، لكن فصول الكتاب تذهب إلى أبعد من ذلك. طبعا تركز الفقرات الأخيرة على بعض المعاني المنفصلة، مثلا المواصلات والعزلة، يحاول كفصل أن يشير إلى فكرة بحد ذاتها بسيطة، يعني بما معناه إذا كانت المواصلات أداة تواصل فهي قد تحولت إلى أداة عزلة، يعطي المثل التالي، نصرف عشرات الكيلو مترات مثلا للالتقاء في مطعم معين، نتحدث الأحاديث نفسها ثم ننفصل فيما بعد كأن شيئا لم يكن. صحيح استطاعت هذه المواصلات أن تجمعنا ولكنها لم تستطع أن تعطي لقاءنا هذا معنى اجتماعيا معينا. بعد أن يشيرا إلى أهمية المواصلات والإعلانات والراديو وإلى آخره، يشير إلى عدم اختلاف الأحاديث من سيارة إلى أخرى. فالحديث داخل كل خلية عائلية يظل حديثا تغلب عليه المصالح العملية، وكما تخصص كل عائلة نسبة مئوية من مدخولها للسكن والسينما والدخان كما تفيد الإحصاءات فإن مواضيع الحديث تتغير بتغير نماذج السيارة . فحين يلتقي المسافر أيام الآحاد في مطعم تتشابه فيه وجبات الطعام والغرف وكل فئات الأسعار يفهم الزوار أيضا أنهم يتشابهون أكثر فأكثر من خلال العزلة التي يعيشون داخلها، فالاتصالات تقيم التماثل بين الناس من خلال عزلهم[1].

---

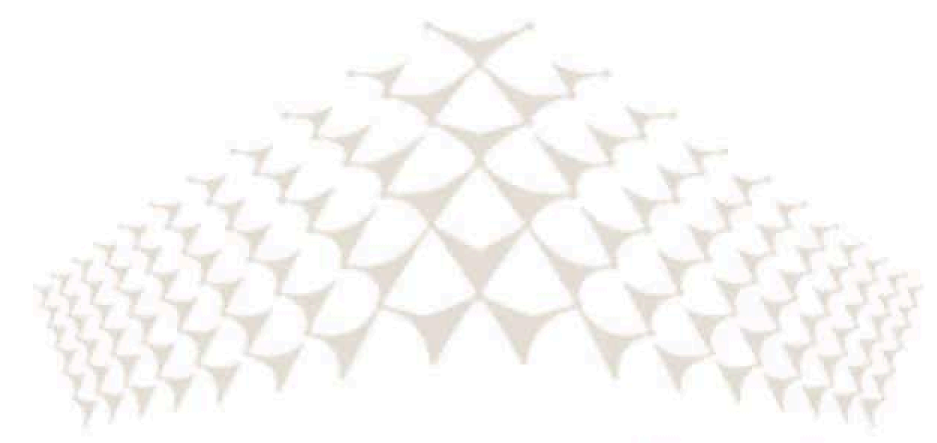
[1] ماكس هوركهايمر تيودورف أدرنو (٢٠٠٧). مرجع سابق.





رابعاً- يورجن هابرماس:

- حياته.
- فكر هابرماس.
- نظرة هابرماس للنظرية النقدية.
- أزمة الشرعية ونقد الماركسية ورؤية "هابرماس" للتطور البشري.
- رفض "هابرماس" الماركسية كنظرية اجتماعية.
- نظرية التواصل.
- قضايا أخرى.
- سلطة العلم والتقنية.
- مفهوم هابرماس للحداثة.
- نظرية ما بعد الحداثة.



رابعاً- يورجن هابرماس
Habermas , Jurgen

حياته:

يورجن هابرماس Habermas , Jurgen عالم اجتماع ألماني ولد عام ١٩٢٩م. يعتبر الوريث المركزي لمدرسة فرانكفورت النقدية قام بتدريس علم الاجتماع والفلسفة في فرانكفورت منذ عام ١٩٦٤- ١٩٧١م. وكان أستاذا للفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة فرانكفورت ثم أصبح مديراً لمعهد ماكس بلانك في شتارنبرج. و "هابرماس" هو الشخصية الرائدة في الجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت. وكان موضوعه الرئيس الذي اهتم به (إمكانية الالتزام السياسي العقلاني بالاشتراكية في المجتمعات التي يسودها العلم والتقنية). وعلى الرغم من خصوصيته إلا أن تأثير رواد مدرسة فرانكفورت الذين اضطروا إلى الرحيل إلى الولايات المتحدة الأمريكية فرارا من براثن النازية (١٩٣٤- ١٩٥٠) يبقى محورياً فيما يتعلق بنظرته النقدية التي تعتبر الدفاع العقلاني عن قيم وإنجازات عصر التنوير وتحرير الذات الآدمية من العصبية القومية والتطرف والتعصب أحد الأهداف الرئيسة للفلسفة الملتزمة. ودرس الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس، وأصبح بعد تخرجه في الجامعة مدرساً في «معهد البحث الاجتماعي» التابع لمدرسة فرانكفورت النقدية. ثم انتقل إلى هايدلبرغ وأصبح أستاذاً مساعداً، ثم رجع إلى فرانكفورت وعين أستاذاً للفلسفة في جامعة فرانكفورت خلفاً لماكس هوركهايمر.

إن سيرة حياة "هابرماس" الذاتية ومثابرته العلمية وأفكاره الفلسفية الواضحة جعلت منه فيلسوفاً نموذجياً جسد مثال الفيلسوف الألماني الصارم ورشحته لأن يحتل منصب رئيس معهد ماكس بلانك للتقنية والبحوث الاجتماعية في ستارينبرغ، ثم استدعته جامعة فرانكفورت عام ١٩٨٣ ليواصل التدريس في معهد البحث الاجتماعي ويحتل منصب كرسي الأستاذية في الفلسفة. وفي عام ١٩٩٤، أصبح أستاذاً متمرساً، ولكنه لم يترك طريقه الأكاديمي واستمر في إلقاء المحاضرات، ليس في جامعة فرانكفورت فحسب، بل وفي جامعات أخرى في العالم. وقد حصل "هابرماس" على جوائز علمية عديدة منها جائزة هيغل وجائزة أدرنو وغيرهما. يعد " يورجن هابرماس"

من أهم علماء الاجتماع والسياسة في عالمنا المعاصر. من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية يعد الوريث الرئيس المعاصر لتركة مدرسة فرانكفورت. وصل "هابرماس" إلى درجة من الشهرة والتأثير العالمي لم ينجح الرعيل الأول من ممثلي النظرية النقدية الاجتماعية والمعروفة في حقل الفلسفة المعاصرة بمدرسة فرانكفورت في الوصول إليها. فعلى الرغم من الثقل العلمي لأفكار الجيل الأول (هوركهايمر، أدورنو، ماركوز، إريك فروم...)، إلا أن "هابرماس" هو الفيلسوف الوحيد الذي فرض نفسه على المشهد السياسي والثقافي في ألمانيا كـ"فيلسوف الجمهورية الألمانية الجديدة" وفقاً لتعبير وزير الخارجية الألماني يوشكا فيشر، وذلك منذ أكثر من خمسين عاماً.

له ما يزيد عن خمسين مؤلفا يتحدث عن مواضيع عديدة في الفلسفة وعلم الاجتماع. من أهم أعماله " التغير البنيوي في المجال العام" ١٩٦٢م. و " النظرية والممارسة" ١٩٦٣م. و " المعرفة والمصالح البشرية" ١٩٦٨م. و " منطق العلوم الاجتماعية" ١٩٧٠م. و " أزمة الشرعية" ١٩٧٣م. و " إعادة بناء المادية التاريخية" ١٩٧٦م[1]. كما له اهتمامات بنظرية الفعل التواصلي وأيدولوجية المجتمعات الرأسمالية المتأخرة، وعلم نفس النمو، والنمو التاريخي للبنيات المعيارية النمطية، وفلسفة العلم، وعلم السياسة التكنوقراطي. وقد أدخل التحليل النفسي في النظرية النقدية كأداة، بعد أن اندرج دفعة واحدة في نظرية اجتماعية حيث كانت قاعدتها ومنهجيتها بعيدتين عنه - الاجتماع النقدي - الماركسية - فالتحليل النفسي ظهر تقريباً في الفترة التي ظهرت فيها مدرسة فرانكفورت.

---

[1] من أعمال " هابرماس" الرئيسة : التحولات البنيوية للأوضاع الاجتماعية (١٩٦٢)- النظرية والممارسة (١٩٦٣)- منطق العلوم الاجتماعية (١٩٦٧)- نحو مجتمع عقلاني (١٩٦٧)- التكنولوجيا والعلم كإيديولوجية (١٩٦٨)- المعرفة والمصالح البشرية (١٩٦٨)- الهوية الاجتماعية (١٩٧٤)- التواصل وتطور المجتمع (١٩٧٦)- براجماتيات التفاعل الاجتماعي (١٩٧٦)- نظرية الفعل الصريحة (١٩٨١)- الوعي الأخلاقي والفعل التواصلي (١٩٨٣)- لمحات فلسفية - سياسية (١٩٨٣)- الخطاب الفلسفي للحداثة (١٩٨٥)- المحافظيّة الجديدة (١٩٨٥)- تفكير ما بعد الميتافيزيقا (١٩٨٨) - التبرير والتطبيق (١٩٩١)- بين الحقائق والمعايير: مساهمات لنظرية جدل القانون والديمقراطية (١٩٩٢)- براجماتيات التواصل(١٩٩٢) - تضمين الآخرين (١٩٩٦)- العقلانية والدين (١٩٩٨)- الحقيقة والتبرير (١٩٩٨) - مستقبل الطبيعة البشرية (٢٠٠٣)- أوروبا القديمة، أوروبا الجديدة، قلب أوروبا (٢٠٠٥)- الغرب المنقسم (٢٠٠٦)- جدل العلمانية (٢٠٠٧).

فكر هابرماس:

يعد "هابرماس" من أهم رواد مدرسة فرانكفورت في علم الاجتماع النقدي وآخر من بقي منهم على قيد الحياة. وقد أصبح بعد وفاة روادها الأوائل هوركهايمر وأدرنو وماركوز، الوريث الشرعي لها. حيث يعد أول من جدد الأطر الأساسية لمدرسة فرانكفورت ببعديها الفلسفي والسوسيولوجي، وأصبح اليوم أحد أهم الفلاسفة النقديين المعاصرين، وذلك بسبب البناء الفكري الرصين والتيار النقدي المتفرد الذي قاده في مرحلة متقدمة من الشمول والانفتاح على العلوم الأخرى. ومع شهرته كفيلسوف، فإن هابرماس كان ولا يزال عالم اجتماع متميزا لقيامه بإخضاع الظاهرة الاجتماعية ـ السياسية للبحث السوسيولوجي، الذي انبثق من رؤية فلسفية تحليلية تشكل القاعدة الأساسية والمتينة التي يقوم عليها دمج التحليل الفلسفي بالسوسيولوجي. وبهذا أصبح "هابرماس" مرجعاً مهماً في الفلسفة وعلم الاجتماع والأبستمولوجيا. في سياق علم الاجتماع، مساهمة "هابرماس" الرئيسة كانت تطوير النظرية الشاملة للتطور الاجتماعي الحضاري وتركيز الحداثة modernization على الاختلاف بين العقلانية - المذهب العقلي الذي يقول بأن العقل غير مسعف بالوحي الإلهي، والعقل هو الهادي الوحيد إلى الحقيقة الدينية أو المعرفة - المترجم - والعقلانية التواصلية من ناحية استراتيجية/ العقلانية الأداتية.

ومثلما حاول "هابرماس" إخضاع النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت للتعديل وإعادة صياغتها من جديد، حاول تعديل نظرية "ماركس" عن الرأسمالية ونظريته عن فائض القيمة، وكذلك تقويم نظرية ماكس فيبر عن العقلانية، في محاولة لإقامة نظرية نقدية توجه الاهتمام إلى نوعية العلاقات والاتصالات الرمزية وتوضيح أهمية القوى الخارجية الضاغطة والسلطة التي تمارسها التكنولوجيا على الإنسان، عن طريق الكشف عن وعي جديد يتخذ في نهاية الأمر صورة «عقلانية تقنية» غير أنه إذا ما تحرر الإنسان من الوعي التقني واستعاد وعيه الذاتي المستلب فسوف يكتسب في الأخير مكانته الحقيقية[1].

[1] طاهر، علي (١٩٨٧). مرجع سابق.

كما قدّم "هابرماس" مفهوم "إعادة بناء العلوم" Reconstructive science لهدف مزدوج: لوضع " نظرية عامة للمجتمع " بين الفلسفة وعلم الاجتماع، ولرأب الصدع الحاصل بين " التنظير " و"البحث الميداني . نموذج " إعادة بناء العقلانية " يمثّل الخيط الرئيس للمسوح حول "بنى" عالم الحياة ("الثقافة" و"المجتمع" و"الشخصية") واستجاباتها "الوظيفية" الخاصة (إعادة الإنتاج الثقافي، التكامل الاجتماعي والتنشئة الاجتماعية). لهذا الهدف، فإن الجدل حول "التمثيل الرمزي" symbolic representation يجب أن يعتبر إلحاق البنى لكل عوالم الحياة (العلاقات الداخلية) و"إعادة الإنتاج المادي للنظم الاجتماعية في تعقيداتها (العلاقات الخارجية " بين النظم الاجتماعية والبيئة). يجد هذا النموذج تطبيقاً، قبل كل شيء، في " نظرية التطور الاجتماعي "، بدءاً من إعادة بناء الشروط الضرورية للفيلوجينياphylogeny (التطور العرقي) لصيغ الحياة الثقافية الاجتماعية "الانسنة" حتى تحليل تطوير "الصيغ الاجتماعية"، التي يقسّمها "هابرماس" لصيغ معاصرة وحديثة وتقليدية وبدائية.

هذا الطرح محاولة، أولاً، لصياغة نموذج " إعادة بناء منطق التطوير " " الصيغ الاجتماعية " لخصت من قبل "هابرماس" من خلال التفاضل أو التمايز بين العالم الحيوي والنظم الاجتماعية، وضمّنها، من خلال " عقلنة عالم الحياة " و" النمو في تعقيدات النظم الاجتماعية ". ثانياً، يحاول البعض عرض التوضيحات المنهجية حول " تفسير الديناميكيات العمليات التاريخية "، وبشكل خاص، حول " المعاني النظرية " لمقترحات النظرية التطورية.

نظرة هابرماس للنظرية النقدية:

يميز "هابرماس" في أعماله المبكرة بين ثلاثة أشكال للنظرية، جميعها ضرورية للتطور البشري في رأيه، وتلك الأشكال الثلاثة للنظرية تقوم بدورها على ثلاثة:

١-المصلحة المعرفية: وما يعنيه هو أننا دائماً نطور المعرفة لغرض معين وتحقيق ذلك الغرض هو أساس مصلحتنا في تلك المعرفة، والمصلحة تؤدي إلى قيام العلوم التحليلية التجريبية. وهي تلك العلوم التي دعاها الرعيل الأول من هذه المدرسة بالعلوم الوضعية، وكل مصلحة تنمو من خلال " الوسط Media " وهو المجال الذي توضع فيه المصلحة موضع التنفيذ. وتؤدي اللغة ، وهي الوسيلة الأخرى التي يحول بواسطتها

البشر بيئتهم ، تؤدي إلى ظهوره. والمصالح التي يناقشها "هابرماس" هي مصالح مشتركة بين الناس جميعاً، بحكم أننا أعضاء في المجتمع الإنساني، فيذهب "هابرماس" إلى أن العمل ليس وحده ما يميز البشر عن الحيوانات، بل واللغة أيضا، فالعمل يؤدي إلى ظهور المصلحة التقنية، وهي المتمثلة في السيطرة على العمليات الطبيعية واستغلالها لمصلحتنا . وتؤدي اللغة، وهي الوسيلة الأخرى التي يحوّل بواسطتها البشر بيئتهم إلى ظهور ما يطلق عليه "هابرماس" "المصلحة العملية" وهذه بدورها تؤدي إلى ظهور العلوم التأويلية . ويذهب "هابرماس" إلى أن المصلحة العملية تفضي إلى نوع ثالث من المصلحة وهي مصلحة الانعتاق والتحرر، وهذه الأخيرة تسعى لتخليص التفاعل والتواصل في العناصر التي تشوهها عن طريق إصلاحها ومصلحة الانعتاق والتحرر تؤدي إلى ظهور العلوم النقدية.

٢-المصلحة العملية: والتي بدورها تؤدي إلى ظهور العلوم التأويلية، والمصلحة العملية تنمو وسط التفاعل، وتهدف إحدى أفكار هابرماس الأساسية إلى الكشف عن الوسيلة التي بموجبها تقوم البنى الاجتماعية بتشويه عملية التفاعل وتثير فيها الاضطراب والبلبلة.

٣-مصلحة الانعتاق والتحرر: وهذه المصلحة مرتبطة أيضاً باللغة وهي تسعى لتخليص التفاعل والتواصل من العناصر التي تشوهها، وتؤدي إلى ظهور العلوم النقدية من قبيل التحليل النفسي، وغاية العلوم النقدية القائمة على مصلحة التحرر هي الكشف عن التشويه القائم في التفاعل والتواصل والإصلاح[1].

أزمة الشرعية ونقد الماركسية ورؤية "هابرماس" للتطور البشري:

يحلل "هابرماس" في كتابه " أزمة الشرعية" مظاهر الأزمات الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية في المجتمعات الحديثة ويذهب في تحليله هذا إلى أنه طالما أن النظام الاقتصادي قد أسلم جزءًا من استقلاله الذاتي إلى الدولة فإن الأزمة الاقتصادية في هذه الظروف يستحيل أن تؤدي إلى أزمة في مجمل النظام الاجتماعي، وذلك لأن مسئولية معالجة الأزمة الاقتصادية تصبح منوطة بالدولة، إن أزمة في مجمل النظام

[1] انظر: هابرماس (٢٠٠٤). المعرفة والمصلحة. ترجمة حسن صقر، كولون، ألمانيا: منشورات الجمل.

الاجتماعي يمكن أن تتطور إذا حدثت أزمة سياسية يصبح النظام الثقافي عاجزًا عن تقديم الدافعيات الضرورية للاستمرار وتجديد إنتاج المجتمع القائم، ويرى (هابرماس) أن المشكلة الأساسية البالغة الصعوبة والتعقيد في المجتمع الرأسمالي المتقدم إنما تتمثل في تقديم شرعية الاقتناع بالنظام الاجتماعي[1].

يشير " هابرماس" إلى أن العمل المنظم اجتماعياً ليس كافياً وحده لتحديد وضع البشر ، باللغة والتواصل هما العاملان الحاسمان في الواقع، ويرى أن المستوى الاقتصادي للتشكل الاجتماعي ليس هو المستوى المهيمن في المجتمعات الرأسمالية إلا في مرحلة الرأسمالية المبكرة، ويذهب إلى أنه يلزم النظر إلى عامل آخر ، إلى مستوى آخر من مستويات التشكل الاجتماعي من أجل فهم تطور المجتمع الإنساني. ونخرج من "هابرماس" بتصور لا يكاد يذكر لمستويات التنظيم الاجتماعي قوامه تغليب المستوى الثقافي على غيره من المستويات، دون الإحاطة بالعمليات السببية ، وبنسق تصنيفي عام، وليس بنسق تفسيري.[2].

وقد حاول "هابرماس" أن يستخرج من الماركسية ما هو مشروع وهام وذو دلالة لنقد المجتمعات الصناعية المتقدمة ويرفض أو ينقد ما يراه غير ملائم، وفي هذا الصدد نجد أن نقده لماركس سار على مستويين:-

انتقاده "لماركس" فيما يتعلق بنظرياته في رأس المال: حيث برهن "هابرماس" على الحاجة إلى إعادة تنقيح نظرية فائض القيمة وقانون الربح المتناقص، ثم نظريات الأزمات التي على النظام الرأسمالي أن يواجهها ثم طبيعة الفهم الأساسي لقضية الصراع الطبقي ونظريته عن الاستعمار وفضلاً عن ذلك فطالما أن الرأسمالية قد نمت وتغيرت فإننا نحتاج إلى التحقق إلى أي مدى تكون الدوافع الاقتصادية المتراكمة متضمنة في المعالجات السوسيولوجية، ولقد كان المقصد الأساسي الذي أراد "هابرماس" تحقيقه من انتقاده "لماركس" هو أن يوضح كيف تتطلب البناءات المتغيرة في المجتمعات الصناعية المتقدمة إعادة التفكير في المقولات والمفاهيم الأساسية التي أكد هوركهايمر- أنها شكلت جزءاً من كل تصوري.

---

[1] عودة، محمود (١٩٨٣). تاريخ علم الاجتماع. بيروت: دار النهضة العربية.

[2] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٣٥٤.

انطلاقا من الاعتبار النقدي ، اعتبر "هابرماس" أن الماركسية فكر ذو قدرة نقدية هائلة لكن لابد من إعادة توجيه الماركسية وذلك بالنظر إليها على أساس بناء نقدي وليس معتقد دوغماتي مغلق ولخص هذه الفكرة في مصطلح "الماركسية كنقد" فالماركسية بالنسبة إليه ليست فكرا علميا ماديا يتجسد في تكون نمط من الرؤية للتاريخ فحسب ، كما أنها ليست قياسا متواصلا لمنحنيات الإنتاج الإجماعي وانعطافاته داخل ديمومة الجبرية ، بل هي أهم من ذلك بسبب طرحها معايير ومقاييس علمية تسعى إلى تحديد ومراقبة البنية الفوقية للمجتمع ، ومن ثم فالماركسية في نظره ليست بإيديولوجيا أو معتقد سياسي فحسب وإنما هي طاقة مستمرة للنقد.

ويرى "هابرماس" أن الإصرار على القراءة الوضعية للماركسية تجعلها معرضة لانتقادات كثيرة منها بالنظر إلى الأسس العلمية وحدها فإنها تصبح غامضة للغاية وتعجز عن توفير محكات النظرية العلمية الجيدة، وفضلاً عن ذلك فإن ما هو واضح ومحدد بالماركسية تم تزييفه بواسطة الوقائع التاريخية. ثم أكد أن الماركسية افتقدت مضمونها النقدي وقدرتها الفعالة (تلك التي تتعلق بممارسة التحرير بواسطة النظرة النقدية الثاقبة لعلاقات القوة).

ويعني ذلك أن "هابرماس" ينتقد في الماركسية ميلها لأن تكون علمًا له إدراكه الموضوعي يهدف إلى تحديد القوانين التي تخضع لها الوقائع موضع البحث والاهتمام، ويؤكد بدلاً من ذلك مضمونها النقدي للنظام القائم وكفاءتها الهجومية [1].

رفض "هابرماس" الماركسية كنظرية اجتماعية:

-الضعف الأساس في كتابات "ماركس" يتمثل في النظر إلى علم الاجتماع في ضوء المبادئ التي تحاكي العلوم الطبيعية ولذلك يجب أن تحرص الماركسية على النظر إلى الإنسان في ضوء إمكانية (التنظير النقدي) لا مجرد (الخضوع الآلي) لقوانين العلوم الطبيعية.

-أن الماركسية تؤكد على أهمية العلم الاجتماعي وتتجاهل دور التفاعل والاتصال داخل المجتمعات.

---

[1] السيد الحسيني (١٩٨١). مرجع سابق، ص ٩٨.

-التغيرات الأساسية التي طرأت على بناء المجتمع البورجوازي.
- ضعف الرغبة في تحقيق التحرر الاقتصادي.
- الشلل الذي طرأ على الماركسية نتيجة لتبني الاتحاد السوفيتي لها.
- تحلل طبقة البروليتاريا.
- العوامل البنائية الأساسية المؤثرة على المجتمع البورجوازي (اتساع نطاق الإدارة المركزية- سيطرة النزعة العلمية على شئون الحياة).

وبذلك نجد ابتعادًا ملحوظًا عن التصورات الماركسية الكلاسيكية ذلك أن "هابرماس" قد منح العوامل الاقتصادية دورًا محدودًا في تحديد مسار المجتمع مستبدلاً إياها بالعوامل السياسية التي اعتقد أنها قد أصبحت حاسمة في إدارة شئون المجتمع الحديث. ومعنى ذلك أن السياسة لم تعد تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الاقتصاد[1].

ويوضح "هابرماس" أن ارتفاع مستوى المعيشة في الدول الصناعية الغربية قد وصل حدًا من الارتفاع دفع قطاعات عريضة من السكان إلى التخلي عن فكرة تحرير المجتمع من الاستغلال الاقتصادي، أي أن الاغتراب الاقتصادي لم يعد هدفًا للنضال السياسي الذي يجب أن تمارسه البروليتاريا، ذلك أن هذا الاغتراب الاقتصادي يظل قائمًا في ظل اغتراب ثقافي أوسع نطاقًا بالإضافة إلى أن الطبقة العاملة في نظر "هابرماس" لا تمثل قطاعًا ثوريًا، طالما أن النظرية الثورية ذاتها قد فقدت من يتحمسون لها ويدافعون عنها[2].

ويرى "هابرماس" أن المستوى الاقتصادي للشكل الاجتماعي ليس هو المستوى المهيمن في المجتمعات الرأسمالية إلا في مرحلة الرأسمالية المبكرة، وهو لا يتمسك كألتوسير بالفكرة القائلة بأن المستوى الاقتصادي هو المحدد في المستوى الأخير، بل يذهب إلى أنه يلزم النظر إلى عامل آخر، إلى مستوى آخر من مستويات التشكيل الاجتماعي من أجل فهم تطور المجتمع الإنساني. وهذه هي النقطة التي يبدأ "هابرماس" منها التحرك صوب "بارسونز" فهو يشير، على سبيل المثال، إلى أن كل نمط من أنماط

---

(١) السيد الحسيني (١٩٨١). مرجع سابق .
(٢) السيد الحسيني (١٩٨١). مرجع سابق .

المجتمع محكوم بشبكة مؤسسية من نوع معين قد تكون مؤسسات اقتصادية كما هو الحال في مراحل الرأسمالية الأولى، أو مؤسسة الدولة في حال الرأسمالية في مراحلها المتأخرة أو القرابة كما هو حاصل في المجتمعات القبلية، على أنه يمكن النظر إلى هذه المؤسسات باعتبارها تجسيداً للقيم والمعايير الثقافية، التي يراها تتطور بشكل تصاعدي نحو درجات أعلى وأعلى من العمومية.

ولنضع الفكرة بصورة أخرى، نقول أن المجتمع البشري ينتظم حول أفكار معينة (قيم ومعايير) أو ما شابهها وتتطور هذه الأفكار عبر التاريخ لتصبح قابلة للتطبيق أكثر فأكثر. ويدين "هابرماس" هنا حول تصوره هنا لعملية العقلنة التاريخية.[1] إلا أن "هابرماس" يؤكد أن الآليات التي تؤدي إلى الانتقال من مرحلة إلى أخرى في التطور الاجتماعي ليست آليات ثقافية بل اقتصادية، بالرغم من أن نقاده قد ذهبوا إلى أنه لم يحدد هذه الآليات تحديداً كافياً.

ويرى "هابرماس" أن الرأسمالية الحديثة تتميز بهيمنة الدولة على الاقتصاد وعلى المجالات الأخرى للحياة الاجتماعية، وأن شئون الحياة لم يعد ينظر إليها باعتبارها مجالاً للنقاش والاختيار، بل اعتبارها مشكلات تقنية تحل بواسطة خبراء يستخدمون في عملهم عقلانية أدائية. ويرى "هابرماس" أن الماركسية التقليدية بتركيزها على الصراع الطبقي لم تعد قادرة على فهم أوضاعنا الجديدة. نعم إن الاختلافات حول الأجور وتحسين شروط العمل ما زالت قائمة، إلا أن الصراعات الحقيقية والمهمة أصبحت تثور في مكان آخر في التشكيل الاجتماعي، وإن نحن أردنا تجنب إمكانية فقدان الإنسان لسيطرته على الحياة الاجتماعية فإن علينا أن نفهم هذه الصراعات بضروبها الجديدة [2].

وينتقد "هابرماس" الأيديولوجية من زوايا متعددة إلا أن معظم انتقاداته تركزت على نقاط أساسية مثل استخدام السيكولوجيين الأيديولوجية كنموذج. فقد انتقد هذا الاتجاه، وهاجمه لأنه يحول التفاعل الفردي بين المريض والمعالج إلى تفاعل اجتماعي بين

---

[1] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ٣٥٢.

[2] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ٣٥٦.

جماعات وطبقات، علاوة على ذلك يرجع المحللون النفسيون الوعي إلى التعاون الذي يقوم به المريض، أما الطبقات فتقوم في علاقاتها على الصراع والسيطرة[1]. ويبدأ "هابرماس" بالنسبة للأيديولوجيا من داخل الماركسية، فيأخذ من "ماركس" معنى الأيديولوجيا بوصفها تصوراً نقدياً يشير إلى شرعية السيطرة في المجتمع، ومن نقد النظرية النقدية لنقدها العقل الأدائي وبزوغ الأيديولوجية التقنية، حيث الدور الأيديولوجي الجديد للعلم والتكنولوجيا كما هو عند "ماركوز" إلا أن "هابرماس" يدخل عنصراً جديداً هو العقل التواصلي وفي إطار العقل التواصلي يبدو تصور الأيديولوجيا عند "هابرماس" فاقد الأهمية في مواجهة نوع جديد من تفتيت الوعي يعتمد على التكافؤ الوظيفي ويمنع تشكيل أشكال شمولية أو كلية للوعي. وفي موضع الوعي المزيف في الأيديولوجيا الشمولية نجد الوعي المجزأ أو المفتت وهذا يفهم بوصفه تقاربا بين هابرماس ونهاية الأيديولوجيا.

نظرية التواصل:

تبرز أهمية " هابرماس" في أنه فتح الفلسفة المعاصرة على نظرية التواصل، بشكلها المتميز، ثم سار بها قدماً، كي تمس السلوك الاتصالي، سعياً منه إلى تشخيص حال العالم بشكل عام، والمجتمعات الأوروبية بشكل خاص، ومحاولاً تحليل أسباب ونتائج ما يهدد الحياة الإنسانية، وبالأخص محاولات تحطيم بنيات الاتصال في خصوصياتها الإنسانية التي ترتبط بالقوى اللاعقلانية في عالم اليوم. وشكلت اللغة هاجس "هابرماس" ومجال اهتمامه، فهي بالنسبة إليه وسيلة وسلوكاً اتصالياً، واستخدمها في نظريته في الفعل التواصلي، التي تنهض على الحوار والتفاهم بين مجموعة المتحاورين في مجتمع الأصدقاء، وسعى في سياق ذلك إلى الكشف عن العقل العملي، الذي يفرض علينا ما نعمله وما نتكلمه، من خلال الاعتراف بالتفاهم والحوار السلمي، وفي ظل ظروف وشروط الاختلاف الاجتماعي والثقافي. وهدف هابرماس من ذلك كله، هو مواصلة تقاليد الأنوار، من خلال نظرية اجتماعية نقدية، تنهض على ترسيخ قيم الحرية والعدالة في الذاكرة الاجتماعية، وتربطها بقوى دولية تمكنها من

---

[1] نجم، طه (٢٠٠٣). علم اجتماع المعرفة. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، ص ١٨٢.

تفتح نواة الخير العام، والفضاء الذي يتسع للجميع. وينطلق "هابرماس"، من داخل الحداثة وخطابها الفلسفي، محاولاً إنقاذ المشروع الحداثي الأوروبي، ومستخدماً العقل كي يهدم أبنية العقل المتحجرة والمعيقة، ويحافظ على جوهر الحداثة بعقل تواصلي، مرتبط بالحداثة، ينتجها وتنتجه من خلال بناء مختلف للذات.

ويستمد هذا العقل التواصلي معطياته من العقل النقدي للحداثة، التي بينت الطبيعة الاختزالية لعقلانية الحداثة والتي ارتبطت بالعلم والتقنية. تلك الطبيعة التي أنتجها العقل الأداتي، أي العقل بوصفه مجرد أداة لا غير، ووجوده الكلاّني الذي شيّأ كل شيء يحيط به بما في ذلك العقل نفسه، والعقل التضمني الذي يحاول ابتلاع كل شيء.

وقد وجه "هابرماس" نقداً شاملاً للعقل الأداتي ومركزه الفلسفي الوضعي، متبعاً طريق " هوركهايمر، وأدرنو، وماركوز"، وغيرهم من فلاسفة مدرسة فرانكفورت، ويقترح "هابرماس" «العقل التواصلي» كدرب للخروج من فلسفة الذات، من خلال "نظرية الفعل التواصلي" التي تعدّ قراءة جديدة للفلسفة الأوروبية، تظهر فيها الحداثة ـ في التحليل الأخير ـ كتحقيق لنظرية الفعل التواصلي، على أن تفهم التواصلية خارج كل ذاكرتها الاصطلاحية وتاريخها المفهومي. وترمي التواصلية إلى بناء مختلف للذات عبر «عقل تواصلي» يتجاوز الذات الضيقة، ويشكل نسيجاً من الذوات المتواصلة، ويستمد العقل التواصلي إمكاناته من العالم المعاش، ويؤسس عقلانية تقوم على التلاحم الذاتي، يكون فيها العقل مصدر كل القرارات. هذا العقل التواصلي مدعو إلى تجاوز عقل متمركز على الذات ووظيفته التغلب على مفارقات وتسويات نقد للعقل ذاتي المرجع، وكذلك التخلص من كل إشكالية العقلاني. ويتطلب الفعل التواصلي، كما تدل تسميته، تحطيم دوائر الانغلاق سواء جاءت من العبارة أو رموزها الواقعية أو ممثليها المنفذين، بوصفه نموذج الفاعلية الموجهة نحو التفاهم وما هو أساسي في نموذج التفاهم هذا، هو الاتجاه الأدائي الذي يتبناه المشتركون في التواصل، حيث ينسقون مشاريعهم بالاتفاق فيما بينهم على أمر ما موجود في العالم، ويعول هابرماس على التوافق الفكري بين الفاعلين. لأن الفعل التواصلي يتطلب وعياً وإرادة لتحقيقه بين «أنا» و«آخر» حيث أنا عندما أقوم بالكلام، والآخر الذي يتخذ موقفاً إزاء كلامي،

نعقد كلانا، الواحد مع الآخر، علاقة بين شخصينا، في تبادل يتوسطه اللسان، يتيح للذات أن يكون لها مقابل ذاتها، كأننا متحاورون أحرار في جمهورية حرة وسقراطية. إذاً، فالحداثة التي أفرزت فلسفة الوعي (الذات) هي التي تدعو إلى تجاوز النموذج نحو ما يسميه هابرماس بالعقل التواصلي.

الفكر النقدي في نظره ينطلق من التسليم بقدرتنا على تفكر الوعي ،فإننا عند اتخاذ أي قرار نقوم به بوزن الأمور واختيار الرأي الأكثر عقلانية بناء على معطيات الواقع الماثل أمامنا، ففي كتابه "نظرية الفعل الاتصالي ١٩٨٤" يرى أنه من الضروري التحرر من فلسفة الوعي ، التي تعي العلاقة بين اللغة والفعل ، فالعلاقة بين الذات والفعل والنظر إلى عالم بهذه الطريقة يجعلنا أسرى للعقل الأداتي أين تكون الذات هي التي تقوم بعمل شيء ما للموضوع ، وللنزعة التشاؤمية . كما ميز بين الفعل الاستراتيجي والفعل الاتصالي ، إذ يتضمن الأول الفعل الغائي العقلاني ويشير النوع الثاني إلى ذلك الفعل الذي يرمي للوصول إلى الفهم.

الفعل الاتصالي هو: " أي تفاهم يتم التوصل أي على أساس عقلاني". وذلك لأنه تفاهم لا يمكن فرضه من قبل أي ممن الطرفين أذاتيا كان ذلك الفرض عن طريق التدخل في موقف تدخلا مباشرا - أم استراتيجيا عن طريق التأثير في قرارات الخصم . ويترتب عن الفعل الاتصالي مفهوم العقلانية المتضمنة في لغتنا والتي تستلزم نسقا اجتماعيا ديمقراطيا يشمل الكل ولا يستبعد أحدا ، وهدفه الوصول إلى تفاهم ، ومن ثم فالنظرية عنده هي نتاج للفعل البشري وتخدم غايات ذلك الفعل ، وهي أداة لتحقيق حرية أكبر للبشر والتطور عبر مستويات مختلفة[1] .

يتوجه "هابرماس" في عمله "نظرية فعل التواصل (١٩٨٤-١٩٨٧م) " إلى فلسفة اللغة ابتغاء توسيع أساس النظرية النقدية وقد قدم أطروحته التي يمكن تحديدها في ثلاث مراحل كما يلي:

---

(1) إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص٣٥٢-٣٥٤.

١- المرحلة الأولى: يدعو إلى ضرورة التحرر مما يدعوه "بفلسفة الوعي" التي يعني بها الفلسفة التي ترى العلاقة بين اللغة والفعل كالعلاقة بين الذات والموضوع (أي التحرر من منظومة الفكر التجريبي.

٢-المرحلة الثانية: يمكن أن يتخذ الفعل صورتين، الفعل الاستراتيجي وفعل التواصل . الأول يتضمن الفعل الغائي العقلاني، في حين أن فعل التواصل هو ذلك الفعل الذي يرمي للوصول إلى الفهم.

٣- يترتب على فعل التواصل الأولية عدة أمور:

أولاً: العقلانية بهذا المعنى ليس مثالا نقتنصه من السماء، بل هو موجود في لغتنا ذاتها، إن هذه العقلانية تستلزم نسقاً اجتماعياً ديمقراطياً لا يستبعد أحداً.

ثانياً: هناك نظام أخلاقي ضمني يحاول " هابرماس" الكشف عنه، وهو الأخلاق الكلية الذي لا يتوجه إلى تحليل مضمون المعايير بقدر توجهه إلى طريقة التوصل إليها، والتوصل إليها - حسب هابرماس- يكون عبر نقاش حر عقلاني.

ويميل كثير من المنظرين المحدثين إلى الأخذ بعدد من الأفكار الرئيسة التي طرحها " هابرماس" في كتابه " الفعل التواصلي" إلا أنه تعرض لانتقادات حادة، ولا سيما من المدرسة النسوية. لأنه في معرض حديثة عن الدولة المواطنة في المجتمعات الحديثة اتخذ موقفاً محايداً من قضية الجنوسة، وأغفل التعرض لجوانب اللامساوة التي تسود ممارسات مفهوم المواطنة، وتغلب فيها مصالح الرجال واهتماماتهم على النساء[1].
وقد اعتبر "هابرماس" أن إنجازه الرئيس تطوير مفهوم ونظرية العقلانية التواصلية communicative rationality، الذي يميزه عن التقليد العقلاني بتحديد العقلانية في بنى الاتصال اللغوي الشخصي. تقدم هذه النظرية الاجتماعية أهداف الانعتاق أو التحرر الإنساني، بينما يبقى الإطار الأخلاقي الشامل. هذا الإطار يستند إلى حجّة تدعى البرجماتية الشاملة - universal pragmatics كل الأفعال الخطابية لَها نهاية متأصلة - وهي هدف الفهم المتبادل، وأن البشر يمتلكون القدرة التواصلية لجلب مثل هذا الفهم.

---

[1] أنتوني ، غيدنز (٢٠٠٦). مرجع سابق، ص ٧٢٧.

قضايا أخرى:

إضافة إلى ما سبق، فقد تناول "هابرماس" مجموعة من المسائل الراهنة، التي تثيرها قضايا مختلفة، كالمادية التاريخية وتطور البنى المعيارية، والتاريخ والتطور، وقضايا الشرعنة في الدولة الحديثة، ودور الفلسفة داخل الماركسية، والتطور كدياليكتيك.

من جهة أخرى، يعتبر "هابرماس" الفرد والجماعة مبدأين أساسيين، لا يجوز مقابلتهما ضدياً، بل يجب النظر إليهما بوصفهما ثنائية أصلية في الديمقراطية. وبهذا يتجاوز "هابرماس" الفكرين: الليبرالي الذي يعلي من شأن الفرد على حساب الجماعة، والماركسي الذي يعلي من شأن الجماعة على حساب الفرد. ويشترط القبول بمبادئ المساواة والاستقلالية، بوصفها مبادئ مؤسسة للمجتمع الديمقراطي. غير أنه إذا كان التوافق يتيح قيم الاندماج والاستقرار بين مكونات الجماعة، فإن ذلك لا يعني التسليم بأن التراضي شرط لشرعية الجماعة أو شرط لوجودها. ومن هنا لا يجوز وضع الأمة أمام الدولة ولا الدولة أمام الأمة.

سلطة العلم والتقنية:

استطاع " هابرماس" في كتابه " التقنية والعلم كأيديولوجيا" أن ينتقل إلى مرحلة متقدمة في تكوين اتجاهه النقدي الخاص حول دور العلم والتقنية في مجتمع ما بعد الحداثة (مجتمع ما بعد التصنيع)، منطلقاً من أن الرأسمالية المعاصرة هي رأسمالية متأخرة، يأخذ التغير الاجتماعي فيها وتأثر سريع بحيث تتوسع قوى الإنتاج ويتطور العلم والتقنية ليسيطرا على المجتمع سيطرة تامة وتصبح البنيات المعرفية مستقلة عن الأهداف التي رسمت لها، وبذلك تصبح لها قوة فاعلة في إصدار القرارات. وفي مثل هذا المجتمع أصبح، ولأول مرة، التحرر من سلطة الطبيعة هو في ذات الوقت تحرراً من السلطة الأخلاقية. أن هذا التطور شكل نوعاً جديداً من السلطة أطلق عليها "هابرماس" «السلطة التقنية» التي هي وسيلة من وسائل الكبت والإحباط، وهذا نوع من السلطة التي يرافقها أيديولوجية تكنوقراطية تكوّن الأساس الذي يقوم عليه ترشيد السلوك، حيث ينمو نشاط الدولة التدخلي الذي يؤمن استقرار النظام. وفي المقابل، هناك تبعية البحث العلمي ـ التقني، التي جعلت من العلم قوة إنتاج من الدرجة الأولى،

وأصبح للعلم الحديث وظيفة خاصة هي إنتاج معرفة في شكل علم تقني قابل للاستغلال. والحال إن «العقل التقني» الذي طوره "هابرماس" هو الأيديولوجيا نفسها، ليس في استخدامها فحسب، بل في تسلطها على الطبيعة وعلى الإنسان في ذات الوقت.

إن تحليل " هابرماس" الذي يوحد العلم والتقنية مع السلطة العقلانية، يؤكد على وضعية تاريخية معينة ومصالح طبقية كمشروع تصبح السلطة فيه نوعين؛ سلطة قمعية وأخرى متحررة، كما تصبح التقنية فيها شكلاً شاملاً للإنتاج المادي الذي يحدد شكل الحضارة بكاملها ويرسم بالتالي كليانية تاريخية، بل عالماً شمولياً.

والواقع أن التطور العلمي ـ التقني الذي ميز الرأسمالية المتأخرة، مكّن من إدخال تقنيات جديدة هي ليست حدثاً جديداً، ولكن كان لها نمو طبيعي ارتبط بتقدم العلوم الحديثة وتواصل البحث العلمي ووسائل الاتصال، التي عملت على توحيد العلم بالتقنية في نظام واحد، وكذلك مع الدولة عن طريق عقود البحث العلمي، التي شجعت بدورها التقدم التقني في المجال الصناعي والعسكري. ومن هذين المجالين، نبعت المعلومات لتصب في الأخير في مجال إنتاج البضائع المدنية ـ الاستهلاكية. وهكذا أصبح العلم والتقنية قوة إنتاج من الدرجة الأولى تظهر على شكل وعي جمعي وضعي ووعي تكنوقراطي، وتتحول في الأخير إلى أيديولوجية بديلة للأيديولوجية البرجوازية المهترئة[1].

مفهوم هابرماس للحداثة:

يضيف هابرماس **Habermas** أن كلمة حديث (Modern) ظهرت لأول مرة في القرن الخامس لتميز الحاضر الذي جاء بعد المسيحية، عن الماضي الذي طغى فيه الرومان، وسادت فيه الممارسات الوثنية. ومعنى ذلك أن الحديث نشأ كوعي بمرحلة انتهت لكي يثبت ذاته كنتاج للتحول من القديم إلى الحديث. وعلى أنه بالرغم أن البعض يقصر مفهوم الحداثة على عصر النهضة، إلا أن ذلك يعد فهماً ضيقاً للغاية، فالناس اعتبروا أنفسهم - في عهد تشارلز الأكبر في القرن الثاني عشر- حداثيين. كذلك حدث نفس الشيء في فرنسا في القرن السابع عشر. ومن ثم يمكن القول أن مفهوم

[1] انظر: هابرماس (٢٠٠١). المعرفة والمصلحة. ترجمة حسن صقر، ألمانيا: منشورات الجمل.

الحديث ظهر في مراحل تاريخية سابقة. وعاد للظهور خلال الفترات من التاريخ الأوروبي. حيث تشكل الوعي بظهور مرحلة جديدة مغايرة للمرحلة السابقة عليها. إلا أن مرحلة التنوير أحدثت تغييراً في مفهوم الحديث، حيث ارتبط هذا المفهوم بالتقدم في مجال المعرفة والتطور الاجتماعي والإصلاح الأخلاقي. بالإضافة إلى أشكال أخرى من الوعي الذاتي الذي حدث في أعقاب التحولات في المجتمع الغربي[١].

ويقدم "هابرماس" وصفا أكثر وضوحا في هذا الشأن، فيجعل المصطلح الأول يدل على الإطار المعرفي للحداثة، أو الوعي التاريخي السائد إبان مرحلة معينة من القديم إلى الحديث، في حين يجعل الثاني بمثابة المحصلة لذلك التراث الفكري الذي تطور تاريخا في أوروبة ثم في الغرب منذ عصر النهضة واكتسب بمرور الوقت طابعا عالميا [٢]. وبالرغم من هذا التميز الذي يحاول بعض الباحثين تقديمه، فإن الأدبيات العديدة التي تعالج موضوع الحداثة عامة لا نجدها تلتزم بذلك التقسيم أو التميز الاصطلاحي، ربما يعود ذلك لطبيعة موضوع الحداثة نفسه فهو لا يقبل هذا التميز لأن الحديث عن الحداثة هو الحديث عن منظومة ترى نفسها أنها مرجعية كاملة للحياة بمختلف مجالاته فلا مجال لعزل حقل من حقول الحياة عن الآخر[٣].

نظرية ما بعد الحداثة:

يؤكد "هابرماس" في تقييمه لنظرية ما بعد الحداثة، أن الحداثة لا ترتبط لديه بمرحلة تاريخية، كعصر النهضة أو التنوير أو حتى الحاضر، وإنما تبرز كلما تجددت العلاقة بالقديم، وتم الوعي بالمرحلة الجديدة. من هنا فإن ما بعد الحداثة عنده ليست صفة لعصر جديد، حيث إذا كانت الحداثة قد استمدت شرعيتها كعصر جديد

---

(١) حجازي، أحمد (١٩٩٨). مرجع سابق، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) رسول، محمد (٢٠٠١) الغرب والإسلام: قراءات في رؤى ما بعد الاستشراق. عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٣) تتعدد الترجمات العربية لكلمة Modernism على سبيل المثال تترجم إلى الحداثة، أو الحداثية، أو الحداثوية، أو الحداثانية، أو نزعة الحداثة، أو العصرية، أو العصرانية، أو المودرنزم . انظر: العجلوني، نايف (١٩٩٦) الحداثة والحداثية: المصطلح والمفهوم، مجلة أبحاث جامعة اليرموك. مجلد١٤ . العدد٢، ص ١٠٥-١٣٩.

للإنسانية، من داخل مشروعها الخاص عن العقل والحرية والفردية، فإن ما بعد الحداثة تعتبر نوعا من الاستئثار بالمنجزات المادية والسياسية للحداثة، لكن مع مجافاة مبادئها حول العقل والتنوير. إنها برأيه، استمرار لتيار تحديث المجتمع، افتراضا من أن الحداثة والتنوير لا يحدهما أفق. ورغم أن هابرماس لا يماري في أزمة الحداثة، ضمن السياق الملموس للتطور الرأسمالي في الغرب، وفي العالم أجمع، إلا أنه يعمد إلى إعادة تفسير فكرتها ونقدها وتطويرها وتوسيعها، مركزا بشكل خاص على بعدها التحرري الشامل، وموضوعية القيم الإنسانية التي بشرت بها، بما يعني أن الحداثة التي يدافع عنها بمثابة مشروع لم يكتمل بعد، تقع على قوى اليسار والديمقراطية مهمة استئنافه. لهذا السبب، بدت له دعاوى وحجج ممثلي ما بعد الحداثة للتنصل من هذا المشروع، بمثابة عودة إلى التقاليد المعادية للتنوير، سواء كان مصدرها الغرب أو بقية أجزاء العالم. وفي نظره، فإنه بدل التخلي عن مشروع الحداثة يجب القيام بفحص نقدي له، وإظهار سلبياته وإيجابياته، واستخلاص الدروس اللازمة لاستكماله. ولهذا هاجم ما بعد الحداثة، ونعت إعلامها بالمحافظين الجدد، وطالب بإعادة الثقة في مشروع الحداثة، بالكشف عن منطق آخر في تطويره، عن طريق إبقاء الباب مفتوحا أمام ما أطلق عليه زيادة الفعل التواصلي بين الأفراد والجماعات، كفاعلية تتجاوز العقلية المتمركزة حول الذات، أو الشمولية المنغلقة التي تدعي أنها تتضمن كل شيء، أو الأداتية الوضعية التي تفتت وتجزيء الواقع، إن "هابرماس" يحاول إنقاذ الجانب الإيجابي للحداثة، حين يقدم قانونا تواصليا جديدا لعقلانيتها، يقوم على أساس فردي وعقلاني وشفاف، ويسعى إلى إجماع مع الأخر من خلال حوار غير مشوه. لكن فعالية هذا القانون لا يمكن تحقيقها إلا بتجاوز الحدود البرجوازية للرأسمالية، وبخاصة في شرطها الراهن البادي في الليبرالية المعولمة. وهذا الشرط الراهن يميل في اتجاه «كونية سيميائية» لمنظري ما بعد الحداثة، بما يجيز التحقق من تقارب العولمة وما بعد الحداثة، انطلاقا من سعيهما المشترك في تقليص العالم، بتفكيك الحكايات الكبرى والكيانات والهياكل الشمولية[1].

---

[1] يورغن هابرماس (١٩٩١). القول الفلسفي للحداثة. ترجمة فاطمة الجيوشي. دمشق: وزارة الثقافة، ص ٧١.

وجه " هابرماس" اهتمامه في السنوات الأخيرة إلى سياسة ما بعد الدولة القومية أو ما بعد الحداثة، بسبب فقدان الدولة القومية أهميتها في زمن العولمة، مشدداً على الجذور الثقافية لمفهوم القومية باعتبارها قدراً جمعياً ادعى لنفسه وجوداً دولياً يتغذى على وجهات نظر وقناعات ودعاوى وحقوق وهمية لتقرير وجوده، كما ناقش الأساليب الدفاعية التي تستخدمها التعددية الحضارية في ادعائها الدفاع عن حقوق الإنسان وتطبيق حق الشعوب في الاستقلال الذاتي في مرحلة ما بعد الحداثة. وعلى المرء أن يعيد النظر بمفهوم «كانت» حول مفهوم «المواطنة العالمية» في ضوء تجربتنا التاريخية. فطالما تم التلاعب بحقوق «الشعوب البريئة» التي لم يسمح لها اليوم، في ظل النظام الدولي الجديد، بالتدخل في شؤونها الداخلية. ولهذا تتطلب التعددية الحضارية مرآة تعكس ما تحتاج إليه الأقليات القومية لحماية نفسها من حكوماتها ذاتها. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا في إطار دولة القانون الشرعية التي تندمج فيها الأقليات في حضارة الأكثرية، كما أن سياسة الاعتراف بالآخر كفيلة بتأمين التعايش والوفاق المتكافئ بين مختلف الثقافات.

وقد تنبأ "هابرماس" بأن مجتمع ما بعد الحداثة، من الممكن أن يزيد ويعمق الصراعات الثقافية بين مواطني «المجتمع العالمي» الذي يعمل على احتواء الآخر بصورة إرادية كما يحدث اليوم[1].

[1] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٣٥٦.

الفصل الثامن
الاتجاهات الحديثة
في النظرية الاجتماعية

أولاً- ألان تورين التاريخية والصلات الطبقية.

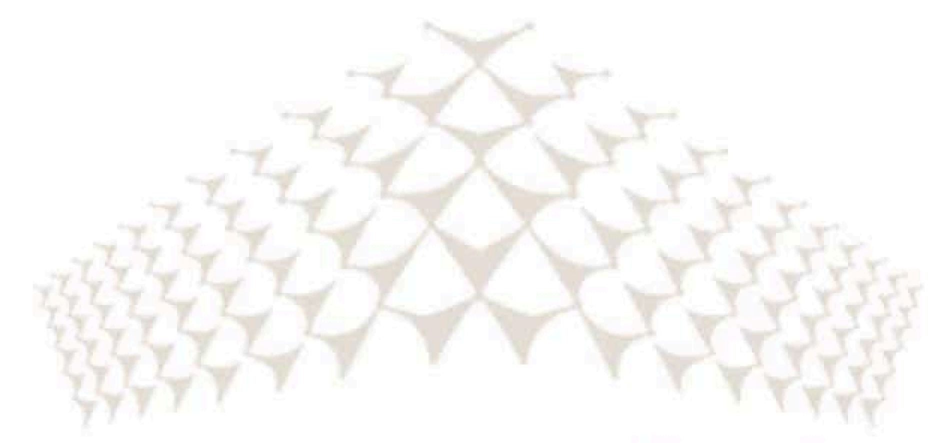
ثانياً- ريمون بودون والنظرية الفردية.

ثالثاً- ألفن جولدنر وأزمة علم الاجتماع الغربي.

رابعاً- أنتوني غيدنز والتنظير الجديد لعلم الاجتماع.

خامساً- ألفرد شولتز والاتجاه الفينومينولوجي.

سادساً- لوسيان جولدمان وعلم اجتماع الرواية.



الفصل الثامن
الاتجاهات الحديثة
في النظرية الاجتماعية

سبق أن عرضنا في الفصول السابقة عند مناقشتنا للنظريات الاجتماعية الكلاسيكية التطورات التي حدثت لها. والإضافات العلمية لعدد من العلماء المحسوبين على تلك النظريات. وهي في نفس الوقت تمثل نظريات حديثة. إلا أنني رأيت عرضها في تلك الفصول نظراً لانتمائها لتلك النظريات.

في هذا الفصل سأتناول بعض النظريات المرتبطة بعلماء مجددين في علم الاجتماع. أو قاموا بتقييم للنظريات الاجتماعية السابقة. ومن ثم توصلوا إلى أطروحات أو نظريات حديثة أسهمت في تطوير النظرية الاجتماعية.

أولاً- ألان تورين Alain Toyrine التاريخية والصلات الطبقية:



حياته:

يعد عالم الاجتماع الفرنسي ألان تورين من أبرز الباحثين العالميين في حقل السوسيولوجيا. حصل على الدكتوراه عام ١٩٦٥م على يد أستاذه جورج فريدمان[1]. وكرس أبحاثه الأولى لسوسيولوجيا العمل والحركات الاجتماعية في أمريكا اللاتينية. أصدر عشرات الأبحاث منها، ما هي الديمقراطية عام ١٩٩٤م، هل يمكن أن نعيش مجتمعين؟ عام ١٩٩٧م، و "كيف يمكن الخروج من الليبرالية" عام ١٩٩٩م. ومن كتبه ، كتاب " نقد الحداثة " ، وكتاب " سوسيولوجيا الفعل ". وكتاب " إنتاج مجتمع "، وكتاب " مجتمع ما بعد الصناعة".

أسس عام ١٩٥٨م مختبر السوسيولوجيا الصناعية والذي أصبح يحمل اسم المدرسة التطبيقية للدراسات العليا. وفي عام ١٩٦٨م أسس مختبر التدخل السوسيولوجي. تنقسم أعمال إلى ثلاث مراحل، اهتم بالأولى بالوعي الطبقي العمالي ثم بتداعيات الثورة الطلابية عام ١٩٦٨م. قبل أن ينصب اهتمامه على تطور الحركات الاجتماعية وهويتها خاصة في أمريكا للاتينية التي عرفت إبان الستينات تصاعد الحركات الاحتجاجية التي رافقتها انقلابات دموية. أما المرحلة الثالثة فدشنها بكتابه (عودة الفاعل Sociologie action)[2].

الرؤية والمشروع العلمي:

لقد جال "ألان تورين" أنحاء المعمورة عدة مرات وقضى حياته متنقلاً وباحثاً في أوروبا وكندا وأمريكا الشمالية واللاتينية بحيث يصعب القول أن هذا العالم غفل عما يقع في العالم من تغيرات وتبدلات جذرية. فقد لاحظ بحق تغيرات غير مسبوقة في

---

(١) جورج فريدمان Friedmn, George (١٩٠٢- ١٩٧٧م) هو أستاذ ألان تورين وهو عالم فرنسي للإدارة العلمية في الغرب وفي الاتحاد السوفيتي سابقاً. افتتح الدراسات في علم الاجتماع الصناعي في فرنسا ما بعد الحرب العالمية الثانية. اهتم بالتقدم التقني وتأثيره على الحرف الصناعية التقليدية وجماعات العمالة الماهرة. ألف كتاب (المجتمع الصناعي) ١٩٥٠م.

(٢) مشواط، عزيز (٢٠٠٥). إشكالية الهوية في العلوم الإنسانية: مآزق الإشكال وقلق المفهوم. مجلة العلوم الإنسانية، العدد ٢٥.

المجتمعات كظهور المجتمع الصناعي بوصفه مجتمعا مبرمجاً، ومنظماً لا ينفك عن التحول والتبدل، مجتمع توجهه وتحدد اختياراته واستراتيجياته إرادته التي تمثل منظومة عمل تقع في مستوى التاريخانية والصلات الطبقية[1]. ولكنه لم يقبل أن يصيغ نظريته على أساس المجتمع الصناعي لا سيما وأن النظرية بذاتها صدرت بفعل دراسات أجريت بالدرجة الأساس على مجتمعات متخلفة، لذا نراه يصر، وهو محق في ذلك، على أن نظريته تخص كل المجتمعات الصناعية وغير الصناعية بما فيها البدائية. أما لماذا صاغها انطلاقا من المجتمع الصناعي فلأن ما يسميه بالتاريخية تكون أوضح للمعاينة وأيسر مما هي عليه في المجتمعات المتخلفة، إذ من الممكن توفر أدوات البحث الاجتماعي من إحصاءات وسجلات ومقابلات ومعايشات ورصد وتحقق ومقارنة وحرية البحث والتفكير بصورة لا تقارن لو كانت المسألة في مجتمع تقليدي من سماته إعاقة البحث العلمي، كما أن مدى التحقق في المجتمع الصناعي كواقع أوسع بما لا يقارن في أي نوع آخر من المجتمعات. وأيا كانت الأسباب فالتاريخية موجودة في كل المجتمعات.

لذلك أراد "ألان تورين" إيجاد تفسير جديد لمثل تلك التغيرات مشترطاً عدم الركون للتفسيرات التقليدية ووجوب القطع مع:

١- كل تفسير جادت به الفلسفات القديمة: " ينبغي استبعاد كل سوسيولوجيا للقيم" لأن المجتمع هو" منظومة صلات اجتماعية ونقاشات وصراعات ومبادرات سياسية ومطالبات وصنوف ضياع" بينما منظومة القيم التي تستند إلى الرموز والتصورات الغيبية والقوى المطلقة فـ " ليست سوى أيديولوجيا متماسكة في كثير أو قليل وترتبط بفئات اجتماعية تتمتع ببعض السلطة ".

---

[1] أسهمت أفكار وأطروحات ألان تورين في صياغة مشروع فكري لعلم الحركات الاجتماعية. انظر: ليسلي سكلير (٢٠٠٤). الحركات الاجتماعية والرأسمالية العالمية. في كتاب (من الحداثة إلى العولمة: رؤى ووجهات نظر في قضية التطور والتغيير الاجتماعية)، سلسلة عالم المعرفة، رقم (٣١٠)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ٢٣١- ٢٥١. وكذلك انظر: جان كزوف (١٩٨٩). دعائم علم الاجتماع. ترجمة عادل العوا، دمشق: دار طلاس، ص٣٠٥- ٣٤١. الخاص بالحركية الاجتماعية وتطورات البحث العلمي فيها.

٢- الماركسية دون إغفال الإفادة منها. إذ أن علم الاجتماع لم يعد، بالضرورة، ماركسي نصوصي ذو بعد واحد يفسر الظواهر الاجتماعية بعامل مهيمن هو "العامل الاقتصادي". كما أن التفسير الطبقي للصراع الاجتماعي والتغير لم يعد العامل الحاسم في التحول، وبلغة ماركسية فإن الصراع الطبقي فقد سمته كقوة محركة للتاريخ لأن الصراع الاجتماعي بات صراعاً من أجل إدارة وتوجيه التاريخانية وليس صراعا تناظرياً ولا تنافسياً.

٣- النظرية الوضعية التي تجهد في النظر إلى المجتمع متأملة خضوعه لقوانين ينبغي البحث عنها واكتشافها والعمل بها للتخلص من العبث المنهجي. وهي في الواقع نظرية تم تجاوزها منهجيا منذ أربعينات القرن العشرين كما سبق وأشرنا في الجزء الأول من الموجز.

٤- النظرة الحقوقية التي ترى المجتمع من خلال القوانين والعادات والأعراف والحقوق والواجبات ومن خلال الدولة وقدرتها على التدخل في المجتمع وإخضاعه وتكييفه. ذلك أن تورين يرى أنه ثمة ممارسات اجتماعية تقع خارج نطاق هيمنة الدولة وتراتيبها ومنظوماتها القانونية والتسلطية.

الحداثة عند ألان تورين:

من خلال انتقاده للحداثة اعتبر كتاب " نقد الحداثة " لمؤلفه " ألان تورين Alain Tourine " جهداً نظرياً بناءاً في السعي إلى إصلاح الحداثة Modernisme وتطعيمها. بحيث حاول "تورين" إنقاذ الحداثة مطالباً بالعودة إلى الأصول التي انطلقت منها كمرجعية أساسية لتصحيح مسارها الخاطئ الذي أدى إلى التوتر والأزمة. وقد طرح " ألان تورين" الحداثة كمخرج من الحداثة التي انكشفت عن أزمات كبرى. أو ما أطلق عليه ما بعد الحداثة Post Modernisme. فالحداثة كما يراها ثورة الإنسان المستنير على التقاليد. وخضوع لقانون العقل الطبيعي، وتقديس للمجتمع. هي إنجاز للعقل للعلم خاصة، للثقافة، للتربية. لذلك يجب أن تنحصر أهداف السياسات الاجتماعية التحديثية في تعبيد الطريق التي يسلكها العقل بإلغاء التقنيات والموانع الحرفية والحواجز الجمركية. أو أن الحداثة هي: الاستماع لصوت الذات لا استنباطاً بل كفاحاً لأجل الحرية. هذه الذات هي إرادة الفرد والجماعة وأن يكونا صانعي حياتهما.

وقد اهتم "ألان تورين" بانتقاد الحداثة في الفكر الغربي من خلال تناولها من منظور تاريخ الأفكار والذي اهتم بالكشف عن سياق ظهور الفكرة وازدهارها وأفولها وعن وظيفتها الاجتماعية في مرحلة تاريخية معينة. وحاول من خلاها نظريته النقدية أن يشمل الفلسفة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ وعلم النفس. من هنا حدد المبادئ الأساسية التي يجب أن تشكل الثقافة الحديثة وهي:

١- اكتشاف العقل العلمي لقوانين الطبيعة.

٢- سيادة الشعب وبناء النظم الاجتماعية على معيار القوانين العقلية.

٣- تحرر الفرد من السلطات الدينية والأخلاقية والأسرية، واستبدالها بالمعايير العقلية.

من هنا يتضح من هذه المبادئ الثلاثة مركزية العقل والمقاييس العقلانية في تصور الطبيعة وتحديد القيم الفردية والنظم الاجتماعية والسياسية. ومن ثم انبثاق فكرة عالم موحد، ينسجم فيها الكون والفرد والمجتمع ويتحكم فيه العقل العلمي. لذلك يؤكد "ألان تورين" أن الفرد مواطن بسبب وجوده الفردي الحر. مثلما أنه حر بسبب المواطنة التي يتمتع بها[1].

وعلى الرغم من بروز مفهوم المجتمع المدني وتراجع مفهوم الحركة الاجتماعية. إلا أن ألان تورين يرى أن موقفه النقدي الرافض لفكرة ما بعد الحداثة الذي أعلن انتهاءها لصالح النسبية وتفضيلاً لمفهوم الجماعات المدنية المتنازعة في المجال العام التي تدير نزاعاتها عبر آلية التفاوض المستمر وليس الحركات الواسعة الأيدولوجية. وقد انصب نقد " ألان تورين" على ما بعد الحداثة باعتباره فكراً هداماً للنموذج العقلاني الذي وصلت إليه المجتمعات الحديثة عبر نضالات مريرة على مدى القرنين الثامن والتاسع عشر والذي يقوم بالأساس على السعي لبناء إجماع رشيد. لذلك توصل في كتابه المجتمع ما بعد الصناعة[2] Post-Industrial Sosite إلى فرض رئيس: بقوله:

---

[1] ألان تورين (١٩٩٨). نقد الحداثة. ترجمة أنور المغيث، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

[2] من علماء الاجتماع الفرنسيين الذين تتقارب رؤيتهم مع رؤية ألان تورين عالم الاجتماع ريمون Nv,k Raymond Around (١٩٠٥- ١٩٨٣). والذي يعد من أبرز علماء الاجتماع الفرنسيين المعاصرين. الذي خصص معظم مؤلفاته لتأكيد تصوراته الاجتماعية المرتبطة بمواقفه السياسية إزاء=

ليس هناك مجتمع في العالم ولا قارة يمكنه الادعاء بأنه نموذج يتعين على باقي الكوكب الأرضي أن يحذو حذوه، وإلا تعرض للافتقار والزوال.[1]

المجتمع الديمقراطي:

يعتقد " ألان تورين" أن السلطة السياسية ترتبط عضوياً بقوة النظام الديمقراطي. هكذا يؤمن بأن الديمقراطية رهينة باحترام الحقوق المدنية والاجتماعية. فالديمقراطية هي النظام السياسي الوحيد الذي يسم بتشكل الفاعلين الاجتماعيين. ويتيح لهم فرصة المشاركة الحرة. ذلك ليبين أن هدف الديمقراطية لم يعد يتمثل في مواجهة نمط جديد من الممارسات التي تتبنى الحداثة، وتحتمي بالشعب. لكنها لا تتيح للناس أي فرصة للمبادرة الحرة. لذا أصبحت الديمقراطية مضطرة لمحاربة الأنظمة العسكرية الاستبدادية، علاوة على محاربة الأحزاب الكليانية. خصوصاً وأن هناك من يستغل الديمقراطية، إما لخلق أنظمة استبدادية أو للعمل على استنبات ممارسات اقتصادية فردانية تقوم على اقتصاد السوق وتدفع نحو تعفن الدولة. ليستنتج " ألان تورين" أن أساسيات النظام الديمقراطي تتمثل في الاعتراف بالحقوق الاجتماعية، وشرعية القيادات، والشعور بالمواطنة.

فهناك تكامل بين أبعاد الديمقراطية الثلاثة، احترام الحقوق الأساسية، والمواطنة، والصفة التمثيلية للحكم. فالديمقراطية تفترض بالدرجة الأولى أن يكون الحكام ذوي صفة تمثيلية، أي أن يكون هناك قوى مجتمعية فاعلة، بحيث يكون فاعلوها السياسيون ممثلين لها. وبما كان المجتمع المدني مؤلفاً من قوى اجتماعية فاعلة ومختلفة. فإن الديمقراطية لا يمكنها أن تكون تمثيلية إلا إذا كانت تعددية. أما الصفة الثانية

= انقسام العالم إلى أيدولوجيتين كما يراهما الماركسية والديمقراطية. من مؤلفاته (صراع الطبقات) أو (الخصام بين الطبقات) ١٩٦٤م، وكتاب (مراحل التفكير الاجتماعي)، وكتاب (التقدم والوهم) ١٩٦٨م. وقد تأثر بدوركايم وماكس فيبر في رؤيته لماهية علم الاجتماع والظواهر والبنى الاجتماعية. حدد في كتابه (المجتمع الصناعي) خصائص وسمات المجتمع الصناعي. له إسهامات في فحص التغيرات في البناء الطبقي والترتيب الاجتماعي. جمعها في كتاب: آرون، ريمون (١٩٨٣). ثمانية عشر درساً في المجتمع الصناعي. ترجمة فكتور باسيل، بيروت: منشورات عويدات.

[1] ألان تورين (١٩٨٨). الحداثة والخصوصية الثقافية. المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، العدد (١١)، باريس.

للمجتمع الديمقراطي فهي أن يكون الناخبون مواطنين ، أو يعتبروا أن أنفسهم كذلك. وأخيراً ينبغي أن تكون سلطة الحاكمين محدودة. وذلك بفعل وجود الانتخابات وأيضاً وعلى الأخص، بحكم القوانين التي ترسم حدود مماری السلطة.

من هنا يقول "ألان تورين " بضرورة أن تنهض المجتمعات للنضال من أجل تحرير الفاعلين الاجتماعيين والعلاقات الاجتماعية. والتي استبدلت بمنظومات من القمع وثورات ومعسكرات اعتقال[1].

مكونات النظرية:

يتحدد المجتمع عند "تورين" في مستوى التاريخية والصلات الطبقية وليس بهذه الضمانات اللااجتماعية أو تلك سواء كانت قيمية أو دينية أو حقوقية أو تاريخية...إلخ، فالمجتمعات عنده تظل، مهما كانت ضعيف، ذات تاريخية، أي أن حقل التاريخية وليس المجال الجغرافي ولا هيمنة الدولة على المجتمع ولا الصراع الطبقي التقليدي ... هي التي تحدد اختيارات المجتمع وسيره وإنتاجه وإعادة إنتاجه، إذ أن للمجتمعات دائما نشاطاتها وشغلها وعلاقاتها البينية التي تظل بمنأى عن تدخل الدولة والقوى المهيمنة، وهنا بالذات يكمن سر اشتغال المجتمعات.

إن مشكلة السوسيولوجيا الأساسية كما يرى "ألان تورين" هي أن ندرك كيف يرتكز مجتمع على مجموعة من الاتجاهات وهو في الوقت نفسه تديره وتنظمه سلطة، وكيف يكون واحدا ومزدوجا، تاريخية وصلات، وشغله على شغله، الاتجاهات التي تحكم سيره.

وإن هذا التباعد عن الذات ليستتبع بالضرورة انقسام المجتمع إلى طبقتين:

١-الطبقة القائدة: إن جزء من المجتمع يتمثل في الطبقة القائدة، لا المجتمع هو بالضرورة الذي يأخذ التاريخية على عاتقه ويخرج من سيره كما يذهب إلى أبعد من استعادته ذاته نفسها بفضل المراكمة والمعرفة والنموذج الثقافي. هناك إذن فئة خاصة تماثل بين نفسها وأكثر ما في المجتمع من عمومية، عنينا تاريخيته. وتصبح هذه الأخيرة في الوقت نفسه موضع تملك خاص.

---

[1] راجع في ذلك: ألان تورين (١٩٩٥). ما هي الديمقراطية، ترجمة حسن قيسي، بيروت: دار الساقي، ص ٣٩-٤١.

٢-الطبقة المنقادة: أما الذين لا ينتمون إلى الطبقة القائدة والذين يشكلون طبقة الشعب. فيقاومون هذه السيطرة والعمل التاريخي نفسه ولكنهم يشككون كذلك بتملكها الخاص ويحاولون استعادة الرقابة عليها بقلب سيطرة الطبقة القائدة. وإن صراع الطبقات على هذا النحو لا يمكن أن يتحدد إلا بالنضال من أجل الرهان الأقصى المتمثل في قيادة العمل التاريخي" [١].

هذه المسافة التنظيرية من شأنها أن تجعل من العلاقات الاجتماعية هي الحقيقة أو الواقع الوحيد المتبقي والذي يمكن أن نلمسه بالدرس والتحليل. بعبارة أخرى فإن الصلات الطبقية الواقعة في حقل التاريخية هي الوحيدة التي تشكل الموضوع الراهن لعلم الاجتماع.

ولا عجب أن هذه النتيجة أدت إلى إعلاء شأن الحركات الاجتماعية عند "ألان تورين":

" إن الموضوع الرئيس لعلم الاجتماع هو دراسة التصرفات الاجتماعية، وفي الدرجة الأولى، دراسة التصرفات التي ترتبط مباشرة بالتاريخية، أي بعلاقات وصراعات الطبقات، تصرفات ندعوها الحركات الاجتماعية".

فالصراع الاجتماعي بين رأس المال والعمل، كما يقول يفقد أهميته السياسية في المجتمعات الرأسمالية في القرن العشرين. وأن الأشكال الجديدة من الهيمنة تتيح الفرصة لظهور صراعات اجتماعية جديدة. بين هؤلاء الذين يسيطرون على مؤسسات اتخاذ القرار الاقتصادي والسياسي. وبين هؤلاء الذين تم تنزيلهم إلى حالة " المشاركة التابعة". إن الطبقة الجديدة المهيمنة لم يعد يتم تعريفها، بحيازة الملكية. ولكن بالمعرفة ومستوى معين من التعليم. وتنشأ الثورة ضدها من عزم الطبقة التابعة على الهرب من تبعيتها. لركوب موجة حركة الاستقلال الذاتي. ويؤكد تورين هذه الفكرة عن الطبيعة المتغيرة للصراع الاجتماعي، بإشارته نحو حركات اجتماعية جديدة، وخاصة تلك التي أخذت دوراً بارزاً في ثورة عام ١٩٦٨م في فرنسا.

---

[١] ألان تورين (١٩٩٠). إنتاج مجتمع. ص ٩.

ويربط "آلان تورين" بين ظهور هذه الصراعات الاجتماعية الجديدة وبين تطور المجابهة الفكرية بين نوعين من علم الاجتماع. فمن ناحية فإن مهام علم اجتماع اتخاذ القرارات بإدارة الاضطرابات والمواجهة، والمصالحة الاجتماعية، والمجموعات المتفرقة. وهذا هو علم الاجتماع الذي يمارسه الخبراء ومنظري الحكم التابعين الذين يخدمون حكام المجتمع الجدد. وعلى الجانب الآخر، هناك علم اجتماع المعارضة. الذي يعمل على تفسير مغزى، وميول، وأهداف تلك الحركات الاجتماعية المتصارعة مع المجتمع القائم.

ويؤكد "ألان تورين" أن علم الاجتماع في هذين النوعين، هما اللذان يجب أن يصارعا من أجل تفسير الحقائق. ولا يحصرا نفسهما داخل الإصلاح الذاتي، والتكرار الأيدولوجي. وعلم اجتماع المعارضة يصبح ممكناً فقط، عندما تكون هناك حقائق تحتاج للشرح. وعندما يبدأ المجتمع في التفاعل مع تغيراته الخاصة، ويحدد أهداف جديدة ويعاين تجربة الصراعات الاجتماعية والفكرية، التي يمكن من خلالها مناقشة اتجاهات التغيرات، وشكل المجتمع الجديد[1].

إذ يرى "ألان تورين" أن نمطاً جديداً من المجتمعات يتكون الآن. وهذه المجتمعات يمكن الإشارة إليها بمجتمعات ما بعد الصناعة، للتركيز على كيفية اختلافها عن المجتمعات الصناعية التي سبقتها. كما يمكن أيضاً تسميتها بالمجتمعات التكنوقراطية، بسبب السلطة التي تهيمن عليها. أو يمكن للمرء أن يطلق عليها "المجتمعات المبرمجة" لتميزها طبقاً لطبيعة نظمهم الإنتاجية، وتنظيمهم الاقتصادي[2].

وتشمل المكونات النظرية على ركنين أساسين هما التاريخية والصلات الطبقية.

أولا: حقل التاريخية: يتألف الحقل من ثلاث مكونات هي:

١. المعرفة:

هي أولى مكونات التاريخية، وتشكل صورة للمجتمع والطبيعة، وهي أساسية لأنها تبرز أكثر ما يكون الإبراز صورة للعالم وللعلاقات الاجتماعية ولِمَا كان غير

---

[1] بوتو مور (١٩٨٥). علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي. ترجمة عادل الهواري. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص ١١٠-١١١.

[2] في: بوتو مور (١٩٨٥). مرجع سابق، ص ١٠٨-١٠٩.

اجتماعي واللغة. كما أن هذه المكونة تظهر بوصفها قوة إنتاج بالدرجة الأولى في أول التحليل وفي أقصى نهايته. فهي مجموعة وسائل وعمليات تقنية من جهة وعلامة تَباعُد المجتمع بالنسبة إلى سيره من جهة أخرى.

هذه المكونة تمثل للباحث أداة قياس لا تخطئ لجهة التقرير ما إذا كانت الضمانات المستوطنة في المجتمع هي ضمانات اجتماعية أو لااجتماعية. فالمعرفة والعلم مسألتان لا تقبلان الجدل ولا التضليل ولا المجاملات، فهما إما موجودتان أو غير موجودتين. وبما أن المعرفة والعقلانية هما حصرا قوة إنتاج فإن مقدار الإنتاج ونوعيته وجدواه وكفايته وقدرته على المنافسة يؤشران بقوة على مدى تمتع مجتمع ما بالمعرفة والعلم أو لا. وفضلا عن ذلك فالمعرفة تؤشر على مدى اقتراب المجتمع من الضمانات الاجتماعية أو ابتعاده عنها، أي أنها تحدد بدقة الاتجاه الذي يسير فيه المجتمع.

ففي مسألة السلطة فإن الاحتكام إلى الأطر المعرفية والتي تسمح بالحرية واحترام حقوق الإنسان والحق في الانتخاب وتداول السلطة على قاعدة مبدأ تكافؤ الفرص سيعني توفر الضمانات الاجتماعية، ودون ذلك سنكون أمام أطر معرفية تتمتع بضمانات قيمية أو أيديولوجية أو دينية.

ولو أخذنا مثلاً مجتمعا يقيم وزناً كبيراً للمؤسسات القانونية والقضاء لقلنا أنه مجتمع له تصور واضح لعلاقاته الاجتماعية وعلاقاته مع العالم ويتمتع بأطر معرفية منتجة تتيح له القدرة على مؤسسة القوانين بحيث تخضع النصوص القانونية الصادرة قبل نفاذها للمراقبة والتحقق والمساءلة من قبل مؤسسات ذات ضمانات اجتماعية. وبخلاف ذلك سيكون لدينا مجتمع ضماناته غير اجتماعية كأن تصدر بعض أو كل قوانينه لتلبي احتياجات فرد أو مجموعة أو تعكس رغبات فئة أو شريحة معينة، ففي مثل هذه الحالة لا نستطيع البتة أن نتحدث عن ضمانات اجتماعية ولا عن قوانين مؤسسة.

أيضا يمكننا أن نأخذ مثالاً آخر كالعلم نفسه. فمتى يمكن الاعتقاد بأن العلم هو القيمة الاجتماعية الأعلى إذا كانت شروط إنتاجه ضعيفة أو أن الكم الأكبر من الخريجين في بطالة؟ أو أن نفتتح أقساما علمية في الجامعات لم يحن أوانها؟ أو أن تتخلى الدولة عن توظيف الخريجين أو أن تعجز مؤسسات المجتمع والدولة عن استيعابهم؟

أو أن نشهد تراجعا خطيرا في مستوى اللغة والقدرة على التفكير والتعبير والكتابة حتى لدى المستويات العليا من الخريجين؟ ألا يعني هذا ببساطة أن العلم غير منتج؟ وأن الاستثمار فيه خاسر؟ وأن الوضع بات خطيراً جداً على مستقبل المجتمع والدولة؟ وأخيرا هل يمكن للعلم أن يصل إلى هذا المستوى المتدني جدا لو كانت الضمانات المتوفرة اجتماعية أو توفر لدى المجتمع أطرا معرفية؟

٢- المراكمة:

إن الإنتاج وإعادة الإنتاج مسألة تفترض التعرف على الصيغ الاقتصادية وطريقة المراكمة. أما المكونة فتعني أن جزء من الإنتاج القابل للاستهلاك يتم اقتطاعه ثم استثماره في أعمال تحمل علامة النموذج الثقافي. ففي المجتمعات الصناعية تتجلى المراكمة في عملية الاستثمار الإنتاجي، وهي عملية تتولاها الطبقة القائدة كلما يعاد توظيفها بما يطابق النموذج الثقافي ومصالح الطبقة المسيطرة. وبطبيعة الحال فإن قوة التاريخية أو ضعفها في مجتمع ما هي التي تحدد أهمية المراكمة وقيمتها. وإذا بقينا في إطار المجتمع الصناعي فإن الجزء المقتطع من الإنتاج لتوظيفه بهدف إعادة الإنتاج وإنتاج الشغل عملية يمكن ملاحظتها بسهولة كأن تخصص شركة ما جزء من أرباحها - مثلا- لدعم البحث العلمي والتطور التكنولوجي الذي سيؤدي إلى ديمومة العمل والإنتاج والتطور. أما في المجتمعات ضعيفة التاريخية فيذهب جزء كبير من المراكمة إلى ذوي الامتيازات والمصالح الفردية أو الطبقة المسيطرة التي تدير التاريخية وتهيمن عليها لخدمة مصالحها دون أن تشارك المجتمع إلا في النزر اليسير من مصالحها وفيما لا يتعارض مع رغبتها بتحقيق أقصى قدر ممكن من المراكمة في أرباحها الخاصة.

من المثير فعلاً للانتباه أن كثيراً جداً من الشركات العالمية المصنعة ابتدأت مشاريعها بورشة عمل محدودة ما لبثت أن تحولت إلى شركة عملاقة في بضعة عقود كشركة دايو الكورية لإنتاج السيارات التي كانت في ثلاثينات القرن العشرين مجرد ورشة ميكانيك لا أكثر ولا أقل. زد على ذلك أن برجوازية الدول الكبرى راهنت واستثمرت في العلم والمعرفة مما جعلها شريكة للمجتمع وقائدة لاختياراته في حين نجد أن المراكمة في المجتمعات الضعيفة تكاد تكون غائبة حتى على المستوى الفردي ناهيك عن الجماعي. بل أن أكثر الشركات استثمرت في منتجات استهلاكية لم تفد أكثر من أصحابها.

٣- النموذج الثقافي:

ليست حالة القوى المنتجة في مجتمع ما هي التي تحدده تحديدا كافيا، بل العلاقات النشطة وقدرة المجتمع في التأثير على هذا النشاط. إذن هذه المسافة بين المجتمع وإدراكه للقدرة الخلاقة هي التي تسمى بالنموذج الثقافي، وهو النموذج الذي يقع إدراكه، فعليا، في المجتمعات المصنعة عن طريق العلم الذي يمثل أداة إبداع وليس قيمة تعبر عن مكانة اجتماعية كما هو الحال في المجتمعات غير الصناعية. فبواسطة النموذج الثقافي يقع تحريك إبداعية مجتمع ما وملاحظة قدرته على السيطرة وتحويل الطبيعة. أما في المجتمعات الضعيفة فالنموذج الثقافي يلاحظ من خلال ضمانات لااجتماعية.

ثانيا: الصلات الطبقية:

إنها الركن الثاني في منظومة العمل التاريخي. وهي مسألة يقع النظر فيها لا من قبيل الهيمنة والتسلط والتنافس بغية السيطرة واحتكار السلطة والنفوذ والتميز كما هي الرؤية الماركسية. بل في ضوء التعارض الذي يعني السعي من أجل تملك التاريخية أو قيادتها أو توجيه العمل التاريخي.

وبمحتوى آخر، فالصلات الطبقية هي علاقات اجتماعية صراعية تستهدف قيادة العمل التاريخي. أما العلاقات المعنية فتقع في صلب حقل التاريخية وتحرك على نحو مباشر أو غير مباشر الطبقات الاجتماعية. فالطبقة المسيطرة هي تلك الطبقة القائدة التي تعبر، أيضا، عن النموذج الثقافي وتمارس إكراها على مجمل المجتمع. فهي تشرف على إدارة المراكمة والاستثمار وتتمتع بالسلطة التي تسمح لها بإدارة الموارد المتراكمة. أما الطبقة المحكومة فهي التي تساهم في حركة النموذج الثقافي ولكنها لا تديرها، لذا فهي تتجه نحو مقاومة السيطرة لحماية عملها وطريقة معيشتها من جهة وتقاوم الاستملاك الخاص الذي يتعرض له النموذج الثقافي من داخله من جهة ثانية. وبمثل هذا الصراع الطبقي تظهر الحركات الاجتماعية.



ثانياً- ريمون بودون: النظرية الفردية وعلم اجتماع الفعل.

حياته:

ريمون بودون Raymond Boudon : عالم اجتماع فرنسي معاصر، محاضر في عدد من الجامعات والمراكز البحثية الأوروبية. عضو في عدد من المنظمات والأكاديميات العلمية ، عضو في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، الأكاديمية الأوروبية، الجمعية الملكية الكندية، الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم. والأكاديمية الإنسانية في برسبورغ، وأكاديمية العلوم الاجتماعية والإنسانية. ومن مؤلفات " بودون العامة باللغة الفرنسية[1]: ابحاث في النظرية العامة في العقلانية"، و" موضع الفوضى"، و" المعجم النقدي لعلم الاجتماع". منظر معاصر في قضايا تجديدية في علم الاجتماع الغربي. يمثل مدرسة فكرية في علم اجتماع الفعل الاجتماعي. وتكمن أهمية أعمال عالم الاجتماع الفرنسي "ريمون بودون" في نجاحها في تزعم حركة تجديدية في علم الاجتماع. والتي تعد سابقة في إثارة مسألة في غاية الأهمية في علم الاجتماع، وفي العلوم ذات الصلة. ألا وهي مسألة الفردية L Individualisme ، أو الفردوية، أو الفردانية بحسب الترجمة العربية لها. إن الميزة الأساسية لأعمال "ريمون بودون" تكمن في متانة العلاقة بين المنهج والمضمون، وبين الفرضية والمفهوم. هذه الميزة التي جعلته ينفرد بجملة من المفاهيم التي تتوالد فيما

---

[1] انظر:

- Raymond ARON : Les étapes de la pensée sociologique. Gallimard. Paris. 1967
- Raymond BOUDON et François BOURRICAUD : Dictionnaire critique de la sociologie. PUF, 2ème édition, 1982.
- Raymond BOUDON : La logique du social, introduction à l'analyse sociologique. Hachette / Pluriel, Paris, 1997.
- Raymond BOUDON: Individualisme et holisme en sciences sociales. Dans : Pièrre Birnbaum et Jean Leca (S/D): Sur l'individualisme. Ed. PFSP. Paris. 1991.

بينها، وتتواصل بواسطة خيط جداً رفيع. فالفردية فتحت آفاق لإعطاء الفرد المكانة الأهم في التحليل السوسيولوجي. وهذا الاعتبار النظري- المنهجي، جعل "بودون" يستلهم مفاهيم " أثر التجميع" و " أثر التشكل" و " الآثار الشاذة" و " الصدفة" و " أثر الانبثاق". وهي كلها مفاهيم تتكامل فيما بينها لتنتج مقاربة علمية خاصة في مجال علم الاجتماع. تمثل ركيزة أساس في استلهام همم الباحثين لإعادة قراءة التراث السوسيولوجي أولا، وطرق أبواب البحث العلمي ثانياً[1].

مدخل إلى النظرية الفردية:

تختصر النظرية الفردية **L Individualisme** الإشكالية التاريخية التي ثبتت علم الاجتماع أصلا كعلم مستقل وهي إشكالية الكلية الاجتماعية والفرد ومسألة النظرية الاجتماعية. فالنظرية ظهرت في أعقاب النقد الشامل الذي تعرضت له العلوم الاجتماعية وقاده الفيلسوف الفرنسي الراحل "كارل بوبر". وكان السؤال المركزي الذي تعرض له علم الاجتماع يتمحور على الموضوع الأساس للعلم هل هو في دراسة الكليات والأنساق الاجتماعية أم في دراسة سلوكيات الأفراد واندماجها؟ وهو سؤال يستوجب التذكير "بدوركايم" وصعوبة الانتقال من الفردي إلى الجماعي (ظاهرة الانتحار) ولجوئه إلى طرح رؤية كافة الأسباب الموضوعية للظاهرة[2].

ونجد مثل هذه النظرية في أعمال "هوبز" (Hobbes)، وجون ستيوارت (J,S.Mill)، وبوبر (Popper). حيث يرى الاتجاه بشكل عام أن التفسيرات المتعلقة بالظواهر المعدة (خاصة الظواهر الاجتماعية). يجب أن تصاغ أو تختزل في تفسيرات للكائن البشري الفرد. ورغم أن هذا الاتجاه بإطاره الضيق يعد بمثابة قاعدة للتفسير، إلا أنه غالباً يتماشى مع الزعم الأنطولوجي Ontology بأن الكائنات البشرية الفردية فقط هي التي في النهاية الشيء الحقيقي. وأن البنى الاجتماعية مثل الجيوش، والكنائس، والأمم والطبقات، هي بشكل ما وسائل بنات الخيال، أو مجرد وسائل مساعدة.

---

[1] انظر: جنات، زهير (٢٠٠٦). الفردانية في سوسيولوجيا ريمون بودون: العمق النظري والمرتكزات المنهجية. مجلة العلوم الإنسانية، العدد (٢٨).

[2] جنات، زهير (٢٠٠٦). مرجع سابق.

وتعمل الفردية على اختزال التفسيرات البنيوية في مجال الاقتصاد والاجتماع، إلى تفسيرات في حدود سيكولوجية الأفراد، أو الأنماط الاستدلالية للفعل العقلاني Rational وربما يكون هذا قد تجسد بأوضح صوره في الاقتصاديات الكلاسيكية الجديدة. وإن كان يظهر أيضاً في سيوسيولوجيا الفهم Verstemende وعلى الطرف الآخر كنقيض للفردية المنهجية Holism [1].

جذور النظرية الفردية:

يمكن المقاربة للفردية في أعمال كل من "ماكس فيبر وفلفريد باريتو". والتي اتضحت في اعتماد "ريمون بودون" في العودة لأعمالها ليؤكد على أصالة نظريته وجذورها. حيث أعاد بها أعمال "ماكس فيبر" في تحديده للفعل الإنساني وتصنيفاته (التقليدي، العاطفي، العلاقني القيمي، والعلاقني الغائي). وكذلك في عمل "باريتو" في تقسيمه للفعل ، بالفعل المنطقي، والفعل غير المنطقي. كما حاول "بودون Boodon " التأكيد على مقاربة الفردية في أعمال "كارل ماركس وأميل دوركايم". كما تتضح المقاربة الفردية لأعمال رواد علماء الاجتماع. فهي كانت لدى "دوركايم " انعكاس لتدعيم استقلالية الفرد الميعارية. ولدى " جورج زمل G. Simmel - وتالكوت بارسونز T. Parsons " نتيجة لتطور العلاقات الاجتماعية. بينما كانت لدى " ماركس K. Marx " هي نتاج المنافسة في السوق التي تدعم انعزال الأفراد [2].

فقد أثارت النظرة " الدوركايمية" حول المجتمعي ردة فعل جذريا من قبل "ريمون بودون". حيث انتقد النزعة السوسيولوجية التي تركز على الكل (المجتمع)، وتهمل الأجزاء (الأفراد)، وتعتبر أن الفرد هو نتاج البنى المجتمعية. وفي المقابل رأت الفردية أن شرح أي ظاهرة مجتمعية سواء كانت تعود على علم الاجتماع، أو علم السياسة، أو علم السكان، تقتضي إعادة بناء دوافع الأفراد التي تقف وراءها، ثم اعتبارها نتيجة جمع السلوكيات الفردية المحكومة بتلك الدوافع. ومن خلال هذا التصور

---

[1] ميشيل مان (١٩٩٤). موسوعة العلوم الاجتماعية. ترجمة عادل الهواري وسعيد مصلوح. الإمارات العربية المتحدة: مكتبة الفلاح، ص ٤٤٥-٤٤٦.

[2] انظر.: لويس دومون (٢٠٠٦). مقالات في الفردانية. ترجمة بدر الدين عردوكي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

يصبح الأفراد كأنهم ذرات تؤلف قاعدة التحليل للسيرورة المجتمعية، ويظهر الجماعي كأنه نتيجة بسيطة لتجمع الأنشطة الفردية، بمعنى آخر، فالظواهر المجتمعية تغدو خليطا من الأفعال وعلى الباحث أن يرجعها إلى الأفعال الفردية التي تكونها[١].

وتكمن أهمية سوسيولوجيا "بودون" في نجاحها في تزعم حركة تجديديّة أصيلة في علم الاجتماع. فلا أحد بإمكانه أن ينزع عن كتابات "بودون" سبقها في إثارة مسألة على غاية من الأهمية في حقل علم الاجتماع والعلوم ذات الصلة ألا وهي مسألة الفردية. وبرغم تأكيد "بودون" في مختلف كتاباته عن أصالة المقاربة الفردية وتجذّرها في الإنتاج السوسيولوجي الكلاسيكي فإن كتاباته شكلت منحى موازيا لما تعارف عليه بالمسلّمات النظرية الكلية في حقل علم الاجتماع. وتأتي أهمية إعادة قراءة الإرث السوسيولوجي مما يحتويه من فرضيات بقيت معلقة نظرا لعدم تفطن علماء الاجتماع اللاحقين لها، وهو الأساس الذي تقوم عليه أبحاث بودون في قسم كبير منها. أما ضرورة فتح آفاق أخرى للتحليل السوسيولوجي فتستوجبها المستجدات المتعاقبة على مختلف أوجه الحياة الاجتماعية وهو أمر يبدو - وفق بودون- أن علماء الاجتماع المعاصرين لم يحصّلوا بعد الوعي الكافي بأهميته. ففي بعض الحالات تظهر السوسيولوجيا المعاصرة بمثابة السوسيولوجيا التي تفتقد موضوعا: إن الإنسان الاجتماعي المتناول في إطارها يتم وصفه على أساس أنه مبرمج عن طريق البنى الاجتماعية أو عن طريق أصوله ومكانته الاجتماعية[٢].

دلالات النظرية:

إن دلالات النظرية تقول: " إن تفسير ظاهرة معينة يعني وجوب الأخذ بنظر الاعتبار أنها دائما نتيجة للأفعال الفردية، وأن هذه الأفعال هي المواقف والآراء والسلوكات ".

ويعني مبدأ الفردية وفق "ريمون بودون": " أنه على عالم الاجتماع أن يقيم قاعدة منهجية لاعتبار الأفراد، أو الفاعلين الفرديين المنتمين إلى نظام تفاعل كذرات

(١) خليل، فؤاد (٢٠٠٨). المجتمع، النظام، البنية في موضوع علم الاجتماع وإشكالاته. بيروت: دار الفارابي، ص ١١٦-١١٨.

(٢) جنات، زهير (٢٠٠٦). مرجع سابق.

منطقية في تحليله، ولا يمكن لعالم الاجتماع أن يكون مقتنعاً بنظرية تدرس تجمعاً (طبقة، جماعة، أمة). باعتباره الوحدة الأساسية التي تهبط إليها النظرية، أو يكون مقتنعاً بجهد يقوم به لتحليل ردود أفعال الأفراد حيال القيود التي يفرضها النسق". أي أن هذه القاعدة المنهجية تبنى على أساس اعتبار الأفراد المسئولين المباشرين عما يطرأ من ظواهر اجتماعية داخل الأنظمة. وهو اعتبار يعيد ترتيب وحدات التحليل من جديد بما يقطع مع المسلمات الكلاسيكية في علم الاجتماع. تلك التي تغالي من شأن البنى والأنظمة والوظائف. وتجعل الفرد أسير ما يمليه عليه أحد هذه الوحدات المشكلة للمجتمع.

حيث قامت منهجية الفردية على نقد تلك النظريات، التي يرى فيها "بودون" غلواً ومبالغة في هذا الجانب. إذ إن الفرد كان أداة التحليل الرئيسة لسوسيولوجيا "بودون"، نظراً لكونه فاعلاً واعتباراً لذلك، أدرج مقولة الفردية المنهجية في إطار بناء الفعلانية. فالظاهرة الاجتماعية كيفما كانت، هي نتاج لأفعال، ومواقف ومعتقدات وسلوكيات الأفراد. وهو الأساس الأول الذي يقوم عليها بناء علم اجتماع الفعل Sociologie lation أما الأساس الثاني فيتعلق بالبحث عن السلوكيات الفردية التي تشكل أساس الظاهرة الاجتماعية. أي الإجابة عن السؤال لماذا؟ وهو ما يسميه "فيبر" بالفهم.

ويلخص "بودون" فكرته بقوله: " يتم اعتبار الصدفة في العلوم الاجتماعية عموماً كمأوى غير محبذ. إنه موجود في كل مكان ولكننا نتعسف في الغالب لإزاحته وتناسيه ونكران وجوده. تختلف المواقف حول نمط وجوده ولكن الغالبية يريدون اعتباره نتاج جهلنا. إنه فقط لأننا لم نتناول كل المتغيرات المحددة لظاهرة ما نظرة أنها غير محددة جزئياً. ولكن إذا كانت المواقف حول نمط وجود الصدفة متغيرة. فإن هناك نقطة يمكن أن نلاحظ نوعاً من شبه الاتفاق حولها في العلوم الاجتماعية. يمكن أن تكون داخل دوائر أوسع. وهو أن الصدفة لا تمثل أية أهمية من زاوية نظر المعرفة. وعلى النقيض، إن الإقرار بوجودها قد يتنافى ونكران أهميتها معرفياً. إذ كيف لنا أن ننفي مادة، أو متغيراً، أو مجموعة من المتغيرات بل بوصفها بنية خصائصية لمجموعة من الحلقات السببية مثلما تظهر للملاحظ. وفي كل الحالات يمكن تحليلها بشكل مغاير للشكل الذي يعتبره مفهوماً سلبياً فارغاً. وبالتالي دون أهمية علمية "[1] .

---

[1] انظر: جنات، زهير (٢٠٠٦). مرجع سابق.

وفيما يخص موضوع علم الاجتماع فالنظرية تميز بين ثلاث دلالات هي:

١- رؤية الفردية كواقعة اجتماعية: فالإشكالية هنا تتعلق بتمايز أشكال الاندماج (الفرد ما بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة). وفي التراث الاجتماعي نجد "دي توكفيل" كأول محلل للفردية يبحث في حقوق وواجبات الفرد، بل إنه من خلال مبدأ تكافؤ الفرص يمكن تحقيق الاندماج الاجتماعي للفرد. وبالمثل يقدم "دوركايم" نظريته في تقسيم العمل الاجتماعي معتقدا أن تقسيم العمل سيؤدي إلى تعزيز استقلالية الفرد والحد من الاعتماد المتبادل خاصة كلما تعقد المجتمع الصناعي. فالانتقال من المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات المعقدة هو إذن واقعة اجتماعية مرت بها البشرية، والتغيرات مست الفرد والجماعة والنظام والسلوك ونمط الحياة.

٢- رؤية الفردية كقيمة أخلاقية: إن النظر إلى الفردية كمجموعة أحكام قيمية سيؤدي إلى بروز وجهتي نظر متلازمتين هما:

- وجهة النظر التقليدية التي تعتقد أن الفردية ستؤدي إلى ضعف الاندماج وتفكك الروابط الاجتماعية وأواصر الولاء بين الأفراد.

- وجهة نظر "دوركايم" التي تعتقد أن الفردية هي أحد سمات المجتمع الحديث، وهي بالتالي سمة أصيلة وقيمة بارزة ومنتجة من شأنها تدعيم الاستقلالية. غير أن "دوركايم" خشي من نزعة الأنانية التي قد تجتاح الفرد مع مناخ الحرية والإعلاء من قيمة الفرد.

٣- رؤية الفردية كمبدأ منطقي: إن للفرد أفعال اجتماعية مثلما أن له أفعال اقتصادية. ذلك أن معظم النجاحات التي حققها الاقتصاد تعود بالدرجة الأساس إلى مبادرات فردية إن على صعيد النظرية أو على صعيد العمل والإنتاج. فلماذا لا يكون هناك إنسان اجتماعي مثلما هو الإنسان الاقتصادي؟

ثانيا: المفاهيم الرئيسة للنظرية:

تؤكد الفردية الوحدة العضوية الوثيقة في تركيب الواقع بحيث تترابط كل الأجزاء في " كل" يضفي عليها معناها وقيمتها، بل وجودها. وتقرر من الناحية الاجتماعية بأن المجتمع ليس إلا مجرد مجموعة من أعضائه، وليس هناك كيان حي

يسمى المجتمع. وأن الفرد هو الحقيقة الاجتماعية الوحيدة. وتستعمل الفردية عدة مفاهيم لتحديد الموضوع الاجتماعي أو لدراسة الظاهرة الاجتماعية. وهذه المفاهيم هي:

١- مفهوم أثر التجميع، أو أثر التكوين: يشير هذا المفهوم إلى أثر تكون الظواهر الاجتماعية هي الأفعال الفردية. هذه الأفعال تتجمع معاً فتنتج أثراً قابلاً للملاحظة والفهم. وهذا لا يعني أن الأفراد يتصرفون عن قصد وبشكل معين لإنتاج ظاهرة ما. فهذه الأخيرة تنشأ لذاتها على اعتبار أن لا أحد من المساهمين فيها قد قصد إنتاجها. بل إن أثر التجميع لا ينشأ عن ترابط بعضهم بالبعض الآخر. وهكذا تنشأ الظواهر الاجتماعية على أنها حاصل تجميع أفعال متعددة لفاعلين متعددين يتفاعلون فيما بينهم ومع النظام فينتجون آثاراً، يلخصها بودون في المعادلة التالية:

M(m) = حاصل تجميع آثار فردية.

M = أثر التجميع.

M = الفعل الفردي.

وهو هنا يتلاقى مع بعض أطروحات عالم الاجتماع الوظيفي "روبرت ميرتون Robert Merton " عندما رأى الإشاعة كفعل خالق لنظام تفاعل غير مطابق لما كنا نتوقع.

ويستخرج "بودون" من تحليل "ماركس" مثالاً واضحا على أثر التجميع ويتعلق بسلوكيات رجال الأعمال المدفوعة بالرغبة في زيادة الربح حيث يسعى كل واحد منهم إلى زيادة إنتاجيته للتخفيض في الكلفة على اعتبار أن ذلك يؤدي إلى زيادة الفائض. ولكن الأمر المفارق هنا يتعلق بالانخفاض المطّرد لربحهم الذي يعود إلى أنه- ولكي يبلغ رجل الأعمال مبتغاه - فإن عليه أن يعيد استثمار ربحه بشكل متواصل وهو ما يؤدي إلى انبثاق أثر معين هو أنه عوض أن تزيد الأرباح فإنها تنخفض، ويظل الرأسمالي محكوما بهذه اللعبة شأنه شأن البقية رغم أن كل واحد منهم قد فكر بطريقة منعزلة ولم يطمح أبدا إلى إنتاج هذا الأثر.

٢- الآثار غير المتوقعة: وهو رديف للمفهوم السابق. فإن الآثار غير المتوقعة تحتل حيزاً مهماً في حقل الواقع. فهذا الأخير ينفلت عن مختلف التوقعات ويتشكل في

بعض الأحيان وفق ما ينتج عن أفعال الأفراد، رغم أنهم يتحركون باستمرار بطريقة منعزلة عن بعضهم البعض. فإذا تحسنت حظوظ كل فرد من أفراد المجموعة يمكن أن ينتج عن ذلك تزايد في عدم الرضا الاجتماعي. إذ يصبح كل فرد وإن اختلفت وضعيته عن البقية، يطمح إلى أكثر مما يمكن أن يجني. وبرغم أنه لا أحد من هؤلاء قد اختار - بوعي- أن يصل إلى هذه النتيجة، فإن ما نتج هو مخالف لما كان متوقعاً [1].

ويعود "بودون" إلى عالم الاجتماع الأمريكي Robert Merton الذي كان وفق "بودون" - سباقا في تفسير أزمة ١٩٢٩ الشهيرة بطريقة مخالفة لما قدّمه علماء الاقتصاد آنذاك. إذ بيَن Merton أن هذه الأزمة تستثير في التحليل السوسيولوجي ضرورة طرق النتائج غير المتوقعة للأفعال الإنسانية أي ضرورة فك رموز ما أسماه بآثار التشكّل. لقد بيّن ميرتن أن ليست مواقع الأفراد تحدّد دائما السلوك الفردي على نحو ما قدّم "ماركس" بل لا يمكننا توقع مدى تأثير البنية الاجتماعية على النظام التفاعلي بين الأفراد" إذ يمكن أن نكتشف مثلا أنه في بعض الأحيان تكون الإشاعة خالقة لنظام تفاعل غير مطابق لما كنا نتوقع على نحو ما وقع سنة ١٩٢٩ حيث لجأ الحرفاء إلى سحب إيداعاتهم لمجرد مرور إشاعة حول اختلال وشيك للنظام البنكي بالولايات المتحدة الأمريكية.

وعلى أساس هذا الطرح وطروحات أخرى مماثلة ينتهي "بودون" إلى أن الآثار غير المتوقعة تحتل حيّزا هاما في حقل الواقع. فهذا الأخير ينفلت عن مختلف التوقعات ويتشكل في عديد الأحيان وفق ما ينتج عن أفعال الأفراد رغم أنهم يتحرّكون باستمرار بطريقة منعزلة عن بعضهم البعض. فإذا تحسّنت مثلا حظوظ كل فرد من أفراد المجموعة يمكن أن ينتج عن ذلك تزايدا في عدم الرضا الجماعي. إذ يصبح كل فرد - وإن اختلفت وضعيته عن البقية- يطمح إلى أكثر مما يمكن أن يجني. وبرغم أنه لا أحد من هؤلاء قد اختار -بوعي- أن يصل إلى هذه النتيجة فإن ما نتج هو مخالف لما كان متوقعا.

---

[1] لويس دومون (٢٠٠٦). مرجع سابق. انظر: جنات، زهير (٢٠٠٦). مرجع سابق.

٣- الإنسان الاجتماعي كنظير للإنسان الاقتصادي بوصفه فاعلاً فردياً:

تنطلق الفردية من فرضية المماثلة بين الإنسان الاقتصادي كفاعل له اختياراته واستراتيجياته والإنسان الاجتماعي كفاعل له اختياراته أيضا، وتدعو على هذا الأساس إلى:

١- النظر في السلوكيات والأفعال الفردية للتساؤل عن اختيارات الأفراد المعنيين وصياغة الفرضيات على ضوء الاختيارات. هذه الدعوة هي التي تشكل التوجه النظري الحاسم للفردية.

٢- تنظر الفردية إلى الأفراد بوصفهم فاعلين في وضعية تتطلب منهم تحديد اختيارات ومواقف.

٣- تعمل الفردية على إبراز دوافع هذه الاختيارات وتمثلات الفاعلين ومعتقداتهم ومعارفهم اعتمادا على التفكير العقلاني أو الأخلاق والمعارف المستبطنة لدى الفاعلين.

وعند المقارنة بين الإنسان الاجتماعي، والإنسان الاقتصادي، نجد أن من جوانب الاختلاف أن الإنسان الاجتماعي لا يفعل دائماً ما يفضله، بل أن العادات والقيم المستدمجة في الظروف العامة هي التي تجبره على أن الفعل ما يفعله. ومن الجوانب الأخرى، أن تفضيلات الفاعل - في رأي عالم الاقتصاد- تحددها الأنثروبولوجيا الفلسفية، أما عالم الاجتماع فإن يفترض أن اختيارات الفاعل تحدد في جانب منها ببناء الموقف ووضعه فيه[1].

٤- الدور:

لكل فاعل عدة أدوار اجتماعية تخضع لمعايير وإكراهات، غير أن الفردية تنظر إلى هذه الأدوار انطلاقا من كونها تمثل رصيداً استراتيجيا مضمونا للفاعل ومدعوما من هامش الاستقلالي وليس من كون الأدوار مجرد معايير إلزامية. لذا فالفردية لا تهتم

---

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٨٤.

بإحصاء الأدوار المفروضة بل بكيفية أداء الفاعلين لها وكيفية الحكم على الأدوار الثانوية المقترحة عليهم وماهية الأسس التي يحكمون بها[1].

٥- أنظمة الاعتماد المتبادل = أنظمة تفاعل:

إن نظام الاعتماد المتبادل هو نظام تفاعل يمكّن من تحليل الأفعال الفردية دون الاستعانة بفئة الأدوار. إذ أن الدور بحد ذاته لا يعني الفردية ولا يهمها ولا يشكل حتى جزء من الظاهرة. ذلك أن نظام التفاعل يقترح النظر في السلوكيات والتوقعات والطموحات الناجمة عن الفعل الاجتماعي، وليس اشتغال الدور أو عدم اشتغاله.

فالأفعال التي يقوم بها الفاعلون إنما تؤدي إلى ظواهر جماعية ليس للدور فيها شأن يذكر كظاهرة العنصرية لدى العمال الأمريكيين أو إشاعة إفلاس البنك.

نماذج لظواهر الاعتماد المتبادل:

أ) ظاهرة البروز:

إن الفعل الظاهر هنا هو فعل اجتماع، وهو فعل لا يبحث عنه الفاعلون في النظام إنما ينتج عن وضعية الاعتماد المتبادل. فلو أخذنا إشاعة إفلاس بنك ما ناجح في عمله سنجد أن أحدا ما ربما ألقى بمزحة بين مجموعة أفراد بأن البنك الفلاني على وشك تلقي خسارة، أو إعادة تنظيمه أو بيعه لمستثمر آخر، فلا نفاجأ أن تنتقل هذه المزحة بأسلوب الإشاعة لتصل إلى المودعين بصورة أن البنك خسر فيبدأ هؤلاء بسحب أموالهم لتكون النهاية إفلاس البنك وخسارته. من الملاحظ هنا أن الظاهرة ذات أصول فردية ناتجة عن فعل اجتماع، أي فعل الاعتماد المتبادل، فلو لم يكن ثمة أفراد يتناقلون الإشاعة لما خسر البنك.

ب) ظواهر ناتجة عن الأفعال الشاذة:

تحدث مثل هذه الظواهر عندما يسعى فردان أو أكثر إلى تحقيق هدف معين قد ينجر عنه ظهور وضعية غير مقصودة وتكون خارجة عن رغبة أحد كظاهرة العنصرية في

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٢٨٤.

الولايات المتحدة الأمريكية والتي أدت إلى إقصاء السود عن سوق العمل. فعندما قررت نقابات العمال شن إضراب عن العمل لتلبية بعض المطالب كتحسين الأجور اتفق البيض على استبعاد السود من الإضراب خشية الضغط عليهم وابتزازهم وتخريب الإضراب فكانت النتيجة أن لجأ أرباب العمل إلى الامتناع عن تشغيل السود، وتحولت المسألة إلى ظاهرة عنصرية.

ومنهجياً يمكننا ملاحظة أن الفردية ترى أن التغير الاجتماعي لا يمكن فهمه في مستوى التحليل الماكرو سوسيولوجي بل من خلال التحليل الميكرو سوسيولوجي، ولعل هذا الموقف مرده إلى طبيعة النظرية ذات التوجه الجزئي وليس الكلي، فهي عاجزة عن مواجهة الظواهر الكبرى كما تفعل النظريات الشمولية.

العدوان والصراعات الاجتماعية:

من أجل فهم وتفسير نشأة الصراعات تدعو الفردية إلى:

١- القيام بتحليل كلي لوضعية الفاعلين من خلال التركيز على فهم سلوك الأفراد والتساؤل أو فحص العمليات التي أدت إلى بروز الصراع.

٢- القيام بتحليل أنماط العلاقات بين الفاعلين في نطاق:

- أنساق الترابط سواء داخل نطاق العمل حيث التركيز على مفهوم الدور.
- أو أنساق التفاعل الواقعة خارج نطاق القواعد والمعايير الملزمة بين الأفراد والجماعات. وهنا عندما نقوم بتحليل استراتيجيات الفاعلين ينبغي التمييز بين الأنساق الوظيفية حيث علاقات الأدوار المتبادلة وبين الأنساق الترابطية حيث العلاقات بين الأفراد لا تستدعي استحضار مقولة الدور[1].

ففي دراسة للنسق المدرسي وحيث يتمسّك " ريمون بودون " بدور "الفاعل الاجتماعي" في تحقيق المساواة المدرسية والاجتماعية وفي فرض لزوم التغيّر في أي مجال اجتماعي. وإن الظاهرة الاجتماعية في أساسها إنما تقوم على أساس عدة أفعال فردية هي التي تتجمّع وتتركّب لتمثّل أي نوع من الظاهرات الاجتماعية. وإن ارتفاع نسبة التمدرس والتقليل من انعدام المساواة في التعليم

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٨٤.

لا يؤديان إلى تغيير بنية التحرك بالنظر إلى القيم الواقعية حتّى لو افترضنا تغييرات عبر الزمان في البنية الاجتماعية، شريطة أن تكون هذه التغييرات بطيئة بما فيه الكفاية. فالتحرك الاجتماعي لا يتأثّر بشكل مباشر بمسألة التفاوت التعليمي وإنما هناك مُحددات أخرى هي المتحكمة في الحِراك الاجتماعي. ومع عدم إنكار أن الأصول الاجتماعية العالية تجعل من الحصول على وضع اجتماعي مرتفع شيئا أكثر يسرا، إلا أنّ الطبقات العليا معرّضة بشكل كبير إلى الانحدارية. وبشكل أكثر عمومية، وبمعزل عن تأثير الأصول على المستوى المدرسي وتأثير المستوى المدرسي على الأوضاع، فإن الفُروقات في الوضع بين أشخاص ذوي أصل اجتماعي واحد تكون مُهمة جدا. ومن الطبيعي أن بَرهنة مشابهة يمكن سلوكها بخصوص متغيرات أخرى تابعة، غير الوضع، مثل الدخل[1].

---

[1] ريمون بودون وفريديريك بوريكو (١٩٨٦). المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة د. سليم حدّاد، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص١٧٨.

ثالثاً- ألفن جولدنر وأزمة علم الاجتماع الغربي:

حياته:

كثيراً ما يرد اسم " ألفن جولدنر" بين بالوظيفيين المهتمين بدراسة التنظيم الاجتماعي عامة والتنظيم الصناعي بشيء من التخصيص. عالم اجتماع أمريكي، راديكالي نقدي. يعمل أستاذ النظريات الاجتماعية في جامعة واشنطن. يعد من أشهر علماء الاجتماع المعاصرين بالولايات المتحدة الأمريكية. تقع كتاباته بين الحد الفاصل بين علم اجتماع المعرفة والنظرية الاجتماعية. لم يحظ أي كتاب منذ السبعينات الميلادية من القرن الماضي بالاهتمام كما حظي كتاب " الأزمة القادمة لعلم الاجتماع The coming Crisis of Western Sociology ". يمثل " جولدنر" الاتجاه النقدي الذي يسعى لتصحيح مسار علم الاجتماع. دراساته المبكرة منذ عام ١٩٥٩م توحي بانتمائه للاتجاه البنائي الوظيفي. اهتم بدراسات البيروقراطية والتنظيم. ثم تحول إلى منتقد للاتجاه الوظيفي بدأت بدراساته حول "التحليل التنظيمي" ودراسة " الاستقلال الوظيفي والاعتماد المتبادل". عام ١٩٦١م. أعد دراسة عن " التحرر من القيم Value-Free" من صياغة "ماكس فيبر". عام ١٩٦٧م أصدر كتاب "Enter Plato" عن المجتمع الكلاسيكي الاغريقي وتأثيره في بناء النظرية الاجتماعية. أصدر دراسة بعنوان " علم الاجتماع والدولة Sociology as& Partism Sociology and The Wefare State" . عام ١٩٨٦م. من هم أعماله " أنماط البيروقراطية الصناعية" و " دراسات في القيادة" و " علم الاجتماع المعاصر". و " المدخل إلى أفلاطون" الذي طالب فيه بتأسيس نظرية لعلم الاجتماع مزودة بالمعرفة التاريخية. و كتاب " الأصول التاريخية للنظرية الاجتماعية الغربية". أصبح نقديا راديكاليا منذ عام ١٩٧٠م. يقول في مقدمة كتابه: "إن الذين يحبون النقد هم الذين يحبون علم الاجتماع. أما الذين يمقتون هذا النقد فإنهم يتعيشون عليه". للدلالة على أهمية كتابه النقدي لأزمة علم الاجتماع، أصدرت الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع عددها لعام ١٩٧٢م من الاتجاهات المحافظة للرد على هذا

الكتاب الذي مثل الاتجاه الراديكالي النقدي مقابل علم الاجتماع الغربي الأكاديمي المحافظ[1].

ملامح الأزمة المقبلة لعلم الاجتماع الغربي عند جولدنر:

تبرز رؤية " جولدنر" في أزمة علم الاجتماع الغربي في المظاهر التالية:

أ- اتجاه النماذج الوظيفية والنموذج البارسونزي خاصة نحو الالتقاء مع الماركسية التي كانت في السابق عدوها المناظر.[2]

ب- اغتراب الباحثين السوسيولوجيين الشبان عن البنائية الوظيفية.

ج- ظهور ميول من خلال بعض التعبيرات الفردية لتأسيس جماعات ومنظمات جماعية.

د- تنامي النقد التكنيكي للنظرية الوظيفية.

هـ- التحول من النقد السلبي إلى تطوير آخر بناء إيجابي يطالب ببدائل نظرية ذوات توجهات وافتراضات جديدة.

و- تطوير نظريات ومشكلات بحثية وسيطة موجهة نحو قيم الحرية والمساواة أكثر من التوجه نحو الحفاظ على النظام الذي كانت تجد في طلبه الوظيفية.

عوامل أزمة علم الاجتماع الغربي:

حاول " جولدنر" تحديد العوامل التي أسهمت في هذه الأزمة فيما يلي:

أولا: ظهور بناءات فوقية جديدة بين شباب الطبقة الوسطى تعارض الوظيفية، وحدوث تباينات داخل الوظيفية نفسها، وأخيرا تطور دولة الرفاهية التي لم تعد الافتراضات الوظيفية قادرة على ملاحقتها وتدعيمها.

ثانيا: طرحت على "جولدنر" عدة تساؤلات بعد نشر كتابه النقدي الأول ، تركز أهمها فيما يلي:

---

[1] انظر: زايد، أحمد (١٩٨٤). مرجع سابق، ص ٢٨٩-٣٣٠.

[2] أخذ النسق النظري الخاص بعالم الوظيفية " تالكوت بارسونز" حيزا كبيرا من كتاب " جولدنر" "الأزمة القادة لعلم الاجتماع الغربي". من منطلق أن علم التطابق الكبير بين علم الاجتماع الأمريكي والوظيفية والتي يعد " بارسونز" أهم منظريها في القرن العشرين.

١- ما هو البديل الذي قدمه "جولدنر" بعد نقده المرير لكل الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع؟

٢- لماذا كتب نقدا في علم الاجتماع، مع أن المطلوب نقد المجتمع؟ وبالتالي لماذا لم يركز وقته وجهده في تطوير نظرية للمجتمع بدلا من محاولته تطوير نظرية حول النظرية الاجتماعية؟

٣- لماذا فصلت الماركسية تعسفيا عن علم الاجتماع الأكاديمي مع أن الماركسية أثرت في الفكر الغربي؟ هل يرجع هذا إلى عدم دقة تحليله لها؟

٤- لم يناقش "جولدنر" مشكلة علاقة علم الاجتماع بالعالم المحيط وبعبارة أخرى الأدوار التي على علم الاجتماع أن يقوم بها؟.

٥- نقده " إرفنج زايتلن " لأنه لم يوضح المضامين الأيديولوجية التي أثرت في علم الاجتماع ونظريته.

٦- إن ما قدمه تحت ما أسماه علم الاجتماع التوصيفي الاستقرائي لا يعني سوى نوع من الإمبريقية المهذبة غير المحددة نظريا.

هذه أهم التساؤلات والانتقادات التي وجهت إلى "جولدنر" والتي حاول في ضوئها صياغة عمله[1].

قضايا نقد علم الاجتماع وتجديده :

في ضوء الانتقادات التي وجهت " لجولدنر" قام بصياغة مشروعه النقدي لعلم الاجتماع الغربي والذي تضمن القضايا التالية:

١- بعد مناقشته لقضية وجود علم اجتماع متحرر من القيمة وتأكيده استحالة وجود مثل هذا الأمر حاول أن يدلل على هذا بتأثير الأيديولوجية على الأعمال السوسيولوجية سواء كانت نظرية أو بحثية ميدانية.

---

(١) انظر" ألفن جولدنر (٢٠٠٧). الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي. ترجمة علي ليلة، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة. ترجمة لكتاب The coming Crisis of Western Sociology

٢- في معرض محاولة تأكيده فهم الإطار الماركسي عاود نقده لعدد من المنظرين في علم الاجتماع "فيبر ودوركايم وبارسونز" موضحا تأثرهم به بوعي حينا وبلا وعي أحياناً. ووضح في الوقت نفسه فقدان الوظيفية- بسبب توجهها المعرفي الأيديولوجي- القدرة على استيعاب كثير من حقائق العصر خاصة حقيقة التغير الاجتماعي. ويستأنس هنا بإشارة "بارسونز" إلى أنه ليس بالإمكان الوصول إلى نظرية عامة لعمليات تغير النسق في ظل أحوال المعرفة الراهنة.

٣- عاود التأكيد- بوضوح أكثر- على أنه من الصعب القيام بنقد نظرية علم الاجتماع دون نقد المجتمع أو العكس لأن كليهما يؤثر في الآخر ويثريه، الأمر الذي يجعل الطلاق الراديكالي بينهما صعب الوقوع .

٤- أكد أن دعواه إلى إقامة ما يسمى بعلم الاجتماع الواقعي الاستقرائي ليس غرضها خلق نظرية جديدة بل السعي نحو إقامة ظروف إنسانية تقضي بتصحيح الوعي الزائف بالإنسان وبواقعه. ولهذا فمهمة علم الاجتماع وضع برامج لتصحيح الواقع .

وهذا يتطلب نقد التصورات الشائعة لرفضها والتحرر منها بالتأكيد على:

أ - ضرورة دراسة نظرية علم الاجتماع كمنتج تاريخي.

ب - ضرورة وضع نظرية علم الاجتماع في سياقها التاريخي.

ج - ضرورة وضع نظرية علم الاجتماع في سياق الجهود السابقة عليها واللاحقة أيضا.

د - ضرورة الكشف عن تأثيرات النظرية في تصور الإنسان والمجتمع وتغييرهما.

هـ- حرص "جولدنر" على إبراز دور المنظر الراديكالي من وجهة نظره ربما ليرد بإيجاز على معظم من انتقدوه وربما للتلميح إلى توجهه وموقفه.

الرؤية لدور عالم الاجتماع:

من خلال القضايا السابقة حدد " جولدنر" ملامح الواجبات التي على المنظر الاجتماعي القيام بها، حيث يقرر في ذلك ما يلي:

١- أنه لا بد للمنظر الراديكالي من خلق تجمع اجتماعي ينتمي إليه إذا لم يكن موجودا حتى يشارك في التخطيط لخلق الظروف الضرورية للتحرر الإنساني.

وهذا الانتماء من جانب آخر يوفر له ولزملائه قدرا من الحماية والعمل الجماعي ويساعده في فهم الكل الاجتماعي الذي يسعى إلى مواجهته.

٢- لا بد له من تحديد انتمائه الطبقي بوضوح حتى يحدد طريق إسهامه في الحركة الاجتماعية لهذه الطبقة.

٣- يقتضي أمر دوره هذا تأهيل نفسه ومساعدة الآخرين أيضا على مقاومة السلطة والنظم الثقافية القائمة حتى يكون في وضع أكثر تحررا يساعده على الفهم الأفضل لما يحيط به.

٤- لا بد أن يحكم علاقته بتجمعه مبدأ تأثيرهما المتبادل وموقفهما المشترك وعليه أن يأخذ المبادرة لتقديم أفكاره وتنظيراته ولا ينتظر حتى يطلب منه هذا [1].

ألفن جولدنر وأزمة التأمل السوسيولوجي:

التحرر أو نمو الوعي الذاتي كان الشغل الشاغل لكثير من رجال الفكر النقدي في علم الاجتماع. والمشكلة الحقيقية التي كانت يواجهها علماء الفكر النقدي عند نهاية الخمسينات هي: كيف يمكن تخطي أزمة النظام البورجوازي المعاصر؟. وفي سبيل ذلك طرح الفكر الراديكالي تساؤلات أهمها: ما هي إشكالية تناقض البناء الاجتماعي الغربي؟ وهل أزمة البناء كامنة في أساسه أم راجعة إلى مجاله الفكري؟. وإذا كانت هذه القضية الفلسفية، أعني قضية العلاقة بين الفكر والواقع. بين النظرية والممارسة، قد شغلت رجال الفكر منذ بدايته، إلا أنها طرحت نفسها على مجال البحث السوسيولوجي مرة أخرى خاصة بعد انفصال الفكر عن الواقع وعن أزماته. وقد أدى هذا الأمر (الانفصال) إلى ظهور الكثير من الآراء المغتربة عن واقع المجتمع الرأسمالي الصناعي ومشكلاته.

ومن هنا بدأ البعض ومنهم "ألفن جولدنر" في تحليل الأزمة المعاصرة للمجتمع الغربي، ورأى "جولدنر" أنها تتمثل في أزمة الفكر الاجتماعي، وما أطلق عليه في كتابه "الأزمة المقبلة في علم الاجتماع الغربي" والتي يمكن رصد أهم ملامحها في التالي:

١- هيمنة الفكر الاجتماعي التقليدي على رجال العلم الاجتماعي ليس فقط من الناحية النظرية بل وأيضاً من الجانب المنهجي والممارسة السياسية.

---

[1] ألفن جولدنر (٢٠٠٧). مرجع سابق.

٢- أزمة ما يسمى بالإمبريقية في العلم الاجتماعي، فهي غير قادرة على تقديم صياغات نظرية في ضوء قضايا الواقع المعاصر .

٣- وقوع الفكر التقليدي أسيراً للاتجاهات الأيديولوجية المحافظة ومن هنا كان موقفه القائم على المذهب الوضعي من النظام الرأسمالي ومن قضايا المجتمع وأزماته .

٤- التجاهل المتعمد لمصادر التغيير والصراع داخل المجتمع الصناعي الرأسمالي مما أفقد هذه الاتجاهات النظرية قدرتها على صياغة افتراضات واقعية وأبعدها بالتالي عن الفهم الحقيقي لأزمة النظام القائم .

٥- وفي ضوء هذه المسلمات السابقة رصد جولدنر - كما رصد غيره من قبل - إغفال علماء الاجتماع لدراسة قضايا هامة مثل التفاوت الطبقي وتوزيع الثروة والسلطة والشرعية . وقضايا الاستغلال والسيطرة[1] .

[1] حجازي، أحمد (١٩٨٤). مرجع سابق.



رابعاً- أنتوني غيدنز والتنظير الجديد لعلم الاجتماع:

حياته:

ولد أنتوني غيدنز **Giddens, Anthony** عام ١٩٣٨م ونشأ في إدمنتون إحدى ضواحي مدينة لندن، تربى في عائلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة الدنيا حيث كان أبوه يعمل كاتبا في مواصلات مدينة لندن. كان أول فرد من عائلته يدخل الجامعة، حيث حصل على درجته الجامعية الأولى من جامعة (هل) في عام ١٩٥٩م، ولاحقا على درجة الماجستير من مدرسة لندن للاقتصاد، ثم تبعها بدرجة الدكتوراه عام ١٩٧٤م من كلية كنجز بجامعة كمبردج. بدأ حياته الأكاديمية سنة ١٩٦١م بالعمل في جامعة ليستر حيث قام بتدريس علم النفس الاجتماعي ، وفي جامعة ليستر التي تعتبر إحدى حاضنات علم الاجتماع البريطاني قابل (نوربرت إيلياس) وبدأ العمل على أعماله النظرية. وفي عام 1969 عيّن في جامعة كمبريدج حيث ساعد بعد ذلك بإنشاء لجنة العلوم الاجتماعية والسياسية كفرع لكلية الاقتصاد. عمل لسنوات طويلة في جامعة كمبريدج كزميل لكلية كنجز لتتم ترقيته في النهاية إلى منصب أستاذ في عام ١٩٨٧م. شارك في تأسيس دار بولايتي للنشر عام ١٩٨٥م. في الفترة ما بين ١٩٩٧م و٢٠٠٣م تقلد منصب رئيس مدرسة لندن للاقتصاد وعضو بالمجلس الاستشاري بمؤسسة دراسات السياسة العامة. عمل مستشارا لرئيس الوزراء البريطاني السابق توني بلير، ولقد شكّلت فكرة (الطريق الثالثة) الموجه للمقاربات السياسية التي انتهجها توني بلير وبيل كلينتون. شارك في الجدل السياسي في بريطانيا مؤيدا لليسار (حزب العمال) من خلال ظهوره في وسائل الإعلام ومقالاته في الصحف. يساهم أنتوني غيدنز بانتظام في النشاطات البحثية وأنشطة مؤسسات السياسة العامة في بريطانيا وعلى المستوى

العالمي. في عام ٢٠٠٤م تم منح "أنتوني غيدنز" لقب (بارون) لمدى الحياة ، مع مشاركته في مجلس اللوردات البريطاني تقديرا لجهوده المتميزة . ألف "أنتوني غيدنز" ونشر أكثر من ٣٤ كتاب و٢٠٠ مقال ، وفي ما يلي أهمها[1] :

---

(1) - Giddens, Anthony (1971) Capitalism and Modern Social Theory. An Analysis of the writings of Marx, Durkheim and Max Weber. Cambridge : Cambridge University Press.
Giddens, Anthony (1976) New Rules of Sociological Method: a Positive Critique of interpretative Sociologies. London : Hutchinson.
Giddens, Anthony (1977) Studies in Social and Political Theory. London : Hutchinson.
Giddens, Anthony (1979) Central problems in Social Theory : Action, Structure and Contradiction in Social Analysis. London : Macmillan.
Giddens, Anthony (1981) The Class Structure of the Advanced Societies. London : Hutchinson.
Giddens, Anthony (1982) Profiles and Critiques in Social Theory. London : Macmillan.
Giddens, Anthony (1986) Durkheim. London : Fontana Modern Masters.
Giddens, Anthony (1994) Beyond Left and Right — the Future of Radical Politics. Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (1995) Politics, Sociology and Social Theory: Encounters
Giddens, Anthony (1996) Durkheim on Politics and the State. Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (1998) The Third Way. The Renewal of Social Democracy. Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (1999) Runaway World: How Globalization is Reshaping Our Lives. London : Profile.
Giddens, Anthony (2000) Runaway World. London : Routledge.
Giddens, Anthony (2001) Sociology. Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (Ed.) (2001) The Global Third Way Debate. Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (2002) Where Now for New Labour? Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (Ed.) (2003) The Progressive Manifesto. New Ideas for the Centre-Left. Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (Ed.) (2005) The New Egalitarianism Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (2007) Europe In The Global Age. Cambridge : Polity (publisher).
Giddens, Anthony (2007) Over to You, Mr Brown - How Labour Can Win Again. Cambridge : Polity (publisher).

رؤية غيدنز لعلم الاجتماع:

يقول "إيان كريب" : " إن ما يسترعي الانتباه في أعمال " غيدنز" ليس حجمها فقط. ولكن أيضا نطاق الأفكار التي تتضمنها، وليس لأنها أعمال نظرية فحسب، بل لأنها دراسة لتاريخ العالم. وهي لافتة للنظر، فضلا عن ذلك لأن صاحبها غدا أول منظر اجتماعي بريطاني في الحقبة الأخيرة له سمعة دولية" [1] .

علم الاجتماع كما يراه " أنتوني غيدنز" مشروع مذهل وشديد التعقيد لأن موضوعه الأساسي هو سلوكنا، ولأنه كذلك، فإنه يتسم بالاتساع الذي يراوح بين تحليل اللقاءات العابرة بين الأفراد واستقصاء العمليات الاجتماعية العالمية، وبينهما تنتظم لائحة هائلة من المسائل التي تكاد تغطي مختلف جوانب حياتنا كأفراد أو كجماعات تنضوي في إطار مجتمع سياسي. وبعد جولة واسعة، يحط المؤلف خلالها رحاله في مختلف المحطات الأسرية والسياسية والبيئية والجنسية والثقافية، يعطي "غيدنز" نفسه فرصة التأمل النظري في علم الاجتماع وما قد يترتب عليه من مآزق.

في هذا الإطار، يدعو "غيدنز" إلى تواضع المشتغلين بهذا الحقل والكف عن إعطاء تفسيرات شاملة وعريضة للظواهر المجتمعية، ويفضل بدلاً من ذلك، ما يسميه نظريات المدى المتوسط وفق تعبير عالم الاجتماع الأميركي "روبرت ميرتون"، وأنه كلما كانت النظريات الاجتماعية أكثر اتساعاً وشمولاً وطموحاً، ازدادت صعوبة اختبارها بشكل تجريبي في الواقع العملي.

وتدور في أوساط العلماء إلى الآن، مساجلات حامية حول عدد من المحاور المفصلية والمفاهيم الجوهرية في مجال التنظير الاجتماعي، ويمكن القول إن أوجه الاختلاف أو التباين أو الاتفاق في أوساط المدارس المختلفة تتمثل في مجموعة من المآزق النظرية في علم الاجتماع المعاصر، يمكن إجمالها في أربع قضايا أساسية سنكتفي بالحديث عن ثلاثة منها:

١-المأزق الأول: الفعل البشري: البنية والفعل: إن أحد الطروح الأساسية التي تقدم بها دوركهايم وباحثون آخرون، هي أن المجتمعات التي نعيش فيها وننتسب إليها

---

[1] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٦٩.

تفرض قيوداً وضغوطاً مجتمعية على أفعالنا، وأن للمجتمع اليد العليا على الإنسان الفرد، وهو أكبر وأهم وأضخم بكثير من مجموع الأفعال والتصرفات الفردية. وقد تعرّض هذا الطرح لانتقادات حادة ويتساءل النقاد وخصوصاً علماء الاجتماع المتأثرين بالمدرسة التفاعلية الرمزية، عن ماهية المجتمع إذا لم يكن توليفة لمجموعة الأفعال الفردية؟. ويضيف هؤلاء أننا بوصفنا مخلوقات بشرية نفكر وتصدر تصرفاتنا وفق أسباب ودوافع، وأننا نعيش في عالم تتغلغل فيه الدلالات الثقافية والظواهر الاجتماعية ما ليس "أشياء" صلبة جامدة، وبالتالي فنحن لسنا صنيعة المجتمع، بل صانعوه في الوقت نفسه. وهنا تأتي مساهمة أنتوني غيدنز حول الفجوة بين "البنية" و"الفعل" فالمجتمعات البشرية برأيه، في حالة مستمرة من التباني والتشكل، أي أنها تبنى وتشكل من جديد كلّ لحظة. ويعضد "غيدنز" في نظرته هذه عدد من علماء الاجتماع من أمثال "إرفينج جوفمان" الذي يرى أن هناك "بنية ثنائية مزدوجة"، بمعنى أن الفعل الاجتماعي يستبق البنية الاجتماعية وأن البنية تستبق الفعل في الوقت ذاته.

٢- المأزق الثاني: الإجماع والصراع: تميل بعض الاتجاهات النظرية إلى أن المجتمعات البشرية تتميز بخصيصة النزوع إلى النظام والانسجام، ويعتقد آخرون أن أبرز ما يميز المجتمع البشري هو عنصر الصراع. وكما هو الحال في ثنائية البنية والفعل، فإن من غير المتوقع أن تؤول المساجلات حول النظريات الصراعية إلى نوع من التوافق أو التوفيق.

٣-المأزق الثالث: مشكلة الجنوسة: يرى البعض أن الجنوسة ليست مقولة ثابتة دائمة، بل هي خصيصة مائعة تتجسد في ما يفعله الناس. في المقابل، ثمة من يقول إن الجنوسة هي مقولة عامة مسلّم بها، تعتبر الفوارق قائمة في أساسها على الصفات البيولوجية التي تسبغ على الرجال والنساء.

وهناك مآزق أخرى لا يتسع المقام للحديث عنها كمأزق تشكل العالم الحديث وغيره، وقد آثرنا تكثيف أفكار الكتاب قدر الإمكان ليكون محفزا للقارئ للغوص في قضاياه ومعالجاتها دون انتقائية من هنا وميل فكري من هناك[1].

تعريف علم الاجتماع عند غيدنز:

يمكننا تعريف العلم بأنه الاستخدام المنتظم لوسائل البحث الإمبريقي، تحليل البيانات والتقييم المنطقي للحجج لتطوير نصوص معرفية حول موضوع معين. بهذا التعريف للعلم يمكن اعتبار علم الاجتماع علماً لكن لا يمكن نمذجته مباشرة على العلوم الطبيعية لأن دراسة السلوك الإنساني تختلف جوهرياً عن دراسة العالم الطبيعي. ومن وجهة نظر " غيدينز" يعمل علم الاجتماع على مستويين من التحليل:

- علم اجتماع المنظور الصغير: يدرس السلوك اليومي في مواقف التفاعل وجهاً لوجه.

- علم اجتماع المنظور الكبير: يعمل على تحليل الأنساق الاجتماعية الكبرى.
هناك علاقة وثيقة بين مستويي التحليل.

وبالتالي يطرح "غيدنز" تساؤل يتعلق بكيف يمكن لعلم الاجتماع أن يساعدنا في حياتنا؟

ووضع الإجابة في شكل متطلبات رئيسة على علم الاجتماع القيام بها ومن أهمها:

أ- الفهم المتطور لحزمة من الظروف الاجتماعية يعطينا عادة فرصاً أفضل في السيطرة عليها.

ب- يوفر علم الاجتماع الوسائل التي تساعدنا على زيادة حساسيتنا الثقافية.

ج- يمكننا دراسة تبعات اتباع برامج سياسة اجتماعية معينة.

---

[1] أنتوني غيدنز (٢٠٠٦). علم الاجتماع. ترجمة فايز الصباغ، بيروت: منظمة الترجمة العربية، ص٧٠٢-٧٠٩. وكذلك عمله الرائد في تقييم أطروحات أهم علماء الاجتماع في كتاب: أنتوني غيدنز (د ت) . الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة. ترجمة أديب يوسف، دمشق: وزارة الثقافة.

د- يساعد علم الاجتماع في التنوير الذاتي كما يمنح الجماعات والأفراد فرصاً متزايدة لتغيير ظروف حياتهم[1].

وفيما يلي عرض لأهم نظريات وأفكار عالم الاجتماع البريطاني أنتوني غيدنز:

نظرية التشكيل البنائي **Theory of structuration** :

صاغها "أنتوني غيدنز" في عام 1984 م ، وإن كان قد صاغها في عام ١٩٧٦م وطرحها ضمن كتاب بعنوان (دستور المجتمع ,(The Constitution of Society) في محاولة لردم الهوة بين نظرية الفعل الاجتماعي /البنائية والموضوعية/الذاتية والنماذج التحليلة الكبرى/الصغرى. أو لتحقيق التكامل ما بين الاهتمامات الصغرى والكبرى. تأتي النظرية في محاولة للإجابة على السؤال القديم حول ما إذا كان الأفراد أم القوى الاجتماعية هي التي تشكّل الواقع الاجتماعي، من خلال تبني موقف معتدل من هذا الجدل بالقول بأنه على الرغم من كون الأفراد لا يمتلكون الحرية الكاملة في اختيار أفعالهم وكون معرفتهم محدودة إلا أنهم هم الذين يعيدون إنتاج البنى الاجتماعية وبالتالي يصنعون التغير الاجتماعي[2].

وكما يقول بعض العلماء، فقد اتضح التأثير الماركسي القوي في رؤية " غيدنز" في هذه النظرية، حيث وضح تأثره العميق بمقولة " ماركس" :" الناس يصنعون تاريخهم، ولكنهم لا يصنعوه بالطريقة التي ترضيهم، فهم يصنعون التاريخ في ظل ظروف يختارونها بأنفسهم، ولكنها ظروف تنتقل إليهم من الماضي".

ويقول "إيان كريب" : مع أن" غيدنز" يختلف عن أسلوب " بارسونز" وبقدر أقل في طريقة تفكيره، فإن أسلوبه في صياغة نظرية التشكيل يجب أن توضع مع مصاف الوظيفية البنائية. فهي محاولة للتمسك بتصور عن المجتمع باعتباره كلا واحدا مع التمسك بما توصل إليه " التحول اللغوي" في الفلسفة من خبرات ثاقبة، وبمنهجية النظام الاجتماعي في علم الاجتماع تحديداً" [3].

---

[1] انظر: انتوني غيدنز (٢٠٠٦). مرجع سابق.

[2] انظر دراسة عربية متخصصة في : زايد، أحمد (١٩٩٦). آفاق جديدة في نظرية علم الاجتماع: نظرية تشكل البنية. مجلة الاجتماعية القومية، العدد ٣٣، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، ص ٥٧-٨٧.

[3] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٦٩.

ومن المفاهيم الرئيسة لنظرية التشكيل البنائي:

- مفهوم التشكيل / البنية: هي علاقات مجتمعية ثابتة أو مستقرة في الزمان والمكان، وهي تتميز عن الفعل الإنساني الراهني الذي يجري الآن هنا، حتى وإن كانت لا توجد خارجه. البنية تمثل سمة تحكم أو تحدد الحياة المجتمعية، لكنها سمة تجعل الحياة ممكنة. وتتغلغل البنية بالفعل ولا توجد إلا فيه ومن خلاله، وهو الذي ينتجها ويعيد إنتاجها.

- مفهوم البناء: تلك الخصائص البنائية (القواعد والموارد) التي تسمح بعقد الصلة بين الزمان والمكان في إطار النسق الاجتماعي، وهي خصائص تجعل من الممكن للممارسات الاجتماعية الملاحظة، والتي يمكن تمييزها بصعوبة نظرا لشدة تشابهما، أن توجد عبر مجالات زمانية ومكانية مختلفة تضفي عليها شكلاً منتظماً. والبناء دائماً ما يعيق الفرد عن تحقيق ما يريده من ناحية، ويمكنه من تحقيق ما يريده من ناحية أخرى.

- مفهوم المؤسسات: وتعني انتظام القواعد أو البنى في الزمان والمكان. فهي ليست كما هي بالمفهوم التقليدي للمنظمات الاجتماعية كالهيئات ودور العبادة والجامعات وغيرها. بل هي ذلك المعنى الذي يكون فيه الزواج مؤسسة للأفعال البشرية. وبالتالي الممارسات الاجتماعية لها خصائص معينة تقوم عليها المؤسسات الاجتماعية.

- الأنساق الاجتماعية: التكامل الاجتماعي يشير إلى حالة التبادل القائمة بين الفاعلين الاجتماعيين في المواقف التي يكون فيها التفاعل وجها لوجه، في حين يعني تكامل النسق حالة التبادل بين الجماعات والمجتمعات، فضلا عن كونه حالة يتم التوصل بها عبر الزمان والمكان. أو هي : تشكيلة من أنماط منتظمة من العلاقات المجتمعية التي ترى كممارسات أعيد إنتاجها. أو هو : " الممارسات الاجتماعية التي يعاد إنتاجها، أو العلاقات التي يعاد إنتاجها بين الفاعلين أو الجماعات، تلك العلاقات التي تنتظم كممارسات اجتماعية مطردة. واعتبر أن الاندماج المجتمعي يدل على الكل الخاص الناتج من أوضاع التفاعل أو التبادل بين الفاعلين من خلال حضورهم أو تواجدهم المشترك، في حين أن الاندماج النسقي يعبر عن التبادل بين الفاعلين والجماعات في مكان وزمان واسعين بما يتعدى شروط الحضور أو التواجد المتبادل بين

الأطراف" [1]. ويقول " غيدنز": " أحد الافتراضات الرئيسة لنظرية التشكيل البنائي هي أن القواعد والموارد المعتمدة على إنتاج وإعادة إنتاج الفعل الاجتماعي هي في نفس الوقت وسائل إعادة النسق" [2].

- مفهوم التشكيل البنائي: تقوم فكرة التشكيل البنائي على أن تشكيل الفاعلين والأبنية ليستا ظاهرتين مستقلتين (أي ثنائية)، ولكنهما تمثلان ازدواجية. فالخصائص البنائية للأنساق الاجتماعية هي بمثابة وسيلة ونتيجة للمارسات التي تنظمها بصورة متكررة، أو أن لحظة إنتاج الفعل هي أيضاً لحظة إعادة إنتاجه في سياق الأحداث اليومية للحياة اليومية.

ويمكن القول أن الفكرة الرئيسة في نظرية التشكيل البنائي يتمثل في ثنائية البنيوي، أي في ثنائية البنية والفعل في العالم المجتمعي. وقد رأى في ضوئها أن علم الاجتماع ينظر إلى البنية باعتبارها سمة تتحكم أو تحدد الحياة المجتمعية. لكنها أيضاً سمة تجعل الحياة ممكنة، والمماثلة مع اللغة تمكننا من قول شيء ما. كما أن البنى تتغلف بالفعل ولا توجد إلا في ومن خلاله. وهو الذي ينتجها ويعيد إنتاجها. وطبقاً لذلك، لا يعود مجال الدراسة في العلوم الاجتماعية يتمثل في نظره في خبرة الفرد الفاعل، أو في أي شكل من أشكال الكل المجتمعي المستقل أو القائم بذاته، بل في الممارسات المجتمعية المنتظمة عبر الزمان والمكان [3].

ورغم اهتمامه بقضية الربط بين الظواهر الكبرى، والصغرى، إلا أنه لم يستخدم " غيدنز" مصطلحي " الكبرى والصغرى" لعدة أسباب:

١-أن هذين المصطلحين كانا مجالا للخلاف بين علماء الاجتماع. بينما هو لا يعتقد أن لأحدهما أفضلية على الآخر.

٢-أنه حتى عندما لا يكون هناك صراع بين النظريات الكبرى والصغرى. إلا أن هناك اتجاه إلى تطوير تقسيم غير وظيفي للعمل بين نظريات علم الاجتماع. وبالتالي

---

[1] خليل، فؤاد (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١١٣-١١٤.

[2] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٦٨.

[3] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٧١-١٧٣.

فالتمييز بين النظريات الكبرى والصغرى. وبالتالي التكامل بينهما هو المفيد، والانشغال يجب أن يكون بالعلاقات المتبادلة بينهما وليس بالتفرقة بينهما.

٣-انتقد " غيدنز" " إمبريالية" النظريتين الكبرى مثل الوظيفية والصغرى مثل التفاعلية والظاهراتية، حيث يرى أن نظرية التشكيل البنائي تقابلها : " إن المجال الرئيس للدراسة في العلوم الاجتماعية- وفقاً لنظرية التشكيل البنائي- ليست هي خبرة الفاعل الفرد، وليس هو وجود أي شكل من أشكال الوحدة المجتمعية الكاملة، وإنما الممارسات الاجتماعية المنتظمة عبر الزمان والمكان".

وتتسلل نظرية التشكل البنائي عند " غيدنز" وفقا لما يلي:

١- أن الأنشطة الاجتماعية تمثل نقطة البداية، وهي أنشطة متكررة. أي لا تظهر الأنشطة للوجود بواسطة الفاعلين الاجتماعيين، ولكنها تتجدد بواسطتهم من خلال الوسائل الفعلية التي يعبرون بها عن أنفسهم كفاعلين.

٢- يقوم الفاعلون الاجتماعيون في أنشطتهم ومن خلالها بإنتاج الظروف التي تجعل هذه الأنشطة محتملة الحدوث. أي أن نقطة البداية المعرفية " الأنطولوجية" هي الوعي ، أي التشكيل الاجتماعي للواقع، وليست هي البناء الاجتماعي. وإنما هي الجدل بين الأنشطة والظروف التي تحدث في الزمان والمكان.

٣- يهتم " غيدنز" بالوعي أو الانعكاسية Reflexivity، إلا أن الفاعل الإنساني بانعكاسيته لا يكون واعياً بذاته فحسب، ولكنه يراقب أيضاً التدفق المتواصل للأنشطة والظروف.

٤- أن الفاعلين الذين يراقبون أنشطتهم بصفة مستمرة بالإضافة إلى بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية. ويكونون قادرين أيضاً على الترشيد أو تطوير العمليات الروتينية التي يصبحون بموجبها قادرين على الفهم المتواصل لأسباب أفعالهم.

٥- لدى الفاعلين دوافع للفعل، وهذه الدوافع تحتوي على الرغبات التي تحدث الفعل. وعلى الرغم من أن المراقبة الانعكاسية والترشيد يتضمنها الفعل بصفة مستمرة فإنه من الأفضل أن نفكر في الدوافع على أنها بمثابة قوة دافعة للفعل.

وتحدد الدوافع الغايات العامة للفعل، إلا أن معظم أفعالنا لا تحركها الدوافع بشكل مباشر، والدوافع لا شعورية بصفة عامة. إلا أنها مهمة بالنسبة للسلوك الإنساني.

٦- يميز " غيدنز" بين الوعي الخطابي Discursive مثل " القدرة على التعبير عن الأشياء بالكلام"، والخطاب العملي Practical وهو ما يتم التعبير به دون قدرة على التعبير عنه بالكلام. وأن الوعي العملي له أهمية خاصة في نظرية "التشكيل البنائي" فهو الاهتمام المشترك بين هذه النظرية وبين النظريات الصغرى مثل التفاعلية والمنهجية الشعبية، بينما تتجاهله النظريات الكبرى مثل الوظيفية والبنيوية.

٧- يمثل الفعل الأشياء التي يقوم بها الفاعلون، ولا يتعلق الفعل بنوايا الفعل بنوايا الفاعلين، ولكنه يتعلق بما يقوم به الفاعلين فعلاً. ويفرق هنا بين الفاعلين والنوايا أو المقاصد، لأنه غالبا ما ينتهي الفعل بنتيجة مختلفة عما يقصد الفاعلون، أي أن الأفعال المقصودة قد تؤدي إلى نتائج غير مقصودة. ويمثل مفهوم " النتائج غير المقصودة" أهمية كبرى لدى " غيدنز" والذي يعني أن أفعال الناس لها نتائج غير مقصودة بصفة مستمرة. وهذه النتائج تصبح شروطاً غير معروفة للفعل وتغذية مرتدة، وتحول تلك الشروط دون جهود للسيطرة عليها، ومع ذلك يبذل الفاعلون قصارى جهدهم بصفة مستمرة لوضع تلك النتائج غير المقصودة تحت السيطرة.

٨- هناك علاقة بين الفعل والقوة، بمعنى أن الفاعل لديه القدرة على التأثير، والأهم من ذلك أن الفاعل يكف عن كونه فاعلاً إذا افتقد المقدرة على التأثير. ورغم أن هناك قيوداً في العالم. فإن ذلك لا يعني أن الفاعلين لا خيار لهم. والقوة هنا تسبق الذاتية، لأن الفعل يتضمن القوة أو القدرة على تغيير الموقف.

الحداثة Modernity :

يعتقد "غيدنز" أن هنالك تغيرات محددة جدا تخص مرحلتنا الزمنية الحالية، ولكنه يجادل في كونها ليست حقبة ما بعد الحداثة (post-modern era)

ولكنها حقبة الحداثة الثورية (radicalised modernity era). والتي نتجت عن انقراض القوى الاجتماعية التي شكّلت الحقبة السابقة ، ويقسم الحقب إلى ثلاثة مراحل وهي:

١- مرحلة ما قبل الحداثة.

٢- مرحلة الحداثة.

٣- مرحلة الحداثة المتأخرة (العليا) التي تعيشها المجتمعات المتقدمة حاليا .

وهنا لا يقلل "غيدنز" من التغيرات الهامة والتي حدثت ولكنه يتخذ موقف محايد تجاهها قائلا بأنها تقدم فرص وأخطار غير مسبوقة على حد السواء. ويعود ليشدد على أن تلك المجتمعات لم تتجاوز الحداثة ولكنها تعيش مرحلة متطورة ومتأخرة منها.

في دراسته بعنوان " الحياة في المجتمع بعد التقليدي" عام ١٩٩٤م. أوضح "غيدنز" أن التراث نوع من الذاكرة الجماعية أو الذاكرة التخيلية للماضي. ويولد روابط أخلاقية وعاطفية عميقة. وأن التراث يفعل مفعول " الصمغ" حيث يربط المجتمع بعضه ببعض. ومن الأمثلة على ذلك الأعياد الوطنية والقومية، وأعياد الاستقلال، وأعياد ميلاد العائلة المالكة.. وأن المجتمعات المحلية وتقاليدها الراسخة تبلى تماماً بفعل الحداثة في مرحلة الحداثة المتأخرة (أو مرحلة ما بعد الحداثة) ويحدث ذلك بسبب العولمة. فوسائل الإعلام الحديثة لديها القدرة على اختراق كل بيت وكل مجتمع محلي في الإعلام. وتنقل معها التصوير التجاري للرأسمالية المعاصرة. فكما يقول" المجتمع ما بعد التقليدي هو المجتمع الكوني الأول". وتتولى عملية العولمة تفريغ المجتمعات المحلية من تراثها الراسخ[1].

ومن الخصائص الرئيسة للحداثة كما يقول " غيدنز" ما يلي:

١- التصنيع: بجوانبه المادية مثل الآلات، وعلاقاته الاجتماعية مثل الطبقات الاجتماعية بصفة أساسية؟.

٢- الرأسمالية: أي إنتاج السلع باستخدام العمل المأجور من أجل السوق التنافسية.

---

[1] مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١١٩-١٢٠.

٣- المراقبة: أي قدرة التنظيمات - بما فيها الدولة- على الحصول على معلومات عن الأفراد والجماعات ومراقبتهم.
٤- المقدرة على الحرب الشاملة بسبب التقنية الصناعية[١].

يعرف " غيدنز" الحداثة المتأخرة : " بأنها عصر يكون فيه المجتمع الحديث أكثر وعياً بتبعات الحداثة- السلبية منها- ويؤمن بأن المشروع الحديث لتحسين الأوضاع الإنسانية " أي التقدم" لا يزال إنجازاً ممكناً، وليس الوقت متأخراً لكي لا نستفيد من أخطائنا"[٢]. كما يستخدم مفهوم " الانعكاسية" للإشارة إلى التحديث الانعكاسي، أي التدمير والدمار الطائش وغير المقصود الذي يسببه التحديث والذي جاء بمصطلح "عدم اليقين المصنوع Manufactured Uncertainty " رتفاع حرارة الأرض والتلوث، واستنزاف البيئة، ومخاطر الغذاء، والإفراط في استخدام المضادات الحيوية في إنتاج الدواجن والحيوانات ومشتقاتها، وتكاثر الأسلحة النووية والكيميائية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل كل هذه أمثلة على التبعات الخطيرة غير المقصودة للحداثة. وفي مرحلة الحداثة تظهر الآثار السلبية للعلم والتصنيع والحكومات الكبيرة كأشباح حقيقية وليست أشباحاً شاحبة في وليمة الحداثة[٣].

يقول " غيدنز: " إننا نعيش اليوم في عالم منفلت تحف به المخاطر، التي تحدث عنها "أولريخ بك" في نظريته " مجتمع المخاطرة **Risk Society** " [٤]، غير أن علينا أن

[١] مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٢١.

[٢] مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٢٤.

[٣] مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٢٥. وانظر نظرية أولريش بيك " مجتمع المخاطرة".

[٤] يقول عالم الاجتماع الألماني " أولريخ بك" في نظريته "مجتمع المخاطرة": أن المجتمع الصناعي بدا في الاندثار، مفسحاً الطريق ليحل محله " مجتمع المخاطرة". وما يطلق عليه " عالم الفوضى". والذي يمثل غياب أنماط الحياة المستقرة ومعايير السلوك الإرشادية. وقد تفاقمت المخاطرة بالثورات المتجددة في مجال التقنية. مع الإقرار بنواحي التقدم والتحسن الهائل الذي تحقق في المجتمعات الحديثة. فإنه لا يمكننا أن نغفل عن الآثار المدمرة المحتملة لهذا التطور التقني، سواء في المجالات النووية، أو المحاصيل المعدلة جينياً. والمخاطر في المجتمعات الحديثة قد لا تزيد عن المخاطر التي صادفتها المجتمعات التقليدية أو القديمة، إلا أن المخاطر تختلف في أسبابها وطبيعتها ومجالاتها. فالطبيعة هي المصدر =

نضيف مفهوم " الثقة" إلى جانب " المخاطرة"، وهي الآمال التي نعقدها على الأفراد والمؤسسات في مجتمعاتنا الحديثة. وقد أخذ عنصر الثقة هذا بالاندثار مع جملة التحولات المتسارعة في مجتمعاتنا المحلية وتزايد مظاهر العولمة في حياتنا المعاصرة. وتعني الثقة أن نعقد الآمل على " أنساق مجردة" لا نعرفها معرفة وثيقة. ولكنها تؤثر تأثيراً مباشراً في حياتنا، مثل المصانع التي تنتج غذائنا، والأجهزة التي تقوم بتنقية المياه التي نشربها، أو البنوك التي نودع بها أموالنا. وحيث أن الثقة والمخاطرة يرتبطان ارتباطاً وثيقاً، فإن علينا أن نغذي الثقة بمنظومة واسعة من الهيئات التي تؤثر في حياتنا لنستطيع مواجهة ما يمكن أن نصادفه من مخاطر. إن معيشتنا في عصر المعلومات الحالي تعني زيادة في مستوى "الانعاكاسية الاجتماعية". ويشير هذا المفهوم إلى أننا نقوم على الدوام بالتفكير في الظروف التي تكتنف حياتنا وفي تأملها والتمعن فيها. بما في ذلك أنماط السلوك والممارسات والأفكار التي نزاولها أو تحميلها في حياتنا اليومية. وتظل لدينا في جميع الأحوال القدرة على التغيير والتعديل على الصعيدين الفردي والجماعي. ويعني ذلك أننا لم نفقد بعد سيطرتنا على المستقبل. وعلى الصعيد العالمي، فإن الدول المفردة قد فقدت جانباً من القوة التي كانت تتمتع بها في الماضي. وأقل نفوذاً في وضع السياسات الاقتصادية. غير أن الحكومات ما زالت تحتفظ رغم ذلك بقدر كبير من السلطة

= الرئيس للمخاطر في المجتمعات التقليدية. أما المخاطر في المجتمعات الحديثة فهي جراء أنماط التنمية الاجتماعية، والمراحل المتقدمة في التطور العلمي والتقني. وبالتالي مسئولية إدارة المخاطر يجب أن يشترك فيها المواطنين، والحركات الاجتماعية والتي يجب أن تقوم بدورها في الضغط على السياسين ولا سيما في مجالات حقوق الإنسان، والمحافظة على البيئة، وحماية مصالح المستهلكين. ولا يقتصر جانب المخاطرة على الجانبين البيئي والصحي، بل يشتمل كذلك على سلسلة من التغيرات المترابطة المتداخلة في حياتنا الاجتماعية المعاصرة مثل: التقلب في أنماط العمالة والاستخدام، تزايد الإحساس بانعدام الأمن الوظيفي، وانحصار أثر العادات والتقاليد على الهوية الشخصية، تآكل العائلة التقليدية الكبيرة، شيوع التحرر والديموقراطية في العلاقات الشخصية. وبالتي فإن أي قرار يحمل في طياته مخاطرة حيث دخلت المخاطرة قرار الزواج، والمستقبل الوظيفي، والمؤهلات التعليمية، والتي لا ندري مالمناسب منها للمرحلة الاقتصادية القادمة. إن المخاطر لم تعد قاصرة لزمان ومكان محدد، بل شملت كل البلدان والطبقات الاجتماعية، وآثارها أصبحت خارج حدود المكان وتتعدى النطاق القومي. انظر كتاب (Beck, Ulrich (1992). Risk Society: Towards A New Modernity. London: Sage.)

والنفوذ، كما أن تضافر الجهود التعاونية بين الدول لا بد أن يزيد من مستوى السيطرة والتوجيه على هذا " العالم المنفلت" ولا شك أن الهيئات والحركات الاجتماعية التي يشير لها " أولريخ بك" تقوم بدور مهم خارج الإطار السياسي النظامي التقليدي، غير أنها لا يمكن ان تحل مكان السياسات الديمقراطية المعهودة. ولا بد أن تتجاوب الحكومات الديمقراطية مع دعوات الحركات المطالبة في المجتمع"[١].

ويرى "أنتوني غيدنز Anthony Giddens" أن الحداثة تحرر العلاقات الاجتماعية من تقييدات التفاعلات المباشرة (وجهاً لوجه) التي كانت موجودة في النواحي المحلية لمجتمعات ما قبل الحداثة، مما يسمح بتمديد العلاقات عبر الزمان والمكان وهذا هو جوهر العولمة[٢]. وبالتالي فارق بين المكان واللامكان أننا لو أخذنا مثال على اللامكان داخل المجتمع فنجد أن مركز التسوق المحلي هو محيط يعزز فيه شعور بالارتياح والأمن بفعل تصميم المباني والتخطيط المعتنى للأماكن العامة. لكن كل من يتسوقون هناك يدركون أن أكثر المتاجر تابعة لمؤسسات متعددة الفروع، ويمكن أن يجدها الواحد منا في أي مدينة في العالم، وأن هناك بالفعل عدداً لا حصر له من مراكز التسوق ذات التصميم المشابه في أماكن أخرى. بينما نجد أن المكان الذي يوفر الهوية الثقافية والذاكرة، والذي يربط سُكانه بتاريخ الناحية المحلية من خلال عمليات التكرار اليومية للتفاعل الاجتماعي العضوي، كالأهرامات في مصر هو مكان له معنى ثقافي وأثري وشعبي أصيل مرتبط بالهوية وثقافة شعبية ذات جذور راسخة بإحكام في المكان الجغرافي.

من بين الأمور المثيرة للاهتمام حول تعاريف غيدنز للعولمة، نجد طبيعتها "المجردة". إن أفكارا مثل "تقاطع الحضور والغياب" أو فكرة "العمل عن بعد" الأكثر تحفظا ، يبدو أنها تتعمد تفادي المصطلحات التقليدية لعلم الاجتماع: "المجتمعات، الدولة القومية، الرأسمالية متعددة الجنسيات"، لترسيخ خطاب "يركز على تحليل سبل تنظيم الحياة الاجتماعية عبر الزمان والمكان، أي مُشكل التماسف الزماني- المكاني" . وضمن هذه الإشكالية، ستوجد الآلية المعولمة للحداثة. يدعي غيدنز أن المؤسسات

---

[١] أنتوني، غيدنز (٢٠٠٦). مرجع سابق، ص ٧٣١.

[٢] غيدنز، أنتوني. (٢٠٠٥). مرجع سابق. وانظر بحث بعنوان "نتائج الحداثة" (١٩٩٠).

الاجتماعية الحديثة تمتلك خصائص دينامية مميزة غير موجودة لدى مثيلاتها في العالم قبل الحديث، وهذه مشتقة في معظمها من تحول في العلاقة بين المقولات الوجودية الأساسية للزمان والمكان.

يجادل "غيدنز" بأنه في المجتمعات قبل الحديثة، كان حساب الزمن محدودا، بالنسبة إلى الأكثرية، بفعل اعتماده على اتصال بالمكان. وبطبيعة الحال، كانت كل المجتمعات قبل الحديثة تمتلك تصوراتها الخاصة المتوسطة ثقافيا عن الزمن وبعض طرق احتساب الوقت. لكن قبل اختراع الساعة الميكانيكية وانتشارها الواسع، كان من المستحيل معرفة الوقت من اليوم من دون الإشارة إلى سياق الناحية المحلية، وخصوصا العلامات الطبيعية للزمان- المكان- وبالتالي، على سبيل المثال، فإن "الفجر" و "الغسق" و "الظهر" أو العلامات الموجودة على الساعة الشمسية، لم تكن علامات غير دقيقة عن الوقت فقط، بل إنها كانت مرتبطة جوهرياً بالناحية المحلية التي كانت تستخدم فيها. ومن الممكن أن يقال الشيء نفسه عن مقولة مثل "عندما تنتهي من العمل في الحقول ونعود إلى القرية". وعلى الرغم من أنه مقياس اجتماعي عوضا عن أنه "طبيعي" للزمن، فلا يزال هذا معتمداً في معناه على "توافر الحضور" في المجتمعات المحلية. وبالتالي فإن أوجه القصور التي تتعلق بحساب الزمن في العصور قبل الحديثة يمكن أن تلح في صعوبة القول بعبارات مثل "في الساعة الثالثة" أو "خلال نصف ساعة"، ليست مجرد صعوبات تتعلق بالدقة قبل التسجيل الميكانيكي المزمن، بل - وهو أمر أكثر أهمية من حيث التجريد، أي الاستقلال عن المكان. وبالتالي، فبطرق واضحة تماما، أدى الفصل بين الزمان والخصائص المحلية إلى ظهور أنماط من التنسيق سرعان ما أصبحت عالمية، أصبح توقيت غرينتش التوقيت القانوني المعتمد في بريطانيا في العام ١٨٨٠م، وبعد ذلك التاريخ بأربع سنوات فقط اعتمد كتوقيت عالمي. وعلى الرغم من ذلك، يحذر "غيدنز" من تفسير كل ذلك بسطحية شديدة، فهو لا يريد أن يقترح أن الزمن المقياس بالساعات هو، طريقة حتمية من الناحية التقنية، مصدر للحداثة. عوضا عن ذلك، فما يهم هو العملية الاجتماعية الأوسع المكتنفة في فصل الزمان عن المكان، أدى الاستخدام الواسع الانتشار لأجهزة القياس الميكانيكية للزمن إلى تسهيل، لكنه أيضاً يفترض، حدوث تغيرات بالغة العمق في مسألة الحياة اليومية.

وعلى سبيل المثال، فإن العام ٢٠٠٠م كحدث عالمي يعني أكثر من الاعتماد العالمي لروزنامة موحدة، فهو يقترح سياقا يرتبط فيه كل واحد (تقريباً) "بالتاريخ" بطريقة خاصة، مما يعمم ما أسماه غيدنز "التاريخية" historicity، أي استخدام التاريخ لصنع التاريخ وتعني التاريخية ضمنا القدرة على استغلال المعرفة بالماضي من أجل صياغة المستقبل، وهو شيء لا يمكن أن يظهر سوى في مجتمعات تمتلك القدرة المنهجية على تخزين واسترداد المعرفة بالماضي. ولذلك فإن حقيقة أن كل المجتمعات قادرة على الارتباط بفكرة "عام ٢٠٠٠" تستلزم أيضا تحولا جذريا في مفاهيمها واستخدامها الاجتماعي للزمن التاريخي ، مما يستلزم بدوره تحولات في تسجيل وتخزين المعلومات، وفي مجال الاتصالات.

اللا تضمين في العلاقات الاجتماعية:

يصف "غيدنز" "اللا تضمين" بأنه "اقتلاع" العلاقات الاجتماعية من السياقات المحلية للتفاعل وإعادة تشكيلها في نطاقات غير محددة من الزمان- المكان . وتعد هذه فكرة مهمة لفهم الطبيعة المعولمة بأصالة للحداثة وبشكل أوسع لفهم الخبرة الثقافية للعولمة. ويناقش غيدنز نوعين من "الآليات" التي تقتلع العلاقات الاجتماعية من انطمارها (تضمينها) في النواحي المحلية: "العملات الرمزية" و "الأنظمة الخبيرة" . حيث تعد "العملات الرمزية" وسائط للتبادل ذات قيمة قياسية، وبذلك يمكن تبادلها بينيا عبر مجموعة مُتعدِّدة من السياقات. والمال هو المثال الواضح الذي قدمه غيدنز، فالمال يُعتبر وسيلة لـ "اقتلاع" العلاقات الاجتماعية و "الاقتصادية" من التحديد الزماني- المكاني للنواحي المحلية المادية. حيث إنه الوسيلة النموذجية لإطالة "سلاسل التفاعل" ، كنظام مجرد لتبادل القيمة المعيارية، يسمح بتبادل العلاقات في ما وراء خصوصيات الموقع، وكوسيلة للائتمان : يُمثل نمطا من التأجيل الزمني، وبالتالي فإنه يسمح للعلاقات المتبادلة بأن تمتد عبر الزمن. وبطبيعة الحال ، يقر "غيدنز" بأن المال كان موجودا في مجتمعات ما قبل الحداثة، ولكن في الشكل غير المتطور نسبيا الخاص بالسك المادي للعملات Material coinage، وأنه لم يبح على صورة تلك العملات الرمزية المجردة الحقيقية، الموجودة في اقتصادياتنا المعاصرة، سوى مع تطور "المال الحقيقي" 'oney proper، "حيث أصبح مستقلاً عن الوسيلة التي يُمثل بها، واتخذ شكل معلومات خالصة مخزنة في صورة أرقام على أوراق مطبوعة بالحاسوب" .

وتقودنا مناقشة "غيدنز" بعيدا عن المعنى الأكثر وضوحا لـلا تـضمين علـى أنـه إزالة للأشخاص بالمعنى الحرفي من النواحي المحلية التي يقطنون فيهـا. وهـذا هـو المعـنى الذي نحصل عليه، على سبيل المثال، العمليات التي يُطرد خلالها النـاس مـن الـسياقات الاجتماعية التي تمنحهم الهوية... كما يحدث خـلال الهجـرات القـسرية بعـد الحـروب. وبالطبع فإن الحداثة "تهجر" Displace الأشخاص بهذه الطريقة مُحدثة، كما في وصـف مارشال بيرمان المفعم بالحيوية، اختلالات ديموغرافية هائلة، تفصل ملايين الأشـخاص عن مواطن أسلافهم، وتقذف بهم إلى حياة جديدة في النصف الآخر مـن العـالم. لكـن غيدنز وعلى الرغم من تسليمه بنظام التشريد هذا، عندما يقول إن الحداثة تهجـر، فإنـه يشير بذلك إلى العملية التي يصبح بها المكان "تخيليـا" تنفـذ إليـه صـور الحـضور الطيفـي ghostly presences الخاصة بالتأثيرات البعيدة. وعلى الرغم مـن التحركـات الـسكانية الهائلة في العالم المعاصرة، فإننا جميعا، كما يقول غيدنز، ما زلنا نعيش حياة محلية، بمعنى أن "المقيدات التي تتعلق بالجسد تضمن أن كـل الأفـراد. وفي كـل الأوقـات، يوجـدون ضمن سياق من الزمان والمكان". ويبـدو أن هـذه خاصـية مُميزة لمفهـوم غيـدنز حـول العولمة، حيث تتعرض هذه "الناحيـة المحليـة"، في العـصر الحـديث، لتحـول جـوهري انطلاقا من النواحي المحلية المحتـواة ذاتيـاً في عـصور مـا قبـل الحداثـة، حيـث تـصبح التجربة السائدة للحياة اليومية في العالم الحديث- العالمي متعلقة بتعرض عوالمنـا الحياتيـة التي تقع في سياق محلي للاختراق من قبل أحداث وعلاقات، وعمليات بعيدة".

لكن من الإنصاف كما يرى جون توميلـسون (٢٠٠٨). أن نقـول إن صـياغات "غيدنز" تبقى في المقام الأول ضمن مجال التحليل الثقافي وليس الاجتماعي، فإن إشـارته إلى "البعد الثقافي" للعولمة هي في الواقع مجرد إشارة للتقنيات الثقافية. ويعد هذا الإهمـال والتأهل الواضح- أو على الأقل عدم التأكيد بشكل كاف على أهمية الثقافـة- هـو أحـد الأشياء التي انتُقد غيدنز بسببها على نطاق واسع. وهذا أمر غريب، لأن غيدنز، يـشير مع ذلك وباستمرار إلى الموارد، والنصوص، والذوات الرمزية، وما شابها، والتي تُمثل المادة الرئيسة للثقافة"[1].

---

[1] توميلسون، جون (٢٠٠٨). العولمة والثقافة. ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمـد. الكويـت، المجلـس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٣٥٤)،.

مفاهيم أخرى عند " غيدنز":

١- مفهوم الهوية **Self-identity** :

يقول "غيدنز" أنه ومن منظور ما بعد التقليدي فإن الهوية الشخصية ليست موروثة ولا ساكنة، وليست مجرد مجموعة من الخصائص القابلة للملاحظة في لحظة معينة ، ولكنها أصبحت تختزل حياة شخص ما.

ويوضح هذه الفكرة أكثر في كتابه (Modernity and Self-Identity: 54) بقوله:

"هوية الشخص لا توجد في سلوك معين - على الرغم من أهميته في التفاعل مع الآخرين- ولكنها توجد بالقدرة في الحفاظ على استمرارية سيرته الذاتية، بحيث يحافظ على تفاعل منتظم مع الآخرين في حياته اليومية".

٢- مفهوم الطريق الثالث **The Third Way** :

يرى "أنتوني غيدنز" أنه في الوقت الحالي هنالك فرصة لبروز منهج السياسة الرشيدة (life politics) على حساب سياسة عدم التكافؤ(emancipatory politics) . بحيث تقود الحركات الاجتماعية إلى إداث مزيد من التغير الاجتماعي أكثر من الأحزاب السياسية . من خلال تشكيل علاقات جديدة مبنية على ثقة الناس واعتمادهم على بعضهم وحكوماتهم. ويرى غيدنز أن مفاهيم سياسية مثل اليسار واليمين بدأت تفقد قيمتها نتيجة لعدّة عوامل من أهمها غياب بديل حقيقي ومنافس للرأسمالية[1].

---

[1] أنتوني غيدنز (٢٠٠٤). مقدمة نقدية في علم الاجتماع. ترجمة أحمد زايد وآخرون، القاهرة: موقع كتب عربية.

خامساً- ألفرد شولتز والاتجاه الفينومينولوجي:



خلفية تاريخية للنشأة :

تعرض علم الاجتماع بصفة عامة والنظرية الاجتماعية بصفة خاصة إلى الكثير من الشك والنقد من جانب الشباب من دارسي علم الاجتماع ، الذين لم يقتنعوا بما درسوه عن الوضعية والوظيفية ، خاصة مع التغيرات العميقة التي حدثت في المجتمعات الغربية بعد الحرب العالمية الثانية والأزمات التي مر بها العالم الرأسمالي . وقد اتخذت هذه المقاومة لقيم المجتمع الرأسمالي الصناعي أشكالاً متعددة، فعلى المستوى السلوكي لجأ الكثير من الشباب إلى رفض هذه القيم وما يرتبط بها من تصرفات وانسحبوا من المجتمع انسحاباً سلبياً دون أن يحاولوا إحداث تغيير جذري فيه واستبدلوا هذه القيم بقيم أخرى تتمركز في معظمها حول الغوص في الذات والتعبير عنها بحرية فكانت حركات الهيبز وجماعات العقاقير المخدرة وسواها من الجماعات .

أما على المستوى الفكري فقد لجأ الشباب المثقف وبخاصة من المتخصصين في العلوم الاجتماعية إلى رفض الاهتمام بدراسة أو فهم الواقع الموضوعي وارتدوا مثل جماعات الهيبز إلى الاهتمام بالذات من الداخل وكانت الفلسفة الظاهراتية خير معين لهم على ذلك.

وعلى ذلك فإن الاتجاه الفينومينولوجي يمكن النظر إليه باعتباره رد فعل محافظ لفشل الوضعية والوظيفية مقابل الاتجاهات الراديكالية التي تعتبر رد فعل ثوري لفشل هذه الاتجاهات السابقة الذكر، ويشبه هذا الموقف ذلك الموقف القديم الذي نشأ كرد فعل لفشل الفلسفات الميتافيزيقية إبان عصر التنوير[1].

إذاً فقد بدأ علماء الاجتماع يتشككون في قدرة المناهج الوضعية والإمبيريقية على فهم الواقع الاجتماعي فهماً عميقاً مما دفعهم إلى طرح بعض البدائل المنهجية كالفهم الفينومينولوجي والتحليل الأثنوميثودولوجي وحينما حققت هذه البدائل المنهجية قدراً من الذيوع والشهرة، بدأ علم الاجتماع الحديث يشهد تنوعاً لم يعرفه من قبل، ويحاول الاتجاه الفينومينولوجي في علم الاجتماع أو ما يسمى بعلم الاجتماع الظاهري phenomenological Socilogy إعادة النظر في كثير من المسلمات النظرية والمنهجية الشائعة في الفكر الاجتماعي الحديث وهي:

١- تأكيد الفارق الهام بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية.

٢- يرفض اعتبار العلوم الطبيعية نموذج يمكن أن تحاكيه العلوم الاجتماعية.

٣- الظواهر الطبيعية لا تعبر عن بناء خارجي من المعاني وبالتالي يتيح للباحث حرية الملاحظة وتفسير الظواهر التي يدرسها تفسيراً خارجياً مستقلاً.

يدرس الباحث في العلوم الاجتماعية عالم يتشكل من خلال المعاني التي تمثل بالنسبة له وسيلة لفهم الواقع كما أن الظواهر الاجتماعية تكتسب معاني خاصة بالنسبة للأفراد الذي يعيشون في إطار ثقافي معين ومن هنا يتضح مدى الاختلاف بين دور عالم الاجتماع في فهم الواقع الاجتماعي ودور العالم الطبيعي في دراسة العالم المادي فالعالم الطبيعي يدرس ظواهر لا تتخذ بناء معرفي مسبق. وبالتالي فهي لا تعرف القصد أو الإرادة، وعلى الرغم من أن العالم الطبيعي يدرس ظواهر طبيعية توجد في إطار اجتماعي إلا أن علاقته بهذه الظواهر هي علاقة خارجية تختلف تمام الاختلاف عن علاقة العالم الاجتماعي بالظواهر الاجتماعية التي يدرسها.

---

[1] نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص ٢٣٣-٢٣٤.

ويتعارض الاتجاه الفينومينولوجي مع النزعة الوضعية، فيؤكد الفينومينولوجيون صعوبة الفصل بين العالم الاجتماعي من ناحية وأساليب تفسيره وفهمه من ناحية أخرى.

وقد انتقد "هوسرل ١٨٥٩ - ١٩٣٩" علم الاجتماع بسبب ميله إلى محاكاة العلوم الطبيعية عند النظر إلى الواقع الاجتماعي لقد افتقد بذلك علماء الاجتماع القدرة على الإحساس بظواهر الوعي. والواقع أن الملاحظات النقدية التي سجلها "هوسرل" لا تنطبق فقط على الموضوعات التي يهتم بها علماء الاجتماع بل تنطبق أيضاً على المناهج التي يستخدمونها في دراسة الواقع الاجتماعي. ويستطيع هؤلاء العلماء إنقاذ علمهم من السطحية إذا ما حاولوا العودة إلى ظواهر الوعي باستخدام الفهم الفينومينولوجي، فالفينومينولوجيا هي جهد موظف لوصف الظواهر كما تتبدى لنا من خلال وعينا بها. وبذلك يصبح الوعي وسيلة وهدفاً للفينومينولوجيا[1].

ألفريد شولتز والظاهراتية **Schutz, Alfred** (١٨٩٩ - ١٩٥٩م):

لم يكن "ألفريد شولتز" وهو عالم اجتماع نمساوي الأصل أمريكي الجنسية، معروفاً إبان حياته إنما اشتهر بين علماء الاجتماع بعد وفاته، حيث انتبه علماء الاجتماع المعاصرون والمحدثون إلى عمله عن الفعل الاجتماعي وأعماله حول "علم الظاهرات".

يعد "ألفريد شوتز" Schutz, Alfred المؤسس الأول للظاهراتية Phenomenology . ولد في فيينا عام ١٨٩٩م. صدر له العمل الرئيس الوحيد عام ١٩٣٢م بعنوان " ظاهراتية العالم الاجتماعي" وبعد وفاته ظهرت أعماله في ثلاثة مجلدات بعنوان (أوراق مجموعة) في الفترة ١٩٦٢-١٩٦٦م. عندما عاش في الولايات المتحدة الأمريكية تأثر بفكر جورج ميد وبالنظرية التفاعلية الرمزية وكان إسهامه البارز هو مزج الظاهراتية الأوربية بالتفاعلية الرمزية الأمريكية. وذهب ألفريد شولتز إلى أن إجراءات العلم وملامحه العلاقنية لا تنسجم مع الإجراءات والمنطق العلمي السليم الذي يستخدمه الناس في عالم الحياة اليومية. أي أن العلم غير مناسب بوجه خاص لكشف

---

[1] انظر تقييم للاتجاه الظاهري في: إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٤٧-١٦٨.

العالم الاجتماعي ووصفه، ويكون على الظاهراتية أن تنشد وصف البنى المتنوعة التي تعمل في العالم الاجتماعية. حاول تطبيق الظاهراتية في دراسة العالم الاجتماعي من خلال دراسات بعض أعمال فيبر Weber. جمعها في كتابه " علم الاجتماع الظاهراتي". درس في جامعة فينا وحصل على إجازة في القانون ، ثم اشتغل موظفا في المصارف المالية، لكن هذا العمل لم يشبع طموحه المعرفي ولم يشكل معنى للعمل في الحياة ، إلا أنه وجد في دراسة الظواهر الاجتماعية متعة معرفية تشبع طموحه العلمي . ولم يكن أكاديميا حتى عام ١٩٢٠ م وكان لديه أصدقاء محاضرون غير رسميين يلتقي بهم ويناقشهم بأفكار ماكس فيبر المتأثر بها ، وبالذات نظرية الفعل الاجتماعي والنموذج الأمثل ، وبالفيلسوف أدموند هورسل وهنري برجسون ، لذا كانت إسهاماته في المدرسة النمساوية الاقتصادية منطلقة من الفعل الاجتماعي . ولما وقعت الحرب الكونية الثانية عمل في باريس ونيويورك كقنصل قانوني في عدة مصارف مالية ، بذات الوقت كان يمارس الكتابة عن الظواهر الاجتماعية مع إلقاء محاضرات حول الموضوع ذاته ، وعن النظرية و البحث الاجتماعي في مدرسة البحوث الاجتماعية في مدينة نيويورك عام ١٩٤٣ م . وفي نفس العام كتب في النظرية والبحث الاجتماعي وفي عام ١٩٥٦م توقف عن عمله في المصارف المالية وتفرغ للعمل التدريسي والكتابة حول الظواهر الاجتماعية فأثر على اتجاهات طلبته العلمية أمثال "بيتر برجر وتوماس لوكمان وهارولد جارفنكل" ، هذا التأثير منحه الدخول إلى صلب النظرية الاجتماعية، وفي نهاية مطاف حياته أدرك أن مفردات وإيقاعات الحياة اليومية ذات صلة بالمعطيات الثقافية والتاريخية ولا يود فصل بينهما فضلاً عن ذلك لم يكن متفائلاً من نظرته للحياة الاجتماعية[1].

المفاهيم التي تشتملها النظرية :

تركز النظرية على مفهومها الأكبر " التخلل الذاتي أو الذوات المتداخلة " والتي تعني إجابات عن التساؤلات الآتية :

١- كيف نعرف أفكار الآخرين ؟

---

[1] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق، ص ٢٨٦-٢٨٧.

٢- كيف نعرف أنفسنا ؟
٣- كيف يتم تبادل رؤانا وإدراكاتنا مع الآخرين ؟
٤- كيف يحصل التفاهم المشترك بين المتفاعلين ؟
٥- كيف يتصل الفواعل فيما بينهم ؟

معنى ذلك أن تداخل ذوات الفاعل لا يحصل بشكل منفرد أو من جانب واحد بل يتطلب حضور الآخر أولاً ، وطرح أفكار وآراء يتم نقاشها ثانيا وتبادل التفاعل بينهم ثالثا (ساعتها يحصل تبادل المشاعر بينهم حبا أو كرها ، ودادا أو بغضا، إعجابا أو استعلاء) ومن ثم يحصل تبادل الذوات بين الفاعل ولحضور . وبتعبير آخر يشترط حضور الآخرين حيوية مفعمة بوساطة نقاشه معهم واستماعهم له ومحادثته إليهم وتفاعلهم معه في فترة زمنية معينة ، وبقعة جغرافية معلومة الأبعاد ، آنذاك يتبلور التخلل الذاتي .

مفهوم نظري آخر : وبناء على حالة " التخلل الذاتي " طرح "شولتز" مفهوما آخر في نظريته ليتكامل مع مراد بنائه النظري ، وهو " النمذجة " حيث يدخل إلى مدار أوسع ليسبر غور تصانيف الحياة الاجتماعية للآخرين ، الذين يصنفهم حسب معرفته الذاتية لسلوكهم و أقوالهم وأفكارهم وأشكالهم فيسمهم بسمات تحددها معرفته المحيطية التي غالبا ما تتبلور عن :

١- طريقة عيشه في محيطه الاجتماعي.

٢- وعلائقه المتنوعة مع زملائه وأصدقائه وأقاربه.
٣- وأهدافه الثقافية .

أي بواسطة التخلل الذاتي يستطيع الفاعل تشكيل نموذج فردي اجتماعي ، يضم صفات المتفاعل معه يختزل فيه سيرته الذاتية أو سماته الشخصية ، أو نمط تفكيره بصفة عامة و شاملة ، تغطي أغلب صفاته السلوكية أو الفكرية الظاهرة والباطنة (أي يسمه بسمة تفسر معظم صفاته التي عثر عليها أو لمسها أو تفاعل معها) كأن يسمه بأنه طيب القلب أو غليظ القلب أو حسود أو كريم النفس وسواها . أي نمذجة سلوك الناس الذين يتفاعل معهم ويتخلل ذواتهم وبهذه الكيفية تكون النمذجة ممثلة لحكم ذاتي

يتضمن معايير ذاتية ـ اجتماعية تعكس تأثيرات المحيط الاجتماعي الذي يعيش في وسطه الفاعل .

أما وسيلة التعبير عن النمذجة فهي اللغة إذ شبهها "شولتز" ببيت المال لتعطي معنى ودلالة عن النموذج الذي نحته أو شكله أو بناه الفاعل في تفاعله وتخلله الذاتي مع الآخر . علما بأن المحيط الاجتماعي للفاعل يلعب دورا حيويا في اختيار العبارات اللغوية التي تصور ذلك النموذج الذاتوي الذي تبلور بوساطة تخلل ذوات الفاعل .

مفهوم ذخائر الخبرات وذخيرة المعرفة:

بالإضافة إلى ما سبق من مفاهيم ، فهناك مفاهيم أخرى منها ما ذكره " شولتز" عن " ذخائر الخبرات " التي شبهها بكتاب الطبخ الذي تجد فيه ربة البيت مقادير طبخ الطعام وكيفية إعداده وتقديمه على شكل طبق شهي جاهز للأكل . أي أن ما يسجله الفاعل من خبرات ذاتية مع الفواعل الذي يتفاعل معها لا يقوم بتكديسها لتكون تراكما من الخبرات بل يصنفها حسب أنواعها وطبيعتها . فالفاعل اللئيم على سبيل المثال يتسم بصفات تحددها خبرته مع الآخرين من هذا النوع من الفواعل ، وغالبا ما تلعب معايير محيطه وثقافته وعلائقه المتنوعة التي صادفها في حياته الاجتماعية ، فيتم تخزين هذه الخبرات عبر تنشئته الاجتماعية (الأسرية والمحلية والرسمية والدينية والثقافية) ثم يقوم بتنصنيفها وبالتالي يبلورها على شكل نماذج وكل نموذج يمثل صنفا متألفا من مجموعة خبرات ذاتية .

كما طرح "شولتز" كذلك عدة مفاهيم أخرى منها طريقة الإجراء أو مقادير طريقة الإعداد ، وكذلك معرفة جديدة سماها "شولتز" مخزون المعرفة ، كما قدم مفهوم الموقف المتشابك أو إشكالية الموقف، بعدها طرح شولتز عدة مصطلحات اجتماعية توضح جوانب أوسع من الفعل الاجتماعي، وهي عالم الحياة، عالم البديهيات، عالم الحياة اليومية، عالم العمل اليومي، الواقع الدنيوي، الواقع الأسمى . ففي مصطلح عالم البديهيات أشار إلى المواقف الطبيعية للناس التي تعني تعيينهم فيها دون أن يساورهم الشك فيها، أي مواقف مقنعة لا تقبل الطعن بسبب اختمارها ونضجها وتعود الناس على مواجهتها وتآلفهم لها .

مفهوم عالم الحياة اليومية:

يشير مصطلح عالم الحياة اليومية إلى الصفات الآتية :

١-يتسم هذا العالم بتوتر إدراكي يجعل الفاعل يقظا وحذرا من الفواعل والأحداث التي يواجهها ويتفاعل معها .

٢-لا يبدي الفاعل عن شكوكه في العيش في هذا العالم.

٣- يعمل الفواعل على معايشتهم هذا العالم.

٤- يمنح هذا العالم خبرة ذاتية خاصة متكاملة الجوانب.

٥- يبلور التخلل الذاتي بين المتفاعلين نسيجا اجتماعيا يعكس طبيعته.

٦- خضوع تفاعل الفواعل إلى العامل الزمني.

مفهوم عالم الواقعية الاجتماعية:

حدد "شولتز" أربعة عوالم اجتماعية مميزة بدرجة وضوحها وبداهتها المباشرة لا تحتاج إلى برهان أو سند ، بيد أنها مختلفة بعضها عن بعض لأنها مستخلصة من ظروف وفترات زمنية خاصة بها وهي ما يلي :

١- عالم الخبرة المباشرة : مستخلصة من الواقع الحي ويشير إلى الاتصال التفاعلي (وجهاً لوجه) يدرك المتقابلان أحدهما الآخر، ويشتركان بمشاعر وأحاسيس وأفكار واحدة ومتشابهة فيتبلور عندهما علاقة "النحن" التي توجه الأنا أو الأنت فتغذي خبرات كل منهما .

٢- عالم الخبرة غير المباشرة : مستخلصة من الواقع البعيد زمانيا أو عبر وسائط بشرية أو غير بشرية (سلكية أو لا سلكية) ويشير إلى الاتصال غير التقابلي عبر قنوات تقلل من تدخل المتفاعلين في مشاعر وأحاسيس مشتركة .

٣- عالم الإرث المخلوف من الزمن القريب.

٤- عالم الاستخلاف من الزمن البعيد.

ويمثلان بواقي الحالات الماضية الناقصة في معرفتها الجزئية ، أو العناصر الدقيقة وتختلف في معاييرها ومقاييسها بحيث إذا تم قياسها بمقاييس معاصرة يحدث إساءة تقدير

الأحداث القديمة وتشويه تفسيرها ، لذا فإنها تمثل خصوصية تراثية لا تمثل معايير الحضارة والخطأ كل الخطأ إذا تم قياسها بمقاييس الحاضر[1].

وقد ميز "شوتز" بين المنظور الطبيعي لعضو الجماعة الاجتماعية والمنظور الظاهراتي للملاحظ الخارجي ، ويصف مصطلح الطبيعي المدخل الفطري والبديهي الذي يسلم به أعضاء جماعة اجتماعية معينة ، وينظر هؤلاء الأعضاء إلى أسلوب حياتهم على أنه عادي وهم بصفة عامة غير واعين بالمدى الذي يعكس به هذا الأسلوب خبراتهم الذاتية فقط، وعلى النقيض من ذلك يسعى الملاحظ الخارجي الذي يتبنى منظارًا ظاهراتياً إلى وصف أسلوب حياة جماعة ما، ومع هذا فهو يقوم بهذه المهمة من زاوية الفاعلين لا من زاوية منظور تفسيري خارجي[2] .

تقييم لإسهامات ألفريد شولتز:

لا بد من الإشارة إلى أن "شولتز" دخل مباشرة في مفهوم " التخلل الذاتي " بين المتفاعلين بيد أنه لم يقل لنا كيف حصل،هذا التخلل بينهما ؟ هل من خلال تقارب آراؤهما أو مشاعرهما أو مصالحهما أو أفكارهما أو انتماءاتهما الاجتماعية ؟ لأن تقبل الفواعل ذاتيا كلا منهما للآخر لا يحصل اعتباطا أو فجأة بمجرد لقائهما ولم يعرض لنا مساحة أو مدة للفترة الزمنية التي تستغرق الفواعل لوصولهما حالة التقبل الذاتي والذهاب إلى مرحلة تبادل ذواتهما ، فهي حلقة مفقودة في رؤية شوتز مما جعلت هناك ثغرة في تركيبة نظريته .

وفي إطار النمذجة أوضح "شولتز" أن الفاعل يختزل ما يحس به و يراه من سلوك ويسمح من حديث عن الفاعل المتفاعل معه من خلال معاييره الذاتية والاجتماعية فيلصق به سمة أو صفة ترمز إلى نوع سلوكه أو تفكيره أو شكله ، ولكن لا بد من القول أن الفاعل إذا مر بظروف سيئة أو قاسية نجده يلون نماذج الناس السلوكية بألوان قاتمة وقاسية ومتشائمة ، وإذا عاش في ظل ظروف سهلة وسعيدة وقليلة المثالب ، فإنه يلون نماذج الناس السلوكية بألوان وردية ومتفائلة وطيبة . مثل

---

[1] معن، عمر (١٩٩٧). مرجع سابق، ص ٢٤٦-٢٥٣.

[2] عبدالجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٥٨.

هذا التوصيف الدقيق لم يذكره شولتز في نظريته بل مرّ عليه مرور الكرام ، لا غرو من التساؤل في هذا المقام : أين دور العقل في تحكيمه وموازنة الواقع المرئي والمدرك وخبراته السابقة ؟ . لماذا افترض "شولتز" أن الفاعل دائما ينجر انجرارا نحو خبراته الماضوية تلقائيا ويرضخ لنماذج صاغها هو في ظروف ولت وبادت لا تعكس ظروفه الحالية ، فضلا عن كون سلوكيات الناس قابلة للتبدل من فترة إلى أخرى ، وبالذات الإنسان العصري الذي يفاضل عقله ومنطقه على عاطفته ناهيك عن تبدل معايير الناس عبر الزمن على ألا ننسى أن الفاعل ذاته يطور ويبدل ويعدل رؤاه وأحكامه ونمط تفكيره حسب التطورات التي يرتقي إليها والأهداف التي يرنو منها.

ومن الانتقادات الأخرى أن "شولتز" اقتصرت نظريته على نوع واحد من الفواعل وليس معظم أنواع الفواعل . أي اهتم بالفاعل المحدود الأفق وصاحب الذكاء السطحي أو الكسول ذهنياً وترك الطموح واللماح والحيوي والمتوقد الذكاء . كما أن الخبرة الذاتية لا تكون تراكمية دائما كما يرى "شولتز" بل قد تأخذ حالة التنافر (كرد فعل) أما إذا حصل امتداد للخبرة الذاتية ، فإن ذلك يعني عدم تنوع خبرات الفاعل بل السير في خط واحد من الخبرة ، وهذا نادرا ما يحدث في المجتمع المعاصر المكتنز بالتنوع والتبدل . ويتساءل عمر (١٩٩٧) عن موقف ورؤية نظرية "شولتز" وأتباعه عن الفاعل دون سن الخامسة عشر (على سبيل المثال لا الحصر) الذي لا يمتلك نماذج خبراتية كثيرة ومتنوع، بل محدودة بحدود عمره القصير ، ويواجه مواقف عديدة ومتباينة ، وهو في حالة اكتساب خبرات ويحولها إلى مخزون في ذاكرته ويستدعيها عند الحاجة ، تكون خبرته الاجتماعية هزيلة وقليلة غير ناضجة ، فما هو موقفه إذا واجهه موقف أو فاعل ليس له ذخيرة خبراتية في ذلك النوع من المواقف أو الفواعل[١].

تعليق عام على الاتجاه الفينومينولوجي :

لا شك أن هذا الاتجاه يركز على دراسة المعاني والخبرات المشتركة بين الأفراد في المجتمع بوصفها أساساً للحياة الاجتماعية وبإهمال الاختلافات والصراعات الواقعية داخل المجتمع. ويتعارض ذلك تماما مع التحليل العلمي الواقعي للمجتمع الذي يبين

---

[١] عمر، معن (١٩٩٧). مرجع سابق، ص ٢٦٠-٢٦٦.

بالأدلة القاطعة أن العالم تمزقه الصراعات على كافة المستويات، وأن القدر المتاح من المعاني والخبرات المشتركة بين الأفراد في المجتمع الواحد أو في مجتمعات العالم أقل بكثير من الاختلافات والصراعات فهناك صراعات عديدة بين الشباب والشيوخ، النساء والرجال، الأغنياء والفقراء، الأميون والمتعلمون، أصحاب السلطة والقوة والخاضعين لهم، ودعاة الحرب، الاشتراكيون والرأسماليون، العالم الثالث والبلدان المتقدمة. أي أن المسلمة الأساسية التي تنص عليها التحليلات الفينومينولوجية عن طبيعة الواقع الاجتماعي (الخبرات الفكرية المشتركة) لا تدعمها الأدلة الإمبيريقية بل هناك أدلة تنفيها وقد تجاهل أصحاب الاتجاه الفينومينولوجي مسألة الصراع الطبقي العنيف في مجتمعاتهم ورفضوا حتى أن يروه أو يشيروا إليه أو يفسروه على الرغم من أنّه كان يفرض نفسه على الجميع، كما أنهم تجاهلوا الواقع الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع ودرسوا الخبرة اليومية وأسلوب التفكير كما لو كانا منفصلين عن الواقع ولا يتأثران به. يرى العديد من النقاد بأن الاتجاه الفينومينولوجي اتجاهاً محافظاً من الناحية الأيديولوجية[1].

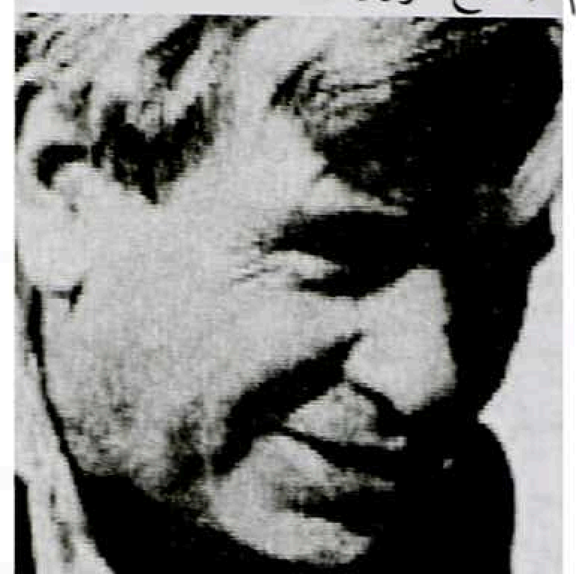
ويستحق " شولتز" أن نقارنه بكل من " فيبر" علماء التفاعلية؟ وفي تقدير "شولتز" أن " فيبر" أخفق في تطوير مدخل اجتماعي يعتمد اعتماداً كلياً على معاني الفاعلين الاجتماعيين. ويرى أن أنماط الفعل الاجتماعي عند " فيبر" بعيدة كل البعد عما يفكر فيه الفاعلون ويفعلونه. ومن ثم لا تشكل هذه الأنماط أساساً لعلم الاجتماع التأويلي. ومن ناحية أخرى نجد أن مجموعة معاصرة من علماء الاجتماع ممن تأثروا " بشولتز" وهم أنصار المنهجية الشعبية، يرون أن التفاعلية لم تؤسس علم اجتماع الذات، أي منظوراً اجتماعياً يعتمد اعتماداً كلياً على الكيفية التي يخلق بها الفاعلون المعاني ويؤلونها ويشتركون فيها[2].

---

[1] نعيم، سمير (١٩٨١). مرجع سابق، ص ٢٤٩-٢٥١.

[2] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٥٨.

سادساً- لوسيان جولدمان (1934-١٩٧٠) وعلم اجتماع الرواية:



حياته:

ولد "لوسيان غولدمان" في بوخارست، وانتقل عام ١٩٣٤ إلى باريس حيث هيأ رسالة دكتوراه في الاقتصاد السياسي. وقبل أن يستقر به المقام هناك فر عام ١٩٤٠ إلى سويسرا هربا من الاحتلال الألماني لفرنسا، وهناك حيث بقي في أحد معسكرات اللاجئين إلى سنة ١٩٤٣ توسط الفيلسوف (جان بياجيه) في تحريره وإعطائه منحة دراسية لرسالة الدكتوراه، ليقوم بتعيينه لاحقا مساعداً له في جامعة جنيف، حيث تأثر بأعماله حول البنيوية التكوينية التي صاغها بياجيه على مبعدة من المفاهيم الماركسية، لكن "غولدمان" سيقوم بترحيل البنيوية التكوينية لاحقا من مجال علم نفس الذكاء إلى مجال علم الاجتماع مطعما إياها بالمقولات الماركسية. وبعد تحرير فرنسا عاد "غولدمان" إلى باريس، حيث اشتغل كباحث في المركز الوطني للبحث العلمي، وأنجز رسالة دكتوراه في الأدب بعنوان (الإله المختفي: دراسة للرؤيا المأساوية لأفكار باسكال ومسرح راسين) عام ١٩٥٦، حيث أثارت دراسته تلك ضجّة كبيرة في النقد الحديث في فرنسا.

ومن مؤلفاته العلمية الهامة كتاب (أبحاث جدلية) عام ١٩٥٩. وكتاب (العلوم الإنسانية والفلسفية) عام ١٩٥٢. وفي عام ١٩٦٤ أصبح مديراً لقسم علم الاجتماع الأدبي بجامعة بروكسل الحرة، فأصدر كتابه (من أجل علم اجتماع للرواية) عام ١٩٦٤، ثم وضع (البنيات الذهنية والإبداع الثقافي) عام ١٩٦٧، و (الماركسية والعلوم الإنسانية) عام ١٩٧٠ وهو تاريخ وفاته وهو في قمة عطاءه الفكري.

اعتمادا على كتابات جورج لوكاتش وخصوصا كتابيه : " نظرية الرواية " و"التاريخ والصراع الطبقي " التي تحتضن: " الفرد الإشكالي، التشيؤ، الوعي الممكن.." والتي تم إخصابها لاحقا بمقولات أخرى تسمح بها " البنيوية التكوينية"، وانطلاقا من المقولات العامة للفكر البنيوي القائلة بأن " كل تفكير في العلوم الإنسانية إنما يتمّ من داخل المجتمع لا من خارجه، وبأنه جزء من الحياة الفكرية لهذا المجتمع، وبذلك فهو جزء من الحياة الاجتماعية "[1] . ومن منظور ماركسي، انشغل لوسيان غولدمان (١٩١٣ - ١٩٧٠) بتأسيس نظرية خاصة في علم اجتماع الرواية كما كان يؤكد بثقة كبيرة وهو يصوغ مقولاته النظرية حول هذا الفرع المعرفي الذي رأي أن علم اجتماع الأدب لم يقترب منه كثيرا، سواء علم الاجتماع الماركسي، أو علم الاجتماع الوضعي، هذه الأفكار التي شكلت المنطلق النظري لعمل "لوسيان غولدمان".

غولدمان ورواية الرأسمالية:

انطلق "لوسيان غولدمان" في نظريته حول ميلاد الجنس الروائي وتطوره من فرضية أساسية، صارت لاحقا بمثابة المسلمة فيما يخص الرواية الأوروبية، تربط بين الشكل الروائي والمجتمع الرأسمالي " ووفقا لهذه الفرضية فإن الشكل الروائي ينقل إلى المستوى الأدبي الحياة اليومية في المجتمع الفرداني، الذي يلازم، بالضرورة، الإنتاج الرأسمالي من أجل السوق" [2]. ووفقا لهذه الفرضية التي صاغها غولدمان فإن " بنية جنس الروائي وبنية التبادل، تتبديان متماثلتين غاية التماثل، إلى حد نستطيع معه الحديث عن بنية واحدة ووحيدة تتجلى على صعيدين متباينين. وعلاوة على ذلك، فإن تطور الشكل الروائي الذي يتطابق مع عالم التشيؤ لا يمكن أن يفهم إلا بالقدر الذي سيربط فيه بتاريخ مماثل لبنى هذا الأخير " [3]؛ إن فكرة التناظر أساسية بالنسبة لغولدمان فهو يأخذ بها أولا ليقيم تناظرا بين تطور الشكل الروائي وبنية الاقتصاد الرأسمالي

---

[1] عزام، محمد (٢٠٠٣). تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص ٢٣٠.

[2] دراج، فيصل (١٩٩٩). نظرية الرواية والرواية العربية. الرباط: المركز الثقافي العربي، ص ٤٢.

[3] لوسيان غولدمان (١٩٨٧). مدخل إلى قضايا علم اجتماع للرواية. ترجمة محمد معتصم، مراجعة: محمد البكري، عيون المقالات، العدد ٦/٧، المغرب، ص ٦٥ - ٨١.

وتطوره، ويأخذ بها أيضا وهو يحدد العلاقة العضوية التي تربط البنية الفكرية للعمل الأدبي / الروائي بوعي اجتماعي معين تتبناه فئة أو طبقة اجتماعية معينة.

وهذا التناظر بين الشكل الروائي والحياة الاقتصادية، أو الانتقال من الواقع الملموس المتسم بالتشيؤ وصنمية السلعة كما يتجلى في علاقات التبادل، إلى الواقع المتخيل الذي تصوغه الرواية كشكل أدبي، يتم حسب "غولدمان" انطلاقا من النشاط المتضافر لأربعة عوامل مختلفة هي التي تحدد الانتقال من البنى الاقتصادية إلى المظاهر الأدبية وهي [1]:

١ ـ ولادة مقولة الوساطة في فكر أعضاء المجتمع البورجوازي، انطلاقا من السلوك الاقتصادي ومن وجود القيمة التبادلية، هذه القيمة التي تنزع لأن تكون قيمة مطلقة بدلا من أن تكون وسيطة.

٢ ـ وجود أفراد إشكاليين ينزعون في تفكيرهم وسلوكياتهم نحو القيم النوعية على حساب القيم الكمية كما تتجلى في عمليات التبادل، ولكن يبقى فكرهم وسلوكهم مغلوباً أمام القيم الكمية. فالكتّاب والفلاسفة (وهم النماذج الغالبة التي تتكون منها فئة الأفراد الإشكاليين) لا يستطيعون الهروب من تأثير السوق.

٣ ـ تطوّر الشكل الروائي انطلاقاً من استياء عاطفي غير مفهوم ، نتيجة السعي المباشر إلى قيم نوعية، إما في مجموع المجتمع، وإما لدى الفئات الوسطى فقط التي ينضوي معظم الروائيين في عدادها.

٤ ـ في المجتمع الليبرالي المتجه نحو السوق تظل القيم مرتبطة بوجود التنافس. وانطلاقاً من هذه القيم تتطور الرواية كسيرة لفرد إشكالي يشبه مؤلفه، ثم يتحول الشكل الروائي لينتهي إلى الانحلال التدريجي، وإلى تلاشي الشخصية الفردية.

وانطلاقا من هذا التناظر بين البنيتين الروائية والاقتصادية يحدد غولدمان المراحل الأساسية التي مرت بها الرواية الأوروبية استرشادا بتطورات الاقتصاد الرأسمالي، وتطور الرواية عند غولدمان مرتبط بكيفية تجلي البطل الإشكالي في الرواية التي هي سيرة ذلك البطل الباحث عن إعطاء معنى لحياته، " فالرواية التي لها بنية سيرة

---

[1] المرجع السابق.

(حضور البطل الإشكالي ومصاعبه في إعطاء معنى لحياته) توافق طور " الرأسمالية الليبرالية " ، وهو طور يمتد، وكما يرى غولدمان، من مرحلة استقرار اقتصاد السوق إلى عام ١٩١٠ ، ويتسم بنزوع فكرة الكلية إلى التلاشي من الوعي الجماعي، من دون أن يمنع ذلك عن الفرد الأسباب التي تتيح تفتح شخصيته وتطورها "[١]، في هذه المرحلة من تطور الشكل الروائي تمثل البطل الإشكالي في الرواية كبطل يتبنى تصورا نقديا ومعارضا " فهو شكل من أشكال المقاومة للمجتمع البورجوازي أخذ في التطور، وهي مقاومة فردية لم تستطع أن تعتمد - داخل زمرة - إلا على سيرورات نفسية ووجدانية غير مفهومه " [٢].

وهذه المقاومة الفردية للانحطاط وضياع القيم الأصلية الذي رافق صعود البورجوازية، وكذا التطورات اللاحقة للرأسمالية، كانت نتيجة لغياب المقاومات الواعية من طرف فئات اجتماعية معينة تتعامل مع الوضع الذي تفرضه البورجوازية برفض إيجابي، كما كان يرجو ويرتقب كارل ماركس من الوعي المعارض للطبقة البروليتارية. ولكن التنديد الذي حملته الرواية في تلك المرحلة والرفض لكل ما يحول دون تفتح الشخصية الإنسانية وتطورها الطليق، لم يستمر لاحقا، نتيجة التهديد المتصاعد لذلك الاستقلال الذاتي النسبي للشخصية، حين بدأت الرأسمالية تأخذ الشكل الاحتكاري الإمبريالي، وهذا التطور الذي عرفته الرأسمالية انعكس على الرواية في أزمة بنيوية عنوانها اضطراب الشخصية، شخصية البطل الذي يمد الرواية بموضوعها من خلال سيرته " فبعد أن كانت الرواية تصبغ على الفرد اتساقا موضوعيا عبر إدراجه في كلية تتجاوزه، جاءت مرحلة جديدة عبرت عنها، في لحظة الاستهلال، أعمال جويس وكافكا، وتطورت متصاعدة في " غثيان سارتر، و" غريب كامو"، وصولا إلى " الرواية الجديدة " في فرنسا الخمسينات. وتتصف رواية المرحلة الجديدة باختفاء مضطرد للشخصية، يبدأ من ضياع الاسم ويصل إلى غياب يقين الفرد في وجوده الذاتي، ليفضي في النهاية إلى انحلال البنية القاعدية للرواية الكلاسيكية، والذي هو إجابة مطابقة على انحلال الشخصية الروائية " [٣].

---

[١] دراج، فيصل (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٤٦.

[٢] لوسيان غولدمان (١٩٨٧). مرجع سابق.

[٣] انظر: لوسيان غولدمان (١٩٩٦). العلوم الإنسانية والفلسفة. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

العلاقة بين البنى التشيئية والبنى الروائية:

يؤكد "غولدمان" أطروحته النظرية التي تقول بعلاقة تجانسية بين تاريخ البنى التشيئية وتاريخ البنى الروائية من خلال دراسته التناظرية للبنيتين: " يبدو لي أن المرحلتين الأخيرتين من تاريخ الاقتصاد والتشيؤ في المجتمعات الغربية تطابق فعليا مرحلتين كبيرتين في تاريخ الأشكال الروائية: المرحلة التي سأميزها بمرحلة انحلال الشخصية، وهي المرحلة التي تتضمن أعمالا في منتهى الأهمية كأعمال جويس وكافكا وموزيل والغثيان لسارتر والغريب لكامو وربما إلى حد كبير أعمال نتالي ساروت بوصفها واحدة من أكثر مظاهر هذه المرحلة جذرية. والمرحلة الثانية التي بدأت لتوها العثور على تعبيرها الأدبي والتي يعتبر روب غرييه واحدا من أكثر ممثليها أصالة وألمعية، وهي المرحلة التي يميزها ظهور عالم مستقل للمواضيع له بنيته الخاصة وقوانينه الخاصة ويمكن، عبره وحده، للواقع الإنساني أن يعبر عن نفسه إلى حد ما "؛ هذا الواقع الإنساني الذي عبرت عنه الرواية في مراحلها المتعددة، والتي وضحها غولدمان استنادا لتطور النظام الرأسمالي، هو واقع يعيشه الفرد، بطل الرواية، وهو البطل الإشكالي الذي حدده لوكاتش جيدا، وجعل منه قوام نظريته حول الرواية، فالبطل الإشكالي يعيش وضعا يعجز عن استيعابه وتمثله، أي يعجز عن الانسجام معه نتيجة لكون جوهر هذا البطل الإشكالي مسكون بالبحث عن قيم لم تعد موجودة في واقعه "وهذا البطل ليس سلبيا ولا إيجابيا ، فهو بطل متردد بين عالمي الذات والواقع ، يعيش تمزقا في عالم فظ. إذ يحمل البطل قيما أصيلة يفشل في تثبيتها في عالم منحط يطبعه التشيؤ والاستلاب والتبادل الكمي . لذلك يصبح بحثه منحطا بدوره لا جدوى منه، وطبيعة علاقة البطل الإشكالي مع واقعه الاجتماعي حددها "غولدمان" اتكاء على ما توصل إليه "لوكاتش"، من خلال التصنيف الذي قدمه للرواية والتي قسمها إلى ثلاثة أنواع رئيسة[1]:

أ - رواية المثالية المجردة التي تتميز بنشاط البطل أو بوعيه الضيق للغاية بالقياس إلى تعقد العالم "دون كيخوتة" لسيرفانتيس و " الأحمر والأسود " لستاندال".

---

[1] لوسيان غولدمان (١٩٨٧). مرجع سابق.

ب - الرواية النفسية التي تنزع إلى تحليل الحياة الباطنية، وتتميز بسلبية البطل وبوعيه الواسع إلى الحد الذي لا يرضيه معه ما بمقدور عالم العرف أن يقدمه إليه، وإلى هذا النوع قد تنتمي رواية " أوبلوموف " ورواية التربية "العاطفية" .

ج - الرواية التربوية المنتهية بانحسار ذاتي outo limitaion الذي لا يشكل، رغم أنه تنازل عن البحث الإشكالي، لا قبولا لعالم العرف ولا تخليا عن سلم القيم الضمني هذا الانحصار الذاتي الذي يجب تخصيصه بعبارة " النضج الفحولي" ويلهلم مايستر" لجوتة، أو " der grune heinrich " لكوتفريد كيللر.

فالبطل يكون مثاليا كلما كان الواقع أكبر من الذات ومن طموحاتها القصوى في تحقيق قيمها ومثلها كما هو الحال في النوع " أ "، في حين يكون البطل رومانسيا واثقا من قدراته الذاتية رغم معاندة الواقع لتحول تلك القدرات إلى واقع ملموس، ورومانسية البطل كما هي في النوع " ب "، تتمظهر كلما كانت الذات أكبر من الواقع، وكلما كانت الأحلام والطموحات كبيرة، أي كلما كانت قيمة القيم تنبع من الداخل دون أن تجد ما يصدقها في الواقع. أما النوع " ج " أي الرواية التعليمية فهي رواية التصالح مع الواقع، حيث يميل البطل إلى تكييف نوازعه الذاتية وطموحاته مع الواقع من أجل تفادي الصدام مع هذا الواقع، وهي رواية كما يؤكد غولدمان تنزع لتنازل البطل عن بحثه الإشكالي عن القيم الأصلية رغم عدم تسليمه بالقيم الموجودة والواقعية.

المفاهيم الرئيسة لعلم اجتماع الرواية:

بنى "غولدمان" فرضيته الأساسية في علم اجتماع الرواية، والتي يتعامل معها كمعطى نظري يقترب من القانون في يقينه، والتي تربط بين تطور الشكل الروائي وتطور الاقتصاد الرأسمالي والإنتاج من أجل السوق على أربع مقولات أساسية:

- الإنسان الفرداني.
- مفهوم القيمة.
- التشيؤ وصنمية السلعة.
- دلالات الانتقال من الكيف إلى الكم.

١-الإنساني الفردي:

ترتبط المقولة الأولى، أي الإنسان الفردي " بالمجتمع الليبرالي والذي هو طور من الأطوار الأولى للمجتمع الرأسمالي، أعطى، وليس بعيدا عن ضرورات التنافس وعقود العمل والاعتراف المتبادل بين البشر، إنسانا يعي فرديته، ويمارس حرا عقود البيع والشراء ". فالفردية كمفهوم هي وليدة الليبرالية، وهي واحدة من القيم التي دافعت عنها الطبقة البورجوازية، ورسختها كقيمة مناقضة لقيم العائلة والعشيرة والجماعة التي كانت سائدة في المرحلة الإقطاعية.

٢-السلعة والقيمة:

في حين المقولة الثانية " تحيل مباشرة على السلعة، التي تتعين كقيمة استعمالية وقيمة تبادلية في آن، وإن كان الإنتاج من أجل السوق يفصل بين القيمتين ويختزن القيمة الأولى إلى حدها الأدنى "، والقيمة مقولة ماركسية بامتياز خصها "كارل ماركس" بعناية كبيرة وهو يعمل على تحليل جوهر النظام الرأسمالي وآلياته التي تنتج التشيؤ، وتقود الفرد إلى الاغتراب، وحضت لاحقا باهتمام كبير من طرف الماركسيين الذين نقلوها من مجال التداول الاقتصادي البحت إلى مجالات معرفية أخرى لا تلغي الاقتصاد من حيز اهتمامها وانشغالاتها، كما هو الحال بالنسبة لعلم الاجتماع.

٣-مفهوم الوعي الزائف:

أما المقولة الثالثة التي وظفها "غولدمان وأفردها اهتماما خاصا في نطاق عمله المضني لإقامة تناظر بين البنى الروائية والبنى الاقتصادية، فهي " تعالج الوعي الزائف، الذي لا ينفصل عن تحولات السلعة، التي تتجلى، في الإنتاج من أجل السوق، موضوعا مستقلا عن البشر ومسيطرا عليهم أيضا"[1]، وهي مقولة درسها لوكاتش بكثير من التفصيل في كتابه: " التاريخ والصراع الطبقي"، حيث يؤكد لوكاتش بأن الوعي الطبقي يبقى إمكانية قابلة للتحقق حين يتمكن الأفراد المنتمين لنفس الطبقة انطلاقا من أفكار ومشاعر معينة، من فهم واستيعاب الوضع الذي يعيشون فيه وكإمكانية موحدة حين " يتعين على الوعي الطبقي أن يرى الغاية النهائية التي يسعى إليها تعبيرا عن

---

[1] دراج، فيصل (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٤٣.

تطلعات المجتمع بأسره "، تقرر هذه المقولة عند نقلها إلى المستوى الروائي، واعتمادا على فرضية غولدمان الرئيسة القائلة بتماثل البنى، بأن الذات المبدعة للعمل الروائي (أو الأدبي بصفة عامة، والفلسفي والفني بصفة أعم) هي ذات جماعية، بالرغم من كون خالص العمل (رغم صوفية عبارة الخلق) هو ، وبالمعنى التجريبي فرد استطاع نتيجة جملة أسباب التعبير عن الطموحات القصوى للجماعة/ الطبقة، وهذه الأسباب يلخصها "غولدمان" في اتجاهين:

" فالأديب يفعل ما فعل إما لأنه ينتمي، اجتماعيا، إلى فئة محددة، بإمكانه التعبير عن أفكارها، أو لأن سيرته الذاتية، وبسبب وقائع معينة، تتوافق مع تجارب فئة اجتماعية، لا ينتمي إليها بالضرورة "، وهذه الأسباب التي أوردها غولدمان، والتي عن طريقها فسر السبب الكامن وراء قدرة الفرد على التعبير الإبداعي عن تطلعات الذات الجماعية، تبقى فرضية من فرضيات علم اجتماع الرواية [1].

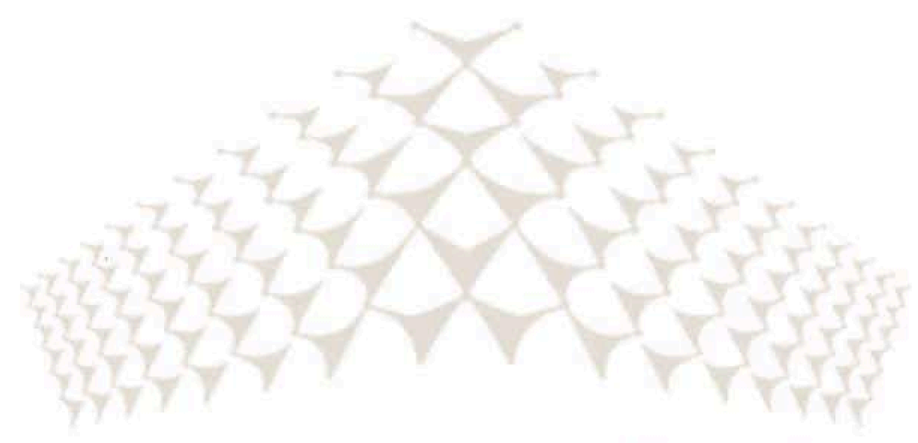
٤-الانزياح من الكيف إلى الكم:

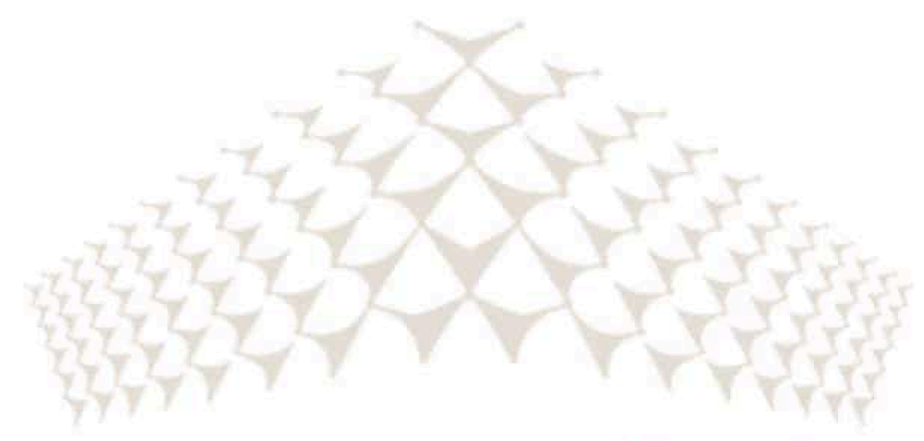
في حين تترجم المقولة الأخيرة، والتي تستمد جذورها من الفكر الهيجيلي مباشرة، " معنى الانزياح من الكيف إلى الكم، الذي يترجم أحوال وعي لا يعرف الارتقاء، أو يعرف الارتقاء ويجهله معا "، وهي حالة البطل الإشكالي في الرواية الذي يظل معلقا بين تطلعه للسمو والارتقاء لعالم الكيف الذي يحتفل بالجوهر والصفاء، وبين خضوعه مجبرا لقيم الكم التي تجبره على التعامل بها أثناء عملية التبادل. من خلال استعراضنا لأهم الأفكار التي جاء بها غولدمان والتي ظل يؤكد على أنها تمثل منطلقا لعلم اجتماع الرواية، والتي حاول من خلالها التأكيد على التناظر بين البنى الاقتصادية والبنى الروائية، مستفيدا من أعمال "لوكاتش ورونيه جيرار"، بعد أن أدرجها في منظور ماركسي محض، نشير في النهاية إلى ملاحظة أساسية أوردها فيصل دراج وهو يتناول بالتحليل والنقد أفكار "غولدمان": " على الرغم من الجهد النظري التركيبي الذي يقوم

---

[1] لوسيان غولدمان، مدخل إلى قضايا علم اجتماع للرواية، ترجمة محمد معتصم، مراجعة: محمد البكري، عيون المقالات، العدد ٦/٧، المغرب، ١٩٨٧، ص ٦٥ - ٨١. انظر: لوسيان غولدمان (١٩٨١). المنهجية في علم الاجتماع الأدبي. ترجمة مصطفى المسناوي، القاهرة: دار الحداثة للطباعة والنشر. وكذلك" دراج، فيصل (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٤٩.

به غولدمان، فإنه لا يجب على قضية إلا ليصمت عن أخرى، فمفهوم " اللاوعي المعرفي " يظل صامتا أمام الأسباب التي تدفع مبدعا معينا إلى الأخذ بتصور معين للعالم والعزوف عن تصور آخر، بقدر ما يبقى كامل الصمت أمام خصوصية الذات المبدعة، كما لو كان هذا " اللاوعي " يشرح آلية أفعال عامة، بعيدا عن أي تخصيص "، "فلوسيان غولدمان" يتعامل وفقا لهذا المنظور مع بعض مقولاته كمسلمات، دون أن يعمل على إثباتها.





الفصل التاسع
نظرية رأس المال الاجتماعي

أولاً- حياة بيير بورديو.

ثانياً- الجذور الفكرية لبيير بورديو.

ثالثاً- نظرية بورديو.

رابعاً- نظرية الممارسة *Practice Theory*

خامساً- البنيوية التوليدية.

سادساً- البنيوية التوليدية وإعادة الإنتاج الاجتماعي.

سابعاً- مفهوم رأس المال وأنواعه:

١- رأس المال الثقافي *Cultural Capital*

٢- رأس المال الاقتصادي *Economic Capital*

٣- رأس المال الاجتماعي *Social Capital*

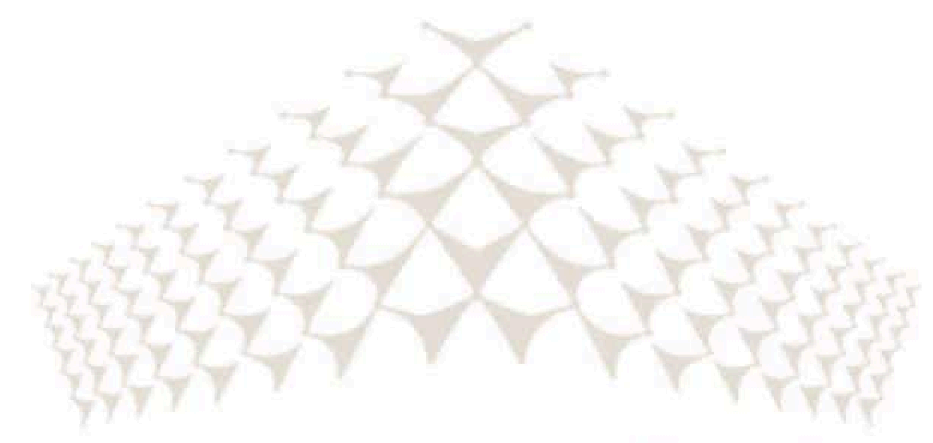
٤- رأس المال الرمزي *Symbolic Capital*

ثامناً- مفهوم الهابيتوس (الطبيعة المتشكلة اجتماعياً).

تاسعاً: الصراع الطبقي.

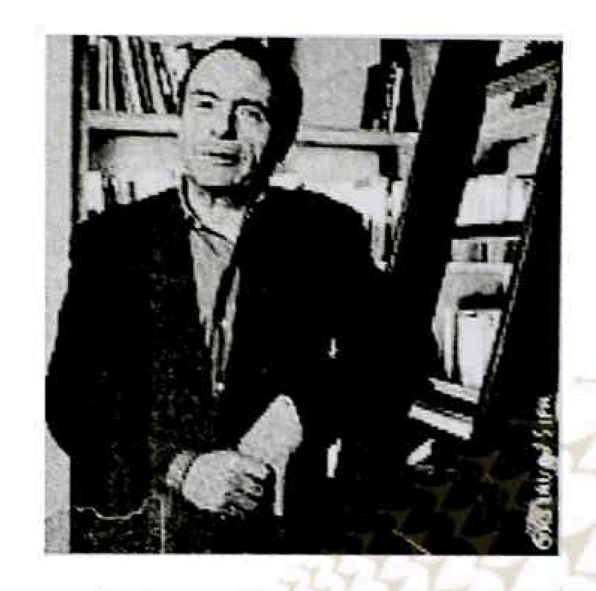
عاشراً- تحليل ودراسة حقل معين من حيث الخصائص والمراحل.

الحادي عشر: نظرية السلطة الرمزية عند بيير بورديو.



الفصل التاسع
نظرية رأس المال الاجتماعي

أولاً- حياة بيير بورديو (١٩٣٠- ٢٠٠٢م)[١]:



ولد بيير بورديو عام ١٩٣٠م في الجزائر. عالم اجتماع فرنسي جزائري المولد. عمل مديرا للدراسات في مدرسة الدراسات العليا. ومدير المركز الأوربي لعلم الاجتماع في باريس. عمل بورديو في تخصص الأنثروبولوجيا في الجزائر في الخمسينيات من القرن الماضي. ثم تحول بعد ذلك لدراسة علم الاجتماع. ألف بورديو أكثر من ثلاثين كتاباً ومئات المقالات والدراسات التي ترجمت إلى غالبية لغات العالم. والتي جعلته منذ نهاية الستينات من القرن الماضي يتبوأ مكانة بارزة من الأسماء في علم الاجتماع والفكر النقدي. ومن مؤلفاته " الوراثة: الطلبة والثقافة" ١٩٦٤م. " إعادة الإنتاج: أصول نظرية في نظام التعليم"، عام ١٩٧٠م. " التميز: النقد الاجتماعي لحكم الذوق" عام ١٩٧٩م. "مسائل في علم الاجتماع " عام ١٩٨٤م. "علل عملية في نظرية الفعل" عام ١٩٩٤م. "إجابات من أجل إنسيات انعكاسية" ١٩٩٢م. "السيطرة الذكورية " عام ١٩٩٨م. "البنيان الاجتماعي للاقتصاد"، عام ٢٠٠٠م. " العلم وعلم الانعكاسية" ٢٠٠١م،

---

[١] كل الشكر والتقدير لزميلي الدكتور أشرف أبو فراج أستاذ علم الاجتماع بجامعة حلوان وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على تزويدي بجزء كبير من معلومات هذا الفصل.

"تدخلات العلم الاجتماعي والعمل السياسي" عام ٢٠٠٢م. وقد ترجمت كثير من أعماله إلى كثير من اللغات. ومن ضمنها اللغة العربية.

وقد ترجمت معظم أعمال "بورديو" إلى الإنجليزية. ويمكن تقسيم أهم أعماله إلى أربعة محاور رئيسية : تتكون المجموعة الأولى من أعماله المستمدة من دراساته الميدانية في الجزائر. وقد ترجمت ثلاثة أعمال منها إلى الإنجليزية وهي : الجزائريون (١٩٦٢) the Algerians وإطار نظرية الممارسة ١٩٧٧ outline of theory of practice ، وجزائر الستينات (١٩٧٩) ..Algeria 196 . أما المجموعة الثانية فيمكن أن تتشكل من أعماله الخاصة بالتعليم والتي تمثل معظم أعماله الميدانية بعد الستينات، بالاشتراك مع باسيرون، ومنها : الوارثون (١٩٧٩) the inheritors، وإعادة الإنتاج في التعليم والمجتمع والثقافة (١٩٧٩). والمجموعة الثالثة مستمدة من اهتمامه المبكر بعلم اجتماع الثقافة والاستهلاك الثقافي، ومنها التميز (١٩٨٤) Distinction، والتصوير (١٩٦٥) Photography، والاستخدام الاجتماعي للفن العادي. وترتبط المجموعات الثلاثة السابقة بالمجموعة الرابعة من الأعمال، والتي تعكس ممارسته المهنية كمشتغل بعلم الاجتماع. ومن هذه الكتب: اللغة والقوة الرمزية (١٩٨٩)، وبكلمات أخرى (١٩٨٩) in other words، والإنسان الأكاديمي (١٩٨٨) Homo Academics.

ولا شك أن "بيير بورديو" عالم اجتماع موسوعي لم يقدم على مغامرة علمية قبل أن يستطلع الأطروحات التي سبقته لصياغة نظريته. وعليه فقد شكلت بنيوية ليفي شتراوس مفتاحا لدراسات بنيوية أشد عمقا وفهما وجدة بما أنها انطلقت من رؤية تكرار البنى باعتبارها عملية ليست جامدة بقدر ما هي متحركة ونشطة، هذا التصور لشتراوس جاء معاكسا تماما للدراسات البنيوية التقليدية حول الجماعات الإثنية والتي كانت تكتفي بملاحظة ثبات البنيات وتكرارها دون أن تبحث عن تفسير لهذا الثبات. وهي في واقع تصورات الأمر ذات طبيعة استعمارية رافقت الحركة الاستعمارية الأوروبية التي انطلقت في القرن التاسع عشر ولم تر حينذاك في المجتمعات القديمة إلا بنى ثابتة أو مجتمعات بلا تاريخ.

وعلى العكس من ذلك جاءت "بنيوية شتراوس" عبر " البنى الأولية للقرابة " لتفضح هذا التوجه من خلال مهمة حددها شتراوس لنفسه وهي " كشف الأنساق

المسترة للعلاقات والقيام بتنظيمها" لتفتح بابا للتقصي بلا حدود. هذه الأطروحة جاءت حتى بخلاف ما ذهب إليه الطرح الماركسي الذي حصر تفسير البنية بالعامل الاقتصادي بما في ذلك البنيوية الفيبرية التي حاولت التعمق أكثر حين ركزت على الدراسات الطبقية ولاحظت مدى الصعوبة في تحديد المعايير الطبقية[١].

في البنيوية التكوينية ينطلق "بورديو" من رؤية المدى الاجتماعي (المدى الحيوي) كحقل من الصراعات الاجتماعية التي تقع في نطاق الطبقات. هذه الصراعات الطبقية التي ينبغي النظر إليها بعيدا عن المحتوى الماركسي التقليدي للصراع الطبقي، بل بمحتوى أحد المفاهيم المركزية في البنيوية التكوينية وهو الهابيتوس بوصفه منهجية ذات محتوى ثقافي وظيفتها إعادة إنتاج الصراع الطبقي بل وتكريسه عبر المحتوى الثقافي.

حيث تشكل أطروحات "بورديو" طفرة مهمة في مسار السيسيولوجيا العالمية. لأنه استطاع أن ينتج منهجاً خاصاً به في مجال البحث السوسيولوجي مستفيدا من الوضعية والماركسي والفيبرية والبنيوية. كما أنه أسس لنفسه مفاهيمه الخاصة كالحقل والهابتوس (السمت أو السمة)، والسلطة الرمزية والرأسمال الرمزي والعنف الرمزي والهيمنة الذكورية.. لقد فتح بورديو السيسيولوجيا على حقول متعددة (انشغل بالأدب والاتصال الجماهيري والتعليم والسياسة والفن).

رغم أن هناك من يرى أن المفاهيم التي يستعملها "بورديو" مستعارة حقيقة من الماركسية، ويقدمها بمحتوى جديد عبر مفهوم " الرأسمال الثقافي " بوصفه رأسمال رمزي مقابل الرأسمال الاقتصادي بوصفه مفهوم مادي. بمعنى أن التمايز الاجتماعي لا يقع بالضرورة ولا يمكن رؤيته فقط في نطاق الرأسمال الاقتصادي كمدى حيوي بل في نطاق الرأسمال الثقافي (الهابيتوس) الذي يسعى إلى تكريس التمايز وإعادة إنتاج

---

[١] انظر كتاب : كاترين كليمان (٢٠٠٨). كلود ليفي شتراوس. ترجمة محمد علي مقلد، بيروت: دار الكتاب الجديد. والذي تضمن صورة مجزأة عن أهم أعمال كلود ليفي شتراوس في موضوعات مختلفة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا. وكذلك راجع: يتيم، عبد الله (١٩٩٦). نظرية القرابة عند كلود ليفي شتراوس: قراءة في الأنثروبولوجيا المعاصرة. مجلة العلوم الاجتماعية، العدد (٢)، جامعة الكويت، ص ٨٧-١٢٨.

الطبقات لا شعوريا، لهذا فهو يتسم بالعنف الرمزي تماما مثلما هو الرأسمال الاقتصادي الذي يتسم هو الآخر بعنف مادي.

ثانياً- الجذور الفكرية لبيير بورديو:

تتحدد نظرية رأس المال باعتبارها تجميع وتوليف لمساهمات قام بها فلاسفة وعلماء اجتماع ومنظرون. هذه التوليفات تمثل النتائج الأساسية لفكر ماركس وماكس فيبر ودوركايم. ورغم أن هذه المساهمات قد تبدو للوهلة الأولى أنها غير متوافقة معا. إلا أن بورديو يقرر أن العمل العلمي لا يتمثل بمحاولة التمايز والاختلاف عما فعله مفكرو الماضي من أجل إعلان التفرد والخصوصية، وإنما يتمثل في تجميع النتائج التي توصلوا إليها، ولكن ليس بطريقة تلفيقية، وإنما عن طريق تجاوز التناقضات الموجودة فيما بينهم. فهذه التناقضات ناتجة عن وجهات النظر التي يكونها كم منهم عن العالم، وأن كلا منهم ظل سجينا لوجهة نظره، أي للنقاط التي تشكلت منها رؤيته للواقع الاجتماعي[1].

واعتمد "بورديو" على ماركس في تأكيده لأهمية الطبقة باعتبارها وحدة للتحليل، والتأكيد على الأنشطة العلمية التي تسهم في إنتاج وإعادة إنتاج الحياة الاجتماعية، وإلى جانب تصوره لفكرة أن الوجود الاجتماعي social being يحدد الوعي. كما استمد بورديو من دوركايم البرنامج الخاص بعلم الاجتماع التطوري Genetic الخاص بالأشكال الرمزية. ويعتمد هذا البرنامج – بالنسبة لكل من بورديو ودوركايم – على افتراض المطابقة بين البنى الاجتماعى والبنى الرمزية. ولذلك يوجد تشابه إلى حد كبير بين ما توصل إليه دوركايم في نهاية كتابه " الصور الأولية للحياة الدينية " مع خاتمة بورديو في كتابه " التميز " Distinction، وبصفة خاصة في دراسته حول "الأشكال الأولية للحياة الثقافية" من حيث أن البنى العقلية التي تحاول فهم الواقع الاجتماعي يتمثلها أو يستدمجها الأفراد Internalized، بحيث تعبر عن بنى اجتماعية راسخة ومنظمة Embodied . كما اعتمد بورديو على دوركايم في تأكيد الوظائف

[1] صالح، هشام (١٩٨٥). حوار مع بيير بورديو : بورديو بين ماركس وماكس فيبر. مجلة الفكر العربي المعاصر ، ع ٣٧، ص ٦٨.

الاجتماعية والعقلية " للتصورات الجمعية " representation collective ، و"نظم التدرج الأولية " Classifications Primitive. رغم أنه " بورديو " فهم ذلك باعتباره وظائف للسيطرة، بينما فهمها دوركايم باعتبارها وظائف للتكامل الاجتماعي والمنطقي. ومعني ذلك أن بورديو قد حاول إحياء جهود دوركايم لبناء نظرية سوسيولوجية في المعرفة، وفهم وإدراك الواقع الاجتماعي.

وأخذ "بورديو" من "فيبر" المصادر المفاهيمية الخاصة بنظرية الوظائف الاجتماعية للسلع الرمزية، وتصوره للأنماط الخاصة للحياة، والاتصاف بالشرف أو عدم الشرف التي توصف بها جماعات المكانة. وطور "بورديو" نظرية منظمة في العلاقة بأنماط الحياة، وعلامات تميز الشروط المادية للوجود الملازمة لها، ومن نظرية التدرج على أساس المكانة إلى التدرج على أساس الطبقة. ومن ملاحظات "فيبر" عن الكاريزما والشرعية، طور نظرية منظمة في القوة الرمزية وعلاقاتها بالقوى السياسية والاقتصادية. ومن أفكار فيبر عن السلع الرمزية والاهتمامات الرمزية ومفاهيمه التي طورها في تصوره لعلم الاجتماع الديني، أقام "بورديو" نظرية عامة في اقتصاديات السلع الرمزية، وعلاقتها بالاقتصاد المادي[1]. وهذه النظرية تتعلق بإنتاج واستهلاك السلع الرمزية والسعي إلى الأرباح الرمزية، وتراكم رأس المال الرمزي، ووسائل تحويل القوة أو رأس المال الرمزي إلى أشكال أخرى من القوة.

ولذلك يشترط "بورديو" لتقدم العلم إقامة تواصل بين نظريات متعارضة، تتخذ كل منها مواقف مضادة للأخرى في الغالب. ولا يعني ذلك إقامة ضروب من التركيب التلفيقي بين هذه النظريات. فمن السهل أن ينغلق المرء داخل تقليد فكري معين، وكثيرا ما قامت الماركسية بأداء تلك الوظيفة. وهذا التركيب ليس ممكنا إلا على حساب طرح المعتقدات طرحا جذريا للتساؤل، مما يؤدي إلى مبدأ التنافس الظاهري. فمثلا في مواجهة تبني الماركسية للنزعة الاقتصادية بالمعنى المحدود للاقتصاد الرأسمالي، والتي تفسر كل شيء بالاقتصاد، نجد "ماكس فيبر" يوسع من التحليل الاقتصادي إلى المواضع المألوفة والعادية التي هجرها الاقتصاد مثل الدين.

---

(1) Brubaker , R . , Rethinking Classical Theory , JOP. CIT . , P . 747

وقد أدى تركيز" بوريـو" في كتاباتـه علـى الطبقـة وإعـادة الإنتـاج والأسـلوب النقدي، إلى بعض الخداع في قراءته باعتباره ماركسيا، إلا أن الماركسيين أنفسهم ينظرون إليه باعتباره دوركايمياً، نتيجـة لتركيـزه علـى الوظيفـة التكامليـة للثقافـة. وقـد اقـترح دوماجيو DiMaggio في مراجعاته لمقالات بورديو صـيغة تقـوم علـى النظـر إلى آرائـه باعتبارها نوعا من التوفيق، حيث تمثل تزاوجا بـين آراء "مـاركس" وآراء "دوركـايم"[1]. وبالفعل فإن "بورديو" يعتبر مدينا لماركس ودوركايم في برنامجه النظري، الذي يمكـن أن يوصف باعتباره محاولة لتوحيـد البرنـامج الماركـسي في علـم الاجتمـاع الخـاص بإعـادة الإنتاج، ومع البرنامج الدوركايمي الخاص بعلم الاجتماع التطوري (التـاريخي) الخـاص بالأشـكال الرمزيـة. ولكـن إذا كانـت الأهـداف المنهجيـة لبوريـو مـشتقة مـن مـاركس ودوركايم، فإن جوهر نظريته مدين في معظمه "لماكس فيبر".

ثالثاً- نظرية بورديو:

بدأ "بورديو" مجاله كأنثروبولوجي. واعتمدت كل أعماله وأفكاره النظريـة علـى أمثلة من دراساته الميدانية لقبائل البربـر في الجزائـر[2]. وبـدأت هـذه الدراسـات بتنـاول أشكال الوعي السياسي وأسس الصراعات السياسية. ثم عكف بعد ذلـك علـى دراسـة الثقافة، ليس لأنه جعل منها عاملا تفسيريا لاستيعاب العـالم الاجتمـاعي، ولكـن لأن الثقافة كانت تمثل مجالا مهملا، وكان العاكفون عليهـا يتـأرجحون بـين نزعـة اقتـصادية اختزالية ونزعة مثالية أو روحية.

ولم ينقل "بورديو" على نحو غير نقـدي المفـاهيم الاقتـصادية إلى مجـال الثقافـة، ولكنه أراد أن يقيم علم اقتصاد خاص بالظواهر الرمزيـة، وأن يـدرس المنطـق النـوعي لإنتاج الثروات الثقافية وتداولها. ولذلك تميزت الأفكار والمواقـف النظريـة الـتي قـدمها بأنها لا تتقيد بالثقافة الأوروبية أو بالواقع الاجتماعي للبورجوازية. وترتب علـى ذلـك الانتشار الواسع لأفكاره ومواقفه النظرية وملاءمتها لدراسة مجتمعات عديدة.

---

[1] بورديو (١٩٩٥). أسئلة علم الاجتماع : حول الثقافة والسلطة والعنف الرمزي ، ترجمة إبراهيم فتحي ، القاهرة ، دار العالم الثالث، ص ٣٢.

[2] ومن هذه الدراسات :

Bourdieu , p ., The Algerians , Translated by Alan C . M . Ross , Beacon Press , Boston , 1962 .

- الممارسات الاجتماعية والرمزية :

يهتم رأس المال الاجتماعي بالتأكيد على نمط التفكير الذي يفهم كل الممارسات باعتبارها موجهة نحو تعظيم الأرباح المادية والرمزية[1]. وهنا استخدم "بورديو" المفهوم الاقتصادي (الأرباح) برؤية مغايرة لرؤية علماء الاقتصاد حيث تركز نظريته على الأبعاد السوسيولوجية بصفة خاصة، مثل اهتمامها بالاختلافات المحددة طبقيا في معاني واستخدامات السلع والأنشطة المماثلة، ومثل البنية الاجتماعية للأنماط المختلفة من الاهتمامات والاستثمار والربح، وخاصة بالنسبة للطبقة التي تعتمد بطريقة منظمة على التوزيع غير المتكافئ للأدوات التي تحتاجها لملاءمة وتراكم كل من السلع المادية والرمزية. فهذه الطبقة تعتمد بطريقة غير متكافئة على ما ينتجه الآخرون، مما يؤدي إلى عدم التكافؤ في تحقيق الأرباح المادية والرمزية في المجالات المختلفة من النشاط، على نحو ما يوجد في المدرسة، وفي سوق العمل، وفي سوق الزواج، وفي ممارسات الاستهلاك في الحياة اليومية للفرد.

- الأنساق الرمزية وإعادة الإنتاج :

رأى "بورديو" أنه ينبغي عدم الاكتفاء بالتنظير البحت، لأن ذلك يؤدي إلى الوقوع في المثالية، وإنما ينبغي صنع المعرفة بشكل عملي، ومن خلال الممارسة الميدانية. ولهذا السبب ذهب "بورديو" يخوض بنفسه الأوساط الاجتماعية والثقافية الواقعية كافة. وقد مارس البحث الميداني في أكثر من عشرين وسطا وبيئة تمثل المجتمع بكل حقوله وفئاته. ولذلك قسم "بورديو" العالم الاجتماعي إلى مجموعة حقول أو ساحات مغلقة مستقلة نسبيا Champs، لكي يفهم آلية كل حقل ووظائفه وطرق اشتغاله قبل إطلاق

---

[1] يقصد بالسلع الرمزية مجموعة نظم التبادل الرمزية أو الروحية التي تتم بين البشر ، وهي تشبه السلع المادية، وتخضع القوانين مشابهة في إنتاجها وبيعها وشرائها كما يقصد بالسلطة الرمزية ، تلك السلطة التي تمارس نفسها على هيئة القدرة التي تجعلنا نرى أو نفهم أو نعرف أو نؤمن ، وهي سلطة تعسفية في الأصل ، ولكن الناس يعترفون بشرعيتها لأنهم يجهلون أنها تعسفية. انظر :
Bourdieu , P . , Outline of A theory of Practice Translated by Richard Nice , Cambridge University Press , Cambridge , 1977 . P . 75 .

حكما على المجتمع ككل. ولذلك تصور بورديو المجتمع باعتباره نسقا من المجالات المستقلة نسبيا، ولكنها مجالات متماثلة بنائيا.

ومن ثم تمثل الأنساق الرمزية أهمية هائلة في أعمال "بورديو". فهو يرى أن الأشكال الرمزية (مثل اللغة ونظام الملابس، وصورة الجسم)، مهمة ليس فقط في فهم الوظيفة المعرفية للرموز، ولكن في فهم الوظيفة الاجتماعية لها.

كما تمثل هذه الأنساق الرمزية أدوات للمعرفة والهيمنة، والتي تساهم في إعادة إنتاج التكوين الاجتماعي. فالصراعات بين الأنساق الرمزية لفرض رؤية معينة للعالم الاجتماعي تحدد الفضاء الاجتماعي الذي من خلاله يبني الناس حياتهم، وتنفذ ما يراه "بورديو" باعتباره صراعات رمزية في الحياة اليومية، في استخدام العنف الرمزي للسائد على المسود، مثل : التعليم والعلاقات في مكان العمل، والتنظيمات الاجتماعية. فالفضاء الاجتماعي هو فضاء جماعات المكانة التي تتصف بأساليب حياة مختلفة. والصراعات الرمزية حول إدراك العالم الاجتماعي يمكن أن تأخذ شكلين مختلفين. فعلى الجانب الموضوعي يستطيع الفرد أن يتفاعل من خلال التصورات (الفردية والجماعية) التي توضح وتثبت رؤى خاصة للواقع. وعلي الجانب الذاتي يستطيع الفرد أن يتفاعل من خلال استخدام استراتيجيات للصورة الذاتية أو بمحاولة تغيير إدراك وفهم الواقع الاجتماعي[١].

- التدرج الاجتماعي والاستمرارية الثقافية:

بنفس هذا المنظور أيضا، يعتبر "بورديو" أن نظم التراتب أو التدرج الموجودة في المجتمع لا تعود إلى خصائص موضوعية مستقلة عن وعي الإنسان. فهذه الخصائص مرتبطة بمواقف الأفراد وتصرفاتهم وإدراكاتهم. وتبعا لذلك، فهي تعطي معان أو تقديرات مختلفة للوقائع الاجتماعية، فليس الوجود الموضوعي لنظم التدرج في المجتمع هو الذي يخلق تصرفات أو تصورات الأفراد عنها، بل أفعال وتصورات الأفراد عنها هي التي تعطيها درجات من الأهمية والاحترام إلى جانب الصفة الموضوعية[٢].

---

[١] Bourdieu , P . , The Logic of Practice ,Translated by Richard Nice , Stanford University Press , California , 1990 , PP . 123 – 124 .

[٢] سالم، علي (١٩٩٢). منهجيات علم الاجتماع المعاصر. بيروت: دار الحمراء، ص ص : ١٧٥ – ١٧٦ .

فالسلطة مثلا تظهر وكأنها تتشكل بمعزل عن إرادة الإنسان ووعيه، فهي تظهر كقوة حتمية لا بد منها، وهي قوة قسرية تحدث خارج تصورات الأفراد وأفكارهم ووعيهم. ومن ثم فإن هناك ظروفا موضوعية أدت إلى ظهور هذا الشكل من السلطة. إلا أن "بورديو" يعطي كل الدور للوعي والفكر وتصرفات الأفراد على حساب الظروف أو العلاقات الاجتماعية الموضوعية، لأن احترام الأفراد لهذا النوع من المؤسسات أو الظواهر هو الذي أدى إلى وجودها، بل هو الذي حافظ على بقائها.

ويحلل "بورديو" نظم التعليم في المجتمع باعتبارها تعمل على تحقيق الاستمرارية الاجتماعية والثقافية، حيث تعمل هذه النظم على نقل ثقافة الطبقة المسيطرة، واستمرار هيمنتها، نتيجة لما تمتلكه هذه الطبقة من القدرة على فرض أفكارها وتصوراتها باعتبارها شرعية. فهذه الثقافة الخاصة بالطبقة المسيطرة تتحول من خلال النظم التعليمية إلى ثروة وقوة، يطلق عليها بورديو " رأس المال الثقافي ". ولا يتوزع رأس المال الثقافي بدرجة متساوية في المجتمع، وإنما يرتبط في الأساس بالتباينات الطبقية، والتي تنعكس بدورها في أسلوب حياة كل طبقة أو فئة اجتماعية. ومن ثم فإن البناء الطبقي في المجتمع الصناعي لا يعبر عن مجرد علاقات السيطرة في المجال الاقتصادي، وإنما ترتبط ظروف استمرارية هذا البناء بصورة مباشرة بآليات عمل المؤسسات التعليمية، حيث تقوم هذه المؤسسات بوظيفة انتقاء اجتماعي وفرز طبقي على أساس معايير ثقافة الطبقة المسيطرة[1].

كما حلل "بورديو" الاختلافات بين الاقتصاديات النقدية واقتصاديات المقايضة والثقافة المساندة لكل منها. ورغم ذلك ما زال بورديو يضع نماذج لكل الواقع الاجتماعي باعتباره نظم اقتصادية، فهو يأخذ الرأسمال الاقتصادي والعلاقات بالمجال الاقتصادي لكي يدمجه بين أشكال الرأسمال الأخرى وكل أبعاد القوة. ويمثل ذلك رؤيته للواقع الاجتماعي الذي يبنى من خلال استعدادات الأفراد. وهذا الرأسمال الاقتصادي يتحول إلى شيء آخر أكثر جدلية ومرونة من رأس المال، وهو رأس المال

---

(1) Bourdieu , P . , Cultural Reproduction and Social Reproduction , In : " Power and Ideology in Education " , Edited by Karabel and Halsey , New York , Oxford University Press , 1977 , PP . 787 – 511 .

الثقافي ورأس المال الاجتماعي ورأس المال الرمزي، أي رأس المال المساوي لجودة المثقف والأكاديمي وأي شخص آخر[1].

رابعاً- نظرية الممارسة *Practice Theory* :

يتمثل الإسهام الأساس " لبورديو" في العلوم الاجتماعية في محاولته بناء نظرية عامة في الممارسة. وتعتمد هذه النظرية على فكرة أساسية ترى أن الأشكال الخاصة بالممارسة في الحياة اليومية لا تخضع للاحتياجات الخاصة بقدر ما تخضع للأوامر والمتطلبات الوظيفية الخاصة بالحياة الجمعية، حيث يمارس الأفراد أشكالا مختلفة من المعاني والتعبيرات الرمزية التي لا تظهر مباشرة في المواقف الاجتماعية، ومع ذلك فإن هذه المواقف لا تتحدد من خلال النظم الجمعية في ممارساتها[2]. وهذا النموذج النظري لبورديو يقدم بدائل جديدة ومقنعة للتعامل مع بعض المشكلات الكبرى في معظم الأعمال المعاصرة في العلوم الاجتماعية، وبصفة خاصة تلك المشكلات الناتجة عن التعارض بين المذهب الموضوعي والمذهب الذاتي. ويهدف "بورديو" من هذا النموذج إلى تجاوز التعارض بين مفاهيم المعرفة العلمية وتحويلها إلى علاقات جدلية بين البنية والفاعل. ولذلك ظهر هذا النموذج من خلال عدة مصادر ثقافية متنوعة مثل أعمال "ماركس، دوركايم، وفيبر، ودي سوسير".

وقد تحددت الإشكالية الأساسية في نموذج "بورديو" على مرحلتين. تتمثل المرحلة الأولى في إلقائه الضوء على الأشكال الرئيسة من السيطرة في المجتمع والتي يعاد إنتاجها – بوعي أو بدون وعي – في الحياة اليومية. ويتم ذلك من خلال المؤسسات والنظم الاجتماعية القائمة، والتي ترتبط بدرجة كبيرة بتلك الأنماط من السيطرة نتيجة تحكم الطبقة المسيطرة. ويعد النظام التعليمي أهم هذه النظم وقد توصل "بورديو" إلى هذه الفكرة من خلال دراسته لنمط القرابة في الجزائر، والذي يمثل أحد أشكال السيطرة، فهو مقبول ثقافيا ويقوم على مؤسسات فعلية ومتطورة، ويرتبط بدرجة كبيرة بأشكال السيطرة في المجتمع الجزائري، ويتضح ذلك في ممارسات الأفراد وأفعالهم تجاه الآخرين[3].

---

(١) Bourdieu B. , Outline of A theory of Practice , ob.cit , B . 5 .

(٢) Bourdieu B. , Outline of A theory of Practice , ob.cit , B . 5 .

(٣) Sulkunen , P . , Society Made Visible: On the Culture Sociology of Pierre Bourdieu, *Acta Sociologica*, vol. 25 , No . 2 , 1982 , PP . 103 – 115 .

أما المرحلة الثانية فتتمثل في دراسته للنظام التعليمي في فرنسا، الذي يعطي – من الناحية الرسمية – فرصا متساوية لأفراد المجتمع، وفي نفس الوقت يقوم بإخفاء الأساليب التي تنتجها المدرسة للاختلافات والتمايزات الطبقية، والتي تتمثل في التنشئة الأولية وفي إيديولوجية القدرات. فالإنجازات المختلفة في النظام التعليمي تنتسب بطريقة اجتماعية إلى قدرات غريزية في الطلاب، بينما في الحقيقة هذه الاختلافات تعكس سيطرة أحد الطبقات على أخرى في المجتمع. ونتيجة لذلك، فإن النظام التعليمي لا يمارس فقط وظيفة انتقاء الطلاب للمواقع والمميزات الثقافية والاقتصادية والمكانية المختلفة، ولكن أيضا يمثل أداة لتوزيع أحقية النجاح وإلقاء اللوم على الفشل. كما يقوم بإضفاء الشرعية على القيم والأذواق ونمط حياة الطبقات المسيطرة [1].

خامساً- البنيوية التوليدية **Generative or Constructivist Structuralism**:

تسعى البنيوية إلى دراسة الأنظمة الرمزية من لغات وأساطير وشعائر وأديان كأنظمة متكاملة ومستقلة بحد ذاتها، أي كأنظمة لها تماسكها الخاص. وبذلك أحدثت البنيوية القطيعة مع الإثنولوجيا الاستعمارية والعنصرية. فإن بورديو قد استفاد من الرؤية البنيوية بطريقة ثورية، حيث نظر إلى التصورات الخاصة بغير الشعوب الأوربية وكأنها أنظمة لها منطقها وتماسكها الخاص الذي لا ينبغي الاستهانة به أو تفريغه من المعنى. ورغم ذلك أحدث "بورديو" القطيعة مع الإثنولوجيا البنيوية، وخاصة بنيوية "ليفي شتراوس *Levy Strauss*"، الذي حصر عمله فقط في تحليل الأنظمة الرمزية وخصوصا الأساطير أي بالتصورات والبنى الفوقية. فقد ذهب "بورديو" إلى أبعد من ذلك لكي يحلل العلاقات الاجتماعية بصفتها أنظمة متماسكة وذات دلالة. ومن ثم فإن "بورديو" نقل البنيوية من مستوى التصورات والأساطير إلى مستوى الممارسات الواقعية والعلاقات الاجتماعية، وأوضح أنه يوجد فضاء اجتماعي للعلاقات التي تشكل التصورات التي يتشكل عنها التعبير الرمزي [2].

---

[1] Ibid. . , P . 105 .

[2] صالح، هاشم (١٩٨٥). مرجع سابق، ص : ٧٠ .

ولذلك أطلق "بورديو" على هذا المنهج اسم " البنيوية التوليدية ". ويصف هذا المنهج طريقة التفكير وأسلوب إثارة الأسئلة. ويحاول "بورديو" باستخدام هذا المنهج أن يصف ويحلل وأن يلقي الضوء على نشأة الأشخاص والجماعات والبنى الاجتماعية. ويقترح منهج بورديو نظرية للتحليل الجدلي للحياة العملية. وتحاول وجهة نظره أن تقدم ما يمكن لإظهار التفاعل بين الممارسة الاقتصادية الشخصية والعالم الخارجي الخاص بالممارسة الاجتماعية والتاريخ الطبقي، كما يعتمد أيضا على تجاوز التعارضات بين البنى الموضوعية والتصورات الذاتية للأفراد داخل المجال الاجتماعي.

وفي رده على تعقيد هذا المنهج، يرى "بورديو" أن الواقع الاجتماعي نفسه معقد وأن العلم الاجتماعي يتعين عليه أن يتتبع المفاهيم اللازمة لتصوير هذا الواقع وجعله مفهوما. ومن ثم فإن "بورديو" قد اقترح منهج البنيوية التوليدية لفهم كل من نشأة البنى الاجتماعية، والخصائص الاجتماعية للفاعلين الذين يعيشون داخل هذه البنى[1].

الفاعل والبنية والرمز **Structure & Agents & Symbols** :

إن المنهجية التي يستخدمها بورديو مادية، ولكنها ليست مادية سلبية أو ميكانيكية، وإنما هي مادية نشطة وفاعلة، نتيجة لارتكاز نظرية بورديو على مادية الأشكال الرمزية. حيث يهدف بورديو من استخدامه لهذا المنهج إلى معالجة الظواهر الرمزية ضمن منظور مادي، وذلك رغم أن تاريخ وتطور الأمور الثقافية قد اتخذ في الماضي اتجاهات وأوضاع مغايرة للاقتصاد والسياسة. وفي هذا الصدد يعتمد "بورديو" على "ماكس فيبر"[2] الذي حاول أن يبرهن على وجود قاعدة اقتصادية للظواهر الرمزية (من طقوس وأديان وأساطير ولغات... الخ) وتمثل ذلك في سوسيولوجيا الأديان التي أسسها، والتي تمثل تقدما كبيرا يذهب أبعد من "ماركس"، لأن "ماركس" قد اكتفى بتحليل الإيديولوجيا الدينية، أما "فيبر" فقد تجاوز ذلك، واتخذ موضوعا لدراسته وهو سوسيولوجيا الفاعلين الدينيين.

---

(١) Mahar, et. al ., The Basic Theoretical Position, Op. Cit., PP. 3 – 4.

(٢) صالح، هاشم (١٩٨٥). مرجع سابق، ص ٦٥-٦٧.

واستمد "بورديو" من ذلك مفهوم الحقل الديني، باعتباره مجالا مستقلا نسبيا، يتصارع فيه الفاعلون الاجتماعيون (أي البشر) بواسطة استخدام أشكال مختلفة من الرأسمال الديني. ويتحدد منطق هذا الصراع والاستراتيجيات الخاصة التي يستخدمها الفاعلون الدينيون بحسب حجم رأسمالهم وموقعهم داخل موازين القوى الدينية البحتة.

وباختصار، فإن ما يريد بورديو القيام به هو تأسيس علم اقتصاد سياسي للظواهر الرمزية أو لما هو رمزي. ومن ثم تتمثل منهجيته في " مادية الرمزي ". ورغم ذلك، يرفض "بورديو" استخدام علماء الاقتصاد لمفهوم الرمزي Symbolic، حيث يعرفه بأنه عبارة عن شيء مادي، ولكنه غير مفهوم باعتباره كذلك[1]. وهذا المفهوم يستمد تأثيره وفاعليته ليس من ماديته ولكن من حقيقة فهمه على نحو معين.

وهناك تقارب بين منهج "بورديو" ومنهج "غيدنز *Giddens*"، فكلاهما ينطلق من منظور واحد رغم اختلاف الأدوات التصورية لكل منهما، حيث تشترك نظرية جيدنز في تشكيل البنية *Structuration* مع منهج البنيوية التوليدية لدى بوريو، وذلك لتوضيح ما أسماه " غيدنز " *duality of structure* " وأسماه بورديو" *double Structuration* "، ولذلك يمكن القول أن نظرية تشكيل البنية عند "غيدنز" تعطي للقارئ ما حاول "بورديو" أن يوضحه من خلال منهجه في البنيوية التوليدية. وهما يتفقان أيضا في محاولة كل منهما ضغط البنيوية في قضايا سابقة الوجود لنمط ما بعد البنيوية ونمط الماركسية الجديدة[2].

ولذلك دعا "بورديو"، وكذلك " غيدنز"، إلى التكامل بين البنية والفاعلين داخل هذه البنية، حيث يشغل هؤلاء الفاعلون مواقع في المجالات التي تحدد بفاعلية الممارسات والاختيارات المتاحة أمام الأفراد في هذا المجال، ولكن هذه الاختيارات تكون دائما في حدود معينة[3]. ولا تعتبر البنى الاجتماعية الموضوعية (التي تحدد

---

(1) Mahar, et. , The Basic Theoretical Position, Op. Cit, P. 5.

(2) راجع الفصل الثامن لقراءة نظرية "غيدنز". وعن العلاقة بين نظرية بورديو ونظرية غيدنز انظر :
Sewell , W . , A Theory of Structure: Duality, Agency, and Transformation, American Journal of Sociology, Vol. 98, No. 1, 1992, PP. 1 – 29.

(3) The Friday Morning . , Conclusion: Critique, in " An Introduction to the Work of Pierre Bourdieu, OP. Cit, P. 202.

الاختيارات)، أو استعدادات الفاعلين (التي تؤدي إلى الاختيار من بين البدائل والاستراتيجيات) مستقلة عن بعضها داخل منهج التشكل المزدوج للبنية [1]. حيث ترتبط اختيارات الفاعلين دائما بالهابيتوس (الطبيعة المتشكلة اجتماعياً) *Habitus* الخاص بهم، والذي يمثل حالة خاصة من الهابيتوس الخاص بالجماعة أو الطبقة التي ينتمون لها. ورغم ذلك فإن نظم الاستعدادات الفردية تكون مختلفة بنيويا عنها لدى الجماعة أو الطبقة التي ينتمي إليها هذا الفرد.

ولكي يميز "بورديو" منهجه، صمم صيغة نظرية تستبدل أي علاقة بسيطة بين الفرد والبناء بعلاقة مركبة بين الهابيتوس والمجال. وهذه الصيغة التوليدية هي التي تفسر قراءات الممارسة الاجتماعية كما يلي[2]:

(الهابيتوس × رأس المال) + المجال = الممارسة

وبينما تعد هذه الصيغة وسيلة ضرورية لتلخيص العلاقة بين المفاهيم الأساسية في أعمال بورديو، فإنها يجب ألا تستخدم كنوع من الحلول النهائية في التحليل، لأن "بورديو" قد رفض كثيرا في كتاباته الخاصة عملية إضفاء الموضوعية على النظرية بالشكل السابق، وأيضا فإن استخدام هذه الصيغة يكون باعتباره أداة توضيحية للعرض أو الشرح، وليس لتقديم حلول كلية للفعل أو السلوك الاجتماعي.

سادساً: البنيوية التوليدية وإعادة الإنتاج الاجتماعي:

في محاولته لتحديد عمل البنيات وكيفية اشتغالها، وخلال سنوات تكوينه الأولى طرح بورديو سؤالا منهجيا: كيف تتجدد البنيات؟ وكيف تعيد إنتاج نفسها؟. للإجابة على السؤال كان على "بورديو" أن يقوم بمسح علمي اجتماعي ومعرفي ليتعرف على ما هو كائن من النظريات وما تقدمه وما هو محتواها، ومن ثم الاطلاع على النظرية البنيوية بكل تفرعاتها. لأنه ركز بداية على سلوك الفاعلين بوصفهم معيدي إنتاج البنية. وتنظم إجابته عن ذلك الموضوع حول بعض التصورات والأفكار مثل نسق المواقع الاجتماعية، والفضاء الاجتماعي، والمجال، والذاتية والموضوعية، وتصوره للطبقة.

---

(1) Ibid. . , P . 204

(2) أنصار، بيير (١٩٩٢). العلوم الاجتماعية المعاصرة ، ترجمة نخلة فريفي ، ط ١ ، بيروت: المركز الثقافي العربي ، ص ٣٤ – ٣٥ .

تميل البنيوية التقليدية في دراستها للمجتمعات التقليدية إلى الاعتقاد بأن ثبات البنى هو أمر مكتسب دون أن تتحمل مسؤولية التساؤل عن الشروط المولدة لعمليات التكرار هذه. فقد حاولت الماركسية تقديم إجابة إجمالية لمشكلة إعادة إنتاج نسق الطبقات عبر التحليل الاقتصادي وتضخيمه إلى أقصى حد باعتماد علاقة وحيدة هي مدى تملك رأس المال.

ومن جهته حاول "بورديو" تحليل جميع أفعال إعادة الإنتاج من خلال دراسته للنسق المدرسي ووظيفته محاولا إدخال مفاهيم للتفسير مثل:

- العنف الرمزي.
- الرأسمال الثقافي.
- استراتيجيات إعادة الإنتاج[1].

١ – نسق المواقع الاجتماعية *System of Social Position* :

يعني هذا النسق بكشف طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الفاعلين داخل البنية الاجتماعية تبعا للمواقع التي يشغلها كل منهم داخل هذه البنية. ويوضح بورديو ذلك من خلال مفهومي الحقل والمجال. حيث يقترح "بورديو" استخدام مفهوم الحقل ليس باعتباره مجموعة من الأشخاص تشترك في اهتمامها بمجال معين. ولكن باعتباره نسق العلاقات الاجتماعية التي تنتظم بين الفاعلين داخل مجال معين[2]. وتتحدد هذه المواقع من خلال توزيع رأس المال الخاص بالفاعلين المستقرين في المجال. ويمكن أن تتفاعل هذه المواقع مع الهابيتوس الخاص بالفاعلين لتنتج أوضاعا أو مواقف عقلية مختلفة، والتي يكون لها تأثيرها المستقل على اقتصاديات تحديد الموقع داخل المجال. ولذلك يحدث صراع بين الفاعلين داخل المجال للوصول إلى تلك المواقع، والتي تعد عاملا أساسيا في إعادة الإنتاج الاجتماعي[3].

---

(١) انظر: بيير بورديو (٢٠٠٧). إعادة الإنتاج. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

(٢) أنصار، بيير (١٩٩٢). مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥.

(٣) Mahar C., Pierre Bourdieu : The Intellectual Project, in : " An Introduction to the Work of Pierre Bourdieu, OP. Cit, PP. 43 – 45.

٢ – الفضاء الاجتماعي *Social Space* :

يشير الفضاء الاجتماعي إلى تصور عام للعالم الاجتماعي. وينظر هذا المفهوم للعالم الاجتماعي باعتباره طبولوجيا (فضاء). وبهذه الطريقة يمكن فهم الفضاء الاجتماعي باعتباره مجالات متعددة ومتداخلة، والتي يكون لها بعض العلاقات ونقاط الاتصال كل منهما بالآخر، رغم الاستقلال النسبي لكل منهما[١]. ويرتبط الفضاء الاجتماعي الخاص بالفرد على مر الزمن (مسار الحياة) بسلسلة من المجالات التي يتصارع الناس داخلها على أشكال متنوعة من رأس المال.

وتمثل أفكار "بورديو" عن الفضاء الاجتماعي مساهمته الأساسية في تحليل البناء الاجتماعي في المجتمع الحديث، حيث يتصف هذا المفهوم بتأكيده على البعد الثقافي في المجتمع، والذي يمثل رأس المال الثقافي بعدا هاما فيه بالإضافة إلى رأس المال الاقتصادي ويحدد توزيع هذين الشكلين من رأس المال موقع الطبقات وشرائحها في الفضاء الاجتماعي كما يتميز هذا المفهوم بأنه ذو طابع دينامي وتأكيده على التغير الاجتماعي، فالبنية الاجتماعية، طبقا لبورديو ، تمثل حالة ثابتة من التغير، نتيجة لوجود صراع مستمر على المواقع الاجتماعية بين الطبقات المختلفة في أي مجتمع، مما يجعل بعض الجماعات في مسار صاعد والأخرى في مسار هابط أو ثابت[٢].

وينظر بورديو إلى المجتمع نفسه كفضاء اجتماعي أو طبوغرافيا اجتماعية[٣]. ويشتمل هذا الفضاء على مجموعة من المجالات التي تتكون من مجموعة من الفاعلين يتنافسون على المواقع *Positions* داخلها. ومن الممكن أن ينضم الفرد إلى أكثر من مجال داخل فضاء اجتماعي واحد، ولكنه لا يمكن أن يشغل موقعين متعارضين في هذا الفضاء.ويتحدد موقع الفاعلين داخل الفضاء الاجتماعي بحسب الخصائص الثقافية

---

(١) Silber, I. F., Space, Fields, Boundaries: The Rise of Spatial Metaphors in Contemporary Sociological Theory, Social Research, Vol. 62 , 1995 , P .345

(٢) Rosenlund , L . , Cultural Changes in Norwegian Urban Community: Applying Pierre Bourdieu Approach and Analytical Framework, International Journal of Contemporary Sociology, Vol. 33, No – 2, 1996, PP. 213 – 214.

(٣) تشير الطبوغرافيا الاجتماعية إلى التحليل البنيوي للبناء الاجتماعي في علاقته ببقية أجزاء المجتمع. كما تشير إلى مجموعة الفاعلين الذين يحتلون أوضاعا متشابهة أو متجاورة ، وينتظمون في حالات متشابهة .

والاجتماعية والاقتصادية. ونتيجة لأن هذه المواقع تعتبر مجالات قوى، فإن المجالات أيضا تتحدد داخل الفضاء باعتبارها مجالات قوى على مستوى أعلى من التجريد[١].
وبناءا على ذلك، يمكن أن يفسر العالم الاجتماعي كفضاء (متعدد الأبعاد) مبني على أساس التباين أو التمايزات التي تؤسسها المواقع النشطة أو الفعالة داخل العالم الاجتماعي.

ولبناء نظرية عامة في الفضاء الاجتماعي، حدد بورديو مجموعة من الاختلافات مع النظرية الماركسية مثل الاختلاف مع النزعة الاقتصادية التي تجعل الفرد يختزل المجال الاجتماعي والفضاء إلى المجال الاقتصادي وعلاقات الإنتاج الاقتصادية[٢]. بالإضافة إلى الاختلاف مع النزعة الوضعية والنزعة العقلية والتي تقود إلى تجاهل الصراعات الرمزية داخل هذا الفضاء أو المجالات المتضمنة فيه.

٣ – المجال *Field* :

ولكي يصف ويحلل "بورديو" الصراعات الاجتماعية بين الفاعلين في الفضاء الاجتماعي صاغ مفهوم " المجال الاجتماعي " فالصراعات الاجتماعية تحدث في مكان معين وعلى مواقع معينة، هذه الأماكن والمواقع هي المجالات. والمجال الاجتماعي في تفكير بورديو يشبه كلا من أرض المعركة ومكان السوق. وقد استخدم بورديو مصطلح " الاقتصاد الخفي" *Hidden Economies* لنفس الغرض. ففي المجال تحدث الصفقات والعمليات الاقتصادية والاستثمارية. ويشغل هذه المجالات الفاعلون الاجتماعيون – سواء كانوا أفرادا أو مؤسسات - ويشترك كل مجموعة من هؤلاء الفاعلين في معتقدات عامة تميزهم عن الآخرين، أي يشتركون في القيم التي ينتظم المجال حولها، مثل القيم الموجودة في الآداب فيما يتعلق بالمجالات الفنية، أو القيم الاجتماعية في الصحافة فيما يتعلق بوسائل الإعلام[٣].

---

(١) Helmut, K. A., Forms of Capital and Social Structure in Cultural Fields: Examining Bourdieu' s Topography, American Journal of Sociology, Vol. 100, 1995, P.860 – 61.

(٢) Bourdieu , P . , The Social Space and The Genesis of groups, Theory and Society, Vol. 14 , No . 6 , 1985 , P . 723

(٣) Rosenlund , L . , Cultural Changes in Norwegian Urban Community, OP. Cit, P. 215

ولذلك تعرف المجالات باعتبارها نسقا من علاقات القوة الموضوعية بين المواقع الاجتماعية، حيث يقدم كل مجال نفسه بوصفه حيزا تنتظم عناصره في بنية من المواقع أو المراكز، التي تعتمد خصائصها على مكانها في هذا الحيز، والتي يمكن تحليلها باعتبارها مستقلة عن الصفات المميزة لشاغليها، فهي محددة جزئيا بواسطة المواقع. وينطوي كل مجال على صراع ومنافسة بين من يحاول الدخول إلى المجال، وبين صاحب السيطرة الذي يحاول الدفاع عن مصالحه واستبعاد المنافسة من أجل استمرار سيطرته وتمايزه.

وينقسم المجال الاجتماعي عند "بورديو" إلى حقول، والحقل هو الموقع الاجتماعي الذي يؤدي الفرد وظيفته الاجتماعية فيه، كالحقل البيروقراطي للدلالة على الدولة، والحقل الفني، والحقل الأدبي. وينقسم الحقل إلى حقول فرعية، فالحقل القضائي فرع من الحقل البيروقراطي، ولكل حقل بنيته التي تحددها وظيفته الاجتماعية وعلاقة الفاعلين داخله بعضهم ببعض، وعلاقة الحقل بالحقول الأخرى[1]. والانتماء لحقل معين يتحكم في حركة الفاعلين، سواء في تمسكهم بما هو موجود أو تمردهم عليه، لأن هذه البنية محددة لمواقف الأفراد ولحركتهم الاجتماعية.

ويتحدد الحقل شأنه شأن المجال، بصفته شبكة من العلاقات الموضوعية بين أوضاع اجتماعية (المواقع الاجتماعية) وهذه الأوضاع محددة موضوعيا في وجودها وفي التحديدات التي تفرضها على شاغليها، سواء كانوا فاعلين أم مؤسسات، بواسطة موقعها الحالي والمحتمل في بنية توزيع مختلف أنواع السلطة أو الرأسمال، والتي يتطلب امتلاكها بلوغ المصالح الخاصة التي هي موضوع المنافسة في الحقل. وفي الوقت نفسه بواسطة علاقتهم الموضوعية بالأوضاع الأخرى . وفي المجتمعات شديدة التمايز، يتكون المجال الاجتماعي من مجموع تلك الحقول الاجتماعية المستقلة نسبيا، أي من فضاءات من العلاقات الموضوعية التي تخضع لمنطق خاص ومختلف عما يحكم الحقول الأخرى[2].

---

[1] مغيث، أنور (١٩٩٥). بيير بورديو وكتاب جديد حول نظرية العقل. مجلة إبداع ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ع ١٢، ص : ١١٤

[2] بورديو وفاكوانت (١٩٩٧). أسئلة علم الاجتماع : في علم الاجتماع الانعكاسي ، ترجمة عبد الجليل الكور ، ط ١ ، الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر، ص ٨٩ .

وبناءا على ذلك، تتحدد بنية المجال باعتبارها حالة لعلاقات القوة بين العناصر الفاعلة أو المؤسسات المشتركة في الصراع، والتي تعتمد على التوازن بين المواقع الاجتماعية داخل المجال وبين توزيع رأس المال النوعي، الذي يمثل أساس السلطة أو النفوذ النوعي المميز للمجال والذي تراكم في مجرى الصراعات السابقة، وأصبح يوجه الاستراتيجيات التالية. وهذه البنية نفسها مشاركة دائما في الصراع داخل المجال، مما يؤدي في النهاية إلى الحفاظ على بنية توزيع رأس المال النوعي أو تدميرها [1]. وهؤلاء الذين يحتكرون رأس المال النوعي داخل المجال، يميلون دائما إلى استراتيجيات المحافظة والدفاع عن الأوضاع داخل المجال، بينما يميل الأقل تزودا برأس المال إلى استراتيجيات التدمير أو التغيير أو الآراء المغايرة دائما.

والنظر إلى المجال باعتباره بنية معينة لتوزيع نوع خاص من رأس المال، يجعل هذا المجال يعمل باعتباره رقابة، لأن الذي يدخل في المجال يحتل على الفور موقعا داخل بنية معينة، هي بنية توزيع رأس المال، حيث يكون الفرد خاضعا لما تفرضه عليه هذه البنية، ولدرجة الثقة في الموقع الذي يشغله داخلها. وبواسطة ذلك نفسه يمارس المجال رقابة على كل ما يقال أو يمارس داخله[2].

وللمجالات درجة معينة من الاستقلالية بصفة عامة، فهي تعمل طبقا لمنطقها الداخلي الخاص والذي يبدو مستقلا عن المجالات الاجتماعية الأخرى، وعن الفضاء الاجتماعي الذي تنتمي إليه. ومع ذلك فهي لا يمكن أن تفهم بطريقة كاملة بدون الرجوع إلى تلك المجالات أو ذلك الفضاء. وكما تنشأ الفضاءات في ظل مواقع مسيطرة وأخرى تابعة، فإن ذلك يصدق تماما على المجالات[3]. ونتيجة لذلك وجد "بورديو" عند دراسته للتفاوت الاجتماعي بين الفاعلين داخل المجال أن بؤس الناس هو عبارة عن "بؤس الموقع" misery of Position" والذي ينشأ من موقعهم الاجتماعي داخل المجال، حيث تنشأ المعاناة بين الأفراد نتيجة لعدم ملاءمة هذا الموقع، سواء في

---

[1] بيير بورديو (١٩٩٧).مرجع سابق ، ص ١٣١ – ١٣٧ .

[2] بيير بورديو (١٩٩٧).مرجع سابق ، ص ص : ١٥٦ – ١٤٨ .

[3] Rosenlund , L . , Cultural Changes in Norwegian Urban Community, OP. Cit, P P. 215 – 216.

القطاعات الداخلية للمجالات العديدة في المجتمع، أو في الموقع غير المستقل في المجال[1].

ويتعامل منهج البنيوية التوليدية مع أي حقل أو مجال باعتباره نسقا خاضعا لقوانينه الخاصة به، والتي تتأكد بفعل الاستقلالية الناتجة تاريخيا في مجتمع معين. كما تنتج هذه الاستقلالية جزئيا من خلال ممارسات المثقفين الذين يكونون من خلال عملهم الإيديولوجي مجالا اقتصاديا منفصلا في مقابل المجالات الأخرى. وتؤدي الممارسات المختلفة إلى تحديد درجة استقلال المجال. وينشأ هذا الاستقلال النسبي من طموحات الفاعلين الذين يعتبرون برغم ذلك، جزءا من الظروف الموضوعية، ويكتسبون رأسمالهم الرمزي الذي يخفي علاقات القوة الفعلية، ويخفي هيمنة الجانب الاقتصادي. وهذا الرأسمال الرمزي يمكن الفاعلين من إدراك ما يحدث داخل المجال[2].

سابعاً- مفهوم رأس المال وأنواعه:

تهدف نظرية " بورديو" إلى تفسير دور الثقافة السائدة أو المسيطرة في مجتمع ما، في إعادة إنتاج أو ترسيخ بنية التفاوت الطبقي السائد في هذا المجتمع. ويستند بورديو في إثبات هذه المقولة وتحليلها إلى منهجه في البنيوية التوليدية، والذي يعتمد على عدة أدوات مفاهيمية في إدراكه وتحليله للواقع الاجتماعي. وأهم هذه المفاهيم هي: رأس المال، والهابيتوس، والمجال، وإعادة الإنتاج، والممارسة، والاستراتيجية، والقوة الرمزية، والعنف الرمزي، والطبقة، والترسيخ... الخ. وقد سبق تحليل بعض هذه المفاهيم في إطار استعراض منهج البحث في النظرية. ومن خلال هذه المفاهيم استطاع بورديو أن يقدم لنا جملة تفسيرات وتحليلات للعلاقة بين الثقافة والبنى الاجتماعية القائمة في المجتمع.

يعتمد "بورديو" في نظريته على مفهوم " رأس المال "، وهو مفهوم مستمد من الاقتصاد الكلاسيكي بمعنى ثروة متراكمة، وليس علاقة بين مالكي وسائل الإنتاج

(1) Hage , G . , Pierre Bourdieu in the Nineties: Between The Church and Atelier, Theory and Society, Vol. 23 , 1994 , P . 421 .

(2) Silber , I . F . , Space , Fields , Boundaries , OP . Cit , P . 346

وبائعي قوة العمل، كما تذهب الماركسية[1]. ولذلك يعتبر مفهوم رأس المال عند "بورديو" أوسع من فكرة رأس المال النقدي في الاقتصاد وعند ماركس. فرأس المال عند بورديو يشتمل على رأس المال النقدي، وغير النقدي، كما يشتمل على الأشكال الملموسة (المادية وغير الملموسة والمعنوية). وهو عند "بورديو" أساس تشكل الطبقات الاجتماعية من حيث السيطرة والخضوع للسيطرة. فالرأسمال هو كل طاقة اجتماعية تستعمل كوسيلة من وسائل المنافسة ولذلك يعتبر رأس المال هو أساس الهيمنة والصراع، رغم عدم إدراكه دائما من قبل أطراف هذا الصراع.

وإذا كان المجال يتضمن مجالات فرعية من القوى والصراعات حول الوضع والمكانة الاجتماعية والسلطة الشرعية، فإن منطق رأس المال هو الذي ينظم تلك الصراعات. ورغم ذلك فإن تعريف رأس المال لدى بورديو واسع جدا، ويشمل الأشياء المادية التي يمكن أن يكون لها قيمة رمزية، كما يشمل الأشياء غير الملموسة ذات المغزى الثقافي مثل الهيبة والمكانة، والسلطة، وهي تلك التي يمكن الإشارة إليها باعتبارها رأس مال رمزي. ويميز "بورديو" بين ثلاثة نماذج عامة لرأس المال والتي تفترض لكل منها مجالا ذا محتويات خاصة وهذه الأنواع من رأس المال هي : رأس المال الثقافي ورأس المال الاقتصادي ورأس المال الاجتماعي، بالإضافة إلى رأس المال الرمزي.

ويمكن لهذه الأنماط المختلفة من رأس المال أن تتحول إلى أشكال أخرى من رأس المال، ولكن التحول الأكثر قوة هو الذي يكون إلى رأس المال الرمزي، لأن هذا الشكل من رأس المال هو الذي يستوعب ويدعم سائر الأشكال الأخرى من رأس المال، بحيث تفهم جميعها باعتبارها أشكالا شرعية. وتعتمد درجة التحول والاستثمار في رأس المال على قوة الأفراد ومكانتهم الاجتماعية. وتعتمد هذه القوة والمكانة على ملكيتهم من الثروة وتنتج هذه الثورة من عدة مصادر، فهناك المصادر الاقتصادية المتمثلة في الدخل والملكية، وهناك المصادر المعرفية والثقافية (المعرفة بمعنى المنافسة والأهلية، والخبرة، والثقافة بمعنى التذوق الفني وامتلاك السلع الثقافية مثل الكتب)،

---

(1) Beasley – Murray , J . , Value and Capital in Bourdieu and Marx , (Paper Presented in Conference of: Fieldwork in Philosophy, Duke University Press, April 1995, P. 5.)

وكذلك هناك المصادر الاجتماعية مثل العلاقات داخل وخارج الأسرة، والعلاقات السياسية[1].

وبذلك تحدد مصادر رأس المال، بدرجة كبيرة، مستوى المكانة المرتبطة بنوعية الحياة، والوسائل اللازمة لإعادة إنتاج رأس المال. فقد حدد " بورديو" مثلا نمط حياة الطبقة العاملة بأنها تعتمد على مفاهيم مثل : الضرورة أو الحاجة، وهو ما يتناقض مع جوهر الثقافة، بمعنى أن أفراد الطبقة العاملة ليس لديهم الوقت الكافي للعمل على اكتساب الثقافة ورأس المال الثقافي. وفي مقابل ذلك تهتم البورجوازية الصغيرة بإضفاء الشرعية على ثقافتها بجانب محاولة زيادة رأسمالها الثقافي الذي تملكه. ويترتب على ذلك أن الجماعات المختلفة في المجتمع لا تختلف فقط في تملك وحيازة الأشكال المختلفة من رأس المال، ولكنها تختلف أيضا في القوة المحددة لما هو متاح من رأس المال، وما هو غير متاح منها.

١- رأس المال الثقافي *Cultural Capital* :

ينقسم رأس المال الثقافي إلى قسمين : رأس مال مكتسب على أساس المؤهل التعليمي وعدد سنوات الدراسة، ورأس مال ثقافي موروث من وضع العائلة وعلاقتها بالمجالات الثقافية المختلفة[2]. وهذا الرأسمال يحقق أرباحا مباشرة، في المحل الأول داخل السوق التعليمية المدرسية، ولكنه يحقق تلك الأرباح في أماكن أخرى كذلك مثل سوق العمل، كما يحقق أيضا مكاسب التميز، وهي مكاسب ناتجة بطريق تلقائية عن ندرتها، وتوزيعها على نحو غير متساو بين أفراد المجتمع.

وقد طور "بورديو" مفهوم رأس المال الثقافي ليوضح الاختلافات في التفضيلات التعليمية، والممارسات الثقافية، والتي لا تتضح من خلال التمايزات الاقتصادية. فالسلع الرمزية أو الثقافية تختلف عن السلع المادية في أن الفرد يستطيع استهلاكها فقط عن طريق توقع وفهم معناها. ولا يستطيع الأفراد ملاءمة هذه السلع وفهم معناها إلا إذا كانوا يمتلكون بالفعل الخطط الضرورية من التقدير والفهم. ولذلك يعبر مفهوم رأس

(١) Rupp, J.C. and Rob de Lange ., Social order , Cultural Capital and Citizenship , The Sociological Review , Vol. 37 , No. 4 , 1989 , P. 671 .

(٢) بيير بورديو (١٩٩٧). مرجع سابق ، ص ١٣ .

المال الثقافي عن توليف الاستعدادات الثقافية التي تكون مثل هذه الخطط. هذه الاستعدادات تتحدد في معنى مزدوج : في المعنى التقييمي، من حيث أنهم مثقفون، وفي المعنى الوصفي، من حيث أنهم ينتجون عملية التثقيف (بوعي أو بدون وعي) .

وتبدأ عملية التثقيف في التراكم خلال رأس المال الثقافي في الأسرة وتأخذ شكل الاستثمار في الوقت. هذا الاستثمار يعود بالفوائد في المدرسة والجامعة وفي العلاقات الاجتماعية، وفي أسواق العمل، وأسواق الزواج. ويكون الربح متوقفا على وجود ميكانزمات أو آليات الحفاظ على المداخل التي تنظم الدخول في المواقف المرغوبة بأي كيفية، من خلال الأخذ في الاعتبار الاستعدادات المتميزة، مثل الاهتمام بالأشياء غير الواضحة أو الملموسة في النمط أو الأسلوب، وتتمثل أحد هذه الآليات في الاختبارات الخاصة بالنظام التعليمي، حيث إن الأسلوب المستخدم في تقييم الطلاب لا يعتبر محايدا مع الأخذ في الاعتبار الأصول الاجتماعية للطلاب، حيث يؤكدون بدرجة كبيرة على اللغة والأسلوب، والذي يعتمد بدرجة كبيرة على رأس المال الثقافي، ومن ثم على الخلفية الأسرية[1].

كما يعبر مفهوم رأس المال الثقافي عن مجموعة من الرموز والمهارات Competences الثقافية واللغوية والمعاني التي تمثل الثقافة السائدة، والتي اختيرت لكونها جديرة بإعادة إنتاجها واستمرارها ونقلها خلال العملية التربوية. ويركز هذا المفهوم على أشكال المعرفة الثقافية والتنافس أو الاستعدادات والتي تعبر عن رموز داخلية مستدمجة، تعمل على إعداد الأفراد للتفاعل بإيجابية مع مواقف التنافس، وتفسير العلاقات والأحداث الثقافية [2]. كما يوجد رأس المال الثقافي في أشكال متنوعة، حيث يشمل الميول، والنزعات الراسخة، والعادات المكتسبة من عمليات التنشئة الاجتماعية، كما يتمثل إمبيريقيا في أشكال موضوعية مثل الكتب والأعمال الفنية والأدبية، والشهادات العلمية، وفي مجموعة الممارسات الثقافية مثل زيارة المتاحف، وارتياد المسارح، وحضور الندوات، وغير ذلك من ممارسات مختلفة في مجال الثقافة.

---

(1) Brubaker, R., Rethinking Classical Theory, OP. Cit, P. 757.

(2) Bourdieu, P., Distinction, OP. Cit, P. 256

ومن ثم ينتج رأس المال الثقافي ويوزع ويستهلك في مجال خاص به، هو مجال الثقافة، وهو مجال فكري متخصص له منطقه الخاص وعملياته المميزة، وله مؤسساته الخاصة، مثل النظم التعليمية، والجمعيات العلمية، والدوريات، وله هويته وإيديولوجيته في التبعية والاستقلال عن المجالات الاجتماعية، مثل الاقتصاد والسياسة. وهذا المجال الخاص بالثقافة يدخل في علاقة تناظر مع مجال الصراع الطبقي الدائر في المجتمع، ولذلك ينتظم هذا المجال حول تناقض بين ثقافة وإيديولوجية القوى المسيطرة في المجتمع الذي يسعى إلى تحقيق الثبات والتوازن فيه، وبين ثقافة وإيديولوجية القوى الأخرى في المجتمع، والتي تسعي إلى تحقيق التغير والتقدم. وتعتبر النظم التعليمية هي الأساس في الحفاظ على، أو تغيير بنية وتوزيع واستهلاك رأس المال الثقافي في المجتمع، ولذلك تعتبر هذه النظم التربوية البؤرة الحقيقية لكل صراع اجتماعي في كل مجتمع من المجتمعات المعاصرة[1].

وبذلك يمثل رأس المال الثقافي موضوع صراع بين القوى الاجتماعية المختلفة، بهدف السيطرة على إنتاج وتوزيع رأس المال الثقافي، وبهدف احتكار العنف الثقافي في المجتمع، أي احتكار القدرة على فرض معاني ومبادئ بناء الواقع الاجتماعي وفق مصالح هذه القوة الاجتماعية، واحتكار القدرة على إخفاء المصالح الاقتصادية، وتحويل ما تمتلكه من رأس مال مادي إلى رأس مال ثقافي[2]. ولذلك يستخدم " بورديو" رأس المال الثقافي كإطار منهجي لدراسة مختلف الظواهر الاجتماعية. حيث يلعب هذا النوع من رأس المال دورا هاما في تحديد الخريطة الاجتماعية في أي مجتمع، لأنه يقسم المجتمع إلى فقراء وأغنياء، ومسيطرين وتابعين، وحائزين ووارثين. ومن تقاطع محوري رأس المال الاقتصادي ورأس المال الثقافي في المجتمع، تتشكل المجالات الاجتماعية، ويتحدد موقع الفرد في هذا المجال هذا الموقع هو الذي يزود الفرد بمبادئ معرفية ينظر بها للواقع الاجتماعي، ويسميها " بورديو" " مبادئ النظر والتقسيم " إذ تساعد الفرد في رؤية الظواهر الاجتماعية ورسم الحدود فيما بينها[3].

---

[1] البيلاوي، حسن (١٩٨٤). التربية وبنية التفاوت الاجتماعي الطبقي : دراسة نقدية في فكر بيير بورديو ، دراسات تربوية ، ع ٣ ص ١٢٨

[2] مغيث، انور (١٩٩٦). مرجع سابق ، ص ١١٥ .

[3] بيير بورديو (١٩٩٦). أسباب عملية ، ترجمة أنور مغيث ، ط ١ ، ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ص ٢٥ .

٢- رأس المال الاقتصادي Economic Capital :

حاول " بورديو" إقامة علم اقتصاد ثقافي من خلال اعتماده على استعارات من مجال الاقتصاد، مثل إعادة الإنتاج، والإستراتيجية، والترسيخ، ورأس المال الاقتصادي[١]. ورغم ذلك، فإنه يوكل أمر رأس المال الاقتصادي إلى الاقتصاديين بحكم تخصصهم، ويركز بدلا من ذلك على ما تركه الآخرون، إما لأنهم لا يهتمون به، أو لأنهم لا يمتلكون الأدوات النظرية الملائمة له، أي رأس المال الثقافي ورأس المال الاجتماعي. ولذلك يعتمد " بورديو" على رأس المال الاقتصادي فقط في علاقته برأس المال الثقافي، باعتبار أن هذه العلاقة هي أساس بنية الطبقات الاجتماعية، والتي تتصارع وتتنافس على تحويل رأس المال الثقافي إلى رأس المال الاقتصادي، أو تحويل كلاهما إلى رأس مال رمزي.

ويركز " بورديو" حديثه عن رأس المال الاقتصادي باعتباره مرتبطا بدرجة كبيرة بقوة الدولة. والتي تعتمد على رأس مال القوة الفيزيقية، والتي تتمثل في قوي القهر، مثل البوليس والجيش. وتركيز رأس مال القوة الفيزيقية للدولة، يتطلب تأسيس النظام المادي المكافئ. ويحدث ذلك من خلال فرض الضرائب (رأس المال الاقتصادي)، والتي تصبح مع الوقت خالية تماما من خاصية القهر (رأس مال القوة الفيزيقية)، كما تكون خالية تماما من أي قيود أو حدود للشرعية. ولا يحدث تركيز للنوعين السابقين من رأس المال (الاقتصادي والفيزيقي)، بدون تركيز نوع آخر من رأس المال، وهو رأس المال الرمزي (الذي يعتبر رأس المال القانوني أحد أشكاله)، وهو يتمثل في بنية الهيئات المسئولة عن جمع الضرائب والوسائل الخاصة بالحكومة والإدارة، والتي تكفل من المقومات الرمزية ما تجعلها تقوم بدورها[٢].

كما أن تركيز رأس المال الاقتصادي بهذا الشكل، يكون متوازيا مع التركيز على رأس المال المعلوماتي (الذي يعتبر رأس المال الثقافي أحد أبعاده)، والذي يكون مرتبطا بذاته مع وحدة السوق الثقافية، ومن أمثلة ذلك المسوح والدراسات التي تقوم بها

---

(١) Silber, I. F., Space, Fields, Boundaries, OP. Cit, P. 350.

(٢) Bourdieu , P . , Rethinking the State: Genesis and Structure of bureaucratic Field, Sociological Theory, Vol. 12 , No . 1 , March 1994 , PP . 6 – 10 .

الهيئات التابعة للدولة، وكذلك إحصاءات السكان، وغيرها من الوسائل التي تضمن تراكم المعرفة والمعلومات الخاصة بالدولة[1].

٣- رأس المال الاجتماعي *Social Capital* :

يشير ذلك المفهوم إلى العلاقات الاجتماعية والخلفيات الاجتماعية الموجودة من قبل، والتي يمكن أن تستخدم للوصول إلى موقع متقدم في الفضاء الاجتماعي[2]. ولذلك تعتبر الأسرة هي الموقع الرئيسي لتراكم ونقل هذا النوع من رأس المال. ويتضح ذلك الشكل في مظاهر الحياة الاجتماعية الراقية، الخاصة بفئات معينة من الناس، والذين ترتكز السلطة والنفوذ لديهم على رأس المال الاجتماعي. ومثال ذلك، أن الأخبار الاجتماعية في الصحف، اللقاءات الاجتماعية بين الأسر في فئات معينة من الناس، تعتبر شكلا خاصا من العمل الاجتماعي الذي يفترض إنفاقا للنقود وللوقت، لضمان إعادة إنتاج رأس المال الاجتماعي.

ويشرح " بورديو" هذا المفهوم بفكرة بديهية، تتمثل في أن هذا النوع من رأس المال هو ما نطلق عليه " اللغة العادية ". فغالبا ما يحدث أن تدل اللغة العادية على وقائع اجتماعية شديدة الأهمية، ولكنها تخفيها بتأثير الألفة التي تدفع إلى الاعتقاد بأن الفرد يعرفها مسبقا وأنه أحاط بها. وهنا يتحدد دور العلم لكي يقوم بكشف ما تقوم اللغة العادية بإخفائه. وبناء هذا المفهوم يعتمد على إنتاج وسيلة لتحليل المنطق الذي يجري به تراكم هذا النوع من رأس المال، وتحويله إلى أنواع أخرى، وإعادة إنتاجه. ولذلك يعتبر هذا البناء وسيلة للإحاطة بكيفية تحول رأس المال الاجتماعي إلى رأس مال اقتصادي، وبالعكس للإحاطة بمقابل أي عمل وجهد يستطيع رأس المال الاقتصادي من خلاله أن يتحول إلى رأس مال اجتماعي[3].

---

[1] بيير بورديو (١٩٩٦). مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

[2] Rosenlund , L . , Cultural Changes in the Norwegian Urban Community , OP . Cit . P .

[3] بيير بورديو (١٩٩٧). مرجع سابق ، ص ٦٦ – ٦٧. راجع دراسة عربية متخصصة : أبو زاهر، نادية (٢٠١٠). محاولة لفهم إشكالية رأس المال الاجتماعي. مجلة علوم إنسانية، العدد ٤٦.

٤- رأس المال الرمزي *Symbolic Capital* :

هو الشكل الذي يتخذه أي نوع من رأس المال عندما يتم فهمه بطرق معينة. هذه الطرق تعتبر نتاجا لإدماج التقسيمات أو التعارضات الواضحة في بنية توزيع هذا النوع من رأس المال (قوي / ضعيف، كبير / صغير، غني / فقير، مثقف / أمي... الخ). هذه التقسيمات تعبر عن مجموعة معتقدات خاصة بالأفراد، تجعلهم يدركون ويقيمون خصائص معينيه وأنواعا معينة من السلوك سواء كانت شريفة أو مخلة بالشرف. فرأس المال الرمزي مثل أي ملكية، أو أي نوع من رأس المال، تكون مدركة من قبل فاعلين اجتماعيين تسمح لهم مقولات إدراكهم بمعرفتها وإدراكها والإقرار بها وإضفاء قيمة عليها[١]. ويترتب على ذلك أن الدولة التي تمتلك وسائل فرض وترسيخ المبادئ المستديمة للرؤية وللتقسيم الموافقة لبنياتها الخاصة، يكون لها المكانة الخاصة بتركيز وممارسة السلطة الرمزية .

ويرتبط هذا المفهوم بمبدأي السلطة والتمايز. حيث تتميز العلاقات الاجتماعية في أي مجتمع بأنها تشمل بني مختلفة قائمة على التمايز والاختلاف. وتقوم هذه التمايزات على أساس الفروق في الخصائص والسلطة. وتكون السلطة لمن يملك مزايا أكثر وأهم. ولذلك فإن مبد أي التمايز والسلطة مرتبطان بميزان معين للقوي بين الفئات الاجتماعية فالطرف الذي يملك السلطة يكون مهيمنا، والطرف المجرد منها يكون تابعا. ووفق هذا الفهم، يعني رأس المال الرمزي القبول أو الاعتراف أو الاعتقاد بقوة وبسلطة من يملك مزايا أكثر. ومثال ذلك احتكار الدولة لاستخدام القوة أو القهر والقمع مثل الجيش والبوليس، من أجل الحفاظ على أمن الفئات الاجتماعية، ولا يحق لأي فئة اجتماعية منافسة الدولة في ذلك[٢]. ويعترف الناس على اختلاف فئاتهم الاجتماعية بشرعية القوانين التي تطبقها الدولة. وينطبق ذلك أيضا على رأس المال الاقتصادي الخاص بالدولة، من حيث أنها تمتلك وحدها حق فرض الضرائب والرسوم. هذا الحق الذي يعترف به الناس جميعا.

وتختلف درجة تمركز رأس المال الرمزي في المجتمع تبعا لدرجة الاعتراف أو

---

(١) بيير بورديو (١٩٩٦). مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

(٢) بيير بورديو (١٩٩٠). مرجع سابق ، ص ٧٨ .

القبول أو الاعتقاد في السلطة. فمن خلال عملية التمركز هذه تتأكد خصائص الهيمنة والسيطرة، التي تعكس اختلافا في المواقع وفي موازين القوي أو درجات الصراع. وبذلك فإن رأس المال الرمزي يدخل في مختلف الحقول والمجالات، وفي مختلف أشكال السلطة والهيمنة، أو في مختلف أشكال العلاقات الاجتماعية. فأي علاقة اجتماعية هي علاقة سلطة وتحتوي على رأس المال رمزي وعلي معان متجددة. فخاصية الشرف مثلا تحمل معاني أخلاقية محددة، بحيث أن من يملك خصائص الشرف، مثل القيم والمعتقدات والتصرفات، يعتبر شريفا، ومن لا يملك هذه الخصائص يعتبر غير شريف. ويكون الشخص الشريف موضع احترام وثقة وتقدير تبعا لما يملكه من رأس مال رمزي[1]. ومن ثم، يرتبط رأس المال الرمزي بأهمية الموقع الذي يشغله الفرد، أو بالقيمة التي يضفيها الناس عليه. وهذه القيمة تتعلق بأنظمة الاستعدادات والتصورات للأشخاص المتوافقة مع البني الموضوعية القائمة.

وهذه السلطة المرتبطة برأس المال الرمزي تسمي " سلطة رمزية " وهي سلطة لامرئية ولا يمكن أن تمارس إلا بتفاعل وتأييد أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها ويمارسونها. والسلطة الرمزية هي سلطة بناء الواقع، وهي تسعي لإقامة نظام معرفي، يعمل على تماسك العالم الاجتماعي والحفاظ عليه. فهو ذلك المفهوم الذي يسمح للعقول بأن تتفاهم فيما بينها. كما أن هذه الرموز تمثل أدوات للتضامن الاجتماعي، فهي تخول الإجماع بصدد معني العالم الاجتماعي، ذلك الإجماع الذي يساهم أساسا في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي[2]. وبذلك فإن رأس المال الرمزي ليس إلا طريقة للدلالة على ما أسماه "فيبر" "الكاريزما". حيث إن كلا منهما يمثل شكلا خاصا من أشكال السلطة وليس بعدا من أبعادها، وذلك نتيجة للاعتراف والتجاهل والاعتقاد، والذي يعطي للأشخاص الذين يمارسون السلطة نوعا من الشرف والمجد.

وقد طور " بورديو" مفهوم رأس المال الرمزي باعتباره يمثل شكلا خاصا من رأس المال الاقتصادي. ففي حين ركزت الماركسية على أهمية العوامل الاقتصادية

---

(1) Bourdieu , P . , The Logic of Practice , OP . Cit , PP . 118 – 121.

(2) بيير بورديو (١٩٩٠). مرجع سابق ، ص ٥٢ – ٥٤ .

باعتبارها محددات للممارسات الاجتماعية، حاول بورديو توضيح دور البعد الرمزي في فهم وإدراك السلوك الإنساني وخاصة في دراساته في شمال إفريقيا حيث يكون البعد الرمزي أكثر أهمية. ويقترح بورديو أنه لا يوجد شئ ليس له بعد رمزي، ولو جزئيا على الأقل. ففي فضاء عالم المال نفسه (رأس المال الاقتصادي) تتحدد قيمة أي مصنع أو شركة طبقا لأصولها، أي طبقا للاختلافات التي تميزها عن الآخرين، وهذه الأصول المختلفة والمميزة تعبر عن رأسمالها الرمزي. ويظهر هذا البعد الرمزي بقوة في الصراع بين الشركات التي تعمل في نفس المجال، فالشركة يلزم أن تكون معروفة، وأن تبرز تمايزها بوضوح. ولذلك يلخص بورديو فكرته الرئيسية في أنه لا ينكر أهمية العوامل الاقتصادية، والتي يمكن تقديرها بوضوح، بحيث لا تضر بالعوامل الرمزية[1].

ثامناً- مفهوم الهابيتوس (الطبيعة المتشكلة اجتماعياً) *Habitus*:

ترجمه بعض المؤلفات بـ (الآبيتوس). ويكاد في الواقع أن يشكل جوهر نظرية "بورديو" في البنيوية، وهو أداة منهجية اختباريه يستطيع حتى الفرد المتخصص أن يسقطه على نفسه ليتعرف على مكانته الطبقية والاجتماعية بشكل عام. كما يمكن الفرد من قراءة المجتمع وتكويناته الطبقية بسلاسة ومتعة لا يعكر صفوها إلا شعور الفرد حقيقة وواقعا بالمدى الحيوي الذي ينتمي إليه.

يعرف "بورديو" الهابتوس بأنه: " نسق الاستعدادات المكتسبة وتصورات الإدراك والتقويم والفعل التي طبعها المحيط في لحظة محددة وموقع خاص ".

الهابتوس من المفاهيم الأساسية في العمل النظري عند "بورديو". ويتحدد باعتباره نسق الاستعدادات الدائمة والقابلة للنقل التي يكتسبها الفاعل الاجتماعي من خلال وجوده في حقل اجتماعي بالعالم الاجتماعي حيث يعيش. ويترجم هذا المصطلح في العربية بلفظ التطبع أو السجية أو السِّمْت. ولعل اللفظ الأخير أقرب لأداء المعنى المطلوب، من حيث إنه يدل أصلًا على الهيئة/الْحال. ويلعب هذا المفهوم دورا مركزيا في عمل بورديو النظري، إلى جانب مفهوم الحقل والعنف الرمزي. فالفاعل الاجتماعي

---

(1) Bourdieu , P . , Intellectuals and the Internalization of Ideas: An Interview with M Hammed Sabour, International Journal of Contemporary Sociology, Vol. 33 , No 2 , 1996 , P . 242 .

يكتسب، بشكل غير واع، مجموعة من الاستعدادات من خلال انغماسه في محيطه الاجتماعي تمكّنه من أن يكيف عمله مع ضرورات المعيش اليومي (مثلا، يطور الفلاح عادات ذهنية وسلوكية معينة يطبقها على كل المشاكل التي يواجهها في وسطه). ويختلف الهابتوس باختلاف الحقول التي هو طرف فيها وباختلاف الموقع اللذي يحتله الفاعل الاجتماعي في مجاله الخاص.

يوضح مفهوم الهابيتوس وجهة النظر البنيوية عند "بورديو"، فقد استخدم بورديو هذا المفهوم لنقد البنيوية وتكملة المفاهيم الخاصة بها، بهدف تصحيح الخصائص أحادية الجانب في النظرية الاجتماعية. فكما تميل الاتجاهات المختلفة في الفكر الماركسي إلى إضفاء الصفة المادية على الأشياء المجردة مثل أنماط ووسائل الإنتاج، فإن الفكر البنيوي يميل إلى إضفاء الصفة المادية على التصورات الخاصة بالبني المولدة ولمعالجتها على أساس أن الفاعلين مسئولون عن الأحداث التاريخية، أو باعتبار القوة قادرة على تقييد العقل. ومن ثم فإن هذا المفهوم يفسر محاولة بورديو لتجسيد العلاقة بين البنى الذاتية والبني الموضوعية.

وفكرة الهابيتوس ليست مرتبطة بتصورات الأفراد وخصائصهم أو اتجاهاتهم الشخصية فقط، ولكنها مرتبطة بالاستعدادات الجمعية، مثل أنماط التفكير والإدراك والتقدير والممارسة وهذه الاستعدادات الجمعية تحدد إمكانية الطرق الموضوعية في إدراك الواقع الاجتماعي. فالهابيتوس من جهة يعتبر نتاج ظروفه الاجتماعية الخاصة (البني المحددة)، والوظائف باعتبارها قواعد مولدة للممارسات (بني محددة). ولذلك يؤثر الهابيتوس في الأفعال اليومية – مثل التذوق، والملابس، والأثاث، والفن، وعادات الاستهلاك، وأنشطة وقت الفراغ – لأنه يعتبر نتاج ظروفه الموضوعية نفسها، ولكن ليس من الضروري أن يرتبط بالوعي الطبقي[1].

وبذلك يستعمل الهابيتوس في الدلالة على مجموع الاستعدادات الجسدية والذهنية الدائمة التي تترتب على عملية التنشئة الاجتماعية للفرد، والتي تجعل منه فاعلا اجتماعيا Social agent في إطار حقل أو مجال اجتماعي معين. وتعمل هذه

Bourdieu , P. , Distinction , OP . Cit , P . 176 .[1]

الاستعدادات باعتبارها نظاما للخطط المولدة، فهي مولدة لاستراتيجيات تستطيع أن تكون مطابقة على نحو موضوعي لمصالح موضوعية لمؤلفيها، دون أن تدرك صراحة باعتبارها تستهدف تلك الغاية وتتشكل هذه الاستعدادات من خلال تصور فئة معينة من الأفراد، وتشربهم لنمط معين من أنماط الوجود. ولذلك يتوسط مفهوم الهابيتوس بين البنيات الموضوعية والممارسات، لأن وظيفته هي أن يتجاوز التعارض بين الوعي اللاوعي، وبين النزعة الآلية والنزعة الغائية. بحيث يمكن القول بأن الواقع الاجتماعي يوجد مرتين : في الأشياء وفي الأذهان، في الحقول وفي الهابيتوس، خارج الفاعلين وداخلهم[1]. ونتيجة لذلك يعبر الهابيتوس عن مواقف يتم فيها استدماج الواقع الخارجي بالنسبة للفرد، والتجسيد الخارجي لذاتية ذلك الفرد.

والهابيتوس هو نتاج التاريخ، فهو يقوم بتوليد ممارسات فردية وجماعية مطابقة للخطط المتولدة من خلال التاريخ، وهذا المفهوم يؤكد الحضور النشيط لخبرة الماضي المترسبة في كل فرد في شكل خطط من الإدراك والتفكير والممارسة، والتي تؤدي إلى ضمان صحة الممارسات وثباتها دائما، وجعلها أكثر ثقة من كل القواعد الرسمية، والأعراف الصحيحة[2]. ولذلك يفترض هذا المفهوم أننا كأعضاء في مجتمع، نحمل تاريخنا الشخصي وتاريخ الطبقة التي ننتمي إليها – وهو التاريخ المشترك مع الأعضاء الآخرين في الطبقة – في شكل راسخ في أجسامنا، وفي عقولنا. ومن ثم يمثل الهابيتوس بنية عقلية، تتشكل وتبنى بطريقة خاصة من خلال خبراتنا.

كما يمثل الهابيتوس مخططات تصنيفية، ومبادئ للرؤية والتقسيم وللأذواق. وهذه المبادئ ناتجة عند اندماج بنية الفروق الموضوعية لدي الأفراد، ولذلك فإن هذه المبادئ والمخططات تتسم بالاختلاف، وهي تميز بين ما هو حسن وما هو سيئ، و بين ما هو متميز وما هو مبتذل... الخ[3]. ويختلف الهابيتوس تبعا للأوضاع المختلفة التي تنتجه. وإلى جانب كونه مميز ومتميز، فهو يعد في ذاته معاملا للتمييز، حيث يقوم بتوظيف مبادئ مختلفة للتميز بين الأفراد أو يستخدم مبادئ التمييز بطرق مختلفة. ونتيجة

---

(1) بورديو وفاكونت (١٩٩٧). مرجع سابق ، ص ص : ٨٥ – ٨٧ .

(2) Bourdieu, P., Outline of A theory of Practice, OP. Cit, P. 78.

(3) بيير بورديو (١٩٩٦). مرجع سابق ، ص ٣١ .

لذلك سهلت فكرة الهابيتوس فهم وإدراك الازدواجية التي تظهر في مواقف الأزمات، بين ممارسات الفاعلين والبني الموضوعية التي يمكن أن تتمثل في سوق العمل وسوق الزواج[١].

وقد استخدمت مقولة الهابيتوس قبل " بورديو" من قبل مؤلفين مختلفين مثل : هيجل هوسرل، فيبر، ودوركايم، وموس، والذين استخدموها جميعا بطريقة منهجية بدرجة أو بأخرى، ولكن لتحقيق نفس الهدف النظري. ولكن "بورديو" حاول أن يميز مفهومه *Habitus* فقسمه إلى أبعاد تشمل : الروح *ethos* والمثال *eidos*، والتعود *Hexis*، على أساس أن قوة الروح تتمثل في أنها تتحول إلى أخلاق، ثم إلى استعداد وتعود وحركة واتخاذ وضع. وبناءا على ذلك، فإن الهابيتوس هو ما يكتسبه الفرد، ولكن ما يتجسد على نحو دائم داخل الجسم في هيئة استعدادات دائمة[٢].

ويرتبط الهابيتوس برأس المال، حيث إن بعض الهابيتوس (الخاص بالشرائح الثقافية والاجتماعية المهيمنة) يتفاعل كطرف مكمل مع أنواع مختلفة من رأس المال، ليشكل في الواقع شكلا من رأس المال الرمزي في أنفسهم.ويمكن التعبير عن ذلك بالصيغة الآتية :

هابيتوس + رأس مال ثقافي واجتماعي = رأس مال رمزي (للطبقات المهيمنة فقط)[٣].

وفي نفس الوقت يختلف رأس المال الثقافي عن الهابيتوس في أن الثقافة خالية من الاهتمام الذاتي، بينما الهابيتوس يمثل نظرية بورديو لإضفاء الصفة الذاتية. والثقافة تمثل مزيجا مناسبا من تلك الصفات الذاتية، ومعني ذلك أن رأس المال الثقافي يتكون من مجموعة من الهابيتوس المتشابهة التي تحقق نفس الهدف[٤].

---

(١) Pinto, L., The Theory of Fields and the Sociology of Literature: Reflections on the Work of Pierre Bourdieu, International Journal of Contemporary Sociology, Vol. 33, No. 2, 1996, P. 173.

(٢) بيير بورديو (١٩٩٧). مرجع سابق ، ص ١٥٠ – ١٥١ .

(٣) Harker , R., et. al. ,An Introduction to the work of Pierre Bourdieu , Op. Cit. , P. 12

(٤) Berger , B . , Taste and Domination, OP. Cit, P. 1449.

ورغم ذلك، فإن هناك اختلافا موضوعيا بين الهابيتوس الجماعي والهابيتوس الفردي وهو اختلاف خاص بكل موقف. إذ لا يمكن أن يكون لكل الأعضاء المنتمين إلى الفئة الواحدة التجربة نفسها، أو أن يكونوا عاشوا التجربة وخبروها بالطريقة والترتيب نفسها. ومع ذلك فإنه يمكن للأعضاء المنتمين إلى الفئة الواحدة أن يعيشوا تجارب متماثلة وأن يواجهوا مواقف متشابهة. ويكون التعبير عن الخصوصية داخل الفئة وفي إطار مسارها. وتتخذ هذه الخصوصية سماتها من المحددات التاريخية والشروط المادية والثقافية. ولهذا السبب، فإن تلك المحددات تشكل خصوصيات المسارات الاجتماعية التي ترسم بدورها الفروق بين الهابيتوس الخاص بمجموعة من الأفراد[1].

ومهما كانت تفسيرات الهابيتوس، فإن المفهوم السوسيولوجي الذي أعطاه إياه "بورديو" وتطبيقاته له، لم يحظ بالقبول العام عند الباحثين، وذلك لغموض معناه. فقد أكدت بارادايز *Paradise* أن الهابيتوس اتسم في كتابات بورديو الأولي برؤية حتمية من خلال اتسامه بنوع من عدم قابلية التراجع فيه. ومع هذا لاحظت بارادايز أن بورديو أدخل في كتاباته الأخيرة، جانب الابتكار على الهابيتوس مما غير من مساره[2].

وبناء على ذلك، فإن الهابيتوس هو بناء وسيط، وليس بناءا محددا لتلك الممارسات أو الظروف. ويستندون في تأييد موقفهم إلى تحديد " بورديو" لاثنين من مصادر القيود على الفاعلين. يتمثل المصدر الأول في الهابيتوس الخاص بالتنشئة الاجتماعية للفاعلين، والذي يعتبر بدوره نتاج دائرة إعادة الإنتاج السابق، حيث يميل الطفل لرؤية العالم بنفس الطريقة التي ينظر بها الجيل السابق له. رغم ذلك، ففي موقف التغير السريع نسبيا، فإن الظروف الموضوعية للبنية الاجتماعية والمادية سوف لا تكون هي نفسها عند الجيل الجديد. ويؤدي ذلك إلى المصدر الثاني للقيود وهو الهابيتوس في كل جيل : فهذه الظروف الموضوعية أيضا ترسخ على نحو ثابت استعدادات، تولد بدورها كلا من الطموحات والممارسات في ارتباطها مع الظروف الموضوعية. ويتغير الهابيتوس مع كل تعاقب أو تكرار في الاتجاه الذي يحاول التوافق مع الظروف المادية،

---

[1] صبور، محمد (١٩٩٢). المعرفة والسلطة في المجتمع العربي : الأكاديميون العرب والسلطة ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص ٣٥ .

[2] صبور، محمد (١٩٩٢). مرجع سابق، ص ٣٨-٣٩.

وهذا التوافق يعتمد بشكل حتمي على تصور للظروف الموضوعية المتوالدة من خلال الهابيتوس[1].

هو إذاً موجه لسلوكيات الفرد اعتمادا على مرجعية معينة تقع في البنية الذهنية وبالتحديد فيما يسمى بعلم النفس بالأنا الأعلى، أي الذي يتحكم بإجمالي الممارسات والسلوكيات الناتجة عن الفرد بشكل لا شعوري. لذا يعتبر الهابيتوس من جانب آخر منتج الممارسات وأصل الإدراكات وعمليات التقويم والأعمال أو مجموعة القواعد المولدة للممارسات. أما موقعه فهو يتوسط بين العلاقات الموضوعية والسلوكيات الفردية، وهو في آن معا ناتج عن استبطان الشروط الموضوعية مثلما هو الشرط اللازم للممارسات الفردية. ولأنه كذلك وكل ذلك فهو يضفي الشرعية على الترتيبات (الصراع الطبقي) والتمايز(العنف الرمزي والثقافي) دون حدوث أي صدام ظاهري بين الطبقات[2].

٤-الانعكاسية:

ظل "بورديو" يؤكد أن مكتسبات البحث العلمي يجب أن تسلط على تحليل شروط اشتغال الباحث نفسه بما هو ذات منتجة للمعرفة، أي لا بد من ممارسة تفكير انعكاسي على ضوء نتائج العلم، خصوصا العلم الاجتماعي. ومن هنا تأتي ضرورة أن يقوم الباحث الاجتماعي بتحليل عمله وخطابه ونشاطه تحليلا انعكاسيًا (ذاتيًا). ولعل أبرز تطبيق لهذا يوجد في كتاب الإنسان الأكاديمي الذي تناول فيه "بورديو" مجموع الشروط التي تحدد بروز واشتغال المتخصص كأستاذ جامعي أو مثقف أكاديمي. وتتمثل أهمية الانعكاسية في كونها تجعل الباحث يستعمل الاكتشافات المترتبة على ممارسته العلمية ليغربل دوره وليكشف العوامل الناتجة عن تاريخه الشخصي التي تشرط حاله كذات مفكرة والتي تؤثر على ممارسته العلمية وتشوش رؤيته للمجتمع بدون وعي في غالب الأحيان. ولذا يعد التحليل الانعكاسي شرطًا لا غنى عنه لكل ممارسة علمية حقيقية.

---

(1) Harker , R . , et.al . , An Introduction to the Work of Pierre Bourdieu , OP . Cit , PP . 11 – 12.

(2) ترجمة نظير جاهل."Pierre Bourdieu (1994). violence symbolique La

تاسعاً: الصراع الطبقي:

تمثل الطبقة مفهوما أساسيا في تصور بورديو للظروف الموضوعية، ولكن تحليله لها لا يعتمد على المعايير الاقتصادية الموضوعية أو السياسية وحدها، ولكن على مجموعة واسعة المدى من الممارسات الطبقية التي تشمل : تذوق الطعام، الملابس، هيئة الجسم، أنماط المعيشة، وأشكال الاختيار الاجتماعي في الحياة اليومية، فضلا عن الأنماط الشائعة من الاقتصاد والسياسة، وإذا كان " بورديو" قد استخدم منهج البنيوية التوليدية لإدراك الفضاء الاجتماعي باعتباره سلسلة من المجالات، حيث يوجد رأس المال، الذي يتصارع عليه الفاعلون، فإنه طبقا لهذا المنهج تتكون الطبقة من هؤلاء الناس الذين يتجاورون في فضاءات اجتماعية[1].

وقد حلل " بورديو" الطبقات الاجتماعية انطلاقا من فكرة محورية، وهي أن نظرية المعرفة والنظرية السياسية لا يمكن الفصل بينهما، فكل نظرية سياسية تتضمن في حالة مضمرة على الأقل – نظرية عن إدراك العالم الاجتماعي، كما أن نظريات إدراك العالم الاجتماعي تنتظم تبعا لتقابلات شديدة التماثل مع تلك التي نجدها في نظرية إدراك العالم الطبيعي وفي تلك الحالة يكون هناك تعارض تقليدي بين نظرية تجريبية إمبيريقية، تذهب إلى أن الإدراك يستعير من الواقع هياكله، ونظرية عقلية تذهب إلى أنه لا وجود للموضوعات المدركة إلا بفعل من أفعال الصياغة العقلية.

وينطبق نفس هذا النمط من التقابلات فيما يتعلق بمشكلة الطبقات الاجتماعية باعتبارها مشكلة تتعلق بإدراك العالم الاجتماعي. فعند بعض الناس توجد الطبقات الاجتماعية في الواقع ولا يقوم العالم إلا بتسجيلها وتقرير وجودها. وعند آخرين ليست الطبقات والانقسامات الاجتماعية إلا إنشاءات أو صياغات عقلية من صنع العلماء والعناصر الاجتماعية الفاعلة. وأولئك الذين يريدون نفي وجود الطبقات الاجتماعية يرون أنها نتاج الإنشاء العقلي السوسيولوجي، وفي رأيهم أنه لا توجد الطبقات الاجتماعية إلا لأن هناك علماء يقومون بتشييدها عقليا[2].

---

(1) Wilkes , C . , Birdie' s Class, in: " An Introduction to the Work of Pierre Bourdieu, OP. Cit, PP. 109 – 111.

(2) بيير بورديو (١٩٩٧). مرجع سابق ، ص ١٠٣.

ومن وجهة نظر "بورديو" لا يمكن تحديد الطبقة إلا من خلال الممارسة، ومن خلال مجموعة التأثيرات المحددة لها، والتي تتطلب تحليل الجوانب الخفية في أنماط حياة الأفراد، والطبقات الاجتماعية التي ينتمون لها. ولذلك تشمل الطبقة مجموعة الفاعلين الذين يحتلون مواقع متجانسة، ويعيشون في ظروف متشابهة، ولهم شروط وجود متجانسة، والتي يترتب عليها نظم متجانسة من الاستعدادات القادرة على توليد ممارسات متشابهة، ومن خلال مجموعة من الفاعلين الذين يملكون مجموعة من الخصائص العامة، والخصائص الموضوعية ذات الطابع القانوني (مثل امتلاك السلع أو القوة المادية والرمزية)، أو الخصائص الراسخة باعتبارها هابيتوس خاص بالطبقة. ومن ثم، فإن تحديد الطبقة الاجتماعية موضوعيا، يتطلب تحديد الاختلافات بين الفاعلين، بالإضافة إلى الطبيعة المنظمة لنمط الحياة التي تميز كل مجموعة من المجموعات الاجتماعية[١].

وطبقا لذلك، فإن الطبقة توجد مرتين : توجد أولا في التوزيع الموضوعي للقوي المادية وثانيا في التصورات الرمزية للتوزيع الموضوعي، والتي تظهر في شكل شروط اجتماعية أو تصنيفات عقلية، وتبعا لهذا المنطق، فإن محاولة " بورديو" لبناء طبقة اجتماعية يتكون من خطوتين تحليليتين : أولا، يدرك العالم الاجتماعي باعتباره نوعا من الطبولوجيا الاجتماعية، وباعتباره فضاء متعدد الأبعاد من المواقع الاجتماعية التي تعتمد على مبادئ معينة في اختلافها وتوزيعها. ويتشكل الفضاء الخاص بالمواقع الاجتماعية من خلال بنية وتوزيع الأشكال المختلفة من رأس المال. وثانيا، يشير بورديو إلى " فضاء أنماط الحياة " *Spaces of Lifestyles*، التي تتضح من خلال عادات الاستهلاك الثقافي، وأشكال التعبير الرمزي في الحياة اليومية[٢].

ولذلك يرفض "بورديو" القول بأن الاختلافات والفروق بين الأفراد لا توجد إلا لكونهم يعتقدون بوجودها، ولكنه يتبل في نفس الوقت أن الفروق الموضوعية في الثروات المادية وما تدره من عوائد تتحول إلى امتيازات معترف بها في التصورات التي

---

(١) Bourdieu , P. , Distinction , OP . Cit , PP . 100 – 101 .

(٢) Koch , M . , Class and Taste: Bourdieu' s Contribution to the analysis of Social Structure and Social Space, International Journal of Contemporary Sociology, Vol. 33 No . 2 , 1996 , PP . !89 – 190 .

تكون لدي الأفراد. وكل اختلاف وفرق معترف به، يعمل بفعل ذلك كرأسمال رمزي. وهذا الرأسمال الرمزي لا وجود له إلا في العلاقة بين ملكيات متميزة ومميزه مثل الجسد واللغة والملبس وأثاث المنزل... الخ، وبين أفراد وجماعات لديها من الإدراك والتقدير والاستعدادات ما يمكنها من الاعتراف بتلك الممتلكات والتعرف عليها، وجعلها أساليب معبرة، وأوضاع محددة داخل علاقات القوة[1].

ومعني ذلك أن الوضعية الطبقية (الموقع داخل علاقات الإنتاج)، أو بعبارة أدق القدرة على الامتلاك المادي لوسائل الإنتاج المادي (الرأسمال الاقتصادي)، والقدرة على الامتلاك الرمزي لهذه الوسائل (الرأسمال الثقافي)، إن هذه الوضعية تتحكم، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في التصورات التي تكون لدي كل عضو عن مكانته والاستراتيجيات التي يعرض من خلالها المكانة التي يحتلها. فالتصور الذي يكون لدي الأفراد عن وضعهم في الفضاء الاجتماعي، يتولد عن منظومة من الإدراك والتقدير، التي تتولد بدورها عن وضعية معينة، تحددها المكانة في توزيع الخبرات المادية والرأسمال الرمزي، والتي تدخل في اعتبارها التصورات التي تكون لدى الآخرين عن هذه الوضعية[2].

ويتطلب فهم الفضاء الاجتماعي للطبقة بهذا الشكل إهمال التصورات الماركسية والفينومينولوجية لها، واللجوء إلى الشكل الجديد من المنهج السوسيولوجي الذي صاغه بوردو، وهو البنيوية التوليدية. وبذلك يهدف بورديو من تحديده لبنية الطبقة، إلى تطويره لفكرة "ماركس" الخاصة برأس المال، عندما يدعي أن رأس المال الاقتصادي قد أصبح مختلفا وله مؤشرات خاصة، بحيث لا يمكن أن يفهم من خلال ملكية وسائل الإنتاج فقط، ولكنه يركز بدلا من ذلك على المواقع والأدوار الاجتماعية، وخاصة بالنظر إلى توزيع الدخل والمكانة، والمميزات الاجتماعية والقوة[3].

هذه الأدوار والمواقع تتأثر من خلال التمايزات الناتجة من الأصول الاجتماعية

---

[1] بير بورديو (١٩٩٠). الرمز والسلطة ، ترجمة عبد السلام بنعيد العالي ، الدار البيضاء ، دار توبقال للنشر ، ص ٧٤ – ٧٦ .

[2] Bourdieu , P . , The Social Space and Genesis of groups OP . Cit , PP . 730 – 731

[3] Koch , M . , Class and Taste, OP. Cit, P. 192.

ومجرى الحياة الاجتماعية، مثل التنشئة الاجتماعية في أسرهم وفي نظم تعليمية مختلفة. فعندما يشغل أحد الأفراد موقعا في البناء المهني مثلا، فإن الناس يفترضون وجود تفاوت اجتماعي في المجتمع. وتقدم المؤشرات السابقة نمطا غير اقتصاديا من المصادر الخاصة بالتفاوت وهي المصادر الثقافية والاجتماعية – رأس المال الثقافي سواء في شكله الموضوعي أو المؤسسي أو الذاتي – التي يمكن أن تفيد في استقرار وتطوير مكانة الفرد.

ورغم ذلك، يقسم "بورديو" الطبقة المسيطرة نفسها إلى مجموعتين متمايزتين، تبعا للوزن النسبي في ميراثهم لرأس المال الاقتصادي والثقافي. تركز المجموعة الأولي على إعادة الإنتاج المادي من خلال ممارسة القوة الرمزية. فالطبقة السائدة هي التي تملك كما كبيرا من رأس المال الثقافي ورأس المال الاقتصادي، أما الطبقة المغلوبة فهي تلك التي تملك كما قليلا من كلا النوعين من رأس المال. والاختلاف الأساسي الذي يضفي الشرعية على الثقافة السائدة والممارسات الثقافية يتمثل في الثقافة باعتبارها تختلف عن الخبرات والممارسات الخاصة بالطبقات المغلوبة وعن كل ما هو عام ومبتذل وشعبي [1]. ولذلك تلجأ الطبقات المغلوبة إلى رفض الثقافة السائدة، سواء بطريقة صريحة أو ضمنية. وقد أطلق " بورديو"علي تلك العملية مصطلح " العنصرية الطبقية " والتي تزيد من التفاوت بين الطبقات بالاعتماد على عناصر ثقافية متمثلة في الممارسات المختلفة لكل منها [2].

ولذلك تدخل مختلف الطبقات الاجتماعية، والفئات التي تتفرع عنها، في صراع رمزي للعمل على فرض تصورها عن العالم الاجتماعي، والذي يكون أكثر ملائمة لمصالحها، في حين أن مجال اتخاذ المواقف الإيديولوجية يقوم بإعادة إنتاج مجال الأوضاع الاجتماعية وإعطائه شكلا مغايرا. وباستطاعتها أن تدخل في ذلك الصراع، سواء بطريقة مباشرة من خلال النزاعات الرمزية التي تعرفها الحياة الرمزية، أو بالتفويض عبر الصراع الذي يحدث بين المختصين بالإنتاج الرمزي، والذي يدور حول احتكار العنف الرمزي المشروع، أي احتكار سلطة سن أدوات معينة لمعرفة الواقع

(١) Garnham , N . , Bourdieu' s Distinction, The Sociological Review, vol. 34 , No . 2 May 1986 , 428 – 429 .

(٢) Berger , B . M . , Taste and Domination: Review Essay for Distinction, American Journal of Sociology, Vol. 91 , No . 6 , May 1986 , P . 1448

الاجتماعي والتعبير عنه، حيث يشكل مجال الإنتاج الرمزي عالما مصغرا للصراع الرمزي الذي يدور بين الطبقات[1].

وخلاصة ذلك، أن إدراك الطبقات الاجتماعية، طبقا " لبورديو"، ينتظم تبعا للتقابل بين النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية فالنزعة الموضوعية تدرك العالم الاجتماعي بوصفة كونا من الانتظامات الموضوعية المستقلة عن الذوات الفاعلة ومبنية من وجهة نظر باحث محايد غير متحيز. أما النزعة الذاتية فترى أن العالم الاجتماعي نتاجا لأفعال فردية. وبدلا من أن يمتلك الناس ضروبا من السلوك التي تراعي فروض الاحترام لأن هناك نظم للتدرج الاجتماعي، تسهم أفعال الاحترام والتبجيل الفردية في دعم التدرج[2].

كيف يقع الصراع الطبقي؟ وأيهما أشد وقعاً وتأثيراً على الفرد والمجتمع: الصراع الطبقي المادي؟ أم الصراع الطبقي الرمزي؟. يبدو الصراع الطبقي واضحا إذا ما انطلقنا من الرأسمال الاقتصادي. فمن خلال عملية إحصائية يمكن ملاحظة التدرج الطبقي اعتمادا على المهنة أو الدخل أو حتى المكانة الاجتماعية أو السلم القيمي الذي لا ينفصل كثيراً عن السلم الطبقي التقليدي. وهكذا يمكن معاينة الصراع باعتباره صراعا حادا ومكشوفا بما أن العامل الاقتصادي هو الذي يرسي هنا حجر الأساس في التفاضل الاجتماعي بحيث يمكن ملاحظة، وبحدود فاصلة، مختلف الطبقات الاجتماعية من الأكثر غنى حتى الأشد حرمانا.

ولكن هناك رأسمال آخر يكشف عن صراع أعمق وأشد رسوخاً، ومن اللافت للانتباه أنه يشرع التمايز حتى داخل الطبقة الواحدة دون أن يثير حساسية هنا أو هناك. هذا الرأسمال يسميه بورديو بـ "الرأسمال الرمزي " وهو ذاته " الرأسمال الثقافي " التعسفي الكائن مقابل الرأسمال الاقتصادي. هذا الرأسمال بمختلف مكوناته هو الذي يكشف عن هابيتوس أي طبقة ويجعل الصراع الاجتماعي الطبقي قائما ليس على

---

[1] بيير بورديو (١٩٩٠). مرجع سابق ، ص ٥٦ .

[2] بورديو (١٩٩٧). مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

أساس التنافس على فائض القيمة بل على استملاك كل الثروات المادية والرمزية. وعلى هذا الأساس يتنوع رأس المال بحيث نجد:

- برجوازية صغيرة متوسطة ذات رأسمال ثقافي أعلى من الرأسمال الاقتصادي كمتوسطي التجار والأطباء والمهندسين...إلخ.
- برجوازية مثلها ذات رأسمال اقتصادي عال ورأسمال ثقافي محدود كصغار أرباب العمل.
- رأسمال اجتماعي ناجم عن قوة العلاقات الاجتماعية المستندة إلى أصول اجتماعية ذات نفوذ أصلا.
- رأسمال مكتسب كالرأسمال المدرسي والموروث.
- رأسمال الجسد كالجمال، الجاذبية...إلخ.

هكذا يبدو الرأسمال بأنواعه طاقة مهمة مستخدمة وتتيح بناء المدى الاجتماعي وتشكيله وإعادة إنتاجه من جديد[1].

علاقة نظرية الأنساق بنظرية الحقول:

إن مفهوم الحقل عند "بورديو" ، يعمل على استبعاد كليا الطابع الآلي، الذي يتميز به مفهوم الجهاز ، وتبعا لذلك يكون قد استبعد النظرية الوظيفية التي سبق أن انتقدها في العديد من كتاباته، و بشكل يكاد يكون أحيانا قاسيا وعنيفا ، وازداد أكثر قربا و التحاما بالتاريخ والفهم الجدلي للمجتمع . بالإضافة إلى أن الحقول ، كما هو واضح من خلال الفقرة السابقة، لا تقوم على أجزاء أو مكونات، بل هي تبدو فرعية، لها منطقها الداخلي الخاص، وانتظاماتها الخاصة. لهذا يرى "بورديو"، وهو رأي كثيرا ما أورده وأكد عليه في العديد من كتاباته، أن الحقل هو لعب أعقد بكثير من كل الألعاب، التي يمكن أن يتخيلها المرء .

---

[1] انظر دراسة تحليلية متخصصة عن الرأس مال الاجتماعي: حجازي، عزت (٢٠٠٦). رأس المال الاجتماعي: كأداة تحليلية في العلوم الاجتماعية. المجلة الاجتماعية القومية، العدد (١)، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ص ١ -٢٨. والذي تضمن إضافة إلى جهود بيير بورديو ما قام به روبرت بوتنام Putnam, Robert في كتابه " تفعيل الديمقراطية" عام ١٩٩٢م. وفرانسيس فوكوياما Fukuyama, Frakcis في كتابه " الثقة: الفضائل الاجتماعية وتحقيق الرخاء" عام ١٩٩٥م.

عاشراً- تحليل ودراسة حقل معين من حيث الخصائص والمراحل:

يميز "بورديو" بين ثلاثة لحظات أساسية لدراسة وتحليل حقل من الحقول، وهي:

١ - لحظة تحليل وضع الحقل إزاء حقل السلطة : إن الحقل متضمن دائما ، بجميع علاقاته الموضوعية والصراعية ، داخل حقل أوسع منه، هو حقل السلطة . فالحقل الأدبي مثلا في المغرب متضمن في حقل السلطة، بمعنى أن كل الكتاب والمثقفين بشكل عام، هم فئة من شرائح المجتمع المغربي، التي تنتمي إلى الشق المهيمن (بفتح الميم) عليه من طرف الطبقة المسيطرة .

٢ - لحظة تحديد البنية الموضوعية ، للعلاقات بين الأوضاع المحتلة، من الفاعلين أو المؤسسات، الذين يتنافسون ويتصارعون داخل ذلك الحقل ، من أجل فرض السلطة ، والحفاظ على السيطرة .

٣ - لحظة تحليل سموت (استعدادات) الفاعلين ، التي اكتسبوها في إطار تواجدهم ، ضمن شروط الحقل المعني الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي إن المؤلف الذي لا يراعي، أثناء تحليله لحقل معين ، المراحل و اللحظات التحليلية السابقة وبنفس الأولوية الترتيبية ، لن يكون معنى للتحليل الذي أنجزه، عند "بورديو" ، ولا يسمح له أن يزعم أنه مارس تحليلا يذكر ، أو درس موضوعه الدرس المنتظر منه. وبالتالي لا يستحق أن يكون مؤلفا، حسب "بورديو" دائما، لأن هذا الأخير (المؤلف) ينبغي عنده أن يكون ذاتا محللة فاعلة، على النحو العلمي الاجتماعي، كما حدده أعلاه، وأن المهم في التحليل الاجتماعي الخلاق، ليس عرض الإشكالات ووصف البنيات وتقديم المعلومات، رغم الأهمية النسبية لهذا الجانب من المعرفة، وإنما المهم والأساس عند "بورديو" هو البحث و التنقيب في أسئلة الحقل ، ودراسة التفاعلات فيه وإثارة أكبر ما يمكن من إشكالاته، وبالتالي يكون بذلك، قد وصل إلى شط الأستاذية .

الحقل الاجتماعي نموذج للدراسة:

يرى "بورديو" أن العالَم الاجتماعي، في المجتمعات الحديثة، ينقسم إلى حقول، أي فضالات اجتماعية أساسها نشاط معيَّن (مثلا: الصحافة، الأدب، كرة

القدم إلخ) يتنافس فيها الفاعلون لاحتلال مواقع السيطرة (مثلا، يريد الصحافي أن يشتغل في أنفذ جريدة وأن يحصل فيها على أجلّ منصب). فعلى غرار التصور الماركسي، يبدو العالَم الاجتماعي، عند "بورديو"، ذا طبيعة تنازُعيِّة، إلا أنه يؤكد أن التنازعات المكونة للعالم الاجتماعي تخص مختلف الحقول وليست مجرد صراع بين طبقات معينة وثابتة.

عندما يستعمل "بورديو" الحقل الاجتماعي في الدراسة والبحث فهو ينطلق من كونه يشتمل على:

- عملاء.
- مشرعين.
- استقلالية.

وعند دراسته للحقل المدرسي لاحظ أن فيها تعسفاً رمزياً تشرعه القوانين والتقاليد المدرسية التي تشتمل في مكوناتها الظاهرة على عدالة مصدرها تكافؤ الفرص وخضوع الجميع للقانون. وعليه فالسلطة المدرسية تتسلم في واقع الأمر تفويضا من الطبقات المهيمنة لفرض التعسف الثقافي، فعن طريق هذا التفويض يتم تمرير العنف الرمزي بلطف.

فلو أخذنا مثالاً كاللغة سنجد أن التلميذ الغني يختزن في ذاكرته رصيداً لغوياً هائلاً بالمقارنة مع التلميذ الفقير. فالأول يستعمل لغة تجريدية وله بروتوكول وإتيكيت عالي المستوى وله اهتمامات ثقافية ومدى اجتماعي واسع من العلاقات ورصيد من السلوكيات والخبرات لم تكن متاحة لزميله الفقير، وحين يتقدم الاثنان إلى الامتحانات من الطبيعي أن تكون فرصة الطالب الغني في النجاح وتحصيل القدر الأكبر من العلامات أكثر من فرصة الطالب الفقير. هذا الواقع ينطوي على تعسف ثقافي مشروع يعترف به الجميع دون أن يدركوا ظلمه وفداحته، فليس من العدل أن يخضع التلميذان لامتحان من نفس النوع والمستوى في حين يتمايزان بشدة فيما لديهما من رصيد وفرص للنجاح. ومن الواضح أن التمايز الطبقي واضح على الرغم من أن المدرسة ذات سلطة ونظام حياديين.

حقول أخرى للدراسة:

لقد درس "بورديو" الكثير من الظواهر الاجتماعية والتي مست أدق تفاصيل الحياة اليومية مبينا فيها كيفية وقوع التمايز الاجتماعي وعنف الرأسمال الرمزي، ففي حقل الاستهلاك يمكن ملاحظة التمايز الطبقي في نوعية الأسواق وتعددها بحيث يبدو لكل شريحة أو طبقة اجتماعية أسواقها ومنتجاتها. ولو أخذنا هواية التصوير الفوتوغرافي مثلا لوجدنا أن رخص الأجهزة وتمكن مختلف الشرائح الاجتماعية من شرائها بهدف ممارسة الهواية كثقافة يمكن من خلالها استعادة الذكريات وحفظ تاريخ العائلة قد نزع من يد الطبقات الغنية أداة للتميز لا سيما وأنها تحولت إلى عادة مبتذلة وأصبحت شائعة بين الناس. ولكن لو أخذنا الفلاح في المجتمع الريفي لبدا التصوير الفوتوغرافي له نوعا من الترف الاجتماعي دون أن يكون للمسألة أي اعتبار للقيمة الجمالية أو الفنية كما هو الحال عند العامل في المدينة. كما أن للعمال أنماط ملابس خاصة تركز على الرخص والمتانة والبساطة دون اعتبار للذوق الجمالي أو الإتيكيت.

أما القوة الجسدية فتمثل بعداً من أبعاد الرجولة يمكن تنميتها ببعض الأطعمة أو التمارين الرياضية بحيث يمثل الجسد بجماله وقوته مظهرا من مظاهر التمايز حتى داخل الأسرة والحي والشارع والمدرسة.

ومن جهتها لا تبدو الطبقات الفقيرة تقيم كبير وزن للثقافة مثلما يفعل أفراد الطبقات المسيطرة. فالفن التشكيلي والمسرح والنوادي الثقافية والاجتماعية والرياضية الخاصة كلها ممارسات من اختصاصات الطبقات الغنية.

وفي الحقيقة واعتماداً على الهابيتوس فيمكن لنا تعيين مظاهر التمايز الاجتماعي بلا حدود حتى في السلوك اليومي للفرد في الشارع والمؤسسة والبيت والمشي والجلوس والنوم والعمل والمراجعات وفي القيم والإتيكيت والأخلاق والمسكن وفي نمط المعيش والسفر وقضاء أوقات الفراغ والتسوق والدراسة والاستطباب والهوايات...إلخ [1].

---

[1] انظر: كتاب : يانيك لوميل (٢٠٠٤). الطبقات الاجتماعية. ترجمة جورجيت الحداد، بيروت: دار الكتاب الجديد ، ص ٨٢-٨٦. والذي تضمن تحليلاً للطبقات الاجتماعية في الحقول المختلفة والتعارضات والنزاعات فيما بينها. والتي عرض لها المؤلف من كتاب " التمييز" لبيير بروديو الصادر عام ١٩٨٠م.

الحادي عشر: نظرية السلطة الرمزية عند بيير بورديو:

عناصر أولية تمهيدية:

يمكن اعتبار المفكر و الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو [1]، من أهم مؤسسي هذا الفهم الجديد لمفهوم السلطة ، وقد عرف باجتهاداته الهامة في مجال البحث الفلسفي الجذري، خاصة في الطب العيادي وتاريخ الجنون ..، إلى جانب كل من " ماكس فيبر وبيير بورديو" في مجال الدراسات الاجتماعية وعلم الاجتماع الانعكاسي ، وقد حاولت هذه الأبحاث العلمية ، من خلال روادها الأساسيين ، طرح سؤال المنهاج الشامل والناجع ، وأدوات تحليل الظواهر الاجتماعية والسياسية والثقافية، لهذا ستأخذ هذه الأعمال على عاتقها ، الانشغال أكثر والاهتمام بعمق طبيعة العوامل الخفية غير المباشرة، والمنظومة الرمزية المؤثرة بفعالية في أي مجتمع ، مهما كانت طبيعته و نوعية وضعه العام ، بجميع تجلياته وتشكيلاته. ومن خلال مفاهيمها الإجرائية وأدواتها المعرفية والمنهجية ، المتميزة بطابعها الشمولي، وببعدها النقدي ، ستحاول هذه الأبحاث الفكرية الغربية الحديثة ، إعادة قراءة العديد من المواضيع الهامة في المجتمع ، والتي يعتبر موضوع التعليم والتربية ، من أهم الأسئلة التي شغلت الكتاب والمنظرين في هذا المجال .

مفهوم السلطة الرمزية :

لتحديد مفهوم السلطة والسلطة الرمزية ، بالضبط ، تنطلق نظرية بورديو من تقسيم العالم الاجتماعي ، إلى مجموعة حقول مستقلة نسبيا ، وفهم هذا العالم الاجتماعي ، يتوقف على البحث بعمق وبجدية كبيرة ، في كيفية اشتغال آليات حقول ذلك العالم الاجتماعي ، من أجل الكشف عن واقعها وطبيعة منطقها الداخلي ، في علاقته الجدلية بمفهوم السلطة . بالإضافة إلى أن هذا المنظور المنهجي في التحليل السوسيولوجي عند "بورديو"، حريص كل الحرص، على ربط مفهوم السلطة ، كركن إجرائي جوهري في الفعل التحليلي، بمفاهيم أخرى، لا تقل أهمية وقيمة ، من مفهوم السلطة ذاته ، ونذكر من بينها ، مفهوم النسق ، والحقل، واللعب ...الخ ، وهي على

---

[1] انظر أطروحات ميشيل فوكو في الفصل التاسع.

كل حال، مفاهيم تستمد أهميتها، من تصور "بورديو" للبحث المنهجي والأداة التحليلية، المرتبط باستراتيجية كونية وشاملة، مؤسسة على نظام مشروع فكري ، لبناء ودراسة آليات وقوانين اشتغال بنية العالم الاجتماعي، كما أسلفنا، تحقيقا لهدف رئيس، هو صياغة نظرية عامة لمفهوم السلطة الرمزية pouvoir symbolique ، إلى جانب الاهتمام بتحليل أنساق أخرى عديدة ، وحقول اجتماعية مختلفة كالدين ، والفن ، واللغة ، والسكن ، واللباس ، والرياضة ، والأذواق ، ...إلخ .

وانطلاقا من العدد الهائل من الدراسات ، والأبحاث التطبيقية الميدانية وأيضا النظرية ، التي أنجزها " بورديو" ، مع الكثير من الدارسين والباحثين الاجتماعيين الغربيين ، الذين اقتنعوا بالبعد الثوري الواضح ، وفعالية أدوات هذا المنظور المنهجي والتحليلي ، يلاحظ أن السلطة الرمزية ، تستند عنده دوما ، إلى أسلوب التورية والاختفاء ، وهي لا يمكن أن تحقق تأثيرها المفترض ، وتنفيذها بشكل فعال وإيجابي ، إلا من خلال التعاون الذي يجب أن تلقاه ، من طرف أغلبية الناس المعنيين بها ، والذين تبدو لهم هذه الحقيقة وهمية ، ولا يعترفون بها . يقول بورديو[1] :" إن السلطة الرمزية هي سلطة لا مرئية ، ولا يمكن أن تمـارَس ، إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها ، بل ويمارسونها". وبالتالي فتأثير السلطة الرمزية يكون أعمق وأخطر، لسبب بسيط ، يتمثل في كونه يستهدف أساسا البنية النفسية والذهنية للمتلقين لها ، وبالتالي فهي - أي السلطة الرمزية - تمارس فعلها العميق ، وتخطط من أجل فرض وتحقيق الأهداف المرسومة والمتوخاة ، وإنتاج الأدوات والآليات والمعايير المناسبة والناجعة ، لتثبيت وخلق واقع وضع إنساني مرغوب فيه ومخطط له ، وتمارس سلطة الرمز كل هذه الأعمال بطريقة منظمة وبنائية ، وتحت غطاء الخفاء والاختفاء ، ووراء حجاب أقنعة المألوف العادي ، وأنظمة التقليد والقانون والخطابات الشائعة بين الناس .

---

[1] بيير بورديو (١٩٩٠). مرجع سابق، ص ٥٢.

علاقة السلطة بمفاهيم أخرى:

١- الحقل واللعب وعلاقتهما بالسلطة:

إن اعتماد مفهوم الحقل ، في التحليل السوسيولوجي عند "بورديو" ، هو بمثابة تقنية إجرائية دقيقة وأساسية ، للتفكير بصيغة العلاقات ، أي التفكير على نحو علاقي وجدلي ، بدل التفكير بالطريقة البنيوية الجاهزة و الضيقة الأفق ، كما كانت سائدة ومهيمنة ، في بداية انشغال بورديو بموضوع السلطة الرمزية (عصر انفجار الفكر البنيوي في أوروبا) ، لهذا كانت أبحاثه المعرفية والعلمية عامة ، محاولة منه لتصحيح مسار فكري وفلسفي اقتنع به ، ومارسه بنقد وهدم الفكر السائد ، وتأسيس الفكر الفعال و البديل . يتشكل الحقل، حسب "بورديو" ، من جملة علاقات موضوعية ، القائمة بين مجموعة من الأوضاع ، التي تحدد في وجودها بمحتليها ، وهؤلاء المحتلون لتلك الأوضاع ، إما أن يكونوا فاعلين أو مؤسسات ، حسب موقعهم الحالي أو المحتمل ، في بنية توزيع مختلف أنواع السلطة (الرأسمال) التي يتطلب امتلاكها بلوغ الأرباح الخاصة ، وهي شرط أساسي ومهم لتحقيق لعب متواز بين القوى الفاعلة في الحقل ، و في الآن ذاته ، بواسطة علاقتهم الموضوعية بالأوضاع الأخرى (سيطرة ، تبعية ، تطابق ..إلخ) .

كما يرتبط مفهوم الحقل، بمفهوم الرأسمال ارتباطا وثيقا ، من خلال التأكيد على أبعاده الثقافية والاقتصادية ، كقوة لها سلطة فعالة رمزية للقدرة على السيطرة على فضاء اللعب ، في الحقل المعني ، والذي من الطبيعي أن يشهد بدوره، حركية داخلية مهمة واشتغالا ديناميا محكما ، سيؤدي فيما بعد ، إلى نشوء نزاعات والتي ستتراكم وتختمر، لتنفجر في المرحلة الموالية ، على شكل صراعات بين هذه القوى الفاعلة داخل حقل اللعب (سواء كان لعبا طبيعيا أو سياسيا، أو اجتماعيا أو فكريا أو دينيا أو ثقافيا أو حضاريا ...إلخ)، وذلك بهدف الدفاع عن المكتسبات السابقة للقوى المتصارعة والاحتفاظ عليها قدر الإمكان، أو تحويل تشكل تلك القوى لصياغة خريطة جديدة، تتناسب ووضع اللعب الجديد.

ولكي تتضح ملامح دلالة مفهوم الحقل ، كما يتصوره "بورديو" ، ويعمل به في تحليلاته الاجتماعية ، يمكننا تقديم مثال عن حقل السلطة ، وهو المثال الذي كثيرا ما يتشهد به في كتاباته النظرية تقريبا لهذا المفهوم.

٢- حقل السلطة:

يتشكل حقل السلطة عدد من الأبعاد وهي:

١-إنه حقل قوى محددة ، في بنيته ، بحالة علاقة القوة بين أشكال من السلطة أو أنواع مختلفة من الرأسمال.

٢-هو حقل صراعات من أجل السلطة والسيطرة والهيمنة بين مالكي سلطات متباينة.

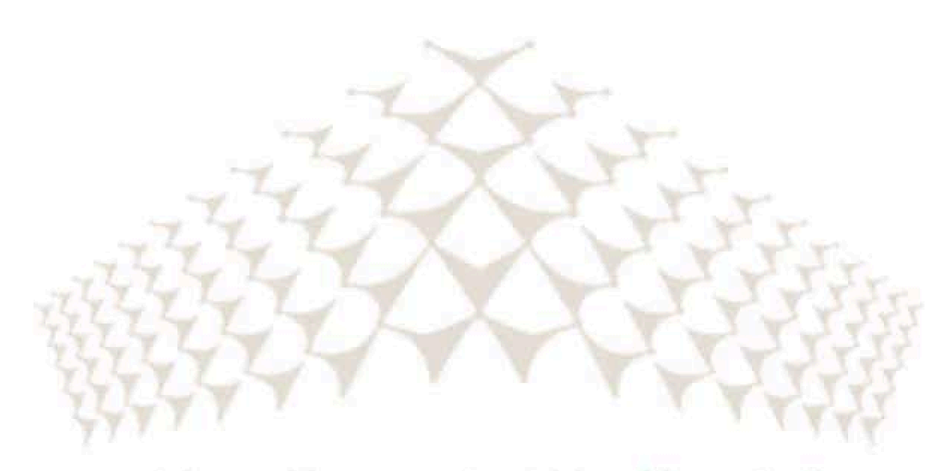
٣-إنه فضاء للعب ، يتواجه فيه فاعلون ومؤسسات ، يشتركون في امتلاك كم معين من الرأسمال الخاص (ثقافي ، اقتصادي ..) ، والغاية من تلك المواجهة ، هي تحقيق الرغبة في احتلال أوضاع مسيطرة في حقولهم الخاصة والعمل على تحريرها (الحقل الاقتصادي ، وحقل الإدارة العليا للدولة ، الحقل الأكاديمي ، الحقل الفكري)، كما تهدف تلك المواجهة ، إلى الاحتفاظ بعلاقة القوة تلك أو محاولة تحويلها .

١- الهدف من صراع القوى السابق هو فرض مبدأ السيطرة (سيطرة المسيطر)، الذي يمكن أن يصل في أية لحظة إلى حالة من التوازن، ليتمكن بالتالي من اقتسام السلطة فيما بينه وبين المتنازع الآخر، أي تقسيم عمل السيطرة. هو أيضا صراع ونزاع من أجل فرض مبدأ الشرعنة (المشروعية)، أي إضفاء المشروعية والمصداقية ، على وضعية السيطرة المنفذة، إلى جانب الحفاظ على نمط إعادة الإنتاج المشروع لأسس السيطرة المحققة. ونشير الآن إلى أهم أنواع المجابهات والصراعات والأشكال التي يمكن أن تتخذها :

١- مواجهات واقعية (حرب القصر).

٢-مواجهات مسلحة بين السلطات الزمنية والسلطات الروحية.

٣- مواجهات رمزية (صراعات فكرية).



الفصل العاشر
نظريات ما بعد الحداثة

أولاً- الحداثة: نشأتها، ومضمونها.

ثانياً- التيار الفكري لما بعد الحداثة.

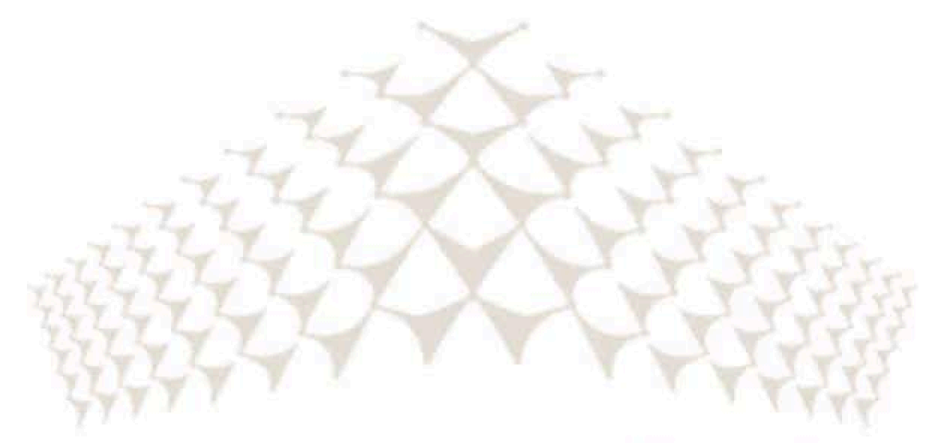
ثالثاً- نشأة ما بعد الحداثة.

رابعاً- نظريات ما بعد الحداثة.

- ليوتار.
- ميشيل فوكو.
- جاك دريدا.
- فردريك جيمبسون.
- فوكوياما.
- صمويل هينتجتون.
- دانيال بيل.

سادساً- علم الاجتماع وما بعد الحداثة.

سابعاً- النظرية الاجتماعية والتحولات الحضارية.



الفصل العاشر
نظرية ما بعد الحداثة

الحداثة: نشأتها، مضمونها:

حدد بعض الدارسين عام ١٨٥٠م بداية رسمية للحداثة على اعتبار أنها سميت في تلك الفترة لكن الكتاب والمفكرين اختلفوا في بدايتها كحركة مجتمعية حيث دأب الباحثون على طرح مجموع من التساؤلات يمكن تفريعها إلى سؤالين اثنين هما: إذا كانت الكلمة اللاتينية (الحديث) Modernus قد ظهرت في القرن الخامس للميلاد. والكلمة الفرنسية (حداثة) Modernite قد ظهرت بعد ذلك بحوالي عشرة قرون فمتى ظهرت الحداثة تعبيرا عن رؤية خاصة للوجود والفكر والمجتمع؟ ومتى اختفت أو ستختفي؟ المتأمل لهذه الأسئلة يلاحظ أنه بإزاء مشاكل خلافية يصعب حلها، فالمفكر الأمريكي "ريتشارد رورتي" يلحق الحداثة بفكر " ديكارت" في القرنين السادس والسابع عشر الميلادي. والمفكر الألماني " يورجن هابرماس" يربطها بعصر الأنوار في القرن الثامن عشر الميلادي. بينما نجد أن الأمريكي " فريدريك جيمسون" يحدد تاريخ ميلادها في النصف الأول من القرن العشرين[(١)].

في حين نجد "سمير أمين" لا يعطي تحديدا زمنيا لنشأة الحداثة بل تحديدا فلسفيا حيث يقول: " كانت الفلسفات القديمة السابقة على الحداثة ذات طابع ميتافيزيقي فكانت هذه الفلسفات تؤكد أن هناك نظاما يحكم الكون ويفرض نفسه على الطبيعة والمجتمعات والأفراد، فأقصى ما كان يمكن أن يحققه البشر -فرادى وجماعات- إنما هو اكتشاف أسرار هذا النظام، بواسطة صوت الأنبياء وإدراك الأحكام الميتافيزيقية المضمرة، فالطاعة لما نشأت الحداثة عندما تخلى الفكر الفلسفي عن هذا الإرث، فدخل

---

(١) انظر: بيتر بروكر (٤٩٩٥). الحداثة وما بعد الحداثة. ترجمة عبد الوهاب علوي. أبو ظبي: المجمع الثقافي. وكذلك: خريسان، باسم علي (٢٠٠٦). ما بعد الحداثة دراسة في المشروع الثقافي الغربي. بيروت: دار الفكر.

البشر في فلك الحرية ومعها القلق وفقد الحكم طابعه المقدس، و صارت ممارسات الفكر العقلاني تنعتق من الحدود المفروضة عليه سابقا، فأدرك الإنسان منذ هذه اللحظة أنه هو صانع تاريخه، بل إن العمل في هذا السياق واجب، الأمر الذي يفرض بدوره ضرورة الخيار" [١].

وعند تحديد معى الحداثة أو مضمونها؛ لا بد أولا من التمييز بين مصطلحين (Modernity) و (Modernism) فالمصطلح الأول يطلق أو يستخدم في الغالب في الدراسة الفلسفية المنهجية والاجتماعية والثقافية. في حين نجد المصطلح الثاني و هو الأكثر شيوعا يستخدم في الدراسات الأدبية والفنية وفي مجال العمارة والموسيقى [٢]. وبالرغم من هذا التميز الذي يحاول بعض الباحثين تقديمه، فإن الأدبيات العديدة التي تعالج موضوع الحداثة عامة لا نجدها تلتزم بذلك التقسيم أو التميز الاصطلاحي، ربما يعود ذلك لطبيعة موضوع الحداثة نفسه فهو لا يقبل هذا التميز لأن الحديث عن الحداثة هو الحديث عن منظومة ترى نفسها أنها مرجعية كاملة للحياة بمختلف مجالاته فلا مجال لعزل حقل من حقول الحياة عن الآخر [٣].

والحداثة تتميز عن التحديث (Modernization) فهذا الأخير قد يكون عبارة عن مجموعة من التغيرات التي تشهدها المجتمعات ولكنها ليس من الضروري أن تعد مجتمعات حداثية، يرى (ساروب) أن المصطلح الذي يستخدم "للإشارة إلى مراحل التطور الاجتماعي التي تستند إلى التصنيع والحداثة هي وحدة متنوعة من التحولات الاجتماعية الاقتصادية الناتجة عن الابتكارات العلمية والتكنولوجية" [٤] ولكن ما يؤخذ على هذا التفسير إرجاعه الحداثة والتحديث إلى أسس مادية.

---

[١] أمين، سمير (١٩٩٩). مناخ العصر- رؤية نقدية في كتاب العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي. القاهرة: مكتبة مدبولي.

[٢] الرويلي، ميجان. البازعي، سعد (٢٠٠٠) دليل الناقد العربي. بيروت: المركز الثقافي العربي.

[٣] تتعدد الترجمات العربية لكلمة Modernism على سبيل المثال تترجم إلى الحداثة، أو الحداثية، أو الحداثوية، أو الحداثانية، أو نزعة الحداثة، أو العصرية، أو العصرانية، أو المودرنزم . انظر: العجلوني، نايف (١٩٩٦) الحداثة والحداثية: المصطلح والمفهوم، مجلة أبحاث جامعة اليرموك. مجلد١٤. العدد٢، ص ١٠٥-١٣٩.

[٤] المرجع السابق.

في حين يميز "شرابي" (١٩٨٧) بين التحديث والحداثة فيرى أن التحديث : " هو سباق التحول الاقتصادي والتقني كما جرى تاريخيا لأول مرة في أوروبة، مما يجعل منه ظاهرة أوروبية فريدة من نوعها، في حين الحداثة هي مجموعة العناصر والعلاقات التي يتألف منها الكيان الحضاري المتميز المدعو حديثاً. أما الحداثة من حيث هي وعي فتشكل أنموذجا ونمطا فكريا تجد فيها أوروبة الحديثة هويتها، وذلك بالتميز بينها وبين ما هو غير أوروبي غير حديث" [١].

وما يؤخذ على هذا التميز أنه يقصر الحداثة على الوعي بالهوية أو على مجموعة العلاقات في المجتمع الحديث في حين الأقرب إلى الصواب أن الحداثة هي الإطار الحاكم للمجتمع الحديث ولعملية التحديث فيه. وربما تبرز الحاجة إلى دراسة تعريف الحداثة، فما دامت الحداثة أصبحت مصطلحا علميا صارت الحاجة إلى تعريفها مسألة علمية أيضا، هنا نشير إلى شيئ مهم و هو لا يمكن أن يكون للحداثة تعريف محدد لكونها عملية متحركة تعمل على تكييف نفسها مع كل مستجد يطرأ عليها لذا عند قراءة أبرز التعاريف التي أعطيت إليها نجدها لا تتسم بالشمول فهي تحاول أن تقدم وصفا لجانب أو أكثر من جوانب الحداثة فنجدها عند كاتب ليس أكثر من باعث على الحركة حيث يعتقد "سلوترديجك" أنها "حركة ذاتية تولد نفسها بشكل ذاتي، والتقدم هو حركة لأصل الحركة، إنها حركة تستهدف زيادة القدرة على التحرك" في حين نجد آخر يراها حركة تفكيكية "تستمد معناها وقوى دفعها من رفض أو نفي ما حدث قبلا" [٢].

وعند "ميشيل فوكو" الحداثة هي "تصور معين للحاضر الذي نعيش فيه" ولدى " ويبر" هي: " العقلنة" أما "هنري لوفيفر" فيرى فيها "عبادة الجديد من أجل الجديد" [٣]. والحداثة كما يراها " ألان تورين": ثورة الإنسان المستنير على التقاليد، وخضوع لقانون العقل الطبيعي، وتقديس للمجتمع. هي إنجاز للعقل خاصة. للثقافة للتربية. لذلك يجب أن تنحصر أهداف السياسات الاجتماعية التحديثية في تعبيد الطريق التي

---

[١] شرابي، هشام (١٩٨٧) البنية البطركية: بحث في المجتمع العربي المعاصر. بيروت: دار الطليعة.

[٢] العجلوني، نايف (١٩٩٦) مرجع سابق، ص ١٠٥-١٣٩.

[٣] لوفيفر، هنري (١٩٨٣) ما الحداثة . ترجمة كاظم جهاد. بيروت: دار ابن رشد للطباعة والنشر.

يسلكها العقل بإلغاء التقنيات والموانع الحرفية والحواجز الجمركية. أو أن الحداثة هي الاستماع لصوت الذات لا استنباطاً بل كفاحا لأجل الحرية. هذه الذات هي إرادة الفرد والجماعة وأن يكونا صانعي حياتهما[1].

إذا كانت هذه التعاريف يغلب عليها التصور الجزئي للحداثة نجد البعض الآخر من الكتاب حاول أن يكون تعريفه أكثر شمولية محاولا الاقتراب من الشمولية التي تصف الحداثة بها نفسها، فـ "بوديارد" يقول: "إن الحداثة ليست مفهوما اجتماعيا ولا مفهوما سياسيا ولا مفهوما تاريخيا بدقة التعبير إنها نمط حضاري متميز يناقض النمط التقليدي وهي تتميز في كل الميادين: دولة حديثة، موسيقا ورسم حديثين، عادات وأفكار حديثة، وهي متحركة في صيغتها وفي مضامينها في الزمان والمكان وليست ثابتة وبهذا هي تشبه التقليد".

ويصف " صمويل هنتنجتون" الحداثة بأنها:" عملية تحدث بأبعاد كثيرة، إنها خبرة فردية تغير المجتمعات، إنها تحدث في العديد من الميادين المختلفة (اجتماعياً، وتعليمياً، واقتصادياً، وسياسياً)، إنها عملية ذات علاقة متبادلة، ومع أنها ثورية في نطاقها، فهي أيضا عملية بطيئة جدا تحدث في مراحل مختلفة" [2]. ويكمن الفرق الأساس بين المجتمع الحديث والمجتمع التقليدي، الذي يؤكد عليها معظم منظري الحداثة، في السيطرة الكبيرة التي للإنسان الحديث على بيئته الطبيعية والاجتماعية، وترتكز السيطرة بدورها على توسع المعرفة العلمية والتقنية. وتعكس هذه الفروق في مدى سيطرة الإنسان على بيئته فروقاً في توجهاته الأساسية نحو بيئته وتوقعاته منها. إن التباين بين المجتمع الحديث والمجتمع التقليدي هو تباين بين الإنسان الحديث والإنسان التقليدي. إن الإنسان التقليدي سلبي وميال للإذعان، يتوقع الاستمرارية في الطبيعة والمجتمع ولا يؤمن بمقدرة الإنسان على التغيير أو السيطرة. وعلى النقيض من ذلك إن

---

[1] الغريب، عبد العزيز (٢٠٠٩) نظريات علم الاجتماع، تصنيفاتها، اتجاهاتها، وبعض نماذجها التطبيقية. الرياض: مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص.٣٩٨.

[2] صمويل هنتنجتون (٢٠٠٤) التغيير إلى التغيير. في كتاب (من الحداثة إلى العولمة) تأليف، ج تيونز روبيرتس وأيمي هايت، ترجمة سمير الشيشكلي، الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، ص ٢٢١ .

الإنسان الحديث يؤمن بكل من إمكان التغيير والرغبة فيها. وعنده ثقة في مقدرة الإنسان على ضبط التغيير لكي يحقق أغراضه[1]. ويحدد معظم الكتاب في مجال الحداثة ضمناً أو صراحة تسع مميزات لعملية الحداثة، وهي:

١- الحداثة عملية ثورية. أي جذريا كلياً.

٢- الحداثة عملية معقدة.

٣- الحداثة عملية منهجية.

٤- الحداثة عملية عولمية.

٥- الحداثة عملية مطولة.

٦- الحداثة عملية متدرجة في مراحل.

٧- الحداثة عملية متجانسة.

٨- الحداثة عملية مبرمة لا يمكن عكسها.

٩- الحداثة عملية تقدمية[2].

الحداثة كما يراها " ألان تورين" هي": ثورة الإنسان المستنير على التقاليد. وخضوع لقانون العقل الطبيعي، وتقديس للمجتمع. هي إنجاز للعقل للعلم خاصة. للثقافة للتربية. لذلك يجب أن تنحصر أهداف السياسات الاجتماعية التحديثية في تعبيد الطريق التي يسلكها العقل بإلغاء التقنيات والموانع الحرفية والحواجز الجمركية. أو أن الحداثة هي: الاستماع لصوت الذات لا استنباطاً بل كفاحاً لأجل الحرية. هذه الذات هي إرادة الفرد والجماعة وأن يكونا صانعي حياتهما". وقد اهتم " ألان تورين" من خلال كتابه (نقد الحداثة) بانتقاد الحداثة في الفكر الغربي من خلال تناولها من منظور تاريخ الأفكار والذي اهتم بالكشف عن سياق ظهور الفكرة وازدهارها وأفولها وعن وظيفتها الاجتماعية في مرحلة تاريخية معينة. وحاول من خلال نظريته النقدية أن يشمل الفلسفة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة السياسية وفلسفة التاريخ وعلم النفس. من هنا حدد المبادئ الأساسية التي يجب أن تشكل الثقافة الحديثة وهي:

١- اكتشاف العقل العلمي لقوانين الطبيعة.

---

[1] صمويل هنتنجتون (٢٠٠٤) . مرجع سابق، ص ٢٢٣.

[2] صمويل هنتنجتون (٢٠٠٤) . مرجع سابق، ص ٢٢٥-٢٢٦.

٢- سيادة الشعب وبناء النظم الاجتماعية على معيار القوانين العقلية.

٣- تحرر الفرد من السلطات الدينية والأخلاقية والأسرية، واستبدالها بالمعايير العقلية.

من هنا يتضح من هذه المبادئ الثلاثة مركزية العقل والمقاييس العقلانية في تصور الطبيعة وتحديد القيم الفردية والنظم الاجتماعية والسياسية. ومن ثم انبثاق فكرة عالم موحد، ينسجم فيها الكون والفرد والمجتمع ويتحكم فيه العقل العلمي. لذلك يؤكد " ألان تورين" : " أن الفرد مواطن بسبب وجوده الفردي الحر. مثلما أنه حر بسبب المواطنة التي يتمتع بها".[1].

ومن خلال هذه المجموعة المتنوعة من التعاريف يمكن القول: إن الحداثة تتصف بالآتي:

١- إن الحداثة ليست مجموعة من الشكليات والعناوين ذات المضمون الضحل إنما هي مرحلة تبلغها المجتمعات من خلال عملية التراكم التاريخي والجهود التي يبذلها أبناء المجتمع في سبيل الخروج من القصور الذي يفترضه الإنسان في وصف نفسه وعجزه عن استخدام عقله وإمكاناته في سبيل البناء.

٢- إن أكثر ما تتطلبه الحداثة للنمو والبروز في أي حركة اجتماعية، الحرية بمعنى الاستخدام، ولهذا نجد في التجربة الأوروبية أن هناك علاقة طردية تربط مستوى الحداثة مع انبثاق مبادئ حقوق الإنسان والفلسفة العقلانية وفكرة التقدم الاجتماعي.

٣- العقلانية: ويمكننا أن ندرك هذه الرؤية السوسيولوجية أيضا في علم الاجتماع النقدي، الذي طرح العلاقة الجدلية المباشرة بين تطور الفكر العقلاني والتطور التقني.

و يمكننا القول أن أبرز الخصائص التي اتصفت بها الحداثة هي كالآتي:

١- على الصعيد الفكري هيمنة سلطة العقل على الجهل.

٢- هيمنة النظام على عدم النظام.

٣- هيمنة سلطة العلم على الخرافة.

---

[1] ألان تورين (١٩٩٨). مرجع سابق.

٤- العدمية الناقصة.

هذه الخصائص جعلت الحداثة تتميز من المرحلة التي كانت سائدة قبلها و هي مرحلة ما قبل الحداثة كما هو مبين في التالي:

	ما قبل الحداثة	الحداثة
المعرفة	الأسطورة – الإيمان	الفكر – العقل
الحقيقة	دينية – تعليمية	علمية – نقدية
اللغة	بيانية	تحليلية
النظام	سلطنة – بيروقراطية	ديمقراطية – اشتراكية
التركيب الاجتماعي	العائلة – القبلية – الطائفية	الطبقة

ونجد أن الثقافة الغربية مرت بمرحلة الحداثة، ثم ظهرت بعد ذلك مرحلة ما بعد الحداثة التي أتت بمفاهيم وقيم ومبادئ جديدة تناسب التحولات التي شهدتها المجتمعات الغربية، هذه التحولات التي أفضت إلى مرحلة العولمة[1] فكانت هذه المفاهيم والمبادئ هي البعد الثقافي للعولمة. من هذه المبادئ التي جاءت بها مرحلة ما بعد الحداثة التي تعد في الوقت ذاته أحد المبادئ المركزية في ثقافة العولمة مبدأ التخلي عن الأنساق الفكرية التي تنتج منها الأيديولوجيات. فهذا المبدأ هو الذي تزعم ثقافة العولمة أنها تسعى إلى ترسيخه بعد انهيار الإيدولوجيا الشيوعية، الخصم اللدود للإيدولوجيا الرأسمالية والليبرالية[2].

[1] بدأ استخدام مصطلح العولمة عام ١٩٨٣م للعالم كون ليفت. والذي كان بديلاً عن مفاهيم سابقة كالقرية الكونية، والقرية الصغيرة، والكوخ الصغير للدلالة على التلاحم السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بين المجتمع الإنساني. كما أن هناك بعض المفاهيم الملتبسة مع العولمة مثل مفاهيم، العالمية، الكونية، الأممية، الأمركة (انظر: ياسين، السيد (١٩٩٨). العرب والعولمة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية).

[2] البشر، بدرية (٢٠٠٨) وقع العولمة في مجتمعات الخليج العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

التيار الفكري لما بعد الحداثة **Post-modernism**:

ما بعد الحداثة تيار فكري نشأ في الأصل وفي كثير من جوانبه ردة فعل لـ"الحداثة". وما بعد الحداثة من التنوع والتدرج بحيث يصعب إيجاد تعريف دقيق لها. وتكاد تجمع المراجع على عدم إعطاء تعريف لـ "ما بعد الحداثة" لصعوبة تعريفها، وبدلا من ذلك تقوم بتوصيف هذا المذهب، وذلك بمقارنته بنقيضهة "الحداثة". فلكي يتضح مفهوم ما بعد الحداثة فلا بد من مقارنته بمفهوم الحداثة. وذلك أن ما بعد الحداثة مفهوم فضفاض وغامض[1]، فهناك صور متعددة من ما بعد الحداثة. فهي تتدرج من الموقف الرافض للغلو العقلاني الوضعي ورفض الاضطهاد الذي تمارسه الثقافة الغربية بإيديولوجيتها العلمية إلى أن تصل إلى ما بعد الحداثة المتطرفة الثورية العدمية العبثية التي تدعو للثورة على العقل والعقلانية من أساسهما وتصل إلى التشكيك حتى في البدهيات. مما حدا بأنصارها إلى الكف عن توضيح ما هي "ما بعد الحداثة" والانصراف بدلا من ذلك إلى توضيح ما ترفضه ما بعد الحداثة. ولكن باختصار يمكن أن تعرف الحداثة بأنها اتجاه فكري، يضم خليطا من التيارات، يجمعها رفض الأسس الأنثولوجية (أي الخاصة بطبيعة الوجود) والمعرفية والمنهجية التي قامت عليها الحداثة أو على الأقل يجعلها محل شك[2]. وقد ظهر مفهوم ما بعد الحداثة بشكل واضح في السبعينيات من القرن العشرين، في كتاب الفيلسوف الفرنسي" ليوتارد" (علم ما بعد الحداثة) وعنى بها التعددية الثقافية وتعدد أنماط الحياة[3].

ومنذ بداية السبعينات في القرن العشرين ظهرت محاولات في أوروبا لبناء فلسفة جديدة تملأ الفراغ الفلسفي في الثلث الأخير من هذا القرن، بعد تراجع البنيوية وتزايد الأعمال النقدية لمقولاتها، فولدت الفلسفة التفكيكية كأقوى اتجاه فلسفي معاصر من

---

[1] الشيخ، محمد ، والطائري، ياسر (١٩٩٦). مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة. بيروت: دار الطليعة بيروت .

[2] العرابي، عبد القادر، والعمري، عبيد (١٤٢٢). إشكالية المنهج في العلوم الاجتماعية العربية المعاصرة. مؤسسة اليمامة الصحفية: كتاب جريدة الرياض، ص٩٩.

[3] انظر: جيلنر، إرنست (٢٠٠١). ما بعد الحداثة والعقل والدين. ترجمة معين الإمام. دمشق: دار المدى.

بين عدة اتجاهات بعد هذه الفترة، وأصبحت هي السائدة في فرنسا، وانتشرت بعد ذلك في الولايات المتحدة واليابان. ورائد هذه الفلسفة الفيلسوف الفرنسي " جاك دريدا" (١٩٣٠م) الذي بدأ بالظاهريات، ثم تميز بعد ذلك بتحليلاته اللغوية الفلسفية الخاصة وأسس (الكلية الفلسفية) لممارسة الفلسفة التفكيكية كفريق.

وتمثل التفكيكية آخر صرخة للوعي الأوروبي فهي ليست الحداثة بل ما بعد الحداثة، وليست البنيوية بل ما بعد البنيوية، ويقوم منهجها على تحليل وتفكيك بنية العلوم الإنسانية، فقد بدأت انطلاقة " دريدا عام" ١٩٦٧م عندما أصدر كتاباً بفرنسا نقض فيه الفكر الغربي منذ " أفلاطون" في العصر اليوناني إلى " هيدغر وشتراوس في" هذا العصر، وحاول تشريح أعمال الفلاسفة كما ينقضها من داخلها، فصار كل فيلسوف ينقض مقولاته بأفكاره، من خلال تفكيك أعماله وقراءتها قراءة ما يحجبه الخطاب ويخفيه[1]. وعلى هذا يهتم " دريدا " بالبحث عن ألفاظ التفكيك في الخطاب وليس ألفاظ الربط، فهو يؤسس منطق الاختلاف وليس منطق الهوية، فالأجزاء لها الأولوية على الكل، والهدم قبل البناء.

وبالتالي دخلت ما بعد الحداثة في شتى مجالات الفكر والحياة، حيث صار لها أثر في الأدب والفكر والفن والاجتماع وفي فلسفة العلم ذاته. ويرجع كثير من الباحثين أصول هذا المذهب الأولية إلى الفيلسوف الألماني نيتشه. وقد حمل " نيتشه" على (المطلق) ونادى بأن كل العلوم إنما هي اعتقادات ونظرات خاصة ينشئها كل لنفسه. والمسألة لا تعدو أن تكون منظورات (وجهات نظر) مختلفة، وليس لأحد الحق، والحالة هذه، بأن يقرر أن رأيا أصوب من الآخر. فالحياة إذن عبث. كما يعد الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو"، مصدرا أساساً للفكر ما بعد الحداثة، والذي نادى بموت الإنسان، واتخذ موقفا معاديا للحداثة. وسعى لبناء منظور جديد للمجتمع والمعرفة والخطاب والسلطة والعلاقة بينها.

---

[1] راجع كتاب : جون ستروك (٢٠٠٧). البنيوية وما بعدها: من كلود ليفي شتراوس إلى جاك دريدا. ترجمة محمد عصفور. القاهرة. والذي تضمن رصداً للمذاهب الغربية الحديثة. بحيث تضمن صفحات مستقلة لكل عالم من علماء كل مذهب نقدي. بدءاً من كلود ليفي شتراوس رائد البنيوية، مروراً برولان بارت، وميشيل فوكو، وجاك لاكان، وانتهاءا بجاك دريدا.

وإذا ما تركنا مسألة تحديد المفهوم واتجهنا للبحث عن أبرز تلك الخصائص والتصورات والأسس التي تطرحها ما بعد الحداثة كحركة فكرية وثقافية. هذه التقابلات نجدها كالآتي:

١- الحداثة تتجه نحو المدينة وما بعد الحداثة تأخذ إلى جانب المدنية القرية الكوكبية مما يؤدي إلى زيادة أو تقليل الدمار والفوضى .

٢- قامت الحداثة على التجريبية في حين أن ما بعد الحداثة تقول ببنيات مفتوحة غير متصلة أو محددة ارتجالية أو عفوية مع وجود التزامن والخيال والتلاعب والفكاهة والمحاكاة التهكمية وتزايد الإشارة للذات وتداخل الوسائط ومزج الأشكال واختلاط المستويات ونهاية المبدأ الإجمالي التقليدي الذي يركز على جمال العمل الفني أو تفرده.

٣- قالت الحداثة بالتناقصية، بينما تدعو ما بعد الحداثة إلى الثقافات المتقابلة وقبول عدم الترابط وعدم الاستمرار وتطور التجريبية الراديكالية في الفن.

٤- أن هذه المرحلة (ما بعد الحداثة) تمثل التأكيد على أن زمن بناء التصورات قد مضى والجدول الآتي يمثل أبرز التناقضات بين الحداثة وما بعد الحداثة:

الحداثة	ما بعد الحداثة
التأكيد على السرديات الكبرى، الأساطير التاريخية، أساطير الأصل الثقافية، الهوية الثقافية و القومية.	الشك و رفض السرديات الكبرى، وبروز الأساطير المحلية وتفكيك السرديات: الأساطير الضدية للأصل.
الإيمان بـ"نظرية أساسية" وتفسيرات شاملة للتاريخ والعلم والثقافة لتمثيل كل أنواع المعرفة.	رفض النظريات الشمولية، واتباع النظريات المحلية والطارئة.
الإحساس بذات واحدة مركزية الفردية، الهوية الموحدة.	الإحساس بالتفكك والذات اللامركزية الهويات المتعددة المتضاربة.
الكتاب حامل كفؤ للكلمة، والمكتبة نظام للمعرفة.	ما فوق الإعلام كتجاوز للحدود الفيزيائية للإعلام المطبوع، الشبكة كنظام معلومات.

الحداثة وما بعد الحداثة

الحداثة	ما بعد الحداثة "الحداثة المتأخرة"
تقدم العلم والعقل	الانعكاسية " الوعي النقدي المتزايد" تميز ما بعد الحداثة، أي الاهتمام بالآثار المدمرة للعلم التطبيقي والبيئة والإنسانية، ويمتد الاهتمام على مستوى الكوني (ارتفاع درجة حرارة الأرض، ارتفاع منسوب المحيطات والبحار.
الإيمان بالتقدم الاجتماعي	الوعي المتنامي بالمخاطر والآثار السلبية غير المقصودة لمسيرة التقدم.
ظهور القومية والنظر إلى الدولة القومية باعتبارها هي حدود المجتمع.	حدوث عملية العولمة، وتزايد تصدع الدولة القومية " المجتمع" بفعل العوامل الكونية ، السياسة، الاقتصادية، الثقافية.
التأكيد على الإنتاج - التنمية الاقتصادية	تزايد أهمية ما هو ثقافي: ١- تبادل المعلومات. من خلال وسائل الإعلام. ٢- الثقافة: في صورة الاستهلاك وأسلوب الحياة وهي التي تحدد الهوية بدلاً من العمل.
السياسة والحكومة والدولة هم أساس المجتمع	الشك في السياسة والحكومة التقليدية، وتنامي سياسة الحياة، أي الرابط الشخصي والعام كما في الحركات الاجتماعية النسوية والبيئية.
الاتجاه على رؤية العالم في سياق ثنائيات أو شيئين متعارضين، مثلاً: الموضوعي- الذاتي، ذكور- إناث.	الاتجاه إلى رؤية الترابط ولتشابه والتوحد، مثلاً الذاتي والموضوعي لا ينفصلان.
النظر إلى الطبيعة على أنها أمر مسلم به.	تزايد الإحساس القوي بالمسئولية عن الطبيعة والبيئة.
مصطفى، عبدالجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٢٧.	

نشأة ما بعد الحداثة:

ظهرت خلال العقدين الماضيين حركة تجديد لخطاب ثقافي ينطوي بداخله على أنماط متعددة من المعرفة والثقافة، يجمع بين روافد فنية ومعرفية وعلمية، ويعكس واقعاً جديداً أو بالأحرى وضعاً متغيراً، شديد الحساسية تجاه أوضاع سادت وما زالت تعيش فيها المجتمعات الإنسانية . وما زال تأثير رواسبها الثقافية على مختلف أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية عظيماً . وتساءل "هال فوستر" في تقديمه لكتاب " ثقافة ما بعد الحداثة " هل يوجد في الواقع ما يمكن أن نسميه " ما بعد الحداثة"، وإذا كان شيء من هذا القبيل، فما هو؟ وهل نتعامل معه باعتباره مفهوماً مجرداً أم ممارسة عملية ؟ هل ما بعد الحداثة نموذج تقليدي محلي أم مرحلة كلية جديدة ؟ هل هو عبر عن أوضاع مادية أم يحتوي كذلك على جوانب أخلاقية ؟ ما مظاهر ما بعد الحداثة، ؟ وما تأثيراتها وما أوضاعها؟ كيف يمكن لنا حصر خصائصها ؟، وكيف لنا أن نحدد بداية ظهورها؟ هل يعني ذلك أننا تخطينا " الحديث " ؟ وهل يمكن وصف المرحلة التي نعيش فيها بأنها عصر ما بعد الصناعة ؟.

في كتاب " ما بعد الحداثة "، تقدم "مارجريت روز" تحليلاً نقدياً لهذا التيار الفكري المعاصر في مرحلة ما بعد الحداثة . ومن قراءة هذا المؤلف وما حمله من تعريفات شتى وتحليلات موسعة يتضح ، بل يتأكد لنا ، أن الغموض والشك والتداخل هي السمات التي تميز تناول مفهوم ما بعد الحداثة وتوضح مارجريت روز في معرض حديثها عن التيارات المختلفة لما بعد الحداثة. أن هناك اختلافات شديدة بين العلماء والباحثين المهتمين بهذا التيار ، بل إن التعارض شمل كذلك أعمالاً لباحثين استخدموا المصطلح بمعان مختلفة إما في كتاباتهم ذاتها، وإما في كتابات قدموها في أوقات مختلفة[1] .

ويمكننا إجمال الآراء التي تحدثت عن نشأة اتجاه ما بعد الحداثة فيما يلي:

١- هناك من يرده إلى مرجعيته في تاريخ المجتمعات والأفكار الأوروبية، حيث من طغيان الثورة الصناعية والآلة العملاقة، ظهر فكر يتلمس قلق الحضارة وغربة الإنسان وتشيؤ العلاقات الاجتماعية.

---

[1] حجازي، أحمد (١٩٩٨). مرجع سابق.

٢- يرى " سكوت لاش" S. Lash في تحديده لمرجعية ما بعد الحداثة في اضمحلال البنيوية، وضمور التفسيرات الوظيفية السببية، وتطور الفاعلية الرمزية بمضامينها النسبية، وهي توجهات أكدها على مستوى الواقع، تطور طبقات جديدة، هي الطبقات الوسطى للمجتمعات ما بعد الصناعية، والتي يمر مجالها الثقافي راهنا بتوسع.

٣- يرى أستاذ الفلسفة الإيطالي " جياني فاتيمو" G. Vattimo السياق التاريخي لما بعد الحداثة في تحولين أساسيين هما: نهاية السيطرة الأوروبية على العالم، وتطور وسائل الإعلام التي أفسحت مجالا للثقافات المحلية والفرعية[1].

٤- يرى عالم الاجتماع الفرنسي : ألان تورين A.Touraine أن فكر ما بعد الحداثة نتيجة حركة فكرية ممتدة من خلال التشكل في سياق عملية متعددة الإسهامات متنوعة، متفاعلة، تجاذبتها التيارات الفكرية والحقول العلمية والمجالات الفنية المتواجدة، وأسهم فيها الظرف التاريخي والإطار الاجتماعي واللحظة الحضارية[2].

٥- هناك من يرى أنها ردة فعل لحالة التشوش التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في أوروبا، ومثلت تجلياته الأولى خلال الثلاثينات، تحديا لنزعة الحداثة، وإن جاز القول أن المفهوم قد وجد تفتحه الفعلي أيامها في الولايات المتحدة، مع ظهور الوعي الأمريكي في فن العمارة والفنون الأخرى، وبسبب من عدم ارتباط الوعي الأمريكي بماض يكبحه ويحدد شروطه.

٦- خلال عام ١٩٤٧م، قدمه المؤرخ البريطاني " أرنولد توينبي" A. Toynbee، ليدل على إمارات ثلاث رآها تميز الفكر والمجتمع الغربيين منتصف هذا القرن، وهي اللاعقلانية والفوضوية واللامعيارية، بسبب من أفول دور البرجوازية في

---

[1] دراج، فيصل (١٩٩٧). ما بعد الحداثة في عالم بلا حداثة. مجلة الكرمل ، العدد (٥١) ، مؤسسة الكرمل الثقافية، رام الله، فلسطين، ص ٨٢.

[2] ألان تورين (١٩٩٧). مرجع سابق، ص ٨٥.

التحكم بتطور الرأسمالية الغربية منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحلول الطبقة العاملة الصناعية محلها، وهو ما رآه انقلابا بل انحطاطا للقيم البرجوازية التقليدية[1].

٧- في فترة الخمسينات الميلادية من القرن الماضي، بدأ مفهوم ما بعد الحداثة كرديف فني للفلسفة الوجودية التي تؤكد المبادرة الفردية وتمردها على سجن النسق، ليتطور بعد ذلك مع دخول المجتمعات الغربية مرحلة جديدة. وما لبث أن أخذ مكانه في التداول الأدبي والفني، احتجاجا على سطحية حركة النقد الأدبي الحداثية، وهو ما أكده " ليسلي فيدلر" Fiedler .L والناقد الأمريكي المصري الأصل إيهاب حسن، الذي يعد أبرز الرواد المعتمدين لحركة ما بعد الحداثة. ومثل كذلك رفضا للجماليات الكلاسيكية، وبالذات ما يتصل بالسرديات والرقص والمسرح والتصوير والسينما والموسيقى وهندسة العمارة والرسم. كما برز مفهوم " ما بعد الحداثة " على شكل مساهمات نظرية ومنهجية لدى المشتغلين بالفلسفة وعلم اللغة، وعلم النفس الاجتماعي والاقتصاد السياسي وتاريخ الحياة اليومية وعلم البلاغة واللاهوت، والأنثروبولوجيا بكيفية أوضح، باعتبارها أكثر تراودا مع توجهات ما بعد الحداثة الثقافية.

٨- مع بداية السبعينات اتخذ فكر ما بعد الحداثة من منهجية التفكيك لدى العالم الفرنسي " جاك ديريدا" Derrida سندا نظريا، وهي منهجية اهتمت بعدم استقرار كافة أشكال الخطاب، ورفض تأويلاتها القاطعة، وشحوب المسلمات الثقافية التقليدية الكبرى، ليدل وبشكل متزايد، على الأجناس الجديدة المبتدعة من التعبير الفني والأدبي، وعلى ما يقف وراءها من أساليب تدعم لوحتها، كتعبير عن ظاهرة متعددة التجليات، تخص الفن كما تخص التحليل النظري، وتسم مجالات التفكير والثقافة والاجتماع كمزاج فكري يرتبط بنمط من التفكير غير الميتافيزيقي بالعالم، وحساسية جديدة في التعبير وشرط للوجود الاجتماعي [2].

٩- خلال الثمانينات، تنامى ظهور مبحث سوسيولوجي له في بريطانيا، تحت مسمى "علم اجتماع ما بعد الحداثة " ، Postmodern Sociology لدى سكوت

---

[1] راجع نظرية أرنولد توينبي في : الغريب، عبد العزيز (٢٠١٠). التغير الاجتماعي والثقافي. الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية.

[2] شياع، كامل (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٩٦.

لاش. وديفيد هارفي ، D.Harvey وأنتوني غيدنز ، Giddens .A ومايك فيذر ستون، M.Featherston وكولان كامبل C. Cambell وغيرهم، ممن حاولوا التخلي عن مفاهيم ونظريات علم اجتماع الحداثة، وقاموا بتأويل أعمال ماركس، والإفادة من ثورة المعلوماتية، وبشروا بمجتمع خال من الطبقات والثقافات المهيمنة، وبنهاية الإيديولوجيات الكبرى، وهو ما دعا عالم الاجتماع الأمريكي نيل سميلسر N. Smelser إلى اعتبار هذا المبحث بداية النهاية لعلم الاجتماع الفسيفسائي المعبر عن خصوصية الدولة الوطنيm. وقراءة أعمال هؤلاء الاجتماعيين ما بعد الحداثيين، تؤكد ارتباطها بأفكار كل من ألفنت وفلر A. Toffler. ودانيل بيل D.Bell. ، حيث طرح "توفلي" منذ السبعينات أول محاولة جامعة في استكشاف معالم ثورة المعلوماتية قبل أن تنطلق، والتي تعد إحدى الآليات الأساسية للعولمة، وبشر بتحول المعرفة إلى "وقود سريع الاشتعال "، وكرس لما أطلق عليه "مجتمع الموجة الثالثة ". Third wave society أما بيل، فرأى أن العالم يدخل عصرا تاريخيا جديدا، عاينه فيما أطلق عليه "المجتمع ما بعد الحداثي " Postmodern society " أو "المجتمع ما بعد الصناعي" Postindustrial society " الذي ينتقل من مرحلة إنتاج السلع إلى مجتمع الخدمات، ويشمل كلا من البلدان الرأسمالية والاشتراكية، حين تضحى المعرفة هي القوة الرئيسية الدافعة للتطور الاقتصادي، بفضل احتلال «الرجال الجدد» من علماء الاجتماع والرياضيات والاقتصاد لمواقعهم في حيازة لوح المعرفة، وتطبيق "التكنولوجيا الذهنية الجديدة " التي جاءت مع استخدام العقول الإلكترونية، وحيث سيزول الاختلاف بين الأنظمة وينتهي التعارض بينها، ويتآكل العالم الاشتراكي، وتحل بتعبيره نهاية الايدولوجيا.

١٠- هناك من ربط بين هذا الاتجاه أو النموذج الفكري من المابعديات، تلك التي راجت منذ منتصف القرن الماضي، وهو ما يشير إليه مفهوم "ما بعد التاريخي" لدى رودريك سيدنبرج R. Seidenberg عام ١٩٥٠، و"ما بعد الحضارة لدى كينيث بولدنج K. Boulding عام ١٩٦٤، و" ما بعد الثقافة " لدى ليونيل تريلينج L. Trilling. عام ١٩٦٥، و"ما بعد الصناعي" لدى دانييل بيل عام ١٩٧١، و"ما بعد الاقتصادي" لدى هيرمان كاهن H. Kahn 1971،و"ما بعد العهد الحديث " لدى

اميتاي اتزيوني A.Etzioni عام ١٩٧٨ و"ما بعد الرأسمالية " لدى سمير أمين عام ١٩٨٨، و"ما بعد المادية " لدى رونالد انجلهارت R. Inglehart عام ١٩٨٩، إضافة إلى "ما بعد الوظيفية " و"ما بعد البنيوية " و "ما بعد الإمبريالية "، و" ما بعد الكولونيالية". وكل هذه المابعديات على تراوحها، تمثل نتاجا لوضع تاريخ مشترك، وتشكل حقبا من مسربة التحديد والانفلات عن التصورات القارية، بحكم ارتباطها بحالة القلق والتوتر التي تنتاب العالم، ورغبتها في الابتعاد عن ماض بعينه، مع العجز في الوقت نفسه عن تسمية الحاضر، أو فتح كوى للعثور على حلول المشاكل المستقبلية [١].

وحدد " المسيري" (٢٠٠٣)[٢] منطلقات فلسفة ما بعد الحداثة فيما يلي:

١- الأنطلوجيا: أي لا توجد كليات من أي نوع مادية وروحية، ولا يوجد مبدأ واحد يمنح العالم التماسك والوحدة. ومن ثم لا توجد ثنائيات. في القضاء على خرافة الميتافيزيقيا وعلى أوهام الفلسفة الإنسانية بشكل كامل عن طريق القضاء على خرافة الحقيقة الكلية. أي أن عصر ما بعد الحداثة هو عصر المابعديات وسقوط كل الماقبليات. فهو عصر ما بعد التاريخ وما بعد الإنسانية وما بعد السببية وما بعد المحاكاة وما بعد الميتافيزيقيا.

٢- المعرفة: يرفض دعاة ما بعد الحداثة فكرة الحقيقة الكلية، وإنما يوجد دائماً فائض من الحقيقة. وأن إدراك المعرفة يتم عبر اللغة والقوة.

٣- المعنى والتجاوز: لا معنى فيما بعد الحداثة. فالحقيقة في تغير دائم. فلا وحدة ولا تماسك فالعلم لا مركز له تحكمه الحتميات الصارمة والصدفة الكاملة.

٤- المنظومة الأخلاقية: لا يمكن في عصر ما بعد الحداثة قيام أية معيارية، ولا يمكن تأسيس نظم أخلاقية عامة. وإنما يمكن تأسيس اتفاقات محدودة الشرعية لا تتحدد في ضوء منظومة أخلاقية كاملة وإنما في ضوء الوظيفة والنتيجة. كل ما هناك أخلاقيات القوة والهيمنة للأقوياء وفلسفة الإذعان والتكيف للضعفاء.

---

[١] انظر: عبد الفتاح، نبيل (١٩٩٨). ما بعد الحداثه والعولمة - المابعديات والأديان . ورقة مقدمة في (منتدى حوار الحضارات)، الإسكندرية.

[٢] المسيري، عبد الوهاب، والتريكي، فتحي (٢٠٠٣). الحداثة وما بعد الحداثة. بيروت: دار الفكر المعاصر، ص ٨١-٩٥.

٥- التاريخ والتقدم: في عصر ما بعد الحداثة يختفي الإحساس بالتاريخ والاستمرار. كما تختفي النماذج الخطية التطورية، ويختفي أي نموذج تفسيري. وتظهر "ذاكرة الكلمات المتقاطعة" أي المعلومات المتناثرة التي لا يربطها رابط. وينشأ الإحساس بأننا في الحاضر الأزلي. تغير مستمر بلا ماضٍ ولا مستقبل. ويتحول التاريخ من كونه تاريخاً إلى أن يكون مجرد زمان، لحظات جامدة، زمناً مسحطاً لا عمق له، ملتفاً حول نفسه لا قسمات له ولا معنى.

نظريات ما بعد الحداثة :

على الرغم من أن علم الاجتماع أصبح - إلى حد ما - محركاً لكل ضروب الفكر المتعلق بما بعد الحداثة. فإن نظرية ما بعد الحداثة تسللت منذ ظهورها إلى علم الاجتماع على حين غرة، وقد نظر مؤسسو هذه النظرية (ليوتار، فوكو، دريدا) في العلوم المختلفة ومع ذلك فقد كانوا فلاسفة أكثر منهم علماء اجتماع[1].

وتتبلور نظرية ما بعد الحداثة في علم الاجتماع في جانبين هما:

١- نقد الحداثة: والمتمثل في : رفض النظريات الشمولية (الأساطير الكبرى، ونظرية ما بعد الحداثة ليست نظرية شمولية).

٢- القضايا والخاصائص لنظرية ما بعد الحداثة: وتتمثل في:

- الثقافة أصبحت هي الجانب المهيمن على الحياة الاجتماعية.
- العولمة تشكل انفجار الثقافة.
- نظرية ما بعد الحداثة يمكن أن تصنف بأنها نظرية حركة رومانسية.
- تؤكد نظرية ما بعد الحداثة على الهوية، والاختلاف، والتعددية[2].

يشير عالم الاجتماع الفرنسي " ألان تورين" إلى أن هناك أربعة تيارات فكرية لما بعد الحداثة وهي: (ما فوق الحداثي، الحداثي المضاد، ما بعد التاريخي والمضاد

---

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٦٤.

[2] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٧٥.

للحداثة)، يعمل كل منها شكلا من أشكال الانقطاع مع الحداثة[1] وفيما يلي نعرض لأبرز علماء تلك الاتجاهات[2]:

نظرية جان فرانسوا ليوتار(١٩٢٤ - ١٩٩٨) Jeen Francois Lyotard :

يعد جان فراسوا ليوتار (١٩٢٤-١٩٩٨م) من كبار الفلاسفة الفرنسيين وأحد أبرز الشخصيات العلمية في تيار ما بعد الحداثة. حصل على الدكتوراه في الأدب المقارن عام ١٩٧١م من جامعة باريس. درس وحاضر في عدد من الجامعات مثل جامعة السوربون، جامعة كاليفورنيا، وجامعة أتلانتا وغيرها له عدد من المحاضرات والمقالات الثقافية والأدبية. من أهم مؤلفاته كتاب " مرآة الإنتاج" ١٩٧٣م، و " حالة ما بعد الحداثة" ١٩٨٤م، و " الوضع ما بعد الحداثة" ١٩٧٩، و " الحماسة" النقد المانطي للتاريخ" ٢٠٠٢، و " فلسفات عصرنا.. تياراتها ومذاهبها" ١٩٩٨.

كما يعد " ليوتار" فيلسوف ما بعد الحداثة البارز، منذ قدم عام ١٩٨٤م كتابه " حالة ما بعد الحداثة"، الذي يعد أساس فكر ما بعد الحداثة، حدد فيه معالم ما بعد الحداثة، وأصل بعدها الثقافي كملمح أساس، أطلقه على وضعية المجتمعات الغربية المعاصرة التي أحبطتها وعود الحداثة. وتتبدى أفكار " ليوتار " بهذا الصدد، في:

- إعلان السقوط الحتمي سواء في العلوم الطبيعية أو في التاريخ المعاصر.
- واستتباعا رفض مفهوم التقدم الخطي بالنظر إلى انفتاح التاريخ الإنساني على احتمالات متعددة.
- رفض المنظورات الشاملة عن التاريخ والمجتمع والذي يسميها أنساق التفسر الكبرى كالماركسية.
- الرفض الصريح للاتجاهات الشمولية وللنزعة الراديكيالية السياسية للماركسية.

---

[1] ألان تورين، مرجع سابق، ص ٥١- ٥٧.

[2] راجع كتاب: جون ستروك (١٩٩٦). البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا. ترجمة محمد عصفور، الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب. والذي تضمن عرضاً لأبرز علماء ما بعد الحداثة وأطروحاتهم بالتفصيل.

- تجاوز مسلمات الحداثة عن الإنسان والعقل والتاريخ، ومشروعها الذي يراه يتسم بالميتافيزيقية والمثالية، وينضوي في الإيديولوجيات التي حاولت في رأيه بنينة الزمن وإعطاءه معنى ناجزا.

وكان ذلك جراء غياب الأفق الكوني والتحرر العام لديه، يسمح للإنسان ما بعد الحداثة بالتأكد من نهاية فكرة القدم والعقلانية والحرية، في ظروف تواجه فيها نصف البشرية التعقيد، والمجاعة للنصف الآخر، إضافة إلى أن الحروب والأنظمة الشمولية التي عرفتها البشرية مؤخرا تركت الإنسان يعيش بلا أوهام أو أساطير، أو بتعبيره من دون حكايات كبرى أو حكايات ميتافيزيقية. ومن ثم فمن المستحيل التفكير في المستقبل، بعد هذه الحروب والأنظمة. لذلك لا يستطيع إنسان ما بعد الحداثة أن يثق في العقلانية والمقدم والثورة ولا من العلوم الحديثة والمقامرة التي لا تستند إلا على معيار النجاح وحده، مستبعدة الحقيقة والعدالة.

تعريف ما بعد الحداثة:

يعرف " ليوتار" ما بعد الحداثة بأنها : «التشكك إزاء الميتا - حكايات » ويعني بها الحكايات الكبرى التي توظف لتكريس شرعية مختلف المشروعات السياسية أو العلمية. ويقصد هنا تعرية ما يصفه بحكايات التبرير، التي قامت على الوعد بانعتاق الإنسانية، ونشر أنوار المعرفة وتحقيق الحرية، مثل المسيحية وأفكار التنوير والحكاية الماركسية الكبرى، باعتبارها لديه أنماطا ميتافيزيقية كلية، قامت على الغائية والذات العظمى للتاريخ والنظرية الناجزة، معلنا فشل هذه الحكايات التي يراها تقوم على وهم التحرر (الثورة الفرنسية.، أو التأمل في الجامعة الألمانية.، أو الماركسية..) «ذلك أن معسكر التعذيب في أوشفيتز ينتقص القول العقلاني وتجبر وعناد ستالين يفندان الأطروحة الإنسانية، واندلاع ثورة مايو ١٩٦٨ إيذانا بانزلاق مزاعم الليبرالية في هوة سحيقة».

الحكايات الكبرى والصغرى:

يؤكد " ليوتار" على أنه لا يمكن أن نقص قصصاً ضخمة عن العالم، بل يمكن أن نقص قصصاً صغيرة من الأوضاع الذاتية اللامتجانسة للأفراد والجماعات الاجتماعية.

لذلك يدعو " ليوتار" إلى حكايات صغري histoires petites محلية، تتناول قضايا المهمشين، و«البدائيين » وسكان المستعمرات السابقة وثقافات الأطراف، وترتكز في شرعيتها على الطاقة الأدائية لا المعيارية، كشكل جوهري للإبداع وبخاصة في العلم. وهو بهذا، يؤكد على التخلي عن الأطر المستقرة، وعلى عدم جدوى أية محاولة للتحويل الجذري للمجتمع الراهن، وهو ما يتضح في نفيه للتجاوز والذات والتاريخ والتقدم، فهو ينفي التجاوز، باعتباره تماهيا مع الجديد يفتقر إلى القيمة بالنسبة لما بعد الحداثة. وينفي التاريخ، حيث تميل تقنية المعلومات إلى نزع طابعه، بقصرها للأحداث ضمن مستوى التعاصر أو التزامن، أي تمجيد الحاضر والإقامة فيه. وينفي الذات، ما دام التحديث الرأسمالي قد فتت الفرد بتقسيم العمل، وحلل الفردية عندما شيأ ويفرط وجودها، فإن إقرار ما بعد الحداثة بذلك لا يحمل جديدا، سوى جعل أطروحة الذات مطلقة إلى حد إنكار الأسلوب الشخص في الفن وإغلاق الباب بإحكام أمام ذاتية جديدة[1].

رؤية " ليوتار" للنظرية الماركسية:

وينقد "ليوتار" نقد نظريات الحداثة أو نهاية خطابات الحداثة أو نظريات الحداثة المتجسدة في الليبرالية والماركسية ويؤكد نهاية نظريات الحداثة المستمدة من أفكار عصر التنوير عن العقل والتحرر الشامل للإنسان والتقدم الخطي للتاريخ فقد فقدت قيمتها التفسيرية، وإن ادعاءها القدرة على المعرفة والتنبؤ ليس سوى وهم من أوهام التفكير الوضعي الذي ساد نهاية القرن التاسع عشر افترضت هذه الخطابات أن المعرفة الصحيحة والوحيدة هي المعرفة العلمية التي تدمج المعطيات الملموسة في قوانين عامة تدعي لنفسها بجانب موضوعيتها قيما أخلاقية إيجابية.

إن التاريخ هو عملية غائية مشدودة إلى حقيقية ما في المستقبل كالعقل أو الحرية أو العدالة، لا يمكن بلوغها إلا بتجاوز الماضي كواقع وتصورات، وميزت هذه الخطابات نفسها عما سبقها من نظرات إلى العالم بالجمع بين الحقائق المادية والقيم

---

[1] انظر: جان فرانوا ليوتار (١٩٩٤). الوضع ما بعد الحداثي. ترجمة أحمد حسان، القاهرة: دار شرقيات، ص ٣٤.

المعنوية. ويرى ليوتار أن هذه النظريات تعتقد بوجود حقيقة ميتافيزيقية مطلقة للعلم وللخطابات الفلسفية التي تستمد منها شرعيتها لا يقل في لا عقلانيته عن الوعي التقليدي والأسطوري، ولكنه قد يكون أكثر خطورة منه أنه يؤدي إلى نشوء أنشطة استبدادية شمولية[1] .

ما بعد الحداثة عند " ليوتار":

يكتب "جان فرانسو ليوتار" في رؤيته عن ما بعد الحداثة كثقافة تميز الإنسان المعاصر في الغرب وهو ضرورة أن يعيش دوماً ما أسماه بالحكايات الكبرى Grands Recits أو الحكايات الميتافيزيقية التي اعتبرها نوعاً من الأساطير وهذه الحكايات بدأت منذ التفسيرات الساذجة للكون وللعالم في فجر البشرية وتطورت معه إلى أن أصبحت تفسيرات علمية وأيديولوجية تبرر العلم والمعارف والتقدم والحرية.. إلخ. تظل في نظر "ليوتار" حكايات يتطابق فيما بينها تقنيات الحكي والرواية فتفسيرات الأديان وحكاياتها الأسطورية عن نشوء العالم، لا تختلف بأي حال من الأحوال عن المذاهب التاريخية للتقدم، وهو ما اعتمدت عليه المجتمعات حتى العصر الحديث. ويقول ليوتار إن فلسفة هيجيل تجمل كل هذه الحكايات، وفي هذا الاتجاه تركز فيها الحداثة النظرية. وهذه الحكايات ليست أساطير بمعنى الحكايات الخيالية أنها بالتأكيد مثل الأساطير هدفها هو إضفاء المشروعية على المؤسسات والممارسات الاجتماعية والسياسية والتشريعات والأخلاق وطرق التفكير.

ويعاين "ليوتار" ما حدث أثناء الحرب من أهوال وفظائع في ظل أنظمة شمولية لم يستطع العلم ولا الإيديولوجيا التصدي لها أو إتيانها ليوتار يعارض هذا ليصل إلى نتيجة مؤداها أن الاعتماد على الحقيقة والتقدم أو الثورة ليس طريقاً وردياً يحقق الإنسان من خلاله الحرية والسعادة التي طالما حلم بها، وهو يتساءل كيف أن حكايات المشروعية الكبرى ظلت معدومة المصداقية في ظل الظروف السابقة ويجيب بأن معنى هذا لا يدعي بأنه لم يعد لأي من الحكاية مصداقية. فأقصد بالميتافيزيقية أو الحكاية الكبرى

---

[1] شياع، كامل (١٩٩٩). مرجع سابق، ص٣١٩. وانظر: حسان، أحمد (١٩٩٥). مدخل إلى ما بعد الحداثة. دمشق: الهيئة العامة لقصور الثقافة .

سرديات ذات وظيفة تضفي الشرعية. وانزوائها لا يمنع مليارات القصص الصغيرة والأقل صغراً في الاستمرار في حبك نسيج الحياة اليومية وفيما يتصل بالتقنيات والعلم وهيمنتها على الواقع المعاش، فليوتار لا يريد للإنسان أن يتخذ موقفاً أكثر من واقعي إذا يود أن يتعايش الإنسان مع هيمنة التقنيات والعلوم على وجوده، وفي نفس الوقت لا يوليها أية ثقة، إذ لا يستطيع الإنسان أن يمنح هذه التقنيات والعلوم ثقته من أجل رفاهيته.

ويضيف "ليوتار" بأنه في عصر ما بعد الحداثة سيصبح لزاماً على كل فرد التكيف مع الاختلافات الثقافية للآخر دون أن يكون غرض هذا التكيف هو الانصهار في مثال لحضارة وحيدة. فليس هناك معايير أو حكم أعلى يمكنه الفصل فيما هو خير أو شر لدى الأطراف الحضارية المختلفة.

نظرية ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤م):



حياته:

ميشيل فوكو Michel Fouault (١٩٢٦- ١٩٨٤م). فيلسوف ومؤرخ فرنسي ولد عام ١٩٢٦م. متخصص في تاريخ العلوم الإنسانية وتاريخ المؤسسات العقابية والطبية، وتاريخ الجنس. وكان لكتاباته أثر بالغ على المجال الثقافي. ومجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية ومجالات مختلفة للبحث العلمي. حصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٦١ بعد أن قدم بحثين كما هي العادة في فرنسا، أولهما رئيس بعنوان "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" وآخر ثانوي تضمن ترجمة وتعليقاً على الفيلسوف الألماني "كانط " في الأنثروبولوجيا والنظرة النفعية. يعد من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين. توصف أعماله بأنها تنتمي لما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية. التزم بالنشر العام بمعدل كل ثلاث سنوات، من أعماله الرئيسة " تاريخ الجنون في عصر العقل" ١٩٦٢م. و " ميلاد الطب العيادي" ١٩٦٢م. و " الكلمات الأشياء" ١٩٦٦م. و " علم حفريات المعرفة" ١٩٦٩. ، وتوفي ١٩٨٤م . وهو فيلسوف فرنسي كان يحتل كرسياً في الكوليج دو فرانس، أطلق عليه اسم "تاريخ نظام الفكر". ورغم أنه كان يرفض إدراجه في المدرسة ما بعد الحداثة، فإن كان يلتقي مع أصحاب هذا الاتجاه في كثير من أفكاره. حيث سعى في مؤلفاته السابقة الذكر إلى تحليل بزوغ عدد من المؤسسات الحديثة مثل السجون، والمستشفيات، والمدارس التي لعبت دوراً متزايداً في مراقبة سكان المجتمع

وضبطهم والسيطرة عليهم. حيث طرح أفكاراً مهمة حول الضبط والانضباط والتأديب والرقابة، والعلاقة بين السلطة والمعرفة، والخطاب في الأنساق التنظيمية الحديثة. وكان جل اهتمامه يتركز على التنقيب عن أنماط التفكير التي كانت سائدة في عصور ماضية، أو ما يسميه " أركيولوجية المعرفة" لاكتشاف المعاني الجديدة التي اكتسبتها في حياة المؤسسات الحديثة المعاصرة.

الرؤية النقدية عند " ميشيل فوكو":

على الرغم أن أعمال " فوكو" انتشرت خارج علم الاجتماع، إلا أن هناك علم الاجتماع وربما علوم اجتماع متعددة. فهذه الأعمال كانت متنوعة شملت اهتمامات منهجية. إلى جانب دراسات تطبيقية خاصة عن الجنون ومستشفى الأمراض العقلية، والطب وميلاد العيادة الطبية والجريمة ونظام السجون والجنس والضبط الاجتماعي للسلوك الجنسي. وهي لا تقتصر على نظرية علم الاجتماع، ولكنها تمس أيضاً فروعا داخل علم الاجتماع، . وتكشف أعمال " فوكو" تنوعاً في مدخلاته النظرية. ذلك الذي التنوع الذي جعل من أعماله استفزازية وعسيرة على الفهم. يضاف إلى ذلك أن أفكاره لم يتم تبنيها على نحو بسيط من المفكرين الآخرين. بل تم تحويلها لتندمج في التوجه النظري الفريد عند " فوكو". مما جعله من كبار منظري ما بعد الحداثة.

كان " فوكو" متأثراً بفكر البنيوية، فقد أراد " فوكو" دراسة الأحداث المنطقية، والنصوص الخطابية والمكتوبة. واهتم بصفة خاصة بالنصوص المبكرة في تاريخ مجال ما بهدف الكشف عن الشروط الأساسية التي تجعل الخطاب ممكناً. ولا تأتي وحدة هذه النصوص والطريقة التي تشكل بها علماً أو منظومة علمية من الفاعل، بل تأتي من القواعد والممارسات المنطقية الأساسية. وبعبارة محددة كان " فوكو" مهتماً بالممارسات المنطقية الأساسية التي شكلت أساس الخطاب العلمي خاصة في العلوم الإنسانية. وقد تخلى " فوكو" فيما بعد عن المدخل البنيوي في أعماله المبكرة. لأنه يغفل قضية القوة جنباً إلى جنب مع الصلة بين المعرفة والقوة[1].

---

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٣٢.

وقد كان "ميشيل فوكو" ، M. Foucault ضد صياغة النظريات العامة، واهتم بكشف الوجه الآخر للعقلانية الحديثة، المتجسد في مؤسسات العزل والعقاب، وركز على تحليل السلطة، وتبيان خطأ ومحدودية فهمها بحصرها في كيان محدد، هو جهاز الدولة المركزي، ووضح شموليتها لكافة آليات إخضاع الجسد باسم نظام أو معرفة، بهدف تحقيق نوع من التشريح السياسي للجسد يسمح بالحصول على أجساد طيعة منقادة، وقابلة للاستخدام والتحويل والإنتاج، كما يسمح في نفس الوقت لإخضاعه للأنظمة القائمة والفئات الحاكمة، بطرق مستترة، وأكثر ديمقراطية، تقوم على ترويض الجسد وترويض الفرد بواسطة مؤسسات متنوعة، كالمدارس ومصحات العلاج النفسي والعقلي والسجون والورش والمعامل وثكنات الجيش والمستشفيات، وهي مؤسسات لا تعمل بمجرد إصدار أوامر مدعومة بالتهديد واستخدام القسر العنيف، بل بتنظيم وتقسيم المكان، وعزل وتوزيع الأفراد، وتنسيق تحركاتهم، ومراقبتهم في صمت وباستمرار، والاحتفاظ بملفات وسجلات دقيقة للتحري عنهم، والغاية القسوى من هذا الجهاز، والذي أطلق عليه "فوكو" مكر وفيزياء السلطة " وهي حصر الجسد في بعد واحد، هو بعد التدجين. وانطلاقا من نبذه لفكرة السلطة كممارسة قائمة على الهيمنة، ارتأى "فوكو" أن الحداثة أفرزت نظم الاستبداد واستعباد الشعوب وازدواجية المعايير، كما أفرزت النازية التي دمرت الشعوب، ودعا إلى تطوير أنماط جديدة من السلوك والتفكير والرغبة، تنبني على التكاثر بدل الاختزال والتوحيد، وعلى التقابل بدل التماثل، والانفصال بدل الاتصال أي أنماط نميز بموجبها ما هو متعدد متنوع عما هو موحد متشابه متطابق، وما هو متحول متناثر عما هو ثابت متضافر، وما هو جوال متحرر عما هو راسخ، وما هو عبارة عن سيولات دائمة عما هو ضرب من الوحدات الجافة الجامدة، وهو ما يبدو واضحا في تحليله لميكانيزمات السلطة التي اعتبرها لا نهائية[1]. كان " فوكو" ناقداً لتدرج المعرفة. ونظراً لأن أعلى صور المعرفة (العلوم) رتبة لها القوة العظمى. فإنها تكون عرضة لأقسى أنواع النقد. وكيف أنها تستخدم لواسطة النظم (المؤسسات) المتعددة لممارسة القوة على الناس. وعلى الرغم من أن " فوكو" رأى

---

[1] انظر: ميشيل فوكو (١٩٩٠). المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن. ترجمة علي مقلد، بيروت: مركز الإنماء القومي. وكذلك: عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٤٠-٣٤٧.

صلات المعرفة والقوة، إلا أنه لم ير أن هناك مؤامرة من جانب أعضاء الصفوة في المجتمع.

وحقيقة الأمر فقد كان لكتاباته أثر بالغ على المجال الثقافي، وقد تجاوز أثره ذلك حتى دخل ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية ومجالات مختلفة للبحث العلمي. عرف "فوكو" بدراساته الناقدة والدقيقة لمجموعة من المؤسسات الاجتماعية، منها على وجه الخصوص: المصحات النفسية، المشافي، السجون، وكذلك أعماله فيما يخص تاريخ الجنس. وقد لقيت دراساته وأعماله في مجال السلطة والعلاقة بينها وبين المعرفة، إضافة إلى أفكاره عن "الخطاب" وعلاقته بتاريخ الفكر الغربي لقي كل ذلك صدى واسعاً في ساحات الفكر والنقاش .

الجنون والحضارة:

في كتابه " الجنون والحضارة" (١٩٦٥م) أمضى " فوكو" حواراً ما بين العقل والجنون. حيث يرى أن مدارس الطب والتحليل النفسي ذات جانب أخلاقي ، فوجودها لا يقصد به المعرفة بل هي مشروعات أخلاقية. فهي ليست محاولة علمية موجهة ضد المجانين الذين يعجزون باطراد عن حماية أنفسهم من هذه المساعدة، ويرى " فوكو" أن المجنون محكوم عليه بعقوبة ما يسمى بالتقدم العلمي نحو " السجن المعنوي النفسي الضخم". حيث يرى أن ما مر بالبشرية من تطور طبياً وإنسانيا في علاج المجانين. ما هو إلا تزايد قدرة العقلاء وممثليهم الأطباء، علماء النفس، المحللون النفسيون، على اضطهاد وقمع المجانين، والذين على قدم المساواة مع العقلاء في القرن السابع عشر. مثل الرؤية تختلف كلياً عن غيره من الاستنتاجات التي جاء بها المؤرخين التقليديين حول تاريخ الجنون ووضعه الراهن وعلاقته بالعقل وممثليه. حيث نجد تركيز "فوكو" على البحث في جذور المعرفة الإنسانية خاصة علم النفس والتحليل النفسي في التفرقة بين المجنون والعاقل وممارسة الضبط المعنوي النفسي على المجنون. ويشكل جزءاً من أطروحته الأكثر عمومية حول دور العلوم الإنسانية في الضبط المعنوي النفسي للناس[1].

---

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٣٤.

وتوصل " فوكو" إلى أن المجانيين قديماً هم آنذاك " بشراً" لا ضرر منهم ولا ضرار ، بل إن بعضهم كانوا يعتبرون من الموهوبين بنعمة إدراكية ما. أما في المجتمعات الحديثة، فقد سيطر الخطاب الطبي على تصور الجنون، وتعزز هذا الخطاب بشبكة واسعة متقدمة من الأطباء والخبراء والمستشفيات والجمعيات المهنية والمجلات الطبية المتخصصة[1].

الخطاب الطبي:

في كتابه " ميلاد العيادة الطبية" الذي ركز فيه على الخطاب الطبي وبنائه الأساس. بينما ركز في كتابه " الجنون والحضارة" أبرز الطب كعامل مهم يبشر بالعلوم الإنسانية. وكان يرى " أنه بني علم الإنسان على الطب". وكان الطب قبل القرن التاسع عشر علماً تصنيفياً وانصب التركيز بوضوح على النسق المنظم للأمراض، ثم جاء الطب في القرن العشرين ليركز على الأمراض كما هي متوطنة في الأفراد وفي المجتمع الأكبر " الأوبئة". وشمل الطب الناس الأصحاء " الرعاية الوقائية"، واتخذ موقفاً معيارياً يميز بين الأصحاء والمرضى. وفيما بعد بين الحالات العادية والمرضى. وقد أصبح الطب مرة ثانية بشيراً للعلوم الإنسانية التي كان عليها أن تتبنى هذا الموقف العادي المرضي من الناس.. ومن خلال تحليله البنيوي أشار إلى أن التطور الطبي الغربي لم يكن يحدث تطور في المعرفة بل حدث تغير معرفي. ولم يعد الأطباء يلعبون نفس اللعبة، فقد كانت لعبة مختلفة بقواعد مختلفة. وأصبحت اللعبة هي أن الناس المرضى - بدلا من المرض- أصبحوا موضوعاً للمعرفة والممارسة العملية. وفي سياق التوجه البنيوي عند " فوكو" فإن ما تغير هو ماهية الخطاب مثل أسماء الأمراض، ومجموعات الأمراض وما إلى ذلك. وبالتالي اضطلع الطب بدور المبشر للعلوم الإنسانية. مما يؤكد أهمية الطب في تشكل علوم الإنسان، وهي أهمية ليست منهجية فقط بل أهمية معرفية (أنطولوجية).

النظام والعقاب:

في كتابه " النظام والعقاب " (١٩٧٩م) والتي اهتم فيها بدراسة في تاريخ السجون في الفترة من ١٧٥٧م إلى ثلاثينيات القرن الماضي. وهي الفترة التي شهدت

---

[1] انظر تقييم أنتوني غيدنز لأعمال فوكو في : أنتوني ، غيدنز (٢٠٠٦). مرجع سابق، ص ٧٢٢.

إحلال السيطرة على المسجونين بقواعد السجن محل تعذيبهم. وكان يرى : " أن هذا التغير حدث بطريقة غير نظامية، ولم يحدث بطريقة عقلانية رشيدة". ووجهة النظر العامة هي أن التغير جسد إضفاء الطابع الإنساني على معاملة المجرمين. حيث أصبحت النظرة أكثر شفقة وأقل ألماً ووحشية. والحقيقة أن العقاب من وجهة نظر " فوكو" أصبح أكثر رشداً. وكان تعذيب المسجونين في بداياته من أجل الصالح العام. إلا إن كان استثماراً سياسيا للقوة لأنه يحرض من يشاهدون مشهد التعذيب على إثارة الاضطراب. ثم أصبحت هذه العلاقة واضحة بين المعرفة والقوة في حالة التعذيب، ثم أصبحت هذه العلاقة أقل وضوحاً مع تطوير قواعد التعذيب. فقد أصبح النظام الجديد لهذه القواعد أكثر قانونية وفاعلية وثباتاً وتأثيراً أي أن هذا النظام زاد من تأثيره وقلل من تكلفته الاقتصادية. وقد وضع النظام الجديد ليكون أكثر إنسانية. ولكنه وضع أيضاً من أجل عقاب أفضل، ومن أجل إقحام القوة لمعاقبة الجسد الاجتماعي بدرجة أكثر وطأة. وعلى العكس من التعذيب تحدث التقنية الجديدة للقوة في العقاب في مرحلة مبكرة من عملية الانحراف، بشكل أكثر تنوعاً وبيروقراطية وكفاءة وموضوعية وتغيراً واعتدالاً ولا تقتصر المراقبة على المجرمين وحدهم، بل تشمل المجتمع برمته[1]. كما توصل " فوكو" إلى أن هناك نتائج إيجابية إلى تطور المجتمع المنضبط. فهو ينظر إلى الانضباط على أنه يؤدي وظائفه أداءً جيداً في الجيش وفي المصانع. ومع ذلك ذلك أبدى مخاوفه من الإفراط في الانضباط خاصة عندما يتغلل في شبكة الدولة " الشرطة" التي يصبح فيها المجتمع برمته مجالاً للمراقبة وموضوعاً للانضباط. فالانضباط يتغلغل في المجتمع ويؤثر في كل جزء فيه. وفي نهاية الأمر تتأثر معظم النظم الأساسية بالانضباط. ويقول:" أليس من العيب أن السجون تشابه المصانع والمدارس والثكنات والمستشفيات التي تشبه جميعها السجون". كما توصل " فوكو" إلى الانتقال من التعذيب إلى قواعد السجن تشكل تحولاً من عقاب الجسد إلى عقاب الروح أو الإرادة. وهذا بدوره جلب معه الاهتمام بالمعايير والأخلاق. فالمسئولين عن السجن ورجال الشرطة يصدرون أحكامهم على معايير السجون وأخلاقه. وتمتد هذه القدرة على إصدار الأحكام إلى الأحكام الأخرى على

---

[1] انظر: ميشيل فوكو (١٩٩٠). مرجع سابق. وكذلك: عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٣٦.

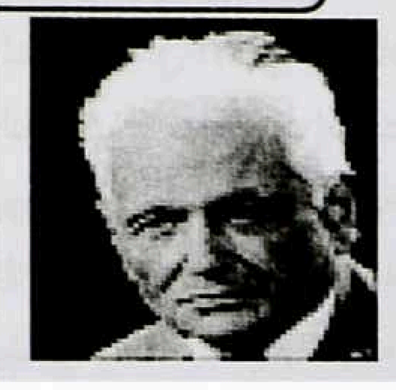
المستوى الأصغر مثل المحللين النفسيين والتربويين. وانبثق عن هذا مجموعة جيدة من المعرفة العلمية العقابية التي شكلت أساس المعرفة القانونية العلمية الحديثة. وأصبح هذا اللون الجديد للخضوع هو أن الناس أصبحوا موضوعاً للمعرفة والخطاب العلمي. والنقطة الأساسية هي أن جذور العلوم الإنسانية الحديثة تكمن هنا. وقد درس فوكو "برج المراقبة" الخاص بمراقبة السجون. وهو يأخذ شكل البرج في وسط السجن. والذي يراقب منه الحراس كل الزنزانات. وهو مصدر هائل للقوة للمسئولين في السجن. لأنه يتيح لهم إمكانية المراقبة التامة. والأكثر أهمية أن قوة هذا البرج تزداد لأن المسجونين يتحكمون في أنفسهم بالامتناع عن إتيان أفعال عديدة لأنهم يخشون من أن يراهم الحراس. ويرى " فوكو" أن برج المراقبة بمثابة مختبر لجمع معلومات عن الناس. وكان ذلك نذير ظهور المختبر العلمي الاجتماعي والأساليب الأخرى لجمع البيانات عن الناس في العلوم الاجتماعية الأخرى. وهو من جهة أخرى يشكل نمطًا كليا من المجتمع وهو المجتمع المنضبط[1].

والخلاصة وفق رؤية " فوكو " ومن مجموع أطروحاته والتي تركزت على الخطاب والذي يؤدي دوراً مركزياً في آرائه حول السلطة والسيطرة في المجتمع. نجد أن الخطاب يشير إلى مجمل أساليب الحديث والتفكير التي تنتظمها مجموعة من الافتراضات المتقاربة حول قضية ما. وبالتالي تعمل السلطة من خلال الخطاب على قولبة التوجهات والمواقف العامة لدى الناس تجاه مجموعة من الظواهر مثل الجريمة والجنون، والنشاط الجنسي. ومن هنا فإن هذه الخطابات تمثل أدوات قوية تحد من وسائل التفكير أو الحديث البديلة، وتصبح المعرفة واحدة من قوى السيطرة والضبط، وتتكرر في كتابات فوكو" الفكرة القائلة أن العلاقة بين السلطة والمعرفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتقنية الرقابة، وتطبيق القانون وفرض الانضباط. ويقدر علماء اجتماع العلم وجهة نظر "فوكو" حول الخطاب " الممارسات" باعتبارها صيغة من فكرة النموذج، على الرغم من أن " فوكو" قد استفاد بدرجة أكبر من تجارب الحياة اليومية واللغة العادية لتحديد معالم هذه المعارف النموذجية[2].

---

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٣٣٧-٣٣٨.

[2] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٤٢٢.



نظرية جاك دريدا (١٩٣٠-٢٠٠٤م):

جاك دريدا فيلسوف فرنسي. ولد عام ١٩٣٠م في الجزائر وتوفي عام ٢٠٠٤م . صاحب نظرية التفكيكية في مجال الأدب . تعلم في السوربون الفلسفة العامة والمنطق. انطلق في إيضاح منهجه وذاع صيته منذ عام ١٩٦٦م عندما ألقى محاضرة في جامعة جون هوبكنز في واشنطن بعنوان " في نقد البنيوية". شارك في مسيرات في ثورة ١٩٦٨م في فرنسا. درس الطبقات الاجتماعية وصراع الطبقات والأيديولجيات من منظور التفكيكية. من أشهر مؤلفاته، " الكتابة والاختلاف" ، " الانتشار"، هوامش الفلسفة"، " الحقيقة بالرسم"، " قاطع الطريق"، " مفهوم ١١ سبتمبر" بالاشتراك مع يورغن هابرماس أحد علماء المدرسة النقدية في علم الاجتماع.

في معرض انتقاده للحداثة شكك " جاك دريدا" J. Derrida في إمكانات البنيوية، ورأى أن النظام الميتافيزيقي هو كل نظام فكري لا يمكن مهاجمته وتقويضه، لهذا يجب اجتثاثه من جذوره، وأن محاولة تصور مجتمع معقلن محاولة فاشلة، لأن إدارة عقلانية للأشياء هي فكرة خاطئة، وأن الحياة الاجتماعية التي تخيلها فلاسفة الحداثة شفافة، تحكمها اختيارات عقلانية، انكشفت عن أنها مملوءة بالسلطات والنزاعات. بينما كان التحديث نفسه يبدو تدريجيا أقل نموا في الداخل، وأكثر استجابة لتحريض الإرادة القومية، أو الثورات الاجتماعية. وأن المسافة التي تعمقت بين الحداثة والتحديث، بين الرأسمالية والقومية، قادت إلى تلاشي الحلم بمجتمع حديث يحدده انتصار العقل.

وقد كان تأثير " دريدا" قوياً في مجالات النقد الأدبي ونظرية الأدب، والتحليل الثقافي. ويثمن النقاد في مجال الأدب منهج قراءة النصوص الذي أطلق عليه " دريدا" منهج التفكيك Deconstruction. وقد انتشر منهج "التفكيك" كانتشار النار في الهشيم في أقسام الإنسانيات بالجامعات الأمريكية متحدياً النظرية التقليدية في الأدب والنزعة النقدية الثقافية التي سادت من خلال النزعة الموضوعية في تحليل النص. ومع أن "دريدا" لم يطور منهجاً للتفكسك واحداً، رافضاً النزعة إلى البرمجة مفضلاً عليها قراءته

النموذجية في الأدب والثقافة والفلسفة، فإنه يصبح من السهل أن نرى تحدي منهج التفكيك الأدبي للافتراضات التقليدية حول كيفية قراءة النصوص وكتابتها. والحقيقة أن بعض هذه الرؤى التفكيكية بدأت في إثراء العلوم الاجتماعية كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، خاصة فيما يتعلق بتحليل العالم والممارسات الثقافية. عن رؤية " دريدا" بشأن قراءة النص وكتابته تكشف النموذج الوضعي للباحث الذي يعكس العالم الخارجي بشكل مبسط، ذلك أن نموذج " دريدا" يطرح طرقاً جديدة لكتابة العلم وقراءته[1].

وبهذا التوجه، طرح دريدا مفهوم "التفكيك "، لا بقصد تفكيك المركزية الأوروبية فحسب، بل لنقد أشكال الهيمنة داخل الحداثة نفسها، وتحقيق أشكال جديدة من الحريات الفردية داخل الحداثة. ويقوم التفكيك لديه على مقولات أساسية، تنظيم استراتيجية في القراءة والتأويل، وتصديع بنية الخطاب واستيضاح المطمور من شبكته الدلالية، من أهمها:

١- مقولة "الاختلاف" وتعني لديه الإزاحة التي تضحى اللغة بواسطتها أشبه ببنية من متغيرات الحضور والغياب.

٢- مقولة "التمركز حول العقل" الذي صاغه في محاولة منه لهدم اليقين المطلق في الفكر، لتأسيس بنية قوة في خارطته[2].

٣- مقولة التداخل النصي بين الكتابات: حيث يرى " دريدا" أن التداخل النصي بين الكتابات التي تحاول صد نفسها عن المؤثرات الملوثة للروايات الأخرى ، والكتاب الآخرين، وفروع المعرفة الأخرى. بينما جميع النصوص تتأثر بالنصوص الأخرى إلى حد التداخل بينها.

---

(١) عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٤٢٧.

(٢) جاك دريدا (١٩٩٨) الكتابة والاختلاف . ترجمة كاظم جهاد، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ص ١٠٧.

نظرية فردريك جيمسون F. jameson :

حياته:

فردريك جيمسون ناقد ماركسي أمريكي ومنظر سياسي ولد عام ١٩٣٤م في ولاية أهايو. وتخرج من جامعة هارفارد عام ١٩٥٤م. ونال الدكتوراه عام ١٩٦١ من جامعة بال. درس في جامعة كاليفورنيا عام ١٩٦٧م. يعمل حاليا أستاذ الأدب المقارن في جامعة ديورك منذ عام ١٩٨٥م، وكان مديرا للدراسات العليا للأدب والنظرية بجامعة يورك. يعد من أفضل الباحثين والنقاد في تحليل الاتجاهات الثقافية المعاصرة، أضفى تفسيره لتطورات النظرية الأوربية والثقافة المعاصرة الأوروبية أهمية كبرى على دراساته الأدبية والثقافية. من مؤلفاته كتاب " سجن اللغة" عام ١٩٧٢م، كتاب " ما بعد الحداثة: المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة" عام ١٩٨٤م. و " اللاعقلانية السياسية " ١٩٨١م. و"الماركسية والشكل " ١٩٧١م. و " القصص كنشاط رمزي اجتماعي" عام ١٩٨١م. اهتم بدراسات النقد الثقافي والماركسية وتحليل البنيوية. حصل عام ٢٠٠٨م على جائزة "هولبرج" التذكارية الدولية في النرويج.

يهاجم الناقد الأمريكي " فردريك جيمسون". F. jameson ما بعد الحداثة، بمعاينة تجلياتها الثقافية، وبخاصة في فنون العمارة والرسم والسينما والفيديو والأدب، برؤية سوسيولوجية، تتوخى مقاربة هذه التجليات ضمن إطارها الاجتماعي. ولديه، فبرغم أن النماذج الفكرية تقوم عادة على التأثر المباشر بالتكوين الاقتصادي الاجتماعي، فإن نزعة التنوير ترتبط بمرحلة الرأسمالية الميركنتالية، التي سادت أوروبا في القرن السابع عشر حتى الثلث الأخير من القرن الذي يليه، وتتسق مع نشاط هذه المرحلة الزراعي والتجاري وترفدها تقنية البخار والقاطرة والدولة القومية كوحدة أساسية آنذاك، أما نزعة الحداثة، فترتبط بالرأسمالية الإمبريالية التي تبدت منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وتتسق مع النشاط الصناعي، وتقنية الكهرباء والسيارة وغزو المستعمرات وتقسيمها واحتكارها، على حين ترتبط نزعة ما بعد الحداثة بالطور الراهن الثالث للرأسمالية، أي بالرأسمالية متعددة الجنسيات، وتقنية الاتصال والمعلومات والعالم كله كفضاء لها . أو ما أطلق عليه " المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة".

وينظر "جيمسون" إلى ما بعد الحداثة، كجزء من تغيرات واسعة ومتعددة الأوجه، تمثلت عمليا في:

- ثورة الإلكترونيات ووسائل الاتصال.
-في الانتقال من النموذج الفيزيائي الكتلي إلى النموذج البيولوجي التفاعلي.
-سياسيا في تنامي ظواهر اجتماعية جديدة كحركات البيئة والنساء والهويات الثقافية.
- ونظريا في الانعطاف نحو التفكير في المنظومة اللغوية من زاوية اللاتحديد واللامقايسة.

ويخلص جيسون إلى أنها تعمل في الإطار المعرفي الكامن للعولمة، حين تنطلق من قبول جوهر الرأسمالية حيث لم تعد الرواسب ما قبل الصناعية، من ريفية ورعوية وحرفية، تلعب أي دور في الاقتصاد السياسي للمجتمع، وأن روح ما بعد الحداثة هي بمثابة روح رأسمالية عصر الشركات الكونية، حيث يقوم رأس المال بإلغاء كل الخصوصيات، كما يلغي الذات المتماسكة التي يتحد فيها التاريخي والذاتي، وتحل القيمة التبادلية العامة محل القيمة الآلية للأشياء[1].

إذاً ما بعد الحداثة لا تقتصر على نقد الحداثة، بل بنفيها، وسقوطها النهائي، بعد أن وصلت إلى نهايتها، وأخفقت في تحقيق وعودها، بما يجعل من هذا الفكر أشبه بتحول جذري في شروط الوجود الحالة، أي شروط مجتمع:

- تنبثق فيه قوى سياسية جديدة.
- تنشط قوى ثقافية طليعية.
- تستنفد فيه بعض الأيديولوجيات الكلاسيكية.
- شروط طرح سؤال المشروعية بوصفه مشروعية ذاتية للسلطة، وفقدانا لمشروعية الأنساق الفكرية المغلقة التي عادة ما تأخذ شكل المذاهب والأيديولوجيات.
- شروط مجتمع ما بعد صناعي معلوماتي.
- شروط المؤسسات الجديدة للرأسمالية العابرة للقوميات.

(1) Jameson ,F.(1991). :Postmodernism or-the cultural Logic of late capitalism, Verso, London New York,p.15.

نظرية فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ :



حياته:

فوكوياما عالم ومفكر أمريكي من أصول يابانية ولد في مدينة شيكاغو عام ١٩٥٢م من أهم كتبه كتاب " نهاية التاريخ والإنسان الأخير" ، وكتاب " الانهيار والتصدع العظيم". يعد من أهم الفلاسفة والمفكرين الأمريكين المعاصرين. أستاذ للإقتصاد السياسي الدولي ، ومدير لبرنامج التنمية الدولية بجامعة جونز هوبكنز. وعمل مستشاراً في وزارة الخارجية الأمريكية. تخرج من جامعة كورنيل من قسم الدراسات الكلاسيكية. وحصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد في تخصص العلوم السياسية. أسس مع مجموعة من المنظرين مركز بحوث مشروع القرن الأمريكي. كما يعد من المحافظين الجدد أو من منظريهم الذي يهتم بضرورة التخلص من الأنظمة الاستبدادية والسلطوية. في عام ٢٠٠٤م أعلن تخليه عن فكر المحافظين الجدد جراء ما حدث بعد غزو العراق من مبالغة في تقييم خطر التشدد الديني على الولايات المتحدة الأمريكية، وازدياد مشاعر العداء للولايات المتحدة في العالم، وأيضاً التفاؤل الزائد في ترويج قيم الثقافة الغربية في العراق والشرق الأوسط بصورة عامة. في عام ٢٠٠٦م وفي مقالة في صحيفة نيويورك تايمز شبه حركة المحافظين الجدد باللينينية. وأعلن أن كسب عقول وقلوب المسلمين حول العالم هي المعركة الحقيقية وليس الحرب على الإرهاب.

تعد نظرية نهاية التاريخ من أحدث نظريات التغير ، قدمها المفكر الأمريكي "فرانسيس فوكوياما " عام ١٩٨٩م بعد سقوط الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ودول

أوروبا الشرقية . تتأسس هذه النظرية على آراء " هيجل" التطورية التى تنظر إلى التطور على أنه انطلاق نحو الكمال، العقل الكامل، الدولة الكاملة والقيم المطلقة ، إنه تطور نحو المطلق يختمه قانون الجدل ويسعى به إلى أفضل الصور وأكملها. لقد اعتمد فوكوياما على فكرة " هيجل" حول : الرغبة في الاعتراف والتقدير. والتي اعتبرها هيجل فكرة محركة للتاريخ. ينظر فوكوياما إلى الديمقراطية الليبرالية المعاصرة، والتي تمثلها أمريكا، على أنها ألغت فكرة العلاقة بين السادة والعبيد ، والتي كانت موجودة بشكل أو بآخر في النظم السياسية الأخرى [١].

كانت هذه النظم تنشغل بالبحث عن الاعتراف، الذي يتمثل في صورته الملموسة في النزاع بين شخصين متحاربين . إن هذه الرغبة في الاعتراف هي التي تجعل أيا منهما يموت استسلاما للآخر ، وهي التي تجعل النظم السياسية تتأسس على علاقات تسلطية، وهي التي تجعل دولا تسيطر على دول اخرى وتقيم إمبراطوريات .

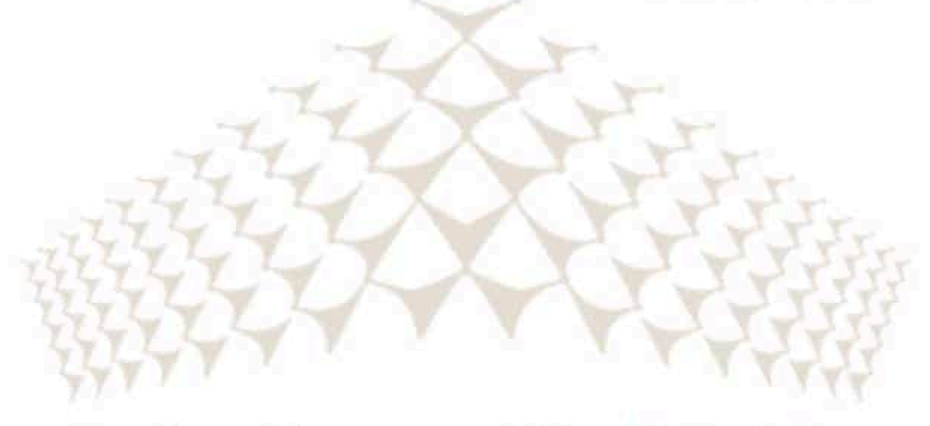
وطبقاً لنظرية " فوكوياما" فإن الديمقراطية قد أثبتت نجاحها في تجارب متكررة منذ الثورة الفرنسية وحتى وقتنا الحاضر وأنها أفضل النظم التي عرفتها الإنسانية أخلاقياً وسياسياً واقتصادياً. ولا يعني هذا أن العالم قد انتهى من أحداث الظلم والاضطهاد في التاريخ. وإنما التاريخ هو الذي انتهى حتى وإن عادت نظم استبدادية للحكم في مكان ما، فإن الديمقراطية كنظام وفلسفة ستقوى أكثر من ذي قبل[٢].

---

[١] هناك من يرى أن ما جاء به فرانسيس فوكوياما هو تحريف واضح للمفاهيم الهيجلية الشديدة الرصانة الذي كان يرى في النموذج الالماني في المسيحية البروستانتية والدولة البروسية الألمانية نهاية التاريخ والوصول للقمة أو ما كان لدى ماركس في أن نهاية التاريخ بالنموذج الشيوعي (انظر: مبروك، علي (٢٠٠٦). خطاب فوكوياما.. أطياف هيجل ونيتشة.. في كتاب (لعبة الحداثة بين الجنرال والباشا)، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ص ٤٤٧-٤٦٦)..

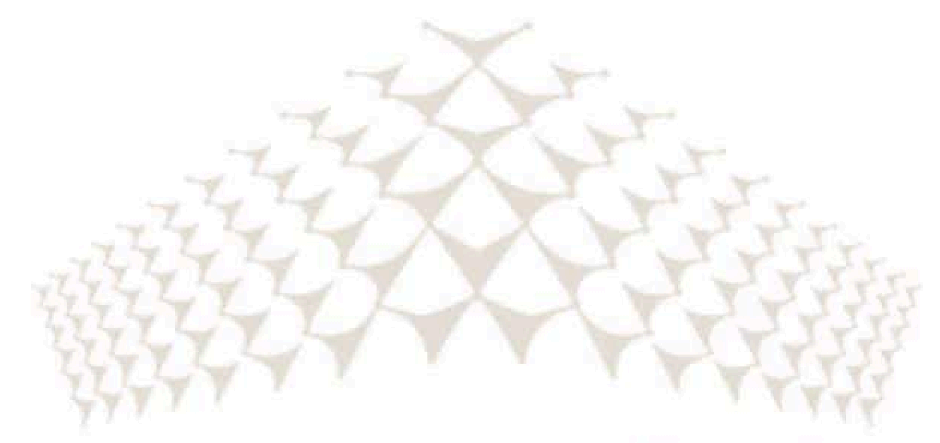
[٢] كما وجهت له انتقادات كبيرة قادته لتعديل نظريته في كتابه " التفكك الهائل: الطبيعة البشرية وإعادة النظام الاجتماعي" عام ١٩٩٩م الذي ناقش فيه الأزمات الاقتصادية العالمية وأيقن بأهمية الثورة التقنية للمعلومات، والطابع الديناميكي لعلم الطبيعة والتصورات العلمية الجديدة وتهديد ثورة التقنية الحيوية التي قد تؤدي إلى القضاء على البشرية. وإنشاء تاريخ جديد لها. وكذلك انظر كتب: فرانسيس فوكوياما (٢٠٠٧). مستقبلنا بعد البشري: عواقب ثورة التقنية الحيوية. ترجمة إيهاب عبد الرحيم، أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

لقد ظل الأمر هكذا طوال البشرية ، طالما أن الرغبة في انتزاع الاعتراف تتأسس على أسس لا عقلانية. أما الليبرالية الديمقراطية - التي ظهرت بعد الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية - فقد بدلت الرغبة غير العقلانية في الاعتراف بالدولة أو الفرد ، وأحلت محلها رغبة عقلانية في الاعتراف بالدولة أو الفرد ، على أساس من المساواة . ويعني ذلك أن الليبرالية الديمقراطية قد حلت معضلة الصراع التاريخي من خلال قيمة المساواة . وهي بذلك تكون قد أوقفت التاريخ عن الحركة ، فهي إذن نهاية التاريخ وسوف تتطور نفس المجتمعات لتصل إلى نفس هذه النهاية . وليس ثمة مجال آخر للتطور بعد الديمقراطية الليبرالية التى تحقق للفرد ذاته وكماله وتخلق إطارا من المساواة ، وتختفي فيه السيطرة الإمبريالية[٣].

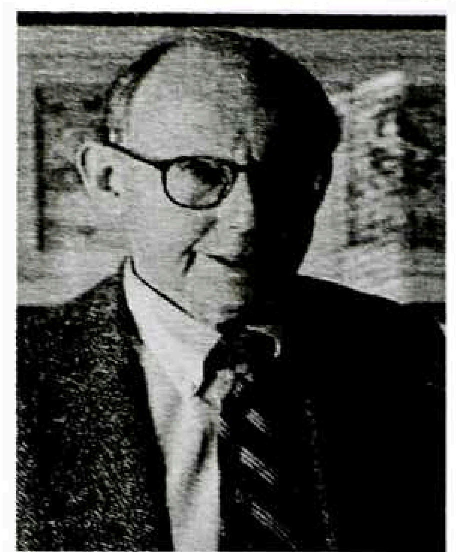


---

[٣] انظر: كتاب: فرانسيس فوكوياما (٢٠٠٢). نهاية التاريخ وخاتم البشر. ترجمة حسين أحمد أمين، القاهرة. وكذلك: فرانسيس فوكوياما (١٩٩٥). نهاية التاريخ والإنسان الأخير. ترجمة فؤاد شاهين، بيروت: مركز الإنماء القومي.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

نظرية صمويل هنتنجتون : صدام وصراع الحضارات:



حياته:

ولد صامويل هنتنجتون في أبريل عام ١٩٢٧م وتوفي في ديسمبر عام ٢٠٠٨م. عمل أستاذا للعلوم السياسية في جامعة يال، وجامعة هارفارد. كما عمل خبيرا إستراتيجيا في مجلس الأمن القومي الأمريكي في إدارة الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، وكذلك رئيساً للجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، ومحرر رئيس لمجلة " السياسة الخارجية". اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية. برز اسمه أول مرة في الستينات من القرن الماضي بنشره لبحث بعنوان " النظام السياسي في مجتمعات متغيرة" وهو العمل الذي تحدى فيه النظرة التقليدية لمنظري التحديث والتي كانت تقول بأن التقدم الاقتصادي والاجتماعي سيؤديان إلى قيام ديموقراطيات مستقرة في المستعمرات حديثة الاستقلال. ورغم أن لديه ١٧ كتاباً و ٩٠ مقالاً علمياً، إلا أنه لم يشتهر منها سوى كتاب (صدام الحضارات) وكتاب " من نحن؟ التحديات للهوية القومية الأمريكية" الصادر عام ٢٠٠٤م.

فرضيات النظرية:

صاغ عالم السياسة الأمريكي " صمويل هنتنجتون" هذه النظرية في مقالة تحمل عنوان (الصدام الثقافي) عام ١٩٩٣م في صحيفة " فورين آفرز Foreign Affairs " الأمريكية. والذي آثار جدلاً كبيراً من مختلف دول العالم. ثم طورها في كتاب نشر عام

١٩٩٦م بعنوان " صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي الجديد" الذي ترجم إلى ٣٩ لغة من لغات العالم. والذي تناول فيه عدة موضوعات منها: مفهوم الحضارات، مسألة الحضارة الكونية، العلاقات بين القوة والثقافة، ميزان القوى المتغير بين الحضارات، العودة إلى المحلية، التأصيل في المجتمعات غير الغربية، البنية السياسية للحضارات، الصراعات التي تولدها عالمية الغرب، مستقبل العرب وحضارات العالم.. ويقصد " هنتنجتون" هنا بالحضارات كأعلى تجمع ثقافي وأوسع مستوى للهوية الثقافية للشعب. بل قد يجمع دول ومجتمعات بشرية مختلفة في جوانب كثيرة.

وتقوم هذه النظرية على فرضية أن النزاعات في العالم لم تعد تقوم على العوامل الاقتصادية أو الأيدلوجية. وإنما على المعايير الثقافية. باعتبار أن الانقسامات والتوزيعات البشرية ستقوم على الثقافة. والمصادر المسيطرة للنزاع ستكون المصدر الثقافي. وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسة الدولية. وبالتالي يرى " صمويل هنتنجتون" أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل.

والحضارات الرئيسة والفاعلة في عالم اليوم هي سبع حضارات وهي: الغربية، الكونفوشيسية، الإسلامية، الهندية، الأرتوزركسية، الأمريكية اللاتينية، الأفريقية. وأن ما يحكم العلاقة بين تلك الحضارات هو " الصدام" والذي أساسه الثقافة أو الهوية التي تحكم كل حضارة. ومسببات الصدام الحضاري حسب رؤية " هنتنجتون: هي ستة مسببات:

١- طبيعة الفروق الجوهرية بين الحضارات من حيث التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد وعلى الأخص الدين، وهي اختلافات لها جذورها التاريخية البعيدة.

٢- تزايد التفاعلات بين الشعوب المختلفة في عالم يزداد تقارباً مما ينجر عنه وعي الحضارات بتميزها وتفردها.

٣- انعكاسات مسار التحديث الاقتصادي والاجتماعي على الهويات المحلية مما يولد هاجس تحصين الهوية الثقافية ضد الإختراق الأجنبي.

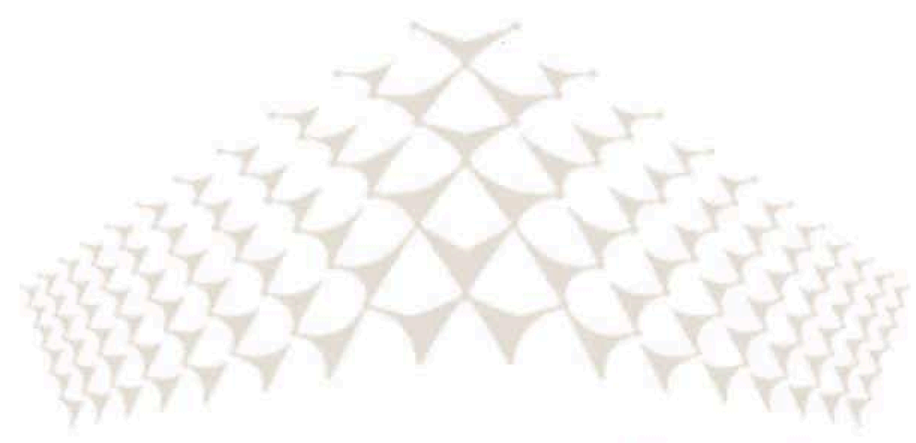
٤- الطابع المزدوج للغرب، الذي يمثل نموذجاً للاحتذاء وخصماً يتوجب الانكفاء عن قيمه ومسلكياته الاجتماعية والثقافية.

٥- استحالة القضاء على الفوارق الثقافية وتقديم التسويات المعهودة في المجالات الاقتصادية والسياسية.

٦- تزايد النزاعات الإقليمة الاقتصادية، وتحولها إلى نمط تكتل ثقافي.

ويوضح " هنتنجتون" مسببات الصدام المتوقع بين الإسلام والحضارة العربية وفق رؤية تاريخية لطبيعة النزاع في منطقة المشرق وجنوب أوروبا من الحروب الصليبية والحروب العثمانية الأوربية وانتهاء بالاستعمار. كما توقع بعض أشكال الصراع مع الحضارات الصينية والهندية والكونفوشيسية والقيم اليابانية والنموذج الأسيوي [1]. وقد جوبهت أعماله بانتقادات واسعة واعتبرت تشريع لعدوان الولايات المتحدة الأمريكية على العالم الإسلامي والصين. مما جعله يعيد النظر في بعض مفردات نظريته ويلح في أن تكف الولايات المتحدة الأمريكية على التداخل الملح في شؤون الآخرين وأن تهتم بتقوية نفسها من الداخل.

[1] صمويل هنتنجتون (١٩٩٥). صدام الحضارات. بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث، ص ١٤-٣٨.



نظرية دانيال بيل : مجتمع المعلومات:



حياته:

ولد دانيال بيل عام ١٩١٩م في الولايات المتحدة الأمريكية، عالم اجتماع أمريكي ارتبط اسمه على وجه الخصوص بالجدل الدائر حول " نهاية الأيدولوجيا" وبمفهوم " المجتمع ما بعد الصناعي" وكذلك مفهوم " المجتمع القائم على المعرفة" تخرج من جامعة كوليج بنيويورك وجامعة كولومبيا. ودرس في جامعتي شيكاغو وكولومبيا. ثم أصبح أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة هارفارد عام ١٩٦٩م.من مؤلفاته، " نهاية الأيدولوجيا" ١٩٦٠م، " نحو العام ٢٠٠٠" ١٩٦٨م، " حاضر الرأسمالية " ١٩٧١م، " قدوم المجتمع ما بعد الصناعي " ١٩٧٣م، " التناقض الثقافي في الرأسمالية" ١٩٧٦م. اكتشف نظرية التقارب التي ظهرت في أواخر الخمسينات. والتي افترضت أن الحاجات التقنية والاقتصادية في التنظيم الاجتماعي أعظم تأثيراً من الأيديولوجية السياسية في تشكيل البنية الاجتماعية. ولهذا فإن المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الاشتراكية تتحول تحولاً مطرداً إلى التماثل. كما أسهم " بيل" في الدراسات المستقبلية. حيث رأس عام ٢٠٠٠م لجنة الدراسات المستقبلية التي شكلتها الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم. وتقول فرضية " المجتمع ما بعد الصناعي" أن المجتمعات الصناعية تدخل مرحلة جديدة من التطور أكثر تقدماً من الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يتميز المجتمع ما بعد الصناعي بوثاقة العلاقة بين العلم والتقنية وبأفضلية النظرية على التطبيقية. وبهيمنة العلماء والتكنوقراط الذين يستمدون قوتهم من معارفهم المتخصصة ، وتصبح الجامعة مؤسسة أساسية مسئولة عن إنتاج المعرفة وتقويمها، وتحفيز النمو التقني. ويصبح الاهتمام بالجماعات التقنية والمهنية والعلمية التي تنتشر انتشارا سريعاً هو الروح

الأساسية في المجتمع ما بعد الصناعي، مما يعد بالمزيد من التجانس الاجتماعي، ويختفي النزاع الطبقي الاقتصادي ليحل محله الخلاف العام حول قضايا الصحة والتعليم والبيئة وما شاكل ذلك.

المنطلقات النظرية:

في ضوء نظرية مجتمع المعلومات، يرى " بيل Bell " أن تحول المجتمع من مرحلة ما إلى أخرى هو انعكاس لتغيرات في الأطر الاجتماعية بمعنى أن عملية التغير المجتمعي تتضح من خلال الهياكل المكونة للمؤسسات التي هي بمثابة تنظيم يشمل العديد من الأفراد.

وترجع أصول هذه النظرية عندما كان "دانيال بيل" من المهتمين مبكراً بظاهرة التغير الاجتماعي والذي أتى من منطلق ما ستكون عليه اتجاهات التغير مستقبلاً. حيث يرى إن حقبة الثورة الصناعية قد انتهت، وبدأ بزوغ حقبة جديدة أطلق عليها حقبة المجتمعات بعد الصناعية Post- Hndustrial وهو يرى أن الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع " بعد الصناعي" بدأت منذ أصبح أكثر من ٥٠٪ من فئة العمل منخرطة في وظائف الخدمات بدلاً من وظائف الإنتاج. والتي بدأت اعتبارا من عام ١٩٥٦م. وتأتي أهمية هذه المرحلة من أن حياة العاملين في وظائف الخدمات تختلف عن حياة الأشخاص الذين يعملون في وظائف الإنتاج. وذلك من حيث القيم والاتجاهات وأنماط الحياة. ويتميز بزوغ المجتمع " بعد الصناعي" بسيطرة الوظائف المهنية والأساليب التقنية. وأولوية المعرفة النظرية واستخداماتها في مجال التخطيط الاجتماعية، وتطور التفكير التقني لتطوير المعرفة الجديدة[1] .

ويضرب "بيل" Bell مثالا لأحد التغيرات التي قد تحدث في تغير توزيع المهن على الأفراد في ظل عصر المعلومات، حيث يرى أن تكنولوجيا المعلومات أثرت على سوق توزيع العمل مما أدى لظهور مفاهيم دقيقة مثل: اقتصاد المعلومات. القائم على

---

[1] انظر: دانيال بيل (١٩٩٨). المعلوماتية بعد الإنترنت. الكويت: المجلس الأعلي للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد (مارس). وكذلك أحمد، أبو بكر (٢٠٠٢). التحول إلى مجتمع معلوماتي نظرة عامة. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ص ١٣.

اكتساب الأفراد للمهارات التقنية ومفهوم مجتمع المعلومات الذي يتسم أفراده بمهارات الاتصال والرؤية اللازمة لتحيل استراتيجيات محددة للاستفادة من تكنولوجيا المعلومات ويتميز أولئك الأفراد أيضا بحصولهم على مزايا عديدة من فرص التعلم وامتلاك أدوات المعلوماتية[1] .

أبعاد مجتمع المعلومات عند دانيال بيل Bell :

يصوغ " بيل " (Bell, 1973) فكرة الأركان الإحداثية التي تفسر الأطر الاجتماعية وتدرس تماسك المجتمع من خلال وضع مفهوم يوضح تنظيم المجتمع، فيصنف المجتمع ما بعد الصناعي (مجتمع المعلومات) إلى ثلاثة كيانات: اجتماعية، سياسية، ثقافية. ويشتمل الكيان الاجتماعي على النواحي الاقتصادية والتكنولوجية ونظم العمل، أما الكيان السياسي فهو المعنى بتوزيع السلطات والكيان الثقافي يهتم بالمعاني والرموز وهذه الكيانات تحكمها محاور. فعلى سبيل المثال يحكم البناء الاجتماعي المحور الاقتصادي بينما يحكم الكيان السياسي محور المشاركة أما الكيان الثقافي فيحكمه إبراز الذات والهوية. وفى ضوء هذه الكيانات والمحاور يرى "بيل" Bell أن في مجتمع المعلومات يحدث التالي-:

- تتغير أدوار الأفراد في المجتمع لبلوغ غايات محددة، ويعتمد على ذلك ظهور أنماط جديدة في السلوك على الأفراد مراعاتها لمواءمة حالة المجتمع الجديد ومثال ذلك انتشار النواحي التخصصية والعوامل المعرفية والتي تتطلب نشاطا مماثلا من الأفراد.

- تنشأ علاقة تنافسية بين البناء الاجتماعي والكيان السياسي وذلك لأن مجتمع المعلومات قائم على تطور البناء الاجتماعي وظهور الجوانب المعرفية والأهمية المعلوماتية مما يسحب البساط من تحت أرجل النخبة السياسية الحاكمة.

- يعتمد ظهور أنماط جديدة في حياة أفراد المجتمع على درجة المعرفة النظرية والإدراكية التي ترتبط بجوانب الثقافة المجتمعية مما قد يؤدي إلى ظهور النزعة الفردية.

---

[1] انظر: الفصل الثالث (نظرية المعلومات) من كتاب: آرمان متلار وميشال ماتلار (٢٠٠٥). تاريخ نظريات الاتصال. بيروت: المنظمة العربية للترجمة. للتعرف على تأثير وسائل الاتصال والعولمة راجع دراسة : البشر، بدرية (٢٠٠٨). مرجع سابق.

وينظر "بيل" Bell إلى المجتمع ما بعد الصناعي على أن محوره الرئيس ولب تكوينه يتمثل في عملية المعرفة ويعلل ذلك بالقول أن المعرفة هي الضابط الاجتماعي والموجه لعمليات الإبداع والتجديد والتغيير التي تعمل على نشأة علاقات وهياكل مجتمعية جديدة. ويتمركز مفهوم هذا المجتمع الجديد حول القطاع الاقتصادي والمعنى بالإنتاج والخدمات وتقسيم فئات العمل. فعلى سبيل المثال يمكن الجزم بوجود فئة "عمال المعرفة" في هذا العصر كما كان الحال في غضون حقبة التصنيع حيث سادت فئة "التكنوقراط" ويضيف "بيل" أن ما يميز مجتمع المعلومات أهمية الشعور بالتوجه المستقبلي وانعكاس ذلك على عمليات صنع واتخاذ القرار.

لذا يستعرض بيل العديد من التوجهات المستقبلية مثل التنبؤ السوسيولوجي الذي يعتمد على:

أ- استقراء الاتجاهات الاجتماعية وتحديد العوامل التاريخية المؤثرة في مستويات التغير الاجتماعي.

ب- التنبؤ الاقتصادي حيث أنه هام في معرفة أنماط الاستهلاك ونشاطات العمل .

جـ- التنبؤ التقني الذي يركز على التخطيط والتقييم التقني لاستشراف القواعد الحاكمة للتكنولوجيا في ضوء تصنيف فئات المجتمع الجديد.

ملامح التغير الاجتماعي في مجتمع المعلومات:

يعرف "بيل" Bell المجتمع ما بعد الصناعي بأنه مجتمع معرفي من خلال بعدين-:

أ- تنامي مصادر التجديد والاختراعات القائمة على البحث والتطوير وازدياد العلاقة الوثيقة بين العلم والتكنولوجيا وذلك بسبب مركزية المعرفة النظرية .

ب- أصبحت مؤشرات معدل الناتج القومي ونوع العمل قائمة بصفة كبيرة على الحقل المعرفي ويتجلى ذلك بوضوح في طبيعة تقسيم المهن التي تركز على الخدمات المعلوماتية.

لذا فكلا البعدين السابقين المعرفي والتقني هما أساس تحديد التصنيف الفئوي من حيث طبيعة المهن الرئيسية في مجتمع المعلومات. ويمكن تفسير ذلك بفهم البعد الاجتماعي لفئات الأفراد العاملين في مجالات المعلوماتية. يعتقد بيل Bell أن استخدامات المعلوماتية تشمل فئات عديدة منهم الصفوة في الطبقة الوسطى ثم الطبقة الغالبة وهم من المشتغلين في تقنية المعلومات والدارسين. على الرغم من ذلك فهناك اختلافات بينية في مجتمع المعلومات حيث تتاح الفرصة لبعض الأفراد للقيام بأدوار وظيفية ومهنية قائمة على الاستفادة من تطبيقات تقنيات المعلومات بحيث تصبح لهم درجة عالية من النفاذ لاستخدام أدوات تكنولوجيا المعلومات وعلى النقيض من ذلك لا تتاح مثل هذه الفرص لأفراد آخرين بسبب تدني مستوى المعيشة لاعتبارات اقتصادية وثقافية.

ويمكن القول أن هناك علاقة طردية بين الأبعاد المعرفية والتكنولوجية فى مجتمع المعلومات، فاجتماعهما معا يمثل سمة الألفية في هذا القرن ويتضح ذلك من اتجاه المجتمعات الآن إلى التخطيط المستقبلي الدائم والقائم على البحث العلمي والوعي الفردي لمتطلبات الغد وتنمية روح التجديد والابتكار. ويرتبط كل ذلك بالأخذ بأسباب التكنولوجيا الحديثة التي تنقسم إلى تقنية معلوماتية من حيث استخدام الكمبيوتر وتقنية اتصالية، لذا فأبعاد استشراف المستقبل التقني لا بد أن تضع في الحسبان عملية نقل التكنولوجيا، متابعة خطوات النمو التقني، معالجة العوائق والاهتمام بالعنصر البشري لأنه العامل الأساس والمحرك لتطور المجتمع وتحوله إلى مجتمع المعلومات .

وفي ضوء ما سبق، يرى "بيل" Bell ضرورة وجود وسائل ضبط اجتماعي للتحقق من مدى وعي الأفراد بالعمل على تطوير آليات استشراف المستقبل، وفي هذا السياق يبرز دور المؤسسات الحكومية كأحد هذه الوسائل الاجتماعية المعنية بالتطور والتحول المجتمعي، ويذكر "بيل" عدة مهام تتعلق بالأبعاد المعرفية والتكنولوجية في مجتمع المعلومات منها: تحديد الاتجاهات البناءة في المجتمع والتي تؤثر في عامل الاستفادة التقنية والمعرفية، تحليل بعض المشكلات التي قد تنجم عن التحول المجتمعي، وجوب استشراف المستقبل خاصة لطبقة وفئات عمال.

ويتأسس على هذه المهام بعض الإشكاليات التي يحاول "بيل" Bell تفسيرها مثل السياقات التنظيمية المتغيرة للمعلوماتية ومثال ذلك مدى توافق الأنظمة البيروقراطية مع أنماط ومستحدثات تكنولوجيا المعلومات والاتصال، ثانيا تغير أنماط الاتصال بسبب التقنية الحديثة. ويرتبط بهذه السياقات التنظيمية المتغيرة تطور أنواع المعرفة بسبب دخول المعلوماتية إلى هذه السياقات، فهناك المعرفة المهنية والعقلية والمعرفة العابرة ويقتبس بيل هذه التصنيفات من ماتشلوب Machlup لأن نظرية دانيال بيل تقضي بأن مجتمع المعلومات الذي يروج له قائم على أساس معرفي وفي هذا الشأن يرى أن حالة المعرفة والوعي الذاتي هما من العوامل الأساسية لفهم ماهية مجتمع المعلومات التي تحدد سماته هذه العوامل-:

- تزداد حاجة الأفراد للمعرفة عن حاجة الإنسان لعلاقته بالمجتمع .
- تتسق علاقة ما بين الأفراد نتيجة لوجود منظومة علمية وتعليمية قائمة على روافد المعلوماتية.
- يتم اقتطاع جزء كبير من موارد هذا المجتمع لتوجه إلى تلبية الحاجات المعرفية التي تشبع حاجات الأفراد.
- يتم الاستفادة من التقدم المعرفي في تطوير وتحقيق أهداف الأفراد داخل المجتمع ومثال ذلك المجتمعات الغربية.

وفي ضوء هذه العوامل السابقة وفي ظل العلاقة الطردية بين الأبعاد المعرفية والتكنولوجية يحاول بيل Bell معالجة قضية استشراف المستقبل من خلال البعد التقني وفى الإطار العام لمجتمع المعلومات. فلا يمكن تجاهل تأثير التكنولوجيا سواء الاتصالية أو المعلوماتية في الأنساق الاجتماعية، فهذه التكنولوجيا تعمل على رفع مستوى المعيشة من خلال زيادة الإنتاجية وتكوين طبقة جديدة من المهنيين طبقا لحاجة العصر ومع استخدام التكنولوجيا تقل التكاليف، بالإضافة إلى تغير نمط التفكير وظهور شبكات التفاعل الاجتماعي.

وحتى يتسنى للباحثين فهم قضية التغير الاجتماعي في ظل تطور تقنية الاتصال تناول بيل موضوع الأبعاد الاجتماعية لمستقبل تقنية المعلومات، فقام بتحديد العوامل المساعدة في هذا الاتجاه-:

- الوعي بالتناقضات والاتجاهات المجتمعية والتي تتطلب إعادة تعريف لطبيعة الأنساق الاجتماعية ومدى تشابك العلاقات البينية بها.

- استقراء معدلات التغير المستقبلي داخل المجتمع من خلال تحليل المعلومات المطلوبة.

- التوافر الكمي للمعلومات مما يتيح الفرصة للدراسة المستفيضة لمكونات القطاعات المجتمعية وبناءا على ذلك يمكن تخطيط الاتجاهات من خلال أبعاد زمنية متسقة.

ويشير "بيل" Bell لأنواع أساليب التوقع المستقبلي للتقنية كما طورها Ralph Lenz وهي الاتجاه الاستقرائي ، تناظرات النمو ، ارتباط الاتجاهات التوقع الديناميكي والمقصود به استخدام النماذج. ويعتمد الاتجاه الاستقرائي على فكرة المنحنيات الصاعدة والهابطة. وهذا الاتجاه قائم على سلسلة من الاستنتاجات محتملة الوقوع ولكنها غير ملاحظة وأحد أمثلة هذا الاتجاه هو قراءة الماضي جيدا وتخيل المستقبل من خلال عملية "توقع خطى" والاتجاه الأخير هو دراسات الانتشار الذي يعتمد على الأبعاد الزمنية حيث يوضح تاريخ معدلات التغير منذ فترة دخول التكنولوجيا وتطورها[1].

ملامح فكر ما بعد الحداثة:

لا يبتعد فكر ما بعد الحداثة في كافة تفاصيل سيرته، وبخاصة في الراهن، عن تجسيده لتآكل ثم انهيار المشروعات الكبرى (مشروع دولة الرفاه في الغرب، والمشروع السوفيتي، ومشروع التنمية في بلدان الجنوب.، وتعاظم قوة الإنتاج التقني، وتزايد نذر العولمة). حيث يقترح " أنتوني غيدنز" مفهوم " الحداثة الراديكالية " Redicalized

---

[1] انظر: دانيال بيل (١٩٩٨). مرجع سابق. وكذلك: ولد أباه، السيد (٢٠٠١). اتجاهات العولمة إشكاليات الألفية الجديدة. بيروت: المركز الثقافي العربي، ص ٤-٩. قوي، بو حنية (٢٠٠٩). عصر المعلومات وآثاره الاجتماعية: المكونات والمؤشرات السوسيوثقافية. مؤتمر تقنيات الاتصال والتغير الاجتماعي، الرياض: جامعة الملك سعود . مع إضافات لمراجع أخرى دون في كل صفحة مما لا يخل إنشاء الله بأصل المقالة الرئيسة.

modernity بدل الحداثة، اعتبارا من أن ما تم إعلانه بوصفه ما بعد حداثة لا يشكل بالضرورة قطيعة مع الحداثة، بل هو نسخة راديكالية أو متنامية منها، تساعد على ظهور مجتمع تعددي حقيقي، يقوم على الديمقراطية متعددة المستويات، وعلى إلغاء العسكرة وأنسنة التقنية على أن ذلك لا يعني رؤية " غيدنز" لما بعد الحداثة، وكأنها تحمل نفس سمات الحداثة، ويضرب مثالا على ذلك بأن الذات، وهي مقولات أساسية في فكر الحداثة، يمكن رؤيتها من المنظور ما بعد الحداثة بوصفها :"متحللة أو منعزلة بفعل تفتيت التجربة "، بينما تعتبر في إطار الحداثة : " أكثر من موقع للقوى المتقاطعة، نظرا لأن الحداثة قد أتاحت عمليات نشطة لانعكاس الهوية الذاتية" [١].

وأكد عالم الاجتماع الأمريكي "رايت ميلز" Mills C. Wright في نهاية الستينات، على تحول العالم إلى ما بعد الحداثة، أو ما أطلق عليه «الفترة الرابعة » بعد «الفترة الحديثة »، أي أنه لا يعني فشل مشروع الحداثة، بل فشل نوعها الذي أنتج ظاهرة الجمهرة والتلاعب بالديمقراطية في الغرب، والدوجماتية الستالينية في الشرق، وأشار إلى أن هذه الفترة الرابعة ستشهد: «انهيار تفسير العالم، القائم على الليبرالية والاشتراكية، النابعتين من أفكار عصر التنوير، وستصبح فكرة الحرية والعقل مشكوكا فيها. إذ لعل زيادة العقلانية لن تضمن ارتفاع مكانه العقل »[٢] .

كما يشير " سمير أمين" أن ما بعد الحداثة مشروعا تحرريا، نشأ عندما تخلى الفكر الفلسفي عن طابعه الميتافيزيقي، الذي كان يؤكد على أن هناك نظاما يحكم الكون ويفرض نفسه على الطبيعة والتاريخ، كما كان الأمر سائدا في العصور القديمة، لتجيء الحداثة فتعمل على بلورة الوعي بالتقدم، وتحقق أعظم إنجازات الإنسانية إن على المستوى المادي أو الديمقراطي أو الأخلاقي، برغم حدودها وانتكاساتها، وبما يترتب عليه من النظر إليها لا كمعطى نهائي، بل كصيرورة متواصلة، وإن ارتدت أشكالا لا متباينة، طبقا لإجاباتها على التحديات التي يواجهها المجتمع، أو بما كشفت عنه تطبيقاتها منذ السبعينات من ضعف شديد، وعجز عن تقديم بديل تنموي لبلدان

---

[١] Stanford Giddens ، A. : The consequences of modemity p. 3. university press, Stanford، ١٩٩٠،

[٢] Wright, Mills, C (1961)..The Sociological imagination .New York, P. 62

الجنوب. ويرى سمير أمين أن ما يلازم سيادة ما بعد الحداثة في المجال النظري، إنما هي حركات ردة تدعو إلى العودة لما قبل الحداثة، وهو ما يعني تنازلها في مجال صنع التاريخ، والهروب أمام التحديات الحقيقية، ومن ثم فهي لا تعدو أن تكون تجليا طوباويا سلبيا، خاصة حين تقبل في النهاية الخضوع لمقتضيات الاقتصاد السياسي للرأسمالية في المرحلة الواهنة، مكتفية بوهم، إمكان إدارة هذا النظام بأسلوب إنساني. وبالتالي ما بعد الحداثة يرتبط بسياق أزمة انهيار مشروع بناء الاشتراكية ومشروع الدولة الوطنية، وما تؤدي إليه من تشتت في الفكر الاجتماعي، ويقترن بأيدولوجيا الليبرالية المعولمة، ويعد بالوصول إلى مجتمع قائم على الوفاق العام والتحرر من الصراع الإيديولوجي، وهو ما يبدو لدى البعض من روادها، ممن تحدثوا عن «نهاية الإيدولوجيا»، وحاولوا فصل مفهوم "العقلانية "عن مفهوم «التحرر» [1].

نظرية ما بعد الحداثة ترى أنه ليس هناك ذات مستقلة عن حقيقتنا الاجتماعية. فالثقافة والمجتمع يصنعان (يخلقان) الأفراد كما يخلقان أفكارهم واتجاهاتهم. ومن طرق صياغة المجتمع للأفراد اللغة. أي أن الإنسان يتفاعل دائما مع الحقيقة من خلال اللغة. فكل النشاطات العقلية، قائمة على اللغة، فنحن نفكر من خلال الكلمات ونتواصل من خلال الكلمات. والناس مرتبطون بالحقيقة من خلال الأسماء التي يعطونها لإدراكاتهم وأفكارهم. وهذه الأسماء، التي هي عبارة عن كلمات، تطلق بشكل عشوائي (أو اتفاقي) من المجتمع. وكلما ازدادت أفكارنا تجريدا، وغالبا ازدادت أهمية، كلما ازددنا اعتمادا على الكلمات لإعطاء المعاني. فإذا كانت اللغة هي طريقة الناس للارتباط بالواقع فلا بد إذن أن نفهم طبيعة اللغة. وحيث أن للغة منطق قائم على أسلوب التركيب فليس لدينا طريقة لمعرفة إلى أي مدى تؤثر لغتنا في إدراكنا. فنحن نسمي أشياء نراها في الطبيعة (أسبابا) ونسمي أخرى (نتائج) لكن من أين لنا أن نتحقق من أن تلك الأشياء أسباب أو نتائج، أم أننا فقط أطلقنا تلك الكلمات بطريقة اتفاقية (عشوائية) على أشياء يمكن أن ينظر لها بطريقة مختلفة. فيزعم أنصار ما بعد الحداثة أنه ليس هناك طريقة لمعرفة ما إذا كانت قوانين اللغة هي نفس القوانين التي تحكم الواقع.

---

[1] أمين، سمير (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ١٧.

إذاً مجتمع ما بعد الحداثة يعتمد كثيرا على اللغة في طرحه لأفكاره، فما دامت اللغة غير قادرة على أداء المعنى، وما دام النص يمكن تفسيره بعدة تفسيرات وليس هناك مرجع معتمد لترجيح معنى على الآخر، وحتى لو حاولنا هذا الترجيح فسيكون عن طريق اللغة نفسها. وما دامت الحقيقة هي ما تؤديه هذه اللغة، واللغة يبنيها المجتمع، فليس هناك إذن حقيقة مطلقة. فما بعد الحداثة تتركنا غرقى في الشك، محاصرين بما أسموه "سجن اللغة". فالواقع ـ بالنسبة لهم ـ تبنيه أو تعرفه الثقافة واللغة ولا يكتشف بالعقل والملاحظة. فالإنسان في ما بعد الحداثة لا يولد، بل يحدد ويعرّف بواسطة مجتمعه وثقافته. والإجماع الثقافي يحدد ويعرف الواقع. والإنسان يذوب في البنى الاجتماعية التي تحتم كل شيء[1].

إن الحداثة الحقيقية بكل أبعادها الثقافية والمعرفية والاقتصادية والاجتماعية، هي العلاقة التكاملية التي تحرضها المنافسة الحرة المنتجة في كل حين، يقوم بها إنساناً يحمل عقلاً تكاملياً قادراً على استيعاب محددات التنمية والتحديث وأدواتهما، وليست مؤشرات التحديث متمثلة بعدد المدارس والجامعات والمصانع وكميات المواد المباعة والمستهلكة، وعدد الصحف والكتب والمطابع وعدد العمال والطلاب ...الخ فهذه العوامل وغيرها، وإن كانت تشير إلى وجود الحداثة، فإنها ليست إلا إشارة أولية وظاهرية تتبع القراءة الأولى، لأن القراءة العميقة للحداثة تقول لنا: إن الحداثة تحضراً عملياً وقبل أي شيء بنوع المنتج وهويته، ونوع المصنع وصانعه، ومتوسط الدخل ومقداره، ونوع المادة التدريسية والمكتوبة ومستوى المعلم والمتعلم والقارئ، وطبيعة الخطاب السياسي ونوعية العلاقات الاجتماعية وبناهما، وتركيبة عقليات أفراد المجتمع، وكيفية التعامل بين الأدنى والأعلى والعكس، وأفقياً على مستويات المجتمع والاقتصاد. إذن فالحداثة فكرة، أو هي تمتلك أفكاراً أساسية، هذه الأفكار عبارة عن مشاريع تنموية صممت لصالح المجتمع ولتلبية مطالب أفراده وحاجاتهم، وحين لا تنتقل الأفكار من مجالها الذهني إلى المجال العيني التطبيقي، فلا فرق بينها وبين غيرها من أفكار التخلف والتجهيل، كلها محمولات ذهنية، أما عندما تفرغ الأفكار نفسها في

---

[1] العرابي، عبد القادر، والعمري، عبيد (١٤٢٢). مرجع سابق، ص ٩٩.

قوالب مادية حسية على هيئة مصانع ومنتجات وخدمات اقتصادية وسياسية واجتماعية، عندها فقط تصبح حداثة وتقدماً وحضارة[١].

والواقع أن النصف الثاني من القرن العشرين نقلنا إلى ما بعد الحداثة، فأخذ القطاع الحديث ينمو سريعا، ويتمثل باستقطابه لغالبية الأيدي العاملة في المجال التقني، وتميز المجتمع الجديد بانخفاض أسبوع العمل الذي بات نصف ما كان عليه مع بدايات الثورة الصناعية، وازدياد أهمية التعليم. ومن أبرز عوامل التقدم التقني تقنيات الاتصال الجماهيري الهائلة والمتنوعة التي تضخ بلا انقطاع الأفكار الجديدة والصور والأحاسيس[٢].

إن تفكيك الحداثة يبين تغيرات سلبية متزايدة، منها المركزية وتنميط المواطنين وإخضاعهم لعمليات التوجيه السياسي والتخطيط الاقتصادي، ويترافق معه ضمور الحس الخلقي والإحساس بالمسؤولية الشخصية. وتسعى حركة ما بعد الحداثة إلى تحطيم السلطة القاهرة للأنساق الفكرية الكبرى المقامة على ادعاء القدرة في تفسير كلي للظواهر وإلغاء الفروق الحقيقية بين الأفراد والشعوب، ومقولاتها الرئيسة تنادي بإرساء مبدأ المعرفة، وعدم قبول تعميمات تنطبق على كل الثقافات[٣].

---

[١] انظر: الجابري، محمد عابد (١٩٩٩م). المسألة الثقافية في الوطن العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. وكذلك: جمعة، محمد (٢٠٠٢م). حداثة العرب وعرب الحداثة - إشكالية الدور والعلاقة. دمشق: منشورات وزارة الثقافة. وكذلك : بدوي، فاطمة (١٩٩٩). تقنيات الاتصال الحديثة مقاربة ثقافية- سوسيولوجية. بيروت: دار مكتبة الجامعة اللبنانية.

[٢] انظر: مقالة (الحداثة العالمية). في كتاب : توميلسون، جون (٢٠٠٨). العولمة والثقافة. ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد. الكويت، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٣٥٤)، ص ٤٩-٩٨. والذي تناول تاريخية الحداثة والحالة الثقافية والاجتماعية لما بعد الحداثة، والجدال الفكري الدائر حول إلغاء مفهوم المجتمع الحديث واستبداله بمفهوم المجتمع العالمي.

[٣] للمزيد حول حول طبيعة التغير الثقافي وسماته وخصائصه في مجتمعات الحداثة وما بعد الحداثة انظر: ديفيد هارفي (٢٠٠٥). حالة ما بعد الحداثة بحث في أصول التغير الثقافي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة. وكذلك راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب. وكذلك راجع مقالات تيسير الناشف (٢٠٠٥). في كتابه: النشاط الفكري والتغير الاجتماعي. عمان: دار أزمنة للنشر والتوزيع.

وحول آثار ما بعد الحداثة على مجمل الحياة الاجتماعية تشير بعض أدبيات الفكر الاجتماعي إلى أن ما بعد الحداثة هي نتاج لأزمات وردة فعل لأوضاع مجتمعية شهدها المجتمع الأوروبي، وتشكلت في ثقافة أمريكية بدأ انتشارها في " القرية الكوكبية" المزمع تكوينها تحت قيادة مركزية. وكان لهذه الأوضاع آثار سلبية على تعزيز اتجاه ما بعد الحداثة كحركة نقدية للمرحلة المعاصرة. ويمكن استخلاص تلك الآثار كما يلي:

١- تحويل العمل الإنتاجي- حتى في مجال الفن والثقافة- إلى طابع سلعي هابط يتسم بطابع تجاري في المقام الأول. وهنا نجد على سبيل المثال أفكارا حول الثقافة الراقية والثقافة الشعبية.

٢- تشويه العلاقة بين الثقافة والمجتمع.

٣- تفريغ الأعمال ما بعد الحداثة من الذاكرة التاريخية أي البعد عن الأصالة.

٤- تفريغ الثقافة من مضمونها السياسي والمجتمعي.

٥- غياب المعايير والأخلاقيات، بل فقدان معايير الضبط الاجتماعي.

٦- التحول من الاهتمام بالعقل إلى التركيز على القوة والسلطة. حيث لم يعد الهدف هو الصدق الواقعي، بل أصبحت الأداتية هي القصد النهائي[1].

ولعلنا نختم هذه الجزئية بما يراه بعض المنظرين الحداثيين وما بعد الحداثيين أن ما يتحكم في عالم اليوم هو وسائل الإعلام الاتصال الحديثة التي " تنزعنا" من ماضينا ومن جوانب كثيرة من حاضرنا. ويضيف هؤلاء عن مجتمع ما بعد الحداثة يتسم بدرجة عالية من التعدد والتنوع. ومن هنا فإن العالم الذي نعيشه ونشاهده في وسائل الاتصال الحديثة مثل التلفاز والفضائيات والأفلام والصور والمواقع الإلكترونية زاخر بالأفكار والقيم المطروحة للتداول، ولا صلة له بتاريخ المنطقة التي نعيش فيها. إننا كما يقول مجموعة من المنظرين:" إننا نعيش في عالم يتشكل ويعاد تشكله باستمرار. فالإنتاج الجماعي، والمستهلك الجماعي، والمدينة الكبيرة، والدولة البوليسية المهيمنة، والعقارات السكنية

[1] حجازي، أحمد (١٩٩٨). مرجع سابق، ص ٢٠٣-٢٠٤.

الواسعة، والدولة الوطنية، كلها قد بدأت بالانحسار. بينما تتصاعد مستويات المرونة، والتنوع، والتباين، والحراك، والاتصال، واللامركزية والتدويل، وفي تلك الأثناء، تتعرض هويتنا ومفهومنا لذاتنا ومشاعرنا ومواقفنا الذاتية لسلسلة من التحولات، إننا نمر في مرحلة انتقالية إلى عصر جديد [1].

علم الاجتماع وما بعد الحداثة:

الافتراضات العلمية لعلم الاجتماع :

قامت فلسفة التنوير على أسس مخالفة لما كان سائداً من قبل، كاستجابة لتطورات في مجال العلم والصناعة، وتحول اهتمام المفكرين بنقد الأوضاع والمجتمع، وفي مجال العلم حلت المعرفة العلمية محل العقيدة اللاهوتية كوسيلة للوصول إلى الحقيقة وتزايد الاهتمام بدراسة الطبيعة الإنسانية وبالمجتمع . وفي نهاية القرن الثامن عشر تزايدت مشروعات وخطط العلوم الاجتماعية وبرز افتراضان أساسيان يشترك فيهما كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية هما :

١) الافتراض الأول: بات هدف علم الاجتماع اكتشاف القواعد العامة وأصبح نموذج العلم يقوم على إنجاز وحدة التحليلات والمفاهيم من خلال تقليل سيطرة النزعة الاجتماعية والإنسانية؛ وتحويلها إلى قواعد وقوانين علمية . وأصبحت المعرفة العلمية راسخة في الخطاب الموسع .

٢) الافتراض الثاني : اقتنع الفلاسفة بإمكان توظيف علم الاجتماع لتحقيق التقدم الاجتماعي . ومن شأن (أ) رفض الأحكام المسبقة وغير الواقعية حول الطبيعة الإنسانية والمجتمع والتاريخ . (ب) بسبب التقدم العلمي تمكن الإنسان من صياغة النظام الاجتماعي طبقاً لخصائص الطبيعة وطبقاً للمعطيات التاريخية .

ويقول Seidman & Wagner : من الطريف أن نرى أن نجاح علم الاجتماع في وصوله إلى علم أكاديمي مؤسسي أدى - ربما بطريقة خاطئة -إلى نقد مشروع الحداثة ذاته " . إن اعتماد علم الاجتماع على مصادر تمويلية عامة وخاصة لتمويل البحوث

[1] أنتوني غيدنز (٢٠٠٦). مرجع سابق، ص ٧١٧.

الاجتماعية أظهر الشكوك في مصداقية أهدافه التي يسعى إليها . لقد لاحظ ستفين ترنر (Stephen Turner) مثلاً عدم الاتساق بين النتائج التي توصلت إليها الدراسات الاجتماعية التي أجريت خلال القرن العشرين . ومع ذلك فقد كان من نتائج هذه الدراسات أن ظهرت حركة نقدية متميزة ركزت على قضايا المنهج، وظهرت الدعوة لإعادة النظر في موقف العلم الاجتماعي بهدف إزالة الشك والغموض الذي انتاب هذا العلم في جانبيه النظري والمنهجي. ولإعادة فهم التاريخ والمجتمع بشكل جديد[١].

حيث كما يشير البعض يتعين على علم الاجتماع أن يغير من طبيعته تغييراً جذرياً حتى يتسنى له تبني اتجاهات ما بعد الحداثة. خاصة وأن ما بعد الحداثة تقاوم اندماجها في علم على درجة عالية من التباين والتدرج والتخصص والموغل في أصوله وأسسه في الوضعية التقلدية كما هي عند " كونت، دوركايم، فيبر". وبل يتساءل اتجاه ما بعد الحداثة، عن أحقية العلوم الأكاديمة في أن تحتفظ ببقائها خاصة في إطار الوضعية؟. كما تعترض ما بعد الحداثة على:

- استقلالية علم الاجتماع بما في ذلك اختلافه عن العلوم الإنسانية الأخرى.
- اعتماده المكثف على منهج يحاول به حل مشكلاته الفردية.
- يرفض اتجاه ما بعد الحداثة إضفاء الطابع الرياضي على العالم حتى لو أقرت بصحة الرياضيات باعتبارها أحد أشكال الخطاب. دون تقليل من المناهج الكمية.
- أن تفسيرات الفاعلين الاجتماعيين لخبراتهم يمكن أن تتحول إلى رموز ذات معنى يمكن الإمساك بها. وهم بذلك شأنهم شأن تفسيرات الخبراء.
- إعادة تعريف العوم الإنسانية والدراسات الثقافية بطريقة تخلط الحدود التقليدية بين العلوم ، وتؤمن بالتداخل بين العلوم. وتنظر إلى التباين بين العلوم أنه تباين تحكيمي[٢].

ويرتبط علم الاجتماع بالحداثة بعلاقة مزدوجة، فمن ناحية كان علم الاجتماع نتاجاً للحداثة وانعكاساً لها، وهو - من ناحية أخرى- محاولة لوصف المجتمع الحديث

---

[١] حجازي، أحمد (١٩٩٨). مرجع سابق. لنتعرف على الحركة النقدية العربية انظر: شرابي، هشام (٢٠٠٨). الحركة النقدية الجديدة. مجلة إضافات، العدد (١)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت.

[٢] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٤٤٣.

وتفسيره. والجدول التالي يبين العلاقة بين الحداثة وعلم الاجتماع حيث يوضح الجدول كيف أن الحداثة أنتجت علم الاجتماع وصاغته وشكلته.

الحداثة	علم الاجتماع في القرن التاسع عشر
تقدم العلم	علم الاجتماع هو علم " كونت، دوركايم، ماركس"
التأكيد على العقل	يتبنى علم الاجتماع المدخل العقلاني
الإيمان بالتقدم	الإيمان بالتقدم
النظرة إلى العلماء على أنهم خبراء "موضوعيين" بالعلم الطبيعي.	يرى علماء الاجتماع أنهم خبراء موضوعيين بالعلم الاجتماعي
يسعى العلم إلى اكتشاف قوانين الكون	يسعى بعض علماء الاجتماع في المدرسية الوضعية إلى اكتشاف قوانين التاريخ والمجتمع.
يطبق العلم النظرية التطورية للكشف عن نظم التصنيف التطوري	يصنف علماء الاجتماع المجتمعات على "بسيطة، تقليدية، حديثة".
النظرة إلى الكائنات الإنسانية على أنها قادرة على امتلاك سيطرة أكبر على الطبيعة والبيئة.	يثق علماء الاجتماع في إمكانية تطبيق معرفتهم بالمجتمع في التوجيه العملي له (التخطيط- السياسة).
النظرة إلى العمل والعلم على أنهما قادرين بدرجة كبيرة على تحسين أوضاع الإنسان، أي تحقيق التقدم	يثق علماء الاجتماع أنه بوسعهم المساعدة في فهم المشكلات الاجتماعية وحلها، أي أنهم يسهمون في التقدم.
النظرة إلى الحكومة والدولة على أنهما أساسيتين في إحداث التقدم التحسين الاجتماعي	يتوقع علماء الاجتماع أن يطلب منهم تقديم المشورة للحكومة بشأن كيفية تحقيق أهدافها.
الحركة الرومانسية تدافع عن الطبيعة ضد ما آتى به العلم التطبيقي ، كما أنها تضع التقدم موضع المساءلة.	تطور علم الاجتماع التأويلي كبديل عن الوضعية، ليؤكد المعنى تمييزاً عن الأداء الوظيفي.
مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٢٢.	

الموقف الحالي للنظرية الاجتماعية:

لم يكن تيار ما بعد الحداثة هو نهاية بالنسبة للحوارات الدائرة حول النظرية الاجتماعية، بل ربما كان هذا الحوار من العوامل التي أسهمت بقسط كبير في ظهور تيار مضاد قام من أجل الدفاع عن المشروع العلمي . ومعارضة أفكار ما بعد الحداثة باعتبار جنوحها عن العلمية وأنها تؤدي إلى " الفوضوية " و " اللاتحديد " و " اللاعقلانية " و"اللامعنى " . بل طالب بعض نقاد ما بعد الحداثة بضرورة إعلان فشلها فهي نزعة لا بد أن تنتهي إلى العدمية .

يقول " إيان كريب " إننا نتحدث عن علم اجتماع ما بعد الحداثة معناه، أن نخرج من علم الاجتماع الذي هو نفسه " ما بعد الحداثي" إن جاز لنا التعبير، وهذا يعني ضمنا العودة إلى شيء شبيه بالتفسير السببي، حتى لو كانت العمليات السببية غامضة هنا وغير محددة. وبعد تحليله لبعض أطروحات ما بعد الحداثة والمتمثلة في تقييمه لأعمال "جيمبسون، وهارفي، وأنتوني غيدنز" إن نظريات ما بعد الحداثة يمكن أن تقول لنا أشياء أكثر من مجرد تصويرها لمعنى أن نعيش. فهناك إحساس حقيقي بأنها تقول لنا شيئا عن العالم، لهذا يمكن اعتبار نظريات ما بعد الحداثة نظرية بالمفهوم التقليدي. فمن المستحيل الأن مثلا عدم أخذ بعض المفاهيم التي أدخلتها إلى النظرية الاجتماعية مأخذا جديا مثل مفاهيم وسائل التمثيل، أو قضية اللغة، أو اللغات المتعددة التي نعبر بها عن أنفسنا، أو تحدد ما نعبر عنه. وأن المعاني ليست ثابتة ثباتا أبديا، بل مرتبطة بعملية تغير مستمرة في علاقاتها ببعضها البعض. وبالمثل فنحن لا نستطيع التمسك لفكرة المعرفة الثابتة التي قامت استنادا على وسائل علمية صارمة[1].

وتدرس النظرية الاجتماعية لما بعد الحداثة، العالم الاجتماعي من منظورات متعددة تشمل الطبقة، والسلالة، والنوع الاجتماعي وغيرها من محددات الانتساب إلى الجماعة. وفي ذات الوقت ترفض النظرية الاجتماعية المزاعم الشمولية لأنساق التفسير الكبرى كالماركسية التي حاولت تحديد المبادئ البنائية المحورية، التي تفسر جميع أنواع الظواهر الاجتماعية المتباينة (مثل نظرية ماركس في منطق رأس المال)، وما بعد الحداثة

[1] إيان كريب (١٩٩٩). مرجع سابق، ص ٢٨٧-٢٨٨.

اتجاه مضاد للنزعة الاختزالية، كما أنها اتجاه تعددي في أولوياته السببية وفي سياساته التي تبدو ليبرالية أكثر منها راديكالية. ولا تثق ما بعد الحداثة في الراديكالية والراديكاليين، وهي تفضل المعرفة اللامركزية المتاحة ليس فقط على مستوى وحدة معلومات مركزية، وإنما متاحة أيضاً للناس المشغولين بالعالم من منظورات لا اختزالية من واقع خبرتهم[1].

وترتاب ما بعد الحداثة ارتياباً شديداً من العلوم الاجتماعية التي تكثف جهودها في وجهة نظر محددة إلى العالم، وترفض ما بعد الحداثة إمكانية التصور دون فروض مسبقة، وتذهب إلى أن جميع المعارف تتحدد بسياقها التاريخي والثقافي. ويستحيل قيام علم اجتماع تعميمي عند مستوى معين، لأن الأوضاع الذاتية المختلفة للناس والجماعات لا يمكن قياسها في مقابل بعضها البعض. فمثلاً لا يوجد لدينا طريقة نحكم بها في قضية من هم الأكثر اضطهاداً هل هم النساء أم الملونين. ومن المهم بدلاً من ذلك أن نفهم كيف تشكلت الخبرات المختلفة لدى النساء أو الملونين، بالخطاب " الممارسات" التي تشكل خبرات النساء أو الملونين في فترة تاريخية معينة. ويصبح العلم الاجتماعي تفسيراً للخبرات الاجتماعية من هذه المنظورات المتعددة للخطاب " الممارسات" بدلاً من كونه مشروعاً تراكمياً يلتزم باستنتاج المبادئ العامة للبناء والتنظيم الاجتماعيين. وبالتالي ترفض ما بعد الحداثة قيام علم اجتماعي يلجأ إلى أساليب معرفية معينة تتحدد بواسطة تعدد الأوضاع الذاتية للناس[2].

والآن، وبعد هذا العرض لأدبيات ما بعد الحداثة ونقادها، تبرز أمام الباحثين في علم الاجتماع تساؤلات شتى حول الموقف الحالي لهذا العلم ورؤية مساره في المستقبل، في ضوء الحركة النقدية لما بعد الحداثة وما أثارته من ردود أفعال ورؤى متباينة . ولعل أهم هذه التساؤلات :

١- ما البديل للنظريات الاجتماعية العامة؟ وكيف يمكن حل مشكلة العلاقة بين الفكر والواقع؟

٢- كيف يتم التوفيق بين العلم والسياسة والثقافة ؟

---

[1] عبد الجواد، مصطفى (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٤٢٢.

[2] مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ٤٣٤.

٣- هل يمكن صياغة نظريات اجتماعية كلية تأخذ في اعتبارها الموقف والسياق التاريخي؟

٤- إلى أي حد يوجد علم اجتماع موحد وإلى أي حد توجد علوم اجتماعية قومية وإقليمية متمايزة ؟

٥- يقول "سميلزر" : إن علم الاجتماع المعاصر يشبه قطعة الفسيفساء المعقدة التي تحتوي على قوى اجتماعية وفكرية عامة وخاصة، عالمية وإقليمية، لكن على المرء أن يقر بوجود ميل نحو التقارب بين المواقف النظرية حيث نلاحظ :

أولاً : اتجاه النظريات الاجتماعية، التي كانت تعد اتجاهات متعارضة على المستوى المجرد، إلى الالتقاء .

ثانياً : بذلت محاولات جادة في علم الاجتماع المعاصر، في سبيل الوصول إلى شكل من أشكال التركيب النظري[1] .

[1] انظر: Lash, (1990). The Sociology of Pest- Modernism . London: Routledge.

ما بعد الحداثة وعلم الاجتماع

ما بعد الحداثة "الحداثة المتأخرة"	علم الاجتماع
الاهتمام الانعكاسي بالآثار للعلم التطبيقي على الطبيعة والبيئة والإنسانية.	الاهتمام الانعكاسي بالآثار للعلم التطبيقي على الطبيعة والبيئة والإنسانية.
الوعي المتنامي بالمخاطر والآثار السلبية غير المقصودة لمسيرة التقدم	يبتعد علماء الإجماع عن النظريات التي تدل دلالة ضمنية على التقدم مثل الماركسية والليبرالية، وأصبح علماء الاجتماع أقل تزمتاً وأكثر وعياً بالصلات بين القيم الذاتية والأخلاقية والبحث العلمي.
حدوث عملية العولمة.	تطور علم اجتماع العولمة.
الاهتمام المتزايد بما هو ثقافي: الاتصال، الاستهلاك، أسلوب الحياة.	يركز علم الاجتماع تركيزاً متزايداً على القضايا الثقافية، إلا أن بعضاً من علماء الاجتماع يصرون على أن الرأسمالية لا تزال هي النظام الأساس الذي يجب تحليله.
الشك في السياسة والحكومة التقليدية، وتنامي سياسة الحياة.	تحول الاهتمام من الحكومات المركزية إلى الحركات الاجتماعية وأسلوب الحياة.
الاتجاه إلى رفض النظرة إلى العالم في سياق التعارض، والبحث عن الترابط.	يسعى علم الاجتماع بشكل متزايد إلى إظهار التمازج العميق بين الثنائيات المفترضة مثل الفرد - المجتمع، الذاتي- الموضوعي، ولذلك ينظر علم الاجتماع إلى العلاقة بين الفرد والمجتمع على أنها علاقة عملية بدلاً من النظر إليها في سياق تأثير أحدهما على الآخر.
بزوغ الإحساس المتزايد بالمسئولية عن الطبيعة والبيئة.	تزايد اهتمام علم الاجتماع بالبيئة وعلاقة الإنسان بها. وبداية تطور علم اجتماع ما بعد الحداثة.
مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٢٨.	

ولعل الكثيرين من الباحثين وضعوا كثيراً من التساؤلات لماهية البحث العلمي في ما بعد الحداثة ، منها:

١- هل تمثل ما بعد الحداثة فترة يكون فيها ثمن التقدم - أي التدمير البيئة - أكثر أهمية من تحقيق مزيد من التقدم المادي؟
٢- هل حلت قضايا الثقافة- المعرفة كل القضايا الاقتصادية والمادية كأحد الملامح المميزة لمجتمع ما بعد الحداثة؟
٣- هل حدثت العولمة بالفعل، أي هل يوجد رأي حاسم في ماهية الاتصال التي أنتجت مجتمعاً كونياً؟
٤- هل تضاءلت أهمية المسائل الطبقية مقارنة بمسائل النوع الاجتماعي، السلالة- العرق، والجنسية، وغيرها من الأسس الأخرى للهوية؟
٥- هل أصبح الفراغ- الاستهلاك أكثر أهمية من العمل- الإنتاج[١]؟

النظرية الاجتماعية والتحولات الحضارية[٢]:

إشكالية المنهج في علم الاجتماع:

إن الحديث عن علم الاجتماع هو في الواقع حديث عن المنهج إلى حد لا بأس به. ولعمري إننا إزاء إشكالية رافقت ميلاد السوسيولوجيا حينا من الدهر ولما تزل منذ ابن خلدون وإلى يومنا هذا. ولو دققنا في تاريخية العبارة الشهيرة" العمران البشري والاجتماع الإنساني" التي هي: " علم مستنبط النشأة... والكلام فيها مستحدث الصنعة " لوجدنا أنها في سياقها وحقيقتها ليست سوى تقنية منهجية في كتابة التاريخ بأسلوب خلدوني مبتكر. فمنذ عهد " المقدمة " لم تعد كتابة التاريخ سردا للوقائع والأحداث أو الإخبار عن العمران والأحوال. ولئن كان التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار فهو عند ابن خلدون " في باطنه نظر وتحقيق ".

لا ريب أن هذه المنهجية نقلت علم التاريخ من طور التزييف والنقل واللاموضوعية إلى طور منهجي جديد يعتمد المشاهدة والقياس والتثبت وإعمال العقل، وهي تقنيات عبر عنها ابن خلدون بـ" المطابقة " كقانون " في تمييز الحق من

---

[١] مصطفى، عبد الجواد (٢٠٠٢). مرجع سابق، ص ١٣٠.

[٢] أصل هذه الجزئية مقالة بعنوان: حجازي، أكرم (٢٠٠٥). علم الاجتماع وفوضى الاجتماع. مجلة العلوم الإنسانية، العدد ٢٣.

الباطل في الإخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه...هذا هو غرض الكتاب الأول من تأليفنا ". هذا ما يصرح به ابن خلدون، وهو ما حدا به إلى لوم المؤرخين ومعاتبتهم بل إلى توجيه نقد لاذع وصارم لمن مارس منهم كتابة التاريخ عبر النقل الأعمى ولمن زلّ إرضاء لذاتيته أو انحيازاً لهذا الطرف أو ذاك في تزلف صارخ للسلطة ميز كل عصر ومنها عصر ابن خلدون الذي اشتهر بالعفن السياسي في بلدان المغرب العربي خاصة.

والآن، أليس حري بنا أن نتساءل عما إذا كان ابن خلدون ربما يكون قد اكتشف منهجاً وليس علماً؟ أو على الأقل بالقدر ذاته الذي اكتشف به علماً؟

إن الحد الأقصى للإجابة يتجرأ على اعتبار السوسيولوجيا هي في الحقيقة علم في المنهج موضوعها "العمران البشري والاجتماع الإنساني ". وهذا الاعتبار ليس مقامرة بقدر ما يعبر عن حقيقة إشكالية معقدة نشأ علم الاجتماع الحديث بين ظهرانيها ابتداء من أوجست كونت الذي خاض صراعاً مريراً لتأكيد فعالية مناهج التفكير الوضعية على حساب المناهج الماورائية والتجريدية ووضعه أسس ومعايير لسلامة البحث العلمي وعلامات فارقة لقياس التقدم الاجتماعي، وحتى إميل دوركايم الذي أخذ على عاتقه وأنصاره تثبيت علم الاجتماع ومجابهة أطروحات المدرسة النفسية التي أنكرت وجود ظاهرة اجتماعية، فما كان منه إلا التحصن بالأدوات المنهجية لا سيما الإحصائية منها والتي تمكن بواسطتها من هزيمة المدرسة النفسية وتوجيه ضربة ساحقة لها عبر بحثه "الانتحار".

أما الحد الأدنى فيقر بوجود إشكالية من هذا القبيل ساقت علم الاجتماع الحديث إلى مجاهيل معقدة ومتشعبة تشبه في نشأتها الآلية التي تشتغل بها النظرية المالتوسية. فالجماعات والمجتمعات يتوالدان ويتطوران بما لا يتناسب البتة وحجم الظواهر الاجتماعية الناشئة عن التحول في العمران البشري أو المصاحبة لأي اجتماع إنساني.

مثل هذه الوضعية تدفعنا للتساؤل عما إذا كان بمقدور السوسيولوجيا أن تفسر لنا تعاقب الأجيال والدول والحضارات والحركات السياسية والعصبيات بأكثر مما فعل ابن خلدون؟

في واقع الأمر، وكسوسيولوجيين عرباً، يبدو الأمر وكأننا لا نجد رصيداً معرفياً أبلغ أثراً وثراء مما خلفه لنا ابن خلدون، وإلا فلماذا يجهد الفكر السوسيولوجي العربي بإحياء التراث الخلدوني لا سيما المتعلق منه بالمجتمع والدولة؟ ولماذا يستعين السوسيولوجيون العرب بالفكر الخلدوني لمحاربة الحركات الإسلامية؟ ألأن ابن خلدون يصرح بأن نظام الخلافة الإسلامي كان مرحلة في التاريخ الإسلامي ليس إلا ؟. ولنتساءل ثانية: هل نحن إزاء معرفة اجتماعية كافية لتطور السوسيولوجيا؟ ألا يبدو الرصيد المتوفر منها بارعاً بإثارة كل لبس وإبهام؟

إذا كانت الإجابة بنعم، فبماذا نفسر ولادة علم اجتماع المعرفة؟ وهو العلم الذي أدخل السوسيولوجيا في أزمات خانقة على الدوام لم ينج منها أحد من المشتغلين به سواء كانوا طلبة أو باحثين أو حتى أساتذة وعلماء؟ فالكل بات يعاني من اللبس والإبهام والغموض، الأمر الذي أدى إلى التقوقع وتأخر مسيرة البحث العلمي وبالتالي تراجع مكانة السوسيولوجيا عالميا كما أقر بذلك مؤتمر مدريد ١٩٩٤م.

على أية حال فأيا كانت التقسيمات المتعلقة بالنظريات الاجتماعية فالكائن منها، حتى وإن كان، ضمن أشكال الموجودات المختلفة في العالَم الاجتماعي، يسمح بالتمييز بين المجتمعات والفاعلين، فإننا في الواقع لسنا بصدد نظريات متباينة فحسب بالقدر الذي نحن مضطرون فيه للتعامل مع كل نظرية طبقاً لمنظومتها المعرفية ولرؤيتها المنهجية عن العالَم الاجتماعي الذي لا يمكن للمنظومة ذاتها أن تتواجد دونه. ويكفي أن نعقد مقارنة بين دوركايم وماكس فيبر لنرى الطريقة التي يفترق فيها كل منهما عن الآخر حين تحديده لماهية المجتمع وسبل دراسته.

فالمجتمع عند "دوركايم" هو شيء أكبر من مجموع الأفراد المكونين له (مبدأ الكلية الاجتماعية)، وبالتالي فهو المحدد لسلوك الفرد والجماعة، أما الظاهرة الاجتماعية فهي مستقلة عن الفرد وعن الذات العارفة والمنهج الرياضي الكمي هو الوحيد الذي يستطيع إعطاءها دلالة (ظاهرة الانتحار).

أما "ماكس فيبر" فينطلق من الفاعل الاجتماعي لتفسير الظاهرة الاجتماعية وليس من المجتمع، والظواهر الاجتماعية ليست مستقلة عن الفرد والجماعة بل هي

مرتبطة بسلسلة من الظواهر الاجتماعية التي يصعب فهمها وتفسيرها إلا في إطار شمولي يمس حتى الذات العارفة التي لها حق المشاركة في بناء الدلالات، هذه الذات تتدخل في الظاهرة من خلال تقنية النموذج المثالي. غير أن الطفرة الهائلة في المنظومات المعرفية لا تعني بأي حال من الأحوال العلمية والموضوعية في علم الاجتماع وكأننا بصدد قطيعة معرفية على طريقة دوركايم - تارد. في هذا السياق بالضبط يجيء النقد الذي قاده كارل بوبر في الأربعينات من القرن العشرين ضد أولئك الذين يجهدون في العمل على حشر علم الاجتماع ضمن منظومات معرفية تستجيب فقط لأطروحة دوركايم أو ما يعبر عنه بالنظرية الوضعية. لهذا يحث بوبر على وجوب التنوع مؤكداً في الوقت نفسه استحالة وجود نظرية اجتماعية واحدة شاملة بمقدورها التصدي للمجتمعات والظواهر الاجتماعية على الدوام.

هذه الدعوة تنطلق من فرضية أن المعرفة الاجتماعية تتكامل وإن بدت في الظاهر متخارجة، فعلى الرغم من الاختلاف الظاهري بين المنظومات والمناهج إلا أن أحداً لا يمكنه إحداث قطائع إبستيمولوجية بينها. فكثير من العلماء مثلا يرون أن دوركايم وفيبر يكادان يتطابقان، بل أن رواد البنائية الوظيفية أمثال روبرت ميرتون وقولدمان وفي مقدمتهم "بارسونز" لا يرون في البارسونزية (ومثلما يصرح بذلك بارسونز نفسه) إلا مواءمة بين دوركايم وفيبر.

ولو أخذنا ظاهرة البيروقراطية أيضا كموضوع للبحث لكان قصوراً منهجياً حاداً سيتعرض له أي باحث يتناول هذه المسألة ولا يضع في الاعتبار تراث فيبر وميشيل كروزيه في الصدارة على مستوى المفهوم والمنهج بالرغم من أن سوسيولوجيا كل منهما مختلفة اختلافا جذريا عن الآخر. فالأول (فيبر) ذو منهج فريد لا يشاركه فيه أي عالم اجتماع آخر حتى اللحظة، والثاني ينتسب إلى النظريات الجزئية النازعة إلى التعميم عبر علم اجتماع التنظيم.

هذه الأمثلة في النظرية الاجتماعية تدفع بأهل العلم والمعرفة إلى الإقرار بأن التحولات الاجتماعية هي التي تستدعي البحث عن المزيد من المنظومات المعرفية وهي التي تخلق المناهج التي تلائم المستجدات من العالَم الاجتماعي، وتلك هي سنة التطور

العلمي، أما الآن فعلينا أن ننتقل إلى المحور الثاني والتساؤل عن مكانة الدولة والمجتمع في ظل حشد من المعرفة الاجتماعية.

فوضى الاجتماع الإنساني:

على خلفية تفكك المجتمع الإقطاعي وظهور المجتمع الرأسمالي والإنسان الميكانيكي في القرن التاسع عشر اجتاحت أوروبا فكرة النماء والتقدم، أما تراكم رأس المال وتطور قطاعات الاقتصاد والمواصلات والاتصالات فقد دفعت بالعربة الاستعمارية إلى الانطلاق محتمية في الظاهر بفكرة نشر المدنية بين الأمم والشعوب المتخلفة ومبطنة أهدافها في البحث عن أسواق جديدة للثروة. في هذه المرحلة من الزمن كانت الدولة في صدارة الفعل والاهتمام، وبات شعار النماء والتقدم ملازما لها وليس للمجتمع، فهي التي تسيطر على جميع مناحي الحياة الاجتماعية، وهي المعنية ببناء المؤسسات وسن التشريعات وتقنين الحياة وإدارة عملية التنمية والتحديث. أما المجتمع فقد غدا يترنح تحت وطأة الضربات الساحقة التي باتت تسددها له الدولة عبر النخب الرأسمالية المتنفذة التي تحالفت علنا معها، وبات المجتمع عاجزاً عن مواجهة حمى التحول من نمط تقليدي إلى نمط حديث.

في هذه المرحلة أيضا انقسم الفكر الاجتماعي بين "دفاعي" و "محافظ". وها هو "كارل ماركس" يجهد في الدفاع عن المجتمع ضد الطبقات المهيمنة من أصحاب رؤوس الأموال ويبشر بانهيار الرأسمالية وولادة مجتمع العدالة الاجتماعية (المجتمع الاشتراكي). أما إميل دوركايم (وكذلك مارسيل موس وباريتو وغيرهم) فقد لعب دور المصلح الاجتماعي ورفض أن يقيم كبير وزن للصراع الاجتماعي إلا كعلاقة اجتماعية تعبر عن تحول إيجابي على مستوى النسق العضوي. فالوضعية الطبيعية لهذا النسق تتسم بالضرورة بالتوازن والثبات. إنها حقا رؤية جامدة لا تعترف باختلال النسق ولا بزواله لأنها كانت تريد أن تفسح المجال أمام الدولة في قيادتها للتحول. وحتى البحث العلمي في المجتمعات المتقدمة اتجه نحو فهم المجتمع من خلال الدولة وتركيبتها وسلوكها وتوجهاتها وليس من خلال المجتمع.

إلا أن "دوركايم" توفي سنة ١٩١٧م قبل أن يلاحظ ملياً أن الدولة الرأسمالية ستغدو متوحشة في الداخل وعدوانية بالخارج، وبالتالي فالنسق لن يهتز فقط بل هو معرض في بعض الأحايين إلى الزوال. هذا ما تبوح به النسقية الحديثة من قلب الرأسمالية العالمية ومن خلال بارسونز ذاته، هذه النسقية عملت على إخراج النسق من حالة الجمود والسكون إلى حالة النشاط والفاعلية، وباعتباره بنية علاقات صراعية قد تؤدي في لحظات إلى اهتزاز وربما انهيار كامل.

هكذا نلاحظ أن النسقية التقليدية قدمت الدولة على المجتمع فيما أعادت النسقية الحديثة بعض الاعتبار للمجتمع ولكن دون أن تسمح له بتجاوز الدولة. وفي المحصلة كان للنسقية الحديثة آثار كارثية على المجتمعات الضعيفة، فالاعتراف باختلال وظيفي في النسق أعقبه تدخلات عنيفة وتهديدات من قبل الرأسمالية العالمية بغية الاحتفاظ بالهيمنة والاستغلال والتبعية وشيوع لظاهرة الاستعمار على نطاق واسع.

وظلت وضعية المماثلة بين المجتمع والدولة قائمة إلى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التي شكلت تداعياتها فيما بعد نذيرا بفك الارتباط بين هذه الصيغة لا سيما بعد أن أثبت المواطن الأوروبي جدارته في الحروب ودفع ثمنا باهظاً فيها. بهذا المعنى أيضاً والذي رافقه إعادة الإعمار شكلت النسقية الحديثة ذاتها نذيراً بقرب زوال نظرية المماثلة، وفعلياً فقد أزفت ساعة الانزواء لعصر الإنسان الميكانيكي بدخول البشرية عصر الثورة الصناعية الذي أنتج صيغة المجتمع الصناعي المبرمج، ولم يمض سوى عقد واحد حتى ظهر المجتمع ما بعد الصناعي أو المجتمع التكنولوجي الذي دشنته تقنية الكوارتز مطلع الستينات من القرن العشرين. ولقد بات واضحاً في الأثناء تقدم المجتمع على الدولة بل وسطوته عليها عبر المؤسسات السياسية الكبرى والمصانع الضخمة والشركات المهيمنة والعابرة للقارات وعبر الاستثمارات الهائلة في مجال التصنيع والإنتاج والعلم وإعادة الإنتاج. إنه المجتمع الذي: " ... لا يتوقف عن التحول والتبدل، مجتمع توجهه وتحدد اختياراته واستراتيجياته وإرادته... مجتمع يشتغل على نفسه وبمقدوره التأثير في اختيارات الدولة واستراتيجياتها ".

وكان من الطبيعي أن تنفجر سلسلة من النظريات الاجتماعية التي أخذت على عاتقها دراسة التحولات الاجتماعية الجذرية التي طرأت على إجمالي الحياة الإنسانية والتفتيش عن منظومات معرفية ومنهجية جديدة بمقدورها التصدي لظواهر كبرى غير معهودة في التاريخ الإنساني، فظهرت البنيوية بحلتها الجديدة على يد العالم "بيير بورديو" وظهر علم الاجتماع الدينامي من خلال أعمال "ألان تورين"[1]. وظهر علم اجتماع التنظيمات لميشيل كروزيه وتطورت كل مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولم تعد الكثير من النظريات الاجتماعية التقليدية قادرة على دراسة الأحوال الجديدة للعمران إلا في حدود ضيقة أو معينة حتى النظرية الماركسية عجزت عن مواكبة التحولات بعد أن تجاوزتها الظواهر المستجدة وباتت النبوءة القائلة بحتمية اتجاه التطور الضروري نحو نماذج سياسية متماثلة من نوع المجتمع الاشتراكي في ذمة التاريخ، فالمجتمعات بحسب "جورج بالانديه": " لم تعد كما كانت تبدو على السطح أو في الظاهر بل بما هو كائن في أعماقها وهو ما لم تستطع النظريات الماورائية ملاحظته ولا الوصول إليه " وحسب عالم اجتماع آخر هو "روي باسكر": " فللمجتمعات عمق أنطولوجي، ففيها مستويات من الوجود تحت ما يظهر على السطح، أبعد مما يبدو للعيان. وهذه المستويات التحتية ذات أهمية خاصة لأنها تستطيع أن تفسر ما هو ظاهر لنا".

هكذا إذن انتهت المماثلة بين الدولة والمجتمع خاصة مع تقدم الليبرالية على حساب كل الأيديولوجيات وفي مقدمتها الفكر الشيوعي.

النظريات الاجتماعية التقليدية والعولمة:

في الواقع نحن نطرح السؤال ليس للإجابة عليه، بل لوضعه في السياق الموضوعي لعالَم اليوم، وهذا السياق تشخصه بعض المعطيات النظرية التي نذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

العولمة:

يمكن التفكير في العولمة انطلاقاً من توصيف يضع في مقدمته كل الموجودات والسلوكيات والترتيبات الإنسانية باعتبارها سلعاً في سوق مفتوحة تهيمن عليها القوى

---

[1] سنعرض لبعض تلك النظريات الحديثة في الفصول القادمة من هذا الكتاب.

العظمى، ففي ظل تكنولوجيا المواصلات والاتصالات الرهيبة لم يعد مقبولاً التحدث عن أنظمة اجتماعية مفتوحة وأخرى مغلقة ولا عن خصوصيات ثقافية ولا عن هذا وذاك، وفي هذا السياق تأتي الحاجة إلى وجود منظمة للتجارة العالمية وغيرها من المنظمات المماثلة. ثمة سوق واحد فقط هو السوق الرأسمالية وسلع تمثل البنية التحتية لما بات يسمى بالنظام الدولي الجديد. وتأسيسا على ذلك لما نفكر في علم الاجتماع علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار السوق كأبرز ظاهرة في عصرنا الراهن، وأن كل الظواهر الإنسانية منبثقة عنه بالضرورة. وإذا كان من الضروري أن نتحدث عن قيم الحداثة الموصوفة زورا وبهتانا بالكونية فليس الآن ثمة قيم كونية غير قيم السوق. وهذه القيم ليست سوى سلع معروضة للمتاجرة إما بهدف تطويرها وتحقيق أقصى فائض من الربح على حسابها كالسلع المادية والتكنولوجية والعلمية ودون مراعاة لأي جانب أخلاقي في استثمار العلم ومنتجاته، وإما لإتلافها وتصفيتها باعتبارها سلع ضارة تؤثر في استقرار السوق كالقيم والمبادئ والأخلاق وحقوق الإنسان والشعوب المضطهدة أو المستعمَرة.

انهيار الحضارات:

إن تعبير المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما عن نهاية التاريخ تعني أن الإنسانية قد وصلت بالرأسمالية إلى قمة التطور الإنساني، وهي نتيجة تؤشر على نزعة هيمنة وتدخل لا حدود له حتى لو استدعى الأمر تصادم حضاري على طريقة مواطنه صموئيل هنتنجتون في أطروحته الشهيرة عن صدام الحضارات. والصراع هنا يتعلق بمدى اندماج هذه الثقافة / الحضارة أو تلك بنظام السوق أو لا.

اختفاء الدولة:

ثمة أمر لافت للانتباه هنا، فالأيديولوجيا الماركسية التي تجسدت كقوة مادية في صيغة دول عظمى حينا من الزمن قد انهارت فعلا، ولكنها كفكرة يبدو أنها في طريقها إلى القمة وبمحتوى رأسمالي هذه المرة ويا للمفارقة! ففي آخر مراحل الفكر الشيوعي يتحدث ماركس عن وجوب اختفاء الدولة وعدم الحاجة إليها في ضوء الوعي الإنساني الذي يكون قد بلغ ذروته من التنظيم والمسؤولية. ولأن العولمة ترتكز أساسا على السوق ومنتجاته فماذا بقي من المجتمع أو الفرد أو الدولة؟ وماذا بقي من قيم السيادة أو القانون أو الخصوصيات أو... في عالم تحكمه وتوجهه قيم السوق؟

النظرية الاجتماعية والتنبؤ بمثل هذه الوضعية:

الجواب نعم. فالوظيفية الجديدة التي قادها عالم الاجتماع الأمريكي "روبرت ميرتون" بدءا من خمسينات القرن العشرين تقر بأن المجتمعات باتت مفتوحة ولا حواجز بينها، وبعد وفاة "بارسونز" ظهر تيار أميركي سنة ١٩٧٩م يتحدث بنفس الصيغة ويعتقد بقوة بنظرية النسق المفتوح وفي هذا الصدد يصرح عالم اجتماع بريطاني هو "أنتوني غيدنز" (٢٠٠٦) بالقول: " إننا نخطئ حين نفكر في المجتمعات واستمرارها كما لو أنها تحدها الحدود الجغرافية" وما يفضله هو الحديث عن " أنساق مفتوحة ". وزاد في ذلك حيث يشير إلى أن الواقع النظري لعلم الاجتماع مشروع مذهل وشديد التعقيد لأن موضوعه الأساس هو سلوكنا. ولأنه كذلك. فإنه يتسم بالاتساع الذي يراوح بين تحليل اللقاءات العابرة بين الأفراد، واستقصاء العمليات الاجتماعية. وبينهما تنتظم لائحة هائلة من المسائل التي تكاد تغطي مختلف جوانب حياتنا كأفراد أو كجماعات تنضوي في إطار مجتمع سياسي. وبعد تأمله في الأطروحات والمدارس التنظيرية في علم الاجتماع، وما قد يترتب عليه من مأزق، يؤكد "أنتوني غيدنز" (٢٠٠٦) إلى تواضع المشتغلين بهذا الحقل والكف عن إعطاء تفسيرات شاملة وعريضة للظواهر الاجتماعية، ويفضل بدلاً من ذلك، ما يسمي بنظريات المدى المتوسط وفق تعبير عالم الاجتماع روبرت ميرتون. وأنه كلما كانت النظريات الاجتماعية أكثر اتساعاً وشمولاً وطموحاً، ازدادت صعوبة اختبارها بشكل تجريبي في الواقع العملي. وفي خضم المساجلات والتباينات الدائرة بين علماء الاجتماع تبين أن المأزق الحقيقي هو في النظرية في علم الاجتماع المعاصر، والذي يتمثل في عدة قضايا وجوانب رئيسة وهي: الأول: الفعل البشري (البنية والفعل) والذي أخذ حيزاً كبيراً من تطوير النظرية الاجتماعية منذ تداول هذا المفهوم من قبل دوركايم. والثاني، الإجماع والصراع. والذي انقسم فيه الباحثون إلى فريقين، فريق يرى أن المجتمعات البشرية تميل للنظام والانسجام، وفريق يرى أن ما يميز المجتمع البشري هو عنصر الصراع. والثالث، تمثل في مشكلة الجنوسة ما بين اتجاه يرى أنها مقولة ثابتة دائمة، ومن يقول أن الجنوسة مقولة عامة مسلم بها، تعبر الفوارق قائمة في أساسها على الصفات البيولوجية التي تسبغ الرجال والنساء. وهناك مآزق أخرى كمأزق تشكل العالم الحديث، وغيره.[1]

[1] راجع كتاب: أنتوني غيدنز (٢٠٠٦). علم الاجتماع. ترجمة فائز الصباغ. بيروت: المنظمة العربية للترجمة. انظر عرض لنظريات غيدينز في الفصل التاسع من هذا الكتاب.

هذه الرؤية لأنتوني غيدنز (٢٠٠٦) حول أنساق مفتوحة في علم الاجتماع تتفق إلى حد كبير مع أطروحات علم الاجتماع الدينامي (علم الاجتماع المستمر) كون عملية التحول والتبدل في المجتمعات المتقدمة لا تتوقف، بل وأكثر من ذلك أن ألان تورين[1] لا يعترف أصلاً بالحدود الجغرافية والسياسية كحدود اجتماعية لمجتمع ما. أليست الدعوة إلى أنساق مفتوحة هي لب العولمة؟ ثم أيهما يتقدم الآن على الآخر، المجتمع؟ أم الدولة؟ لا شك أنه إذا كان المجتمع فإننا سنتجه نحو صدام حضارات قطعاً، أما إذا كانت الدولة فنستطيع أن نطمئن قليلاً لأن العولمة مخيفة حتى للمجتمعات المتقدمة وليست القوى المناهضة لها في كل محفل دولي ببعيدة عن النظر.

أما علم الاجتماع فكعادته قد يبرع في تشخيص الواقع ولكنه في وضعه الحالي أبعد ما يكون حتى عن توقع الظواهر المحتملة لعالَم السوق هذا؟ ورحم الله عالمنا الجليل ابن خلدون حين قال: " إذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث". من الملاحظ أننا نعيش بواكير مرحلة فوضوية تصر قوى السوق فيها على إعادة البشرية إلى حالة من المشاع الإنساني القديم بكل عدوانيته وتوجسه ووحشيته، ولكن بطريقة أكثر عنفاً وشراسة إذا ما عرفنا أن صيغة المشاع هذه لا تتخذ شكل الجماعات الصغيرة البدائية التقليدية بل التجمعات الإنسانية الكبرى المتطورة جدا على شاكلة الولايات المتحدة وروسيا وأوروبا والصين والهند والبرازيل والمكسيك. ؟[2]

---

[1] انظر الفصل التاسع الخاص بالنظريات الحديثة في علم الاجتماع للتعرف على أطروحات ألان تورين.

[2] مثل هذه التصورات طرحها باحثون سابقون انظر:

عمر، معن (١٩٩٢) . نحو نظرية عربية في علم الاجتماع . عمان : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

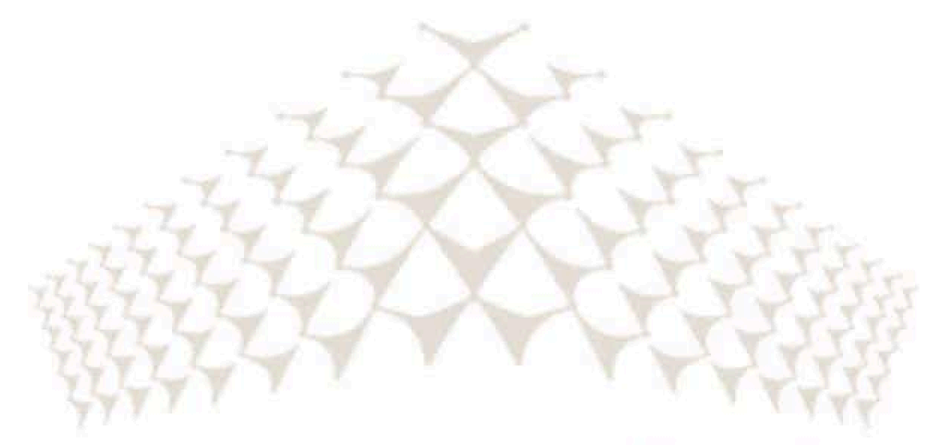
زايد، أحمد (١٩٩٦). آفاق جديدة في نظرية علم الاجتماع. المجلة الاجتماعية العربية، العدد (١-٢)، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة.

حجازي، محمد (١٩٨٥). الأزمة الراهنة لعلم الاجتماع في الوطن العربي. مجلة المستقبل العربي، العدد (٥)، مركز دراسات الوحدة العربية ، تونس ، ٦-٨٤.

عرابي، عبد القادر (٢٠٠٢). دراسات معاصرة في علم الاجتماع. الرياض: مكتبة الخريجي.

عبد المعطي، عبد الباسط (١٩٩٥). مرجع سابق، ص٣٠-٣٣.

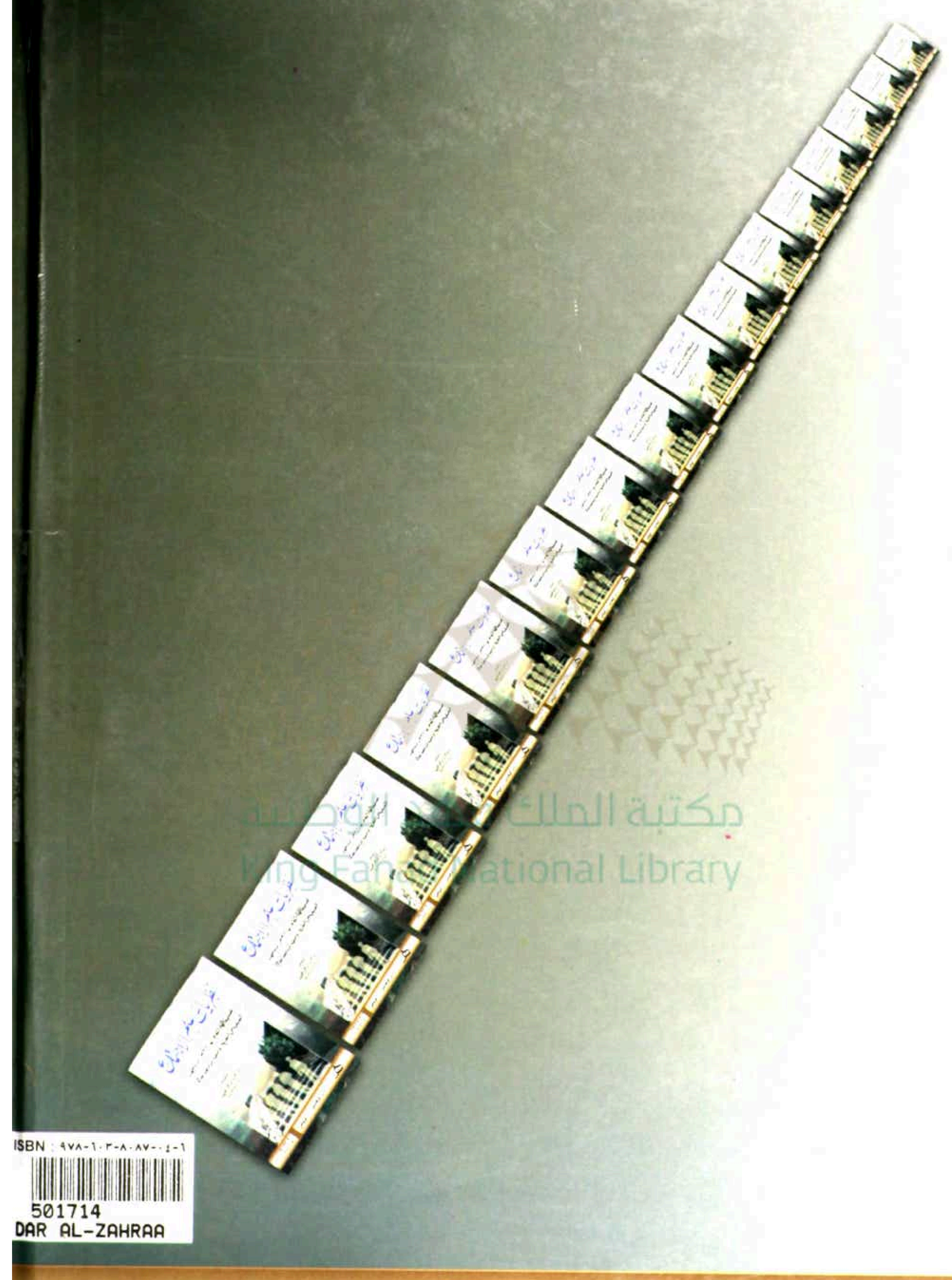
معتوق، فردريك (١٩٨٥). منهجية العلوم الاجتماعية عند العرب وفي الغرب. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.


مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library

فهرس المحتويات




دار الزهراء للنشر والتوزيع هاتف : ٤٦٤١١٤٤ ٤٦٥٩٥٣٨
مكتبة الملك فهد الوطنية
King Fahad National Library



ISBN : ٩٧٨-٦٠٣-٨٠٨٧-٠٤-١
501714
DAR AL-ZAHRAA

دار الزهراء
للنشر والتوزيع

الرياض . طريق مكة المكرمة
ت: ٤٦٤١١٤٤ - ف: ٤٦٥٩٥٣٧
ozahraa@hotmail.com dar_alzahraa@hotmail.com
www.daralzahraa.com.sa